



جَامِعَةُ دِمَشْقَ
مُطَبَّعَةُ الدِّرَاجِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ
قِسْمُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

إِلَهُكُمْ إِلَهُ الْبَسِلَةِ

شِعْرُ أَبِي تَمَّامٍ وَالْبُحْتَرِيِّ أُنْمُودَجًا

أُطْرُوحُهُ أُعَدِّسُهُ لِنَدِيدِ وَرَجْعَةِ الدُّرُورِ فِي الدَّوَلِ

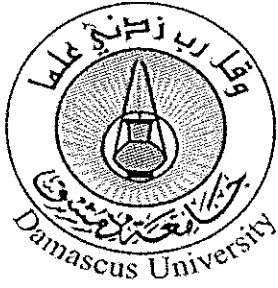
بِإِشْرَافِ

الْأَسْتَاذِ الدُّكْتُورِ مُحَمَّدٍ دَهْيَمِ ثُمَّ غَزَّةَ

إِبْعَادَادِ

سَيِّدِ لِيْمَانَ حُسَيْنِ الْعُمَيْرَاتِ

١٤٣٤ هـ
٢٠١٣ م



جَامِعَةُ دِمَشْقَ
كُلِيَّةُ الآدَابِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ
قِسْمُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

إِلَى هَيْثَم غُرَّة

شِعْرُ أَبِي تَمَّامٍ وَالْبُحْتَرِيِّ أُنْمُودَجًا

أُطْرُوحُهُ أُعِدَّتْ لِنَيْلِ وَرَجَةِ الدُّكْتُورِ فِي اللِّدَّةِ

بِإِشْرَافِ

الْأَسْتَاذِ الدُّكْتُورِ مُحَمَّدٍ هَيْثَمِ غُرَّة

إِعْدَادَ

سُلَيْمَانَ حُسَيْنِ الْعُمَيْرَات

١٤٣٤ هـ

٢٠١٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾

صَلَّى
الْعِظِيمُ

[النمل: ١٩]

دعاء بالرضوان لوالدي غفر الله له وجعل
هذا العمل في حسناته.

ولأمي الغالية كل البر والوفاء والطاعة.

خطة البحث

التأسيس النظري لفهوم الإيهام البلاغي

أولاً: مُصطلح الإيهام البلاغي.

ثانياً: مُستويات الإيهام.

ثالثاً: سُبُل الإيهام البلاغي.

رابعاً: وظائف الإيهام البلاغي.

خامساً: ضوابط إزالة الإيهام.

الباب الأول

من مواطن الإيهام في علوم البلاغة العربية

الفصل الأول

من مواطن الإيهام في فنون البديع.

تمهيد: فنون البديع، وصلتها بإيهام المتلقي.

جمالية إيهام المتلقي في فنون البديع الآتية:

حسن الابتداء وبراعة الاستهلال، فالإيهام، فالانتساع، فالهجاء في معرض المدح، وتأکید المدح بما يشبه الذم وعكسه، فالهزل الذي يُراد به الجدّ، فالتّهكُّم، فالتلميح، فالاستطراء، والجناس، فالتورية، فالاستخدام، فالتوجيه، فالإلغاز، فالمواربة، فالتوهيم، فالتجريد، فإيهام التوكيد، فإيهام التناسب، فالمشاكلة، فالاستدراك، فالأسلوب الحكيم، فالقول بالموجب، فالمشاركة، فالتفريق، فتجاهل العارف، فنفي الشيء بإيجابه، فتناسب الأطراف، فاللف والنشر، فإيهام التضاد.

الفصل الثاني

من مواطن الإيهام في علم البيان

تمهيد: الصورة البلاغية وصلتها بمفهوم الإيهام.

المبحث الأول: الصورة الموهمة (بين محاكاة العالم الخارجي، ومحاكاة عالم الشعور والوجدان الداخلي).

المبحث الثاني: إيهام الصورة البلاغية (التشبيه، والاستعارة، والمجاز).

المبحث الثالث: دراسة تطبيقية على إيهام الكناية والتعريض.

الفصل الثالث

من مواطن الإيهام في علم المعاني

المبحث الأول: الوقف والابتداء، وأثره في إيهام المتلقي أو إزالة الإيهام.

المبحث الثاني: عود الضمير، وأثره في إيهام المتلقي.

المبحث الثالث: الحذف، وأثره في إيهام المتلقي.

المبحث الرابع: الإنشاء الطلبي (القسم، والنهي، والأمر، والاستفهام)، وأثره في إيهام المتلقي.

الباب الثاني

دراسة تطبيعية لشعور الإيهام البلاغي

في شعر أبي تمام والبحتري

مدخل إلى دراسة الإيهام البلاغي في شعر الطائيين.

تعريف بالطائيين.

لماذا الطائيان دون غيرهما.

الفصل الأول

من ملامح الإيهام البديعي في شعر الطائيين

المبحث الأول: جمالية الإيهام البديعي في شعر الطائيين (تحليل نماذج).

المبحث الثاني: جمالية الإيهام بالتجنيس في شعر الطائيين (تحليل ومقارنة).

الفصل الثاني

من ملامح الإيهام بالصورة في شعر الطائيين

مدخل إلى إيهام الصورة في شعر الطائيين.

المبحث الأول: إيهام الصورة في شعر أبي تمام. ملاحظة: ذكر الزعم لدراسة الصورة عند أبي تمام

المبحث الثاني: إيهام الصورة في شعر البحتري. ملاحظة: خلال تحليل نص في نثر الدراسة عند البحتري.

الفصل الثالث

من ملامح الإيهام بأساليب المعاني في شعر الطائيين.

المبحث الأول: إيهام الاستفهام في شعر الطائيين.

المطلب الأول: إيهام الاستفهام، وأثره في إشعار المتلقي بانفعالات الشاعر.

المطلب الثاني: إيهام الاستفهام، وأثره في تشكيل الصورة الفنية.

المبحث الثاني: حرص الباحثي على إزالة الإيهام.

الخاتمة.

مُقَدِّمَةٌ

إنَّ المتأمل في أساليب البلاغة العربية يرى شطراً موفوراً منها يقوم على إيهام المخاطب؛ لانطوائه على ظاهر من المعنى وباطن، وقد يترأى له أفراد دراسة تُعيد قراءة البلاغة العربية من زاوية الإيهام؛ لعلها تُسهّم في تكوين اتجاه نقدي نحتكم إليه في نقد النصوص الأدبية من جهة إيهام المتلقي.

والمُطلِّع على كُتُبِ التراث لا يرى مَنْ أفرَدَ هذا النمط اللغوي الذي اصطَلَحنا على تسميته (الإيهام البلاغي) بدراسة مُستقلة، وإنما يجد اهتمام أسلافنا به مُشتتاً بين حقول معرفية مُختلفة؛ أسهم فيه علماء البلاغة والأصول والعقيدة والتجويد والحديث وغيرهم...؛ لأنَّ كُلَّ فريق تناوَلَ من الإيهام جزءاً يسيراً يتَّصل باختصاصه فحسب؛ فعلماء التجويد أفرَدُوا بحثاً للكلام على الوقف والابتداء الذي إن تأملته وجدت الغاية منه إزالة إيهام المخاطب غالباً، والفلاسفة أفاضوا في الكلام على الخيال والتخييل وهو من عناصر الإيهام البلاغي، والنُقَّادُ تَكَلَّمُوا في غُمُوضِ الشَّعْرِ ووضوحه وهذا من صميم قضية الإيهام، وعلماء الأصول تناوَلُوا الحقيقة والمجاز في حديثهم عن وضوح الدلالة وخفائها، وكذلك فعل علماء العقيدة في كلامهم على صفات الله تعالى وتأويلها، والمتصوفة أيضاً أثروا قضية الإيهام في جانبين: هما إبداع النص الموهم ذي الدلالات المتعددة، والتحليق في تأويل النصوص ذات الثراء الدلالي كالقرآن الكريم، وشرّاح الدواوين الشعرية أبدعوا في تلقي تلك النصوص الغامضة وتأويلها، وعلماء الحديث أصابوا سَهْماً في قضية الإيهام حين تكلَّمُوا على الحديث المُدَلَّس، أمّا البلاغيون فاصطلحُوا على تقسيم الأساليب البلاغية تقسيماً مدرسياً يَسَّرَ تعليمها، ولكنه أغفل الوظائف البلاغية التي تنهض بها تلك الأساليب، فغيبت قضية الإيهام في ثنايا مباحثه المتناثرة بين المعاني والبيان والبديع.

ومع ذلك لم يُفرد أحدٌ من المحدثين (الإيهام البلاغي) بدراسة تجمعُ أشتاتَه من حقولٍ معرفيةٍ مُختلفةٍ، وتردُّه إلى أحضانِ البلاغةِ العربيَّة، وتتناوُلُ صُورَه، وبواعثَه، ومستوياتَه، ووظائفَه، وجماليَّاتِه؛ فكانَ العزمُ على بناءِ دراسةٍ تُعيدُ قراءةَ البلاغةِ العربيَّة من زاويةِ إيهامِ المتلقِّي؛ أُعِدُّها لنيلِ درجةِ الدكتوراه في الآداب، على أن يكونَ لهذا البحثِ خُطواتٌ لاحقةٌ تُعالِجُ الجانبَ النَّقديَّ منه.

وكانَ لِزاماً أن تنضوي صُورُ الكلامِ المَبنيِّ على الإيهام والتَّعمية والتَّلبيس والتَّدليس واللَّحن والرمز والتَّخيل... تحتَ مُصطلحٍ يُمثِّلُها جميعاً، فاصطُلِحَ على تسميتها بـ (الإيهام البلاغي)، فكانَ واجباً على الباحثِ أن يُقدِّمَ تعريفاً إجرائياً لهذا المصطلح الجديد؛ يكونُ هادياً للقارئ، ومقياساً له في الحُكْم على أيِّ فنٍّ كلاميٍّ أهو من الإيهام البلاغيٍّ أم لا؟

ثمَّ كانَ لا بُدَّ من تأسيسِ نظريٍّ لهذا المصطلح الجديد، يتناول خمسَ نقاطٍ:

أولاً: المصطلح الجديد؛ وتعريفه تعريفاً إجرائياً، وبيان جُذوره في علم البلاغة، وفي حقولٍ معرفيةٍ أُخرى.

ثانياً: مُستويات الإيهام، وأنواعه.

ثالثاً: سُبُل الإيهام البلاغي؛ الصَّوتية، والكتابتية، والصَّرفية، والنَّحوية، واللُّغوية، والبلاغية.

رابعاً: الوظائف المعنوية والفنية للإيهام البلاغي.

خامساً: ضوابط إزالة الإيهام.

وقد تلا التأسيسَ النظريَّ بابان: نظريٌّ وتطبيقيٌّ، أمَّا النظريُّ فَمِنْ ثَلَاثَةِ فُصولٍ تتناولُ بالتَّحليل بعضَ مواطنِ الإيهام في علومِ البديع والبيان والمعاني، ولم يُقصدْ في هذا البابِ استقصاءَ مواردِ إيهامِ المُخاطَبِ في كُلِّ دَقيقةٍ من دَقائقِ الأساليبِ البلاغية، وإنَّما القصدُ منه رَسْمُ المنهج، ويُتركُ للدارسِ بعدَ ذلك تأمُّلُ الأسُسِ التي رَسَمها البحثُ وتطبيقاته عليها؛ ليجعلها مقياساً له في دراسةِ أساليبِ لُغويةٍ أُخرى لم نتوقَّفْ عندها.

استعملها ابنه هـ ٧٦١
مقتطعاته ٧٩٠ هـ

وأما التطبيق فيدرس بعض ظواهر الإيهام البلاغي في شعر أبي تمام والبحري باعتبارهما زعيمي
مدرستين مختلفتين في شعرنا العربي؛ لعلنا نتيّن أثر أتباع عمود الشعر والخروج عنه في إيهام
المخاطب.

والمنهج الذي اتبعته في البحث قائم على الاستقراء والتحليل والاستنباط، وفي التحليل استندت
إلى النظرية البلاغية العربية القديمة، وإلى النظرية النقدية العربية القديمة التي تحاكم الشعر بالنظر إلى
موافقته عمود الشعر أو مخالفته له، كما اعتمدت النظرية اللغوية العربية التي توضح نظام اللغة القائم
على نظرية العامل.

فلسفة الأدب

أما الشكر والعرفان بالجميل فلاستاذي المشرف الدكتور محمد هيثم غرة الذي رعى هذا
البحث من أول يوم عرضت فكرته عليه، وبقي يرسم أمامي طريقه، ويخط لي حدوده؛ فجزاه الله
عني أحسن الجزاء.

والشكر موصولاً للمساعدة أعضاء لجنة الحكم الأساتذة: الدكتور خالد الحلبي، والدكتور
خلدون صبح، والدكتور حسين الزعبي، والدكتور أيمن الشوا؛ لما ^{بذلوه} ساعدوا من جهد في قراءة هذا
البحث وإرشاد صاحبه؛ راجياً من الله تعالى أن أكون ممن ترضى أخلاقه في باب البحث
والاجتهاد.

دمشق - ٢٠١٣ م.

سليمان حسين العميرات

التأسيس النظري^١

لفهوم الإيهام البلاغي^٢

أولاً: مُصطلح الإيهام البلاغي.

أ - (الإيهام) في كُتُب اللُّغة.

ب - جذور المصطلح في علم البلاغة.

ج - ملامح المصطلح في حقول معرفية أخرى.

د - التعريف الإجرائي لمُصطلح (الإيهام البلاغي).

ثانياً: مستويات الإيهام.

ثالثاً: سُبُل الإيهام البلاغي.

أ - السَّبيل الصَّوتي.

ب - السَّبيل الكتابي.

ج - السَّبيل الصَّرفي.

د - السَّبيل النَّحوي.

هـ - السَّبيل اللُّغوي.

و - السَّبيل البلاغي.

رابعاً: وظائف الإيهام البلاغيّ.

من الوظائف المعنويّة للإيهام البلاغيّ

من الوظائف الفنيّة للإيهام البلاغيّ

- الإيضاح.
- إثراء الدلالة.
- السُّخرية.
- التَّهَرُّب من المواقف المُحرّجة.
- التَّلَطُّف ومُراعاة التَّهذيب الاجتماعيّ.
- التَّعمية على المُخاطَب أو السَّامع.
- المُحاجَجة والإقناع.
- إظهار كمال البراعة.
- إيقاظ المتلقّي ولَفَت انتباهه.
- تمكينُ المعنى في نَفْسِ المتلقّي.
- المُبالغة.

~~من الوظائف المعنويّة للإيهام البلاغيّ~~

خامساً: ضوابط إزالة الإيهام.

أ - القرينة اللَّفْظِيَّة.

ب - القرينة العَقْلِيَّة.

ج - القرينة الحَالِيَّة.

د - اجتماعُ القرينتين اللَّفْظِيَّة والعَقْلِيَّة.

أولاً: مُصطلحُ الإيهام البلاغي

شطرٌ موفورٌ من كلامِ العربِ قدامى ومُحدثين جارٍ مجرى الوحي والإيهام، تراهم يُشيرون إلى المعنى إشارةً، ويؤمنون إيهاماً، دونَ التّصريح، وهذا النمطُ اللّغويّ الذي يكونُ للكلامِ فيه ظاهراً وباطناً مُشعّبٌ مُتنوّعٌ تنوّعَ فنونِ القولِ وألوانِ الحياة، ولكنّه لم يُرزقْ بدراسةٍ تجمعُ أشتاتَه من حقولِ معرفيّةٍ مُختلفةٍ، وتردّه إلى أحضانِ البلاغةِ العربيّةِ، فكانت هذه الدّراسةُ، وكانَ لزاماً أن تنضوي صُورُ الكلامِ القائمةِ على الإيهامِ والإيهامِ والإيحاءِ والإيهامِ والتّلبسِ والتّدليسِ والتّعميةِ واللّحنِ والرّمزِ والتّخييلِ والإغماضِ والإشارة... تحتَ رايةِ مُصطلحٍ يُمثلُها جميعاً، اصطلاحنا على تسميته بـ(الإيهام البلاغي) أمّا الإيهامُ؛ فلائها جميعاً تقومُ على فكرةِ إيهامِ المُخاطَب، وأمّا البلاغيُّ؛ فلائ هذه الصُّورُ الكلاميّةُ تستمدُّ طاقتها الإيهاميّةَ من فنونِ البلاغةِ العربيّةِ كركوبِ التّوريةِ والتّوجيهِ والاستخدامِ والموازبةِ والتّهكُّمِ والتّلميحِ والكنايةِ والتّعريضِ والتّشبيهِ والحذفِ والفصلِ والوصل...، وكانَ لزاماً على الباحثِ أن يُقدّمَ لهذا المصطلحِ الجديدِ تعريفاً إجرائياً؛ يكونُ هادياً للقارئ، ومقياساً له في دراسةِ أيّ فنٍّ كلاميّ لم يتوقّفْ عنده البحثُ: أهو من الإيهامِ البلاغيّ أم لا؟ وقبل أن تقرّأ التّعريفَ الإجرائيّ لمصطلحِ (الإيهام البلاغيّ) لا بُدَّ من التّوقّفِ عندَ (الإيهام) في كُتبِ اللّغة، وفي كُتبِ البلاغةِ وغيرها؛ لنرى إلّامَ كانَ يُشيرُ مُصطلحُ الإيهامِ قبلَ هذه الدّراسةِ.

أ - الإيهامُ في كُتبِ اللّغة:

الوهمُ من خَطَرَاتِ القلبِ، والجمعُ أَوْهَامٌ. وتدلُّ الاستعمالاتُ اللّغويّةُ لأفعالِ الجذر اللّغويّ (وهم) ومُشتقاته على معاني الغلط، والتّخييل، والشّعور. فتَوَهَّمَ الشَّيءُ: تَخَيَّلَهُ وتمثَّلَهُ، كانَ في الوجودِ أو لم يكن. وتَوَهَّمَ: ظَنَّ وسَبَقَ ذهنُهُ إلى الشَّيءِ. وتَوَهَّمتُ الشَّيءَ: وتفرَّستُهُ وتوسَّمتُهُ وتَبَيَّنْتُه بمعنَى واحدٍ. ويُقالُ: وَهَمْتُ في كذا: أي غِلَطْتُ، وَهَمْتُ في الشَّيءِ أَهْمٌ: أي ذهبَ وَهْمِي إليه، وتَوَهَّمتُ: أي ظننتُ، وأَوْهَمْتُ غَيْرِي إيهاماً أَظننتُهُ، والتّوَهيمُ مثله^(١). فالإيهامُ هو التّغليطُ، أي أن تتلاعبَ بظنونِ إنسانٍ، فتذهبَ بظنونه إلى جهةٍ، والصّوابُ في جهةٍ أخرى.

(١) انظر: مادة (وهم) في تهذيب اللّغة، ومقاييس اللّغة، والمُحكّم، ولسان العرب، وتاج العروس.

ب - جذور المصطلح في علم البلاغة.

إِنَّ تَقْصِيَّ آثَارِ كَلِمَةِ (الإيهام) فِي مُصَنَّفَاتِ الْبَلَاغَةِ يُسَلِّمُكَ إِلَى أَنَّ الْبَلَاغِيِّينَ اسْتَعْمَلُوا هَذِهِ اللَّفْظَةَ فِي بَعْضَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: التَّوْرِيَةُ الَّتِي تُدْعَى أَيْضاً بِالتَّخْيِيلِ؛ فَالْوَطَاطُ (ت ٥٧٣هـ) يَقُولُ: «الْإِيهَامُ فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَى التَّخْيِيلِ، وَلِذَا يُسَمُّونَ هَذِهِ الصَّنْعَةَ [التَّوْرِيَةَ] بِالتَّخْيِيلِ، وَتَكُونُ بِأَنَّ يَذْكُرُ الْكَاتِبُ أَوْ الشَّاعِرُ فِي نَشْرِهِ أَوْ نَظْمِهِ أَلْفَاظاً يَكُونُ لَهَا مَعْنَيَانِ، أَحَدُهُمَا قَرِيبٌ، وَالْآخَرُ غَرِيبٌ، فَإِذَا سَمِعَهَا السَّامِعُ انْصَرَفَ خَاطِرُهُ إِلَى الْمَعْنَى الْقَرِيبِ، بَيْنَمَا يَكُونُ الْمَرَادُ مِنْهَا هُوَ الْمَعْنَى الْغَرِيبُ»^(١)، ثُمَّ مَثَّلَ عَلَيْهِ بِحِكَايَةِ حَصَلَتِ لِلْفِيلَسُوفِ الرَّئِيسِ ابْنِ سِينَا (ت ٤٢٨هـ)؛ أَنَّهُ كَانَ جَلَسَ يَوْمًا فِي السُّوقِ، فَاجْتَازَ بِهِ قُرُوءِيٌّ يَحْمِلُ عَلَى كَتِفِهِ حَمَلاً لِبَيْعِهِ، فَسَأَلَهُ ابْنُ سِينَا: بِكَمْ هَذَا الْحَمْلُ؟ فَقَالَ الْقُرُوءِيُّ: بِدِينَارٍ. فَقَالَ ابْنُ سِينَا: اتْرُكِ الْحَمْلَ هُنَا، وَاحْضُرْ بَعْدَ قَلِيلٍ؛ لِأَعْطَيْكَ ثَمَنَهُ. وَكَادَ الْقُرُوءِيُّ يُنْزِلُ الْحَمْلَ عَنْ كَتِفِهِ، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ يُحَادِثُ ابْنَ سِينَا، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، وَقَالَ: (إِنَّكَ حَكِيمٌ عَالِمٌ، فَلِمَ جِهِلْتَ أَنَّ الْحَمْلَ دَائِمًا فِي مُقَابِلِ الْمِيزَانِ؟ وَمَا دُمْتَ لَمْ تَزِنِ الْحَمْلَ فَلَنْ تَأْخُذَهُ إِلَى بَيْتِكَ..)، فَتَعَجَّبَ ابْنُ سِينَا مِنْ هَذَا الْكَلَامِ، وَضَاعَفَ لِلْقُرُوءِيِّ ثَمَنَ حَمَلِهِ. وَذَلِكَ أَنَا إِذَا نَظَرْنَا إِلَى لُطْفِ هَذَا الْكَلَامِ وَجَدْنَا أَنَّ خَاطِرَ السَّامِعِ يَنْصَرِفُ إِلَى (الْحَمْلِ) الَّذِي هُوَ مِنْ صِغَارِ الضَّأْنِ، وَإِلَى الْمِيزَانِ الَّذِي يَزِنُونَ بِهِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، بَيْنَمَا قَصَدَ الْقُرُوءِيُّ بِكَلَامِهِ (بُرْجَ الْحَمْلِ) وَ(بُرْجَ الْمِيزَانِ) اللَّذَيْنِ يَتَقَابَلَانِ دَائِمًا، فَقَالَ فِي ذَلِكَ نَادِرَةً مُنَاسِبَةً لِعِلْمِ الْحُكَمَاءِ؛ تَلِيقُ بِابْنِ سِينَا^(٢).

وَكَثِيرٌ مَنِ كَانَ يَدْعُو التَّوْرِيَةَ إِيهَامًا؛ كَالرَّازِيِّ (ت ٦٠٦هـ)^(٣)، وَالسَّكَّاكِيِّ (ت ٦٢٦هـ)^(٤)، وَالشَّهَابِ الْحَلَبِيِّ (ت ٧٢٥هـ)^(٥)، وَالزَّرْكَشِيِّ (ت ٧٩٤هـ)^(٦)، وَالسُّيُوطِيِّ (ت ٩١١هـ)^(٧)، وَكَذَا

(١) انظر: حقائق السحر ص ١٣٥.

(٢) انظر: حقائق السحر ص ١٣٦.

(٣) انظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ١٧٥.

(٤) انظر: مفتاح العلوم ص ٥٣٧.

(٥) انظر: حُسن التَّوَسُّلِ ص ٩٢.

(٦) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٤٤٥.

(٧) انظر: مُعْتَرَكُ الْأَقْرَانِ ١/ ٣٧٤، وَالْإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ٣/ ٢٥٠، وَشَرْحُ عَقُودِ الْجُمَانِ ص ١١٢، وَمَعْجَمُ

مَقَالِيدِ الْعُلُومِ فِي الْخُدُودِ وَالتَّرْسُومِ ص ١٠٢.

ذَكَرَهُ الشَّرِيفُ الْجُرْجَانِيُّ (ت ٨١٦هـ) فِي كِتَابِهِ التَّعْرِيفَاتِ^(١)، وَالْمَنَاوِي (ت ١٠٣٠هـ) فِي كِتَابِهِ التَّوْقِيفِ عَلَى مُهِمَّاتِ التَّعَارِيفِ^(٢)، وَقَدْ ذَكَرَ الْكَفَوِيُّ (ت ١٠٩٤هـ) فِي كِتَابِهِ الْكُلِّيَّاتِ أَنَّ الْإِيهَامَ: هُوَ إِيقَاعُ الشَّيْءِ فِي الْقُوَّةِ الْوَهْمِيَّةِ، وَهُوَ كَالْتَحْيِيلِ الَّذِي هُوَ إِيقَاعُ الشَّيْءِ فِي الْقُوَّةِ الْخَيَالِيَّةِ^(٣).

وِثَانِيهَا: إِيهَامُ التَّوَكِيدِ، وَهُوَ أَنْ يُعِيدَ الْمُتَكَلِّمُ فِي كَلَامِهِ كَلِمَةً فَأَكْثَرَ تَبَاعاً، مُرَاداً بِهَا غَيْرُ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ؛ بِطَرِيقَةٍ تُوَهِّمُ السَّامِعَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ أَنَّهُ مِنْ بَابِ التَّكْرَارِ، وَأَنْ الْغَرَضُ مِنْهُ تَوْكِيدُ الْمَعْنَى^(٤)، وَمِثَالُهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْجَتُونَ أَنْ يَنْطَهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، فَقَوْلُهُ: (فِيهِ) هُوَ إِيهَامُ التَّوَكِيدِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ السَّامِعِينَ قَدْ يَظُنُّ لِلْوَهْلَةِ الْأَوَّلَى أَنَّ (فِيهِ) الثَّانِيَةَ تَوْكِيدٌ لِلأَوَّلَى، وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ بَلْ (فِيهِ) الْأَوَّلَى مُتَعَلِّقَةٌ بِالْفِعْلِ (تَقُومُ)، وَ(فِيهِ) الثَّانِيَةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِخَبَرٍ مُقَدَّمٍ مَحْذُوفٍ.

وِثَالِثُهَا: إِيهَامُ التَّنَاسُبِ، وَهُوَ إِيرَادُ لَفْظَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، يَكُونُ لِأَحَدِهِمَا مَعْنِيَانِ: الْأَوَّلُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِمَعْنَى سَابِقِهِ أَوْ سَابِقَاتِهِ فِي الظَّاهِرِ، لَكِنَّهُ الْمَعْنَى الْمَقْصُودُ فِي السِّيَاقِ، وَالْآخَرُ مُنَاسِبٌ لِمَعْنَى سَابِقِهِ أَوْ سَابِقَاتِهِ فِي الظَّاهِرِ، لَكِنَّهُ غَيْرُ مَقْصُودٍ فِي السِّيَاقِ^(٥). وَمِنْ أَمْثَلَةِ إِيهَامِ التَّنَاسُبِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَمَرَ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمَ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٥-٦]؛ فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَتَبَادَرُ إِلَى الذَّهْنِ عِنْدَ السَّمَاعِ بِالنَّجْمِ هَهُنَا هُوَ الْكَوْكَبُ الْمُنِيرُ فِي السَّمَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ وَقَعَ بِصُحْبَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَهَذَا يُوَهِّمُ التَّنَاسُبَ، وَمِنْ الْهَوَامِّ مَنْ يَحْتَمِلُ أَنَّ الْآيَةَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ، وَهُوَ أَنَّ النَّجْمَ هَهُنَا هُوَ مَا نَجَمَ (ظَهَرَ) مِنْ تَبَتِ الْأَرْضِ لَا سَاقَ لَهُ كَالْبَقُولِ^(٦)، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِلشَّجَرِ الَّذِي لَهُ سَاقٌ، ثُمَّ إِنَّ النَّجْمَ أَكْثَرُ مَا

(١) انظر: التعريفات ص ٤١.

(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف ص ٦٨.

(٣) انظر: الكلّيات ص ٢٢٤.

(٤) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢١٩.

(٥) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢١٩.

(٦) انظر: تفسير الجلالين ص ٥٣٢.

يطلق على نجم السماء المناسب للشمس والقمر؛ فالسياق هو الذي أوهم المتلقي وجذب ذهنه ليعقل النجم بمعنى الكوكب؛ وليميل إلى البقاء في الحقل المعجمي نفسه.

ورابعها: إيهام التضاد، ويسمى إيهام المطابقة أيضاً^(١)، وهو الجمع بين معنيين غير متقابلين أي متضادين، عبّر عنهما بلفظين يتقابل معناهما الحقيقيان^(٢)، ومثاله قول دِعْبَل: [الكامل]

لَا تَعْجَبَنِي يَا سَلَمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ السَّمِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى^(٣)

فقد عبّر بالضحك الذي هو ضدُّ البكاء عن ظهور الشيب في رأسه ظهوراً تاماً؛ إذاً من حيث الظاهر قد يتوهم السامع أن بين الكلمتين (ضحك - بكى) تضاداً في المعنى، ولكنه إن تأمل المعنى السياقي لكلّ تيقّن أن لا تضادَّ بينهما ههنا، وإن كانا متضادين في معناهما الوضعيّ أو المعجمي.

وخامسها: إشعار المتلقي بإحساسٍ ما؛ ومثال ذلك أن السكاكي حين يتكلّم على أغراضٍ حذف المسند إليه يقول: «وإمّا لإيهام أن في تركه تطهيراً للسان عنه، أو تطهيراً له عن لسانك»^(٤)، ومثّل ذلك تجده عند القزويني (ت ٧٣٩هـ) والسعد التفتازاني (ت ٧٩٢هـ) وغيرهم حين يأتون على أغراضٍ تقديم المسند إليه، فيقولون: «لإيهام أنه لا يزول عن خاطر»^(٥)، وكذا حين يذكرون أغراضٍ تعريف المسند إليه بالعلمية؛ فيقولون: «أو لإيهام استلذاذه، أو التبرك به»^(٦)، ومثال تعريف المسند إليه بالعلمية لإيهام استلذاذه قول الشاعر: [البسيط]

بِاللهِ يَا ظِيَّاتِ الْقَاعِ، قُلْنَ لَنَا: لَيْلَايَ مِنْكُمْ أَمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ^(٧)

(١) انظر: خزانة الأدب ٧٦/٢.

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢١٩، وأنوار الربيع ٣٧/٢.

(٣) انظر: ديوان دِعْبَل ص ٢٠٤.

(٤) انظر: مفتاح العلوم ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٥) انظر: تلخيص المفتاح ص ٣٢، والمطوّل ص ٢٤٥.

(٦) انظر: تلخيص المفتاح ص ٢٥، والمطوّل ص ٢١٧.

(٧) البيت مُتَنَازَعُ النسبة؛ للرجعيّ في ذيل ديوانه ص ١٨٢، وللمجنون في ديوانه ص ١٥٣، ولذي الرّمة في البديع في نقد الشعر ص ١٤١.

فَيَرُونَ أَنَّ الشَّاعِرَ ذَكَرَ مَحَبَّتَهُ فِي عَجْزِ الْبَيْتِ بِاسْمِهَا الظَّاهِرِ مَرَّتَيْنِ، وَكَانَ يُمَكِّنُهُ فِي الثَّانِيَةِ أَنْ يَقُولَ: (هي)، لَكِنَّهُ عَدَلَ إِلَى الْاسْمِ الصَّرِيحِ؛ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أَيْ لِشِعَارِ السَّامِعِ أَنَّهُ يَشْعُرُ بِلَذَّةٍ كُلَّمَا أَعَادَ اسْمَ الْمَحْبُوبِ عَلَى لِسَانِهِ، وَأَرَى أَنَّهُمْ لَوْ عَبَّرُوا بِـ(الْإِشْعَارِ) هَهُنَا مَوْضِعَ (الْإِيهَامِ) لَكَانَ أَسْطَعَ دَلَالَةً عَلَى مَقْصُودِهِمْ.

وسادسُها: الكلامُ الذي يَدْفَعُ تَوْهَمَ خِلَافِ الْمَرَادِ؛ فَقَدْ حَرَّصَ الْبَلَاغِيُّونَ عَلَى امْتِدَاحِ الْكَلَامِ الْمَآئِيَّ بِهِ لِعِصْمَةِ الْمُتَلَقِّيِّ مِنْ تَوْهَمِ خِلَافِ الْمَقْصُودِ، فَاعْتَمَدُوا بِبَحْثِ الْإِحْتِرَاسِ، وَغَيْرِهِ مِنْ سُبُلِ إِزَالَةِ الْإِيهَامِ، وَفِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ تَرَدَّدَتْ فِي مُصَنَّفَاتِهِمْ لَفْظَةُ (الْإِيهَامِ) وَمُشْتَقَاتُهَا مِنْ نَحْوِ: (لَثَلَا يُتَوَهَّمُ، وَلِدَفْعِ التَّوَهُّمِ، وَإِزَالَةِ الْوَهْمِ...)، وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْقَزْوِينِيَّ (ت ٧٣٩هـ) حِينَ تَكَلَّمَ عَنْ الْحَالَاتِ الَّتِي لَا يَجُوزُ فِيهَا الْوَضْلُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ؛ قَالَ: «وَأَمَّا كَوْنُهَا كَالْمُنْقَطِعَةِ عَنْهَا؛ فَلِكُونِ عَطْفِهَا عَلَيْهَا مُوَهَّمًا لِعَطْفِهَا عَلَى غَيْرِهَا»^(١)، وَمِثْلُ بَقُولِ الشَّاعِرِ: [الكامل]

وَتَظُنُّ سَلْمَى أَنَّنِي أَبْغِي بِهَا بَدَلًا، أَرَاهَا فِي الصَّلَالِ تَهِيمٌ^(٢)

ثُمَّ عَلَّقَ التَّفْتَازَانِيُّ عَلَى مَنْعِ عَطْفِ جُمْلَةٍ (أَرَاهَا) عَلَى (وَتَظُنُّ سَلْمَى) بِقَوْلِهِ: «شُبِّهَ هَذَا بِكَمَالِ الْإِنْقِطَاعِ؛ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَانِعٍ مِنَ الْعَطْفِ، وَهُوَ إِيهَامُ خِلَافِ الْمُرَادِ...، وَلَمْ تُعْطَفْ (أَرَاهَا) عَلَى (تَظُنُّ)؛ لَثَلَا يُتَوَهَّمُ السَّامِعُ أَنَّهُ عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: (أَبْغِي)، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَظَنُونَاتِ سَلْمَى، وَلَيْسَ كَذَلِكَ»^(٣).

وَفِي كَلَامِهِمْ عَلَى بَلَاغَةِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ [غافر: ٢٨] قَالُوا: فَإِنَّهُ لَوْ أَخَّرَ ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ عَنْ ﴿يَكْتُمُ إِيمَنَهُ﴾ لَتَوَهَّمُ أَنْ ﴿مِّنْ﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿يَكْتُمُ﴾،

(١) انظر: تلخيص المفتاح ص ٥٩.

(٢) انظر: مفتاح العلوم ص ٣٧٠، ووالإيضاح ١١٧/٣، ومعاهد التنصيص ٢٧٩/١، والبيت بلا نسبة في هذه المصادر.

(٣) انظر: المطوّل ص ٤٤٦.

فلن يُفهم أن الرجل من آل فرعون، بل سيُتوهم أنه يكتُم إيمانه خوفاً منهم، وفي هذا إخلالٌ بالمعنى المراد^(١).

وكذا في تعريف (الاحتراس) يقول المدني (ت ١١٢٠ هـ): «الاحتراس: أن يأتي المتكلمُ بمعنى يتوجه عليه فيه دُخْلٌ، أو يُوهَمُ خلافَ المقصودِ، فيتنبّه له، فيأتي بما يخلصه من ذلك، وهو في التنزيل كثيرٌ...؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يَحْطَمَنَّ سُلَيْمَنُ وَجُودَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]؛ احترس؛ لئلا يُتوهم نسبةُ الظلمِ إلى سليمان عليه السلام. ومثله قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فالجمله الوسطى احتراس؛ لئلا يُتوهم أن التكذيبَ لما في نفس الأمر^(٢). أي التكذيبُ ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ تكذيبٌ لاعتقادهم المضمَر، لا للكلام الذي قالوه ظاهراً ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾، ولو كانت الآية الكريمة من غير الجملة الاعتراضية لكانت هكذا (قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، والله يشهد أن المنافقين لكاذبون) لتوهم السامعون أنه ~~حلال~~ ينفي الرسولية عن محمد ﷺ.

ج - ملامح المصطلح في حقول معرفية أخرى.

الإيهام البلاغي قضيةٌ جامعةٌ مُشْتَبِهَةٌ بينَ علومٍ ومعارفٍ مُتخِلِفَةٍ؛ لذا فإنك بعد التَّنْقِيهِ ستجدُ جملةً مُصْطَلَحَاتٍ وفنونٍ تنتمي إلى حقولٍ معرفيةٍ مُتخِلِفَةٍ كُلُّهَا ذاتُ صلةٍ بمفهوم الإيهام الذي يَقْصِدُهُ البحثُ، وما من ريبٍ في ضرورة التَّوقُّفِ عندَ كُلِّ منها؛ لدراسة خصائصه الإيهامية ومدى إفادته من فنون البلاغة العربية. على أن هذه المُصْطَلَحَاتِ جديرةٌ بكتابٍ يستوعبها، ويبيِّنُ صلةَ كُلِّ منها بالإيهام البلاغي؛ لذا سنكتفي بالإشارة إلى بعضها، مع الإحالة على مصادرها.

(١) انظر: تلخيص المفتاح ص ٤٨، والمطوّل ص ٣٧٨، وبلاغة التّقديم والتّأخير في القرآن الكريم ٢٠١/١، والتّقديم والتّأخير في القرآن الكريم (بلاغة وإبلاغ) ص ١٣.

(٢) انظر: أنوار الرّبيع ٢٨٥/٦.

ومن تلك المصطلحات التدليس في علوم الحديث^(١)، والملاحن في اللغة^(٢)، ومثلها المعنى^(٣)،
والتقية في الفقه^(٤)، ومثلها المعارض^(٥)، والإيحاء في علم النفس، والإيهام بالواقع في النقد
المسرحي، والتخييل والتصوير عند الفلاسفة^(٦)، والإيهام بالمعرفة في الصحافة^(٧)، واللبس^(٨)

(١) انظر: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: د. أحمد هاشم عمر،
تخريج: أحمد عناية، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م. ص ١١٣، والباعث الحثيث [شرح اختصار
علوم الحديث للحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)] تأليف الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١،
١٩٨٣م. ص ٥١، ومعرفة علوم الحديث، للإمام الحاكم أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ النيسابوري
(ت ٤٠٥هـ)، تحقيق لجنة إحياء التراث في دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط ٤، ١٩٨٠م. ص ١٠٤.

(٢) انظر: الملاحن، لابن دُرَيْد (ت ٣٢١هـ) بتحقيق د. عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة - دمشق -
١٩٩٢م، وفتيا فقيه العرب، لابن فارس (ت ٣٩٥هـ) نُشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد
٣٣ - ص ٤٤٣ وما بعدها، بتحقيق د. حسين محفوظ، ١٩٥٨م، وإحكام صنعة الكلام ص ١٩٠، وتحرير
التجوير ص ٢٠٤-٢٠٥، والمزهر في علوم اللغة ١/٤٤٣. وتاريخ آداب العرب ٣/٢٦٤.

(٣) انظر: علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب (التشفير وكسر الشفرة)، د. محمد مراياتي، ود. يحيى
مير علم، ود. حسان الطيّان، تقديم: د. شاكر الفحام، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط ١، الجزء
الأول ١٩٨٧ - الجزء الثاني ١٩٩٧م.

(٤) انظر: المبسوط، للسرخسي (ت ٤٨٣هـ)، دار المعرفة - بيروت، (د. ط)، ١٩٩٣م. ٤٥/٢٤ وما بعدها.
والموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، دار السلاسل - الكويت،
ط ٢، ١٩٩٣م. وفيه مادة (تقية) ١٣/١٨٥ وما بعدها.

(٥) انظر: كتاب المعارض، لابن فارس (ت ٣٩٥هـ) نُشر في مجلة المورد، العدد ٣، المجلد ١٣، بغداد ١٩٨٤،
بتحقيق د. أحمد خان.

(٦) انظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ص ١٦ وما بعدها، وفيه بيان لإسهام الفلاسفة في مفهوم
التخييل.

(٧) انظر: المدخل في فن التحرير الصحفي ص ٩٩-١٠٠.

(٨) انظر: ظاهرة اللبس في العربية (جدل التواصل والتفاضل)، د. مهدي أسعد عرار، دار وائل للنشر - عمان
الأردن، ط ١، ٢٠٠٣م.

وأمن اللبس في النحو والصرف^(١)، والإيهام^(٢)، والغموض^(٣)، والمُشكِـل^(٤)، والتّعـقـيد^(٥)، والإيـاء^(٦)، والرّمـز^(٧)، والإشارة^(٨)، والتلويح^(٩)، والتلطف^(١٠)، ومعنى المعنى^(١١)، والوهم والتوهم في علم النفس، والتوهم^(١٢).

وهذه المصطلحات جديرة بكتاب مُستقل يُعالجها برؤية بلاغية؛ فلو أخذنا مثلاً مصطلح (التدليس) - والتدليس ضربٌ من إيهام المُخاطب - واستقرينا كُتُبَ المُحدّثين التي عُنيَتْ بالحديث المُدلّس، واستطعنا أن نحصر طرائق المدلّسين، وأن نتوخّى منها ما يعتمدُ على الفنون

(١) انظر: أمن اللبس في التركيب القرآني، رضا عبد العزيز الدسوقي إبراهيم شمس الدين، القاهرة، ٢٠٠٤م.

والقاعدة النحوية

في ضوء تقييدها بأمن اللبس أو خشية الوقوع فيه، د. إبراهيم محمد عبد الله، مجلة التراث العربي، العدد ١٠٠، ٢٠٠٥م.

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٥.

(٣) انظر: العربية والغموض (دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى)، د. حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، ط ١، ١٩٨٨م.

(٤) ثمة كُتُب كثيرة في الإشكال؛ مثل: تأويل مُشكل القرآن، لابن قُتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ٢٠٠٦م. والانتخاب لكشف الأبيات المشكّلة الإعراب، لابن عدلان الموصلي (ت ٦٦٦هـ)، تحقيق حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط ١، ١٩٨٨م. ومُشكل إعراب القرآن، لأبي محمّد مكي بن أبي طالب الأندلسي القرطبي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ.

(٥) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٣٨٧.

(٦) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢١٦.

(٧) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٤٩٨.

(٨) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ١٢٢.

(٩) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٤١٥.

(١٠) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٤١٢.

(١١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٦٣٣.

(١٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٤٤٢.

البلاغية، وأن نقوم بدراسة بلاغية تحلل طرائق المدلسين في إيهام السامعين... وكذا لوفعلنا مع ما عُرِفَ عند اللغويين بالملاحن، وصنّفوا فيه لأغراضٍ مُعْجِمية، مُستفيدين من ظاهرة الاشتراك اللفظي ومن التورية؛ كملاحن ابن دُرَيْد، ومعاريض ابن فارس، وفُتيا فقيه العرب...، هذه الكتب التي يُنظرُ إليها أنّها كُتِبَ لغويّة، ويُتغافلُ عن دراسة الفكرة البلاغية التي على أساسها بُنِيَتْ هذه الكتب، وهي فكرة إيهام المخاطب، = لو فعلنا ذلك مع الملاحن، ومع التّقية، ومع التّلطف = لفتَحنا باباً رَحْباً لدراسات بلاغية ذات مغزى؛ لأنّها تتصلُّ بحياتنا ومُخاطباتنا اليومية، ولأفدنا من نتائجها في كثيرٍ من مجالات الحياة؛ كالتدريس والإعلان والتأليف المسرحي... إلخ.

د - التعريف الإجرائي لمُصطلح (الإيهام البلاغي):

١- التعريف الإجرائي:

(الإيهام البلاغي) إشارة لغويّة يَلْبِسُ فيها المتكلّم على المخاطب أو السّامع - بقصدٍ منه أو بغير قصدٍ - مع شيءٍ من المُداهاة والتّخيل في الغالب، ومن ذلك أن يُخرَجَ الكلامُ مُبْهَماً؛ يُفْهَمُ على صورتين - أو أكثر - مُتباينتين أو مُتناقضتين، = ومنه ما يُعمّي على المتلقّي ويُفوّت عليه بلوغ الحقيقة، أو يُوقّعه في الرّيب، أو يُعوّزه إلى فضلٍ تأملٍ حتّى يتبيّن له المُراد، أو يكسرُ أفقَ التّوقّع لديه حتّى حين؛ إذ قد تنتصبُ في الكلامِ قرينة لفظيّة أو معنويّة أو حاليّة صارفة لهذا الوهم، وقد تُعَدَم.

٢- إيضاحٌ للتعريف الإجرائي:

- (إشارة لغويّة) أمّا قولنا: (إشارة) فإخراجٌ للتّصريح. وأمّا (لغويّة) فيخرجُ منها الإيهام بالحركات من هَمْزٍ وَغَمَزٍ وتلويحٍ بالأيدي، وغير ذلك ممّا يُوهِمُ بغير الكلام.

- (يَلْبِسُ فيها المتكلّم على المخاطب أو السّامع) أمّا (يَلْبِسُ) ففيها إخراجٌ لكلِّ إشارة غير مُلبّسة، لأنّ الإشارة قد يُتواضعُ عليها، فتكونُ مفهومةً عند أهلها، وتخرجُ من حيّز الإشارة إلى التّصريح. واللّبسُ والإلباسُ التّخليطُ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ﴾ [البقرة: ٤٢]. وأمّا التّفريقُ بين (المخاطب) و (السّامع)؛ فلأنّ المتكلّم قد ينوي إيهامَ مخاطبه

الذي يُكَلِّمُهُ؛ كما حصلَ مع بشار بن بُردٍ حينَ فَصَّلَ قَبَاءَ عِنْدَ خِيَّاطٍ أَعَوَرَ اسْمُهُ زَيْدٌ، فقالَ له الخِيَّاطُ عَابِثًا: سَأَتِيكَ بِهِ لَا تَدْرِي أَقَبَاءٌ هُوَ أَمْ دُؤَاجٌ^(١)؟، فقالَ له بشار: لئنَ فَعَلْتَ لَأَنْظِمَنَّ فِيكَ بَيْتًا لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَن سَمِعَهُ أَدَعَوْتُ لَكَ أَمْ دَعَوْتُ عَلَيْكَ، ففَعَلَ الخِيَّاطُ، فقالَ بشار: [مَجْزُوءَ الرَّمْلِ]

جاءَ مِنْ زَيْدٍ قَبَاءٌ لَيْتَ عَيْنِيهِ سَـوَاءٌ!

قُلْ لِمَنْ يَعْرِفُ هَذَا: أَمْـدِيحُ أَمْ هَجَاءٌ؟^(٢)

فَمَا عُرِفَ قَصْدُ الشَّاعِرِ؛ أَدْعَا لَهُ أَنْ تُسَوَّى العَوْرَاءُ بالصَّحِيحَةِ فَيُصِرَ إِبْصَارًا تَامًا، أَمْ أَنْ تُسَوَّى الصَّحِيحَةُ بالعَوْرَاءِ فَيَكْفَ بَصَرُهُ؟ فَالشَّاعِرُ هَهُنَا قَصَدَ إِلَى إِيْهَامِ مُحَاطَبَةٍ مُبَاشِرَةٍ.

وَلَكِنْ قَدْ يَقْصِدُ الْمَرْءُ أَنْ يُفْهِمَ مُحَاطَبَهُ وَأَنْ يُوْهِمَ السَّامِعِينَ وَأَنْ يُعْمِيَ عَلَيْهِمْ، كَمَا فِي الْخَبَرِ الْعَجِيبِ الَّذِي يَحْكِي أَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ عَزَمَ عَلَى قَصْدِ عَدُوٍّ لَهُ، فَقَدَّمَ رَيْثَةً يَتَجَسَّسُ أَحْوَالَهُ، فَلَمَّا صَارَ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ، شَعَرُوا بِهِ، فَقَبِضُوا عَلَيْهِ، وَأَمَرُوهُ أَنْ يَكْتُبَ لِصَاحِبِهِ كِتَابًا يَذْكُرُ لَهُ أَنَّهُ وَجَدَ الْقَوْمَ ضَعْفَاءَ، وَيُطِيعُهُ فِيهِمْ، وَيُزَيِّنُ لَهُ غَزْوَهُمْ، فَكَتَبَ:

(أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَحْطْتُ عِلْمًا بِالْقَوْمِ، وَأَصْبَحْتُ مُسْتَرِيحًا مِنَ السَّعْيِ فِي تَعَرُّفِ أَحْوَالِهِمْ، وَإِنِّي قَدْ اسْتَضَعَفْتُهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْهَدُ مِنْ أَخْلَاقِ الْمَلِكِ الْمُهْلَةِ فِي الْأُمُورِ، وَالنَّظَرِ فِي الْعَاقِبَةِ، وَلَكِنْ لَيْسَ هَذَا وَقْتُ النَّظَرِ فِي الْعَاقِبَةِ، فَقَدْ تَحَقَّقْتُ أَنَّكُمْ الْفِتْنَةُ الْغَالِبَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ أَحْوَالِ الْقَوْمِ مَا يَطِيبُ بِهِ قَلْبُ الْمَلِكِ: نَصَحْتُ فَدَعَّ رَيْيَكَ وَدَعَّ مَهْلَكَ. وَالسَّلَامُ).

فَلَمَّا انْتَهَى الْكِتَابُ إِلَى الْمَلِكِ قَرَأَهُ عَلَى رَجَالِهِ، فَقَوِيَتْ قُلُوبُهُمْ، وَصَحَّتْ عِزَائِهِمْ عَلَى الْخُرُوجِ، ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ خَلَا بِخَاصَّتِهِ مِنَ الْكِبَرَاءِ وَأَهْلِ الرَّأْيِ، وَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ تَتَأَمَّلُوا هَذَا الْكِتَابَ، فَإِنِّي شَعَرْتُ مِنْهُ بِأَمْرٍ، وَإِنِّي غَيْرُ سَائِرٍ حَتَّى أَنْظُرَ فِي أَمْرِي. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا الَّذِي لَحَظَ الْمَلِكُ فِي الْكِتَابِ؟ قَالَ: إِنَّ فَلَانًا [يَقْصِدُ الرَّبِيبَةَ] مِنَ الرِّجَالِ ذَوِي الْحِصَافَةِ وَالرَّأْيِ، وَقَدْ أَنْكَرْتُ ظَاهِرَ لَفْظِهِ، فَتَأَمَّلْتُ فَحَوَاهُ،

(١) الدُّوَّاجُ: ضَرْبٌ مِنَ الثِّيَابِ أَعْجَمِيٍّ. (لسان العرب: دوج).

(٢) انظر: مُلَحَقَ دِيْوَانِ بَشَّارِ بْنِ بَرْدٍ ٩/٤، وَمَعَاهِدَ التَّنْصِيسِ ١٣٨/٣. وَالْقَبَاءُ: ضَرْبٌ مِنَ الثِّيَابِ.

فوجدت في باطنه خلاف ما يؤهم الظاهر، وذلك في قوله: (أصبحت مُستريحاً من السَّعي) يريد أنه محبوس، وقوله: (استضعفتهم بالنسبة إليكم) يريد أنهم ضِعْفُنَا لكثرتهم، وقوله: (إنكم الفئة الغالبة بإذن الله) يُشير إلى قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فَتَّةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله: (رأيت من أحوال القوم ما يطيب به «قلب» الملك) فإنني تأملت ما بعده فوجدت أنه يريد بالقلب: العكس؛ لأن الجملة الآتية مما يؤهم ذلك، فقلبت الجملة، وهي قوله: (نصحت فدع ربيك ودع مهلك) فإذا مقلوبها (كلهم عدو كبير. عُد فَتَحَصَّنَ)^(١). فإن المتكلم قصد ههنا إلى إيهام السامعين، وإفهام المخاطب، بعكس بيت بشار الذي قصد إلى إيهام المخاطب والسامعين معاً. - (بقصد منه أو بغير قصد)؛ لأن المتكلم قد يكون قاصداً هذا الإيهام؛ كقول ابن الرومي في رجلٍ يتظاهر بالصَّلاح: [السريع]

فِيَالَهُ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يرفعُ الله إلى أسْفَلٍ! ^(٢)

تراه يمدحُه بعمَلِهِ (الصَّالح)، مُستعظماً هذا العمل (فيا له!)، ثُمَّ يُخْبِرُ بآن هذا العمل مرفوعٌ، ولكن؟ إلى الأسفل.

= وقد لا يكون قاصداً لإيهام المخاطب، وإنما كان العدول في هذا الأسلوب البلاغي يقود المخاطب نحو الإيهام، ومن أمثله أن بعض العامة إذا سمع قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] توهم أن الربا منهي عنه إذا كان ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ فقط، وأما إذا أخذ الدائن من مدينه ربحاً بسيطاً (فائدة) على أصل المال فإن ذلك يصح، ولكن هذا توهم خاطئ؛ لأن مقصود الآية النهي عن كل أنواع الربا؛ و﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ صحيح أنه حال، لكن هذه الحال ليست للتقييد، وليس المقصود أن الربا منهي عنه حال كونه ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾؛ بل جيء بالحال ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾؛ لبيان قبح فعلهم، ولتوبيخهم على

(١) انظر: تاريخ آداب العرب ٣/ ٢٦٤.

(٢) البيت لابن الرومي في خزانة الأدب ٢/ ١٩٣، وليس في ديوانه.

٢

ما كانوا يفعلون من مضاعفة الدين مع مرور الوقت، وللتأكيد على خطره بالذات^(١)؛ لأنه الأشدّ
بلاءً على البلاد والعباد؛ والقرينة التي تُزيل الوهم قوله تعالى في سورة سابقة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَإِن تَتُبَتُمْ فَلكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢٧٨-٢٧٩] فللدائن أن يستردّ
رأس ماله غير مزيد عليه قليلاً أو كثيراً، وقد علّق الزّحشرى (ت ٥٣٨ هـ) على الآية بقوله: «لا
تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً» نهي عن الربّا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه؛ كان الرجلُ
منهم إذا بلغ الدينُ محلّه زاد في الأجل، فاستغرق بالشّيء الطّفيف مال المديون^(٢)، وما يعنينا من
هذه الآية ههنا أنّ الإيهام فيها لم يكن مقصوداً، وإنّا كان من طبيعة بنية تركيب الكلام، وساعد على
ذلك العدولُ في أسلوب النّهي؛ لأنّ العادة في النّهي المُشدّد إذا كان المنهي عنه ذا درجات أن
يوجّه النّهي إلى أدنى درجاته، فيكون هذا النّهي عامّاً له ولكل ما علاه من درجات هذا المنهي عنه،
وقد تنبّه الزّركشي (ت ٧٩٤ هـ) إلى هذا العدولِ الموهّم؛ فقال: «وأكل الربّا منهي عنه قليلاً وكثيراً،
لكنّها نزلت على سبب، وهو فعلهم ذلك، ولأنّه مقام تشنيع عليهم، وهو بالكثير أليق»^(٣)، وأمّا ابنُ
عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) فقال: «فالحال» ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ ليس القصد منها التّشديد بل التشنيع،
فلا يقتصر التّحريم بهذه الآية على الربّا البالغ أضْعَافاً كثيرة، حتّى يقول قائل: إذا كان الربّا أقلّ من
ضِعْفِ رأس المالِ فليس بمُحرّم. فليس هذا الحال هو مَصَبُّ النّهي عن أكلِ الربّا حتّى يتوهم
متوهم أنّه إن كان دون الضّعف لم يكن حراماً»^(٤).

إذا فالإيهام قد يكون مقصوداً، وقد يكون غير مقصود، ولكنه مُتخلّق من طبيعة تركيب الكلام
(بشرط أن يكون هذا التّركيب لنكتة بلاغية) كما في قوله ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾، وأمّا إن كان

(١) انظر: زاد المسير ٤٥٨/١ (حاشية ١).

(٢) انظر: الكشف ٦٢٦/١.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن ٤٠١/٣.

(٤) انظر: التّحرير والتّنوير ٨٦/٤.

الكلامُ مؤهماً مُحتمِلاً أَكثَرَ من معنًى، والمتكلِّمُ غيرُ مُتنبِّهٍ إلى هذا، وليس في الكلامِ نُكتةٌ بلاغيَّة، فقد خرجَ المتكلِّمُ عن نطاقِ الكلامِ البليغ؛ ومثالُ ذلكِ قِصَّةُ أبي بكرٍ الصِّديقِ رضي الله عنه حينَ قالَ لرجُلٍ معه ناقةٌ: أتبيعُها؟ فقال: لا عافاك الله، فقال له: «لا تُقلْ هكذا، ولكنْ قلْ: لا، وعافاك الله»^(١)، فهذا الرَّجُلُ قالَ كلاماً مؤهماً دونَ أن يدري، وقد أُخلِّ بالبلاغة؛ لأنَّه أوصلَ إلى مُحاطِبِهِ خلافَ ما في نفسه.

- (مع شيءٍ من المُداهاةِ والتَّخيلِ في الغالب)؛ أمَّا المُداهاةُ والمُواربةُ وخِداعُ المتلقِّي فأصلُّ يكادُ يكونُ ثابتاً في فنونِ البلاغةِ التي تقومُ على إيهامِ المُخاطَب؛ ومن ذلكِ الجِناسُ؛ كقولِ شَمْسَوِيهِ البَصْرِيِّ: [الخفيف]

ناظِراهَ فيما جَنى ناظِراهُ
أو دَعاني أُمْتُ بما أوَدَعاني^(٢)

فجِمالِيَّةُ الجِناسِ - ولا سِيما التَّامَّ - تقومُ على إيهامِ المتلقِّي وخِداعته، من حيث يُؤتى باللفظةِ تُنطَقُ أولاً، ثُمَّ تُعاد عينيها، فيظنُّها المتلقِّي من بابِ الإعادةِ والتَّكرار، فإذا هي كلمةٌ جديدةٌ ومعنى مختلفٌ يُفاجئُ المتلقِّي.

وكذا المُواربةُ تقومُ على المُداهاةِ والمُخادعة؛ ومنه أنَّ المتوكِّلَ (ت ٢٤٧هـ) رمى عُصفوراً فأخطأه، فقال له مُرافِقُه في الصِّيد: أحسنتَ واللهِ يا سيِّدي، فاستشاطَ المتوكِّلُ غَيْظاً، وقال: ويلَكَ! أتَهزأُ بي؟ كيف أحسنتُ! فقال: إلى العُصفورِ يا أميرَ المؤمنين، فسكَنَ غَيْظُه وضحك^(٣). رأيتَ كيفَ أفسَدَ ظاهرَ كلامِهِ بجَعْلِهِ (أَحسنتَ) بمعنى: أسديتَ الإحسانَ إلى العُصفورِ بعدمِ إصابتِكَ له، على سبيلِ المُداهاةِ والمُخادعةِ وليس أمرُ المُداهاةِ والخِداعِ العقليِّ قَصراً على الجِناسِ والمُواربة، وإنَّما هو أصلُّ يكادُ يكونُ ثابتاً في الفنونِ البلاغيَّةِ التي تقومُ على إيهامِ المُخاطَب؛ كما سَلَفَ.

(١) انظر: القطع والائتناف ص ٢٠.

(٢) انظر: معاهد التنصيص ٢١١/٣.

(٣) انظر: أنوار الربيع ٣٠٣/٢.

= وَأَمَّا التَّخْيِيلُ فلا نقصدُ به المفهومَ السَّلْبِيَّ أخلاقياً بمعنى الكذب ومُخَالَفَةِ الحقائق، وإنما نعني به أمرين: إثارة الصُّورِ والمشاهد الخياليَّة في ذهن السَّامِع، أو إشعاره بأمرٍ أو إحساسٍ يُقَدَّفُ في نفسه. أمَّا إثارة الصُّورِ واستدعاء المُدْرَكَاتِ الحسيَّة الغائبة؛ ليتصوَّرها المتلقِّي كما لو أنَّها أمامه؛ ومن ذلك وَصَفُ البُحْتَرِيِّ مع الذُّئْبِ: [الطَّويل]

وَلَيْلٍ كَأَنَّ الصُّبْحَ فِي أُخْرِيَاتِهِ	حُشَّاشَةٌ نَضَلِي ضَمَّ إِفْرَنْدَهُ غَمْدُ
تَسْرِبُلَتُهُ وَالذُّئْبُ وَشَنَانُ هَاجِعٍ	بَعِينِ ابْنِ لَيْلٍ مَالُهُ بِالكَرَى عَهْدُ
لَهُ ذَنْبٌ مِثْلُ الرِّشَاءِ يَجْرُهُ	وَمَثْنُ كَمَثْنِ الْقَوْسِ أَعْوَجُ مُنَادُ
طَوَاهُ الطَّوَى، حَتَّى اسْتَمَرَ مَرِيرُهُ	فَمَا فِيهِ إِلَّا الْعَظْمُ وَالرُّوحُ وَالْجِلْدُ
سَمَالِي، وَبِي مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ مَا بِهِ	بَيْدَاءٌ لَمْ تُحَسِّنْ بِهَا عَيْشَةً رَغْدُ
كَلَانَا بِهَا ذَنْبٌ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ	بِصَاحِيهِ، وَالْجَدُّ يُتَعَسُّهُ الْجَدُّ
عَوَى ثُمَّ أَقْعَى، وَارْتَجَزَتْ فَهْجَتُهُ	فَأَقْبَلَ مِثْلَ الْبَرْقِ يَتَّبِعُهُ الرَّغْدُ
فَأَوْجَزْتُهُ خَرْقَاءَ تَحْسِبُ رِيَشَهَا	عَلَى كَوَكِبٍ يَنْقُضُ، وَاللَّيْلُ مُسَوَّدُ
فَمَا أَزَادَ إِلَّا جُرَاءَةً وَضَرَامَةً	وَأَيَقَنْتُ أَنْ الْأَمْرَ مِنْهُ هُوَ الْجَدُّ
فَاتَّبَعْتُهَا أُخْرَى، فَأَضَلَّتْ نَضْلَهَا	بَحَيْثُ يَكُونُ اللَّبُّ وَالرُّعْبُ وَالْجَفْدُ
فَخَرَّ، وَقَدْ أَوْرَدْتُهُ مِنْهَلِ الرَّدَى	عَلَى ظَمَأٍ، لَوْ أَنَّه عَذَبُ الْوَرْدِ
وَقُمْتُ، فَجَمَعْتُ الْحَصَى وَاشْتَوَيْتُهُ	عَلَيْهِ، وَلِلرَّمْضَاءِ مِنْ تَحْتِهِ وَقَدْ
وَنَلْتُ حَسِيْسًا مِنْهُ، ثُمَّ تَرَكْتُهُ	وَأَقْلَعْتُ عَنْهُ، وَهُوَ مُنْعِفِرٌ فَرْدُ ^(١)

فأنتَ أمامَ مشهدٍ ثلاثيِّ الأبعادٍ، يُصوِّرُ لك أحداثَ المعركة بتفصيلاتها، وظلالها النفسيَّة، وسوف نتعرَّضُ - في الباب الثاني - إلى تحليلِ هذه الصُّورة بأبعادها الثلاثة: البصريَّة، والسَّمعيَّة، والنَّفسيَّة؛ لتبيِّنَ ما أدواتُ التَّعبيرِ الفنيِّ التي مكَّنتِ البُحْتَرِيَّ من إيهامِ المتلقِّي في رَسْمِ هذه الصُّورة أو هذه المشاهدِ الدِّرامِيَّة؟

(١) انظر: ديوان البُحْتَرِي ٢/ ٧٤٠-٧٤٥.

هذا هو التَّخْيِيلُ الذي يُصَوِّرُ الواقعَ بعَيْنٍ أَمِينَةٍ تَكَادُ تَوْهْمُكَ بِالوَاقِعِيَّةِ أوِ الْحَقِيقَةِ، وَمِنَ التَّخْيِيلِ مَا يَتَجَاوَزُ الصُّوَرَ الْوَاقِعِيَّةَ لِلْأَشْيَاءِ، وَيُعِيدُ تَشْكِيلَهَا عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يُحَاكِي عَالَمَهُ الدَّاخِلِيَّ وَرُؤْيَاهُ لِلْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ؛ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ: [الطَّوِيل]

تَحَمَّلْتُ مَا لَوْ حَمَلَ الدَّهْرُ شَطْرَهُ لَفَكَّرَ دَهْرًا أَيُّ عِبَائِهِ أَثْقَلُ؟^(١)

فَالدَّهْرُ الَّذِي تَحَمَّلَ أَثْقَالَ الْخَلْقِ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَثْقَالَ الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّهْوِضِ بِشَطْرِ مَنْ هُمُومُ أَبِي تَمَّامٍ، فَلَوْ جُمِعَتْ أَثْقَالُ أَبِي تَمَّامٍ وَهَمُومُهُ وَجُعِلَتْ نَصْفَيْنِ، فَقِيلَ لِلدَّهْرِ: احْتَمِلْ أَيُّهُمَا شِئْتُ؛ لَبَقِيَ الدَّهْرُ يَتَفَكَّرُ دَهْرًا: أَيُّ النِّصْفَيْنِ أَثْقَلُ؟؛ لِيَتَرَكَّهُ، وَيَعْمَدُ إِلَى الْأَخْفِ. فَهَلْ مِنْ صُورَةٍ أَبْدَعُ مِنْ ذَلِكَ فِي تَصْوِيرِ خَلْجَاتِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَمَا يَعْتَرِيهَا مِنْ مَشَاعِرٍ؟

- (وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يُخْرِجَ الْكَلَامُ مُبْهَمًا؛ يُفْهَمُ عَلَى صُورَتَيْنِ - أَوْ أَكْثَرَ - مُتْبَايِنَتَيْنِ أَوْ مُتَنَاقِضَتَيْنِ)

مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي يُفْهَمُ عَلَى صُورَتَيْنِ مُتْبَايِنَتَيْنِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا تَنَاقُضٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِمْ﴾ [الْإِنْسَانُ: ٨]، وَمَوْضِعُ النَّظَرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الضَّمِيرُ فِي ﴿حُبِّهِمْ﴾؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَوَاعِدَ الْمَطَابَقَةِ تُجَبِّزُ عَوْدَهُ عَلَى غَيْرِ مَرَجِعٍ، فَمَلَامِحُهُ تَتَّفَقُ وَمَلَامِحُ اسْمِ الْجَلَالَةِ (اللَّهِ) الْمَذْكُورِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يُطْعَمُونَ الْفُقَرَاءَ عَلَى حُبِّ اللَّهِ لَا يَنْتَظِرُونَ مِنْ أَحَدٍ جَزَاءً أَوْ ثَنَاءً، وَيَتَّفَقُ هَذَا الضَّمِيرُ أَيْضًا مَعَ مَلَامِحِ ﴿الطَّعَامَ﴾ الْمَذْكُورِ قَبْلًا، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يُؤْثِرُونَ الْفُقَرَاءَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَيُطْعَمُونَهُمْ هَذَا الطَّعَامَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حُبِّهِمْ لَهُ وَاحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ؛ أَيُّ: عَلَى قَلَّتِهِ وَرَغْبَتِهِمْ فِيهِ^(٢). وَجَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ (ت ٥١٠ هـ): ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِمْ﴾؛ أَيُّ: عَلَى حُبِّ الطَّعَامِ وَقِلَّتِهِ وَشَهْوَتِهِمْ لَهُ وَحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: عَلَى حُبِّ اللَّهِ^(٣). وَأَنْتَ تَرَى جِهَالِيَّةَ تَعَدُّدِ مَرَجِعِ الضَّمِيرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حَيْثُ دُعِيَ إِلَى خَصْلَتَيْنِ هُمَا (الْإِخْلَاصُ)، وَ(الْإِيثَارُ). وَأَمَّا الرَّنَخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) فَاخْتَارَ

(١) انظر: ديوان أبي تمام ١/ ٧٤.

(٢) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ص ١١٥٨.

(٣) انظر: تفسير البغوي ١٩١/ ٥.

أنه عائدٌ على الطَّعام؛ أي: يُطعمون الطَّعام مع اشتهاؤه والحاجة إليه، وذكر أن الفضيل بن عياض (ت ١٨٧ هـ) فسَّره: على حُبِّ الله^(١)، واختار ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) أن الضمير عائدٌ على الطَّعام، وأنهم يُطعمون الطَّعام وهم في حاجةٍ إليه وبهم خصاصة^(٢).

ومن الكلام الذي يفهم على صورتين متناقضتين التعبير ﴿لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣] فالتعبير ﴿لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ يحتمل أن يكون مقصوداً به ظاهره، ويحتمل أن يكون المراد به الكناية عن الجماع، ومما يظهر لك أثر الكناية في إيهام المتلقي واتساع المعاني إلى حدِّ التناقض أن الفقهاء أنفسهم اختلفوا في حمل هذا التعبير ﴿لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ على المعنى الصَّريح أو الكِنائي، لذا يقول ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣ هـ): «والمُلامسة هنا يُحتمل أن يكون المراد منها ظاهرها، وهو الملامسة بمباشرة اليد أو بعض الجسدِ جسدَ المرأة...، وبذلك فسَّره الشافعي (ت ٢٠٤ هـ)، فجعلَ لمسَ الرجلِ بيده جسدَ امرأته موجباً للوضوء، وهو محمّل بعيد؛ إذ لا يكون لمسُ الجسدِ موجباً للوضوء، وإنما الوضوء مما يخرجُ خروجاُ معتاداً. فالمحمّل الصحيح أن المُلامسة كناية عن الجماع... ولم يجب عند مالك (ت ١٧٩ هـ) وأبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) الوضوء من لمسِ الرجلِ امرأته ما لم يخرج منه شيء، إلا أن مالكا قال: إذا التذُّ اللامِسُ أو قصَدَ اللذة انتقض وضوؤه، وحمل المُلامسة على معنيها الكِنائي والصَّريح...»^(٣)، وقد جاء في الطَّبْرِي (ت ٣١٠ هـ) أن أولى القولين بالصَّواب قولٌ من فسَّر قوله

(١) انظر: الكشاف ٦/ ٢٧٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٨٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٥/ ٦٧.

تعالى: ﴿لَمَسَّمُ النِّسَاءَ﴾ بالجماع دون غيره من معاني اللَّمس؛ لصحَّة الخبر عن رسول الله ﷺ، أنه قَبَّلَ بعضَ نِسائِهِ ثُمَّ صَلَّى، ولم يتوضَّأ^(١)

ألا ترى إلى تأرجح تأويل الأئمة للتعبير ﴿لَمَسَّمُ النِّسَاءَ﴾ بين الصَّريح كما فهمه الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، والكنائي كما عند أبي حنيفة (ت ١٥٠هـ)، أو الجمع بين المعنيين الكِنائي والصَّريح كما عند الإمام مالك (ت ١٧٩هـ)، ولعلَّ تأرجح معنى العبارة إنما هو بفضل الطاقة الإيهامية التي تُوسِّعُ دلالة الكِناية بين المعنيين الوُضْعِي والكنائي، وقد أفضى هذا الإيهام إلى اجتِهَادِ الفقهاء في هذه المسألة كما رأيت؛ فمنهم مَنْ أوجَبَ الوضوءَ وَمَنْ لم يُوجِبْهُ، وإنَّ كَانَ كُلُّ مِنْهُمُ لَدَيْهِ حُجَجٌ أُخْرَى تعضدُ مذهبه ليس هذا محلَّ بسطِها^(٢).

- (ومنه ما يُعمِّي على المتلقِّي، ويُفوتُّ عليه بلوغ الحقيقة): كالمعارض والملاحن والتورية التي يلجأ إليها المتكلم عند الحاجة؛ ليلبِّغ الإيهام فيها حدَّ التعمية على السامع، فتُحجَّب عنه الحقيقة بالكُليَّة؛ فمن ذلك ما يُحكى أنَّ النبي ﷺ كَانَ سائرًا بأصحابه في خروجهم إلى بدرٍ، وقد لقيه أعرابيُّ فسألهم: مِمَّن القوم؟ فقال له النبي ﷺ: من ماء، فأخذ الأعرابيُّ يُفكِّر، ويقول: من ماء ماء! لينظر أيُّ بطون العرب يُسمَّى ماء؟ وسارَ ﷺ مع القوم إلى وجهته، وقصد أن يكتُم^(٣) قصده الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥-٦] رى عنه بقبيلة من العرب^(٣).

- (أو يُوقِعه في الرِّيب): ومن ذلك الهجاء في معرض المدح؛ كقول الخطابي الزُّبرقان بن بدر: [البسيط]

دَعِ المَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِيُغَيِّهَهَا واقعد؛ فإنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي^(٤)

- (١) انظر: تفسير الطبري ٣٩٦/٨.
- (٢) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٥٤٩/٢، وروائع البيان (تفسير آيات الأحكام) ٤٨٧/١. وفيه تفصيل أقوال الفقهاء وحججهم.
- (٣) انظر: الطراز ٣٩/٣، وأنوار الربيع ٦/٥.
- (٤) انظر: ديوان الخطيئة ص ٥٠.

فقد فَهَمَ الزُّبْرَقَانُ أَنَّ الحَظِيئَةَ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَذَرَ المَآثِرَ...، وهل لم يَبْقَ مِنْ مَرُوءَةِ الزُّبْرَقَانِ إِلَّا أَنْ يَجْلِسَ فِي بَيْتِهِ كَالنِّسَاءِ يُطْعَمُ وَيُكْسَى؟! وفي هَذَا إِزْرَاءٌ لَا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، وفيهِ مِنَ الرَّمْيِ بِالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَقِلَّةِ المَرُوءَةِ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ عَرَبِيٌّ، فَقِيلَ: إِنَّهُمَا اخْتَصَمَا إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه)، والحَظِيئَةُ يَزْعُمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ إِلَّا المَدْحَ، وَالزُّبْرَقَانُ مُصِرٌّ عَلَى أَنَّ هَذَا هِجَاءٌ مُوجِعٌ لَا بُدَّ لِلْحَظِيئَةِ أَنْ يَنَالَ عِقَابَهُ عَلَيْهِ، حَتَّى أَرْسَلَ عُمَرُ فِي طَلَبِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمَا^(١).

وإنَّ إِرْسَالَ عُمَرَ فِي طَلَبِ حَسَّانَ لِلْمَشُورَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإِيهَامَ بَلَغَ حَدَّ إِيقَاعِ المُنْتَلَقِي فِي الرِّيبِ، وَيَدُلُّكَ عَلَى الطَّاقَةِ الإِيهَامِيَّةِ الَّتِي حَمَلَهَا الكَلَامُ، فَأَحْوَجَ الأَعْرَابَ الخُلُصَ إِلَى اللُّوْذِ بِالحُكْمِ لِيَفْصَلَ بَيْنَهُمَا، أَمَدِّحُ هَذَا الشَّعْرُ أَمْ هِجَاءٌ؟ وَإِنْ كُنْتُ أَرَى أَنَّ عُمَرَ البَصِيرَ بِتَصْرِيفِ كَلَامِ الْعَرَبِ كَانَ عَارِفًا بِقَصْدِ الحَظِيئَةِ، وَإِنَّا أَرَادَ دَرَّةَ الحَدِّ بِالشُّبْهَةِ. وَمِثْلُ هَذَا الَّذِي يَدْعُو إِلَى الرِّيبِ يَكْثُرُ فِي فنِّ التَّلْمِيحِ.

- (أَوْ يُعَوِّزُهُ إِلَى فَضْلِ تَأْمُلٍ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ المُرَادُ): وَذَلِكَ كَمَا فِي الأَلْغَازِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى أَنَّ تَذَكُّرَ شَيْئًا بِصِفَاتٍ يَشَارِكُ فِيهَا غَيْرُهُ، فَيَرْجِعَ الذَّهْنُ فِي ذَلِكَ إِلَى حَايِرَةٍ لَا يَدْرِي مَصْرِفَهَا إِلَى أَيِّ مُتَصِفٍ مِنْهَا بِتِلْكَ الصِّفَاتِ؛ لَكُونِهَا تَصَدِّقُ مِنْ جِهَةٍ وَتَكْذِبُ مِنْ أُخْرَى، وَهَهُنَا يَكْمُنُ إِيهَامُ المُنْتَلَقِي فِي الإِلْغَازِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ مُلْغِزًا فِي ضِرْسٍ: [البسيط]

وَصَاحِبٍ لَا أَمَلُ الدَّهْرِ صُحْبَتُهُ يَشْقَى لِنَفْعِي، وَيَسْعَى سَعْيِي مُجْتَهِدٌ
لَمْ أَلْقَهُ مَذْ تَصَاحَبْنَا، فَمَذْ وَقَعْتُ عَيْنِي عَلَيْهِ تَفَارَقْنَا إِلَى الأَبَدِ^(٢)

فَهَذَا بَلَا شَكٍّ رِيَاضَةٌ ذَهْنِيَّةٌ تَحْمِلُ المُنْتَلَقِي عَلَى التَّأْمُلِ وَتَدْقِيقِ النِّظَرِ؛ لِأَنَّ الكَلَامَ فِيهِ يُوْهِمُ أَشْيَاءً مُتَعَدِّدَةً بَيْنَهَا صِفَاتٌ مُشْتَرَكَةٌ، بَلْ تَتَوَفَّقُ بَيْنَ المُنْتَاقِضَاتِ، ثُمَّ يَطْلُبُ مِنَ المُنْتَلَقِي حَلًّا.
(أَوْ يَكْسِرُ أَفْقَ التَّوَقُّعِ لَدَيْهِ حَتَّى حِينَ): لَا بُدَّ مِنْ قِرَاءَةِ فَنُونِ البَلَاغَةِ وَالبَدِيعِ خَاصَّةً فِي ضَوْءِ كَسْرِ أَفْقِ التَّوَقُّعِ؛ لِإِمَّا لَهُ مِنْ جَمَالِيَّاتٍ نَصِيَّةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ مِثْلًا تَأْكِيدُ المَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الدَّمَ وَعَكْسُهُ؛ حَيْثُ

(١) انظر: انظر: ديوان الحَظِيئَةِ ص ٥٠، وطبقات فحول الشعراء ١١٦/١.

(٢) انظر: أنوار الرِّيبِ ٤٥/٦.

يَعْمِدُ الْمُتَكَلِّمُ إِلَى تَأْكِيدِ الْمَدْحِ بِاعْتِمَادِ أُسْلُوبِ يُوهْمُ بِأَنَّهُ أَرَادَ الدَّمَّ، وَذَلِكَ أَنَّكَ تُرِيدُ مَدْحَ إِنْسَانٍ، فَتَكَلِّمُ عَنْهُ أَوْ مَعَهُ بِكَلَامٍ يُوهْمُ أَنَّكَ شَرَعْتَ فِي دَمِّهِ، فَإِذَا أَنْتَ تَمْدَحُهُ كَمَا لَ الْمَدْحِ، وَفِي ذَلِكَ مُفَاجَأَةٌ لِدَيْدَةِ السَّمْعِ، وَتَمَكِينٌ لِّلْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ، بَعْدَ أَنْ أَوْهَمْتَهُ وَأَوْقَعْتَ فِي نَفْسِهِ ضِدَّ مُرَادِكَ؛ كَقَوْلِ النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ: [الطَّوِيل]

فَتَى كَمُلْتَ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ، فَمَا يُقَيِّمُ مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا^(١)

وَلَعَلَّ سُلْطَانَ هَذَا الْأُسْلُوبِ مُنْبِعُثٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمُتَلَقِّيَّ يُهَيِّئُ ذَهْنَهُ بَعْدَ سَمَاعِ أَدَاةِ الْإِسْتِثْنَاءِ لِسَمَاعِ مَعْنَى مُخَالَفٍ لِمَا سَبَقَ، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي أُسْلُوبِ الْإِسْتِثْنَاءِ، فَيُفَاجِئُهُ الْمُتَكَلِّمُ بِتَأْكِيدِ الْمَدْحِ السَّابِقِ، وَيَكْسِرُ أَفْقَ تَوَقُّعِهِ، مِمَّا يَدْعُو هَذَا الْمُتَلَقِّيَّ إِلَى التَّنَبُّهِ وَالْيَقَظَةِ، لِأَنَّهُ بُودِرَ بِهَا لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِ، بَلْ إِنَّهُ اسْتَدْرَجَ إِلَى تَوْهَمِ أَشْيَاءَ، ثُمَّ عُوْجِلَ بِخِلَافِهَا.

- (إِذَا قَدْ تَنَتَّصَبُ فِي الْكَلَامِ قَرِينَةً لَفْظِيَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً أَوْ حَالِيَّةً صَارِفَةً لِهَذَا الْوَهْمِ). [إِذَا تَعْلِيلِيَّةً؛ لِنَفْسِ نَوْعِي الْإِيهَامِ الَّذِي يُعْمِي وَيُيْهِمُ كُلِّيًّا، وَالَّذِي يُوهْمُ حَتَّى حِينَ؛ أَقْصَدُ: إِيْهَامًا مُؤَقَّتًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَأْتِي بَعْدَ الْإِيهَامِ قَرِينَةً لَفْظِيَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً أَوْ حَالِيَّةً تُزِيلُ الْإِيهَامَ، وَتَسْتَرِي ذَلِكَ مَبْسُوطًا فِي الْكَلَامِ عَلَى ضَوَابِطِ إِزَالَةِ الْإِيهَامِ.

- (وَقَدْ تُعَدُّمُ) أَي لَا يَتْرُكُ الْمُتَكَلِّمُ لِلْمَتَلَقِّيِّ قَرِينَةً تَهْدِيهِ إِلَى الْمَرَادِ، فَتَتَدَاعَى الْمَعَانِي الْمَحْتَمَلَةُ عَلَى ذَهْنِهِ، وَلَا يَجِدُ مُرْجَحًا بَيْنَهَا، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي أَيِّهَا أَكْرَمُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَبُو بَكْرٍ أَمْ عَلِيٌّ ﷺ؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا سُؤَالَ لَا يَدْرِي جَوَابَهُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ، فَأُجَابَهَا الْمَسْئُولُ جَوَابًا لَا مَزِيدَ فِي الْحُسْنِ عَلَيْهِ؛ إِذْ قَالَ: «الَّذِي كَانَتْ ابْنَتُهُ تَحْتَهُ»^(٢)، فَأَرْضَاهَا مَعًا؛ وَتَسْتَرَاهُ مَوْضَحًا فِي الْكَلَامِ عَلَى الْإِيهَامِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ذَلِكَ تَعْرِيفٌ إِجْرَائِيٌّ لِمَصْطَلَحِ (الْإِيهَامِ الْبَلَاغِيِّ) الَّذِي أَتَى بِهِ الْبَحْثُ، وَيُعَدُّ هَذَا التَّعْرِيفُ رَسْمًا لِحُدُودِ الْبَحْثِ، جَامِعًا لِمَا انْتَوَى إِشْرَاكُهُ مِنَ الْفُنُونِ، مَانِعًا مِنْ إِقْحَامِ غَيْرِهِ، وَإِنَّ الدَّرَاسَةَ سَوْفَ تُبْنَى تَأْسِيسًا عَلَى هَذَا التَّعْرِيفِ.

(١) انظر: ديوان النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ ص ١٧٣، والمَنْزَعُ الْبَدِيعُ ص ٢٨٨. وَعَيْنُ الْفِعْلِ (كَمَل) مُثَلَّثَةٌ.

(٢) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ٢٨ / ٣٧٥.

ثانياً: مُستويات الإيهام.

الإيهام نوعان: بليغٌ وغيرُ بليغ، أو محمودٌ وغيرُ محمود؛ أمّا المحمودُ فلقيمةٌ بلاغيةٌ يُضفيها، وأمّا المذمومُ فكمالُ البلاغة أن يتصَبَّ في الكلام قرينةٌ تُزيلُه. والإيهامُ البليغُ أيضاً نوعان: الأوَّلُ بقصدٍ من المتكلم، والآخَرُ مُتولِّدٌ من طبيعة بناء التَّركيب. والإيهامُ البلاغيُّ منه قصيرُ الأثر كتأكيد المدح بما يُشبه الذَّمَّ وعكسه، ومنه طويلُ الأثر كالنَّورية المُراد بها التَّعمية الكُلِّيَّة.

وللإيهامِ مستوياتٌ مُتباينة؛ فمنه ما يُشفَعُ بقرينةٍ تُزيلُ الإيهامَ، ومنه ما يُرسلُ بلا قرينةٍ؛ لأنَّ المقصودَ به التَّعمية على السَّامع؛ كما في المعارضِ والنَّورية والألغاز والمَلاحن...، وقد يُقصدُ به تكثيرُ احتمالاتِ الدلالة في ذهن السَّامع وعدم قَصْرِ منح التَّركيب على دلالةٍ واحدةٍ ظاهرة؛ كما في الإيهامِ والاتِّساع والوقف الكافي...، وقد يُقصدُ فيه مُجرَّدُ الإيحاء للمتلقي بفكرةٍ ما وإشعاره بصحَّتِها بهدف إقناعه؛ كما في التَّخييل الذي تفعله الصُّورة البلاغية (التَّشبيه، والمَجاز، والاستعارة، والكناية) عندما تستثيرُ تخيُّلةَ المتلقي باستدعاء صورٍ ذهنيَّةٍ غائبةٍ عن مُتناولِ حواسِّه؛ إذ لا يكونُ الهدفُ هنا إيهامُ المتلقي بخلاف الحقائق، بل المقصودُ السَّيطرة على عقله الباطن من خلال التَّخييل الذي يُشعرُه بالفكرة التي تختبئ وراء الصُّورة. ومن الإيهامِ مستوى تأثيره مديد؛ تراه في النُّصوص المفتحة الدلالة التي تحتلُّ التأويل، وتتَّسع فيها الأقوال الصَّحيحة التي لا مُرجَّحَ بينها؛ كما في بعض الآياتِ القرآنيَّةِ الكريمة؛ لأنَّ كُلَّ مُتدبِّرٍ مُتفكِّرٍ قد يهديه هذا النِّصُّ الثَّريُّ الدلالات إلى معاني وتفسيراتٍ جديدةٍ يحتملُها اللَّفظُ، وهذا أمانةٌ على غنى النِّصِّ، ويُسمَّى في البديع بالاتِّساع. ومن الإيهامِ مستوى لا يَقِلُّ عن الاتِّساعِ خطراً؛ لأنَّه يُحدِّدُ للكلام دالتين اثنتين فقط، ولا يتركُ في الكلام ما يُرجَّحُ إحداهما، ويدعُ المتلقي في حيرةٍ لا يهتدي؛ وهذا يُسمَّى بالإيهامِ في فنون البديع. ومن الإيهامِ مستوى عميقٌ لا يُبصرُه إلَّا مَنْ له بَصَرٌ في قراءة النُّصوص، وهذا المستوى يُدعى بالرُّؤية المُبطَّنة، وهو الإحاطة بفلسفة الشَّاعر في الحياة واستنكاؤه رؤيته للذَّاتِ والكونِ من خلالِ النَّظَرِ في أعماقِ النِّصِّ، ومثلُ هذا نراه في مشهَدِ الوقوفِ على الأطلال، ومشهد الحيوان، ورحيل الطَّعائن؛ فالشَّاعرُ يُوهِمنا إذ يتَّخذُ من هذه الأفاصيصِ قناعاً يتخفَّى وراءه؛ ليقدمَ لنا من خلاله رؤيته لذاته

وللكون من حوله، وسوف ترى ذلك في تحليل قصيدة البحريّ والذّئب في الباب الثاني من هذه الدراسة، إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: من سُبُل الإيهام البلاغيّ.

لا حَصَرَ للسُّبُل التي يعتمدُها المتكلِّم لإيهام مُحاطِبيه؛ ولكن لا ريب في أن طرائق الإيهام تستفيد من اللُّغة بمستوياتها الصَّوتية والكتابية والصَّرفية والنَّحوية واللُّغوية، وفنونها البلاغية؛ وسأعطي مثلاً على كُلِّ مِمَّا سبق:

أ - السَّبيل الصَّوتيّ:

ما من ريب في أن المفاصل الصَّوتية والنَّبر والتَّغيم عوامل رئيسة في الكشف عن مُراد الكلام، ولكنَّ تغييب هذه الميزات الصَّوتية قد يُفضي إلى لبس يوهم السَّامع، كما أن في الفنون البلاغية كثيراً من الفنون الموهمة التي تعتمد على التَّصويت، ومن ذلك الجناس التَّام الذي يقوم على إيهام المتلقّي ومخادعته، من حيث يُؤتى باللفظة تُنطق أولاً، ثُمَّ تُعاد عينيها فيظنُّها المتلقّي من باب الإعادة والتَّكرار، فإذا هي كلمة جديدة ومعنى مختلف يُفاجئ المتلقّي؛ فالتَّلَاعِب في الجناس جاء على المستوى الصَّوتيّ.

ومثل ذلك الوقف والابتداء الذي عني به علماء التَّجويد؛ كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فَمَنْ وَقَفَ على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو آخِذٌ بتفسير مَنْ قَالَ: إِنَّ عِلْمَ الْمُتَشَابِهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَإِنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ لَا يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ، بَلْ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَكُلُّ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَهَذَا وَقْفٌ تَامٌ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ قَدْ تَمَّ مَعْنَى، وَمَا بَعْدَهُ مُسْتَأْنَفٌ. وَمَنْ لَمْ يَقِفْ فَهُوَ آخِذٌ بِتفسير مَنْ قَالَ: إِنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ، ف﴿الرَّاسِخُونَ﴾ على هذا معطوفٌ على اسم الجلالة ﴿اللَّهُ﴾، ويكون

وقوفه عندئذٍ على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(١). وقد أفاض المفسرون وعلماء الوقف والمعربون في معاني هذه الآية وما تقود إليه من اختلاف عقدي، بسبب العارض الصوتي الذي جاء انعكاساً للتفسير.

ومن سبل الإيهام على المستوى الصوتي النَّبَرُ والتَّنْغِيمُ والمَطْلُ؛ ومن ذلك أن ابن جني (ت ٣٩٢هـ) أشار إلى ضَرْبٍ من حذف الصِّفَةِ عَجِيبٍ من حيثُ تعاضد فيه الحذف والتَّنْغِيمُ وقرينة الحال؛ إذ قال: «وقد حُذِفَتِ الصِّفَةُ ودَلَّتِ الحالُ عليها. وذلك فيما حكاه صاحبُ الكتاب من قولهم: (سِرَّ عليه ليلٌ)، وهم يريدون: ليلٌ طويلٌ. وكأنَّ هذا إنَّما حُذِفَتْ فيه الصِّفَةُ لِمَا دَلَّ من الحال على موضعها»^(٢). ثمَّ أشار ابنُ جنيِّ إلى التَّنْغِيمِ والنَّبَرِ وأثره في توجيه المعاني بقوله: «وذلك أنَّكَ تُحِسُّ في كلام القائل لذلك من التَّطْوِيعِ والتَّطْرِيحِ والتَّغْخِيمِ والتَّعْظِيمِ ما يقوم مقامُ قوله: (طويلٌ)»^(٣)، وضَرْبٍ على ذلك أمثلةٌ كأن تكونَ آخِذاً «في مَدْحِ إنسانٍ والثناءِ عليه، فتقول: كانَ اللهُ رجلاً، فنزیدَ في قوَّةِ اللَّفْظِ ب(الله) هذه الكلمة، وتتمكَّن في تمطيط اللَّام وإطالة الصَّوت بها وعليها، أي: رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً، وتمكَّن الصَّوت ب(إنسان) وتفخَّمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سَمِحاً أو جواداً أو نحو ذلك. وكذلك إن ذمَّته ووصفته بالضَّيق قلت: سألناه وكانَ إنساناً! وتُزوي وجهك وتُقَطِّبه، فيُغني ذلك عن قولك: إنساناً لئماً أو لحزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك. فعلى هذا وما يجري مجراه تُحذفُ الصِّفَةُ»^(٤)، ومن الأمثلة السَّاطعة على أثر النَّبَرِ والتَّنْغِيمِ في توجيه المعاني قولُ صَدْرِ الدِّينِ بنِ الوكيل: [الطَّويل]

وَبِي مَنْ قَسَا قَلْباً، وَلَانَ مَعَاظِفاً إِذَا قُلْتُ: أَدْنَانِي، يُضَاعِفُ تَبْعِيدِي

أَقْرَبُ بَرِّقٍ؛ إِذَا قَوْلُ: (أَنَالَهُ) وَكَمْ قَالَهَا يَوْمًا، وَلَكِنْ لَتَهْدِيدِي^(٥)

(١) انظر: النُّشْرُ في القراءات العَشْر ١/ ٢٢٧، ومَنَارُ الْهُدَى في بيان الْوَقْفِ والابتداء ١/ ١٢٧، ومِنْ أَسْرَارِ الْجُمْلِ الاستثنائية ٣٢٤-٣٢٥ وفيه إَحَالَاتٌ وافية على مَظَانِّ الْمَسْأَلَةِ.

(٢) انظر: الْخَصَائِصُ ٢/ ٣٧٢.

(٣) انظر: الْخَصَائِصُ ٢/ ٣٧٣.

(٤) انظر: الْخَصَائِصُ ٢/ ٣٧٣.

(٥) انظر: مَعَاهِدُ التَّنْصِيفِ ٣/ ١٨٢، وَأَنْوَارُ الرَّبِيعِ ١/ ٣٨٨.

هذا غَيْضٌ من فيضٍ من أثرِ العوارِضِ الصَّوتِيَّةِ في إيهامِ المخاطَبِ، ولنتنقلُ إلى السَّبيلِ الكِتَابِيِّ.

ب - السَّبيلِ الكِتَابِيِّ:

نراه جَلِيًّا في ظاهرة الإلغاز؛ حينَ تَمْتَرُجُ التَّعمية الصَّوتِيَّة بالتَّعمية الكِتَابِيَّة؛ كقولِ الشَّاعرِ مُلغِزاً:
[الطَّويل]

يُحَوِّفُنِي عَمَراً، وَإِنِّي لَخَائِفٌ عليه إذا ما استسَنَمْتُه المَوَاقِفُ^(١)

ففي هذا البيت مُشكِلاتٌ إعرابِيَّةٌ عِدَّةٌ ستجدُها مبسوطَةً في الكلامِ على ظاهرة الإلغاز، ولكنْ نتوقَّفُ ههنا عندَ التَّرَكيبِ: (وَإِنِّي لَخَائِفٌ)؛ لَأَنَّكَ عندَ سماعِهِ سُرْعَانِ ما يَقْفِزُ إلى تفكيرِكَ وَهُمْ بِأَنَّ هَذَا بِنَاءٌ اللَّغَوِيَّ غَيْرُ جَارٍ عَلَى مَا عَرَفْتَهُ الْعَرَبُ مِنْ قَوَانِينِ الْكَلَامِ، وَتَظُنُّ أَنَّ فِيهِ لَخْنًا، وَالْحَقُّ أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ نَسَجَ كَلَامَهُ عَلَى نَحْوِ أَرَادَ لَهُ أَنْ يُفْضِيَ بِكَ إِلَى بَكَ إِلَى الْوَهْمِ مِنْ خِلَالِ رَسْمِ كِتَابِيٍّ يَأْتَلِفُ مِنْ (وَإِنْ نِيلَ خَائِفًا)، وَقَدْ أَفْضَى إِلَى هَذِهِ التَّعميةِ الْمَقْصُودَةِ الْمُبَالِغِ فِيهَا تَعَاوُذُ التَّعميةِ الْكِتَابِيَّةِ مَعَ تَغْيِيبِ السَّكِّنَاتِ أَوْ الْفَوَاصِلِ الصَّوتِيَّةِ الَّتِي تُجَلِّي الْمَعَانِي (وَإِنْ * نِيلَ * خَائِفًا).

ومثله قولُ الشَّاعرِ: [السَّريع]

هَذَا سُلَيْمَانُ أَبِي جَعْفَرٍ فَقَالَ: بِشَرٍّ أَحْسَنُ هَذَا^(٢)

فمفتاحُ حَلِّ هَذَا اللَّغْزِ أَنْ تَكْشِفَ التَّعميةُ الْكِتَابِيَّةُ الَّتِي لَجَأَ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ؛ حِينَ كَتَبَ (هَاضِي) الْفِعْلَ الْمَاضِيَّ الدَّالَّ عَلَى الْمَشَارَكَةِ، عَلَى هَيْئَةِ اسْمِ الْإِشَارَةِ (هَذَا)، وَلَعَلَّ لِقَلَّةِ اسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ (هَاضِي) وَكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِ اسْمِ الْإِشَارَةِ (هَذَا) أَثَرًا فِي نُزُوعِ الْخَاطِرِ إِلَى تَوْهْمٍ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ اسْمُ الْإِشَارَةِ، وَأَنْتَ تَرَى بِجَلَاءٍ أَثَرَ الرَّسْمِ الْكِتَابِيِّ الْمُخَالِفِ لِمَا تُعَوِّفُ عَلَيْهِ فِي تَضْلِيلِ الْمُتَلَقِّي وَتَقْوِيَةِ الْوَهْمِ النَّاتِجِ مِنَ التَّمَثُّلِ الصَّوتِيِّ.

(١) انظر: الانتخاب لكشف الأبيات المُشكِلة الإعراب ص ٦٠. استسمنته: رفعته وجعلته كالسنام.

(٢) انظر: الانتخاب لكشف الأبيات المُشكِلة الإعراب ص ٣٩.

إِنَّ تَلَمَّسَ النَّوَامِيسِ الْفَاعِلَةَ فِي تَشْكِيلِ أُبْنِيَةِ الْكَلِمِ يَكْشِفُ يَدَ الْعَوَارِضِ التَّصْرِيفِيَّةِ فِي اجْتِمَاعِ قَالِبَيْنِ عَلَى مَبْنَى وَاحِدٍ، وَافْتِرَاقِهِمَا فِي الْمَعْنَى، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَجَعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى﴾ (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿طه: ٥٨-٥٩﴾؛ فَلَفْظُ ﴿مَوْعِدًا﴾ فِي هَذَا السِّيَاقِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُصَدَّرًا، وَيَعْضُدُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿لَا نُخْلِفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ زَمَانٍ، وَيَعْضُدُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ مَكَانٍ، وَيَعْضُدُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿مَكَانًا سَوَى﴾^(١)

وَمِنْ أَسَالِيبِ النَّهْيِ الَّتِي قَدْ تَخْفَى وَتَلْتَسِ، فَتَدُلُّ عَلَى مَعْنَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ؛ لِعَارِضِ تَصْرِيفِيٍّ فِي أَحْوَالِ الْكَلِمَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فَلَيْسَ وَاضِحًا أَنَّ الْمُضَارَّةَ تَأْتِي مِنْ جِهَةِ الْكَاتِبِ وَالشَّهِيدِ، أَمْ تَقَعُ بِهِمَا، وَذَلِكَ أَنَّ الْفِعْلَ مُدْغَمَ الْعَيْنِ وَاللَّامِ، وَهَذَا يُخْفِي حَرَكَتَيْهِمَا عَلَى الْمُتَلَقِّي، فَالْفِعْلُ الْمَجْزُومُ ﴿لَا يُضَارَّ﴾ يَحْتَمِلُ بِنَاءَيْنِ: لِلْفَاعِلِ، وَالْمَفْعُولِ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ قَبْلَ الْإِدْغَامِ (لَا يُضَارَرُ) بِفَتْحِ الرَّاءِ، فَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَكُونَ الْكَاتِبُ وَالشَّهِيدُ مَفْعُولًا بِهِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُمَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ: (لَا يُضَارِرُ) بِكَسْرِ الرَّاءِ، فَيَلْزَمُ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونَ الْكَاتِبُ وَالشَّهِيدُ فَاعِلَيْنِ، وَثُمَّ قِرَاءَةُ بِإِظْهَارِ التَّضْعِيفِ مَفْتُوحًا، وَأُخْرَى بِإِظْهَارِهِ مَكْسُورًا^(٢). وَبِنَاءٍ عَلَى هَذَا الْعَارِضِ التَّصْرِيفِيِّ اخْتَلَفَ فِي تَحْدِيدِ الْمُنْهَى عَنْهُ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، فَقِيلَ: إِنَّ مُضَارَّةَ الْكَاتِبِ أَنْ يَكْتُبَ مَا لَمْ يُمْلَ عَلَيْهِ، وَمُضَارَّةَ الشَّهِيدِ أَنْ يَشْهَدَ بِخِلَافِ الشَّهَادَةِ، وَقِيلَ: إِنَّ مُضَارَّتَهُمَا أَنْ يُنْمَعَا مِنْ أَشْغَالِهِمَا وَيُكَلَّفَا الْكِتَابَةَ وَالشَّهَادَةَ فِي وَقْتٍ يَشُقُّ ذَلِكَ فِيهِ عَلَيْهِمَا^(٣). وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا

(١) انظر: مُغْنِي اللَّيْب ٢/ ٧٧٦-٧٧٧.

(٢) انظر: الْإِنْصَافُ فِي التَّنْبِيهِ عَلَى الْمَعَانِي وَالْأَسْبَابِ ص ٥٤.

(٣) انظر: الْإِنْصَافُ فِي التَّنْبِيهِ عَلَى الْمَعَانِي وَالْأَسْبَابِ ص ٥٣-٥٤.

تُضَاكَرَ وَلِدَهُ يُولَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُوهَا ﴿البقرة: ٢٣٣﴾ على تقدير الباء للسببية أو للوساطة^(١)، وقد علّق ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) على هذا - أقصدُ بناءَ الكلامِ بحيثُ يحتملُ هذينِ المعنيين - بقوله: «ولعلَّ اختيارَ هذهِ المادّةِ هنا مقصودٌ، لاحتمالِها حُكْمَيْنِ؛ ليكونَ الكلامُ مُوجَّهاً فيُحمَلُ على كلا مَعْنِيَيْهِ لِعَدَمِ تنافيهما، وهذا مِنْ وَجْهِ الإعْجَازِ»^(٢).

د - السَّبِيلُ النَّحْوِيّ:

قد يردُّ على المتلقّي جُمْلٌ سَمَحَةُ الْقِيَادِ فِي ظَاهِرِهَا؛ لسهولةِ ألفاظِها، على أنّها مُعْتَصَصَةٌ فِي دَلَالَتِهَا؛ لِمَا يَكْتَفِيهَا مِنْ لَبْسٍ وَاقِعٍ فِي تَرْكِيبِهَا النَّحْوِيّ، وَثَمَّ ظَوَاهِرُ نَحْوِيَّةٍ كَثِيرَةٌ قَدْ تَكُونُ سَبَباً فِي تَخَلُّقِ الْإِيهَامِ فِي الْكَلَامِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَعَدُّدُ احْتِمَالَاتِ عَوْدِ الضَّمِيرِ إِذَا تَقَدَّمَ أَكْثَرُ مِنْ مَرْجِعٍ مُطَابِقٍ لَهُ فِي الْجِنْسِ وَالْعَدَدِ، وَكَانَتْ الْقِرَائِنُ خَفِيَّةً. وَمِثْلُهُ خَفَاءُ الْعَلَامَةِ الْإِعْرَابِيَّةِ كُليّاً (رَأَيْتُ رَفِيقَ أَخِي مُصْطَفَى) أَوْ جُزئياً (اشْتَرَيْتُ قَلَمَ حَبْرٍ أَسْوَدَ). وَمِثْلُهُ الْحَذْفُ الَّذِي يُعَدُّ بَاعِثاً مِنْ بَوَاعِثِ تَعَدُّدِ الْمَعْنَى وَاحْتِمَالَاتِهِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: [الطَّوِيلُ]

وَيَرْغَبُ أَنْ يَنْبِيَ الْعَالِي خَالِدٌ وَيَرْغَبُ أَنْ يَرْضَى صَنِيعَ الْأَلَاثِمِ^(٣)

وَسَتَرَى بَيَانَهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْإِيهَامِ. وَمِنْ بَوَاعِثِ الْإِيهَامِ عَلَى الْمَسْتَوَى النَّحْوِيِّ تَعَدُّدُ دَلَالَاتِ حُرُوفِ الْمَعَانِي؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وَمِثْلُهُ الصِّفَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١] فَقَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّهَا صِفَةٌ مُقَيَّدَةٌ لِلْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَالْحَقُّ أَنَّهَا صِفَةٌ مُلَازِمَةٌ لَهُ. وَكَذَا يُقَالُ فِي الْحَالِ الْوَارِدَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَ الْيَتَامَى أَصْغَفًا مُضْعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]. عَلَى أَنَّ بَوَاعِثَ الْإِيهَامِ عَلَى الْمَسْتَوَى النَّحْوِيِّ مُسْتَفِيزَةٌ لَا بُدَّ أَنْ

(١) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب ص ٥٥ في حاشيته تعليق حسن، والكشاف ١/ ٤٥٦ - ٤٥٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣/ ١١٧.

(٣) انظر: انظر: أنوار الربيع ٢/ ١٣.

يستوعبها كتابٌ يُخصَّصُ لدراسة هذه الظاهرة، ويدرسُ أثرَ مرونة النحو العربي في تخلُّق أساليب الإيهام أو تعدُّد احتمالات المعنى.

هـ - السَّبِيلُ اللُّغَوِيُّ.

نقصدُ باللُّغَوِيِّ ههنا المُعْجَمِيَّ، ولعلَّ أخطرَ بواعثِ اللَّبْسِ والإيهام هو (الاشتراكُ اللَّفْظِيّ) الذي منه تتفرَّعُ ألوانٌ بلاغيَّةٌ موهمةٌ عِدَّةٌ؛ كالنُّورِيَّةِ، والسَّمَلِاحِنِ، والاستخدامِ، والجِناسِ، والأسلوبِ الحكيمِ، والمُؤَاوِزَةِ، الإيهامِ. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرَیْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقولُ عزِّ الدِّينِ المَوْصِلِيِّ: [السَّريع]

لَحَظْتُ فِي وَجْهِهَا شَامَةً فابْتَسَمَتْ تَعَجَّبُ مِنْ حَالِي
قَالَتْ: قِفُوا، وَاسْتَمِعُوا مَا جَرَى قَدْ هَامَ عَمِّي الشَّيْخُ فِي خَالِي^(١)

ومثُلُ ذلك أن تُسألَ: (هل رأيتُ فلاناً؟) وأنت تخشى عليه من التَّلَفِ والهلاكِ من السَّائلِ الظَّالِمِ، فتقولُ: (والله ما رأيتُ فلاناً قطُّ ولا كَلِمَتُهُ)؛ لأنَّ «معنى رأيتُ فلاناً: ضربتُ رِثَّتَهُ، ومعنى كَلِمَتُهُ: جَرَّحَتُهُ»^(٢)، وإذا سألك: هل أعلمتُ فلاناً، قُلْتَ: «والله ما أعلمتُ فلاناً، ولا أعلمني» أي: ما جعلته أعلم، أي: ما شَقَقْتُ شَفَتَهُ العُلْيَا^(٣). وكقولُ البُحْتَرِيِّ: [الكامل]

فَسَقَى الغَضَا والسَّاكِنِيه، وَإِنْ هُمْ شَبَّوهُ بَيْنَ جَوَانِحِ وَقُلُوبِ^(٤)

ومن ذلك ما سَلَفَ أنَّ المتوكِّلَ رمى عُصفوراً فأخطأه، فقال له مُرافِقُهُ في الصَّيْدِ: أحسنتَ والله يا سيِّدي، فاستشاطَ المتوكِّلُ غَيْظاً، وقال: ويلَكَ! أتهزأ بي؟ كيف أحسنتُ! فقال: إلى العُصفورِ يا أميرَ

(١) انظر: أنوار الرِّبيع ١٥/٥.

(٢) انظر: الملاحن ص ٧٠.

(٣) انظر: الملاحن ص ٧٢.

(٤) انظر: ديوان البحتري ٢٤٦/١ وفيه (والنَّازلي) بدل (والسَّاكِنِيه)، وتحرير التَّحْبِيرِ ص ٢٧٥.

المؤمنين، فسكّنَ غَيْظَهُ وضحك^(١)، ومن بواعث الإيهام اللغوية تأرجح الدلالة بين الحقيقة والمجاز؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣].

و - السبيل البلاغي.

ما من ريب في أن معظم فنون البلاغة إنما تُبنى على إيهام المتلقي، وإنما يعودُ جماها إلى مُحَادَعةِ المتلقي ومُحَاتَلَتِهِ؛ كما يرى أرسطو (ت ٣٢٢ ق.م)؛ إذ قال: «ومعظم التعبيرات الرشيقة تنشأ عن المجاز، وعن نوع من التّمويه يدرّكه السّمعُ فيما بعدُ، ويزداد إدراكاً كلّما ازداد علماً، وكلّما كان الموضوعُ مُغَايِراً لما كان يتوقّعه، وكأنّ النفس تقول: (هذا حقٌّ! وأنا التي أخطأت)...، وللسبب عينه كانت الألفاظُ لذيدة...، والتّوريةُ تؤدّي إلى نفس الأثر؛ أعني إلى إثارة الدهشة، وهذه الحيلةُ نجدها في الشعر حينما لا يجيء حسبما يتوقّعه السّامع»^(٢)، وهذا ما عبّر عنه علماءنا بالمصطلحات الآتية: خلاف مُقتضى الظّاهر، والخروج عن الأصل، والعدول، وهذا أيضاً ما أفادت منه نظرية التّلقي حديثاً.

رابعاً: وظائف الإيهام البلاغي.

لا حصرَ لوظائف الإيهام؛ لتنوّعها تنوّعَ مواقف الحياة، وإنّك ستُقابل في أثناء الدّراسة وظائف كثيرة ومواقف متباينة لجأ فيها المُتكلّم إلى أسلوب الإيهام، وتنقسم هذه الوظائف إلى معنوية وفنية؛ سنوردُ ههنا أمثلة معدودة؛ فالشّيء يُعرَفُ من أثره:

من الوظائف المعنوية للإيهام البلاغي	من الوظائف الفنية للإيهام البلاغي
• الإضحاك.	• إثراء الدلالة.
• السّخرية.	• تمكين المعنى في نفس المتلقي.
• التّهريب من المواقف المُحرّجة.	• إيقاظ المتلقي ولفت انتباهه.

(١) انظر: أنوار الربيع ٣٠٣/٢.

(٢) انظر: الخطابة لأرسطو ص ٢٢٦.

- التَّلَطُّفُ ومُراعاة التَّهْذِيبِ الاجتماعيِّ.
- المُبَالَغَةُ.
- التَّعَمُّيَةُ على المُخاطَبِ أو السَّامِعِ.
- إظهار كمال البراعة.
- المُحاجَّةُ والإقناع.

أولاً: الوظائف المعنوية:

١- الإضحاك:

لا مِرَاءَ في أنَّ كثيراً من سُبل الإيهام؛ كالمفارقات، والتَّبَايُنِ في الأفكار، والحِداَعِ العقليِّ، والمفاجأة؛ عناصرُ رئيسةٌ في صُنْعِ اللُّغَةِ المضحكة وطَرْدِ السَّامَةِ والمَلَلِ الذي قد يتسرَّبُ إلى نَفْسِ المتلقِّي، فالفرنسيُّ إيف ديلاج يرى أنَّه «لكي يكون شيءٌ مَّا مُضحكاً ينبغي أن يكونَ بينَ العِلَّةِ والنتيجةِ عدمُ انسجامٍ»^(١). أمَّا زكريا إبراهيم فيظنُّ أنَّ مُباغَةَ المتلقِّي هي أُمُّ الضَّحِكِ ووعاؤه؛ بقوله: «أمَّا فيما يتعلَّقُ بطبيعة الموقف الفكاهي؛ فإنَّ الرَّأيَ يَتَّجِهُ إلى القولِ بأنَّه ينطوي على عنصر (المفاجأة) أو (عدم التوقُّع)»^(٢). وسترى على ذلك أمثلةً في الكلام على حُسْنِ الابتداء وبراعة الاستهلال، وتراؤه في الكلام على التَّهْكُمِ، والموازاة، والهزل الذي يُرادُّ به الجدُّ، والسُّخْريَّةُ في معرض المدح...، وجريز (ت ١١٠ هـ) يُوصي فيقول: «إذا هَجَوْتَ فأضحك»^(٣)؛ وذلك أنَّ السُّخْريَّةَ إذا أتت على سبيل الهزل والإضحاكِ ولبست غيرَ زيِّها أذنتُ باستخفافِ السَّاخِرِ وهوانِ أمرِ المسخورِ منه عليه.

٢- السُّخْريَّة:

إنَّ الهُزءَ والسُّخْريَّةَ مَّا يَطْلُبُ الأسلوبَ الموهِمَ بالحاح؛ وذلك أنَّ السَّاخِرَ أو المستهزئ قد يُضطرُّ إلى إيهام كلامه وإيهام سامعه؛ حتَّى يسهلَ عليه التَّبَرُّؤُ من سُخْريَّته، والتَّقَلُّتُ من عقوبةٍ قد تُنزَلُ به إذا ثبتت عليه السُّخْريَّةُ، كما فعَلَ المتنبيُّ في كافوريَّاته. بعكسِ المديحِ الخالصِ الذي يكونُ قبيحاً في نَفْسِ الممدوحِ إذا كانَ مُحْتَمِلاً لِلضَّدِّينِ.

(١) انظر: الضحك (بحث في دلالة المضحك) ص ١٥١، وقد أورد المؤلف في هذه الصفحة قولَ ديلاج موثَّقاً.

(٢) انظر: سيكولوجية الفكاهة والضَّحِك ص ٩٢.

(٣) انظر: العُمدة ٨٧١ / ٢.

وقد يعتمدُ السَّاحِرُ الأسلوبَ الموهِمَ لا خَشْيَةَ من عقوبةٍ، بل لزيادةِ الهُزءِ والعَبَثِ بِمَهْجُوِّهِ؛ لأنَّ الهِجَاءَ كُلَّمَا كَانَ أَخْفَى كَانَ أَلْذَعُ وَأَشَدَّ إِيْلَامًا؛ كما فَعَلَ بُشَيْرُ بْنُ بُرْدٍ بِالْحَيَّاطِ الْأَعُورِ. ويرى بعضهم أَنَّ خَفَاءَ الهُزءِ أبلغُ من التَّصريحِ، وخاصَّةً إذا كَانَ المهْجُوُّ من ذوي المكانةِ والشَّرَفِ، فَتُسْتَحْسَنُ السُّخْرِيَةُ الْخَفِيَّةُ الْمُوَهِّمَةُ حِينَ «يَكُونُ الْمَهْجُوُّ ذَا قَدَرٍ فِي حَسَبِهِ وَنَفْسِهِ؛ فَأَمَّا إِنْ كَانَ لَا يُوقِظُهُ التَّلْوِيحُ، وَلَا يُؤْلِمُهُ إِلَّا التَّصْرِيحُ فَذَاكَ. وهذه العِلَّةُ اخْتَلَفَ هِجَاءُ أَبِي نُوَّاسٍ. وكذلك هِجَاءُ أَبِي الطَّيِّبِ فِيهِ اخْتِلَافٌ؛ لاختلافِ مراتبِ المهْجُوِّين»^(١)، وإلى ذلك ذَهَبَ السَّجْلَمَاسِيُّ (ت نحو ٨٠٠هـ) إذ رأى أَنَّ وُرُودَ الذَّمِّ في صورةِ المدحِ «أَشَدُّ عَلَى الْمَذْمُومِ مِنْ لَفْظِ الذَّمِّ بَعِيْنِهِ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مَعَ الذَّمِّ نَوْعًا مِنَ الهُزءِ»^(٢)، ومثَالُ ذلك قولُ البَحْرِيِّ يَهْجُو مُعَلِّمًا أَعْرَجَ: [الخفيف]

قد رأينا عَصَاكَ صَفْرَاءَ مَلْسَا ءِ، مِنْ التَّبَعِ بَيْنَ صُغْرَى وَكُبْرَى
جَمَعْتَ خُلَّتَيْنِ: حُسْنًا وَلِينًا لك - ظَنَّنِي - فِيهَا مَا رُبُّ أُخْرَى^(٣)

٣- التَّهْرُبُ مِنْ مَوَاقِفَ مُحَرِّجَةٍ:

إِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَتَعَرَّضُ فِي حَيَاتِهِ لِمَوَاقِفَ مُحَرِّجَةٍ لَا مَنَاصَ لَهُ فِيهَا مِنَ الْكَذِبِ أَوِ الْقَوْلِ الصَّريحِ الَّذِي قَدْ يُودِي بِهِ إِلَّا التَّلَفُ وَالْهَلَاكُ، فَيُلْجَأُ إِلَى أَحَدِ أَسَالِيْبِ الْإِيْهَامِ؛ لِيَنْجُوَ مِنَ الْأَذَى وَالْكَذِبِ كِلَيْهِمَا؛ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا أُدْخِلَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الْوَائِقِ، وَكَانَ الْوَائِقُ يَقُولُ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَيُعَاقِبُ مَنْ يُخَالِفُهُ فِي هَذَا، فَقَالَ لَهُ الْوَائِقُ: مَا تَقُولُ فِي خَلْقِ الْقُرْآنِ؟ فَتَصَامَمَ عَلَيْهِ، فَأَعَادَ السُّؤَالَ ثَانِيَةً، فَقَالَ: مَنْ تَعْنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: إِيَّاكَ أَعْنِي، فَقَالَ: (مَخْلُوقٌ). وَهُوَ يَعْنِي نَفْسَهُ، فَتَخَلَّصَ مِنْهُ^(٤) بِأَسْلُوبِ الْمَوَازَبَةِ كَمَا رَأَيْتَ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ بَعْضَ الْخَوَارِجِ ظَفَرُوا بِرَجُلٍ، وَقَالُوا لَهُ: إِبْرَأْ مِنْ عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ، فَقَالَ: (أَنَا مِنْ عَلِيٍّ وَمِنْ عُثْمَانَ أَبْرَأُ)^(٥)، فَأَفْلَتَ بِهَذَا الْإِيْهَامِ مِنْهُمْ؛ إِذْ عَمَّى عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ كَلَامَهُ كَمَا تَرَى يَحْتَمِلُ

(١) انظر: العُمدة ٢/ ٨٧١.

(٢) انظر: المنزَع البديع ص ٢٩٧.

(٣) انظر: ديوان البُحْرِيِّ ١/ ٦٨.

(٤) انظر: شرح مقَات الحريريِّ للشَّريشيِّ ٢/ ٤٥١. (دار الكتب العلميَّة).

(٥) انظر: المثل السائر ١/ ٦٨.

مَعْنَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْهُمَا جَمِيعاً ﷺ؛ إِذَا كَانَتِ الْوَاوُ لِلْعَطْفِ، وَالثَّانِي: أ. عُمَانٌ وَحْدَهُ، إِذَا كَانَتِ الْوَاوُ لِلِاسْتِثْنَاءِ.

٤ - التَّلَطُّفُ وَمُرَاعَاةُ التَّهْذِيبِ الْاجْتِمَاعِيِّ:

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ بَعْضَ أَسَالِيبِ الْإِيهَامِ الْبَلَاغِيِّ تُعَدُّ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ التَّهْذِيبِ الْاجْتِمَاعِيِّ؛ فَلِغَةِ الْقَوْمِ مِرَآةٌ لِنَفْسِهِمْ وَعَقُولِهِمْ. وَسُمُوُّ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ انْعِكَاسٌ لِسُمُوِّ طِبَائِعِ أَهْلِهَا، فَالْعَرَبُ مَثَلًا تَتَلَمَّسُ أَحْسَنَ الْحِيلِ وَأَدْنَاهَا إِلَى الْحِشْمَةِ وَالْأَدَبِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ أُمُورِ الْعَوْرَاتِ وَكُلِّ مَا يُسْتَهْجَنُ ذِكْرُهُ، فَتَلْجَأُ إِلَى التَّلَطُّفِ فِي الْكَلَامِ، فَتَبْلُغُ غَرَضَهَا بِالطَّفِيفِ أَسْلُوبٍ وَأَحْسَنِ تَعْبِيرٍ بَعِيدًا عَنِ الْكَشْفِ وَالتَّصْرِيحِ، وَيَعْبِوْنَ عَلَى الرَّجُلِ إِذَا كَانَ يَكْاشِفُ فِي ذَلِكَ، بَلْ إِنَّهُمْ كَانُوا يَأْتَفُونَ سَمَاعَ الْفُحْشِ وَالحَنَا فَضْلًا عَنِ التَّلَفُّظِ بِهِ.

وإِنَّ مِنْ أَسَالِيبِ الْإِيهَامِ مَا يَكُونُ وَسِيلَةً بَارِعَةً لِتَلطِيفِ الْكَلَامِ، وَتَخْفِيفِ وَقْعِهِ، وَإِبْدَالِ الْكَلِمَةِ أَوْ التَّعْبِيرِ الْحَادِّ بِمَا هُوَ أَقْلُ مِنْهُ حِدَّةً وَأَكْثَرُ قَبُولًا، وَمِنْ ذَلِكَ رُكُوبُ الْكِنَايَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ أُمُورِ الْحَيَاءِ وَعِلَاقَةِ الرَّجُلِ بِحَلِيلَتِهِ، وَقَدْ عَلَّمَنَا الْبَيَانُ الْإِلَهِيُّ الْأَدَبَ وَالتَّلَطُّفَ فِي الْقَوْلِ بِمَا أوردَهُ مِنَ الْكِنَايَاتِ اللَّطِيفَةِ وَالتَّعْرِیضَاتِ الْمُسْتَحْسَنَةِ؛ كَقَوْلِهِ فِي الْكِنَايَةِ عَنِ الْجَمَاعِ: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النِّسَاء: ٢١]، وَ﴿فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الْأَعْرَاف: ١٨٩]، وَ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النِّسَاء: ٤٣]، وَ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ [مَرْيَم: ٢٠]، «وَهَذِهِ وَأَشْبَاهُهَا فِي كَلَامِ اللَّهِ آدَابٌ حَسَنَةٌ، عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَعَلَّمُوا وَيَتَأَدَّبُوا بِهَا وَيَتَكَلَّفُوا مِثْلَهَا فِي مُحَاوَرَتِهِمْ وَمَكَاتِبَتِهِمْ»^(١)، وَقَدْ عَزَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْجُرْجَانِيُّ (ت ٤٨٢ هـ) لَجُوءِ الْعَرَبِ عَمُومًا إِلَى رُكُوبِ الْكِنَايَةِ بِأَنَّهُ: «لِلتَّحَرُّزِ عَنْ ذِكْرِ الْفَوَاحِشِ السَّخِيفَةِ بِالْكِنَايَاتِ اللَّطِيفَةِ، وَإِبْدَالِ مَا يَفْحُشُ ذِكْرُهُ فِي الْأَسْمَاعِ بِمَا لَا تَنْبُو عَنْهُ الطَّبَاعُ، وَمِنْهَا تَرَكُّ اللَّفْظِ الْمُتَطَيَّرِ مِنْ ذِكْرِهِ إِلَى مَا هُوَ أَجْمَلُ مِنْهُ...»^(٢).

(١) انظر: الكشاف ١/ ٤٣٤.

(٢) انظر: الْمُتَخَبُّ مِنْ كِنَايَاتِ الْأَدْبَاءِ وَإِشَارَاتِ الْبُلْغَاءِ ص ٥-٦.

وأشار الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) إلى أمر هو غاية في مُراعاة التهذيب الاجتماعي، حين رأى أنَّ الكناية والتعريض أبلغ في التوبيخ؛ «مِنْ قَبْلِ أَنْ التَّامَّلَ إِذَا أَدَّاهُ إِلَى الشُّعُورِ بِالْمُعَرَّضِ بِهِ، كَانَ أَوْقَعَ فِي نَفْسِهِ، وَأَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنْ قَلْبِهِ، وَأَعْظَمَ أَثَرًا فِيهِ، وَأَجْلَبَ لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبُّه على الخطأ فيه مِنْ أَنْ يُبَادِرَهُ بِهِ صَرِيحًا، مع مُراعاة حُسْنِ الْأَدَبِ بِتَرْكِ الْمُجَاهَرَةِ»^(١)، وأشار في موضع آخر من تفسيره الكشاف إلى أثر الإيهام بالتعريض في حُسْنِ تربية الأولاد؛ إذ قال: «أَلَا تَرَى إِلَى الْحُكَمَاءِ كَيْفَ أَوْصَوْا فِي سِيَاسَةِ الْوَلَدِ إِذَا وَجِدَتْ مِنْهُ هَنَةٌ مُنْكَرَةٌ أَنْ يُعَرَّضَ لَهُ بِإِنْكَارِهَا عَلَيْهِ وَلَا يُصْرَحَ. وَأَنْ تُحْكِيَ لَهُ حِكَايَةً مُلَاحِظَةً لِحَالِهِ إِذَا تَأَمَّلَهَا اسْتَسْمَجَ حَالُ صَاحِبِ الْحِكَايَةِ، فَاسْتَسْمَجَ حَالُ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ أَرْجَرُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ يَنْصُبُ ذَلِكَ مِثَالًا لِحَالِهِ وَمَقْيَاسًا لَشَأْنِهِ، فَيَتَصَوَّرُ قُبْحَ مَا وَجَدَ مِنْهُ بِصُورَةٍ مَكْشُوفَةٍ، مع أَنَّهُ أَضْوَنَ لِمَا بَيْنَ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ مِنْ حِجَابِ الْحِشْمَةِ»^(٢). وثمَّ وجوهٌ مُستفيضةٌ تُريك أثر الإيهام في التلطف ومُراعاة التهذيب الاجتماعي تُجدها مَبْثُوثَةً في أثناء الدِّراسة.

٥ - التَّعْمِيَّةُ عَلَى الْمُخَاطَبِ أَوْ السَّامِعِ:

مواقفٌ كثيرةٌ في الحياة تدعو المتكلم إلى التَّعْمِيَّةِ عَلَى الْمُخَاطَبِ أَوْ السَّامِعِ، ومن ذلك أنَّ أبا بكر الصِّدِّيقَ (ع) في خروجه مع الرَّسُولِ (ص) مِنَ الْغَارِ إِلَى الْمَدِينَةِ، سُئِلَ عَنِ النَّبِيِّ (ص)، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَنْ هَذَا؟ - وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَسْعَى فِي إِثْرِهِمَا - فَقَالَ: «هَادٍ يَهْدِينِي السَّبِيلَ»؛ أَرَادَ سَبِيلَ الْخَيْرِ وَالْإِيمَانِ، وَوَرَى عَنْهُ بَهَادِي الطَّرِيقِ^(٣)، فَقَدْ قَصَدَ إِلَى التَّعْمِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ عَلَى الْمُخَاطَبِ خَوْفًا عَلَى الرَّسُولِ وَالِدَعْوَةِ مِنَ التَّلَفِّ وَالْهَلَاكِ.

ومنه أيضاً أنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ (ص) قَالُوا: السَّأَمُ عَلَيْكَ، أَوِ السَّأَمُ عَلَيْكُمْ؛ بِمَعْنَى: (الْمَوْتُ لَكُمْ)، وَهُمْ يُؤْهِمُونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَكَانَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ يَرُدُّ تَحِيَّتَهُمْ

(١) انظر: الكشاف ٢٥٣/٥.

(٢) انظر: الكشاف ٢٥٣/٥.

(٣) انظر: صحيح البخاري ١٤٢٣/٢ (رقم الحديث - ٣٦٩٩)، وأنوار الربيع ٦/٥.

بقوله: (وعليكم)^(١)، فحسب. ولأجل ذلك نزلت الآية الكريمة ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨].

ومن التعمية أيضاً ما يكون مقصوداً به السامع دون المخاطب؛ حين يكون للكلام ظاهرٌ وباطنٌ، والمتكلمٌ يُوهمُ ويأتي بالرموز؛ ليفهم مخاطبه دون سائر السامعين، ومن ذلك أن رجلاً كان قاعداً على جسر بغداد، فأقبلت من الرصافة امرأة بارعة الجمال إلى الجانب الغربي من الجسر، وأقبل شابٌ من جانبه الشرقي، ولما التقيا قال لها: (رحم الله علي بن الجهم)، فقالت له: (رحم الله أبا العلاء المعري)، وما وقف، بل ساراً مغرباً ومشرقاً، قال الرجلُ القاعدُ على الجسر: فتبعْتُ المرأة، فقلتُ لها: لكن لم تقولي لي ما أرادَ بـ(ابن الجهم)، وما أردتِ بـ(أبي العلاء) لأفصحَنَ أمرك، فقالت: أرادَ به قوله: [الطويل]

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجَسْرِ جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَذْرِي وَلَا أَذْرِي^(٢)

وأردتُ أنا بأبي العلاء قوله: [الطويل]

فِي دَارِهَا بِالْخَيْفِ إِنَّ مَزَارَهَا قَرِيبٌ، وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ أَهْوَالُ^(٣)

وإخال أن مرجع الخلابه والسحر في هذا التلميح ذاك الإيهام، وذلك الوحي الخفي الخاطف، فالبلغ قد يكلف فن التلميح عبء التعبير عن مكنونات نفسه للآخرين بكل ملاحية وظرافة...، ألا ترى كيف سعى المتكلم ههنا إلى إخفاء مقصده عن السامعين كلهم إلا عمَّن عناه بالخطاب، ومثل هذا يُقال في قصة الربيثة التي تقدّمت قبل قليل، وفي قصة الأسير العنبري، وفي جارية مالك بن أسماء الفزاري، على أن هذا الضرب من الإيهام في حاجة إلى مخاطب فطن ذي بصير بأعطاف الكلام.

(١) انظر: صحيح البخاري ٢٢٤٢/٥ - ورقم الحديث (٥٦٧٨).

(٢) انظر: ديوان علي بن الجهم ص ١٤١.

(٣) انظر: أنوار الربيع ٢٩٥/٤.

إِنَّ الْحِجَاجَ وَالْإِقْنَاعَ مِنْ أَكْثَرِ الْمَوَاطِنِ حَاجَةٌ إِلَى الْإِيهَامِ وَالتَّعْرِيزِ وَالبُعْدِ عَنِ الشَّدَّةِ وَالْفَظَاطَةِ فِي الْجَدَلِ، وَذَلِكَ لِلتَّلَطُّفِ بِالْخُصْمِ، فَكَمْ مِنْ رَجُلٍ اقْتَنَعَ قَلْبُهُ، وَلَكِنَّهُ نَفَرَ وَأَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ؛ لِفَظَاطَةِ مَنْ يُحَاجِّجُهُ! وَإِنَّ مَوَاضِعَ كَثِيرَةً مِنَ الْبَيَانِ الْقِرَآئِيِّ اعْتَمَدَتْ عَلَى أَسْلُوبِ الْإِيهَامِ الْبَلَغِيِّ؛ لَتُعَلِّمَنَا التَّلَطُّفَ بِالْخُصْمِ فِي الْحِجَاجِ وَالْإِقْنَاعِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فَهَذَا الْكَلَامُ يُفْهَمُ مِنْ بَاطِنِهِ أَنَّ الْكُفَّارَ عَلَى غَيْرِ هُدًى، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ عَلَى الْهُدَى، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ لَا يَشِي بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ. وَوَجْهُ الْإِيهَامِ هَهُنَا أَنَّ الْمُحَاجِّجَ مَزَجَ يَقِينَهُ بِالشَّكِّ ظَاهِرِيًّا؛ حِينَ اخْتَارَ (أَوْ) بِقَصْدِ الْإِيهَامِ عَلَى السَّامِعِ؛ تَسْمُحًا مَعَ الْخُصْمِ، وَمُجَارَاةً لَطِيبَةَ الْجَدَلِ، وَإِنْ كَانَ فِي دَاخِلِهِ يَقِينٌ لَا يُحَاسِرُهُ شَكٌّ بِأَنَّهُ سَائِرٌ عَلَى مَنْهَجِ الْحَقِّ، وَلَكِنَّهُ مُؤْمِنٌ أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي الدَّعْوَةِ تَقْتَضِي أَنَّكَ إِذَا أَفْحَمْتَ مُجَادِلَكَ وَأَقَمْتَ عَلَيْهِ الْبُرْهَانَ أَنْ تَعْدِلَ فِي خِطَابِهِ مِنَ التَّصْرِيحِ إِلَى التَّعْرِيزِ، وَفِي هَذَا الْإِيهَامِ حُسْنُ خُطَابٍ وَتَلَطُّفٌ مَعَ الْخُصْمِ؛ حَتَّى يَكُونَ الْكَلَامُ أَدْعَى إِلَى الْإِيهَامِ، وَقَدْ قَالَ الزَّخَشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «وَهَذَا مِنَ الْكَلَامِ الْمُنْصِفِ الَّذِي كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ مِنْ مُوَالٍ أَوْ مُنَافٍ.... قَالَ لِمَنْ خُوطِبَ بِهِ: قَدْ أَنْصَفَكَ صَاحِبُكَ، وَفِي دَرَجِهِ [يَقْصِدُ دَرَجَ كَلَامِهِ تَعَالَى وَسِيَاقَ الْآيَةِ] بَعْدَ تَقْدِيمَةِ مَا قَدَّمَ مِنَ التَّقْرِيرِ الْبَلِغِ دَلَالَةً غَيْرُ خَفِيَّةٍ عَلَى مَنْ هُوَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ هُوَ فِي الضَّلَالِ الْمُبِينِ، وَلَكِنَّ التَّعْرِيزَ وَالتَّوْرِيَةَ أَنْضَلُ [بِمَعْنَى: أَرْمِي] بِالْمُجَادِلِ إِلَى الْغَرَضِ، وَأَهْجَمُ بِهِ عَلَى الْغَلْبَةِ، مَعَ قِلَّةِ شَغْبِ الْخُصْمِ وَقِلَّةِ شَوْكِهِ بِالْهُوَيْنَى، وَنَحْوُهُ قَوْلُ الرَّجُلِ لِمُصَاحِبِهِ: (عَلِمَ اللَّهُ الصَّادِقَ مِنِّي وَمِنْكَ، وَإِنْ أَحَدُنَا لَكَاذِبٌ)»^(١). وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ كَسَرَ الْأَصْنَامَ ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْيَتِيمُ ٱتَّخِذْ لَكَ آلِهَةً إِنْ كُنْتَ تُفْعَلُ﴾ [١٢] قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿[الأنبياء: ٦٢-٦٣] وَتَجَدُّ التَّعْلِيقِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ وَافِيًّا فِي الْكَلَامِ عَلَى أَسْلُوبِ التَّعْرِيزِ.

(١) انظر: الكشَّاف ١٢١/٥.

ثانياً: الوظائف الفنية:

١ - إثراء الدلالة:

إنَّ إثراء دلالة الكلام وتوسيع مضامينه أسمى غاية فنية يقصدها الإيهام البلاغي، فأنت قد تُقابلُ نصوصاً أدبيةً مُنفحةً على فضاءاتٍ رَحبةٍ من التأويل لِمَا فيها من ألوانِ الإيهامِ البلاغيّ التي تمنحُ النصَّ حياةً وتجّداً، لتعدّدِ معانيه بتعدّدِ قراءاته - بما يحتمله اللفظُ ومن دون تمحُّلٍ - وتباینُ هذه المعاني والتأويلاتُ بتباينِ المرجعية الفكرية والثقافية والاجتماعية التي يستندُ إليها كلُّ مُتلقٍ؛ فتمنحه سُلطةً تُمكنه من المشاركة في العملية الإبداعية؛ بقراءةٍ تفاعليةٍ تُعيدُ تشكيلَ النصِّ؛ ليستنطقَ النصَّ طالباً منه البوحَ بمخبوئه، وليقولَ المؤلفَ ما لم يقل، فيكونَ تأويله هذا إبداعاً على الإبداع، وليأتي بتأويلاتٍ بديعةٍ لم تكن لتخطرَ في بالِ المبدع وهو يصوغُ تجربته الأدبية. وهذا لا ينفي ما للمبدع من أثرٍ في إثراء نصّه بالدلالات المتعددة؛ لأنَّ هذا الإثراء والإيهام قد يكون مقصوداً؛ لأسبابٍ شتى؛ كما في الأدبِ الصوفي، وفي تصريحاتِ دُعاةِ السَّاسة، فضلاً عن البيانِ القرآني العظيم.

ومن هنا يبرزُ الفرقُ بينَ النصوصِ الفقيرةِ الدلالاتِ وبينَ النصوصِ الغنية، وتبرزُ الفروقاتُ أيضاً بينَ المتلقين؛ فللنصِّ معنى ظاهرٌ قد يكون مشاعاً لكلِّ مُتلقٍ، ومعانٍ أُخرى لا يستدعيها من رُقادها إلا المتلقّي الفطن، على ألا يشتطَّ هذا المتلقّي في تأويلاته بعيداً عن السياقِ ومُوافقةِ التأويلِ لمقتضى حالي المتكلم والمُخاطب. وسوف تجدُ على ذلك أمثلةً كثيرةً في الدِّراسة؛ أبرزها الاتِّساعُ البلاغي، والكنائية، والوقفُ الكافي... إلخ.

٢ - تمكينُ المعنى في نفسِ المتلقّي:

إنَّ أساليبَ الإيهامِ جُملةً تُحوِّجُ المتلقّيَ إلى التأمُّلِ وتدبُّرِ أعطافِ الكلام، وهذا من شأنه تمكينُ المعنى في النفس؛ لأنَّ المرءَ إذا بذلَ جُهداً في فهمِ الكلام، وتحليلِ بنيته، وتحصيلِ معناه، ووصلَ بنفسه إلى المراد، اطمأنَّ هذا المرادُ في نفسه، واستقرَّ في ذهنه، وكان أثرُهُ أرسخَ في الذِّهنِ وأبقى من الكلام الظاهرِ المعاني.

وأشار إلى ذلك ابن رشيقي (ت ٦٣٤هـ) في كلامه على خفاء الهجاء؛ بقوله: «وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح؛ لاتساع الظن في التعريض، وشدة تعلّق النفس به، والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته، فإذا كان الهجو تصريحاً أحاطت النفس به علماً، وقبلته يقيناً في أول وهلة، فكان كل يوم في نقصان؛ لنسيان أو ملل يعرض...»^(١)، وكذا عبد القاهر (ت ٤٧٤هـ) بقوله: «ومن المركز في الطبع أن الشيء إذا نبّل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومُعانة الحنين نحوه، كان نيّله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجّل والطف، وكانت به أضنّ وأشغف، ولذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرّد الماء على الظمأ»^(٢).

وإن لمخالفة أفق التوقع التأثير ذاته؛ لأن الكلام إذا أتى - والمتلقّي لا يتوقعه ولا يترقّبه - كانت النفس أكثر استطرافاً له، وأشدّ تنبّهاً إليه، وأكبر تعجباً منه، وتعظيماً له، وابن جنيّ (ت ٣٩٢هـ) يقول: «عادة منهم [يقصد العرب] متى أرادوا أن يعلموا اهتمامهم بأمر، وعنايتهم به، أخرجوه عن بابيه، وأزالوه عما عليه نظائره»^(٣)، والجاحظ (ت ٢٥٥هـ) يقول: «الشيء من غير معدّنه أغرب، وكلّما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلّما كان أبعد في الوهم كان أظرف، وكلّما كان أظرف كان أعجب، وكلّما كان أعجب كان أبعَد... والناس موكّلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد...»^(٤). ولعلّ التّمكين من أبرز الغايات الفنية للإيهام البلاغيّ، وليس هناك من فنّ بلاغيّ موهم إلا والتّمكين من غايته، وهذا ما ستراه في تحليل النماذج البلاغية في الدراسة، ومن ذلك مثلاً الاستطراد، والحذف.

٣- إيقاظ المتلقّي ولفت انتباهه:

إن كثيراً من أساليب الإيهام البلاغيّ تعتمد على الخداع العقليّ، وعلى مُداهاة المتلقّي ومُخاتلته، وكسر أفق توقّعه، وهذا من شأنه أن يُوقظ غفلة المتلقّي، وأن يشدّ انتباهه إلى النصّ، وأن يُنشّط فعاليّته الإدراكية، ومن ذلك قول جميل: [الطويل]

(١) انظر: العُمدة ٢/ ٨٧١.

(٢) انظر: أسرار البلاغة ص ١٣٩.

(٣) انظر: سرّ الصّناعة ٢/ ٢٥٩. (دار الكتب).

(٤) انظر: البيان والتبيين ١/ ٨٩.

ألا أيها النّوّام - ويحككم - هُبّوا أسألكم: هل يقتل الرّجل الحُب؟^(١)

والبيت المشهور لبدويّ الجبل: [السيط]

آه على سكرة في حُرمة الأزهر من حُرمة الله لا من حُرمة البشير

فإنّ الشّاعر ههنا يعتمد أسلوب الخداع؛ إذ قدّم بكلام استطاع من خلاله أن يستدرج تفكير المتلقّي وتوقعاته نحو جهة مُعيّنة، ثمّ أتى بمفارقة كسرت أفق التّوقع لدى المتلقّي، وبادرت به بما لم يكن يتوقّع، فكانت كفيلاً بتنشيطه، وإيقاظ حسّه الجمالي، وإثارة إدراكه الانفعالي؛ لأنّ عنصر المفاجأة شكّل منبهاً أسلوبياً يحفّز إدراك المتلقّي. وهذه الوظيفة تراها في التهكم، والجناس، وتأكيد المدح بما يُشبه الذّم، وكثير من الفنون البلاغية التي تناولتها الدّراسة.

٤ - المُبالغة:

لا ريب في أنّ المُبالغة أصل من أصول البلاغة العربيّة، وقضيّة جامعة موزعة - كالإيهام - على مباحث بلاغيّة كثيرة، وإنّك لتلاحظ أنّ البلغاء قد يلجؤون إلى الأساليب الموهمة بقصد المُبالغة في المعاني، كما في التّخيل، والاستطراد، والتّجريد، وحُسن التّعليل، وتجاهل العارف... إلخ.

٥ - إظهار كمال البراعة:

عادةً من الأدباء أنّهم يتنافسون في إظهار البراعة والمقدرة على إغماض الكلام والعبث بالمُخاطبين، وفي تحميل النّصّ دلالاتٍ مُتعدّدة، لنرى الألفاظ اليسيرة تستوعب المعاني الكثيرة، وقد رأى كثيرٌ منهم في أساليب الإيهام البلاغيّ ساحاً رخباً لإظهار مقدّرتهم؛ فأكثرُوا من هذه الأساليب الموهمة، فمنهم من أجاد وحاز إعجاب النّقاد وثناءهم، ومنهم من تكلف واعتسف، فطمس وجه البيان، وسام هذه الأساليب خسفاً؛ على أنّ هذه الدّراسة اقتصرّت على النّمادج المشرقة الزّاهية، فمن ذلك قصّة التّحدّي بين بشارٍ والخياط الأعرور: [جزء الرّمّل]

جاء من زيد قبّاء ليأت عينيه سواء!

(١) انظر: ديوان جميل بُينة ص ٢٣.

قُلْ لِمَنْ يَعْرِفُ هَذَا: أَمْدِيحُ أَمْ هَجَاءٌ؟^(١)

فالبيت الثاني يُشيرُ بما لا يدَعُ مجالاً للشكِّ إلى أنَّ غايةَ الشَّاعرِ من هذا الإيهام لم تكنْ إلَّا التَّفَاخُرَ بالبراعةِ والمقدِّرة على التَّصَرُّفِ بالكلام على وجوهٍ مُختلفة.

ومن سُلوكِ سبيلِ الإيهام؛ لإظهارِ البراعةِ ما تراه في كتابِ صغيرِ الجِرمِ وسَمَه صاحبُه ابنُ فارس (ت ٣٩٥ هـ) بـ (فُتْيَا فقيه العرب)^(٢) وعائى فيه الأذهانَ مُعايَاةً لُغويَّةً، فتابعَه الحريريُّ (ت ٥١٦ هـ) بمقامةٍ طريفةٍ سَمَّاها (الطَّيِّبَةُ) يسيرُ فيها على منوالِ ابنِ فارس في فُتْيَاه، ومن ذلك شُيُوعُ ظاهرةِ الإلغازِ في بعضِ العُصور، ومنه إِنْقالُ الأدبِ بالتَّوريةِ والجِناسِ تَفَاخُراً عندَ كثيرٍ من أدباءِ العُصورِ المتأخِّرة.

خامساً: ضوابط إزالة الإيهام.

لا ينبغي للمتكلِّم الذي يقصِدُ سُبُلَ الإيهامِ البلاغيِّ أن يدعَ كلامه عَامِضاً غُفْلاً من القرائنِ التي تُزيلُ الوَهْمَ، وتُهدي المتلقِّي إلى المُراد؛ إلَّا إنْ هو نوى التَّعميةَ الكُلِّيَّةَ، وقد أشارتِ الدَّراسةُ إلى كثيرٍ من ضوابطِ إزالةِ الإيهامِ ووسائلِهِ؛ فمنها القرائنُ العقليةُ واللَّفْظيةُ والحاليةُ. والسيَّاقُ معدودٌ في القرائنِ اللَّفْظيةِ، ومنها الفنونُ البلاغيةُ المختلفةُ التي تُزيلُ الإيهامَ؛ كالاِحتِراسِ، والاستدراكِ، والوقفِ والابتداءِ، والتَّنْبِيهِ والتَّعْغِيمِ، ولُغةِ الجَسَدِ، ومنها الفصلُ والوصلُ، وسنوردُ ههنا أربعةَ أمثلةٍ على عَمَلِ القرائنِ في إزالةِ الإيهامِ: القرينةُ اللَّفْظيةُ، والقرينةُ العقليةُ أو المعنويةُ، والقرينةُ الحاليةُ، واجتماعُ القريتين اللَّفْظيةِ والعقليةِ.

أ - القرينةُ اللَّفْظيةُ؛ كما في قولِ ابنِ الرُّومِيِّ: [البسيط]

لئنْ فَخَرْتُ بِأَبَاءِ ذَوِي حَسَبٍ لَقَدْ صَدَقْتُ، وَلَكِنْ يَنْسُ مَا وَلَدُوا^(٣)

(١) مُلَحَق ديوان بشار بن برد ٩/٤، ومعاهد التَّنْصيص ١٣٨/٣. والقَبَاءُ: ضربٌ من الثَّياب.

(٢) نُشِرَ في مجلَّةِ المجمع العلميِّ العربيِّ بدمشق، المجلد ٣٣ - ص ٤٤٣ وما بعدها، بتحقيق د. حسين محفوظ،

١٩٥٨م،

(٣) انظر: ديوان ابن الرُّومِيِّ ٨٠٨/٢.

فهو يمتدح المخاطب بأنه شريف النسب، كريم الحسب، أبأؤه من ذؤابة العرب؛ من سِراة القوم
وكرامهم وعلية الناس وفضلائهم، ولكن سببتهم الوحيدة بين القبائل هي أنهم أنجبوا هذا
المخاطب، وهل ثمة سخرية أوجع وألم من هذا؟ ألا ترى أن المتكلم شرع في المديح حتى إذا طمأن
مخاطبه وجعله يطرب للمديح ويتنشي، وتلوح عليه أمارات الرضا والاستبشار والفرح؛ أخذه على
وجهه بعبارة صافعة تنكس رأسه بين الناس إلى يوم يُبعثون، وأزالت هذه العبارة ما توهمنا أنه مديح.

ب - القرينة العقلية؛ كما في قوله سبحانه في خطاب علماء بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا
قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١]؛ فظاهر الكلام يؤهم أنه نهى عن التفريط في كلام الله وعهده إذا كان المقابل ثمنًا
قليلاً، وإباحة ذلك إن كان المقابل ثمنًا كبيراً مجزياً، وهذا فاسد لا يستقيم.

فالآية نهى عن تحريف كلام الله وكتمانه، ولكن البيان القرآني عمَد إلى هذه الصورة القبيحة؛ ليدل
على أن أي ثمن مُستفادٍ مقابل تحريف كلام الله وكتمانه هو قليل جداً ومُحتقرٌ أمام عظمة كلام الله،
وأمام ما ينتظرُ فاعله من العذاب. وذكر الثمن القليل يدل أيضاً على أن هذا الفاعل شديد
الاستخفاف بدين الله، ومُتساهلٌ في التفريط بدينه، وهذا يُنبئ بأن عذابه سيكون من جنس فعله
وشِدته، أي: يُوحى بشدة العذاب الذي ينتظر من يُحرّف كلام الله من أجل عرضٍ زائل. وإن في ذكر
الثمن «تعريضاً بهؤلاء بأنهم مغبونو الصفة؛ لأنهم بذلوا أنفس شيء وهو كلام الله مقابل حُطام
الدنيا»^(١) وفي ذلك تجهيلٌ لهم وتقريعٌ؛ لأن هذه الأثمان والمغريات من الحظوظ الدنيوية - وإن جلّت
- قليلةٌ مُستردلةٌ بالنسبة إلى ما فات عنهم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان^(٢)، ولا يخفى ما في تنكير
الثمن القليل من تحقيرٍ لشأنه، وما في تعريف الآيات بالإضافة إلى ضمير الجلالة من تشريفٍ لشأنها،
وهذا يُبرِّزُ قباحةً مُقايضتهم وخسّة فاعله ووضاعته. وما يعيننا هنا أن الإيهام قد يحصل في هذا
التركيب، وأن القرينة لم تكن لفظية، وإنما معنوية يعرفها من يعرف روح القرآن والدين. ولولا انتباه

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٤٦٤. (بتصرف)

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٩٦.

المفسرين إلى الإيهام في بنية هذا التركيب، ورؤيتهم أناساً وهموا في فهمه ما حرصوا هذا الحرص على إيضاحه وإيضاح نظائره في غير موضع من كتبهم.

ج - القرينة الحالية؛ فيما حكى رجل أنه دخل على مجلس، وكان عند صاحب المجلس زائر مضجرٌ مُبرمٌ، وقد تأذى صاحب المجلس بطول جلوسه وكثرة كلامه، ويروي هذا الرجل أنه لما نهض هذا المبرمٌ وذهب، قال صاحب المجلس للرجل: «(هذا خفيفٌ على القلب)، فقلت: نعم، فقال: ما أظنك فهمت ما أردت، ففكرت، فعلمت أنه أراد (خفيفاً) مقلوباً، وهو الثقيل»^(١). وهل ترى شيئاً أعان الرجل على فهم المعنى المُبطّن للكلام، ليعرف أنه ذمٌ لا مدحٌ سوى قرينة الحال؟

د - اجتماع القرينتين اللفظية والعقلية؛ كما في قوله سبحانه: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، قد يتبادر لذهن المتلقي أن الآية الكريمة تُبيح للرجل أن يأتي زوجته في القبل أو في الدبر إن هو حمل (أنى) على المكانية.

ومن عجيب ما ذكر أبو حيان التوحيدى (ت نحو ٤٠٠هـ) أنه «قال بعض العلماء في قوله تعالى: فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» على معنى: كيف شئتم في الحال والهيئة، و(أنى شئتم) على معنى: في أي مكان شئتم؛ في القبل والدبر»^(٢).

ولعل معترضاً يقول: وهل يذهب إلى هذا التفسير أو يقول به من له أدنى عقل، أو ذرة علم بالعربية؟ فيأتيه الجواب: نعم؛ لأن ظاهر الآية من حيث (البنية اللغوية) - بصرف النظر عن أي حكم فقهي - يُجيز أن تُحمَلَ (أنى) في الآية على المكانية، ويُجيز أن تُحمَلَ (أنى) على الزمانية فيكون المقصود الإباحة لهما بالزمان، ويُجيز أن تُحمَلَ (أنى) على الحالية فيكون المقصود الإباحة لهما بالهيئة والحال التي يرتضيانها. وهذه ثلاثة معانٍ: (كيف شئتم، ومتى شئتم، ومن أين شئتم) أجازها الفهم اللغوي للآية مبتورة عن القرائن والسياق، ثلاثة معانٍ لا يدفع أحدها الآخر ولا يترجح عليه.

(١) انظر: فض الختام عن التورية والاستخدام ص ١٥٦.

(٢) انظر: البصائر والذخائر ٦/ ١٢٧.

أَمَّا إِنْ كَانَ مُتَلَفِّي هَذِهِ الْآيَةِ عَارِفًا بِأَحْكَامِ النِّكَاحِ فِي الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ، فَتِلْكَ قَرِينَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ صَارِفَةٌ
لَأَيٍّ وَهَمٌّ أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَى فَهْمِهِ، وَلَا سِيَّيَا أَنَّ السَّبَّاقَ قَبْلَ أَشَارِ بَوْضُوحٍ إِلَى ضَرُورَةِ أَنْ يَكُونَ الْإِتْيَانُ
فِي الْمَوْضِعِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي
الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٣٣﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٢-٢٢٣] فَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: (فَأَتُواهُنَّ
مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِتْيَانَ مَقْصُورٌ عَلَى مَكَانٍ مَخْصُوصٍ، ثُمَّ إِنَّ مَكَانَ الْحَرْثِ هُوَ
الرَّحِمُ؛ لِأَنَّهُ كَالْأَرْضِ، فِيهِ تُحْتَبَأُ الْبَذْرَةُ الَّتِي هِيَ كَالنُّطْفَةِ، ثُمَّ تُحْصَدُ الثَّمَرَةُ الَّتِي هِيَ كَالطُّفْلِ.
وَبِالْإِمْكَانِ الْقَوْلُ: إِنَّ كَلِمَةَ (حَرْثٌ) قَرِينَةٌ لَفْظِيَّةٌ صَارِفَةٌ لِلَّوْهَمِ، لِأَنَّ الدُّبْرَ لَيْسَ بِحَرْثٍ، وَالْحَرْثُ
مَوْضِعُ الزَّرْعِ، وَهُوَ الْقَبْلُ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ أَبِي الْإِصْبَعِ (ت ٦٥٤هـ) بِقَوْلِهِ: «وَمِنْ الْإِيضَاحِ
نَوْعٌ يَتَقَدَّمُ الْإِيضَاحُ فِيهِ عَلَى الْإِشْكَالِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾؛ إِذْ
لَوْ لَمْ تَتَقَدَّمْ تَسْمِيَةُ النِّسَاءِ بِالْحَرْثِ، وَهُوَ مَوْضِعُ الزَّرْعِ؛ لَوَهَمَ مُتَوَهِّمٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ إِبَاحَةَ
الْوَطْءِ فِي غَيْرِ الْمَكَانِ الْمَشْرُوعِ»^(١).



(١) انظر: تحرير التَّحْيِير ص ٥٦٢.

البَابُ الْأَوَّلُ

من مواطن الإيمان في علوم

البلاغة العربية

الفصل الأول

من مواطن الإيهام في فنون البديع

تمهيد: فنون البديع وصلتها بإيهام المتلقي.

جمالية إيهام المتلقي في فنون البديع الآتية:

حسن الابتداء وبراعة الاستهلال، فالإيهام، فالإتساع، فالهجاء في معرض المدح، وتأکید المدح بما يشبه الذم وعكسه، فالهزل الذي يُراد به الجدّ، فالتهمك، فالتلميح، فالاستطراد، والجناس، فالتورية، فالاستخدام، فالتوجيه، فالإلغاز، فالمواربة، فالتّوهم، فالتّجريد، فإيهام التّوكيد، فإيهام التّناسب، فالمشاكلة، فالاستدراك، فالأسلوب الحكيم، فالقول بالموجب، فالمشاركة، فالتّفريق، فتجاهل العارف، فنفي الشيء بإيجابه، فتناسب الأطراف، فاللف والنشر، فإيهام التّضاد.

الفصل الأول

من مواطن الإيهام في فنون البديع

مُلَهِّدٌ

فنون البديع وصلتها بإيهام المتلقي.

البديع لغةً الجديد^(١)، أي المخلوق على غير مثال، وأمّا اصطلاحاً فقد أُطلق على فنون القول التي أحدثها الشعراء المولّدون، أو هكذا اشتهر عنهم.. والحق أن ألوان البديع ما هي إلا صورٌ كلاميّة رفيعة وردت عفواً على ألسنة شعراء الجاهليّة وخطبائها، وأتت في الذكر الحكيم بعدُ على نحو جماليّ راقٍ، فاستخفت العربيّ القديم؛ لأنّها تحلّي عاطل الكلام وتزيّنه ليصير مرموقاً موموقاً.

ثمّ تنبّه النقاد إلى القيمة الجماليّة لهذه الألوان وما تُضفيه على النصّ من حيويّة، فأثنوا على أصحابها، ومن هنا تنافس الأدباء في حشد ألوان البديع في قصائدهم، وبدأ أصحاب الكتب الأدبيّة والنقدية يُعنون بها، فألف الخليفة العبّاسيّ ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) كتاباً أسماه «البديع» تكلم فيه على بعضها، وترك الباب مفتوحاً لمن أراد أن يُدليّ دلوّه، فرأينا من اجتهد في ذلك كقُدّامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، وأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، وابن رشيق القيروانيّ (ت ٤٦٣هـ)، وابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ) في كتابه «تحرير التّحبير» الذي جاء مُدهشاً في استقصائه لفنون القول، وحسن ترتيبها، حتّى وصلنا في هذه التّأليف إلى ما عُرف بالبديعيّات.

والبديعيّة قصيدةٌ في المدح النبويّ، تأتي غالباً على البحر البسيط ورويّ الميم المكسورة، غايّتها تعليميّة، إذ إنّ كلّ بيتٍ منها يضمّ مثلاً على لون بديعيّ، وغالباً ما يُورّى باسمه في البيت نفسه، ولأكثر هذه البديعيّات شروح مطوّلة صنعها أصحابها أو غيرهم، ورائد هذا المذهب صفّيّ الدّين

(١) انظر: اللّسان (بدع).

الحليّ (ت ٧٥٠هـ) الَّذِي أُعْجِبَ أَهْلُ الْأَدَبِ بِصَنِيْعِهِ، فَتَرَسَّمُوا خُطَاهُ رُذْحًا مِنَ الدَّهْرِ، يَحَاوِلُ الْمُتَأَخَّرُ مِنْهُمْ أَنْ يَزِيدَ عَلَى مَنْ سَبَقَهُ فِي فُنُونِ الْبَدِيعِ وَتَقْسِيمَاتِهِ.

هذه البديعيّاتُ غايُتها التَّعليميّةُ أَقْرَبُ نَفْعًا مِنْ غَايَتِهَا الْعِلْمِيَّةِ، وَمِنْ أَكْثَرِ شُرُوحِهَا فَائِدَةٌ لِلنَّاسِ «شرح الكافية البديعيّة» لصفّي الدّين الحليّ (ت ٧٥٠هـ)، و«خزانة الأدب وغاية الأرب» لابن حجّة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، و«أنوار الرّبيع في أنواع البديع» للمدنيّ (ت ١١٢٠هـ) ولعلّه أكبرُ كتابٍ في البديع.

وقد اصْطُلِحَ عَلَى أَنَّ الْبَدِيعَ ثَلَاثُ عُلُومٍ الْبَلَاغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، وَهُوَ إِلَى الْفَنِّ أَقْرَبُ إِذَا مَا قُورِنَ بِالْمَعَانِي وَالْبَيَانِ؛ لِأَنَّ لَالَتَهُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ فِي عَقْدٍ؛ فَلَا تَجْمَعُهُ نَظْرِيَّةٌ مُتَكَامِلَةٌ كَنَظْرِيَّةِ النَّظْمِ الَّتِي جَمَعَتْ أَطْرَافَ عِلْمِ الْمَعَانِي، وَلَأَنَّهَا فَنُونٌ لَطِيفَةٌ لَيْسَ يَحْسُنُ بِهَا أَنْ تُحْصَرَ وَتُقَعَّدَ؛ إِنَّمَا الْبَدِيعُ طَائِفَةٌ مِنْ أُسَالِيبِ التَّفَنُّنِ فِي الْقَوْلِ تَدَوَّرُ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُحْصِيَهَا حَاصٍ مَهْمَا بَلَغَ، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ الْمُعْتَزِّ (ت ٢٩٦هـ) بَدَأَ بِهَا خَمْسَةً، وَانْتَهَى بِهَا الْمَدَنِيُّ (ت ١١٢٠هـ) إِلَى مِئَةٍ وَخَمْسِينَ، وَلَوْ أَرَادَ أَحَدُنَا الْيَوْمَ أَنْ يَرُصِدَ كَلَامَ النَّاسِ وَمَا فِيهِ مِنْ زُخْرَفِ الْقَوْلِ لَبَلَغَ بِهَا إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ.

وَتَمَّ خَطَأً ارْتُكِبَ بِحَقِّ الْبَدِيعِ...، يَنْبَغُ هَذَا الْخَطَأُ مِنْ مُحَاوَلَةِ الْبَعْضِ أَنْ يُحْصَرَ هَذِهِ الْفُنُونُ، وَأَنْ يُجْعَلَ مِنْهَا عِلْمٌ مُعْيَارِيًّا مُقَيَّدًا بِحُدُودٍ مَنْطِقِيَّةٍ كَمَا فِي عِلْمِ النَّحْوِ، حَتَّى سَمَّاهُ بَعْضُهُمْ: «مَا تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ مِنْ صَنْعَةِ الشَّعْرِ»^(١)، وَهَذَا إِغْلَاقٌ لِلْبَابِ فِي وَجْهِ مَنْ نَوَى الْاجْتِهَادَ فِي اسْتِقْرَاءِ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، وَالتَّفَقُّنِ لِمَا فِيهِ مِنْ زِينَةٍ كَلَامِيَّةٍ لَهَا أَثَرٌ فِي مُحِيطَةِ الْمُتَلَقِّي أَوْ عَاطِفَتِهِ أَوْ لَهَا جَرَسٌ لَذِيذٌ فِي أُذُنِهِ.

وَمَبْعَثُ الْخَطَأِ أَنَّ هَذِهِ الْفُنُونَ الْقَوْلِيَّةَ لَيْسَتْ نَابِعَةً مِنْ بَنِيَّةِ النَّظَامِ اللَّغَوِيِّ نَفْسِهِ؛ مِنْ لُغَةٍ، وَنَحْوٍ، وَصَرْفٍ؛ حَتَّى نَقُولَ: إِنَّ هَذَا النَّبْعَ قَدْ نَضَبَ، بَلْ هِيَ ثَمَرَةُ مَهَارَاتِ التَّفَكِيرِ اللَّغَوِيِّ عِنْدَ بَعْضِ الْبَشَرِ الَّذِينَ أَحْسَنُوا اسْتِثْمَارَ مَزَايَا لُغَتِهِمْ، وَالْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ بِمَقْدُورِهِ أَنْ يُولِّدَ أُسَالِيبَ لَا حَصَرَ لَهَا

(١) انظر: الوافي في العروض والقوافي ص ٢٥٧.

من التَّلَاعُبِ اللُّغَوِيِّ الخارج عن المألوف، ولو أنَّهم اقتصروا على تذوق هذه المحاسن الكلامية في أثناء نقد النصوص، ولم يجعلوا لها قواعد معيارية، لما أَسَفَ النَّاسُ إسفافاً في تناول البديع في خطبهم وفي أشعارهم.

وقد نتج من ذلك أيضاً ما صيَّرَ البديعَ سيِّئَ الذِّكْرِ والسُّمعة عند كثير من النُّقاد فيما بعد؛ نتج ما رأيناه من بعض أدعياء الأدب في العصور المتأخرة من تكلفٍ ممجوج، وشهوة جِّبَارَةٍ لتضمين كلامهم ما يابأه من فنون البديع، ولا يُبالي أحدُهم أن يُقَحِّمَ الجِناسَ في كلامه وأن يُلَفِّقَهُ وأن يستكثر منه، ولو كان ذلك رَغْماً عن أنْفِ الجِناسِ نفسه، ومثل ذلك يُقالُ في التَّورية التي سامها النَّاسُ خَسْفاً في العصر المملوكي حتَّى ذهبوا برونقها ومائها، وطَمَسُوا صَبَاحَةَ وجهها، وإنَّكَ لَتَرى من هؤلاء مَنْ حشا كلامه من البديع حشواً حتَّى تتورَّم قصيدته حَذَلَقَةً، فأتت ألوانُ البديع في جُلِّ أشعارهم باردة مُستكرهة لا تُلقَى بالاً لمراعاةٍ مقامٍ أو مُقتضى حال.

وللإنصاف ينبغي القول: إنَّ بداية التَّأليف في هذا الفنَّ كانت حَسَنَةً، إذ لم يكن هدفها التَّعْيِيدُ؛ فابنُ المعتزِّ (ت ٢٩٦هـ) افتتَحَ هذا البابَ ليدلَّ على أنَّ هذي الأساليبَ البديعة وردت في كلام الجاهلية وفي القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الصَّحابة رضوان الله عليهم وفي كلام الأعراب، وكانت تُستَحَسَنُ منهم؛ لأنَّها تَرِدُ نادراً وتزدادُ حُظوةً بين الكلام المُرسَل، = وليدلَّ على أنَّ المُحدِّثين من أمثال بشار (ت ١٦٧هـ) وأبي نواس (ت ١٩٨هـ) ومُسلم (ت ٢٠٨هـ) سَبِّقُوا إلى ذلك، ولكنَّهم أكثرُوا منه فعُرف في زمانهم وسُمِّيَ بالبديع، = وليُنبِّه على عُقبى الإفراط في هذه المُحَسِّنات ممثلاً بأبي تمام (ت ٢٣١هـ)، ولا ريبَ أيضاً في أنَّ مَنْ تبع ابنَ المعتزِّ من العلماء إنَّما أحْبَبُوا أن يُطْلِعُوا النَّاسَ على فنون القولِ المُبْهِج؛ لترقى أذواقهم الأدبية، وليمتحوا من روعة هذه الفنون وسحرها، وليتعرَّفوا شيئاً من مواطن الجمال في القرآن الكريم؛ لذا رأيت ابنَ أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ) يسمُّ كتابه بـ «بديع القرآن».

ولكنَّ حتَّى لا يكونَ جَوْرٌ في الرَّأيِ يَنْعَى على العلماء شيئاً هم منه براء، وكيلاً يُقال: إنَّ تعييدهم لهذه الفنون هو السَّبَبُ فيما وصلنا إليه من جهود = لا بُدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ الأدباءَ عليهم تقعُ اللَّائِمَةُ؛

لأنك لو سرّحت النظر في تاريخ الأدب - وخاصة بعد القرن الرابع - لرأيت أنه قد «تسرّب إلى الحياة الشعرية شيئاً فشيئاً جموداً وركوداً، واستولى على العقل العربي ضعفٌ وفتور، فأخذ الشعراء يقنعون بمحاكاة سالفهم، والوقوف عند الحدود التي بلغوها من قبل، وخالوا أن جميع الطرق التي تسلك إلى الاختراع والتجديد قد سُدّت أمامهم، وأن الأول لم يترك للآخر شيئاً، فتوفّر الشعراء على توليد هذه المعاني القديمة أو سرقتها، فولد هذا البحث الفضفاض الذي تراه في كتب النقد.. وهو مبحث السرقات الشعرية...»^(١).

ولابدّ من التأكيد أن النقاد وأهل الأدب والبلاغة عامّة لا ينبغي لهم أن يُبينوا جمالية أي فنّ بديعيّ وهو مُستلّ أو متسلّل من سياقه، فلا ينبغي أن يُبين جمالية الطّباق أو السّجع أو التّجنيس مثلاً في جُمل مُنفردة عن نصّها، بل التحليل البلاغيّ السّليم يُبيّن جمالية الجناس في سياقه، فيُبيّن ما كان له من أثر في الرّنين الصّوتيّ ضمن ما يسبقه وما يتبعه من الجُمْل، وكذا ما كان له من أثر في إيهام المتلقّي، ضمن المعاني السّابقة واللاحقة له، وبمعنى أوضح: ينبغي أن يُعرّفنا المُحلّل البلاغيّ القيمة الجمالية التي أضافها هذا المُحسن إلى النصّ، والوظيفة البلاغية التي أثرى بها فكرة النصّ أو عاطفته أو موسيقاه؛ لأنّ تحليل المثال البلاغيّ معزولاً عن سياقه وعن التجربة الشعرية والشّعورية التي أنتجته من شأنه أولاً أن يُضيع القيمة الفنية والجمالية للفنّ البديعيّ إن كان النصّ أصيلاً، ومن شأنه أيضاً أن يُشجّع المتعالمين بالشّعور على الزيادة من تكلفهم ولو أفضى ذلك بهم إلى طمس المعاني التي من أجل رعايتها نشأ علم البلاغة.

وإنّ الناظر في فنون البديع التي وردت في النّماذج الأدبية العالية كما في كلام الجاهلية، وفي البيان القرآنيّ، وفي الحديث النبويّ، وعند شعراء بني أميّة والعبّاس = ليرى نماذج مُشرقة تستحقّ التأمّل والنّظر، ويرى أيضاً أن ثَمّ خيوطاً جامعةً فيما بينها لا يكاد يلمحها إلّا من أوتي ذوقاً سليماً، وحسّاً مُرهفاً.

(١) انظر: الصّبح البديعي ص ٣١٣.

فإنك ترى أن بعض فنون البديع تستمدُّ جماليَّتها من فكرة التَّناسُب؛ كالطَّباق، والمقابلة، ومُراعاة النَّظير، والإرصاد، والمُزاوِجة، والسَّجع، والفواصل القرآنيَّة، ومواضع التَّأثُّق من حُسْن الابتداء، وحُسْن التَّخْلُص، وحُسْن الانتهاء، وكذا فواتح السُّور وخواتمها، وغير ذلك.

وترى بعضاً من فنون البديع يقوم على فكرة الإجمال والتفصيل؛ كاللَّف والنَّشر، والجمع، والتفريق، والتقسيم، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق والتقسيم، وغير ذلك.

وما يعنينا ههنا أن طائفةً صالحةً من فنون البديع تقوم أساساً على إيهام المخاطب، وعلى تعمية المرادِ عليه أحياناً، ومن ذلك الإيهام، والاتِّساع، والتَّورية، والاستخدام، والتَّوجيه، والتَّوهيم، والتَّلميح، والتَّهكُّم، والقول بالمُوجِب، وأسلوب الحكيم، وتجاهل العارف، وغير ذلك ممَّا له أثرٌ في إيهام المتلقِّي، وإدهاشه، وكسرِ أفقِ توقُّعه في أكثر الأحيان.

وقَعَ الاختيارُ ههنا على بعضِ ألوانِ البديع؛ لتكونَ قاعدةً صالحةً للدرِّس وإطلاقِ الأحكام، ويفترضُ هذا المبحثُ منذ البداية أن لبعضِ المُحسِّنات البديعيَّة المعنويَّة منها اللَّفظيَّة أثرٌ في إيهام المتلقِّي إيهاماً بدرجاتٍ أعلاها التَّعميَّة الكلِّيَّة حتَّى يتلمَّسَ هذا المتلقِّي طريقه في الظَّلام كما في بعضِ ضُروبِ التَّورية، وأدناها ما فيه إيجاءٍ خفيٍّ سرعانَ ما يزولُ كما في إيهام التَّوكيد، وبين تينِ الدَّرجتين درجاتٌ ومستوياتٌ من الإيهام، تتباينُ آثارُها من متلقٍّ إلى آخر، بحسَب الفطنة وسُرعة البديهة، والفَقاهة بتصريفِ كلامِ العرب.

ولابدَّ من دراسةِ هذه الفنون البديعيَّة لاحقاً في ضوءِ نظريَّة التَّلَقِّي؛ لأنَّ ما يُسمَّيه «ياوس ت ١٩٩٧م» بكسرِ أفقِ التَّوقُّع، أو خيبة التَّوقُّع أظهرُ ما يكون في أدبنا العربيِّ في فنون البديع هذه، وإنَّ ما يُقالُ عن أثرِ المتلقِّي في إعادة تشكيل النَّصِّ تراهُ جليّاً ههنا، وما يُحكى عن النَّصِّ المفتوح على فضاءات التَّأويلِ لستُ تُخطئه ههنا.

وكذا لا ينبغي أن نغفلَ عن أثرِ المعرفة بطرائق الإيهام البلاغيِّ عامَّةً والبديعيِّ خاصَّةً في «تحليل الخطاب» الذي قلَّما يلتفتُ إليه الدَّارسون عندنا، ومن الضروريِّ أن تكونَ ثمَّ دراسةٌ لِسانيَّة اجتماعيَّة

لاحقاً ترصد هذه الأساليب على ألسنة الأقوام وتبين أثر البيئة الاجتماعية والثقافية والسياسية في كثرة ركوب الناس لهذه الأساليب، أو قلة.

وأما الدراسات النفسية فلا ينبغي بحال من الأحوال أن تُقصر في متابعة هذه الأساليب في أي لغة من اللغات الحية، بل يُرتجى منها أن تُعطي تفسيرات علمية مُقنعة تُبين علة لجوء الإنسان إلى هذه الأساليب المُعقدة؛ وليس القصدُ ههنا أنها مُعقدة من حيث الصياغة اللغوية، بل القصدُ أنها ليست بسيطة من جهة التركيب النفسي والعقلي الذي أنتج مثل هذه العبارات، إذ نحن لا نرتاب في أن المتكلم الأول كان كلامه ظاهراً لا باطن له، وليس فيه من ألعيب القول ما يقوم على خداعة المتلقي ومُخاتلته، وأن هذه الأساليب إنما هي ثمرة تطوّر العقل اللغوي البشري عبر عصور، أضف إليه مهارات التفكير التي يمتاز بها كل امرئ على حدة، ولعل هذه الأساليب تكون حقلًا خصباً ورحباً للدراسات النفسية، لتفسّر لجوء الإنسان إلى هذه الأساليب من خوف، أو حقد، أو تعالٍ....، ولتبين كيف تتكوّن العمليات الذهنية المُعقدة في دماغ المتكلم حتى يُركّب كلامه على هذه الهيئة التي تجعل للكلام ظاهراً وباطناً، ولتكشف أخيراً عن أثر هذه الأساليب الكلامية في نفسية المتلقي مقارنةً بما لو قيلت له المعاني نفسها بقوالب لغوية بسيطة لا فيها مُواربة ولا إيهام.

وستدرُسُ الفنون المُنتخبة ههنا على نحوٍ أو نهجٍ يكاد يكون واحداً؛ إذ يُبدأ بتعريف المُحسن البديعي، وبيان وجه الإيهام فيه، ثم تُحلّل بعض أمثله؛ لإلقاء الضوء على طرائق الأدباء في استثمار هذا المُحسن في إيهام المتلقي، وبيان الأسباب التي تُلجئهم إلى ذلك، وأخيراً نحاول أن نبين جمالية هذا الإيهام في نفس المتلقي.

وسيكون ترتيب هذه الفنون على نحوٍ تتجاوز فيه الأشباه والنظائر، فترى ما يجعل النص مفتوحاً على فضاء التأويلات كالإيهام والاتساع متجاوزاً، وما يُقدّم المعاني في غير زِيَّها؛ كالهجاء في معرض المدح، وتأكيد المدح بما يُشبه الذم وعكسه، والتّهكُّم، والهزل الذي يُراد به الجدُّ بجوار بعض أيضاً، وما يعتمد على المشترك اللفظي كالجناس والتورية والاستخدام والتوجيه معاً، وكذا سترى ما يكون الإيهام فيه ليس من نية المتكلم إنما هو من بنية تركيب الكلام، أو عدم بصير المتلقي بتصريف الكلام

وأبعاده؛ كَنَفِي الشَّيْءِ بِإِيجَابِهِ، وَتَنَاسُبُ الْأَطْرَافِ، وَاللَّفُّ وَالنَّشْرُ مُتَجَاوِرًا، فَيَكُونُ التَّرْتِيبُ كَمَا يَأْتِي:

حسن الابتداء وبراعة الاستهلال، فالإبهام، فالالتساع، فالهجاء في معرض المدح، فتأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه، فالهزل الذي يُراد به الجدُّ، فالتَّهْكُومُ، فالتَّلْمِيحُ، فالاستطراد، فالجناس، فالتَّوْرِيَّةُ، فالاستخدام، فالتَّوْجِيه، فالإلغاز، فالمواربة، فالتَّوْهِيْمُ، فالتَّجْرِيْدُ، فإيهام التَّوْكِيْدِ، فإيهام التَّنَاسُبِ، فالمشاكلة، فالاستدراك، فالأسلوب الحكيم، فالقول بالموجب، فالمشاركة، فالتفريق، فتجاهل العارف، فنَفْيُ الشَّيْءِ بِإِيجَابِهِ، فتَنَاسُبُ الْأَطْرَافِ، فَاللَّفُّ وَالنَّشْرُ، فإيهام التَّضَادِّ.



حُسْنُ الْإِبْتِدَاءِ وَبِرَاعَةُ الْاسْتِهْلَالِ

ذَكَرَ أَهْلُ الْبَلَاغَةِ مَوَاطِنَ يَنْبَغِي لِلْأَدِيبِ أَنْ يَتَأَنَّقَ بِكَلَامِهِ فِيهَا؛ كَالْإِبْتِدَاءِ، وَالتَّخْلُصِ، وَحُسْنِ الطَّلَبِ، وَالْإِنْتِهَاءِ. وَقَدْ شَرَطُوا فِي حُسْنِ الْإِبْتِدَاءِ أَنْ يَأْتِيَ الْأَدِيبُ بِأَعْدَبِ الْأَلْفَاظِ، وَأَجْزَلِهَا، وَأَرْقَّهَا، وَأَسْلَسِهَا، وَأَحْسَنِهَا نَظْمًا وَسَبْكًَا، وَأَصَحَّهَا مَبْنًى، وَأَوْضَحَهَا مَعْنًى، وَأَخْلَاهَا مِنَ الْحَشْوِ، وَالرُّكَّةِ وَالتَّعْقِيدِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ الْمُئِلِسِ، زِدْ عَلَى ذَلِكَ مَا طَلَبُوهُ مِنَ الْمَلَاءَمَةِ بَيْنِ صَدْرِ الْبَيْتِ وَعَجْزِهِ، وَعَبَّرَ عَنْهُ الْمَدَنِيُّ (ت ١١٢٠ هـ) بِقَوْلِهِ: «وَيُعْتَبَرُ فِي مَطْلَعِ الْقَصِيدَةِ... أَنْ يُنَاسَبَ بَيْنَ قَسَمَيْهِ أَتَمَّ الْمُنَاسَبَةِ، بَحِثْ لَا يَكُونُ أَحَدُ الشَّطْرَيْنِ أَجْنَبِيًّا عَنِ الْآخَرِ لَفْظًا وَمَعْنًى»^(١).

لِذَا فَإِنَّهُمْ يَعْيُونَ عَلَى جَمِيلٍ قَوْلُهُ: [الطَّوِيل]

أَلَا أَيُّهَا النُّوَامُ - وَيَحْكُمُ - هُبُوا أُسْأَلُكُمْ هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلُ الْحُبُّ؟^(٢)

إِذْ يُورِدُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ (ت ٢٩٦ هـ) الْبَيْتَ مَشْفُوعًا بِتَعْلِيقٍ لِأَعْرَابِيٍّ يَصِفُ شَطْرَهُ الثَّانِي بِالْمُخَنَّثِ^(٣)، وَيَسْتَرِدُّهُ ابْنُ أَبِي الْإِصْبَعِ (ت ٦٥٤ هـ) بِقَوْلِهِ: «وَمَا سُمِعَ أَشَدُّ مُبَايَنَةً مِنْ قَوْلِ جَمِيلٍ...، ثُمَّ يُورِدُ خَبَرَ هَارُونَ الرَّشِيدِ (ت ١٩٣ هـ) سَائِلًا الْمَفْضَلَ الضَّبِّيَّ (ت ١٦٨ هـ): هَلْ تَعْرِفُ بَيْتًا نَصْفُهُ بَدَوِيٌّ فِي شَمْلَةٍ، وَبَاقِيهِ مُخَنَّثٌ فِي بَذْلَةٍ»^(٤)، وَأَمَّا الْمَدَنِيُّ (ت ١١٢٠ هـ) فَيَحْشُرُهُ فِي مُسْتَهْجَنَاتِ الْمَطَالِيعِ الَّتِي عَلَى النَّظَرِ أَنْ يَحْتَرَزَ عَنِ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِهَا، ثُمَّ يُورِدُ قَوْلَهُ لِصَلَاحِ الدِّينِ الصَّفْدِيِّ (ت ٧٦٤ هـ) الَّذِي لَا يَتَحَرَّجُ فِيهَا أَنْ يُقَسِّمَ إِنَّهُ لَيْسَتْ حِيٍّ أَنْ يَكْتُبَ النِّصْفَ الثَّانِي مِنَ الْبَيْتِ؛ لِأَنَّهُ مُحْلُولٌ إِلَى الْغَايَةِ^(٥).

(١) انظر: أنوار الربيع ٣٤ / ١.

(٢) انظر: ديوان جميل بئينة ص ٢٣.

(٣) انظر: بديع ابن المعتز ص ١٤.

(٤) انظر: تحرير التحبير ص ١٧٠. البذلة: ثوب مُمْتَهَن.

(٥) انظر: أنوار الربيع ٦٦ / ١.

ولست هنا لأدفع عن البيت انحلال النسبة بين شطريه، بل لأشير إلى جمالية أغفل البلاغيون ذكرها، هي ذلك الإيهام الناتج من المفارقة بين شطريه؛ من حيث أعد المتلقي نفسه لسماع كلام يدور في فلك الحقل المعجمي للحرب؛ من رماح وسيوف وصهيل وطعان، فإذا بالشاعر يكسر أفق توقعه ويبادره بما لم يكن ينتظر، وينقله من الحماسة إلى الغزل، فاستوى في هذا العُدول أو الالتفات مُنبهٌ أسلوبِيٌّ يشد انتباه السامع، ويُحفز إدراكه حتى الختام بتأثير الدفعة الأولى، وهو عنصر المفاجأة، على أن أكثر الأبيات التي عابها البلاغيون لانحلال النسبة بين طرفيها تسلم لهم، ولكن ما رميت إليه هو أننا لماذا لا نستفيد من هذه الطريقة من حيث كسر المنطق لأغراض بلاغية شتى؛ كلفت الانتباه، أو الإضحاك، أو غير ذلك مما سيأتي.

وقد فرّع المتأخرون على حُسن الابتداء براعة الاستهلال^(١)، وهي أن تكون بداية الكلام مُنبئةً بما سيق لأجله الكلام من غير تصريح، بل بالطف إشارة، وهذا الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ينقل عن ابن المقفع (ت ١٤٢هـ) كلاماً يتصل بتعريف البلاغة، يقول فيه: «وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته»، ويُعقب الجاحظ على إرشاد ابن المقفع بقوله: «كأنه يقول: فرّق بين صدر خطبة النكاح، وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح، وخطبة التواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه»^(٢).

وهذا الكلاعي (ت ٥٥٠هـ) في كتابه «إحكام صناعة الكلام» عقد باباً وسّمه بـ «الإشارة في الصدور إلى الغرض المذكور»^(٣)، وعليه فإن أهل البلاغة يريدون من مطلع القصيدة أن يكون دالاً على ما بُنيت عليه من مدح، أو هجاء، أو تهنئة، أو عتب، أو غير ذلك، ويستقبحون ما خالف هذا العرف، فالمدني (ت ١١٢٠هـ) يروي أن حسين بن شهاب الدين الطيّب وفد على أبيه، فكانت أول قصيدة امتدحه بها مطلعها: [الطويل]

(١) انظر: العمدة ١/ ٣٥٠، وقانون البلاغة ص ١١٦، وحسن التوشل ص ٩٣.

(٢) انظر: البيان والتبيين ١/ ١١٦.

(٣) انظر: إحكام صناعة الكلام ص ٧٥.

لك الخير لا زيد يدوم ولا عمرو ولا ماء يبقى في الدنان ولا حمر

فيقول: «لم يبق في المجلس من يتعلّق بأطراف الأدب إلا وأنكر هذا المطلع، وقال: هذا بافتتاح مريّة أولى منه بافتتاح مدحة»^(١).

جليّ أنّ هذا خلاف نظرية النظم التي تطلّب تعلّق الكلام ببعضه ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض^(٢)، ولا مرأى في أنّ الشاعر ملوم بما صنع، وقد يكون مبعث ذلك جهله وقلة تدبيره، ولكن لا بدّ من الانتباه إلى هذه الطريقة؛ أعني أنّ نأتي بالمقدمات وتبّعها بما يخالفها من النتائج؛ كأن نمهد بكلام يؤهم بشيء، ثم نأتي بكلام لا صلة له بالأوّل، أو بعيد عما كان يترقبه السامع، أو غير مترابط سببياً مع سابقه؛ كقول ابن المغربي البغداديّ (ت ٦٨٤هـ) في مطلع القصيدة الدبديّة: [جزء الرجز]

ياددبدة تدبدي	أناعلي بن المغربي
سناجقي تهيئي	عساكري تأهبي
أنا الذي أسد الشرى	في الحرب لا تخفلي ^(٣)

فإنه ساق كلامه أولاً مساقاً يؤهم بأنه أراد الافتخار بشجاعته وبأسه وكثرة رجاله، وأنه في الحروب لا يجرؤ جيش على مواجهته، وخاصّة في البيت الثالث؛ إذ قال: (أنا الذي أسد الشرى)؛ فلعلك توقّعت أن يقول ما معناه أنّ أسد الشرى تهاؤه، وتخاف منه، وتهرب من سطوته وبطشه وجسارته إذا أطلّ في المعركة، ولكنه فاجأك إذ أتمّ كلامه بأن هذه الأسود لا تُقيم له وزناً، ولا تكثر لوجوده في ساحة الحرب أصلاً. إنّ هذا يؤلّد جماليّات منها لفت الانتباه، ومنها الإضحاك؛ وإنك لترى من كتبوا عن الضحك يؤكّدون أثر عناصر (المفارقة، أو التباين بين الأفكار، أو عنصر الخداع العقلي) في صنع اللغة المضحكة.

(١) انظر: أنوار الرّبيع ٨١/١.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص ٤.

(٣) انظر: الكشكول ٢٦/١.

فهذا الفرنسي إيف ديلاج يقول: «لكي يكون شيءٌ مَّامُضِحاً ينبغي أن يكون بينَ العِلَّةِ والنتيجة عدمُ انسجام»^(١)، أمَّا زكريا إبراهيم فيظنُّ أنَّ مُباغته المتلقِّي هي أُمُّ الضَّحِك ووعاؤه؛ إذ يقول: «أمَّا فيما يتعلَّق بطبيعة الموقف الفكاهي؛ فإنَّ الرَّأيَ يتَّجِه إلى القول بأنَّه ينطوي على عنصر (المفاجأة) أو (عدم التوقع)»^(٢)، ويصدِّقُ هذا ما في واقعنا، من حيثُ إنَّ تكرارَ الفكاهة كثيراً يُضعِفُ تأثيرها، ويُقلِّلُ من فاعليتها الإضحائية؛ لأنَّ هذا التَّكرار يقضي على ما فيها من عنصر المفاجأة والإدهاش، ويقول زكريا أيضاً: «وهؤلاء الباحثون قد أجمعوا على تفسير الضَّحِك بالتناقُّض أو الاستحالة أو الانحراف عن المنطق؛ بدعوى أنَّ أيَّ موقفٍ لا يُمكنُ أن يكون فكاهياً إلا إذا انطوى على ضَرْبٍ من المفارقة أو التَّنَافُر أو الاختلال في القياس»^(٣).

ولا غرابة - بعد هذا - إن راقَت لنا المفارقة في قول ابن سُدُون (ت ٨٦٨هـ): [المتدارك]

عَجَبْتُ هَذَا، هَذَا عَجَبٌ	بَقَرْتُ خُمْرٌ وَلَهَا ذَنْبٌ
وَلَهَا فِي بُزْبُزِهَا لَبَنٌ	يِيدُو لِلنَّاسِ إِذَا حَلَبُوا
لَا تَغْضَبُ يَوْمًا إِنْ شَتِمَتْ	وَالنَّاسُ إِذَا شَتَمُوا غَضِبُوا ^(٤)

أو قوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، الَّذِي مَنَّ عَلَى عِبَادِهِ بِأَنْوَاعِ اللَّطَائِفِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَأَهْلَمَهُ إِذْ عَلَّمَهُ، فَعَمِلَ - كَمَا عَلِمَ - مِنَ الشُّكْرِ حَشْوَ الْقَطَايِفِ، وَسَخَّرَ الْبَيَّاعِينَ لِلْبَّلَاعِينَ، فَمِنْهُمْ الْجَالِسُ فِي دُكَّانِهِ وَالطَّائِفُ...»^(٥).

ألا ترى إلى هذه المفارقة، حيثُ بدأ بتسبيح الله وحمده على نعمه بكلامٍ يقطُرُ رصانةً ووقاراً، وإذا به يدلُّفُ إلى القطايف، وإلى البَّلَاعِينَ، وهل عندما سمعتَ صَدَرَ كَلَامِهِ ظننتَ أنَّه سيَقْفِي بالبَّلَاعِينَ وبالقطايف، أو ظننتَ أنَّ أمراً ذا بَالٍ سيأتي بعد قليل؟

(١) انظر: الضحك (بحث في دلالة المضحك) ص ١٥١، وقد أورد المؤلف في هذه الصفحة قولَ ديلاج موثَّقةً.

(٢) انظر: سيكولوجية الفكاهة والضحك ص ٩٢.

(٣) انظر: سيكولوجية الفكاهة والضحك ص ١٥٠.

(٤) انظر: نزهة النفوس ومُضحِك العَبُوس ص ١٤٦.

(٥) انظر: نزهة النفوس ومُضحِك العَبُوس ص ١٥١.

وهذا ابنُ سودون أيضاً يحكي قصّة سمعها من رجلٍ يقول: «كنتُ وأنا صغيرٌ بليداً، لا أُصيبُ في مقال، ولا أفهمُ ما يُقال، فلما نزلَ بي المشيبُ، زوّجَتني أُمِّي بامرأةٍ كانت أبعدَ مِنِّي ذِهنًا، إلّا أنّها أكبرُ سنًا، فلما دخلتُ بها أطعمتني شيئاً، وقالت: كُلْ هذا ترَ منه عَجَباً، فأكلته، فرأيتُ مِن عَجَائِبِهِ أَنَّهُ زادَ في عَقْلاً، حتّى عرفتُ أَنَّ الطَّاجِنَ فيه السَّمَكُ يُقلى، وأنَّ السُّكَّرَ من البَصَلِ أحلى، فشكرتُها على هذه النِّعمة، وسألتُ الله لا يؤتيها الرِّحمة..»^(١).

وهو هنا أيضاً يُوهِمنا بأشياء، ثم لا يلبثُ أن يُبطلَ توقُّعاتنا، فترى أَنَّهُ لما نزلَ به المشيبُ زوّجته أُمُّه بامرأةٍ كانت أبعدَ منه ذِهنًا، وههنا نتوقَّعُ أن تكونَ أكثرَ منه جمالاً، وأصغرَ سنًا، وإذا بها أكبرُ منه سنًا، ولما دخلَ أطعمته شيئاً، ووعدته بأنَّه سيرى منه عَجَباً، فما هو ذلك العَجَبُ! هل سيردُّ إليه نشاطُ الصِّبَا في هذه اللَّيلة؟ لا، إِنَّه يجعلُه حكيماً ذا عقلٍ وفطنة، ومن وراءِ ما أُوتي من حكمةٍ فقد صارَ يعرفُ أشياءَ عجيبةً؛ منها أَنَّ السُّكَّرَ أحلى من البَصَلِ، فشكرها على هذه النِّعمة، وأرادَ أن يدعوا لها، فبأيِّ شيءٍ يدعوا لها بعدما رأى من إحسانها؟ لقد سأل الله ألا يؤتيها الرِّحمة!

إنَّا لا نكادُ نلمَحُ مثلَ ذلك عند الأدباءِ الأقدمين كما هو عندَ الظُّرفاءِ والهزليِّين والسَّاخرين؛ كأبي دُلّامة (ت ١٦١هـ)، وأبي الشَّمَقَمَقِ (ت نحو ٢٠٠هـ)، وأبي العِبرِ الهاشميِّ (ت ٢٥٠هـ)، وأبي الحسنِ صَريع الدِّلاء (ت ٤١٢هـ)، ولا نَعْنى هنا بتفسيرِ بواعثهم على السُّخرية والتَّحامُّق والتَّبالُه؛ من الاحتجاجِ على أهلِ زمانهم، وما ينطوي عليه هذا الشُّعرُ من انتقادٍ للثقافة السَّائدة...، ولكن نريدُ أن نُنعمَ النَّظَرَ في أسلوب هؤلاء الذين شقُّوا عصا البلاغيِّين بطريقتهم هذه التي تُوهِمُ المتلقِّيَ وتستدرجُه، ثمَّ تُحبِطُ أفقَ التَّوقُّعِ لديه؛ مِن خلالِ كسرِ المنطق، وترديدِ البديهيَّات، أو إظهارِ الدَّهْشة عند سماعِ المُسلِّمات، بهدف الإضحاك، أو التَّعبيرِ عن فلسفةٍ عميقة أو رؤيةٍ نقديةٍ؛ بأسلوبٍ يُمثِّلُ ثورةً على قُبْحِ السَّائدِ أولاً، وتمرداً على طرائقِ التَّعبيرِ الرِّصينة (التَّقليدية) التي رُبَّما جَمَدت مِن فُزط الاستعمالِ في رأيهم ثانياً، وهذا الأسلوبُ الخارجُ على براعة الاستهلال لا ريبَ في أَنَّهُ يصنَعُ مُفارقةً عَبَثِيَّةً إذا أَحَسَّنَ الأديبُ توظيفَها بمهارةٍ فإنَّه يُنشِطُ ذِهنَ القارئِ، ويطرُدُ عنه السَّامةَ والمللَ، ويمكنُ الفكرةَ في ذِهنِهِ.

(١) انظر: نزهة النفوس ومُضحك العَبوس ص ١٨٢، وفيه: «وعرفتُ أَنَّ الطَّاجِنَ في السَّمَكِ يُقلى» وأضفتُ الهاءَ إلى حرفِ الجرِّ؛ لأنَّ الطَّاجِنَ هو المِقْلَى.

الإيهام

ويُسمى التَّوْجِيهَ (لأنَّه ذو وَجْهَيْنِ)، ويُسمى مُحْتَمِلُ الضَّدَّيْنِ^(١)، وإذا كَانَ الْمُبْهَمُ لُغَةً مَا كَانَ خَفِيًّا لَا يَسْتَبِينُ؛ فَهُوَ فِي الْإِصْطِلَاحِ: أَنْ يَأْتِيَ الْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامٍ مُبْهَمٍ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ؛ لَا يَمْتَازُ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ؛ كَالْمَدِيحِ وَالْمُجَادِّهِ أَوْ غَيْرِهِمَا؛ وَلَا يَأْتِي بَعْدَهُ بِمَا يُمَيِّزُ الْمُرَادَ مِنْهُمَا؛ قَصْدًا إِلَى الْإِبْهَامِ؛ وَذَلِكَ لِئَنْكُتِهِ؛ كَأَنْ يَبْلُغَ غَرَضَهُ دُونَهَا دَلَالًا يُدَانُ بِهَا^(٢).

وهنا يُحْكِي أَنْ بَشَّارًا فَصَّلَ قَبَاءً عِنْدَ خِيَّاطٍ أَعَوَّرَ اسْمُهُ زَيْدٌ، فَقَالَ لَهُ الْخِيَّاطُ عَابِثًا: سَأَتِيكَ بِهِ لَا تَدْرِي أَقَبَاءٌ هُوَ أَمْ دُؤَاجٌ^(٣)؟، فَقَالَ لَهُ بَشَّارٌ: لَشْنِ فَعَلْتَ لِأَنْظِمَنَّ فِيكَ بَيْتًا لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِمَّنْ سَمِعَهُ أَدْعَوْتُ لَكَ أَمْ دَعَوْتُ عَلَيْكَ، فَفَعَلَ الْخِيَّاطُ، فَقَالَ بَشَّارٌ: [مَجْزُوءَ الرَّمْلِ]

جَاءَ مِنْ زَيْدٍ قَبَاءٌ لَيْتَ عَيْنِيهِ سَـوَاءٌ!

قُلْ لِمَنْ يَعْرِفُ هَذَا: أَمْ مَدِيحٌ أَمْ هَجَاءٌ؟^(٤)

فَمَا عَرَفَ قَصْدُ الشَّاعِرِ؛ أَدْعَا لَهُ أَنْ تُسَوَّى الْعَوْرَاءُ بِالصَّحِيحَةِ فَيُبْصِرَ إِبْصَارًا تَامًّا، أَمْ أَنْ تُسَوَّى الصَّحِيحَةُ بِالْعَوْرَاءِ فَيُكْفَ بَصَرُهُ؟

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٥، ص ٦٠٦.

(٢) والفرق بينه وبين الاشتراك الذي هو من معايير فصاحة الكلمة: أَنَّ الاشتراكَ لَا يَقَعُ إِلَّا فِي لَفْظَةٍ مُفْرَدَةٍ لَهَا مَفْهُومَانِ لَا يُعْلَمُ أَيُّهُمَا أَرَادَ الْمُتَكَلِّمُ، أَمَّا الْإِبْهَامُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْجُمْلَةِ الْمُرَكَّبَةِ الْمَفِيدَةِ، وَيَخْتَصُّ بِالْفَنُونِ كَالْمَدِيحِ وَالْمُجَادِّهِ. انظر: تحرير التَّحْيِيرِ ص ٥٩٦. والفرق بينه وبين التَّوْجِيهِ أَنَّهُ فِي التَّوْجِيهِ يَكُونُ أَحَدُ الْمَعْنَيْنِ خَافِيًّا وَثَانِيهِمَا ظَاهِرًا، وَالْمُرَادُ هُوَ الْحَقِيقِيُّ.

(٣) الدُّوَاجُ: ضَرْبٌ مِنَ الثِّيَابِ أَعْجَمِيٍّ. (اللسان: دوج).

(٤) انظر: ملحقات ديوان بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ ٩/٤، ومعاهد التَّنْصِيصِ ١٣٨/٣، وأنوار الرِّبْعِ ٧/٢. والقَبَاءُ: ضَرْبٌ مِنَ الثِّيَابِ.

وقيل: إِنَّ سَبَبَ إِنْشَاءِ الْبَيْتَيْنِ أَنَّ الْخَيَّاطَ زَيْدًا نَاولَ بَشَّارًا الْقَبَاءَ قَائِلًا: هَذَا إِنْ شِئْتَ لِبَسْتَهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَإِنْ شِئْتَ لِبَسْتَهُ عَلَى بَطَانَتِهِ، فَقَالَ لَهُ بَشَّارٌ: وَأَنَا أَقُولُ فَيْكَ شِعْرًا إِنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ مَدْحًا، وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ ذَمًّا، وَأَنْشَدَهُ الْبَيْتَيْنِ^(١).

ومن ذلك قول الشاعر داعيًا: [الوافر]

فَجُنِبْتَ الْجِيُوشَ أَبَا خُبَيْبٍ وَجَادَ عَلَى مَسَارِحِكَ السَّحَابُ^(٢)

قال الجاحظ (ت ٢٥٥هـ): «يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ دَعَا لَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ دَعَا عَلَيْهِ»^(٣)، وَذَكَرَ ابْنُ رَشِيْقٍ (ت ٤٦٣هـ) أَنَّهُمْ فَسَّرُوا ذَلِكَ بِأَنَّهُ «إِنْ دَعَا لَهُ فَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَافِيَ مِنَ الْجِيُوشِ، وَأَنْ يَجُودَهُ السَّحَابُ فَتُخَصَّبَ أَرْضُهُ، وَإِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ: لَا بَقِيَ لَكَ خَيْرٌ تَطْمَعُ فِيهِ الْجِيُوشُ، فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ الْخَيْرِ عِنْدَكَ، وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِأَنْ تَدْرُسَهَا الْأَمْطَارُ»^(٤)، وَقَدْ رُوِيَ الْبَيْتُ بِرِوَايَةٍ أُخْرَى:

فَجُنِبْتَ الْعَوَارَ أَبَا زَيْبٍ وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ السَّحَابُ^(٥)

فَقَالَ الْقَاضِي الْجُرْجَانِيُّ (ت ٣٧٥هـ): «مَنْ يَسْمَعُ هَذَا الْبَيْتَ يَظُنُّهُ دَعَاءً لَهُ وَاسْتِسْقَاءً لِأَرْضِهِ، وَإِنَّمَا مُرَادُ الشَّاعِرِ الدُّعَاءُ عَلَيْهِ أَنْ يُهْلِكَ اللَّهُ إِلَهَهُ، فَلَا يَمْلِكُ مِنْهَا مَا يُعَارُ عَلَيْهِ، وَأَنْ تَجُودَ السَّحَابُ عَلَى أَرْضِهِ، وَهُوَ مُمْلِقٌ، فَيَشْتَدُّ أَسْفُهُ عَلَى مَا ذَهَبَ مِنْ مَالِهِ إِذَا رَأَى الْأَرْضَ مُخَصَّبَةً، وَسَائِمَةُ الْحَيِّ رَاعِيَةً»^(٦) فَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يَدْعُو عَلَى مُحَاطَبِهِ أَنْ يُصْبِحَ مُعْزِزًا، وَأَنْ تَنَالَ مِنْهُ الْفَاقَةُ، فَإِنْ اعْتَذَرَ مِنْ سَائِلٍ لَمْ يُوسِعْهُ ذَاكَ السَّائِلُ ذَمًّا؛ لِعِلْمِهِ بِضِيقِ ذَاتِ يَدِهِ، وَبِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَا يَجُودُ بِهِ عَلَيْهِ، وَبِهَذَا يَكُونُ فَقْرُهُ قَدْ أَنْقَذَهُ مِنَ الْمَذْمَةِ، وَجَنَّبَهُ الْعَيْبَ وَالْعَوَارَ؛ فَظَاهِرُ كَلَامِ الشَّاعِرِ دَعَاءٌ لِلْمُخَاطَبِ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْمَعَابَةِ، وَبِاطْنُهُ دَعَاءٌ عَلَيْهِ بِالْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ وَالْعَوَزِ.

(١) انظر: مقدمة تفسير ابن النقيب ص ٣٤٨.

(٢) انظر: البيان والتبيين ٢/ ١٦٢، والبيت فيه بلا نسبة.

(٣) انظر: البيان والتبيين ٢/ ١٦٢.

(٤) انظر: العمدة ٢/ ٨٩٦.

(٥) انظر: الوساطة ص ٤١٩، العوار (بالفتح والتخفيف: العيب).

(٦) انظر: الوساطة ص ٤١٩.

وقد حكوا أن شاعراً هنأ الوزير العباسي الحسن بن سهل (ت ٢٣٦هـ) بتزويج ابنته بُورانَ للخليفة المأمون؛ فقال: [مجزوء الخفيف]

بَارَكَ اللهُ لِلْحَسَنِ ————— ولُبُّورَانَ فِي الْحَسَنِ

يَا بْنَ هَارُونَ قَدْ ظَفِرَ ————— تَ، وَلَكِنْ بِنْتِ مَنْ؟^(١)

فلم يُعلم مُرادَه بقوله: (بِنْتِ مَنْ؟) في الرَّفْعَةِ أم في الحَقَارَةِ؟ ولذا حين نُمِّي هذا الشَّعْرُ إلى المأمون قال: والله ما ندري أخيراً أَرَادَ أم شَرَّاً؟

ومن ذلك قول الشاعر: [الطويل]

هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْعَمُ كَلْبَهُ ————— دَعِ الْكَلْبَ يَنْبَحْ؛ إِنَّمَا الْكَلْبُ نَابِحٌ^(٢)

وَكَعَمَ الرَّجُلُ الْكَلْبَ إِذَا أَغْلَقَ فَمَهُ؛ لئَلَّا يَنْبَحَ، وقد روى ابنُ رَشِيقٍ (ت ٤٦٣هـ) أَنَّهُمْ «قالوا: فالمدحُ أن يكونَ إِنَّمَا يَكْعَمُهُ؛ لئَلَّا يَعْقِرَ الضُّيُوفَ [أي: يَعْضُهُمْ]. ومن الذَّمُّ أن يكونَ ذلك؛ لئَلَّا يَنْبَحَ فَيَدُلَّ عَلَيْهِ الضَّيْفُ»^(٣).

ومن ذلك أيضاً أن رجلين اختلفا في أَيُّهما أكرمُ عند النَّبِيِّ ﷺ، أبو بكرٍ أم عليٌّ ﷺ؟ ومعلومُ أنَّ هذا سؤالٌ لا يدري جوابه إلا رسولُ الله، فأجابهما المسؤولُ جواباً لا مزيدَ في الحُسْنِ عليه؛ إذ قال: «الذي كانت ابنته تحته»^(٤)، فأرضاها معا؛ لأنَّ مَنْ يُفْضَلُ أبا بكرٍ فَهَمَّ أَنَّ ابنته عائشةَ كانت زوجَ رسولِ الله ﷺ، ومن يُفْضَلُ عليّاً فَهَمَّ أَنَّ بنتَ رسولِ الله ﷺ فاطمةَ كانت زوجَ عليٍّ، والعربُ تقولُ: فلانةٌ تحتَ فلانٍ إذا كانتَ زوجاً له وتحتَ ولايته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [التحريم: ١٠]، وإنَّ منشأ

(١) انظر: معاهد التنصيص ١٣٩/٣، وأنوار الرِّبيع ٨/٢.

(٢) انظر: العمدة ٨٩٥/٢، والبيت فيه بلا نسبة.

(٣) انظر: العمدة ٨٩٥/٢.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣٧٥/٢٨.

الإبهام ههنا هو أَنَّ المجيبَ تعمَّدَ ألاَّ يُحكِمَ عبارته، ومن ثَمَّ أتى اختلافُ المتلقين في إعادة الضمير، فمن فضَّل أبا بكر أعادَ الضميرَ الهاءَ في (ابنته) على أحدِ الرَّجلين، والهاءُ الثانية في (تحتَه) على الرَّسول ﷺ، ومن فضَّل علياً أعادَ الضميرَ الهاءَ في (ابنته) على الرَّسول ﷺ، والهاءُ الثانية في (تحتَه) على أحدِ الرَّجلين ﷺ.

ومن الإبهام المتردّد بين المدح والذمّ قولُ ابنِ الرومي: [السريع]

ليسَ به عَيْبٌ سوى أَنَّهُ لَا تَقَعُ الْعَيْنُ عَلَى مِثْلِهِ^(١)

فلكَ أن تفهمَ البيتَ ذمّاً خالصاً؛ فهذا امرؤٌ لا نظيرَ له في كثرةِ المعايبِ والمثالبِ والقبائحِ، ولكَ أن تفهمَه مدحاً؛ أي ليسَ له كُفٌّ ولا نظيرٌ في عَظَمَةِ شأنه، وتَعُدُّه حينها من تأكيدِ المدحِ بما يُشبه الذمَّ. والملاحظُ أَنَّ هذا الإبهامَ أكثرُ ما يكونُ في السُّخرية، وقلَّما يلجأُ إليه المادحون؛ لأنَّ المديحَ إذا كان مُحتمِلاً للضدَّين كانَ قبيحاً في نفسِ الممدوح، أمَّا الَّذي يهجو أو يسخرُ فإنَّه يُضطرُّ إلى إبهامِ كلامه وإيهامِ سامعه؛ حتَّى يسهَّلَ عليه التبرُّؤُ من سُخريته هذه، والتفكُّلُ من عقوبةٍ قد تُنزَلُ به إذا ثبتتْ عليه السُّخرية، وقد يَعْمِدُ السَّاخِرُ إلى هذا الإبهامِ لا خَشْيَةَ من عقوبةٍ، بل لزيادةِ الهُزءِ والعَبَثِ بمهجَّوه كما فعلَ بشارُ بالخيَّاط الأعور.

ومن الإبهامِ الَّذي تولَّدَ بحذفِ المتعلِّقِ قولُ الشَّاعر: [الطويل]

وَيَرْغَبُ أَنْ يَبْنِيَ الْمَعَالِيَ خَالِداً وَيَرْغَبُ أَنْ يَرْضَى صَنِيعَ الْأَلَائِمِ^(٢)

معلومٌ أنَّ قولنا: (رَغِبَ في الشَّيءِ: أَحَبَّهُ)، و(رَغِبَ عنه: كَرِهَهُ)، وعليه فإنَّ هذا البيتَ يصدِّقُ فيه حدُّهم للإبهامِ؛ فهو يحتملُ المدحَ والذمَّ من حيثِ إنَّ قَدَّرْتَ (في) أولاً، و(عن) ثانياً فهو مدحٌ، وإنَّ عكستَ فهو ذمٌّ؛ إذ يُقال: (رَغِبَ فيه) و(رَغِبَ عنه)، وهذا الإبهامُ الحاصلُ في البيتِ إنَّ لم يكن على نِيَّةٍ من الشَّاعر وقصدٍ فهو من معايِبِ الكلامِ؛ لأنَّ عدمَ تعيينِ الجارِّ أوقعَ في اللَّبسِ، أمَّا إنَّ كانَ الشَّاعرُ قاصداً لحذفِ الجارِّ مُريداً الإبهامَ فاللَّبسُ ههنا حسنٌ.

(١) انظر: ديوان ابن الرومي ٦/ ٢٦١٧.

(٢) انظر: أنوار الربيع ٢/ ١٣.

ولعلَّ سائلاً يسأل عن سرِّ الإبهام المشابه في الآية الكريمة: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧]، فالإبهام ههنا في قوله سبحانه: ﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾؛ فيأتيه تعقيبُ العلماء على الآية، ومنهم الرَّمُحْشَرِيُّ (ت ٥٣٨هـ) بقوله: «كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَضُمُّ الْيَتِيمَةَ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَمَالَهَا. فَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً تَزَوَّجَهَا وَأَكَلَ الْمَالَ، وَإِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً عَضَلَهَا عَنِ التَّزْوُجِ حَتَّىٰ تَمُوتَ فِيرِثَهَا﴾ ﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ يحتملُ في أن تنكحوهن لجمالهنَّ، وعن أن تنكحوهنَّ لدمامتهنَّ^(١)، فحذفُ الجارِّ ههنا أفضى إلى الاتِّساع في المعاني، والإبهامُ الحاصلُ ههنا فيه ترغيبٌ وترهيبٌ، وجلالٌ وجمال، كما رأيت.

وهكذا فإنَّ الإبهامَ لا يردُّ في القرآن الكريم إلاَّ لحكمة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فإنَّ الفقهاء اختلفوا في هل المقصودُ ثلاثة أظهارٍ، أو ثلاثُ حيضاتٍ^(٢)؛ لأنَّ القرأَ من ألفاظِ الأضدادِ في لغة العرب، تُطلقُ على الطَّهر وعلى الحيض جميعاً^(٣).

ومثل ذلك إذ خرقَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ السَّفِينَةَ، فتعجَّب منه موسى عليه السلام، وأنكرَ عليه، فأجابه فيها أجابه: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، فإنَّ كلمةَ ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ ههنا تحتملُ أنه أمامهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وتحتملُ أن يكونَ وراءهم، وهو يطلبُهم^(٤).

(١) انظر: الكشف ٢/ ١٥٥-١٥٦.

(٢) انظر: مقدِّمة تفسير ابن النقيب ص ٣٤٧.

(٣) انظر: اللسان (قرأ).

(٤) انظر: الكشف ٣/ ٦٠٦، ومقدِّمة تفسير ابن النقيب ص ٣٤٧.

وَمِنْ طَرِيفِ الْإِبْهَامِ الْمُوْهِمِ - وَالْحَقَّ بَعْضُهُمْ بِالْإِلْغَازِ، وَلَكَ أَنْ تُلْحَقَهُ بِالْإِتْسَاعِ - مَا حُكِيَ عَنْ
عُلَامَيْنِ أَتَيَ بِهِمَا إِلَى بَعْضِ وَلَاةِ بَغْدَادَ، فَقَالَ لِأَحَدِهِمَا: مَنْ أَبُوكَ؟ فَقَالَ: [الطَّوِيلُ]

أَنَا ابْنُ الَّذِي لَا تَنْزِلُ الدَّهْرَ قِدْرُهُ وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْمًا فَسَوْفَ تَعُودُ
تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجًا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ فَمِنْهُمْ قِيَامٌ حَوْلَهَا وَقُعُودُ^(١)

فَعَظُمَ فِي عَيْنِهِ، وَقَالَ: هَذَا أَبُوهُ مِنْ بَيْتٍ كَبِيرٍ، وَقَالَ لِلْآخَرِ: مَنْ أَبُوكَ؟ فَقَالَ: [الْمُسْرَحُ]
أَنَا ابْنُ مَنْ دَانَتْ الرِّقَابُ لَهُ مَا بَيْنَ مَخْزُومِهَا وَهَاشِمِهَا
تَأْتِي إِلَيْهِ الْوَفُودُ خَاضِعَةً يَأْخُذُ مِنْ مَالِهَا وَمِنْ دَمِهَا^(٢)

فَقَالَ الْوَالِي: مَا أَشْكُ أَنْ هَذَا أَبُوهُ كَانَ مَلِكًا شَجَاعًا، وَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَا كَانَ فِي الْمَجْلِسِ
رَجُلٌ نَبِيْهٌ، فَقَالَ لِلْوَالِي: الشَّابُّ الْأَوَّلُ كَانَ أَبُوهُ قَوَّالًا، وَالثَّانِي كَانَ أَبُوهُ حَجَّامًا، فَأَعْجَبَ الْوَالِي مِنْهُ
وَمِنْهُمَا!

وَمِنْهُ الْإِبْهَامُ الْمُوْهِمُ مَا قِيلَ وَيُقَالُ فِي كَافُورِيَّاتِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُنْتَبِي^(٣)؛ فَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ الْمُنْتَبِيَّ
فِي كَافُورِيَّاتِهِ كَانَ يَمْدَحُ وَيَهْجُو مَعًا، وَلَعَلَّ ابْنَ جَنْبِي (ت ٣٩٢ هـ) كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَثَارَ قَضِيَّةَ الْهَجَاءِ
الْمُبْطَّنِ فِي مَدَائِحِ كَافُورٍ، فَرَاقَتْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ لِلنَّاسِ الَّذِينَ وَجَدُوا فِي شَعْرِ الْمُنْتَبِيَّ مَا يُعَزِّزُهَا، حَتَّى
أَلْفَ حُسَامِ الدِّينِ زَادَهُ رِسَالَةً فِي ذَلِكَ أَسْمَاهَا (رِسَالَةٌ فِي قَلْبِ كَافُورِيَّاتِ الْمُنْتَبِيَّ مِنَ الْمَدِيحِ إِلَى
الْهَجَاءِ)^(٤)، وَشَجَّعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِشَارَاتُ شِعْرِيَّةٍ اسْتَقْوَاهَا مِنْ قِصَائِدِ الْمُنْتَبِيَّ؛ كَقَوْلِهِ: [الْمُقَارِبُ]

وَشِعْرٌ مَدَحْتُ بِهِ الْكَرَكَدْنَ نَ بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى
فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الْوَرَى^(٥)

(١) انظر: خزانة الأدب ٤ / ٢٠٠.

(٢) انظر: خزانة الأدب ٤ / ٢٠٠.

(٣) انظر: المثل السائر ١ / ٦٤ وما بعدها، وجماليات القصيدة في شعر أبي الطيب المنتبي ص ١١٣ - ١١٨.

(٤) صدرت بتحقيق د. محمد يوسف نجم، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٩٧٢ م.

(٥) انظر: ديوان المنتبي ١ / ٤٣ - ٤٤. والكركدن هو الحمار الهندي، وأراد به الأسود.

فأبو الطَّيِّب ههنا يُصَرِّحُ بأنَّ مدحَه لكافورٍ في ظاهره شِعْرٌ، وفي باطنه رُقياءٌ له، وهذا المديحُ ما كانَ
إلا هِجاءً للمجتمع وللناس الذين قَبِلُوا بهذا الكركدنَ مَلِكاً عليهم، وأخَوْجُوا المتنبيَّ إلى هذا العَبْدِ
الأسود. وهو يُصَرِّحُ في مكانٍ آخرَ بأنَّ مدائحَه في كافور ما كانتَ إلا هِجاءً وسُخريَّةً؛ فالمتنبيُّ يتسلَّى
ويسخر ويَعْبَثُ وكافورٌ مسرورٌ يَظُنُّ أبا الطَّيِّبَ مادحاً له مُعْجَباً به؛ حيث يقول: [الطَّويل]

وَلَوْلَا فَضُولُ النَّاسِ جِئْتُكَ مَدِحاً بِمَا كُنْتُ فِي سِرِّي بِهِ لَكَ هَاجِياً
فَأُصْبَحْتَ مَسْرُوراً بِمَا أَنَا مُنْشِدٌ وَإِنْ كَانَ بِالْإِنْشَادِ هَجُوكَ غَالِياً^(١)

فكأنَّه يقول له: أنت لا تدري المدحَ من الهجاء، وأنا أهجوك في سِرِّي وإن مدحتك ظاهراً، ولولا
فضولُ النَّاسِ لأظهرتُ هجاءك وقلتُ لك بأنِّي أمدحك به، ولكنَّ النَّاسَ فيهم فَضُولٌ، فهم كانوا
سيقولون لك: إنَّ ما أتك به هِجاءٌ لا مديحٌ، وأنتَ أقلُّ قَدراً وقيمةً من أن تُهْجَى ويُنْشَدَ هِجَاؤُكَ.

ولهذه القضية - اختلافُ النَّاسِ في كافوريَّات أبي الطَّيِّب - شجونٌ ليسَ هذا مكانُها، ولكنَّ ما
يَعْنِينَا أنَّ بعضَ مدائحِه لكافور تدخلُ في بابِ الإبهامِ الَّذِي نحنُ فيه إنَّ أُعيدتْ إلى سياقِها، ونُظِرَ في
القرائنِ المحيطة بها، ولم يَهْتَدَ بعد ذلك إلى ترجيحِ أحدِ المعنيين؛ وممَّا زعموا أنَّه مدحٌ مُبْطَنٌ بالهجاءِ
قوله: [الطَّويل]

وغيرُ كثيرٍ أن يزورك راجِلٌ فيرجعَ مَلِكاً للعِراقين واليا^(٢)

فإنَّ لك أن تُفسِّرَ هذا البيتَ بأنَّه: لا يُستَكثَرُ منك يا كافورُ أن تهَبَ العِراقين (الكوفةَ والبصرةَ)
لرجُلٍ قصَّدَكَ راجِلاً فيعودَ والياً عليهما، وهذا غايةٌ في المدحِ، لا مزيدَ في الحُسْنِ عليه، ويصدقُ فيه
أيضاً أن تقول: إنَّ مَنْ زاركَ ورأى ما بك من نَقْصٍ وخِسَّةٍ وضَعْفٍ وقد أصبحتَ مَلِكاً، فلا يَستَكثِرُ
لنفسِه أن يرجعَ والياً على بلاده.

وكذلك قوله يمدحُ كافوراً: [الطَّويل]

وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ

(١) انظر: ديوان المتنبي ٤ / ٢٩٥.

(٢) انظر: ديوان المتنبي ٤ / ٢٩٠.

وَأَيُّ قَبِيلٍ يَسْتَحِقُّ قَدْرَهُ مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ
وَمَا طَرَبِي لِمَا رَأَيْتُكَ بِدَعَا لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَأَطْرُبُ^(١)

أَمَّا الْبَيْتُ الْأَوَّلُ فَوَجْهُ الذَّمِّ فِيهِ أَنَّكَ عَبْدٌ لَا أَصْلَ لَكَ تَفْتَخِرُ بِهِ وَلَا حَسَبَ، فَبَحْسُكَ أَنَّ النَّاسَ يَنْسِبُونَ الْمَكْرَمَاتِ إِلَيْكَ. وَأَمَّا فِي الثَّانِي فَمَنْ كَافُورٌ أَمَامَ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ حَتَّى يُقَالَ لَهُ: (مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ)! وَأَمَّا الثَّلَاثُ فَقَدْ حُكِيَ عَلَى لِسَانِ ابْنِ جَنِّي (ن ٣٩٢هـ) أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ دِيوَانَهُ، حَتَّى أَتَى عَلَى قَوْلِهِ: (وَمَا طَرَبِي...)، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الطَّيِّبِ، لَمْ تَزِدْ عَلَى أَنْ جَعَلْتَهُ أَبَا زَنْةَ [كِنْيَةُ الْقِرْدِ]^(٢)، فَضَحِكَ لِقَوْلِهِ!^(٣). وَلَعَلَّ الْهَجَاءَ الْمُبْطَنَ أَوْضَحُ مَا يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ، وَيُقَوِّي هَذِهِ الْقِنَاعَةَ أَنَّكَ إِذَا تَدَبَّرْتَ الْبَيْتَ الثَّلَاثَ مِنْ تِلْكَ الْمِدْحَةِ، ثُمَّ عَدْتَ فَتَأَمَّلْتَ قَوْلَهُ فِي قَصِيدَةِ أُخْرَى فِي هَجْوِ كَافُورٍ: [الطَّوِيل]

وَمِثْلُكَ يُؤْتَى مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْحِدَادِ الْبَوَاكِيَا^(٤)
= تعزَّرَ هَذَا الْمَذْهَبُ لَدَيْكَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: [الطَّوِيل]

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ
وَلِلَّهِ سِرٌّ فِي عُسْلَاكَ، وَإِنَّمَا كَلَامُ الْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ
فَمَا لَكَ تَخْتَارُ الْقِسْيَى، وَإِنَّمَا عَنِ السَّعْدِ يَرْمِي دُونَكَ الثَّقْلَانِ؟
وَمَا لَكَ تُعْنَى بِالْأَيْسَنَةِ وَالْقَنَا وَجَدُّكَ طَعْنَانٌ بِغَيْرِ سِنَانٍ!^(٥)

فَإِنَّ الْهَجَاءَ الْمُبْطَنَ ظَاهِرٌ فِيهِ أَيْضًا، فَالْقَمَرَانِ (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) يُبْغِضَانِ كَافُورًا، وَإِنَّ مَا فِيهِ كَافُورٌ مِنَ النِّعْمَةِ وَالشُّؤْدُودِ لَا يُعْرِفُ لَهُ سَبَبٌ، وَلَيْسَ يُفَسِّرُهُ عَاقِلٌ؛ لَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ، وَكَمَا يَقُولُونَ: يَجْعَلُ سِرَّهُ فِي أَضْعَفِ خَلْقِهِ، وَإِنَّ كُلَّ أَعْدَاءِ كَافُورٍ وَشَانِئِيهِ إِيَّاهُمْ لَفِي غَمْرَةِ الْهُجْرِ وَالْهَذْيَانِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَرْمِيَهُمْ بِالْجَنُونِ!، ثُمَّ إِنَّ مَجْدَهُ لَمْ يَكُنْ بِالطَّعْنَانِ وَالشُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ بَلْ كَانَ بِالْحِظِّ، وَالْمَرْءُ

(١) انظر: ديوان المتنبي ١/ ١٨٦.

(٢) انظر: اللسان (زن).

(٣) انظر: المثل السائر ١/ ٦٥-٦٦.

(٤) انظر: ديوان المتنبي ٤/ ٢٩٦.

(٥) انظر: ديوان المتنبي ٤/ ٢٧٥.

لا يد له في الحظ، إذ لا يد لكافور في كل ما انقاد له من مجد...، وقد قال ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) تعقياً على هذه الأبيات: «فإن هذا بالذم أشبه منه بالمدح؛ لأنه يقول: لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك، بل بجِدٍّ وسعادة، وهذا لا فضل فيه؛ لأن السعادة تنال الخامل والجاهد ومن لا يستحقها، وأكثر ما كان المتنبّي يستعمل هذا القسم [مُحْتَمِلُ الضدين] في قصائده الكافوريات»^(١).

وأما ما وقع بين الزبرقان بن بدر والخطيئة بعد قوله: [البسيط]

دَعِ المكارمَ لا تَرَحَّلْ لِيُعَيَّتْهَا واقعد؛ فإنك أنت الطاعم الكاسي^(٢)

ففهم الزبرقان أن الخطيئة يطلب منه أن يذر المآثر، وهل لم يبق من مروءة الزبرقان إلا أن يجلس في بيته كالنساء يطعم ويكسى؟! وفي هذا إزراء لا قبله ولا بعده، وفيه من الرمي بالبخل والجبن وقلة المروءة ما لا يحتمله عربي، فقل: إنهما اختصما إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والخطيئة يزعم أنه ما أراد إلا المدح، والزبرقان مُصِرٌّ على أن هذا هجاء موجه لا بُدَّ للخطيئة أن ينال عقابه عليه، حتى أرسل عمر في طلب حسان بن ثابت ليحكم بينهما^(٣)، وهذا يدلُّك على الطاقة الإيهامية التي حملها الكلام فأحوج الأعراب الخُلَص إلى اللوذ بالحكم ليفصل بينهما، أهذا الشعر مدح أم هجاء؟

= وكذا ما وقع بين بني العجلان والشاعر النجاشي قيس بن عمرو (ت ٤٠هـ)، وما حكي من أن بني العجلان كانوا يفخرون بهذا الاسم؛ لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قرى لأضيافه، إلى أن هجأهم النجاشي، فضجروا منه، وسبوا به، فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، هجأنا، وأنشدوه قوله: [الطويل]

فَبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةِ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

فقال عمر: ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب كذلك.

فقالوا: فإنه قال:

(١) انظر: المثل السائر ١/ ٦٥.

(٢) انظر: ديوان الخطيئة ص ٥٠، وفيه قصة تحكيم حسان رضي الله عنه بينهما.

(٣) انظر: ديوان الخطيئة ص ٥٠، وطبقات فحول الشعراء ١/ ١١٦.

تَعَاثُ الْكِلَابُ الضَّارِيَاتُ لِحُومِهِمْ وَتَأْكُلُ مِنْ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ وَتَهْشَلُ

فقال عمر: كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه!^(١)

= فكل أولئك وكل شِعْرٍ أَشْكَلَ بَيْنَ ضِدِّينَ كالمَدْحِ والهَجَاءِ لا يكونُ من الإبهام إلا إن أُعيدَ إلى سياقه، ونُظِرَ في القرائن المحيطة به، ولم يُهْتَدَ بعدَ ذلك إلى ترجيح أحدِ المعنيين، وقد علّق ابنُ السِّيدِ البَطْلِيُّوسِي (ت ٥٢١هـ) على البيت الأوّل (قُبَيْلَةُ...) بقوله: «ألا تراه قد أخرجَ هذا الكلامَ مُخْرَجَ الهَجْوِ، ولولا أنَّ في غير هذا البيت دليلاً على ذلك لكان من الثَّنَاءِ والمدح»^(٢)، وأظنُّ أنَّ هذه الالتفاتة من ابنِ السِّيدِ شديدةُ الخطورة والأهميّة؛ لأنّها تُنبّه إلى أنّه لا يجوزُ الحُكْمُ على أيّ كلامٍ بأنّه من الإبهام وهو منسَلِخٌ من سياقه، وتنبّه أيضاً إلى ضرورةِ النّظَرِ في القرائن المحيطة بهذا الكلام، ومحاولةِ ترجيح أحدِ المعنيين المحتملين قبل نَعْتِهِ بالمُبْهَمِ. فمثلاً ترى العرب يقولون: (فلانٌ بيضةُ البلد) وهذا التّركيبُ ممّا يُمدَحُ به ويُذَمُّ، وقال ابنُ رَشِيقٍ (ت ٤٦٣هـ): «فَمَنْ مَدَحَ أَرَادَ بِهَا أَصْلَ الطَّائِرِ، وَمَنْ ذَمَّ أَرَادَ أَنَّهَا لَا أَصْلَ لَهَا»^(٣)، قالت أختُ عمرو بنِ عَبْدِ وَدٍّ في عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) لَمَّا قَتَلَ أَخَاهَا:

[البسيط]

لو كان قاتلُ عمّرو غيرَ قاتلِهِ لقد بَكَيْتُ عليه آخرَ الأبدِ

لكنّ قاتلَهُ مَنْ لا يُعَابُ بِهِ وكان يُدعى قديماً بيضةَ البلدِ

فهذا مدحٌ كما تراه.

وقال الرّاعي النّميريّ يهجو عديّ بن الرّقاع العامليّ: [البسيط]

لو كنتَ من أحدٍ يُهْجَى هَجَوْتُكُمْ يا ابنَ الرّقاع، ولكنّ لستَ من أحدٍ

تأبى فُضَاعَةً أن تَرْضَى لَكُمْ نَسَباً وابنا نزارٍ؛ فأنتم بيضةُ البلدِ^(٤)

(١) انظر: العُمدة ١/ ٦٤ - ٦٥، وفيه الخبرُ كاملاً.

(٢) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني ص ٦٥.

(٣) انظر: العُمدة ٢/ ٨٩٩.

(٤) انظر: العُمدة ٢/ ٩٠٠.

وفي هذا تأكيدٌ، كما سلف، على أنَّ الكلامَ لا يجوزُ أن يُحكَمَ عليه بأنَّه من الإبهام الذي يحتملُ معنيين متضادين معاً، إلّا بعد قراءته في سياقه، ومعرفة القرائن المحيطة به، ومن ثمَّ يُرجَّحُ بين المعنيين، وإن لم يُبتَدَ إلى قرينةٍ مُرجَّحةٍ بعد ذلك فيكون الكلامُ ممّا نحنُ فيه من الإبهام، وتأكيدُنا هذا مبعثُه أنَّ كثيراً من الأمثلة التي ساقَناها الكتبُ على أنَّها من الإبهام لو أُعيدتُ في سياقاتِها لترجَّحتُ معانيها المحتملة، ولما بقي ما يصدق عليه حدُّ الإبهام إلّا قليلٌ منها.

فالإبهامُ الحقُّ هو الإبهامُ الَّذي تُعدَمُ فيه مُحَدَّداتُ الدلالة - كفعلٍ بِشَارٍ مع الأعور - وفيه قال ابنُ الأثير (ت ٦٣٧هـ): «إنَّه قليلُ الوقوعِ جدّاً، وهو من أظرفِ التَّأويلاتِ المعنويّة؛ لأنَّ دَلالةَ اللَّفْظِ على المعنى وضدّه أغربُ من دلالتهِ على المعنى وغيره ممّا ليس بضدّه...، وهو ممّا يدلُّ على براعةِ الشَّاعرِ وحُسْنِ تَأْيِيهِ»^(١).

وهذا الفنُّ ممّا تميلُ إليه النفوسُ؛ إذ ليس فيه ما يُطمئنُّ ذَهْنَ المتلقِّي إلى معنَى مُحَدَّدٍ، بل يجعلُه مُنشِغاً في البحثِ عن القرائن المُحدَّدة للدلالة التي يعنيها المتكلِّمُ؛ لأنَّ النَّفْسَ مَفْطُورَةٌ على حُبِّ الاطِّلاعِ، وكَشْفِ الألغاز والمُبْهَماتِ.



(١) انظر: المثل السائر ١/ ٦٤ - ٦٦.

الاتّساع البلاغيّ

هو أن يقول المتكلّم كلاماً يتّسع فيه التّأويل، فيأتي كلّ واحد من السّامعين بتأويلٍ أو معنى جديدٍ تحتمله الألفاظ، وتتعدّد فيه التّأويلات لاحتتمال اللفظ واتّساع المعنى، وتتكاثّر بحسب قوَى النّظر لدى كلّ مُتلقٍّ، من غير ترجيحٍ بينها^(١)، فهذا الفنّ كما ترى يعتمدُ على قوّة المبدع، وفطنة المتلقّي.

والاتّساع يشبه الإبهام في أنّه احتمال الكلام أكثر من معنى من غير ترجيح بين هذه المعاني، ويُفارقُه في أنّ الإبهام، كما هو معلوم، يحتمل معنيين متضادين بالضرورة، وليس الأمر كذلك في الاتّساع.

ولكنّ من ذكروا هذا الفنّ لم يأتوا على سبيله وطرائقه، وهذه الطّرق تكاد لا تنقضي؛ فمنها أن يُلقِيَ المتكلّم كلامه مُستغلاً جهل السّامع بأحوال المتكلّم والمخاطب وما يكتنف الكلام من قرائن الأحوال، ومنها استعمال المجاز، ومنها المشترك اللفظي مع غياب القرينة المُرجّحة، ومنها عدم تقييد الجملة تقييداً مُحكماً بمتعلقات الفعل على عمْدٍ، ومنها أيضاً أن بعض ألوان التّصويت قد تُفضي إلى الاتّساع؛ كتغيب المفصل الصّوتي (السّكّنة)، أو استثمار العوارض الصّوتية من المدّ القصير والمدّ الطّويل والتبديل فيما بينها، وكذا التّلاعبُ بالتّنعيم في أثناء تلفّظ العبارة، وثمّ اتّساعٌ ينشأ من عوامل صرفيّة كاختلاف الأصل الاشتقاقيّ؛ وذلك حين تتمظهر كلمتان في ثوبٍ ظاهريّ متماثل مع أنّ كلّاً منهما ترجع إلى أصلٍ اشتقاقيّ مختلف عن الآخر كـ (الزّائر) و (القائل)؛ وكأنّ تقول: (إنّ المحتلّ لا يهدأ له بال)، وإنّ عوارض تصريفية كثيرة كاشتباه الصّيغ تؤدّي إلى اجتماع كلمتين في قالبٍ واحدٍ وافتراقهما في المعنى، وهذا يُفضي إلى ما نحن فيه من الاتّساع إذا غابت القرائن، كقولك: كان السّائق ماهراً، فقد اشتبه العَلَمُ بالصفة (اسم فاعل)، وكذا تناوُب هذه الصّيغ واشترائها ككلمة (مُسْتَقْبَل) الدّالة على اسم الزمان والمكان والمفعول والمصدر الميميّ، ومن ذلك

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها ص ٢٧، والمنزَع البديع ص ٤٢٩، وأنوار الربيع ٥٣/٦.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴿طه: ٥٨-٥٩﴾، فلفظ ﴿مَوْعِدًا﴾ في هذا السياق يحتمل أن يكون مصدرًا، ويعضد هذا قوله: ﴿لَا نُخْلِفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾، ويحتمل أن يكون اسم زمانٍ، ويعضد هذا قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾، ويحتمل أن يكون اسم مكان، ويعضد هذا قوله: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾^(١).

وثمة اتساعٌ ناشئٌ عن اعتياص التركيب؛ ومن ذلك عدم ترك دليل يُعين القارئ على إرجاع الضمير، كقولك: (طلب أخى إلى أبى أن يتكلم)، ولا يُنكر أثر خفاء العلامة الإعرابية في توليد هذا اللبس المفضي إلى ما يُسمى بالاتساع، وثمَّ عوامل كثيرة تُفضي إلى هذا الاتساع لن نستفيض ههنا في بحثها، وإن كانت جيرةٌ يبحثُ بسطُ فيها القولُ مستفيداً من علوم الصرف والنحو والبلاغة والصوتيات، وكان ينبغي الإشارةُ إلى أنَّ أهل البدع أغفلوا إيضاحها والتنبية عليها، مع أنَّ ذلك يستحقُّ كتاباً مفرداً.

ومن أمثلة الاتساع الحروف المقطعة في فواتح سور القرآن الكريم؛ من مثل: ﴿تَّ﴾ [القلم: ١]، و ﴿حَمَّ﴾ [غافر: ١]، و ﴿آلَ﴾ [البقرة: ١]، و ﴿كَهَيْعَصَ﴾ [مريم: ١]، فإنَّ العلماء حازوا في تفسيرها؛ فهذا ابنُ عباسٍ (ت ٦٨هـ) يقول في ﴿كَهَيْعَصَ﴾: «إِنَّ الكافَ مِن كَافٍ، والهَاءُ مِن هَادٍ، والياءُ مِن حَكِيمٍ، والعَيْنُ مِن عَلِيمٍ، والصَّادُ مِن صَادِقٍ»^(٢)، وبعضهم جعلَ هذه الحروف مأخوذةً من صفات الله تعالى^(٣)، وإنَّك ترى لأهل التفسير في تأويلها مذهب شتى لا سبيلَ إلى التَّرجيح بينها، ومنهم مَنْ عدَّ هذه الحروف من الإلغاز^(٤)؛ لكثرة ما رأى من حيرة النَّاسِ واختلافهم في تفسيرها، ومنهم مَنْ رأى أنَّها تحدُّ منه تعالى للنَّاسِ بأنْ يأتوا بمِثْلِ هذا القرآنِ مع أنَّه مُركَّبٌ من

(١) انظر: مغني اللبيب ٢/ ٧٧٦-٧٧٧.

(٢) انظر: تأويل مُشكل القرآن ص ٢٩٨.

(٣) انظر: تأويل مُشكل القرآن ص ٢٩٨.

(٤) انظر: مقدِّمة تفسير ابن النقيب ص ٢٥٦.

حروف لُغَتِهِمُ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا، وَجُلَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ ذَاهِبٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْمُرَادَ بِهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ إِذْ لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى شَيْءٍ مُّعَيَّنٍ أَنَّهُ هُوَ الْمُرَادُ بِهَا مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ وَلَا إِجْمَاعٍ وَلَا مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ.

وكذا من آياتِ البيانِ القرآنيِّ ما تعدَّدتْ فيه أقوالُ المفسِّرين، ولكلِّ منهم حُجَّةٌ تعضدُ مذهبه؛ ولعلَّه بإمكانِ القارئِ البسيطِ أن يستشعرَ ما تمتازُ به آياتُ القرآنِ الكريمِ من طاقةٍ دلاليَّةٍ لا تنضبُ، فإذا قرأ المرءُ قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا نِيعَمَةٌ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؛ مرَّت بخاطره معاني متعدِّدة؛ منها: حَدَّثِ النَّاسَ وأخبرهم بها أَنْعَمَ اللهُ عليك، أو حَدَّثَ نَفْسَكَ وتذكَّرْ مِنْنَ اللهِ ونعماءه عليك، أو اشكُرْ رَبَّكَ واحمدهُ على سابغِ نعمِهِ عليك، وقد يخطرُ له أن (نعمَةً رَبِّكَ) هي الإسلامُ، ومعنى الآية: بَلِّغِ النَّاسَ الإسلامَ وادعهم إليه، وهذا أرجحُ الخواطرِ عندي؛ وذلك لأنَّ في السُّورةِ ترابطاً معنوياً ظاهراً بأدنى تأمُّلٍ؛ فلو رجعتَ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ ٦ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ٧ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ٨ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ٩ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ١٠ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٦-١١]؛ لوجدت أنَّه سبحانه أعطى نبيّه ثلاثَ نِعَمٍ، وأمره بثلاثةِ أوامرٍ تناسُبها، أتت على مبدأ اللَّفِّ والنَّشْرِ من غير ترتيب، وهذا ترتيبها:

- ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾؟ ← ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾
- ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾؟ ← ﴿فَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾
- ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾؟ ← ﴿فَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

على أنَّ هذا التَّرجيحَ الَّذِي رَأَيْتُهُ لَا يُخْرِجُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ مِنْ بَابِ الْإِتْسَاعِ؛ لِأَنَّ هَذَا التَّرجيحَ لَمْ يَقُمْ عَلَى قَرِينَةٍ قَطْعِيَّةٍ الدَّلَالَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَا اطمأنَّ إليه الخاطرُ. وقد وقفَ ابنُ السَّيِّدِ البَطْلَيْوسِيِّ (ت ٥٢١هـ) عند تفسير كلمة ﴿ضَالًّا﴾ ههنا واختلاف النَّاسِ في تأويلها، وبَيَّنَّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالضَّلَالِ ههنا الغفلةُ، كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢] أي: تَغْفُلَ وتنسى، وذكرَ أَنَّ الصُّوفِيَّةَ تَأَوَّلَتِ الضَّلَالَةَ ههنا بمعنى المحبَّة، أي: وَوَجَدَكَ مُجِبًّا فِي الْهُدَى فهذا، وذكرَ أَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الْمَحَبَّةَ ضَلَالًا؛ لِأَنَّ إِفْرَاطَ الْمَحَبَّةِ يَشْغُلُ الْمُحِبَّ عَنْ كُلِّ غَرَضٍ،

ويحمله على النسيان والإغفال لكل واجبٍ مُفترَض، وذكرَ قوله تعالى حكايةً عن إخوة يوسف مخاطبين أباهم: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] فإنما أرادوا بالضلال هنا إفراط محبته في يوسف عليه السلام ^(١). وإن كنت أرى شططاً في تأويل الصوفية ههنا، إلا أن هذا دليل على الاتساع في هذه العبارة، حتى حملت الأقوام على التباين في تفسيرها.

ومثل ذلك أيضاً حين تسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، فمعلوم أن هذه الآية نزلت تثبت فؤاد الرسول ﷺ بعد حادثة ألمت مشاعره ﷺ؛ وذلك أن رجلاً من قريش التقى بالرسول ﷺ فوقفا يتحدثان، ثم دخل هذا الرجل مجلساً فيه صناديد من قريش، فسأله: من الذي كنت تُحدثه، فقال لهم: ذلك الأبر، وذلك أنه ﷺ كان توفي ابنه عبد الله منذ مدة، وكان ابنه القاسم متوفى قبل أخيه عبد الله، فانقطع بموت عبد الله الذكور من ولده ﷺ يومئذ، وكانوا يصفون من ليس له ابن بالأبر، فأنزل الله تعالى هذه الآية ^(٢)، وحصل فيها قصرُ صفة ﴿الْأَبْتَرُ﴾ على ذلك الرجل (العاصي بن وائل السهمي) وحده، ولكن لو تفكرنا ما دلالات كلمة ﴿الْأَبْتَرُ﴾ ههنا؟ لرأينا أنها بمعنى المقطوع من الأثر الحسن والعمل الصالح، أو المقطوع من رحمة الله، أو أنه لا خير فيه، ولو علمنا أن العاصي بن وائل كان له عقب كثير، وصار فيهم من الصحابة ومن حسن دينهم وأبلوا في الإسلام بلاءً حسناً؛ ومنهم ولده عمرو بن العاص (ت ٤٣ هـ)؛ قلنا: ربما كان المعنى أنه لم يتفع بكثرة ذريته؛ لأنهم كانوا على الإيمان، وكان على الكفر والخسران، فصار كمن لا عقب له؛ إذا فهو الأبر.

وأحياناً يختلف تفسير الآية القرآنية بحسب عود الضمير؛ ففي قوله سبحانه: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، لك أن تقول: إن الضمير (ها) في «إِنَّهَا» عائذ على الاستعانة؛ على تقدير: وإن الاستعانة...، كما في قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] أي: اعدلوا؛ عدلكم أقرب للتقوى، وهذا توجيه سيويه (ت ١٨٠ هـ) بقوله: «ومثل ذلك قول

(١) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني ص ١٢٠.

(٢) انظر: أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٥٠٣.

العرب: (مَنْ كَذَبَ كَانَ شَرًّا لَهُ) يريد: كَانَ الْكَذِبُ شَرًّا لَهُ، إِلَّا أَنَّهُ اسْتَغْنَى بِأَنَّ الْمَخَاطَبَ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ الْكَذِبُ، لِقَوْلِهِ: (كَذَبَ) فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ^(١)، وَلَكَ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ الضَّمِيرَ (هَا) عَائِدٌ عَلَى الصَّلَاةِ، وَلَكَ أَنْ تُعِيدَهُ أَيْضاً عَلَى جُمْلَةِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ^(٢)، فَإِذَا عُدْنَا أَدْرَاجَنَا قَلِيلاً، وَتَأَمَّلْنَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿يَبْنَیْ اِسْرَءِیْلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي اَنْعَمْتُ عَلَیْكُمْ وَاَوْفُوا بِعَهْدِي اَوْفٍ يَهْدِيكُمْ وَاِتَنِیْ فَارْهَبُوْنِ

﴿٤٠﴾ وَاٰمِنُوْا بِمَا اَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُوْنُوْا اَوَّلَ كٰفِرٍۭ بِهٖ وَلَا تَشْتَرُوْا بِاٰتِنِیْ ثَمَنًا قَلِيْلًا وَاِتَنِیْ فَاَتَقُوْنِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوْا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوْا الْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴿٤٢﴾ وَاَقِيْمُوا الصَّلٰوةَ وَءَاتُوا الزَّكٰوةَ وَارْكَعُوْا مَعَ الرَّاكِعِیْنَ ﴿٤٣﴾ اَتَاْمُرُوْنَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ اَنْفُسَكُمْ وَاَنْتُمْ تَتْلُوْنَ الْكِتٰبَ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِیْنُوْا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ وَاِنَّهَا لَكَبِیْرَةٌ اِلَّا عَلٰی الْخٰشِعِیْنَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٠-٤٥]؛ كَانَ بُوْسَعُنَا الْقَوْلُ: إِنَّ الضَّمِيرَ (هَا) فِي إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ.. عَائِدٌ عَلَى جُمْلَةِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي قَبْلُ؛ مِنْ ذِكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ، وَالْإِيفَاءِ بِعَهْدِهِ، وَخَشْيَتِهِ، وَالْإِيَانِ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ، وَعَدَمِ خَلْطِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ طَمَعاً بَعَرَضِ الدُّنْيَا، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَاجْتِنَابِ الرِّيَاءِ... وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ كَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ.

وَمِنْ الْاِتِّسَاعِ أَيْضاً ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ١-٣]، فَقَدْ تَعَدَّدَتْ الْأَقْوَالُ وَاتَّسَعَ التَّأْوِيلُ فِي هَاتَيْنِ اللَّفْظَتَيْنِ عَلَى ثَلَاثَةِ وَعَشْرِينَ قَوْلًا ذَكَرَهَا الْمَدَنِيُّ (ت ١١٢٠ هـ)، وَمِمَّا ذَكَرَهُ أَنَّ الشَّفَعَ هُوَ الْحَلْقُ؛ لَكُونِهِ أَزْوَاجاً ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبا: ٨]، وَأَنَّ الْوَتْرَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ، أَوْ أَنَّ الشَّفَعَ شَفَعُ الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْوَتْرَ وَتَرُهَا، وَكَذَا الشَّفَعُ الصَّفَا وَالْمَرُوءَةُ، وَالْوَتْرُ الْبَيْتُ الْحَرَامُ، وَالشَّفَعُ آدَمُ وَحَوَّاءُ، وَالْوَتْرُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى....^(٣)

وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِيْ أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، رَأَى الرَّانَخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) أَنَّ (مَا) الْمُوصُولِيَّةَ فِي الْآيَةِ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عَائِدَةً عَلَى الْوَلَدِ

(١) انظر: سيبويه ٣٩١/٢.

(٢) انظر: الكشاف ٢٦٢/١.

(٣) انظر: أنوار الربيع ٥٥-٥٣/٦.

أو على دم الحيض، فقال: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾: من الولد أو من دم الحيض؛ وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها، أو كتمت حيضها وقالت وهي حائض: قد طهرت؛ استعجالاً للطلاق. ويجوز أن يراد اللاتي يبعين إسقاط ما في بطونهن من الأجنة فلا يعترفن به ويحدثنه لذلك، فجعل كتمان ما في أرحامهن كناية عن إسقاطه^(١).

ومن الاتساع الدلالي في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ: «إذا لم تستحي^(٢) فاصنع ما شئت»^(٣)، فإن هذا الحديث يدعو إلى الحياء، ولك أن تؤوله بطريقتين يميزهما بناؤه اللغوي؛ أولاهما: إذا لم تفعل فعلاً تستحي منه فافعل ما شئت، أي: إن كان الفعل الذي عزمته على فعله أو هممت لا يؤرثك عاراً أو يجلب لك الحجل ويخرجك أمام الناس فأقدم عليه ولا تؤجل، والآخر: إن لم يكن للمرء حياءً يزعه عن فعل ما يستحيا منه، فليفعل ما شاء^(٤).

ومنه أيضاً أنه ﷺ دعا على واحد من المشركين بقوله: «اللهم اقطع أثره»^(٥)، وهذا يحتمل من التأويل ثلاثة أوجه؛ الأول: أنه دعا عليه بالزمانه أي كساح يصيبه فلا يستطيع أن يمشي على الأرض، فينقطع حينئذ أثره، والوجه الثاني: أنه دعا عليه بالألا يكون له نسل من بعده ولا عقب. والوجه الثالث: أنه دعا عليه بالألا يكون له أثر من الآثار مطلقاً، وهو ألا يفعل فعلاً يبقى أثره من بعده كائناً ما كان من عقب، أو بناء، أو غراس، أو غير ذلك^(٦).

ومنه أيضاً أنه ﷺ سأله بعض أزواجه: أئنا أسرع بك لحوقاً؟ فقال: «أطولكن يداً»، فلما توفي ﷺ رحن يذرعن الأيدي ويطاولن بينها، لينظرن أيهن أطول يداً وأسرع لحوقاً.. فلما لبثت أن

(١) انظر: الكشف ١/ ٤٤٢.

(٢) يقال: استحي الرجل يستحي بياء واحدة، واستحيا فلان يستحي بياءين. انظر: اللسان (حيا).

(٣) انظر: صحيح البخاري ٢/ ١١٩٧، ورقم الحديث (٣٢٩٦).

(٤) انظر: المثل السائر ١/ ٦٤.

(٥) انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٥/ ٥١٦. ورقم الحديث (٣٧٣١).

(٦) انظر: المثل السائر ١/ ٦٧.

تُوفِّيَتْ إِحْدَاهُنَّ (قيل: زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ)، ولم تكنْ بِأَطْوَلَهُنَّ يَدًا، ولكنها كانت كثيرةَ الصَّدَقَةِ، فعلمنَ حينئذٍ أَنَّهُ لم يُرِدِ الجَارِحَةَ، وإنَّهَا أَرَادَ الصَّدَقَةَ^(١)، ومعلومٌ أَنَّ العَرَبَ كانت تُكَنِّي بِطَوْلِ اليَدِ والدَّرَاعِ عن كثرةِ البَذْلِ والعطاء؛ كقولِ أَبِي زيَادٍ الأَعْرَابِيِّ: [الوافر]

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرَ الْفَتِيَانِ مَالًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَمَهُم ذِرَاعًا^(٢)

ومنشأُ الاتِّسَاعِ وتعدُّدِ الدَّلَالَةِ في فهمِ كلامِهِ ﷺ ههنا أَنَّ العبارةَ متأرجحةٌ بين الحقيقةِ والمجازِ، ونسوةُ النَّبِيِّ ﷺ أخذنَ بظاهرِ اللَّفْظِ، فإذا المرادُ به تأويلُهُ.

ومن الاتِّسَاعِ في تفسيرِ المعنى ما رواه أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه إِذْ قَالَ: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي قَطُّ: أَفٌّ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لَمْ فَعَلْتُهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَ كَذَا؟»^(٣)، فهذا القولُ يحتملُ وجهَيْنِ من التَّأْوِيلِ: أَحَدُهُمَا: وَصَفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالصَّيرِ وَالْحِلْمِ عَلَى خُلُقٍ مَنْ يَصْحَبُهُ، وَالْآخَرُ: أَنَّهُ وَصَفَ نَفْسَهُ رضي الله عنه بِالْفِطْنَةِ وَالذِّكَاءِ فِيمَا يَقْصِدُهُ مِنَ الأَعْمَالِ، كَأَنَّهُ مُتَفَطِّنٌ لِمَا فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فيفعله من غير حاجةٍ إلى استئذانه، ودون أن يُحْطَى^(٤).

ويكونُ ذلك في الشَّعْرِ أَيْضًا، فقد ذَكَرُوا أَنَّ بَيْتًا من الشَّعْرِ قد قِيلَ في شرحه مُتَا قَوْلٍ، وَأُلْفَ في تفسيرِهِ كِتَابٌ^(٥)، والبيتُ هو قولُ الحماسِيِّ: [البسيط]

بَيْضُ مَفَارِقُنَا، تَغْلِي مَرَا جُلْنَا نَأْسُوا بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيِّدِينَا^(٦)

وقد نقلَ الزَّيْدِيُّ (ت ١٢٠٥ هـ) عن الصَّاعِنِيِّ (ت ٦٥٠ هـ) قوله: «سمعتُ والدي المرحومَ بَغَزَنَةَ في شهورِ سنةِ نَيْفٍ وثمانينَ وخمسمئةً يقولُ: كُنْتُ أَقْرَأُ - في صِبَايَ - كِتَابَ الْحِمَاسَةِ لِأَبِي تَمَّامٍ عَلَى

(١) انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٣٢٩/١١. ورقم الحديث (٨٨٩٠).

(٢) انظر: الوساطة ص ٢٨٧، ومعاهد التنصيص ٥٩/٤.

(٣) انظر: رياض الصالحين ص ٢٣١.

(٤) انظر: المثل السائر ٦٧/١.

(٥) انظر: أنوار الربيع ٥٦-٥٧.

(٦) انظر: شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١٠٣/١.

شيخِي بَغَزَنَةً، فَفَسَّرَ لِي هَذَا الْبَيْتَ، وَأَوَّلَ فِي قَوْلِهِ: (بَيَضُ مَفَارِقُنَا) مَتْنِي تَأْوِيلٍ، فَاسْتَغْرَبْتُ ذَلِكَ حَتَّى وَجَدْتُ الْكِتَابَ الَّذِي يُبَيِّنُ فِيهِ هَذِهِ الْوُجُوهُ بِبَغْدَادَ فِي حَدُودِ سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَسِتْمِئَةٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ^(١)، وَقَدْ اتَّسَعَ الشُّرَاحُ فِي تَأْوِيلِ (بَيَضُ مَفَارِقُنَا) فِي هَذَا الْبَيْتِ؛ فَمِنْ قَائِلٍ: (أَرَادَ بِذَلِكَ الْعِفَّةَ وَالطَّهَارَةَ؛ كَقَوْلِهِمْ: أَبْيَضُ الْعِرْضِ وَالشَّيْمِ وَالْحَسَبِ)، وَمِنْ قَائِلٍ: (بَلْ أَرَادَ أَنَّهُمْ كُھُولٌ وَمَشَايخُ قَدْ حَنَكْتُهُمُ التَّجَارِبُ، وَلَيْسُوا بِالْأَغْمَارِ)، وَمِنْ قَائِلٍ: (بَلْ أَرَادَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِعَبِيدٍ؛ لِأَنَّ فَرْقَ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ أَبْيَضَ كَانَ جَمِيعُ جَسَدِهِ أَبْيَضَ)، وَمِنْ قَائِلٍ: (إِنَّهُ أَرَادَ امْتِدَاحَهُمْ بِأَنَّهُ انْحَسَرَ الشَّعْرُ عَنْ مُقَدِّمِ رُؤُوسِهِمْ؛ لِمَدَاوِمَتِهِمْ عَلَى لُبْسِ الْبَيْضِ)، وَمِنْ قَائِلٍ: (مَعْنَاهُ: نَحْنُ كِرَامٌ، نُكْثِرُ اسْتِعْمَالَ الطَّيِّبِ، فَابْيَضَّتْ مَفَارِقُنَا لِذَلِكَ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: مَنْ أَكْثَرَ مِنْ اسْتِعْمَالِ الطَّيِّبِ أَسْرَعَ الشَّيْبُ إِلَيْهِ)، وَمِنْ قَائِلٍ: (بَلْ أَرَادَ نَحْنُ مَكْشُوفُو الرُّؤُوسِ، لَا عَيْبَ فِينَا، فَعَبَّرَ عَنِ النِّقَاطِ بِالْبَيَاضِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَرَبَ يَقُولُ فِي مَدْحِ الرَّجُلِ: الْأَبْيَضُ)^(٢).

وَلَوْ سَمِعْنَا قَوْلَ الْأَعْشَى: [البسيط]

وَدَّعْ هُرَيْرَةً؛ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ!^(٣)

لَمَّا عَلِمْنَا الرِّكْبَ الْمُرْتَحِلَ، أَهْوَى رَكْبُ هُرَيْرَةٍ وَأَهْلُهَا؟ أَمْ رَكْبُ الشَّاعِرِ عَزَمَ عَلَى السَّفَرِ، وَأَرَادَ تَوْدِيعَ هُرَيْرَةٍ قَبْلَ الْمَسِيرِ؟ وَهَذَا أَفْضَى إِلَى تَفْسِيرَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ هَهُنَا، وَلِذَا أَنْ تُعَدَّهُ مِنَ الْإِبْهَامِ؛ بِوَصْفِ الْمَعْنَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ. وَمِنْ الْإِتْسَاعِ فِي تَفْسِيرِ الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ قَوْلُهُمْ: «الْقَوْمُ فِي أَمْرِ لَا يُنَادِي وَلِيْدُهُ»^(٤)، فَقَدْ تَعَدَّدَتْ تَأْوِيلَاتُهُ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ:

- فَمِنْ ذَاهِبٍ إِلَى أَنَّ هَذَا التَّرْكِيْبَ يَدُلُّ عَلَى التَّهْوِيلِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَذْهَلُ عَنْ وَلِيْدِهِ لِشِدَّةِ بِهِ، فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿يَوْمَ يَقِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٢٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿[عبس: ٣٤-٣٥].

(١) انظر: تاج العروس (بيض).

(٢) انظر: أنوار الربيع ٦/ ٥٥-٥٦.

(٣) انظر: ديوان الأعشى ص ٤١.

(٤) انظر: كتاب الأمثال لابن سلام ص ٣٤٢.

- وذاهب إلى أن هذا التعبير يدل على عظمة الموقف، وذلك أنه أمرٌ عظيمٌ يُنادى فيه عليه القوم ورجاؤهم لا الأبناء والصبية.

- وذاهب إلى أن هذا التعبير دلالة على الجد والحزم؛ وذلك أن الصبيان إذا ورد الحَيَّ كاهنٌ، أو رَقَاءً [صاحب رُقَى]؛ حشدوا له واجتمعوا عليه؛ أي: ليس هذا اليوم يوم أنسٍ وهو، إنما هو يوم تجرُّدٍ وجدٍّ.

وفي تفسير هذا التركيب مذاهبٌ أخرى^(١).

وقد تعددت الأقوال كذلك في بيت امرئ القيس: [التأويل]

مَكْرٌ، مَفَرٌّ، مُقْبِلٌ، مُدْبِرٌ مَعَاً كَجُلُودٍ صَخِرَ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عَلٍ^(٢)

فقد تعجَّبوا من قوله: (معاً)، فكيف يكون الكَرُّ والفرُّ والإقبال والإدبارُ معاً؟ وأتوا بتأويلاتٍ متباينة^(٣).

ولا مناص هنا من التذكير بأن التأويل رجوعٌ عن ظاهر اللفظ، وهذا لا يكون إلا بداعٍ ودليل، فإذا طلب مني زيد أن أصحبه إلى روضة غناء؛ فهل يجوز أن أخذه إلى المكتبة باعتبار التأويل، وأن المكتبة روضة من رياض الجنة؟ بالطبع هذا لا ينبغي لمن له أدنى فقهية في تصريف كلام العرب، وفي هذا يقول ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ): «واعلم أن الأصل في المعنى أن يُحمَلَ على ظاهر لفظه، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ [الذِّكْر: ٤]، فالظاهر من لفظ «التياب» هو ما يُلبَس، ومن تأوَّل ذهب إلى أن المراد هو القلب، لا الملبوس، وهذا لا بُدَّ له من دليل؛ لأنَّه عدولٌ عن ظاهر اللفظ»^(٤).

(١) انظر: الخصائص ٢/ ٤٩-٥٠، وأمثالي المرتضى ١/ ٢٢٢، ولسان العرب (ولد)، والمنزَع البديع ص ٤٣١.

(٢) انظر: ديوان امرئ القيس ص ١٩.

(٣) انظر: تحرير التَّحْيِير ص ٤٥٤-٤٥٥.

(٤) انظر: المثل السائر ١/ ٦٢.

جماليتُ الاتِّساعِ البلاغيِّ:

وما أظنُّ الاتِّساعَ إلَّا استنطاقاً للنصِّ الأدبيِّ من المتلقِّي، فهو إذاً إبداعٌ على الإبداع، وأظنُّ أنَّ التأويلاتِ المتكاثرةَ التي تتولَّد من بيت شعريٍّ ما هي إلَّا اجتهاداتٌ أبدعها المتلقِّي، ولم تكن أكثرُ هذه المعاني والدلالاتِ المتباينةُ لِتَخطرُ للشاعر وهو يُعدُّ كلامه.

وهذا لا ينفي أنَّ الاتِّساعَ يُوقِّفنا على نصٍّ أدبيٍّ مفتوح على كثيرٍ من الفضاءات الدلاليَّة، فالاتِّساعُ يمنحُ النصَّ حياةً وتجديداً، ويمنحُ المتلقِّي سُلطةً تُمكنه من أن يُشارك في العمليَّة الإبداعية، وأن يُقولَ المؤلِّف ما لم يُقل، فالنصُّ ههنا تتعدَّد معانيه بتعدُّد قراءاته؛ وتتباينُ تلك المعاني والتأويلاتُ بتباينِ المرجعية الفكرية والثقافية والاجتماعية التي يستند إليها كلُّ قارئ.

وهذا الكلامُ لا يعني البتَّة (موتَ المؤلِّف)، ولا ينفي ما له من أثرٍ في إثراء نصِّه بالدلالات، بل إنَّه قد يكونُ قصَداً وهو يصوغُ كلامه إلى جعله مجالاً للتأويل، وذلك لأغراضٍ شتى؛ فقد حُكي أنَّ الحروريَّة^(١) ظفروا برجلٍ، وقالوا له: إبرأ من عليٍّ وعُثمان، فقال: (أنا من عليٍّ ومن عُثمان أبرأ)^(٢)، وهذا الكلامُ كما ترى يحتملُ معنيين مختلفين؛ أحدهما: أَنَّهُ بريءٌ منهما جميعاً ﷺ؛ إذا كانتِ الواوُ للعطف، والثاني: أَنَّهُ بريءٌ من عُثمان وحده، إذا كانتِ الواوُ للاستئناف، وإنَّك لَترى ههنا أثرَ المفصلِ الصَّوتيِّ في رَفْعِ هذا اللَّبسِ، فلو قال: (أنا من عليٍّ * ومن عُثمان أبرأ) لَفُهِم أَنَّهُ يتبرأ من عثمانٍ فحسب، ولكنَّ عندما غيَّبَ المفصلِ الصَّوتيِّ صرنا إلى ما نحن فيه من الاتِّساعِ وتعدُّدِ الدلالات، وما ينطوي عليه ذلك من إيهامٍ للسَّامعين.

وبالإمكانِ الإفادةُ من هذا الأسلوبِ في صياغة الخطابِ السياسيِّ وفي تصرّجاتِ دُعاةِ السَّاسةِ الَّذِينَ يصوغون عباراتهم لتكونَ حمالةً أوجهٍ؛ كيلا يجدوا حرجاً في تبديلِ مواقفهم أو التَّراجعِ عن مضمونها متى احتاجُوا، وهذا لَعَمري عينُ الدَّهاء.

(١) فئة تُنسب إلى الخوارج.

(٢) انظر: المثل السائر ٦٨/١.

وما نحن فيه من الاتساع باب لا يكاد ينقضي إذا ولجنا في عالم الأدباء الصوفيين؛ كالحلاج (ت ٣٠٩هـ)، وسُلطان العاشقين ابن الفارض (ت ٦٣٢هـ)، والشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي (ت ٦٣٨هـ)؛ لأن هؤلاء أسرفوا أو حلقوا في خيالاتهم، وتخطوا معايير اللغة التي تنظم العلاقة بين الحقيقة والمجاز، وقد تواطئوا على ألفاظٍ اصطلاحوا عليها، وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة منها، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر حارٍ في فهمها وإدراكها وبيان معانيها، وربما نسبهم إلى الضلال أو الكفر، ولم يقتصر الأمر على أن أدبهم حمالٌ أو جهِ، بل أيضاً جاءت تأويلاتهم للآيات القرآنية أحياناً مُبتعدة عن معناها الظاهري، وقد كُتبت في ذلك أبحاث، منها «التأويل الصوفي للنص»^(١).

وما من ريب في أن المعرفة بالاتساع والتأويل تساعد العارف الخبير بتصرف الكلام على تحليل الخطاب، وسبر أغواره، وقراءة ما بين السطور، كما يُقال. وقد قال الأصمعي (ت ٢١٦هـ): «خير الشعر ما أعطاك معناه بعد مطاولة»^(٢)، وهو لا يقصد هنا الشعر المُعقّد المستغلق المركّب من وحشي الألفاظ الذي لا يتهدى إلى مُراد الشاعر فيه، بل يريد الشعر الفصيح القوي الذي يحتمل معاني شتى، وتأويلات عدّة، كلّها صحيحة ولا مُرَجَّح بينها.

وإن النص المتسع المتعدّد المعاني الغني بدلالاته يسمح للمتلقّي بالقراءة التفاعلية؛ ليعبر عن ذاته في تأويل النص، وليسهم في إعادة تشكيله، وهنا يبرز الفرق بين النصوص الفقيرة الدلالات وبين النصوص الغنية، وفي الاتساع أيضاً تبرز الفروق بين القراء، فللنص معنى ظاهر قد يكون مشاعاً لكلّ قارئ، ومعانٍ أُخرى لا يستدعيها من رقادها إلا المتلقّي الفطن؛ على ألا يشتطّ هذا المتلقّي في تأويلاته بعيداً عن السياق، وموافقة التأويل لمقتضى حالي المتكلم والمخاطب.



(١) انظر: مجلّة التراث العربي- التأويل الصوفي للنص (د. عبد الإله نبهان) العدد ٦٨ - ١٩٩٧ م.

(٢) انظر: تحرير التحبير ص ٤٥٥.

الهجاء في معرض المدح

وهو أن يقصد المتكلم إلى هجاء إنسان، فيأتي بالفاظٍ موجهةٍ ظاهرها المدح، وباطنها القدح، وبذلك يؤهم أنه يمدحه وهو يهجو^(١).

وإنَّ ما يُميِّزُ الهجاءَ في معرضِ المدحِ من التَّهْكُمِ - مع أنَّ الذي فيه من المدحِ تهْكُمٌ - هو أنَّ التَّهْكُمَ لا تخلو ألفاظه من لفظةٍ من اللَّفْظِ الدَّالِّ على نوعٍ من أنواعِ الذَّمِّ، أو لفظةٍ يفهمُ من فحواها الهُجُو... وألفاظُ المدحِ في هذا البابِ لا يقعُ فيها شيءٌ من ذلك، ولا تزالُ تدلُّ على مُجَرَّدِ المدحِ حتَّى يقرنَ بها ما يصرفُها عن ذلك^(٢).

وهذا الفنُّ كما ترى يقومُ أساساً على إيهامِ المخاطبِ؛ بقصدِ تقويةِ السُّخريةِ وتمكينها؛ لأنَّ صاحبه لا يُصرِّحُ بالهجاءِ؛ وأنت لا تبلغُ مراده إلا بتفكيرٍ وتأملٍ، ومعلومٌ أنَّ ما يُحصِّله المتلقِّي بعد إعمالِ الفكرِ وبذلِ الجهدِ يكونُ أرسخَ في نفسه، وأعلَقَ في ذهنه.

وأكثرُ أضربِ هذا الفنِّ إيهاماً هو الكلامُ الذي إذا سمعتَ شطره الأوَّلَ مُنفرداً كانَ مدحاً خالصاً، فإذا جاوره أخوه أخذَ بيده في بابِ الهجاء؛ كقولي: (أُحِبُّ زوجتي؛ لأنَّها تفهمني بالإشارة، ولأنَّها ذكيَّةٌ أحياناً)، وقد سمَّاه السَّجلماسيُّ (ت نحو ٨٠٠ هـ) وُرُودَ الذَّمِّ في صورةِ المدحِ؛ وقال: «هو أشدُّ على المذمومِ من لفظِ الذَّمِّ بعينه؛ فإنَّ في ذلك معَ الذَّمِّ نوعاً من الهُزءِ»^(٣).

ومن أمثلةِ الهجاءِ في معرضِ المدحِ قولُ شاعرٍ يُدعى ثروانَ: [الطَّويل]

لو كنتُ مولى قيسِ عيلانَ لم تجِدْ عليَّ لإنسانٍ من النَّاسِ درهماً

إنَّه يتمنَّى لو كانَ ولاؤه في قيسِ عيلانَ؛ ويمدحُهم بأنَّه لو كانَ منهم لأغنوه بعطائهم أن يدين، ولما خشيَ الدينَ؛ لأنَّهم سيقومون بوفائه، ولكنَّك إذا قرأتَ البيتَ معَ تاليه:

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغيَّة وتطوُّرها ص ٦٦٩.

(٢) انظر: تحرير التَّحْيِير ص ٥٥١-٥٥٢، وخزانة الأدب ٢/ ٢٧٦.

(٣) انظر: المنزَع البديع ص ٢٩٧. ولم يفصل في أمثله بينه وبين التَّهْكُمِ.

لو كُنْتُ مَوْلَى قَيْسِ عَيْلَانَ لَمْ تَجِدْ
وَلَكِنِّي مَوْلَى قُضَاعَةَ كُلِّهَا

عَلَيَّ لِإِنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ ذَرْهَمًا
فَلَسْتُ أَبَالِي أَنْ أَدِينَنَ وَتَغْرَمَا^(١)

أَتَرَى حِينَ قَرَأْتَ الْبَيْتَ مَعَ تَالِيهِ كَيْفَ رَأَيْتَهُ يَرْمِيهِم بِالْبُخْلِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْهُمْ لَمَّا تَجَرَّأَ عَلَى اقْتِرَاضِ
دَرَاهِمٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ؛ لِيَأْسِهِ مِنْ أَنْ يُؤَفَّقُوهُ عَنْهُ، وَلَكِنْ وَلَاءَهُ فِي قُضَاعَةٍ، وَهُمْ قَوْمٌ - لَا مُحَالَةَ -
يُؤَدُّنَ عَنْهُ الدِّينَ؛ لِمَا عُرِفُوا بِهِ مِنَ الْمَرْوَةِ وَالْكَرَمِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّعْرِيزِ أَيْضًا.

وكذا قول أحدهم في بعض الأشراف: [الوافر]

لَسَهُ حَقٌّ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ وَمَهْمَا قَالَ فَالْحَسَنُ الْجَمِيلُ عَلَيْهِ لَغْوُهُ، وَهُوَ الرَّسُولُ^(٢) وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ يَرَى حُقُوقاً

وقول بعضهم في شاعر فقيه: [الخفيف]

هو في الفقه شاعرٌ لا يُبَارَى وهو في الشعر أفقهُ الشعراءِ

لا إلى هـ_____ؤلاءِ إن طلبُوه وَجَدُوهُ ولا إلى هـ_____ؤلاءِ^(٣)

وقول بعضهم في أبي تمام وكانت في لسانه حُبسة: [مَجْزوء الرَّمْل]

يَا نَبِيَّ اللَّهِ فِي الشَّعْنِ
أَنْتَ مِنْ أَشْعَرِ خَلْقِ اللَّامِ

رِ، وَيَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ
مِنْهُ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ^(٤)

ألا ترى أنَّ ألفاظَ هذا الضَّرْبِ خَلُوْ من أيِّ إشارةٍ للذَّمِّ أو الهجاء، وأنَّ البيتَ الأوَّلَ في كُلِّ مِنَ الأمثلةِ السَّالِفَةِ مَدْحٌ لَا يُخَالِطُهُ ذَمٌّ، ولكنَّ اقترانهَ بالبيتِ الثَّانِي أَهْلَهُ لِيَدْخُلَ في بابِ القَدْحِ والذَّمِّ، ويتحوَّلَ إلى سُخْرِيَةٍ؛ بِفَعْلٍ تِلْكَ الْمُفَارَقَةِ الَّتِي وَلَدَهَا الإِيهَامُ.

(١) البيتان في البيان والتبيين ٣/ ٣٠٩، وفي المثل السائر ١/ ٧٧. والبيت فيهما مخروم. والحرُم حَذَفُ أَوَّلِ مُسَحَّرٍ من الودِّ المجموع في أَوَّلِ البيت (فعلون = فَعْلُنْ). انظر: الكافي في العروض والقوافي ص ٢٧.

(۲) انظر: تحرير التَّحْبِير ص ۵۵۰.

(٣) انظر: أنوار الربيع ٣/ ٣٣٨.

(٤) انظر: تحرير التَّحْيِير ص ٥٥٠، وقد نسب البيهقي لعبد الصَّمَد بن المَعْدِل، أو لأبي العَمَّيْل.

ومن الأبيات المشتهرة بين أهل العربية قول الحماسي قُرِيط بن أُنَيْف في قومه: [البسيط]

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ الشُّوءِ إِحْسَانًا

كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِحَشِيَّتِهِ سِوَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانًا^(١)

إنَّ لهذين البيتين كما ترى ظاهراً وباطناً؛ لأنَّك إنَّ قرأتها ابتداءً وجدتها مدحاً بالحلم والعفة والخشية والتقوى، وإنَّ أعدت النظر فيها وجدتها غايةً في الإذلال والاستخفاف بأنَّهم ليسوا ذوي قُوَّة ولا مهابة ولا منعة، ولا سيَّما إنَّ أعدتها في سياقها فسمعت قوله بعدهما:

فَلَيْسَتْ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكُبُوا شَسْنَاوُ الْإِغَارَةِ فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا

وأما ما حُكي في باب الإبهام من أنَّ بني العجلان كانوا يفخرون بهذا الاسم؛ لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قرى لأضيافه، إلى أنَّ هجأهم النجاشي قيس بن عمرو (ت ٤٠ هـ)، فضجروا منه، وسُبوا به، فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، هجأنا، وأنشدوه قوله: [الطويل]

فَبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّتِهِ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

فقال عمر: ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب كذلك.

فقالوا: فإنه قال:

تَعَاثُ الْكِلَابُ الضَّارِيَاتُ حُومَهُمْ تَأْكُلُ مِنْ كَغَبِ بْنِ عَوْفٍ وَتَهْتَلُ

فقال عمر: كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه!^(٢)

= فإنه ممَّا نحنُ فيه من الهجاء في معرض المدح، وهذه الأبيات إنَّ قطعناها عن سياقها وعمَّا قبلها من الأبيات وعمَّا بعدها، فأغضينا عن قرائن الأحوال والمقال فقد تدخل في باب الإبهام، وإلا فهي

(١) انظر: شرح ديوان الحماسة (للتبريزي) ١/ ١٨.

(٢) انظر: العمدة ١/ ٦٤ - ٦٥، وفيه الخبر كاملاً.

هَجَاءٌ مُقْدَعٌ أَتَى بَلْبُوسِ الْمَدْحِ، تَغَافَلَ عَنْهُ عَمْرُ الْبَصِيرِ بِتَصْرِيفِ الْكَلَامِ؛ لِيَذُرَ الْحَدَّ بِالشُّبْهَةِ، وَكَذَا يُقَالُ فِي قَوْلِ الْحَطِيطَةِ فِي الزَّبْرِقَانِ بْنِ بَذْرٍ: [البسيط]

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَيْهَا واقْعُدْ؛ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي^(١)

وقد أوردَ مُحَمَّدُ بْنُ دَاوُدَ الظَّاهِرِيُّ (ت ٢٩٧هـ) لهذا الضَّرْبِ مِنَ الْكَلَامِ أَمْثَلَةً مِنَ الشَّعْرِ فِي بَابِ عَقْدِهِ لَهُ، وَسَمَّاهُ: (ذِكْرُ مَا جَاءَ مِنَ الْأَشْعَارِ مُحْتَمِلًا لِلْهَجَاءِ وَالْإِهْجَاءِ)^(٢)، وَكَذَا فَعَلَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي بَابِ سَمَّاهُ: (مَا أَشْكَلَ مِنَ الْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ)^(٣)، وَأَلَّفَ حُسَامُ الدِّينُ زَادَهُ الرَّؤْمِيُّ رِسَالَةً فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ سَمَّاهَا (رِسَالَةٌ فِي قَلْبِ كَافُورِيَّاتِ الْمُتَنَبِّيِّ مِنَ الْمَدِيحِ إِلَى الْهَجَاءِ)^(٤)، وَابْنُ الرَّؤْمِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ أَيْضًا شَعْرًا مَوْفُورًا.

فَكُلُّ أَوْلَئِكَ وَكُلُّ شِعْرِ أَشْكَلَ بَيْنَ ضِدَّيْنِ؛ كَالْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ يُعَادُ إِلَى سِيَاقِهِ، وَيُنْظَرُ فِي الْقِرَائِنِ الْمُحِيطَةِ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يُهْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى تَرْجِيحِ أَحَدِ الْمَعْنَيْنِ فَهُوَ الْإِهْجَاءُ، وَإِلَّا فَهُوَ مِنَ الْهَجَاءِ فِي مَعْرَضِ الْمَدْحِ (إِنْ كَانَ وَجْهًا الْمَدْحَ وَالْهَجَاءَ، وَرَجَحَ الْهَجَاءَ)، وَبَعْضُ مَنْ مُصَنِّفِي الْبَلَاغَةِ يَخْلِطُ بَيْنَ الْهَجَاءِ فِي مَعْرَضِ الْمَدْحِ وَالْإِهْجَاءِ^(٥)، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا هَذَا الَّذِي ذُكِرَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْهَجَاءَ كُلَّمَا كَانَ أَخْفَى كَانَ أَلْدَعَ، وَهَذَا أَنْتَ تَرَى الْأَدِيبَ الْبَارِعَ يَعْمِدُ إِلَى هَذَا الْإِهْجَاءِ وَهَذَا التَّوْجِيهِ لِلْمَدْحِ؛ لِنُكْتَةٍ يَقْصِدُهَا، فَيَجِدُ فِيهِ بُغْيَتَهُ، وَيُنَالُ بِهِ حَاجَتَهُ، وَهَذَا بِقَصْدِ السُّخْرِيَةِ أَشْهُرُ وَأَعْرَفُ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَمْسٌ لِلْإِفْلَاتِ مِنْ تَبَعَاتِ الْهَجَاءِ اللَّادِعِ.

(١) انظر: ديوان الحطيطية ص ٥٠، وفيه قصّة تحكيم حسان رضي الله عنه بينهما.

(٢) انظر: الزهرة ٢/ ٧٩١.

(٣) انظر: العُمدة ٢/ ٨٩٣.

(٤) صدرت بتحقيق د. محمد يوسف نجم، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٩٧٢ م.

(٥) انظر: أنوار الربيع ٣/ ٧٠، فقد عدّ المدني بيتاً من الإهْجَاءِ وليس البيت كذلك؛ لَأَنَّهُ عَقَلَ عَنْ قَرِينَةِ رَجَّحَتْ الْهَجَاءَ.

ولابن رشيقي (ت ٤٦٣ هـ) في خفاء الهجاء كلام لا مزيد عليه في الحُسن؛ إذ يراه أبلغ من التصريح وأخلق بدوي المكانة والشرف، وأما غيرهم فبحسبهم هجاء صريح مُعتاد؛ ولذا يتباين هجاء الشاعر الواحد تباًين مهجويّ؛ بقوله: «وأنا أرى أنّ التعريض أهجى من التصريح؛ لا تساع الظن في التعريض، وشدة تعلّق النفس به، والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته، فإذا كان الهجو تصريحاً أحاطت النفس به علماً، وقبلته يقيناً في أول وهلة، فكان كل يوم في نقصان؛ لنسيان أو ملل يعرض، هذا هو المذهب الصحيح [يعني إخفاء الهجاء]، على أن يكون المهجو ذا قدر في حسبه ونفسه؛ فأما إن كان لا يوقظه التلويح، ولا يؤلّمه إلا التصريح فذاك. وهذه العلة اختلف هجاء أبي نواس، وكذلك هجاء أبي الطيّب فيه اختلاف؛ لاختلاف مراتب المهجويين»^(١).



(١) انظر: العُمدة ٢/ ٨٧١.

تأكيد المدح بما يُشبه الذم، وعكسه

هذا بابٌ جميلٌ ممتعٌ من فنون القول، تتجلى فيه براعة المتكلم في ترتيب المعاني وإيهام المتلقي بقصد جمالية الإدهاش والمفاجأة التي تبعث في المتلقي النشاط بعد أن خادعته العبارة وخاتلته وعابثت ظنونه، ولنبدأ بتأكيد المدح بما يُشبه الذم^(١)، وأسماهم بعضهم: (تأكيد الفكرة بما يُشبه تقرير ضدها)^(٢)، ولعل هذه التسمية أولى؛ لأن هذا الأسلوب الموهم يكون في المدح وفي الذم وفي غيرهما من ضروب القول.

وتأكيد المدح بما يُشبه الذم: هو أن يعمد المتكلم إلى تأكيد المدح باعتماد أسلوب يوهم أنه أراد الذم، وذلك أنك تريد مدح إنسان، فتتكلم عنه أو معه بكلام يوهم أنك شرعت في ذمه، فإذا أنت تمدحه كمال المدح، وفي ذلك مفاجأة لذيذة للسامع، وتمكين للمعنى في نفسه، بعد أن أوهمته وأوقعت في نفسه ضدَّ مُرادك؛ ومن هنا قال فيه صاحب الطراز (ت ٧٤٩هـ): «هو أن يكون الكلام له وجهان»^(٣).

وهذا الأسلوب كثيرٌ في كلام العرب، وهو على ضربين:

الضرب الأول: أن يُستثنى من صفة ذم منفيّة صفة مدح يتعذر دخولها فيه، ومنه قول النابغة الذبياني: [الطويل]

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم
بهنّ فلولٍ من قراع الكتائب^(٤)

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٤٢، و ٦١١، وأنوار الربيع ٢٧/٦.

(٢) انظر: البلاغة العربية (أسسها، وعلومها، وفنونها) ٣٩٢/٢. وقد أشار التفتازاني (ت ٧٩٢هـ) إلى شيء من هذا إذ قال: «النظر في هذه التسمية [يعني تأكيد المدح بما يُشبه الذم] على الأعم الأغلب، وإلا فقد يكون ذلك في غير المدح والذم، ويكون من محسنات الكلام،...» انظر: المطول ص ٦٧٢، وقد أتى على مناقشة ذلك السجلماسي (ت نحو ٨٠٠هـ) في كتابه المنزع البديع ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٣) انظر: الطراز ٧٤/٣. وسماه التوجيه.

(٤) انظر: ديوان النابغة ص ٦٠. الفلول: جمع (فل) وهو الثلم يصيب حد السيف من الضرب الشديد.

وقول صفّي الدين الحلّي: [البسيط]

ولا عيبَ فيهم سوى أنّ النّزِيلَ بِهِمْ يسلو عن الأهل والأوطانِ والحشم^(١)

إذا أفلَحَ الشّاعِرُ وأوقَعنا في شَرِكِ إِيهامِهِ؛ فلنعرفُ موطنَ الإِيهامِ ههنا، وهو أنّنا وَطَّنا أنفُسنا على أنّ يأتيَ المستثنى مُحالِفاً لحُكمِ ما قبله، فقولُه: (لا عيبَ فيهم) مدحٌ، ولكنَّ المتكلمَ استثنى بقولِه: (غير أنّ..) أو (سوى..) فتوهّمنا أنّه سيأتي بصفةٍ مُخرِجةٍ ممّا قبلها، وإذا به يأتينا بصفةٍ مدحٍ أيضاً؛ ليزدادَ المدحُ مدحاً، لذا قال المدنيّ (ت ١٢٠ هـ): «مع ما فيه من خِلابة»^(٢) أي: خِداع، والخِلابةُ ههنا من أنّ المتكلمَ يُشعرُنا بأنّه لم يعثر على صفةٍ ذمٍّ فيهم حتّى يُثبتها، فاضطرَّ إلى استثناءٍ صفةٍ مدحٍ.

وأهلُ البلاغةِ يرون في الضّربِ الأوّلِ مزيدَ حُسْنٍ على الثّاني؛ لأنّ توكيدَ المدحِ فيه من جهيتين:

الأولى: إقامة الدّليل والبرهان على إثبات صفة المدح، فالنّابغةُ مثلاً دَلَّلَ على نَقْيِ العيبِ عنهم بتعليقِ وجودِهِ على وجودِ شيءٍ لا يكون، والمعلّقُ على المحالِ مُحالٌ؛ فتأكّيدُهُ ههنا كتأكّيدِ نَقْيِ دُخُولِ الكافرين الجنّةَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

والثّانية: ما ذكّرَ قبلَ قليلٍ من أنّ المتكلمَ يُشعرُنا أنّه لم يجدَ صفةً ذمٍّ ليستثنِيها، فاضطرَّ إلى استثناءِ صفةٍ مدحٍ.

أمّا الضّربُ الثّاني من تأكيدِ المدحِ بما يُشبهُ الذّمَّ فهو: أنّ يُثبِتَ لشيءٍ صفةً مدحٍ، ويُعقِبَ بأداةِ استثناءٍ، فيتوهّمُ السّامعُ ههنا أنّ المستثنى سيكونُ صفةً ذمٍّ، فيليها صفةً مدحٍ أخرى؛ كقولِه ﷺ: «أنا أفصحُ العربِ، بيدَ أيّ من قريشٍ»^(٣)، فمَن سَمِعَ قولَه: (أنا أفصحُ العربِ) عَلِمَ أنّه مدحٌ خالصٌ، فإن سَمِعَ قولَه: (بيدَ أيّ..) توهّمَ أنّ الكلامَ المأتيّ به بعدُ فيه ما يُنقِصُ من قيمةِ المدحِ في العبارةِ الأولى، فإذا به تمكّنُ للمدحِ الأوّلِ.

(١) انظر: شرح الكافية البديعة ص ٣٠٥.

(٢) انظر: أنوار الربيع ٢٨/٦.

(٣) انظر: مجالس ثعلب ١١/١، والصّاحبي ص ٤١، والفائق ١١/١-١٤١.

ولذا تجد ابن الأثير الحلبي (ت ٧٣٧هـ) يقول: «حقيقة هذا النوع أن يكون الإنسان أخذاً في مدح، فيستثنى في بعضه، فيعتقد السامع [أي: يتوهم] أن ما بعد الاستثناء يكون نوع ذم أو عيب في الممدوح استثنى منه المادح في مدحه، فإذا تكلم الاستثناء توجب تأكيداً للمدح الأول قطعاً له»^(١). وجمال هذا الأسلوب كما ترى في عكسه لتوقع المتلقي.

ومن هذا النوع قول النابغة الجعدي: [الطويل]

فَتَى كَمَلْتُ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ، فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا^(٢)

ويجري البلاغيون الاستدراك المفهوم من لفظة (لكن) في باب تأكيد المدح بما يشبه الذم مجري الاستثناء؛ كما في قول بديع الزمان الهمذاني: [الطويل]

هُوَ الْبَدْرُ، إِلَّا أَنَّهُ الْبَحْرُ زَاخِرًا سَوَى أَنَّهُ الضَّرْعَاغُمُ، لَكِنَّهُ الْوَبْلُ^(٣)

فقوله: (إلا أنه...)، و(سوى أنه...) استثناء من مثل قوله: «بيد أي من قریش»، وقوله: (لكنه الوبل) استدراك يفيد الفائدة المحصلة من الاستثناء في هذا الباب، وقد أكد المدح ههنا بأسلوب يوهم ابتداءً أنه يريد أن يذكر له عيباً بعد أن شبهه بالبدر، وكذا يقال فيما بقي.

وهذا الأسلوب عزيز في القرآن الكريم، ومنه قوله سبحانه وتعالى حكاية عن السحرة يخاطبون فرعون: ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِكَ يَا نَبِيَّ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَاقُؤًا﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩]، وعقب ابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ) على هذه الآية بقوله: «فإن الاستثناء بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ على ما عابوا به المؤمنين من الإيمان يوهم بأن يأتي بعد الاستثناء ما يجب أن ينقم على فاعله مما يذم به، فلما أتى بعد الاستثناء ما يوجب مدح فاعله؛ كان الكلام متضمناً تأكيد المدح بما يشبه الذم»^(٤).

(١) انظر: جواهر الكنز ص ٢٠٦.

(٢) انظر: ديوان النابغة الجعدي ص ١٧٣، والمتنوع البديع ص ٢٨٨. وعين الفعل (كمل) مثلثة.

(٣) انظر: المطول ص ٦٧٥، والمتنوع البديع ص ٢٨٨.

(٤) انظر: بديع القرآن ص ٧٨.

وأما تأكيد الذم بما يشبه المدح^(١) فهو أن يسلك المتكلم عكس الطريق السابق؛ بأن يقصد تأكيد الذم باعتماد أسلوب يوهّم المدح؛ وهذا الفن كما ترى يقوم أساساً على إيهام المخاطب؛ بقصد تقوية السخرية وتمكينها، وهو أيضاً على ضربين:

الضرب الأول: أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء مثل (لا خير في فلان) صفة ذم له مثل (إلا أنه فاسق)؛ بتقدير دخول صفة الذم في صفة المدح؛ كقولك: (فلانة ليس فيها من الجمال سوى أنها...) هنا يتوقع منك السامع أن تستثنى صفة مدح، وكأن هذه الصفة التي سوف تستثنىها تُغني صاحبها عما بقي، وكأنك تريد أن تقول: (فلانة ليس فيها من صفات الجمال إلا صفة واحدة تشفع لها، وهي...)، هنا يبدأ السامع بالتوقع، سوى أنها: طويلة، نجلاء، كحلاء، هيفاء، كالبدري في طلعتها...؛ إلا أنك تحبط توقعه حين تُتم قولك بصفة ذم؛ كأن تقول: (فلانة ليس فيها من الجمال سوى أنها قصيرة وسمينة ورائحتها كريهة) وهنا تكون قد أكدت الذم بالذم على طريق الإيهام والمُخاتلة، وكذا قولك: (لا خير في زيد سوى أنه يأكل أموال اليتامى)، أو (لا خير في فلان غير أنه يُجاهر بالنفاق)، ومن ذلك قول الشاعر: [خلع البسيط]

خَلَا مِنَ الْفُضْلِ غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ فِي الْحُمُقِ لَا يُجَارَى^(٢)

وأما الضرب الثاني: فهو أن يُثبت لشيء صفة ذم تُعقب بأداة استثناء، تليها صفة ذم أخرى لذلك الشيء؛ كقولك: (فلان جاهل إلا أنه فاسق)، و(فلان لا يملك نفسه عند الغضب غير أنه حسود)، ومنه قول الشاعر: [المتقارب]

لَسِيْمُ الطَّبَاعِ سِوَى أَنَّهُ جَبَانٌ يَهْوُنُ عَلَيْهِ الْهَوَانُ^(٣)

وزادوا ضرباً ثالثاً هو أن تأتي بصفة ذم مُثبتة ثم بصفة بعدها توهّم رفع صفة الذم، ثم تُعلّق بها ما يُبين أنه ذم، فتكون ذماً بعد ذم، وهو أبلغ من سابقه؛ لما فيه من التّهكّم والاستهزاء، ومثاله قولك:

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٤١.

(٢) انظر: جواهر البلاغة ص ٣٩٨.

(٣) انظر: جواهر البلاغة ص ٣٩٩.

(رَأَيْتُ عُتْقَ زَيْدٍ عَاطِلًا، فَحَلَيْتُهُ بِالصَّفْعِ)^(١)، ألا ترى أَنَّكَ أَثَبْتَ أَوَّلًا صِفَةَ ذَمٍّ وَهِيَ كَوْنُهُ عَاطِلًا، ثُمَّ أَثَبْتَ تَحْلِيَّتَهُ، فَأَوْهَمْتَ رَفَعَ صِفَةَ الذَّمِّ السَّابِقَةِ، وَإِذَا بِكَ تَقُولُ: «بِالصَّفْعِ»، وَتُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ التَّحْلِيَةَ ذَمٌّ آخَرٌ، أَوْ كَقَوْلِكَ: (فَلَانٌ مَا مِنْ رَيْبٍ فِي أَنَّهُ مَكْرُوهٌ لِسُوءِ أَخْلَاقِهِ، إِلَّا أَنَّهُ وَفِيَّ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ).

ولعلَّه بالإمكان أَنْ نُلْحِقَ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ طَرِيقَةً هِيَ أَنْ تَمْدَحَ الرَّجُلَ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى، ثُمَّ تَسْتَدْرِكُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ بِأَمْرِ يَكَادُ يَنْقُضُ قِيَمَةَ الْأُولَى؛ كَأَنْ تُسْأَلَ عَنْ مَدْرَسٍ مَا، فَتَقُولَ: (هُوَ صَاحِبُ أَخْلَاقٍ عَالِيَةٍ، وَمُعْطَاءٌ، وَعِلْمُهُ غَزِيرٌ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ تَوْصِيلَ الْفِكْرَةِ إِلَى الطُّلَابِ)؛ فَإِذَا كَانَتْ مَهْمَةُ الْأَسْتَاذِ الْأُولَى هِيَ أَنْ يُوَصِّلَ الْمَعْلُومَاتِ وَالْأَفْكَارَ إِلَى الطُّلَابِ، وَهَذَا الرَّجُلُ عَاجِزٌ عَنِ الْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمَهْمَةِ؛ إِذَا فَهُوَ إِنْسَانٌ طَيِّبٌ، لَكِنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ مُدْرِّسًا. وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْخُبْثَاءِ فِي النَّيْلِ مِنْ خُصُومِهِمْ، يَبْدُوْنَ بِمَدْحِهِمْ وَيُطِيلُونَ الْمَدْحَ، ثُمَّ يَذْمُونَهُمْ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ، وَفِي هَذَا إِيْهَامٌ بِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ مُوْضُوعِيٌّ، وَلَا يُسَايِرُ هَوَاهُ، وَإِنَّمَا هِيَ قَوْلُهُ الْحَقُّ.

جَمَالِيَّةُ تَأْكِيدِ الْمَدْحِ بِمَا يُشَبِّهُ الذَّمَّ وَعَكْسِيهِ:

قَدْ رَأَيْتَ مِمَّا سَبَقَ كَيْفَ يَصْنَعُ هَذَا الْأَسْلُوبُ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّي، وَقَدْ شَبَّهَ بَعْضُهُمْ هَذَا الْأَثَرُ «بِالْجَزْرِ فَالْمَدِّ السَّرِيعِ الْأَقْوَى مِنَ الْجَزْرِ»^(٢)، وَلَعَلَّ سُلْطَانَ هَذَا الْأَسْلُوبِ مُنْبِعُثٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمُتَلَقِّيَّ يُهَيِّئُ ذِهْنَهُ بَعْدَ سَمَاعِ أَدَاةِ الْاسْتِثْنَاءِ أَوْ الْاسْتَدْرَاكِ لِسَمَاعِ مَعْنَى مُخَالِفٍ لِمَا سَبَقَ، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي أَسْلُوبِ الْاسْتِثْنَاءِ، فَيُفَاجِئُهُ الْمُتَكَلِّمُ بِتَأْكِيدِ الْمَدْحِ أَوْ الذَّمِّ السَّابِقِ، وَيُحْبِطُ تَوَقُّعَهُ، مِمَّا يَدْعُو هَذَا الْمُتَلَقِّيَّ إِلَى التَّنَبُّهِ وَالْيَقَظَةِ، لِأَنَّكَ بَادَرْتَهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِ، بَلْ إِنَّكَ أَنْتَ اسْتَدْرَجْتَهُ إِلَى تَوْهُمِ أَشْيَاءَ، ثُمَّ عَاجَلْتَهُ بِخِلَافِهَا.

وَمِمَّا قِيلَ فِي جَمَالِيَّةِ تَأْكِيدِ الْمَدْحِ بِمَا يُشَبِّهُ الذَّمَّ: «وَرُودُ الْمَدْحِ فِي صُورَةِ الذَّمِّ هُوَ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْمَدْحَ قَدْ حَصَلَ فِي رُتْبَةٍ مَنْ يُشْتَمُّ حَسَدًا لَهُ عَلَى فَضْلِهِ، وَبَذَهُ أَبْنَاءَ جَنْسِهِ؛ لِأَنَّ الْفَاضِلَ هُوَ الَّذِي يُحْسَدُ وَيُوقَعُ فِي عَرِضِهِ، وَالنَّاقِصُ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، وَقَدْ صَرَّحَ الشَّاعِرُ بِهَذَا فَقَالَ: [السَّرِيعُ]

(١) انظر: شرح عقود الجمان ص ١٢٦.

(٢) انظر: البلاغة العربية (أسسها، وعلومها، وفنونها) ٢ / ٣٩٢.

ولا خَلَسَتْ الدَّهْرَ مِنْ حَاسِدٍ فَإِنَّمَا الْفَاضِلُ مَنْ يُحْسَدُ^(١)

وجماليات هذا الأسلوب - أعني أن يستعيرَ كلُّ من المدح والذمَّ لبُوسَ الآخر - لا تكادُ تنقضي؛ فمنها إيهامُ المتلقِّي، ومُباغتته بما لم يكن يرتقب، ومنها تمكينُ المقصودِ في نفسِ السَّامعِ؛ من حيثُ إنَّ هذه المباغتةَ وكَسَرَ أَفُقٍ توقُّعِ القارئِ يُنبِّهانه ليكونَ في يقظةٍ لما سيردُ من المعاني.

ثُمَّ إِنَّكَ حينَ تقولُ: (فلانٌ قبيحة) لا يتنقشُ مقصودُك في ذهنِ السَّامعِ كما لو قلتَ له: (فلانةٌ ليس فيها من الجمالِ سوى أنَّها قصيرةٌ وسمينةٌ ورائحتها كريهة)؛ لأنَّ في الثانية هُزءٌ ليس في الأولى، وإيهاماً ليس في الجملة الأولى التي هي توصيفٌ تقليديٌّ لجمالِ امرأةٍ ما، ولا تخفى روعةُ التعبيرِ الجميلِ أو المعنى الغريب الذي يدهمُ المتلقِّي من حيث لا يدري ولا يحتسب، فإنَّ الشَّيءَ الجميلَ إذا أتاكَ في غير ما موعِدٍ، كانَ له أثرُه المُبهِّجُ في النَّفسِ.



(١) انظر: المنتزَع البديع ص ٢٩٦.

الهزل الذي يُرادُ به الجدُّ

الهَزْلُ لغةُ المزاح وهو ضدُّ الجدِّ^(١). والهزل الذي يُرادُ به الجدُّ اصطلاحاً: أن يذكر المتكلمُ أمراً على سبيل اللَّعِبِ والمُبَاسَطة قاصداً به أمراً صحيحاً^(٢)، وقد حصره بعضهم في المدح والذم، كابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ)؛ إذ قال: «وهو أن يقصد المتكلمُ مدح إنسانٍ أو ذمه، فيُخرج ذلك المقصودَ مُخَرَّجَ الهزلِ المعجِب...»^(٣)، وليس كذلك؛ لأنَّ هذا الفنَّ ليس مقصوداً على غرضٍ بعينه، بل كلُّ غرضٍ سلَّك به صاحبه هذا المسلك فهو داخلٌ في هذا الفنِّ، وقد نبّه إلى ذلك المديني (ت ١١٢٠هـ)^(٤).

ومن أمثلة الهزل الذي يُرادُ به الجدُّ ما يُحكى من أن رجلاً جاء إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله احملني على بعير، فقال: إنِّي حاملُك على ولدِ الناقة! فقال: ما أصنع بولدِ الناقة؟ فقال: وهل تلدُ الإبلَ إلَّا النوق!^(٥).

وهذا الفنُّ من القول لا يُحسُّنه إلَّا مَنْ أوتي مَهارةً وسرعةً بديهةً وظللاً خفيفاً، وقد قال ابنُ حِجَّة (ت ٨٣٧هـ): «وهذا النوعُ - أعني الهزل الذي يُرادُ به الجدُّ - ما يسكبه في قوالبه إلَّا مَنْ لَطَفَتْ ذَاتُهُ، وكانَ له مَلَكَةٌ في هذا الفنِّ وحُسْنُ تصرُّيف»^(٦)، وهذا المسلك اللطيف من القول يترسُّمه الأذكياء الذين يتلطفون، فيعبِّرون عن مقاصدهم بعبارات الهزل والمزاح، فلا يثيرون حفيظة مَنْ يقصدونه بخطابهم، وكذا يسهِّل عليهم التَّنصُّل ممَّا قالوا؛ بحُجَّة أنَّهم كانوا يمزحون ولم يكونوا جادِّين، وذلك حينَ تكونُ فكاهتهم غيرَ بريئة.

(١) انظر: اللسان (هزل).

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية ص ٦٧٠.

(٣) انظر: تحرير التَّحبير ص ١٣٨.

(٤) انظر: أنوار الرِّبيع ١٦٦/٢.

(٥) انظر: مُسند أحمد ٣٢٣/٢١.

(٦) انظر: خزانة الأدب ٢١/٢.

وكثيراً ما يُرادُ بهذا الضُّربِ من القولِ السُّخريةُ؛ لأنَّ الهزلَ والعبَثَ والضَّحكَ ممَّا يُناسِبُها، وهنا نذكرُ قولَ القاضي الجرجاني (ت ٣٧٥هـ): «فأما الهجوُّ فأبلغُه ما جرى مجرى التَّهزُّلِ والتَّهافتِ»^(١)، ولذا كثيراً ما يَعْمِدُ السَّاخِرُ إلى إضفاء رُوحٍ من الفكاهة والضَّحك عن سوء طَوِيَّةٍ؛ حتَّى يُخَفِّفَ من حِدَّةِ سُخْرِيَتِهِ، أو لِيَبْلُغَ مُرَادَهُ لِلسَّامِعِ بِالطَّفِيفِ أُسْلُوبٍ؛ فَيُظْهِرُ كَلَامَهُ فِي صُورَةِ الْهَازِلِ، وهو جادٌ كُلُّ الْجِدِّ، والعامةُ تقولُ: بِالْمِزَاحِ تَشْتَفِي الْأَرْوَاحَ، أو لِيَزِيدَ سُخْرِيَتَهُ إِيْجَاعاً وَإِيْلاماً؛ لأنَّ السُّخْرِيَةَ عِنْدَما تَأْتِي عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالْإِضْحَاقِ وَتَلْبَسُ غَيْرَ زِيَّهَا تُؤْذِنُ بِاسْتِخْفَافِ السَّاخِرِ، وهوانِ أَمْرِ الْمَسْخُورِ مِنْهُ عَلَيْهِ، وهنا يُدْكَرُ أَنَّ جَريراً (ت ١١٠هـ) يُوصِي فيقولُ: «إِذَا هَجَوْتَ فَأُضْحِكْ»^(٢).

ومن الهزلِ الذي يُرادُ به الجِدُّ فِي السُّخْرِيَةِ اللَّاذِعَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ يَهْجُو تَمِيمِيّاً: [الطَّوِيلُ]

إِذَا مَا تَمِيمِيٍّ أَتَاكَ مُفَاخِرًا فَقُلْ: عَدَّ عَنْ ذَا، كَيْفَ أَكُلُّكَ لِلضُّبِّ؟^(٣)

يَسْخَرُ أَبُو نُوَاسٍ مِنْ هَذَا الْبَدَوِيِّ الَّذِي جَاءَ مُفَاخِرًا، وَيُطْفِئُ بِهِزْلَهُ فَخْرَ ذَلِكَ الْبَدَوِيِّ وَحِمَاسَهُ، بَلْ يُعَيِّرُهُ بِأَكْلِهِ وَقَوْمِهِ لِلضُّبِّ الَّذِي تَعَاْفَهُ الْأَشْرَافُ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ أَمَامَ الْمَلَأِ: دَعْنَا مِنْ افْتِخَارِكَ هَذَا، وَهَاتِ حَدَّثَنَا؛ كَيْفَ تَصْنَعُ حِينَ تَأْكُلُ الضُّبَّ؟

ومثله أيضاً قولُ الشَّاعِرِ: [البسيط]

أَرَيْكَ أَرَيْكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرَيْكَ مِنْ بُخْلِ نَفْسِكَ، عَلَّ اللَّهَ يَشْفِيكَ
مَا سَلَّمُ كَفِّكَ إِلَّا مَنْ يُنَاوِلُهَا وَلَا عَدُوَّكَ إِلَّا مَنْ يُرْجِيكَ^(٤)

إِنَّهُ يَرْقِي صَدِيقَهُ مِنْ ذَاكَ الدَّاءِ الَّذِي اسْتَفْحَلَ، وَأَيُّ دَاءٍ! إِنَّهُ يَرْقِيهِ مِنْ بُخْلِ نَفْسِهِ، لَعَلَّ هَذِهِ الرُّقْيَا تَنْفَعُهُ وَيَشْفِيهِ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ، لَمْ يَقُلْ لَهُ جَادًّا: أَنْتَ شَحِيحٌ تُبْغِضُ الْإِعْطَاءَ، وَتُعَادِي مَنْ يَسْأَلُكَ

(١) انظر: الوِاسِطَةُ ص ٢٤.

(٢) انظر: العُمْدَةُ ٨٧١/٢.

(٣) انظر: شرح ديوان أبي نواس ١٥٣/١، وليس البيت في ديوانه.

(٤) أنشدَه ابنُ المعتزِّ في بديعه ص ٦٣ لأبي العتاهية، وتَبِعَهُ صَاحِبُ تَحْرِيرِ التَّجْبِيرِ ص ١٣٩، والعباسيُّ فِي مَعَاهِدِهِ ١٥٨/٣، وليس في ديوانه (تح د. شكري فيصل).

ولو كان أقرب الناس إليك، وتُسالُ مَنْ يُعطيك ولو كان أبعدهم عنك، بل أخرج كلامه في هيئة الناصح الذي يتفطر قلبه إشفاقاً على صديقه من هذا الداء، فيسعى بالرقيا لعله يشفيه من بُخله.

ومن طرائف الهزل الذي يُرادُ به الجدُّ بقصد السخرية والإضحاك أن أشعب حضر وليمة صنعها بعض البخلاء، فدعا الناس ثلاثة أيام، وهو يجمعهم على مائدة عليها جديّ مشويّ، فيحوم الناس حوله، ولا يمسُّه منهم أحدٌ لعلمهم ببُخله، وأشعب في كل يوم يحضر ويرى الجديّ، فقال في اليوم الثالث: زوجته طالق إن لم يكن عُمرُ هذا الجديّ بعد أن ذبح وشوي أطول منه قبل ذلك^(١). إنَّها سُخرية بالغة بالغة ألبسها أشعب ثوب الهزل والإضحاك.

ومنه أيضاً قول ابن نباتة: [الكامل]

سَلَبْتَ مَحَاسِنَ الْغَزَالِ صِفَاتِهِ حَتَّى تَحَيَّرَ كُلُّ ظَبْيٍ فِيكَ
لَكَ جَيْدُهُ وَلِحَاطُوهُ وَنِفَارُهُ وَكَذَا نَظِيرُ قُرُونِهِ لِأَبِيكَ^(٢)

أسبغ على مخاطبه كل محاسن الغزال في الجيد والعينين والتفار، ثم أثبت لأبيه ما يُشبهه قرون الغزال، وظاهر صنيعه المزاح والهزل، ولكنه قصّد إلى هجائه بإثبات ما يُشبهه قرون الغزال لأبيه، وفي ذاك دَمٌّ قادح لأبيه لكونه لا يراقب ابنه ولا يحميه من الفساق، ولو زعم أحدهم أنه نوى ذلك ابتداءً، ولذا صنع القصيدة على روي الكاف المطلقة لصدق.

وإنَّ السُّخرية تُخرُجُ مُخرَجَ الهزل في الغالب إذا كان المقصودُ بها صديقاً، أو شخصاً ليس بينه وبين السّاخر عداوة ظاهرة، فلا يرغب السّاخر في مجاهرته بالعداوة والسُّخر؛ فيحتال لذلك ويُخرِجُ كلامه ظاهره مزاح وهزل، وباطنه جدّ وحزم.

وقد يكون هذا الهزل في غير السُّخرية؛ كقول ابن الهبارية (ت ٥٠٩ هـ): [الوافر]

يَقُولُ أَبُو سَعِيدٍ إِذْ رَأَى عَفِيفاً مِنْدُ عَامٍ مَا شَرِبْتُ

(١) انظر: تحرير التّحبير ص ١٣٨.

(٢) انظر: معاهد التنصيص ١٥٨/٣. وفي اللسان (نفر): نَفَرَ الظَّبْيُ وغيره نَفَرًا وَنَفَرَانًا سَرَدَ.

على يد أي شيخ ثبت؟ قل لي قلت: على يد الإفلاس ثبت^(١)

فإن هذا البيت ظاهره المجون والخلاعة، والمراد هنا الجد؛ لأن المقصود شكوى الإفلاس.

ومثل ذلك أن ابن الحجاج (ت ٣٩١هـ) قد أجاب دعوة رجل، وتأخر هذا الرجل على الضيفان في إحضار الطعام، وجعل يحيى ويذهب في داره، فقال فيه: [السريع]

يا ذاهباً في داره جائياً
لغير ما معنى ولا فائدة

قد جُنَّ أضيافك من جوعهم
فاقرأ عليهم سورة المائدة^(٢)

وأخيراً ما حكاه ابن حجة (ت ٨٣٧هـ) عن نفسه إذ أصابه جربٌ أشرف منه على التلّف، فوصف له الحكيم بطيخاً، وهو عزيز الوجود في تلك الأيام، فبلغه أنه أهدي إلى صاحب دواوين الإنشاء بطيخ، فكتب إليه: [الكامل]

مولاي عاقبني الزمان بجربة
وقد انقطعت بجسمي السلوخ

وعميت من حزني على ماتم لي
لكن شمنت روائح البطيخ^(٣)

ولعل هذا الضرب الذي لا يخرج إلى السخرية أقل إيهاماً، إلا أنه ألفت في إيصال الأفكار، وهذا ابن حجة يعقب على بيتيه قائلاً: «فالكناية عن طلب البطيخ سبكت في أحسن قالب من قوالب الهزل الذي يراد به الجد...»^(٤).

جمالية الهزل الذي يراد به الجد:

وهذا الضرب من الكلام (الهزل المراد به الجد) باعث على الضحك من حيث إن الإنسان إذا كان جدياً رصيناً في كلامه، وكان السامع قد وُطن نفسه على ذلك، ثم تظارَف المتكلم وأجرى كلامه

(١) انظر: أنوار الربيع ١٧١/٢، وفيه ترجمة لابن الهبارية وإحالة على مصادر ترجمته.

(٢) انظر: أنوار الربيع ١٧٠/٢، وفيه ترجمة لابن الحجاج وإحالة على مصادر ترجمته.

(٣) انظر: خزانة الأدب ٢١/٢.

(٤) انظر: خزانة الأدب ٢١/٢.

مُجْرَى الهَزَلِ وَالْعَبَثِ، كَانَ فِي ذَلِكَ إِدهَاشٌ لِلْمُتَلَقِّيِّ وَمُفَاجَأَةٌ تَبْعُهُ عَلَى الضَّحْكِ السَّرِيعِ؛ لِأَنَّ الْمَرْءَ
بَطْبَعُهُ يَنْبَهَرُ بِالشَّيْءِ يَأْتِيهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ؛ أَفَلَا تَرَى إِلَى الْجَاحِظِ (ت ٢٥٥هـ) يَقُولُ: «الشَّيْءُ
مِنْ غَيْرِ مَعْدِنِهِ أَغْرَبُ، وَكُلَّمَا كَانَ أَغْرَبَ كَانَ أَبْعَدَ فِي الْوَهْمِ، وَكُلَّمَا كَانَ أَبْعَدَ فِي الْوَهْمِ كَانَ أَظْرَفَ،
وَكُلَّمَا كَانَ أَظْرَفَ كَانَ أَعْجَبَ، وَكُلَّمَا كَانَ أَعْجَبَ كَانَ أَبْدَعَ،... وَالنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَعْظِيمِ الْغَرِيبِ
وَاسْتَطْرَافِ الْبَعِيدِ...»^(١).



(١) انظر: البيان والتبيين ١/ ٨٩.

التَّهْكُمُ

تَهَكَّمَ فلانٌ بفلانٍ أو على فلان إذا أزرى به، أو استهزأ به، وتكَبَّرَ^(١)، والتَّهَكُّمُ اصطلاحاً أخصُّ منه لُغَةً، فهو استهزاءٌ على هيئةٍ مخصوصةٍ تقومُ على إيهامِ السَّامعينَ، وقوامُها يَرْجِعُ إلى العَكْسِ في الكلام؛ كالخِطَابِ بلفظِ الإجلالِ في مَوْضِعِ التَّحْقِيرِ، والبِشَارَةِ في مَوْضِعِ التَّحْذِيرِ، والوَعْدِ في مكانِ الوعيدِ، والعُذْرِ في مَوْضِعِ اللَّومِ، والمدحِ في مَعْرِضِ السُّخْرِيَةِ^(٢)، وإنَّما يَعْمِدُ المتكَلِّمُ إلى هذا الأسلوبِ «لشِدَّةِ الغضب...» أو لِشِدَّةِ الكِبَرِ، وتهاوُّنِهِ بالمخاطَبِ^(٣)، وقد قال صاحبُ الطَّرَازِ (ت ٤٩٧ هـ): «وليسَ له ضابطٌ يضبطُهُ، وإنَّما الجامعُ لِشَتَاتِ معانيه هو ما ذكرناه من إخراجِ الكلامِ على خلافِ مُقتضى الحالِ»^(٤)، وكان ينبغي أن يُضيفَ إلى كلامِهِ هذا قيداً؛ كأن يقولَ: (لَقصد الاستهزاء)، وقد أشارَ ابنُ السَّيِّدِ البَطْلَيْوْسِيُّ (ت ٥٢١ هـ) إلى التَّهْكُمِ من غيرِ أن يُسمِّيَهُ باسمِهِ هذا؛ إذ قالَ: «وَأَمَّا التَّقْلِيلُ الوَارِدُ بِصُورَةِ التَّكْثِيرِ؛ فنحوُ قَوْلِكَ: (كم بَطِلٌ قَتَلَ زَيْداً) وكم ضَيْفٌ نَزَلَ عَلَيْهِ! وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ قَطُّ بَطْلاً، وَلَا قَرَى ضَيْفاً قَطُّ؛ وَلَكِنَّكَ بِقَصْدِ الاستهزاءِ بِهِ، كَمَا تَقُولُ للبَخِيلِ: يَا كَرِيمَ، ولِلأَحْمَقِ: يَا عَاقِلَ»^(٥).

وهذا الفنُّ كثيراً ما يلتبسُ بالهجاءِ في معرضِ المدحِ، وبالهزلِ الذي يُرادُ به الجِدُّ، وأقرَّ بذلك ابنُ حِجَّةٍ (ت ٨٣٧ هـ) وأتى هذا المبحثُ عنده مُقتَضِباً غيرَ مطمئنٍّ ولا مُستَقَرٍّ كما هي عادته^(٦)، والفرقُ بينَ (التَّهْكُمِ) و(الهزلِ الذي يُرادُ به الجِدُّ) أَنَّ التَّهْكُمَ ظاهرُهُ جِدٌّ وباطنُهُ هَزْلٌ، وأمَّا الهزلُ الذي يُرادُ به الجِدُّ فظاهرُهُ هَزْلٌ وباطنُهُ جِدٌّ^(٧).

(١) انظر: اللسان (هكم).

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية ص ٤٢٩، والطراز ٣/ ٩١، وأنوار الربيع ٢/ ١٨٥.

(٣) انظر: تحرير التَّحْبِيرِ ص ٥٦٨.

(٤) انظر: الطراز ٣/ ٩٢.

(٥) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني ص ١٠٥.

(٦) انظر: خزانة الأدب ٢/ ١٩١.

(٧) انظر: تحرير التَّحْبِيرِ ص ٥٧٠.

ومن التَّهْكُمِ قولُك للجاهلِ: (يا عالم)، وللجَبَانِ: (أهلاً بأشجع الشُّجعان)، وللقبيحة: (القمرُ يَغَارُ من جمالك)، وللأحدبِ: (ما هذا القَوائمُ الفَتَّانُ! وما هذا القَدُّ الميَّاسُ!)، أو قولُك: (أجملُ ما في صديقي طولُ أُذُنَيْهِ)؛ أو قولُ الأستاذ لتلميذٍ يتفَوَّه بالكلام البذيء: (لم هذه البذاءةُ يا مُؤدَّب!)، فهذا هو التَّهْكُمُ الَّذِي نَعْنِي؛ وهو الَّذِي يُولَّدُ سخريةً ضاحكةً نابعةً من مُفاجأة السَّامعِ بما لم يَكُنْ يَرْتَقِبُ؛ وكذا لو قُلْتَ لدَعِيٍّ مُتَّهَمٍ في نَسَبِهِ: (أنتَ أَشرفُ النَّاسِ نَسَباً) فإنَّ في هذا الكلامِ إيماءاً للسَّامعينِ الجاهلين بحالِهِ؛ لأنَّ قولُك هذا ظاهرُهُ مدحٌ خالصٌ، وباطنُهُ ذمٌّ جارحٌ.

ومن التَّهْكُمِ قولُ أحدِهِم في صاحبٍ له أحدبٌ: [الخفيف]

لا تَظُنَنَّ حَدْبَةَ الظَّهْرِ عَيْباً	فهِيَ في الحُسْنِ من صِفَاتِ الهِلالِ
كَوْنَ اللهَ حَدْبَةً فِيكَ إِنْ شِئْتَ	تَ من الفضْلِ أو من الإِفْضالِ
ما رَأَتْهَا النِّسَاءُ إِلَّا تَمَنَّتْ	لو غَدَتْ حِلْيَةً لِكُلِّ الرِّجَالِ ^(١)

ومثله ابن دانيال (ت ٧١٠ هـ) إذ افتتح قصيدته مُقْسِماً بجمال رجلٍ أحدبٍ؛ بقوله: [الوافر]

قَسِماً بِحُسْنِ قَوَامِكَ الْفَتَّانِ	يا أوْحَدَ الْأُمَرَاءِ في الحَدَبَانِ

ثمَّ جعلَ يُعَدُّ محاسنَ حَدْبَتِهِ إلى أن قال:

أَوْ هَلْ يَزِينُ الْمَشْنُ إِلَّا رِدْفُهُ	حُسْناً، فكيف يَمُنُّ لَهُ رِدْفَانِ! ^(٢)

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ مِنَ الْخِطَابِ بِلَفْظِ الْإِجْلَالِ في موضعِ التَّحْقِيرِ، وكذا قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] إِنَّمَا هو على سبيلِ الهُزْءِ والتَّهْكُمِ بِمَنْ كَانَ يَتَعَزَّزُ وَيَتَكَرَّمُ على قَوْمِهِ، وقيل: إِنَّ الْخِطَابَ بِهَذَا الْكَلَامِ أَبُو جَهْلٍ؛ فَقَدْ عَقَّبَ الرَّمَحْشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) على الآية بقوله: «رُوي أَنَّ أبا جهلٍ قال لرسولِ الله ﷺ: ما بينَ جَبَلَيْهَا [يقصد مَكَّةَ] أعزُّ ولا أكرَمُ مِنِّي، فوالله ما تستطيعُ أَنْتَ ولا رَبُّكَ أَنْ تَفْعَلَا بي شيئاً»^(٣).

(١) انظر: تحرير التَّحْبِيرِ ص ٥٦٩، والطَّرَازُ ٩٢/٣، وأنوار الربيع ١٨٨/٢ وهو فيه لابن الذَّروِي.

(٢) انظر: أنوار الربيع ١٨٩/٢، وفيه ترجمة لابن دانيال، وإحالة على مصادر ترجمته.

(٣) انظر: الكشاف ٤٧٧/٥.

صحيح أن ظاهر هذه الآية مدح وتكريم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، ولكن لو أعدنا قراءة الآية في سياقها: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٢﴾ طَعَامُ الْأَشِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْيَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٩]، لرأينا أن رجلاً يُطعم يوم القيامة من شجرة الزَّقُّوم، ويُسقى مهلاً يغلي في البطن، ويُساق بعنفٍ وغلظة ليصب على رأسه عذاب الحميم، ثم يُخاطب في غمرة عذابه بخطاب الإجلال والتكريم (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) لرأينا أنه رجل - لا محالة - مسخورٌ منه، ومتهكَّم به.

ومثله قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب مخاطبين له: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] والسياق يدلُّك على أنهم إنما أرادوا الاستهزاء به وبما دعاهم إليه؛ لأنهم قالوا له: ﴿يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، لأنَّ استفهامهم ﴿أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ...؟﴾ ليس سؤالاً حقيقياً، بل هو استفهام استنكاري؛ القصد منه الاستهزاء، وقال الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ): «وَأَرَادُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ نَسَبَهُ إِلَى غَايَةِ السَّفَهِ وَالْغَيِّ، فَعَكَسُوا؛ لِيَتَهَكَّمُوا بِهِ، كَمَا يُتَهَكَّمُ بِالشَّحِيحِ الَّذِي لَا يَبْضُرُ حَجَرُهُ [أي: لا تندى صفاته] فيقال له: لو أَبْصَرَكَ حَاتِمٌ لَسَجَدَ لَكَ»^(١)، وهو هكذا يؤكِّد عكسهم للكلام؛ لأنَّ (السَّفَهَ ضِدُّ الْحِلْمِ)، و(الْغَيِّ ضِدُّ الرَّشَادِ)، فكأنهم قالوا له: يا شعيب إِنَّكَ إِذْ تَدْعُونَا إِلَى تَرْكِ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، إِنَّكَ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَبِجَوْرٍ أَنْ تُؤْخَذَ الْعِبَارَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: ﴿إِنَّكَ لَلْمُتَوَاصِفُ بِالْحِلْمِ وَالرَّشَادِ فِي قَوْمِكَ﴾، يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك، وما شُهرت به»^(٢).

(١) انظر: الكشف ٣/ ٢٢٦.

(٢) انظر: الكشف ٣/ ٢٢٦.

أَمَّا الْبِشَارَةُ فَهِيَ الْإِخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ الْمُخْبِرَ؛ كَالْبِشَارَةِ بِالنَّصْرِ، أَوِ الْمَوْلُودِ، أَوِ الشِّفَاءِ، أَوِ عَوْدِ الْمَسَافِرِ، وَقَدْ تَكُونُ لِلتَّهْكُمِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ الْمُتَصِفِينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨]، وَالزَّخْمَشَرِيُّ (ت ٥٣٨هـ) يَرَى أَنَّ عَكْسَ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُقَصِّدُ بِهِ الْاسْتِهْزَاءَ الَّذِي يَزِيدُ فِي غَيْظِ الْمُسْتَهْزَأِ بِهِ وَيَزِيدُ فِي تَأَلُّهِ وَاعْتِمَائِهِ؛ كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِعَدُوِّهِ: أَبَشِّرْ بِقَتْلِ ذُرِّيَّتِكَ وَتَهَبِ مَالِكَ^(١).

وَمِنَ الْوَعْدِ فِي مَوْضِعِ الْوَعِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي حَقِّ الْكُفَّارِ الظَّالِمِينَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْاسْتِغَاثَةَ طَلَبُ الْغَوْثِ، فَإِغَاثَةُ الظَّمْآنِ أَنْ تَسْقِيَهُ مَاءً بَارِدًا، وَإِغَاثَةُ الْحَرَّانِ أَنْ تَصَبَّ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْمَاءِ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي جِزَاءِ ﴿إِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾: ﴿يُغَاثُوا﴾، وَلَكِنْ بِأَيِّ شَيْءٍ يُغَاثُونَ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ الَّتِي يَلْقَوْنَهَا، وَمِنْ شِدَّةِ الظَّمْأِ الَّذِي أَتَيْتِ حُلُوقَهُمْ؟ إِنَّهُمْ يُغَاثُونَ بِبِئْسَ الشَّرَابِ، يُغَاثُونَ بِالْمُهْلِ الَّذِي يَشْوِي الْوُجُوهَ، وَهَذَا ضِدُّ الْإِغَاثَةِ كَمَا تَرَى، وَهُوَ مِنَ الْعَكْسِ فِي الْكَلَامِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ التَّهْكُمُ بِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ^(٢).

وَمِنَ الْعُذْرِ فِي مَوْضِعِ اللَّوْمِ قَوْلُكَ لَجَبَانٍ يُوَلِّي الْأَعْدَاءَ دُبْرَهُ فِي الْمَعْرَكَةِ: (أَنْتَ مَعْدُورٌ، فَالْرَّوْحُ غَالِيَةٌ، وَالرَّدَى مَكْرُوهٌ، وَالنَّفُوسُ نَفَاسٌ).

وَكَقَوْلِ أَحَدِهِمْ فِي رَجُلٍ أَقْطَعَ الْيَدَيْنِ مِنَ الْمِرَافِقِ: [بِجَزْءِ الْكَامِلِ]

وَأَقْمَتَ نَفْسَكَ فِي الثَّقَا تِ، وَهَبَكَ فِيمَا قُلْتَ صَادِقُ
فِيمَنْ الْأَمَانَةِ وَالثَّقَى قُطِعَتْ يَدَاكَ مِنَ الْمِرَافِقِ!^(٣)

الشَّاعِرُ - كَمَا تَرَى - يُصَدِّقُهُ، وَيَقْبَلُهُ فِي الثَّقَاتِ، ثُمَّ يَسْأَلُهُ: هَلْ هَذِهِ الْأَمَانَةُ وَهَذِهِ التَّقْوَى اللَّتَانِ عُرِفَتَا بِهِمَا كَانَتَا السَّبَبَ فِي قَطْعِ يَدَيْكَ مِنَ الْمِرَافِقِ؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَطْعَ الْيَدِ مِنَ الْمِرْقَاقِ إِنَّمَا هُوَ حَدُّ السَّرِيقَةِ، فَيَبْدُو الْمُتَكَلِّمُ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ (هَبَكَ فِيمَا قُلْتَ صَادِقُ) يَعْذَرُهُ عَلَى إِقَامَةِ نَفْسِهِ فِي جُمْلَةِ

(١) انظر: الكشف ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٥/ ٣٠٨.

(٣) انظر: أنوار الربيع ٢/ ١٨٧. والبيت فيه لجاسوس الملك، وهذا تحريفٌ صوابه جاسوس الفلك.

الثقات، ثُمَّ يَأْتِي لَهُ بِدَلِيلٍ عَلَى أَمَانَتِهِ (قُطِعَتْ يَدَاكَ مِنَ الْمِرَافِقِ) بِأَسْلُوبٍ تَهْكُمْيٍّ، يَفْضَحُ كَذِبَهُ، وَقَلَّةَ أَمَانَتِهِ.

وَمِنَ التَّهْكُمْ قَوْلُ ابْنِ الرُّومِيِّ فِي رَجُلٍ يَتَظَاهَرُ بِالصَّلَاحِ: [السَّرِيع]

فِيَالَهُ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يَرْفَعُهُ اللَّهُ إِلَى أَسْفَلٍ! ^(١)

تَرَاهُ يَمْدَحُهُ بِعَمَلِهِ (الصَّالِحِ)، مُسْتَعْظِماً هَذَا الْعَمَلَ (فِيَا لَهُ!)، ثُمَّ يُخْبِرُ بِأَنَّ هَذَا الْعَمَلَ مَرْفُوعٌ، وَلَكِنْ؟ إِلَى الْأَسْفَلِ.

وَكَذَا التَّهْكُمْ إِنْ تَكَلَّمْتَ بِالْعَكْسِ فِي أَيِّ شَيْءٍ؛ كَأَنْ يَسْأَلَ الْأَبُّ ابْنَهُ الرَّاسِبَ فِي الْإِمْتِحَانِ - وَهُوَ يَعْلَمُ بِرُسُوبِهِ - أَنْجَحْتَ فِي الْإِمْتِحَانِ؟ وَكَذَا لَوْ مَدَحْتَ رَجُلًا بِضِدِّ مَا هُوَ عَلَيْهِ لَذَمَّمْتَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ الرَّدَّ؛ لِثَلَاثِ يُمَيِّنَ نَفْسَهُ؛ كَأَنْ تَقُولَ لَجَاهِلٍ يَتَعَالَمُ فِي مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهُوَ لَا يُمَيِّزُ الْمَاضِي مِنَ الْمَضَارِعِ: (أَنْتَ عِنْدِي أَعْلَمُ مِنْ سَيَبُويهِ فِي النَّحْوِ).

وَيُحْيِلُ إِلَيَّ أَنَّ التَّهْكُمْ الْبَارِعَ هُوَ الدَّعْ ضُرُوبِ السُّخْرِيَّةِ، أَوْ لِنَقْلِ بَدَقَّةٍ: إِنَّ التَّهْكُمْ أَوْجَعُ مِنَ السُّخْرِيَّةِ؛ ذَلِكَ أَنَّهَا كَمَا تَلَاخُظُ تَصْدُرُ عَنْ ادِّعَاءِ الْمُتَكَلِّمِ ضَمْنًا أَنَّهُ أَرْفَعُ مَسْتَوًى مِنَ الْمُخَاطَبِ؛ لِذَا لَا تَرَى الْمُتَكَلِّمَ يَتَهَكَّمُ بِنَفْسِهِ، بَخِلَافِ السَّاخِرِ الَّذِي أَوَّلَ مَا يَبْدَأُ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ إِنْ كَانَتْ فَنُونُ الرَّسْمِ وَالتَّمثِيلِ تَتَقَدُّ أَنْهَاطُ السُّلُوكِ الْبَشَرِيِّ بِطَرِيقَةٍ هَزْلِيَّةٍ سَاخِرَةٍ؛ فَلَيْسَ التَّهْكُمْ سِوَى رَسْمٍ بِالْكَلِمَاتِ، وَلَعَلَّ ابْنَ الرُّومِيِّ مِنَ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ شَكَّلَ التَّهْكُمْ ظَاهِرَةً شَعْرِيَّةً بَارِزَةً الْمَعَالِمِ فِي دِيْوَانِهِ، وَهِيَ تَجْرِبَةٌ غَنِيَّةٌ تَسْتَحِقُّ الدَّرَاسَةَ.



(١) البيت لابن الرومي في خزانة الأدب ١٩٣/٢، وليس في ديوانه.

التلميح

إذا كان اللَّمَحُ في اللُّغَةِ اختلاسَ النَّظَرِ^(١)؛ فَإِنَّهُ شَدِيدُ الصَّلَةِ بِالتَّلْمِيحِ البَدِيعِيِّ الَّذِي هُوَ أَنْ تُشِيرَ فِي الْكَلَامِ إِشَارَةً خَاطِفَةً إِلَى آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، أَوْ حَدِيثٍ نَبَوِيِّ شَرِيفٍ مَشْهُورٍ، أَوْ شَعْرِ نَادِرٍ، أَوْ مَثَلٍ سَائِرٍ، أَوْ قِصَّةٍ مَعْلُومَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ صَرِيحاً^(٢). وَإِنَّ مِنَ التَّلْمِيحِ مَا يُوهِّمُ فِيهِ الْمُتَكَلِّمُ سَامِعِيهِ شَيْئاً، وَمَقْصُودُهُ شَيْءٌ آخَرُ، فَيَكُونُ لِكَلَامِهِ هَذَا ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، وَلِهَذَا الْأَسْلُوبُ حُظُوءٌ فِي كَلَامِ الْبُلْغَاءِ، حَتَّى قَالَ فِيهِ صَاحِبُ الطَّرَازِ (ت ٧٤٩هـ): «لَهُ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَوْقِعٌ شَرِيفٌ، وَيَحُلُّ مِنَ الْفَصَاحَةِ فِي مَحَلٍّ مُرْتَفِعٍ مُنِيفٌ»^(٣).

وَمِنْهُ أَنْ مَجْلِساً ضَمَّ رَجُلَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا مِنْ تَمِيمٍ، وَالْآخَرُ مِنْ نُمَيْرٍ، فَقَالَ التَّمِيمِيُّ لِلنُّمَيْرِيِّ: (مَا فِي الْجَوَارِحِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْبَازِيِّ)، فَأَجَابَهُ النُّمَيْرِيُّ: (خَاصَّةً إِذَا كَانَ يَصِيدُ الْقَطَا)^(٤).

وَأَنْتَ إِذْ تَسْمَعُ هَذَا الْجَوَارِ بَيْنَهُمَا لَا تَرْتَابُ مِنْ شَيْءٍ، فَهُوَ وَاضِحٌ لَيْسَ فِيهِ مَا يُرِيبُ، وَلَكِنْ مَاذَا لَوْ عَلِمْنَا أَنَّ فِي هَذَا الْكَلَامِ إِيهَاماً مَا بَعْدَهُ إِيهَامٌ؛ مِنْ حَيْثُ إِنَّ التَّمِيمِيَّ قَدْ أَلْمَحَ بِقَوْلِهِ: (مَا فِي الْجَوَارِحِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْبَازِيِّ) إِلَى بَيْتِ جَرِيرِ التَّمِيمِيِّ، وَهُوَ يَهْجُو قَبِيلَةَ نُمَيْرٍ: [الوافر]

أَنَا الْبَازِي الْمُدِلُّ عَلَى نُمَيْرٍ أَتَحْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَهَا انْصَاباً^(٥)

وَكَذَا أَشَارَ النُّمَيْرِيُّ بِقَوْلِهِ: (خَاصَّةً إِذَا كَانَ يَصِيدُ الْقَطَا) إِلَى قَوْلِ الطَّرِمَّاحِ يَهْجُو قَبِيلَةَ تَمِيمٍ: [الطَّوِيل]

نَمِيمٌ بِطُرُقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتُ طُرُقَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتِ^(٦)

(١) انظر: اللسان (لمح).

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية ص ٤١٣، وأنوار الربيع ٢٦٦/٤.

(٣) انظر: الطراز ٩٧/٣.

(٤) انظر: الإيضاح ١٤٨/٦، ومعاهد التنصيص ٢١٩/٤، وأنوار الربيع ٢٧٩/٤.

(٥) انظر: ديوان جرير، والقصيدة فيه ٨١٩/٢.

(٦) انظر: ديوان الطرمّاح ص ٥٩.

لا ريب أن في ذلك إيهاماً للسامع الذي لا يدري أن لكلامهما أبعاداً خفية، ودهاؤهما ههنا لا يخفى على القطن.

ويذكر هنا أن من ظريف التلميح ما حكي أن الحيص بيّص (وكان شاعراً تميمياً) حَصَرَ إفطارَ رمضانَ عندَ أحدِ الوزراءِ، فأخذَ أحدُ الشعراءِ قِطَاةً مَشْوِيَةً، وقَدَّمَهَا إلى الحيصِ بيّصَ، فقال الحيصُ بيّصَ للوزير: يا مولانا، هذا الرَّجُلُ يُؤذيني، فقال الوزيرُ: وكيفَ ذاك؟ فقال: لأنّه يُشيرُ إلى قولِ الشاعر: [الطويل]

نَمِيمٌ بِطُرُقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتُ طُرُقَ الْمَكَارِمِ ضَلَلْتُ^(١)

ألا ترى إلى هذا الإيهام الخفي الذي لا يمكن لأَيٍّ من الحاضرين أن يكتشفه، ولو كان من حُذَاقِ البيان! وبالمقابل من لنا بمثل هذا المتلقي اللبيب!

ومثله ما حكي من أن أبا العلاء المعري كان يَتَعَصَّبُ لِلْمُتَنَبِّي وَيُفَضِّلُهُ على سائر شعراءِ زمانه، وقد حَصَرَ يوماً مجلسَ الشريفِ المرتضى، وكان المرتضى يُبَغِّضُ الْمُتَنَبِّي وَيَتَعَصَّبُ عَلَيْهِ، فجرى في المجلس ذِكْرُ أَبِي الطَّيِّبِ، فَتَنَقَّصَهُ الْمُرْتَضَى وَهَضَمَ مِنْ جَانِبِهِ، فقال المعريُّ: يا مولانا، لو لم يكن له مِنَ الشَّعْرِ إِلَّا قَوْلُهُ: [الكامل]

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ

لكفاهُ فَضْلاً، فغَضِبَ الْمُرْتَضَى، وَأَمَرَ بِهِ غُلَامُهُ، فَسَحَبُوهُ بِرَجْلِهِ وَالْقَوَا بِهِ خَارِجَ الْمَجْلِسِ، فَتَعَجَّبَ الْحَاضِرُونَ مِنْ فِعْلَتِهِ بِهَذَا الشَّيْخِ الْأَعْمَى، وَلَا مَوَدَّةَ، فَقَالَ لَهُمْ: أَتَدْرُونَ أَيَّ شَيْءٍ عَنَى الْأَعْمَى بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ؟ قَالُوا: لَا وَاللَّهِ، قَالَ: لَمْ يُرِدِ الْقَصِيدَةَ كُلَّهَا، وَإِنَّمَا عَنَى قَوْلَ الْمُتَنَبِّي فِيهَا: [الكامل]

وَإِذَا أَتَيْتُكَ مَذْمُوتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ^(٢)

(١) انظر: معاهد التنصيص ٢٢٠ / ٤.

(٢) انظر: ديوان المتنبي ٢٠٩ / ٣، ومعاهد التنصيص ٢٠٥ - ٢٠٦، وخزانة الأدب ٩ / ٣.

أترى ههنا إلى التلميح الخفي، وأثره في بلوغ الأرب ونكاية الخصم عند ذوي الفهم، فتأمل خفاء الإيهام، وفطنة الرّجلين!

ومن لطائف التلميح وإيهامه أيضاً أن الخليفة العباسي المنصور وعدّ شاعراً يُدعى (الهذلي) بجائزة، ونسي، ثمّ حجاً معاً، ومراً في المدينة النبوية بيت عاتكة، فقال الشاعر للمنصور: يا أمير المؤمنين، هذا بيت عاتكة التي يقول فيها الأخوص: [الكامل]

يا بيت عاتكة التي أتغزل حذر العدى وبه الفؤاد موكّل^(١)

فأنكر منه أمير المؤمنين ذلك؛ لأنه تكلم من غير أن يسأل، فلما رجّع الخليفة نظر في القصيدة إلى آخرها؛ ليعلم ما أراد الهذلي بإنشاد ذلك البيت من غير مناسبة أو ملائمة؟ فإذا فيها هذا البيت، وهو: [الكامل]

وأراك تفعل ما تقول، وبعضهم مَذِقُ اللسان يقول ما لا يفعل^(٢)

فعلّم أنه أشار إلى هذا البيت بتلميحه الغريب، فتذكّر ما وعده به، وأنجزه له، واعتذر إليه من النسيان^(٣).

والطف من هذا ما حكى أن رجلاً كان قاعداً على جسر بغداد، فأقبلت من الرصافة امرأة بارعة في الجمال إلى الجانب الغربي من الجسر، وأقبل شاب من جانبه الشرقي، ولما التقيا قال لها: (رحم الله عليّ بن الجهم)، فقالت له: (رحم الله أبا العلاء المعري)، وما وقفا، بل سارا؛ مغرباً، ومشرقاً. قال الرجل القاعد على الجسر: فتبعْتُ المرأة، فقلتُ لها: لئن لم تقولي لي ما أراد به (ابن الجهم)، وما أردت به (أبي العلاء) لأفضحن أمرَك، فقالت: أراد به قوله: [الطويل]

عُيُونُ السَّمَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجَسْرِ جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَذْرِي وَلَا أُدْرِي^(٤)

(١) انظر: ديوان الأخوص ص ١٥٢.

(٢) انظر: ديوان الأخوص ص ١٦١.

(٣) انظر: خزانة الأدب ٨/٣. مَذِقُ اللسان: كذوب.

(٤) انظر: ديوان علي بن الجهم ص ١٤١.

وأردتُ أنا بأبي العلاء قوله: [الطويل]

فيا دارها بالخيْف إن مزارها قريب، ولكنْ دُونَ ذلك أهوال^(١)

جمالية التلميح:

إِخَالُ أَنْ مَرَجَعَ الْخِلَابَةَ وَالسَّحَرِ فِي بَعْضِ التَّلْمِيحَاتِ إِلَى ذَلِكَ الْإِيهَامِ، وَذَلِكَ الْوَحْيِ الْخَفِيِّ الْخَاطِفِ، فَالْبَلِيغُ قَدْ يُكَلِّفُ فَنَ التَّلْمِيحِ عِبَاءَ التَّعْبِيرِ عَنْ مَكْنُونَاتِ نَفْسِهِ لِلآخَرِينَ بِكُلِّ مَلَا حَةٍ وَظَرَا فَةٍ...، وَقَدْ يَتَوَسَّلُ الْبَلِيغُ بِهَذَا التَّلْمِيحِ إِلَى سِتْرِ مَكْنُونَاتِهِ إِلَى حَدِّ قَرِيبٍ مِنَ التَّعْمِيَةِ عَلَى الْآخَرِينَ كَفَعْلِ الْمَعْرِيِّ فِي مَجْلِسِ الْمَرْتَضَى، وَقَدْ يَتَوَسَّلُ بِالتَّلْمِيحِ أَيْضاً لِإِخْفَاءِ مَقْصِدِهِ عَنِ السَّامِعِينَ كُلَّهُمْ إِلَّا شَخْصاً وَاحِداً عَنَاهُ بِالْخِطَابِ (وَكَانَ مَوْضِعُ التَّلْمِيحِ مَعْهُوداً فِي ذَهْنِ كُلِّ مِنْهُمَا)؛ كَحَالِ الشَّابِّ وَالْحَسَنَاءِ عَلَى الْجَسْرِ.

وَقَدْ رَأَيْتَ أَنَّ اللَّجْوَءَ إِلَى التَّلْمِيحِ قَدْ يَكُونُ لِلتَّلَطُّفِ وَلِمُرَاعَاةِ قَوَاعِدِ التَّهْذِيبِ الْاجْتِمَاعِيِّ؛ كَحَالِ الشَّاعِرِ الَّذِي أَحَبَّ أَنْ يُذَكِّرَ الْمَنْصُورَ بِالْجَائِزَةِ الَّتِي وَعَدَهُ بِهَا، وَحَالِ الشَّابِّ مَعَ بَارِعَةِ الْجَمَالِ الْقَادِمَةِ مِنَ الرُّصَافَةِ، وَقَدْ يَلْجَأُ الْمُتَكَلِّمُ إِلَى التَّلْمِيحِ أَيْضاً عَنْ حُبِّ نَيْتَةٍ؛ قَصْداً إِلَى جَرَحِ الْمَخَاطَبِ وَإِثْدَاءِ نَفْسِهِ، حَتَّى يُسَعِّرَ نَارَ الْغَيْظِ فِي قَلْبِ الْمَخَاطَبِ، فَيَصِلَى حَرّاً مَا يَسْمَعُ، وَيَتَجَرَّعُهُ بِصَمْتٍ وَهُوَ لَهُ كَارُهُ؛ كَحَالِ التَّمِيمِيِّ وَالنُّمَيْرِيِّ، وَحَالِ شَيْخِ الْمَعْرَةِ وَالْمَرْتَضَى، وَالْحَيْصِ بَيْصَ وَمَنْ قَدَّمَ لَهُ الْقَطَاةَ الْمَشْوِيَّةَ.

وَيَبْدُو لِي أَنَّ قُدْرَةَ التَّلْمِيحِ الْمَوْهَمِ عَلَى إِصْصَالِ الْمَعَانِي تَتَفَاوَتْ بَيْنَ مُحَاطَبٍ وَآخَرَ بِتَفَاوُتِ ثَقَافَاتِهِمْ وَبَيِّنَاتِهِمْ وَحُظُوظِهِمْ مِنَ الْفِطْنَةِ وَسُرْعَةِ الْبَدِيهَةِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ مَفْطُورَةٌ عَلَى الْإِبْتِهَاجِ إِذَا أَدْرَكَتْ الشَّيْءَ بَعْدَ خَفَائِهِ، وَتَدَرَّجَتْ فِي تَعَرُّفِهَا مِنَ الْمَجْهُولِ إِلَى الْمَعْلُومِ، وَمِنْ الْغَامِضِ إِلَى الْوَاضِحِ، وَيُضَافُ إِلَى جَمَالِيَّاتِ التَّلْمِيحِ مَا يَعْتَرِينَا مِنْ إِعْجَابٍ بِمَنْ يُحْسِنُونَ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَتَعَاطُونَهُ.

(١) انظر: أنوار الربيع ٢٩٥ / ٤.

الاستطراد

الصِّلَةُ وثيقةٌ بين الدَّلَالَتَيْنِ اللُّغَوِيَّةِ والاصْطِلَاحِيَّةِ للاستطراد؛ وإذا كَانَ أصحابُ المعاجِمِ يذكُرُونَ أَنَّ الاستطرادَ مصدرٌ «استطردَ الفارسُ لِقِرْنِهِ في الحرب» إذا طَرَدَ فرسه بين يديه يُوهِّمُهُ الفِرَارَ، ثُمَّ يعطِفُ عليه على غِرَّةٍ منه، ويروِّه ضَرْباً من المكيدة^(١)؛ فَإِنَّ أَهْلَ البلاغةِ يَنْعَتُونَ به الكلامَ حينَ يكونُ النَّاطِمُ أو النَّائِثُ أَخْذاً في غَرَضٍ من أغراضِ الكلامِ؛ من غَزَلٍ أو مَدْحٍ أو وَصْفٍ أو غيرِ ذلك، فيخرجُ منه إلى غَرَضٍ آخَرَ يذكُرُهُ، و«غالباً مَا يخرُجُ إلى القَدْحِ والهجاء»^(٢)، فتراهُ يذكُرُهُ، وكأنَّه غيرُ قاصِدٍ لذكُرِهِ بالذَّاتِ^(٣)، بل يُوهِّمُك أَنَّهُ قد وَقَعَ ذِكْرُهُ بِالغَرَضِ مِنْ غيرِ ما نِيَّةٌ مُبَيَّنَّةٌ، ثُمَّ يدَعُهُ، ويعودُ مُقْبِلاً على ما كَانَ فيه مِنَ القولِ مُتناسياً أمرَهُ، بل إِنَّ بَعْضَهُم اشترَطَ التَّصْرِيحَ بِاسْمِ المستطردِ به^(٤). وبعضُ النَّاسِ لا يمتازُ عنده الاستطرادُ مِنَ التَّخْلُصِ، والفرقُ بينهما أَنَّهُ في التَّخْلُصِ يكونُ خروجاً مِنَ الموضوعِ بتدرُّجٍ، أمَّا الاستطرادُ فيكونُ فيه التَّفَاتُّ خاطفٌ إلى الموضوعِ الجديدِ، والأهمُّ من ذلك أَنَّهُم يشترطون لَصِحَّتِهِ «العودةُ إلى الكلامِ الأوَّلِ»^(٥) قبل الانعطافِ الطَّارِئِ.

ويبدو لي أَنَّ المستطردَ الحاذِقَ هو مَنْ يَخْتَلِسُ اسْمَ مُسْتَطَرِّدِهِ اختلاساً رَشِيقاً لا يَتَفَطَّنُ السَّامِعُ أَنَّهُ كَانَ مُبَيَّنّاً قَبْلُ، وابنُ رَشِيقٍ (ت ٤٦٣ هـ) يرى أَنَّ المستطردَ الحاذِقَ هو مَنْ يَبْنِي كلاماً كثيراً على لَفْظَةٍ مِنْ غيرِ ذلك البابِ، تقطَعُ الكلامَ، وتكونُ هي «مُرَادُهُ دُونَ جَمِيعِ ما تَقَدَّمَ، ويعودُ إلى كلامِهِ الأوَّلِ، وكأنَّها عَثَرَ بِتِلْكَ اللَّفْظَةِ عن غيرِ قَصْدٍ ولا اعتقادٍ نِيَّةً»^(٦).

(١) انظر: لسان العرب (طرد)

(٢) انظر: تحرير التَّحْيِيرِ ص ١٣٠.

(٣) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوُّرها ص ٧٩، على أَنَّ الفرقَ بين الاستطرادِ والتَّخْلُصِ - كما سلف - هو اشتراطُهُم أَن يعودَ المتكَلِّمُ إلى كلامِهِ الأوَّلِ في الاستطرادِ، والأمرُ بخلافه في التَّخْلُصِ.

(٤) انظر: المصباح ص ٢٣٧.

(٥) انظر: أنوار الرِّبْعِ ١/ ٢٣٥.

(٦) انظر: العمدة ١/ ٣٧٥.

وَمِنْ ذَلِكَ صَنِيعُ الْبَحْتَرِيِّ يُثْنِي عَلَى مَدْوَحِهِ، وَيَصِفُ فَرَسًا لَهُ مِنْ عَطَايَا هَذَا الْمَدْوَحِ: [الكامل]

وَأَغْسَرَ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ قَدْرُخْتُ مِنْهُ عَلَى أَغَرِّ مُحَجَّلٍ
يَهْوِي كَمَا تَهْوِي الْعُقَابُ، وَقَدْ رَأَتْ صَيْدًا، وَيَتَنَصَّبُ انْتِصَابَ الْأَجْدَلِ
مَا إِنْ يَعَافُ قَدَى، وَلَوْ أوردَتْهُ يَوْمًا خَلَانَقَ حَمْدَوِيهِ الْأَحُولِ
ذَنْبٌ كَمَا سُجِبَ الرِّدَاءُ يَذُبُّ عَنْ عُرْفٍ، وَعُزْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمُسْبِلِ^(١)

إنَّه يُثْنِي عَلَى شَرَفِ مَدْوَحِهِ وشهرته وعلى ما وصله به مِنْ فَرَسٍ عَتِيقٍ كَرِيمِ الصِّفَاتِ؛ لَهُ مِنَ الْعُقَابِ سُرْعَتُهُ، وَمِنَ الصَّقْرِ انْتِصَابُهُ، مَطْوَاعٍ لِمُطِئِ نَفْسِهِ عَلَى الْمَكَارِهِ؛ لَا يَعَافُ مَاءٌ أَصَابَهَا شَيْءٌ مِنْ تُرَابٍ أَوْ تِبْنٍ، بَلْ إِنَّهُ بَلَغَ مِنَ الانْقِيَادِ لِمُطِئِ نَفْسِهِ مَبْلَغًا لَا يُعَانِدُهُ فِيهِ، وَلَوْ أَمَرَهُ الْخَوْضُ فِي خَلَانَقِ حَمْدَوِيهِ الْأَحُولِ، زِدْ عَلَى ذَلِكَ مَا يُجَمِّلُهُ مِنْ طَوْلٍ ذَلِيلِهِ، وَعِزَارَةِ الشَّعْرِ الْمُتَدَلِّيِ عَلَى عُنُقِهِ.

فَمَاذَا لَوْ عَرَفْنَا أَنَّ «حَمْدَوِيهِ الْأَحُولَ» هَذَا كَانَ عَدُوًّا لِمَدْوَحِهِ^(٢)، لَا رَيْبَ فِي أَنَّ الشَّاعِرَ يَمُوهُ؛ فَقَدْ جَاءَ بِحَمْدَوِيهِ الْأَحُولِ فِي عَرَضِ الْكَلَامِ وَنَالَ مِنْهُ، ثُمَّ مَضَى كَأَنَّهُ مَا رَمَى إِلَى ذَلِكَ، وَلَا اتَّوَاهُ ابْتِدَاءً.

وَلَوْ نَظَرْتَ فِي تَعْقِيبِ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ (ت ٦٥٦ هـ) لَرَأَيْتَهُ كَاشِفًا قِنَاعَ الْبَحْتَرِيِّ، مُتَنَبِّهًا لِإِيهَامِهِ، عَارِفًا بِمُكِيدَتِهِ، لَمْ يَقَعْ فِي لَبْسٍ مِنْهُ أَوْ اشْتِبَاهٍ، إِذْ قَالَ: «أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ اسْتَطَرَدَ بِذِكْرِ حَمْدَوِيهِ الْأَحُولِ الْكَاتِبِ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ، وَلَا أَرَادَهُ، وَإِنَّمَا جَرَّتْهُ الْقَافِيَةُ، ثُمَّ تَرَكَ ذِكْرَهُ، وَعَادَ إِلَى وَصْفِ الْفَرَسِ؟ وَلَوْ أَقْسَمَ إِنْسَانٌ أَنَّهُ مَا بَنَى الْقَصِيدَةَ مُنْذُ افْتَتَحَهَا إِلَّا عَلَى ذِكْرِهِ، وَلِذَلِكَ أَتَى بِهَا عَلَى رَوِيِّ اللَّامِ، لَكَانَ

(١) انظر: ديوان البحتري ٣/ ١٧٤٤. الأعر: من الرجال الشريف، ومن الخيل ما كان في جبهته بياض، وقصد بالأغَرِّ في صدر البيت ممدوحه، وفي عَجَزِهِ الْفَرَسَ الَّذِي أَهْدَاهُ إِلَيْهِ. وَالْمُحَجَّلُ مِنَ الرِّجَالِ الْمَشْهُورِ وَمِنَ الْخَيْلِ مَا كَانَ فِي قَوَائِمِهِ بَيَاضٌ، وَالْبَهِيمُ: الْمُظْلِمُ، وَالْأَجْدَلُ: الصَّقْرُ الشَّدِيدُ، وَالْقَدَى: مَا يَقَعُ فِي الْعَيْنِ أَوْ الْمَاءُ مِنْ تُرَابٍ أَوْ تِبْنَةٍ وَنَحْوِهَا، وَالْعُرْفُ: شَعْرُ عُنُقِ الْفَرَسِ.

(٢) انظر: أخبار أبي تمام ص ٦٩-٧٠.

صَادِقًا^(١)، والاستطرادُ على هذا النحوِ يذكّرنا بالفنّ البديعيّ المسمّى بالإدماج^(٢)، فكلاهما يأتيك بمعنى على أنّه لم يَسَقِ الكلامُ لأجله، غيرَ أن المخادعةَ في الاستطرادِ أضعافُ ما في الإدماج.

ومثل ذلك قولُ أبي فراس الحمدانيّ، وهو يفخر بنفسه: [الطويل]

وقال أصحابي: الفرارُ أو الردى؟	فقلتُ: هُما أمرانِ، أحلاهما مُرٌ
ولكنّي أُنْصِي لِمَا لَا يَعْينِي	وَحَسْبُكَ من أمرينِ خَيْرُهما الأُسرُ
يقولون لي: بعثَ السّلامةَ بالردى	فقلتُ: أَمَا وَاللّهِ، مَا نَالَنِي خُسْرُ
وهل يتجافى عني الموتُ ساعةً	إِذَا مَا تَجَاوَى عَنِّي الأُسرُ والضُّرُّ؟
هُوَ المَوْتُ، فاختَر ما علّ لك ذِكْرُهُ	فَلَمْ يَمُتِ الإنسانُ ما حَيَّ الذِّكْرُ
ولا خَيْرَ في دَفْعِ الردى بِمَذَلَّةٍ	كَمَا رَدَّهَا يوماً بِسَوْءَةٍ عَمُرُو
يُمُتُّونَ أَنْ خَلَّوْا ثِيَابِي، وَإِنَّمَا	عَلَيَّ ثِيَابٌ من دمائهم حُمُرُ
وقائمُ سيفي، فيهمُ اندَقَّ نَصْلُهُ	وَأَعْقَابُ رُمَحٍ فِيهِمْ حُطِّمَ الصَّدْرُ ^(٣)

إنّها من عيون الشّعْر، ورائعةٌ من روائع الأدب الوجدانيّ؛ يُعبّرُ فيها أبو فراس عن إليه في الأسر، ويفخرُ فيها ببطولاته وشجاعته وذوّده عن بني قومه، وما كان له من المآثر والأعجاد، ويرى بأنّه من العَجَزِ أَنْ يَرُدَّ المرءُ المنيّةَ بإذلال نفسه وإهانتها، وبينما هو كذلك تراه ينعطف كاللّمح لينال من داهية العرب عَمْرُو بن العاص رضي الله عنه (ت ٤٣هـ)، ضارباً به المثل في إراقة ماء الوجه فراراً من الموت، ثم يعودُ بسلاسةٍ إلى ما كان فيه من الفخر، وأنّه يُقاتلُ الرُّومَ بشجاعةٍ، وأنّه ما ذلّ لهم ولا انكسرت شوكتُه بعدَ أَنْ أَسْرَوْه...^(٤).

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ٧/ ٢٤٢.

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٥٢، وأنوار الربيع ٦/ ٢٧٩.

(٣) انظر: ديوان أبي فراس الحمدانيّ ٢/ ٢١٣.

(٤) انظر: معاهد التنصيص ٤/ ٢٠٨، وفيه «يريد عَمْرُو بن العاص لَمَّا ضَرَبَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه يومَ صِفِّينَ، فاتّقه بسوّيته كاشفاً عنها، فأعرّض، وقال: عَوْرَةُ المرءِ حَمَى». لم نناقش ههنا ثبوت الحادثة المشار إليها تاريخياً، واختلاف المصادر فيها؛ لأنّ ما يعيننا منها ههنا هو أسلوب الاستطراد.

ومن عجيب الاستطراد ما صنعه جرير حين استطرّد من هَجْوٍ إلى هَجْوٍ، في قصيدته المشهورة التي يُسمّيها هو (الدّامغة)^(١)، وتُسمّيها العرب (الفاضحة)^(٢)، في هذه القصيدة هجا قبيلة نُمير وشاعرها، فأذلتهم في الأقوام دهرًا، بعدما «كانوا جهرة من جمرات العرب»^(٣)، فصار أبناء القبيلة إن سئلوا عن نسبهم استحيوا من الانتساب إلى نُمير، وكانوا قبل يتشدّقون إن انتسبوا، وقد حاول شاعرهم أن يرّد على جرير، فما أغنى عن قومه شيئًا، وقد حُكي أن جريرًا كان واقفًا بقوم يُنشدّ لهم قصيدته هذه التي منها: [الوافر]

أُنَحْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَهَا انصِيبَا	أنا البازي المدلّ على نُمير
وَلَا سُقِيتَ قَبُورُهُمُ السَّحَابَا	فَلَا صَلَّى إِلَهُ عَلَى نُمير
عَلَى الْمِيزَانِ مَا وَزَنْتَ ذُبَابَا	وَلَوْ وَزَنْتَ حُلُومَ بَنِي نُمير
فَإِنَّ الْحَرْبَ مُوقِدَةٌ شَهَابَا	فَصَبْرًا يَا ثِيُوسَ بَنِي نُمير

وما يعنينا نحن من هذه القصيدة ههنا ما حُكي من أن الفرزدق أتى يسمعُ إنشاده، حتّى إذا بلغ إلى قوله: (بها برّض بجانب إسكتيها) وَضَعَ الفرزدق يده على فيه، وَغَطَّى عَنَفَقَتَهُ، فَاتَمَّ عَجَزَ الْبَيْتِ بقوله: (كعنفقة الفرزدق حين شابا)^(٤)، فصار البيت بتمامه:

بِهَابَرَضْ بِجَانِبِ إِسْكَتِيهَا كَعَنْفَقَةِ الْفَرَزْدَقِ حِينَ شَابَا^(٥)

فانصرف الفرزدق، وهو يقول: اللَّهُمَّ أَخْرِهْ، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لا يقول غير هذا، ولكن طمعت ألا يآبَهُ، فغَطَّيْتُ وجهي، فما أغناني ذلك شيئاً^(٦).

(١) انظر: خزانة الأدب للبغدادي ٧٢ / ١.

(٢) انظر: خزانة الأدب للبغدادي ٧٤ / ١.

(٣) انظر: العُمدة ٦١ / ١.

(٤) الْعَنْفَقَةُ: مَا نَبَتَ مِنَ الشَّعْرِ تَحْتَ الشَّقَةِ السُّفْلَى. وَالْإِسْكَتَانِ: شُفْرَا الرَّجَمِ.

(٥) انظر: ديوان جرير، والقصيدة فيه ٨١٣ / ٢ - ٨٢٥.

(٦) انظر: الأغاني ٢٦ / ٨.

وقال بعضهم: «ما أرى جريراً قال هذا المصراع إلا حين غطى الفرزدق عنقته، فإنه نبهه عليه بتغطيته إياها...»^(١)، ثم عاد جرير إلى ما كان فيه من هجو نُمير.

والإيهام ههنا جلي لا يخطئه المرء؛ فقد حاول جرير أن يوهمنا أن المشبه به ههنا عنقة الفرزدق أتاه عفو الخاطر؛ لأنه أنسب شيء لتمام التشبيه وإيضاح حال المشبه. ولكن من ذا الذي يصدق أو يقع في ظنه أن هذا التشبيه وقع لجرير عفو الخاطر؟ أو أنه لم يبيته؟ ثم ما لإسكتيها وما لعنقة الفرزدق؟ وكيف ضم الشاعر مُشماً إلى مُعرق؟ وهل أضحت عنقة الفرزدق علماً على برص إسكتي تلك المرأة؟ وهل عَقَمَتِ اللغة عن إيجاد كلمة تكون مُشَبَّهاً به ملائماً سوى عنقة الفرزدق؟ وهل تقطعت السبل بجرير وهو يبحث عن مشبه به مناسب حتى لم يجد إلا التعلق بعنقة الفرزدق؟ نحن لا نشك أن في هذا الكلام سفهاً وتفحشاً يلتمس به غيظُ المسبوب، ولكنه حقاً أغرب استطراد وأوجع هجو يسمعه المرء.

على أنه غير جائز الادعاء بأن كل استطراد إيهام؛ فقد يرد على الشاعر عبارة تقطع ما سبقها تكون بنت لحظتها، من غير ما نية أو سابق تدبير.

ولكن المتكلم البارع هو الذي من يقتدر أن يصنع من استطراده - وخاصة في المدح والهجاء - إيهاماً يُمسي إحدى أدواته البلاغية.

لا ريب في أن هذا المسلك اللطيف يضيف على الكلام جدةً وطرافةً، من قبل أنه يخطف أنظار المتلقين ويصنع عنصر المفاجأة الذي يقوي السخرية. وطرافته أيضاً من حيث يبدو المتكلم بمظهر المتعالي المترفع الذي لم يقصد السخرية من خصمه، بل قعد الخصم في طريق قافيته، أضف إلى ذلك أن المستطرِد يورد تلك السخرية وكأنها أمرٌ مُسلمٌ به، مما يضيف عليها قوة ادعاء تجعلها تبدو للقارئ صفة لازمة أو مُلازمة للمستطرِد به، ومما يزيد الاستطراد نكايةً ومكيدةً التصريح باسم المستطرِد به

(١) انظر: الأغاني ٢٦/٨.

أو المسخور منه كما فعل البحريّ بحمدويه الأحول، ولو حَدَقَ هَجَاءً فَعَلَ البحريّ؛ لَأَمَكَنَهُ ذَلِكَ
مِنَ اتِّخَاذِ أَسْمَاءِ خُصُومِهِ نُكَاةً لَهُ، يُتِمُّ بِهِمْ أَوْزَانَهُ، وَيَجْبُرُ بِهِمْ قَوَافِيَهُ، مَا شَاءَ أَنْ يَكِيدَهُمْ وَيَمَكُرَ بِهِمْ.

ومن عناصر الجمال الفنيّ والنّفسيّ في أسلوب الاستطراد أنك إذا قُلْتَ لرجلٍ ما: (فلانٌ باردٌ
كبرودةِ قصائدِ زيدٍ) مُوهِمًا بآنّ هذا المثلّ (قصائدِ زيدٍ) أتاكَ عَفْوَاً؛ مع أنّك قد بيّنته تبييتاً؛ وكان
بُوسَعُكَ أَنْ تَأْتِيَ بِأَيِّ مَشَبِّهِ بِهِ آخَرَ يَكُونُ عَلَماً عَلَى البرودة؛ كالثلجِ أو الشّتاءِ مثلاً، ولكنك حَرَضْتَ
كُلَّ الْحَرَضِ عَلَى أَنْ تَكُونَ قِصَائِدُ زَيْدٍ هِيَ الْمَشَبِّهِ بِهِ، فَإِنَّكَ تَكُونُ بِذَلِكَ قَدْ مَكَّنْتَ (برودةِ قصائدِ
زيدٍ) فِي نَفْسِ السَّامِعِ أَيْمَا تَمَكِينَ، وَكَأَنَّ بَرُودَةَ شِعْرِهِ حَقِيقَةُ بَدِيعَةٍ أَوْ مُسَلِّمَةٌ مُسْتَقَرَّةٌ فِي النُّفُوسِ
يَعْرِفُهَا الْقَاصِي وَالْدَّانِي؛ وَلِذَا صَلَحَتْ أَنْ تُضْرَبَ مَثَلاً عَنْ أَيِّ شَيْءٍ بَارِدٍ؛ كَمَا يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِحَاتِمٍ
فِي الْكَرَمِ، وَعَنْتَرَةٍ فِي الشَّجَاعَةِ.

وَيُحِيلُ إِلَيَّ أَنَّ عِبَارَةَ هِجَائِيَّةً وَاحِدَةً تَجِيءُ فِي قِصِيدَةٍ مَدَحٍ أَوْ غَزَلٍ لَهَا أَوْجَعُ مِنْ جِرَاحِ الْأَسِنَّةِ؛ لِأَنَّهَا
تَعْلُقُ فِي الذَّهْنِ، وَتَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ، وَقَدْ تَسِيرُ بِهَا الرُّكْبَانُ لِطَرَاغِثِهَا وَغَرَابِثِهَا.



الجناس

ويُسمى بالتجنيس والتجانس والمجانسة أيضاً^(١)، ومَرَدُّ ذلك إلى أن حروف ألفاظه تتركب من جنس واحد، وعندما يُقال: ثَمَّةُ مجانسةٌ بين كلمتين؛ أي: أنَّهما داخلتان في جنس حرفيٍّ واحدٍ أو نوعٍ واحد، إذا فالمجانسة لغةٌ هي المُشاكلة، وأمَّا اصطلاحاً فالبلاغيون يطلقون صفةَ الجناسِ على كلامٍ ما؛ ليشيروا إلى تشابه اللَّفظَيْن نُطقاً واختلافهما معنى، على أن يكونا قريبين بعضهما من بعض، في الجملة نفسيهما، أو بين جملتين^(٢).

والجناس فنٌّ رائقٌ كان يردُّ في كلامِ البلغاءِ عفوَ خواطرهم على صورةٍ مرموقةٍ موموقةٍ استخفتِ العربيُّ القديم، وقد توخَّاهُ ابنُ المعتزِّ (ت ٢٩٦هـ) في خمسةِ الفنونِ التي ضمَّنها كتابه «البديع»، وعُني الأدباءُ المُحدثون منهم والمتأخرون بهذا المُحسن، بله المصنِّفين الذين أسرفوا في تقسيمه، وافتنوا في تشعيبه، وأفردوا له المصنِّفاتِ^(٣)، حتَّى غفلَ أو تغافلَ جمهورٌ من المتأدِّبين والمصنِّفين عن الجمال المعنويِّ للجناس، فغصَّتْ كتبهم بالأمثلة المتكلِّفة التي تחדش الحسَّ الفنيَّ، وتعبثُ بالذَّوق السَّليم؛ ودعواهم في ذلك أنَّها استوفت حدَّ الجناس، من غير ما التفاتٍ إلى المزية المعنويَّة التي يهبُّها الجناسُ؛ من إيهام المخاطب، ومُفاجأته، وتمكينِ المعنى في فؤاده، فضلاً عن تناعُم جرسه.

الجناس

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغيَّة وتطوُّرها ص ٢٦٥.

(٢) انظر: نَظْمُ الدَّرِّ والعِقيان ص ١٩٥.

(٣) مثل: الأنيس في غُررِ التَّجنيس، لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق هلال ناجي، عالم الكتب - بيروت، ط ١، ١٩٩٦م. وله أيضاً: أجناس التَّجنيس، تحقيق د. محمود عبد الله الجادر، عالم الكتب - بيروت، ط ١، ١٩٩٧م. وجنان الجناس، لصلاح الدين الصَّفدي (ت ٧٦٤هـ)، دار المدينة للطباعة والنشر - بيروت، مصوَّرة عن مطبعة الجوائب بالقسطنطينية، ط ١، ١٢٩٩هـ. وجنَى الجناس، للسيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق د. محمد علي رزق الخفاجي، الدار الفنية للطباعة والنشر (د.ط)، ١٩٨٦م، وفنَّ الجناس للأستاذ علي الجندي، دار الفكر العربي - مصر، (د.ط)، ١٩٥٤م.

قدّمت بهذا الكلام؛ لأؤكد ضرورة عناية الأديب والبلاغيّ بأثر الجناس في نُصرة المعنى وتحسينه، فحقّ أن الجناس مُحسّنٌ لفظيٌّ تناسّب فيه الألفاظ بصورها، فينجّم عن ذلك تجاوّب موسيقيّ لتكرار الكلمات المتماثلة نُطقاً، غير أنّ جمالية الجناس - ولا سيّما التّام - تقوم على إيهام المتلقّي ومخادعته، من حيث يُؤتى باللفظة تُنطقُ أولاً، ثمّ تُعاد عينها فيظنّها المتلقّي من باب الإعادة والتّكرار، فإذا هي كلمة جديدة ومعنى مختلفٌ يُفاجئ المتلقّي ويُمثّعه.

ولكن لا بدّ للمتكلّم أن يقتاد المتجانسين - وخاصةً ثانيهما - بمهارة؛ أعني الطّبع والسهولة وخفّة الظّل من غير أثر للكلفة واعتصارٍ للفكر واستكراهٍ للقريحة، والقصد من غير سرفٍ؛ لا كما يذهب ابن النّفيس (ت ٦٨٧هـ) في كتابه طريق الفصاحة؛ مُستحسناً التّكثير من الجناس بقوله: «وسببُ حُسْنِهِ ما يلحقُ الفهم من الغموض المتوسّط، وما في ذلك من اللّذة، وكلّما كان أكثر؛ كان الكلام أحسن؛ لأجل تكرار الالتذاذ»^(١).

وما الحرص على القصد في التّجنيس إلّا ليحفظ على الأدب روائه، وعلى الجناس رونقه؛ وخاصةً في الجناس التّام الذي لا يتفق للبلغ إلّا نادراً؛ فقد ورد في القرآن الكريم كلّ مرّتين اثنتين، الأولى في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ (٤٣) ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٣] - [٤٤]، والثانية في قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الزّوم: ٥٥].

والجناس زينةٌ كلاميةٌ مبهرةٌ للمتلقّي وممتعةٌ إذا جاءت في سلاسةٍ ورشاقةٍ، وإليك بعض أمثلة الجناس ممّا يظهر عليه أثر الصّنع، لكنّه مع ذلك مُحافظٌ على بهاء الجناس ورونقه؛ وذلك كقول ابن فضالة المجاشعيّ القيروانيّ: [السريع]

قد أجمعوا فيك على بُغضهم	إن تُلقِكَ الغُربةُ في معشرٍ
وحَيّهم ما دُمت في حَيّهم ^(٢)	فدارهم ما دُمت في دارهم

(١) انظر: جنى الجناس ص ٢٨٩، وقد نقل فيه هذا القول.

(٢) انظر: معاهد التّنصيص ٢١٠/٣.

وقول البُسْتِيّ من الجناس التّام المركّب: [المتقارب]

إِذَا مَلَكَ لَمْ يَكُنْ ذَاهِبَهُ فَدَعُهُ فِدُولُتُهُ ذَاهِبَهُ^(١)

وقول القاضي أبي عبد الله عبد الباقي بن أبي حُصَيْن من الجناس التّام المركّب: [الوافر]

فَلَمْ تُضِعِ الْأَعَادِي قَدَرَ شَانِي وَلَا قَالُوا: فَلَانَ قَدَرَ شَانِي^(٢)

وقد وعى عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ) أثر إيهام المتلقي؛ فقال: «واعلم أنّ النُّكْتَةَ التي ذَكَرْتُهَا فِي التَّجْنِيسِ وجعلتها العِلَّةَ في استجابة الفضيحة = وهي حُسْنُ الإفادة، مع أنّ الصُّورَةَ صورةُ التَّكْرِيرِ والإعادة، وإنْ كَانَتْ لَا تَظْهَرُ الظُّهُورَ التَّامَّ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ دَفْعَهُ إِلَّا فِي الْمُسْتَوَى الْمُتَّفَقِ الصُّورَةِ...، فَقَدْ يُتَصَوَّرُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْسَامِهِ أَيْضًا، فَمِمَّا يَظْهَرُ ذَاكَ فِيهِ مَا كَانَ نَحْوَ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ: [الطَّوِيل]

يَمْدُون مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضٍ^(٣)

وذلك أنّك تتوهم قبل أن يردّ عليك آخر الكلمة؛ كالميم من عواصم، والباء من قواضب أنّها هي التي مضت، وقد أرادت أن تحيي ثانية، وتعود إليك مؤكّدة، حتّى إذا تمكّن في نفسك تمامها، ووعى سمعك آخرها، انصرفت عن ظنك الأوّل، وزلت عن الذي سبق من التخيّل، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يُحَالِطُكَ اليأس منها»^(٤).

فبعد القاهر يرى أيضاً أنّ سرّ جمال الجناس إنّما هو إيهام المتلقي؛ بالتلاعب بالألفاظ المشتركة في الأصوات، حين الكلمة لا تحتفظ بمعناها الأوّل، بل تحمل معنى آخر عند إعادتها، فإنّه استحسّن قول شمسويه البصريّ: [الخفيف]

(١) انظر: معاهد التنصيص ٢١٠/٣.

(٢) انظر: خزانة الأدب ٤٠٦/١.

(٣) انظر: ديوانه ٢١٣/١. عواصٍ: جمع (عاصية) من العصيان؛ أي أنّها لا تُطِيعُ أمرَ الملوك، عواصم: جمع (عاصمة) أي تعصم من استجار بها، قواضي: جمع (قاضية) تقضي على الأعداء «قواتل»، قواضب: جمع (قاضبة) من قَضَبَ بمعنى قَطَعَ «قواطع».

(٤) انظر: أسرار البلاغة ص ١٧-١٨.

ناظره فيما جنى ناظره أودعاني أمت بما أودعاني^(١)

وقال: «قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفأها، فهذه السريرة صار التجنيس - وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة - من حلى الشعر، ومذكوراً في أقسام البديع»^(٢).

فجالية الجناس من حيث إن المخاطب بعد فهمه الكلمة الثانية يحصل على الفائدة حيث لم يكن يرجو وجودها، فتكون كالنعمية المفاجئة، وهذه الحالة النفسية التي يحدثها الجناس عند المخاطب هي سر حسنه؛ وعلى هذا الجناس يعلق الدكتور محمد أبو موسى بقوله: «هذه الكلمة الجديدة والمتكررة في زي الكلمة القديمة، لَمَّا كَشَفَتْ لَهُ [يقصد للمتلقى] عن وجهها فجأتها، وأدهشته، وأثارت نشوته، وطربه، وسروره...، وكأنَّ العقل يفرح بالفكرة الجديدة التي تحملها إليه كلمة جديدة، وأنَّ الكلمات تعلم هذا من شأن العقل؛ فتعابته، وتُخَاتِلُهُ، وتتنكر له، ويلبس بعضهن ثياب بعض؛ حتى يتوهم أن التي تتهادى بين يديه هي التي مرَّت آنفاً، فإذا حسر لثامها، ورأى منها حسنها ودلها؛ رأى حوريةً جديدةً تعابث وتُخَاتِلُ، وهذا هو ما فعلته كلمة (ناظره) الثانية...»^(٣).

وأما أرسطو (ت ٣٢٢ ق.م) فسبق إلى ذلك كله، وتنبه إلى أن معظم الفنون البلاغية إنما تُبنى على إيهام المتلقي، وأن معظم النكت البلاغية التي نلمحها في الكلام بلاغتها في المخاتلة التي يلجأ إليها الأديب، إذ قال: «ومعظم التعبيرات الرشيقة تنشأ عن المجاز، وعن نوع من التمويه يدركه السمع فيما بعد، ويزداد إدراكاً كلما ازداد علماً، وكلما كان الموضوع مغايراً لما كان يتوقعه، وكأنَّ النفس تقول: (هذا حق! وأنا التي أخطأت)...، وللسبب عينه كانت الألغاز لذيدة...، والتورية تؤدي إلى نفس الأثر؛ أعني إلى إثارة الدهشة. وهذه الحيلة نجدُها في الشعر حيناً لا يجيئ حسبما يتوقعه السامع»^(٤).

(١) انظر: معاهد التنصيص ٢١١/٣.

(٢) انظر: أسرار البلاغة ص ٧-٨.

(٣) انظر: مدخل إلى كتابي عبد القاهر ص ١٢١.

(٤) انظر: الخطابة لأرسطو ص ٢٢٦.

وهذا ما عبّر عنه علماءنا بالمصطلحات الآتية: خلاف مُقتضى الظاهر، والخروج عن الأصل، والعدول، وهذا أيضاً ما أفادت منه نظرية التلقّي حديثاً.

وصفوة القول: إنّ جماليّة الجناس - وأخصّ منه التّام - عائدةٌ إلى التّكرار الصّوتيّ الذي يُوهّم المتلقّي أنّ المعنى نفسه تكرر ولا جديد، ثمّ لا يلبّث المتلقّي أن يكتشف تباين الدّلالة بين الصّوتين المتشابهين، فيحصل على فائدة معنويّة غير متوقّعة، وهذه المباغتة للمتلقّي كفيلةٌ باجتذاب سمّعه، وتنشيط ذهنه، ومسرّته بلذّة الفوز بالشّيء من غير استشرافٍ إليه، أضف إلى ذلك القيمة الجماليّة للرّنين النّاشئ عن التّكرار الصّوتيّ.

وإنّ الفقه باللّغة هو ممّا يُعِينُ على إبداع أساليب التّجنيس، ولكن لا بدّ من الاحتياط من الإيهام على السّامع عند استعمال المُشترَك اللفظيّ في الجناس التّام؛ وذلك بإيراد القرينة التي ترفع اللبس؛ لأنّ مثل هذه الألفاظ تدلّ في أصل وضعها على معنيين مختلفين أو أكثر، وإذا أُطلِقت ولم تصحبها قرينة، كانت صالحةً لغير ما معنّى، فلا يُدرى أيّها المراد، وفي ذا يقول ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ): «وكذلك يحتاج إلى معرفة الأسماء (المشتركة) ليستعين بها على استعمال (التّجنيس) في كلامه، وهي اتّحاد الاسم واختلاف المسمّيات، كالعين، فإنّها تُطلق على العين النّاطرة، وعلى ينبوع الماء، وعلى المطر، وغيره، إلّا أنّ المشتركة تفتقر في الاستعمال إلى قرينة تُخصّصها، كيلا تكون مُبهمة؛ لأنّا إذا قلنا: (عين)، ثم سكّتنا، وقع ذلك على احتمالات كثيرة؛ من العين النّاطرة، والعين النّابعة، والمطر، وغيره، ممّا هو موضوعٌ بإزاء هذا الاسم، وإذا قرّنا إليه قرينة تخصّه زال ذلك الإيهام، بأن نقول: عينُ حَسَناء، أو عينٌ نضّاجة، أو مُلثّة، أو غير ذلك»^(١).



(١) انظر: المثل السائر ١ / ٥٠. مُلثّة: دائمة المطر.

التَّورِيَّةُ

توريَّة الحديث لُغَةً إخفاؤه وإظهارُ غيره؛ وهذا هو الإيهامُ بعينه، وأمَّا في البديعِ فالتَّورِيَّةُ والإيهامُ والتَّخْيِيلُ واحدٌ^(١)، وموطنُ الإيهامِ ههنا أنَّ المتكلِّمَ يُورِدُ في كلامه لفظاً له معنيان: أحدهما قريبٌ؛ دلالةُ اللَّفْظِ عليه ظاهرةٌ لكثرة استعماله، وثانيهما بعيدٌ؛ دلالةُ اللَّفْظِ عليه خَفِيَّةٌ لِقَلَّةِ استعماله فيه، فيريِّدُ المتكلِّمُ المعنى البعيدَ، ولكنه يُورِّي عنه بالمعنى القريبِ أو المعنى الظَّاهِرِ للكلمة الذي سُرَّعَانَ ما يتبادرُ إلى ذهنِ المتلقِّي؛ فيتوهَّمُ مع أوَّل وهلةٍ أنَّ المتكلِّمَ يقصدُ المعنى القريبَ، ثمَّ بعد التأمُّلِ يتنبَّه المتلقِّي الفطنُ، فيُدركُ المعنى البعيدَ المرادَ؛ اعتماداً على قرينة.

ولكن لا بُدَّ من الإشارةِ إلى أنَّه في أحيانٍ قليلةٍ جداً تُفقدُ هذه القرينة المُرَجِّحة، وعندها تجتمعُ التَّورِيَّةُ مع الاتِّساعِ، أمَّا إذا كانَ المعنيانِ متضادَّينِ دونما مُرَجِّحٍ بينهما؛ فنحنُ أمامَ توريَّةٍ ممزوجةٍ بالإيهامِ؛ فقد حكى رجلٌ أنَّه دخلَ على مجلسٍ، وكانَ عندَ صاحبِ المجلسِ زائرٌ مُضَجِرٌّ مُبِرِّمٌ، وقد تأدَّى صاحبُ المجلسِ بطولِ جلوسه وكثرة كلامه، ويروي هذا الرَّجلُ أنَّه لما نهَضَ هذا المُبرِّمُ وذهَبَ، قال صاحبُ المجلسِ للرَّجلِ: «(هذا خفيفٌ على القلبِ)، فقلتُ: نعم، فقال: ما أظنُّكَ فهمتَ ما أردتُ، ففكَّرتُ، فعلمتُ أنَّه أرادَ (خفيفاً) مقلوباً، وهو الثَّقِيلُ»^(٢).

وكثيراً ما تلتبسُ التَّورِيَّةُ بالاستخدامِ، والفرقُ بينهما أنَّ التَّورِيَّةَ إرادةٌ أخفى المعنيين وإهمالُ الآخرِ القريبِ، وفي الاستخدامِ إرادتهما معاً بقرينتين.

والرَّمخَشَرِيُّ (ت ٥٣٨هـ) الذي كانَ يدعو التَّورِيَّةَ تخيلاً أعجَبَ بهذا المسلكِ اللَّطيفِ من القولِ، وأفادَ منه في الكلامِ على صفاتِ الله سبحانه؛ من اليدِ، والسَّاقِ، والوجهِ، والقُدرة... وقال فيه: «ولا ترى باباً في علم البيان أدقُّ ولا أرقُّ ولا أَلْطَفَ من هذا البابِ، ولا أنفعَ وأعوَنَ على تعاطي تأويلِ

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٤٣٣.

(٢) انظر: فض الحُتَّام عن التَّورِيَّة والاستخدام ص ١٥٦.

المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن، وسائر الكتب السماوية، وكلام الأنبياء؛ فإن أكثره.... تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديماً، وما أني الزَّالُون إِلَّا مِنْ قَلَّةٍ عنايتهم بالبحث والتنقيب....، وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيَّمت وسمِّم الخسف بالتأويلات الغثَّة، والوجوه الرثَّة؛ لأنَّ مَنْ تَأَوَّلَ لَيْسَ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ فِي عَيْرٍ وَلَا نَفِيرٍ، وَلَا يَعْرِفُ قَبِيلاً مِنْهُ مَنْ دَبِيرٌ^(١)، وهذا كلام سبق إليه أبو الفتح ابن جني (ت ٣٩٢هـ) في الخصائص، حين عقد باباً وسمَّه بـ«باب فيما يؤمنه علم العربيَّة من الاعتقادات الدينيَّة»^(٢).

ومن الأمثلة القرآنية التي قد يلتبس فيها الاستخدام بالتورية، وقد يُنفى عن الآية كلاهما؛ قوله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أُنْعِمَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَسِيحُ فترثه مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، فإنَّ كلمة (كافر) عند العودة إلى المعاجم لها معانٍ^(٣)؛ وأشهرُ معنيين: أولهما بمعنى المغطِّي والسَّاتر، ومنه أُطلق على الزَّارع الذي يُغطِّي البذار في التراب، وثانيهما تطوُّرٌ دلاليٌّ للأول داخلٌ فيما استجدَّ من المصطلحات الإسلامية، ويُطلق على مَنْ رَفَضَ الإسلام، ولعلَّ الصِّلة بين المعنى الوضعي (الكافر = المغطِّي) وهذا المعنى الاصطلاحي الطَّارئ تكون ظاهرةً بأدنى تأملٍ؛ لأنَّ مَنْ رَفَضَ الإسلام فقد غطَّى الفِطْرَةَ السَّليمة، وَحَجَبَ الْحَقَّ، وَجَحَدَ نِعَمَ اللَّهِ، وما يعيننا نحنُ ههنا أنَّ كلمة (الكُفَّار) في الآية الكريمة معناها القريبُ المتبادرُ إلى الذَّهن هو مَنْ يزرعون الأرض، ورشَّحَ هذا المعنى ما سبقها من ذِكرِ الغيث، وما لحقها من ذِكرِ النَّبات، ولكنَّ لو تأملنا السِّياق الذي أتت فيه الكلمة، لرأينا أنَّ الآية الكريمة مقصدها ترهيدُ الإنسان في متاع الدُّنيا وتذكيره بأنَّه إلى زوال، فشبهتْ غرورَ الإنسان بهذه الدُّنيا ومتاعِها وزينتها وتفاخره بالمال والولد وهو ناسٍ أنَّ ماله إلى فناءٍ ثُمَّ لا ينفعه هذا الغرور = كمثل غيثٍ نزلَ بأرضٍ

(١) انظر: الكشف ٣٢١-٣٢٢.

(٢) انظر: الخصائص ٣/ ٢٤٥.

(٣) انظر: اللسان (كفر).

فأحياءها، وأنبَتَ فيها من الأشجارِ والشَّمارِ والزُّهورِ ما أبهرَ الزُّرَّاعَ واستخفَّهم، ثمَّ ما لَبِثَ أنْ جَفَّ وبيَسَ وصارَ إلى زوالٍ، أتى التشبيهُ التمثيليُّ ههنا ليُرينا كيف يصنعُ الكافرُ المعْرِضُ في دُنياءه، وكيف مآله في أخرائه، ولكن السُّؤال: ألا نستطيعُ ههنا أن نقولَ: إنَّ في كلمة ﴿الْكُفَّارَ﴾ استخداماً، وقد يقولُ قائلٌ: بل فيها تورية؛ لأنَّ ذَكَرَ النَّباتَ والغيثَ رَشَّحَ معنى (الزَّارع) وسياقُ الآيةِ ومقصدُها لا يستبعدُ أن تكونَ كلمة ﴿الْكُفَّارَ﴾ تُوحِيَتْ دون غيرها من المرادفات، وأُطلِقَتْ لتدلَّ على المعنيين معاً (المزارع والرافض لدين الله)، وذلك أنَّ الكفارَ المعْرِضين عن دين الله هم أكثرُ النَّاسِ اغتراراً بزينَةِ الدنيا ومفاتنها.

وقد ذَكَرَ المبرِّدُ آياتٍ من القرآنِ الكريمِ، قال: «ربَّما غَلِطَ في مجازِها النُّحويون»^(١)، جَعَلَ بينها قوله تعالى مُحاطِباً فرعونَ: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢] وعلَّقَ بقوله: «فليس معنى ﴿نُنَجِّيكَ﴾ نُخَلِّصُكَ، لكن نُلقِيكَ على نَجْوَةٍ من الأرض، ﴿بِدَنِكَ﴾: بِدِرْعِكَ. يدلُّ على ذلك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾»^(٢)، وهذا كما ترى من التَّورية التي أفضى إليها الاشتراكُ اللَّفْظيُّ، وتداخلُ الصَّيغِ الصَّرفية.

ومن أمثلة إيهامِ التَّورية من الحديثِ النَّبويِّ، ما حُكي من أنَّ بدويّاً دميماً كان يأتي المدينةَ كُلَّ حينٍ يبيعُ في سوقِها، وكان ﷺ يُحِبُّه، فحدثَ أن «أتاهُ النَّبِيُّ ﷺ يوماً، وهو يبيعُ مَتاعه، فاحتضنهُ من خلفه، ولا يُبْصِرُهُ الرَّجُلُ... وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يقولُ: (من يشتري العبدَ؟)، فقال: إذا والله تجدني كاسداً، فقال النَّبِيُّ ﷺ: لكنَّ عندَ الله لست بكاسد»^(٣)، إنَّ التَّوريةَ مَكَّنَتِ المتكلِّمَ ههنا من مزاحٍ لا يخرُجُ عن الصِّدْقِ، ولو أنَّكَ كنتَ يومَها في الشُّوقِ، ورأيتَ دمامةَ ذلك البدويِّ وما عليه من مظاهرِ الفقرِ، وسمعتَه ﷺ؛ لتبادَرَ إلى ذهنك أوَّلُ وهلةٍ أنَّه يريدُ بـ(العبدِ) معناها الظَّاهرَ، وهو العبدُ المملوكُ من الرِّقيقِ، ولكنَّ المعنى البعيد المقصود هو عبدٌ من عبادِ الله.

(١) انظر: الكامل ٣/ ١٥٠٣.

(٢) انظر: الكامل ٣/ ١٥٠٤.

(٣) انظر: مُسندُ الإمام أحمد ٢٠/ ٩٠-٩١.

وأظن أن أكثر أنواع التَّورِيَةِ إيهاماً هي التَّورِيَةُ المرشَّحة؛ لأنَّها تُقَرَّنُ بها يُلائم المعنى القريبَ ويُرَشِّحُه، ويقوِّيه ويُميلُ الذَّهْنَ إليه، وهذا أدعى لإيهام السَّامِعِ، ومن ذلك مثلاً قولُ ابنِ النَّقِيبِ:

[الطَّويل]

أقول، وقد سَنَوْنَا إلى الحربِ غارةً : دَعَوْنِي؛ فَإِنِّي أَكُلُ الخَبْزِ الجُبْنِ^(١) : دَعَوْنِي؛ فَإِنِّي أَكُلُ الخَبْزِ الجُبْنِ
فالتَّورِيَةُ ههنا واقعةٌ في كلمة «الجُبْنِ»، ومعناها القريبُ الطَّعامُ المعروفُ، وما رَشَّحَ المعنى القريبُ هو قرينةُ «أَكُلُ الخَبْزِ»، وهذا المعنى غيرُ مرادٍ، وأمَّا معناها البعيدُ فهو الخوفُ، وهو مُرادُ الشَّاعرِ.

ومن التَّورِيَةِ ضَرْبٌ يبلغُ فيه الإيهامُ حَدَّ التَّعَمُّيَةِ على السَّامِعِ، فَتُحْجَبُ عنه الحقيقةُ بالكُلِّيَّةِ، وهو ما يُقْصَدُ منه كَتَمُ الأمرِ على المخاطَبِ؛ فمن ذلك ما يُحكى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ سائِراً بأَصْحَابِهِ فِي خُرُوجِهِمْ إِلَى بَدْرٍ، وَقَدْ لَقِيَهُمْ أَعْرَابِيٌّ فَسَأَلَهُمْ: بِمَنْ الْقَوْمُ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: مِنْ مَاءٍ، فَأَخَذَ الْأَعْرَابِيُّ يُفَكِّرُ، وَيَقُولُ: مِنْ مَاءٍ.. مِنْ مَاءٍ! لِيَنْظُرَ أَيُّ بَطُونِ الْعَرَبِ يُسَمَّى مَاءً؟ وَسَارَ ﷺ مَعَ الْقَوْمِ إِلَى وَجْهَتِهِ، وَقَصَدَ أَنْ يَكْتُمَ أَمْرَهُ، وَقَدْ قَصَدَ الْإِشَارَةَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطَّارِق: ٦]، فَوَرَّى عَنْهُ بِقَبِيلَةٍ مِنَ الْعَرَبِ^(٢).

وكذا قولُ صاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ (رضي الله عنه) فِي خُرُوجِهِمَا مِنَ الْغَارِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ سُئِلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: «هَادٍ يَهْدِينِي السَّبِيلَ»؛ أَرَادَ سَبِيلَ الْخَيْرِ وَالْإِيمَانِ، وَوَرَّى عَنْهُ بِهَادِي الطَّرِيقِ^(٣).

ولإيهامِ التَّالْفِيِّ وَمُخَادَعَتِهِ بَزُخْرَفِ الْقَوْلِ مَقَاصِدُ عِدَّةٍ، فَقَدْ تَكُونُ لَتَسْلِيَةِ التَّالْفِيِّ وَتَنْشِيطِهِ؛ كَقَوْلِ ابْنِ الْعَفِيفِ: [السَّرِيع]

(١) انظر: خزانة الأدب ٢١٦/٣. ومن الكتب اللطيفة التي ضمت أمثلة رائعة عن التَّورِيَةِ كتابُ: «رائق التَّحْلِيَةِ فِي فَائِقِ التَّورِيَةِ»، صَنَعَهُ الْوَزِيرُ أَبِي جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ زَرْقَالَهُ، تَحْقِيقُ د. مُحَمَّدٍ رِضْوَانِ الدَّايَةِ، مَنَشُورَاتُ دَارِ الْحِكْمَةِ بِدَمَشَقَ، (د. ط. ت.)

(٢) انظر: الطَّرَازُ ٣٩/٣، وَأَنْوَارُ الرَّبِيعِ ٦/٥.

(٣) انظر: صحيح البخاري ١٤٢٣/٢ (رقم الحديث - ٣٦٩٩)، وَأَنْوَارُ الرَّبِيعِ ٦/٥.

أُسْكِرَنِي بِاللَّفْظِ وَالْمَقَالَةِ الْـ كَحَلَاءِ وَالْوَجْنَةِ وَالْكَاسِ
سَاقٍ يُرِينِي قَلْبُهُ قَسْوَةً وَكُلُّ سَاقٍ قَلْبُهُ قَاسٍ^(١)

فلفظ (قلبه) معناها القريب فؤاده، وقد ورى بها عن المعنى الخفي الذي أراده؛ وفيه (قلبه بمعنى: عكس حروفه).

والتورية سبيل رَحْبٌ للدعابة والمزاح، وبابٌ لصناعة التندر والسخرية، ومن التورية ما يكون بقصد الإمتاع والمؤانسة والتفنن كقول عز الدين الموصلي: [السريع]

لَحَظْتُ فِي وَجْهِهِ شَامَةً فَابْتَسَمَتْ نَعَجَبٌ مِنْ حَالِي

قَالَتْ: قِفُوا، وَاسْتَمِعُوا مَا جَرَى قَدْ هَامَ عَنِّي الشَّيْخُ فِي خَالِي^(٢)

وقد يقصد من التورية تأدية الأفكار والمعاني بأسلوب طريف يجذب السامع، مع التلطف والطرافة؛ كقول سراج الدين الوراق في جماعة يبغيضون الشعر وأهله: [الوافر]

أُضُونُ أَدِيمَ وَجْهِ عَنِ أَنْاسٍ لِقَاءَ الْمَوْتِ عِنْدَهُمُ الْأَدِيبُ

وَرَبُّ الشَّعْرِ عِنْدَهُمْ بَغِيضٌ وَلَوْ وَاقَى بِهِ لَهِمُ «حَيْبُ»^(٣)

فقد أراد بـ(حبيب) حبيب بن أوس الطائي أبا تمام (ت ٢٣١هـ)؛ ولكنه أوهمنا عندما ورى عنه وأخفاه بقوله: (حبيب) بمعنى المحبوب؛ وإلحكام إيهام السامع بالمعنى القريب (المحبوب) مهّد له بكلمة (بغیض)، وها أنت ترى أنّ التورية مكنته من بيان رأيه في هؤلاء القوم، ومن انتقاد بغضهم للشعر وأهله، متلطفاً، من غير ما مباشرة أو خدش للأحاسيس. وقد جمع الوراق ههنا محاسن أخرى حين اختار (بغیض) و(حبيب)، وفي ذلك إيهام بالطباق أيضاً.

(١) انظر: خزانة الأدب ٢٨٣/٣.

(٢) انظر: أنوار الربيع ١٥/٥.

(٣) انظر: خزانة الأدب ٢٠٣/٣.

ولا يخفى أنَّ للتَّورِيَّة أثرًا حَسَنًا في النَّفس، حينَ يُدركُ المتلقِّي المعنى البعيدَ، ولا سِيَّما إن كانَ بعدَ تأمُّلٍ وإطالةٍ نَظَرٍ، وهذا يَحَقِّقُ إمتاعَ المتلقِّي، حينَ يكتشفُ بالتَّأمُّلِ أنَّ ما فَهَمَهُ هو مجردُ معنى قريبٍ، وأنَّ وراءَهُ معنى بعيداً يزدادُ به الكلامُ جمالاً وألقاً.

ومن طريف التَّورِيَّة ما سمعتُ من أنَّ شاباً فُطِناً أرادَ أن يتزوَّجَ، فَقَصَدَ قريَّةً قريَّةً من قريَّته، ودخَلَ على أناسٍ يطلبُ الزَّواجَ بابتئهِم؛ فسأله والدُ العروسِ، وكانَ ذا نحيِزةٍ ماديَّة: ما عملُك يا بُني؟ فأجابَه: جزَّارٌ، فاستحسنَ الوالدُ مهنةَ صهرِه القادم، وتلَهَّفَ على أَكلِ اللَّحومِ والشُّحومِ بعدَ أن تتزوَّجَ ابنته، وما هي إلَّا أَيَّامٌ بعدَ العُرسِ حتَّى جاءَ الصَّهرُ مصطحباً زوجه في زيارةٍ إلى دارِ أبيها، فقال له حمَاهُ: أعجزتَ أن تحملَ لنا رطلين أو ثلاثةً من اللَّحمِ من دُكانِكَ أيُّها الصَّهر؟ فأجابَه: وأنى لي يا عمَّاه؟ فقال له: ألم تَقُلْ لي بأنَّكَ جزَّار، فأجابَه: بلى أنا أبيعُ الجَزَرَ! (وليس ثمَّ في المعاجم وصفٌ بالجَزَّارِ لبائعِ الجَزَر).

وقد أغرت صَنعةُ التَّورِيَّة أهلَ الأدب - ولا سِيَّما المتأخِّرين - لجمالِها ورونقِها، «ولأنَّها تفتَحُ بابَ التَّأويلِ، وتُفسِّحُ المجالَ للتفسيراتِ المتعدِّدة؛ لأنَّ الطَّاقةَ الدَّلاليَّةَ للألفاظِ في التَّورِيَّة تُستغلُّ خيرَ استغلالٍ»^(١)، ولأنَّها تُعينُ على تعاطي تأويلِ المشتبهاتِ من القرآن والسُّنة.

ولا ريبَ في أنَّ بعضَنا اليومَ يلجأُ إلى التَّورِيَّة ويستعينُ بها في دَرْجِ كلامِهِ دونَ أن يدري؛ فكثيراً ما تكونُ التَّورِيَّة وإيهامُ السَّامعِ سبيلاً لتخلُّصِ المتكلِّمِ من مواقفٍ مُحرجَةٍ يخشى عواقبَها، وقد يلجأُ المتكلِّمُ إلى التَّورِيَّة؛ ليتأتَّى له الإنكارُ عندَ الحاجة؛ كأنَّ تُسألَ عن امرئٍ مُتنفِّذٍ، فتقول: إنَّه ماهرٌ في العُزفِ على القانون، فالمعنى القريبُ للقانون هو الآلةُ الموسيقيَّةُ المعروفة، ورشَّحَ هذا المعنى كلمةَ (العزف)، والمعنى البعيدُ المرادُ أنَّه يتلاعبُ بالقوانين، وهذا يُساعدُك كما سلفَ على الإنكارِ لدى الحاجة، وقد يلجأُ المتكلِّمُ إلى التَّورِيَّة أيضاً لإخفاء مُرادِهِ عن العامَّة وإشعارِ الخاصَّة به مِن طَرَفٍ

(١) انظر: المفصَّل في علومِ البلاغة العربية ص ٥٧٦.

خفي، أو لاختبار ذكاء المتلقي على سبيل الإلغاز؛ كقول علي عليه السلام: (إن أبا هذا كان ينسج الشَّالَ باليمين)^(١)؛ لأنَّ أبا ذاك الرَّجُلِ كان يحوك الشَّالَ، وهي جمع شَمْلَةٍ يمينيه.

وقد روي أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب رضي الله عنه لقي حذيفةَ بنَ اليَمان (ت ٣٦هـ) يوماً، فقال له عمرُ: كيف أصبحتَ يا حذيفةُ؟، فقال: أصبحتُ أَحِبُّ الفتنَةَ، وأكرهُ الحقَّ، وأقولُ ما ليس بمخلوقٍ، وأُصَلِّي بغيرِ وضوءٍ، وأشهدُ بما لم أرَ، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء. فغضبَ عمرُ، فمضى حذيفةُ وتركه، فأقبل عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فرأى أثرَ الغضب في وجه عمرَ، فقال له عليٌّ: ما يُغضبُك يا أميرَ المؤمنين؟ فقصَّ عليه ما جرى له مع حذيفةَ، فقال: صدقَ حذيفةُ؛ أليسَ أَنَّهُ قالَ: أَحِبُّ الفتنَةَ أصبحَ يحبُّ المالَ والولدَ؟ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] ويكرهُ الموتَ وهو حقٌّ؟ ويقرأُ القرآنَ وهو ليس بمخلوقٍ؟ ويُصَلِّي على النبي صلى الله عليه وآله على غيرِ وضوءٍ؟ ويشهد أن لا إله إلا الله وهو لم يره؟ وله في الأرض زوجةٌ وبنون وليس لله تعالى زوجة ولا بنون؟^(٢)

والتَّورِيَةُ تُجَنَّبُ صاحبها الكَذِبَ وسوءَ العاقبة؛ وهي حَلٌّ شرعيٌّ لِمَنْ أَكْرَهَ على إجابة السَّائل عن سؤالٍ ما، ولكنه ما أرادَ أن يُخبرَ هذا السَّائلَ بالواقع، وما أرادَ أن يكذِّبه القولُ أيضاً؛ وذلك لقوله صلى الله عليه وآله: «إنَّ في المعارِضِ لَمَدْوَحَةً عن الكذب»^(٣)؛ والمعارِضُ جمعُ معْراضٍ من التَّعْرِضِ، وهو ذِكْرُ لفظٍ مُحْتَمِلٍ لمعانٍ يفهم منه السَّامِعُ خلافَ ما يريدُه المتكلِّمُ^(٤)، ولكن هذا لا يعني أن تُركِبَ التَّورِيَةُ لخداعِ النَّاسِ وإحقاقِ الباطلِ؛ فثمَّ أناسٌ قد يكذبون أيمانهم ظناً منهم أنَّ ذلك من التَّورِيَةِ، كأنَّ تستحلفَ لصّاً سرقَ أموالَكَ، فتقولَ له: هل سرقْتَ مالي؟ فيجيب: أقسمُ بالله العظيم إني ما رأيتُ مالَكَ، ولا مَسْئَتَهُ، ولا سرقَتَهُ. وهذا السَّارقُ الحالِفُ ينوي في قلبه (المال) بمعنى (الإبل) وهو معنًى بعيدٌ؛ فإنَّ هذا كذبٌ ومينٌ؛ لقوله صلى الله عليه وآله: «اليمينُ على نِيَّةِ المستحلفِ»^(٥) (بكسر اللام)،

(١) انظر: تحرير التَّحْبِيرِ ص ٢٦٨، وفَضَّ الحِتَامَ عن التَّورِيَةِ والاستخدام ص ١٢٠.

(٢) انظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء ص ٢٨٣.

(٣) انظر: الجامع الصَّغِيرُ من أحاديث البشير النَّذِيرِ ١/ ٢٧٢. وفيه أنَّه حديثٌ ضعيفٌ.

(٤) انظر: اللسان (عرض).

(٥) انظر: صحيح مسلم ٣/ ١٢٧٤ - ورقم الحديث (١٦٥٣)، والجامع لأحكام القرآن ٨/ ١٥١.

ولهذا الحديث رواية ثانية: «يَمِينُكَ عَلَى مَا يُصَدِّقُكَ عَلَيْهِ صَاحِبُكَ»^(١). وعليه فإن ملاحن ابنِ دُرَيْدٍ (ت 321هـ) وغيره مَن أَلْفَوْا كُتَبًا تَعْتَمِدُ عَلَى الْمَشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ وَالتَّوْرِيَةِ لِلتَّهَرُّبِ مِنَ الْيَمِينِ يَنْبَغِي التَّرِيثُ عِنْدَ اعْتِمَادِهَا سَبِيلًا لِلتَّخَاطُبِ؛ لِأَنَّ لَذَلِكَ ضَوَابِطَ لَيْسَ هَذَا مَكَانَ مُنَاقَشَتِهَا.

وكثيراً مَا يُلْجَأُ إِلَى التَّوْرِيَةِ الْمُوْهِمَةِ فِي عَصُورِ الْاِسْتِبْدَادِ مُدَارَاةً لِلسُّلْطَانِ وَأَعْوَانِهِ؛ عَلَى أَنَّ التَّوْرِيَةَ لَمْ تَكُنْ طَرِيقَةً الْقَدَمَاءِ وَمَذْهَبَهُمْ فِي قَوْلِ الشَّعْرِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الصَّفْدِيُّ (ت ٧٦٤هـ) بِقَوْلِهِ: «أَمَّا فَنُ التَّوْرِيَةِ فَمَا تَنْبَغِي لِمَحَاسِنِهِ لَمَّا تَيَقَّنَ وَتَيَقَّظَ، وَتَحَرَّى وَتَحَرَّزَ، وَتَحَفَّدَ وَتَحَفَّظَ إِلَّا الْمَتَأَخَّرُونَ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَالْكَتَّابِ، وَمَنْ تَضَلَّعَ بِالْعُلُومِ، وَتَطَّلَعَ فِي كُلِّ بَابٍ...»^(٢)؛ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ الصَّفْدِيِّ؛ بِأَنَّ حُذَاقَ الْمَتَأَخِّرِينَ وَنَحَارِيرَهُمْ هُمُ الَّذِينَ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَتَنَبَّهُوا لِلتَّوْرِيَةِ دُونَ السَّابِقِينَ، بَلِ الظَّنُّ أَنَّ الْعَرَبَ الْقَدَمَاءَ لَمْ يَسْلُكُوا هَذَا السَّبِيلَ؛ لِأَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَتَكَلَّفُونَ، وَكَانُوا يُجَانِبُونَ الْغَمُوضَ وَيَمِيلُونَ إِلَى الْإِبَانَةِ وَالْوُضُوحِ، وَلَكِنْ لَمَّا «مَالَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ إِلَى التَّعْقِيدِ فِي الْعَصُورِ الْمَتَأَخَّرَةِ، وَجَنَحَ عَنِ التَّزَوُّدِ مِنَ الثَّقَافَاتِ الْمُنْتَوَعَةِ، وَاسْتَوَلَى عَلَى النُّفُوسِ الْفَرْعُ مِنْ عَسْفِ الْوَلَاةِ وَالْحُكَّامِ احْتِمَى الْأَدْبَاءُ فِي التَّوْرِيَةِ؛ رَغْبَةً فِي الْاِبْتِكَارِ وَالتَّجْدِيدِ، وَفِرَاراً مِنَ الْقَتْلِ وَالتَّشْرِيدِ؛ وَلِذَلِكَ نَرَى لِلتَّوْرِيَةِ الدَّوْلَةَ وَالذُّيُوعَ مِنْذُ أَوَاخِرِ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ عَلَى يَدِ هَؤُلَاءِ الْمَتَأَخِّرِينَ»^(٣)، وَلَا سِيَّامَا الْمَصْرِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ.

وَيَحْسُنُ بِنَا التَّوَقُّفُ هَهُنَا عِنْدَ مُسْتَطَرَفٍ مِنْ فَنُونِ الْقَوْلِ يُدْعَى بِـ(الْمَلَاَحِنِ) وَهَذَا الْفَنُّ الْقَوْلِيُّ مُسْتَقٌّ مِنْ اللَّحَنِ الَّذِي بِمَعْنَى أَنْ يُجْعَلَ لِلْكَلَامِ بَاطِنٌ وَظَاهَرٌ، فَيَكُونُ الْكَلَامُ حِينَئِذٍ مُوْهِمًا خِلَافَ الْمَرَادِ، وَهَذَا عَيْنُ الْإِيهَامِ، وَهَذَا - عَلَى نُدْرَتِهِ - مُسْتَمْلَحٌ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَالِكاً بْنَ أَسْمَاءَ الْفَزَارِيَّ يَسْتَحْسِنُ اللَّحْنَ - بِمَعْنَى الْإِيهَامِ - مِنْ جَارِيَةٍ لَهُ فَطْنَةٍ تَأْتِي بِالشَّيْءِ ثَرِيدٌ غَيْرُهُ، وَتُمِيلُ ظَاهِرُهُ عَنِ بَاطِنِهِ؛ لِتُبْلَغَ الْمَقْصُودَ سَيِّدَهَا دُونَ الْحَاضِرِينَ، فَيَقُولُ: [الْخَفِيفُ]

(١) انظر: صحيح مسلم ٣ / ١٢٧٤ - ورقم الحديث (١٦٥٣).

(٢) انظر: فض الحُتَمَاءِ عَنِ التَّوْرِيَةِ وَالْاِسْتِخْدَامِ ص ١٢١.

(٣) انظر: الصبغ البديعي ص ٣٥٧.

وحديثُ أَلَذَّةٍ هَوِّمًا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ يُسَوِّرُنَ وَزْنًا

مَنْطِقُ صَائِبٍ، وَتَلَحُّنُ أَخِيَا نَأْ «وَحَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا»^(١)

أي: خيرُ الحديثِ ما فهمه صاحِبُك الذي تحبُّ إفهامه وحده، وخَفِيَ على غيره. وأصلُ اللَّحْنِ أَنْ تُرِيدَ الشَّيْءَ فتَوَرَّى عنه بغيره؛ وجاء في اللسان: «وَلَحَنَ لَهُ يَلْحَنُ لَحْنًا: قَالَ لَهُ قَوْلًا يَفْهَمُهُ عَنْهُ وَيَخْفَى عَلَى غَيْرِهِ لِأَنَّهُ يُمِيلُهُ بِالتَّوَرُّيَةِ عَنِ الْوَاضِحِ الْمَفْهُومِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: لَحَنَ الرَّجُلُ: فَهُوَ لَحَنٌ إِذَا فَهَمَ وَفَطِنَ لِمَا لَا يَفْطِنُ لَهُ غَيْرُهُ»^(٢).

وقد ألف ابنُ دريد (ت ٣٢١هـ) كتاباً أسماه (الملاحِن) اعتمد فيه على المشترك اللفظي، وقال في أوَّله: «هذا كتابُ أَلْفَاءٍ؛ لِيَفْزَعَ إِلَيْهِ الْمُجْبِرُ الْمُضْطَهَّدُ عَلَى الْيَمِينِ الْمُكْرَهُ عَلَيْهَا، فَيُعَارِضَ بِمَا رَسَمْنَاهُ، وَيُضْمِرَ خِلَافَ مَا يُظْهِرُ؛ لِيَسْلَمَ مِنْ عَادِيَةِ الظَّالِمِ، وَيَتَخَلَّصَ مِنْ جَنَفِ الْغَاشِمِ»^(٣)، وسوف نتوقَّفُ عندَ هذا الكتابِ في الكلامِ على القَسَمِ الموهَمِ في علم المعاني، وليس ما عرَّضه ابنُ دريد إلَّا قسماً ممَّا يَصِحُّ فيه حَدُّ الملاحِن، وسنعرِّضُ بعضاً من أخبارِ الملاحِن الذي يكونُ للكلامِ فيها ظاهراً وباطناً مقصودان، وهذا لبُّ البحث.

فمن ذلك خبرٌ عجيبٌ مُشْتَهَرٌ عندَ أهلِ الأدبِ يروي أن رجلاً عَنَبَرِيًّا (من بني العَنَبَرِ) كان مأسوراً في بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ حين سألهم رسولاً إلى قومِهِ، فقالوا له: لا تُرْسِلُ إلَّا بحضرتنا؛ لأنَّهم كانوا قد أزمَعُوا غَزَوْ قومِهِ، فخافوا أن يُنذَرَهُمْ، فجاءَ بَعِيدٌ أَسْوَدَ، فقال له: أتعقِلُ؟ قال: نَعَمْ إِنِّي لَعَاقِلٌ. قال: ما أراك كذلك. فقال: بلى. فقال: ما هذا - وأشار بيده إلى اللَّيْلِ - فقال: هذا اللَّيْلُ. قال: أراك عاقلاً. ثُمَّ ملأَ كَفِّهِ مِنَ الرَّمْلِ، فقال: كم هذا؟ فقال: لا أدري، وإنَّه لكثيرٌ. قال: أيُّما أكثرُ النُّجُومِ أم النِّيرانُ؟ قال: كلُّ كثير. قال: أبلغْ قومي التَّحِيَّةَ، وقُلْ لهم: لِيُكْرِمُوا فلاناً - يعني أسيراً كان في أيديهم من بكرٍ؛ فَإِنَّ قومَهُ لي مُكْرِمُونَ، وقُلْ لهم: إِنَّ العَرَفَجَ [اسم نبات] قد أدبى، وقد شَكَّتِ النِّسَاءُ،

(١) انظر: البيان والتبيين ٢٢٨/١، وأمالِي المُرْتَضَى ١٤/١.

(٢) انظر: لسان العرب (لحن).

(٣) انظر: الملاحِن ص ٦٣-٦٤.

وَمُرُّهُمْ أَنْ يُعَرَّوْا نَاقَتِي الْحَمْرَاءَ؛ فَقَدْ أَطَالُوا رُكُوبَهَا، وَأَنْ يَرْكَبُوا جَمَلِي الْأَصْهَبَ، بَايَةَ مَا أَكَلْتُ مَعَكُمْ حَيْسًا، وَاسْأَلُوا الْحَارِثَ عَنْ خَبْرِي.

فلما أدَّى العبدُ الرِّسالةَ قالوا: لقد جُنَّ الأعورُ، والله ما نعرفُ له ناقةَ حمراء ولا جَمَلًا أصهبَ، ودعوا الحارثَ، فقصُّوا عليه القِصَّةَ، فسألَ العبدَ عما قالَ له أولاً فأخبره، فسرحوا العبدَ، فقال لهم الحارثُ: (قد أنذركم).

أما اللَّيْلُ فإنه أشارَ إلى أنكم في عَمِيَاءٍ مُظْلِمَةٍ، وأما الرَّمْلُ فإنه أشارَ إلى أنكم تُغزَوْنَ بمثلِ عدده، وأما النُّجُومُ والنِّيرانُ، فأشارَ بذلك إلى كثرةِ عَدَدِ عدوكم، وأما قوله: أدبى العَرْفِج: يريدُ أن الرجالَ قد استلَّاموا ولَبِسُوا السِّلَاحَ. وقوله: شَكَّتِ النِّسَاءُ: أي اتَّخَذْنَ الشُّكَاءَ (القِرَبَ) لِلسَّفَرِ. وقوله: النَّاقَةُ الْحَمْرَاءُ: أي الدَّهْنَاءُ. وقوله: أَطَالُوا رُكُوبَهَا: إشارةٌ إلى أنكم قد عُرِفْتُمْ بنزولها لطول مُقامكم بها، فَأَمَرَكم أَنْ ترحلوا عنها، وَتَنْزِلُوا الصَّيَّانَ، وهو ما أشارَ إليه بِالْجَمَلِ الْأَصْهَبِ الَّذِي أَمَرَكم بِرُكُوبِهِ. وقوله: أَكَلْتُ مَعَكُمْ حَيْسًا: يريدُ أخلاطاً من النَّاسِ قد غَزَوْكم؛ لأنَّ الْحَيْسَ يَجْمَعُ التَّمَرَ وَالسَّمْنَ وَالْأَقِطَ. فامثلُوا ما قالَ، وعَرَفُوا لَحْنَ كَلَامِهِ^(١).

وأنتَ ترى في هذه القِصَّة - بصرفِ النَّظَرِ عن صِحَّتِها التَّارِيخِيَّةِ - أَنَّ الْأَسِيرَ قد حَمَلَ كَلِمَاتِهِ دَلَالَاتٍ مُستورةً مُتَخَفِيَةً بقناعٍ هو الدَّلَالَةُ الشَّائِعَةُ المعروفةُ للكلمات؛ طَلَبًا وَقَصْدًا إلى التَّعْمِيَةِ على هؤلاء القوم، وما أَلْجَأَهُ إلى ذلك إِلَّا المَقَامُ وَمُقْتَضَى حالِهِ في الْأَسْرِ، فجاءَ كَلَامُهُ مُطَابِقًا لمُقْتَضَى الحال، على الرغم من كُلِّ ما اعْتَوَرَهُ من عيوبِ الفصاحة، وقد استعانَ هذا المأسورُ بما نُسمِّيهِ المُشْتَرَكَ اللَّفْظِيَّ، وأعانَهُ على ذلك ثراءُ قاموسِهِ اللَّغَوِيِّ من المفردات، ولا يَخْفَى ما في كَلَامِهِ من التَّشْبِيهاتِ الموهِّمةِ المبهمةِ.

ولابنِ فارسٍ (ت ٣٩٥هـ) مُصَنَّفٌ صَغِيرٌ الْجِزْمِ يُعَايِي فِيهِ الْأَذْهَانَ مُعَايَاةً لُغَوِيَّةً، وقد وَسَمَهُ بـ(فُتْيَا فقيهِ العرب)^(٢)، وللحريريِّ (ت ٥١٦هـ) مَقَامَةٌ طَرِيفَةٌ سَمَّاها: (الطَّيِّبَةُ) يسيرُ فيها على مِئْوَالِ

(١) انظر: الملاحن ص ٦٥-٦٧، وأمالى القالي ٦/١-٧، وأمالى المرتضى ١٦/١-١٧، والزهر في علوم اللغة ٤٤٣/١.

(٢) حَقَّقَهُ حسينُ محفوظ، المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٨ م.

ابن فارس في فُتياءه، وقد قصَدَ فيها الحارثُ بنُ همام بيتَ الله الحرام، ثُمَّ عزمَ مع صَحبِهِ على زيارة طَيِّبَةٍ، وإذا بالنَّاسِ يتراكمون، فسأل: ما بالهُم؟ فقيـل: قد حضرَ ناديمُ فقيهَ العربِ، فقصدَ مع أصحابِهِ ذلكَ الفقيهَ المنهودَ إليه، «وأعيانُ الحيِّ به مُحتَفُونَ. وأخلَّطَهُمُ عليه مُلتَقُونَ. وهو يقولُ: سَلُونِي عَنِ الْمُعْضِلَاتِ. واستَوْضِحُوا مِنِّي المُشْكِلَاتِ. فوالذي فَطَرَ السَّماءَ. وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ. إِنِّي لَفَقِيهُ العَرَبِ العَرَبَاءَ. وأَعْلَمُ مَنْ تَحْتَ الجُرْبَاءِ. فصمَدٌ لَهُ فَتَى فَتِيْقُ اللِّسَانِ. جَرِيءُ الجَنَانِ. وقال: إِنِّي حَاضِرْتُ فُقَهَاءَ الدُّنْيَا. حَتَّى انْتَحَلْتُ مِنْهُم مِثَّةَ فُتْيَا. فَإِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَرَعِبُ عَنْ بَنَاتِ غَيْرِ. وَيَرَعِبُ مِنَّا فِي مَيْرٍ. فَاسْتَمِعْ وَأَجِبْ. لِنُقَابِلَ بِمَا يَجِبُ. فقال: اللهُ أَكْبَرُ. سَيِّبُيْنِ المَخْبِرُ. وَينكشِفُ المُضْمَرُ. فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ»^(١).

وتمضي المقامة بعد هذه الحُكبة على هيئة مُناظرةٍ مُؤتلفةٍ من سُؤالٍ وجوابٍ، تُستعرَضُ فيها مسائلُ فقهيةٌ بألفاظٍ مُشتركةٍ مُضَلَّلة، كما في ملاحنِ ابنِ دُرَيْدٍ، تبعثُ في النَّفسِ الدَّهْشَةَ؛ وذلك أَنَّ مَكْمَنَ الجوابِ إِنَّمَا هو واقعٌ في فَهْمِ الألفاظِ المُستترةِ لا الظَّاهرةِ، فهذه الفُتْيَا إِذَا قَائِمَةٌ على استفزازِ إمكاناتِ اللُّغةِ في إيهامِ المُخاطبِ؛ اعتماداً على ظاهرةِ المُشتركِ اللَّفْظِيِّ، ومن تلكِ المقامةِ قوله:

«قال: أيجوزُ الوُضوءُ مِمَّا يَقْدِفُهُ الثَّعْبَانُ؟ قال: وهلْ أَنْظَفُ مِنْهُ للعُرْبَانِ؟»

«قال: أيجِبُ الغُسلُ على مَنْ أَمْنَى؟ قال: لا ولو ثَنَى»

«قال: ما تَقُولُ في مَنْ صَلَّى وَعَانَتْهُ بَارِزَةٌ؟ قال: صَلَاتُهُ جَائِزَةٌ»

«قال: فَإِنْ صَلَّى وَعَلَيْهِ صَوْمٌ؟ قال: يُعِيدُ وَلَوْ صَلَّى مِثَّةَ يَوْمٍ»

«قال: فَإِنْ أَمَّهُمْ مَنْ فَخَذَهُ بَادِيَةً؟ قال: فَصَلَاتُهُ وَصَلَاتُهُمْ مَاضِيَةٌ»

«قال: فَإِنْ أَكَلَ الصَّائِمُ بَعْدَ مَا أَصْبَحَ؟ قال: هو أَحَوَاطٌ لَهُ وَأَصْلَحُ»

«قال: فهلْ يجوزُ للحَاجِّ أَنْ يَعْتَمِرَ؟ قال: لا، ولا أَنْ يَخْتَمِرَ»^(٢).

(١) انظر: شرح مقامات الحريري ٤٣٣/٢. (دار الكتب العلميّة)

(٢) انظر: شرح مقامات الحريري ٤٤٠/٢.

وها أنت ترى الحريريَّ قد أقامَ فُتياهُ هذه على الأسلوبِ الموهِمِ المُضللِّ؛ متوسِّلاً بالمُشتركِ اللفظيِّ، والمعاني الغريبة، وقد وُفِّقَ إلى حَصْرِ مُتلقِّيه في فضاءٍ سديميٍّ أَفُقُ التَّواصلِ فيه مُغَيَّبٌ إِلَّا قليلاً، فنَجَحَ في إيْهامِ مُحاطَبِهِ، وما أَظُنُّ هذه الفُتيا إِلَّا لغرضِ تعليمِ اللُّغةِ للفتيانِ كسائرِ مقاماتِهِ، لكنَّها امتازَتْ بعنصرٍ إدهاشِ المتلقِّي، وتشويقه إلى التَّنقيرِ عن الدلالاتِ المستترةِ وراءَ هذه الألفاظِ الموهِمة.

ولكنَّ ينبغي التَّنَبُّهُ إلى أنَّ التَّوريةَ لا تحسُنُ في كلِّ المقاماتِ، ولا تحسُنُ من دونِ داعٍ بلاغيٍّ؛ فلا يجوزُ أن نأتي لكلِّ كلمةٍ لها معنى قريبٌ وآخرٌ بعيد، فنقصِدَ البعيدَ منهما على سبيلِ التَّوريةِ من غيرِ أن يكونَ ثَمَّةَ داعٍ بلاغيٍّ دعانا لذلك.

وكذا ينبغي أن نتذكَّرَ أنَّ تَأْيِي التَّوريةِ في الكلامِ على النُّحوِ المطبوعِ الرَّائقِ قَصْرٌ على الأذكياءِ، وأنَّ التَّفَطُّنَ إليها ابتداءً قَصْرٌ على أهلِ الفُطانةِ والبَصَرِ في دقائقِ اللُّغةِ؛ فلا يجوزُ أن آتِيَ مَنْ لم يُؤْتَ حِظًّا من الذِّكاءِ وأخاطَبَهُ بالتَّوريةِ؛ لأنَّ في ذلك مخالفةً لمقتضى الحال.



الاستخدام

الاستخدام لونٌ بديعيٌّ عزيزٌ؛ لأنّه ممّا يندُر ويخفى؛ يندُر في الكلام عفوًا، ويخفى إلّا على المتبصّر من أهل الفنّ، وهذا ما جعل الصّفديّ (ت ٧٦٤هـ) يقول: «الاستخدام أشرف فنّ البديع من التّورية، وأقلُّ وروداً في الكلام منها، وقُلَّ أنْ حاوله متكلّمٌ فملك قياداً، أو أعملَ في ترتيبه فكراً؛ فنال منه مُراداً...»^(١).

وسُمّي كذلك؛ لأنّه قد يكون للكلمة معنيان، وأنت محتاج للمعنيين كليهما في عبارتك، فتذكر الكلمة مرّةً واحدةً، بطريقة تجعلها فيها خادمةً للمعنيين^(٢)، والفرق بينه وبين التّورية أنّه في الاستخدام يُراد المعنيان معاً، وفي التّورية البعيدُ منهما فقط، وقد يشبه أمره بالتّورية على الدّهماء؛ بلة البلاغيّين^(٣) الذين هم فيه على مذهبيّن؛ أحدهما لبدر الدّين بن مالك (ت ٦٨٦هـ)، والآخر للقزويني (ت ٧٣٩هـ). فبدر الدّين بن مالك ومن تبعه يرون أن الاستخدام: إطلاق لفظٍ مُشتركٍ بين معنيين، ثمّ الإتيان بلفظين يخدم كل واحدٍ منهما معنى من ذينك المعنيين، وهذان اللفظان قد يكونان متأخّرين عن اللفظ المُشترك، وقد يكونان مُتقدّمين، ولربّما يكون اللفظ المُشترك مُتوسّطاً بينهما^(٤).

وشاهد ذلك عند البلاغيّين قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۝عِنْدَهُ ۝ أَمْ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٨-٣٩]، فلفظ ﴿كِتَابٌ﴾ يحتمل الأجل المحتوم، والكتاب المكتوب، وقد توسّط بين لفظي (أجل - يمحو)؛ ومعلوم أن لفظ ﴿أجل﴾ يخدم المعنى الأوّل: الأجل المحتوم، ولفظ ﴿يَمْحُوا﴾ يخدم المعنى الثّاني: الكتاب المكتوب^(٥).

(١) انظر: فضّ الحتام عن التّورية والاستخدام ص ٢٣٤.

(٢) انظر: البديع في نقد الشّعْر ص ١٢٦.

(٣) انظر: فضّ الحتام عن التّورية والاستخدام ص ١٨٤-١٨٦. وفيه أمثلة على أوهام المصنّفين وخلطهم بين الاستخدام والتّورية.

(٤) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها ص ٧٠، وخزانة الأدب ٥/٢، وأنوار الربيع ٣٠٧/١.

(٥) انظر: تحرير التّجبير ص ٢٧٦.

ومثله قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣]، ﴿الصَّلَاةَ﴾ ههنا يُحتمل أن تكون: (فِعْلُ الصَّلَاةِ، أو موضع الصَّلَاة)؛ لأنه سبحانه قال بعدها: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ فدلَّ على أنه أرادَ فِعْلَ الصَّلَاةِ، ثمَّ اتَّبَعَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ فدلَّ على أنه أرادَ المسجدَ أو موضعَ الصَّلَاةِ^(١). أو كالمثال الذي أورده ابنُ شَيْثٍ القُرَشِيُّ (ت ٦٢٥هـ): «أنا على عهدِكَ الَّذِي تعلَّمُهُ؛ لم أُحْلَ منه عَقْدًا، ولا مكانًا آنَسُ منك فيه فقْدًا»^(٢)؛ فقد استعملَ (أَحْلَ) للمعنيين، كما رأيت.

أَمَّا الخطيبُ القزويني، وشُراحُ تلخيصه، وأصحابُ البديعيات، ومن تَقِيَّاهم؛ فيرون أنَّ الاستخدامَ: الإتيانَ بلفظِ ذي معنيين، ولكن:

- إمَّا أن يُرادَ به أحدهما، ثمَّ يُؤتى بضميرٍ يعودُ عليه مُراداً به المعنى الآخر.

- وإمَّا أن يُعادَ عليه ضميرانِ يُرادُ بثانيتها غيرُ ما أُريدَ بالأوَّل.

الطريقة الأولى: أن يُؤتى بلفظِ ذي معنيين، مُراداً به أحدهما، ثمَّ يُؤتى بضميرٍ يعودُ عليه مُراداً به المعنى الآخر؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ والشَّهْرُ في اللُّغة يُطلَقُ على الهلالِ لشهرته، ويُطلَقُ على أيَّامه المعلومة، وفي الآيةِ الكريمة أُريدَ بلفظه الصَّريح: الهلال، أو بُوتُ رؤيةِ الهلالِ وابتداءُ رمضان، وأُريدَ بالضميرِ العائدِ عليه (فليصمه) أيَّامُ رمضان؛ أي فليصُمْ في أيَّامه المعلومة؛ في أزمانٍ مخصوصةٍ من كلِّ يوم، من الفجرِ إلى غروبِ الشَّمس، لا أن يصومَ الشَّهْرَ كلَّه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^(٣) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [المؤمنون: ١٢-١٣]، فإنَّه أرادَ بالإنسانِ آدمَ، وبالضميرِ العائدِ عليه ولده^(٤).

(١) انظر: الكشاف ٨٣/٢، ومقدمة تفسير ابن النقيب ص ٤٤٦، وشرح الكافية البديعية ص ٢٩٩.

(٢) انظر: معالم الكتابة ص ١١٣.

(٣) انظر: معترك الأقران ١/ ٣٧٦-٣٧٨. وقد سها الشُّيوطي (ت ٩١١هـ) - رحمه الله - إذ نسبَ هذه الطريقةَ للسكاكي (ت ٦٢٦هـ)، وليس في مفتاح العلوم ذكْرٌ للاستخدام.

ومنه أيضاً قول بعضهم: [الوافر]

رَحَلْتُمْ بِالْغَدَاةِ فَبِتُّ شَوْقاً أَسْأَلُ عَنْكُمْ فِي كُلِّ نَادٍ

أُرَاعِي النِّجْمَ فِي سَيْرِي إِلَيْكُمْ وَيَرَعَاهُ مِنَ الْيَدَا جَوَادِي^(١)

وَيَسْعُنَا الْقَوْلُ ههنا: إِنَّ الشَّاعِرَ تَمَكَّنَ بِفِطْنَتِهِ وَسَلَامَةِ طَبِيعِهِ وَحِدَّةِ ذَهْنِهِ أَنْ يَسْتَمِرَّ الطَّاقَةَ الدَّلَالِيَّةَ الْكَامِنَةَ فِي لَفْظِ (النَّجْمِ) عَلَى نَحْوِ مُدْهِشٍ؛ إِذْ أَرَادَ بِهِ قَمَرَ السَّمَاءِ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ ضَمِيرَ (يَرَعَاهُ) وَأَرَادَ بِهِ مَعْنَى آخَرَ (النَّبَاتَ لَا سَاقَ لَهُ)، وَهَذَا التَّفَنُّنُ فِي تَوْجِيهِ الدَّلَالَاتِ يَجْعَلُ الْمُتَلَقِّيَّ يَنْعَمُ فِي لَذَّةِ التَّدْفُقِ الْمَعْرِفِيِّ الْمُتَتَابِعِ، وَيُحِسُّ بِالذَّهْشَةِ وَالتَّعَجُّبِ مِنْ حِيلَةِ الشَّاعِرِ وَدِهَائِهِ اللَّغْوِيِّ.

ومنه قول مُعَوَّدِ الْحُكَمَاءِ: [الوافر]

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ، وَإِنْ كَانُوا غُضَابَا^(٢)

فَقَوْلُهُ: (السَّمَاءُ) ههنا يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ: الْمَطَرُ، وَالنَّبَاتُ؛ فَاسْتَخْدَمَ الْمَعْنَيْنِ بِقَوْلِهِ: (إِذَا نَزَلَ) يَعْنِي الْمَطَرُ، وَبِقَوْلِهِ: (رَعَيْنَاهُ) يَعْنِي النَّبَاتَ (عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ).

وقول آخر: [الطويل]

وَإِنِّي لِلثَّغْرِ الْمَخُوفِ لَكَالِيٍّ نَعَمْ، وَلَهُ مِنْ كُلِّ غِيدَاءٍ رَاشِفُ^(٣)

إِنَّ الْإِسْتِخْدَامَ ههنا أَتَاهُ لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَمِرَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً فِي حَقْلَيْنِ دَلَالِيَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ؛ إِذْ جَمَعَ الْغَزَلَ إِلَى الْحِمَاسَةِ بِغَيْرِ تَكْلُفٍ، فَكَلِمَةُ (الثَّغْرِ) دَلَّتْ عَلَى مَكَانٍ مَخُوفٍ، فِيهِ الضُّبَاعُ وَالسَّبَاعُ وَالْغِيلَانِ وَقُطَاعُ الطُّرُقِ، وَلَا يَعْلَمُ الْمُرءُ مَا يَدْهُمُهُ فِيهِ مِنْ مَخَاطِرٍ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا أَعَادَ عَلَيْهِ الضَّمِيرَ (ولَهُ - أَيِ لِلثَّغْرِ - مِنْ كُلِّ غِيدَاءٍ رَاشِفٍ) أَذْهَلَنَا بِسِحْرِ هَذِهِ الْقَفْزَةِ الْمَفَاجِئَةِ مِنْ فِضَاءِ الْخَوْفِ وَالرَّهَبِ إِلَى خِذْرِ الْحَبِيبَةِ الْغِيدَاءِ، لِيَرُسِّمَ لَنَا صُورَةَ الْفَارِسِ الْعَاشِقِ؛ مُسْتَعِيناً بِهَذَا الْإِيهَامِ؛ لِأَنَّ الْمُتَلَقِّيَّ لَمَّا سَمِعَ (ولَهُ...) ظَنَّ

(١) البيتان بلا نسبة، مثل بهما صاحب المفصل في علوم البلاغة العربية ص ٥٧٧.

(٢) انظر: الحماسة البصرية ١/ ٢٥٢.

(٣) انظر: أنوار الربيع ١/ ٣١٤، والبيت فيه منسوبٌ للعباسي (ت ٩٦٣ هـ) صاحب معاهد التنصيص.

الهَاءَ تَعَوُّدٌ عَلَى الثَّغْرِ بِمَعْنَاهِ الْأَوَّلَ، فَإِذَا هِيَ تَعَوَّدُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ بِمَعْنَى جَدِيدٍ غَيْرِ مَرْتَقِبٍ وَلَا مُسْتَشْرِفٍ، وَهَذَا يُشْعَرُ الْمُتَلَقِّيَ بِبَهْجَةٍ وَجَدَانِ الشَّيْءِ الْجَمِيلِ مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ.

الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنْ يُؤْتَى بِلَفْظٍ ذِي مَعْنَيْنِ يُعَادُ عَلَيْهِ ضَمِيرَانِ يُرَادُ بِثَانِيهِمَا غَيْرُ مَا أُرِيدَ بِالْأَوَّلِ؛ كَقَوْلِكَ دَاعِيَاً لَأَحَدِهِمْ: (أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَكَ، وَكَفَاكَ شَرَّهَا، وَأَجْرَى لَكَ عَذْبَهَا، وَأَكْثَرَ لَدَيْكَ تَبَرَّهَا)^(١) فَقَدْ أَرَدْتَ بِالْعَيْنِ هَهُنَا مَعَانِي أَرْبَعَةَ، فَأَرَدْتَ بِصَرِيحٍ لَفْظِهَا الْعَيْنَ الْبَاصِرَةَ، وَأَرَدْتَ بِالضَّمَائِرِ الْعَائِدَةِ إِلَيْهَا الْحَسَدَ، فَنَبَعَ الْمَاءَ، فَالذَّهَبَ.

ومنه قول البُحْتَرِيِّ: [الكامل]

فَسَقَى الْغَضَا وَالسَّاكِنِيهِ، وَإِنْ هُمْ شَبَّوهُ بَيْنَ جَوَانِحٍ وَقُلُوبٍ^(٢)

فَلَفِظَ (الْغَضَا) يُطْلَقُ عَلَى مَوْضِعٍ بَنَجْدٍ، كَمَا يُطْلَقُ عَلَى شَجَرِ الْغَضَا، وَالسُّقْيَا صَالِحَةٌ لَهُمَا، فَأُشَارَ الْبَحْتَرِيُّ إِلَى الْمَعْنَيْنِ بِالضَّمِيرَيْنِ الْعَائِدَيْنِ عَلَى الْغَضَا فِي (السَّاكِنِيهِ)، وَفِي (شَبَّوهُ)، وَيُحْيَلُ إِلَى أَنَّ لِّلْإِسْتِخْدَامِ هَهُنَا نَكْتَةً لَطِيفَةً؛ هِيَ أَنَّ الشَّاعِرَ بِكَلِمَةِ الْغَضَا هَذِهِ عَبَّرَ عَنْ تَعَلُّقِهِ بِالدِّيَارِ وَمَنْ فِيهَا مِنْ أَحِبَّائِهِ، وَعَبَّرَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ عَنْ عَوَاطِفِهِ الَّتِي تَلْتَهُبُ شَوْقاً وَهَوًى لِمَنْ كَانُوا عِلَّةَ مَعَانَاتِهِ، وَهُمْ يُشْعِلُونَ أَغْصَانِ الْغَضَا... ذَلِكَ الشَّجَرِ الصُّلْبِ الَّذِي جَهْرُهُ يَبْقَى زَمناً طَوِيلاً لَا يَنْطَفِئُ، يُحْرِقُونَهُ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ كَمَا يُحْرِقُونَ بَيْعَدِهِمْ قَلْبَهُ الْمَعْلَقَ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ.

ومِنْ لَطِيفِ الْإِسْتِخْدَامِ بِالْإِعْرَابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: [الخفيف]

اسْمُ مَنْ مَلَّنِي، وَمَنْ صَدَّ عَنِّي وَجْهَانِي مِّنْ غَيْرِ ذَنْبٍ وَجُرْمٍ

وَالَّذِي ضَنَّ بِالْوَصَالِ عَلَيْنَا مِثْلَمَا ضَنَّ بِالْهَوَى قَلْبُ نَعْمٍ^(٣)

فَ(قَلْبُ نَعْمٍ) هَهُنَا إِمَّا خَبَرٌ لِلْمَبْتَدَأِ (اسْمُ مَنْ..)، وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ جَفَا الشَّاعِرَ وَأَضْنَاهُ هُوَ فَوَإِذَا نَعِمَ، وَإِمَّا فَاعِلٌ لِلْفِعْلِ (ضَنَّ بِالْهَوَى)، وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى أَنَّ اسْمَ مَنْ جَفَا الشَّاعِرَ وَأَضْنَاهُ هُوَ

(١) هذه العبارة مُستفادَةٌ مِنْ تَهْذِيبِ الْإِيضَاحِ ١/١١٦.

(٢) انظر: ديوان البُحْتَرِيِّ ١/٢٤٦ وفيه (وَالنَّازِلِيهِ) بَدَلُ (وَالسَّاكِنِيهِ)، وَتَحْرِيرُ التَّحْبِيرِ ص ٢٧٥.

(٣) انظر: الْبَدِيعُ فِي نَقْدِ الشُّعْرِ ص ١٢٨-١٢٩، وفيه الْبَيْتَانِ بِلَا نِسْبَةٍ.

(مَعْنَى)، لِأَنَّهُ قَلْبٌ (نُعْم) أَي عَكْسُهُ. وَهَذَا اسْتِخْدَامٌ مَزْجٌ بِتَوْرِيَّةٍ أَكْسَبَتْهُ طَاقَةُ تَخْيِيلِيَّةٍ لَهَا سُلْطَانُهَا وَتَأْثِيرُهَا فِي تَحْيِيلَةِ الْمُتَلَقِّي.

إِذَا فَالَاسْتِخْدَامُ: وَرُودُ الْكَلِمَةِ مُحْتَمِلَةً الْمَعْنَيْنِ فِي ذَاتِهَا، وَفِي سِيَاقِهَا، وَالْمَعْوَلُ عَلَى النَّظَرِ فِي السِّيَاقِ وَفِي تَتَبُّعِ الْقِرَائِنِ لِمُتَمَيِّزِ كُلِّ مِنَ الْمَعْنَيْنِ أَكْمَلَ تَمْيِيزَ، أَوْ هُوَ عَوْدُ ضَمِيرٍ أَوْ أَكْثَرَ عَلَى كَلِمَةٍ مُرَاداً بِكُلِّ ضَمِيرٍ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا، وَيَبْقَى السِّيَاقُ هُوَ الْفَيْصَلُ.

تَدَاخُلُ الْاسْتِخْدَامِ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ فَنُونِ الْبَدِيعِ:

إِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ الْاسْتِخْدَامَ رَأَيْتَهُ يَتَدَاخَلُ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْفَنُونِ؛ حَتَّى فَيَكَادُ يَلْتَبَسُ بِالتَّوْرِيَّةِ، وَبِالِإِبْهَامِ، وَبِالِاتِّسَاعِ، عِنْدَ الْكَثِيرِينَ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَبْعَثَ ذَلِكَ إِنَّهَا هِيَ إِرَادَةُ مَعْنَيْنِ فِي كُلِّ مَنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ، وَأَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَهَا فَيَتَّضِحُ بِالْآتِي:

- الْفَرْقُ بَيْنَ الْاسْتِخْدَامِ وَالتَّوْرِيَّةِ: أَنَّهُ فِي التَّوْرِيَّةِ يُرَادُ أَحَدُ الْمَعْنَيْنِ (الْبَعِيدَ مِنْهُمَا)، وَفِي الْاسْتِخْدَامِ يُرَادُ كِلَاهُمَا.

- الْفَرْقُ بَيْنَ الْاسْتِخْدَامِ وَالِإِبْهَامِ: أَنَّهُ فِي الْإِبْهَامِ لَا يُشْتَرِطُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ، بَلْ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ فِي الْجُمْلِ، وَلَكِنَّهُ يُشْتَرِطُ فِي الْإِبْهَامِ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنِيَانِ الْمَفْهُومَانِ مِنَ الْكَلَامِ نَفْسِهِ مُتَضَادَّيْنِ كَالْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ مَثَلًا، وَهَذَا غَيْرُ مُشْتَرِطٍ فِي الْاسْتِخْدَامِ.

- الْفَرْقُ بَيْنَ الْاسْتِخْدَامِ وَالِاتِّسَاعِ: أَنَّهُ فِي الْاتِّسَاعِ أَيْضًا لَا يُشْتَرِطُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ، بَلْ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ فِي الْجُمْلِ، وَلَكِنَّ الْفَرْقَ هُوَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْصُرُوا الْاتِّسَاعَ عَلَى طَرِيقَةٍ مَخْصُوصَةٍ، بَيْنَمَا رَسَمُوا لِلْاسْتِخْدَامِ سَبِيلًا وَاضِحًا، كَمَا رَأَيْتَ، أَضِيفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُ فِي الْاتِّسَاعِ تَكُونُ دَلَالَةُ الْكَلَامِ غَيْرَ مُحَدَّدَةٍ؛ لِتَغْيِيبِ الْقِرَائِنِ، وَلَا مُرْجَّحَ لِمَعْنَى عَلَى آخَرَ، أَمَّا الْاسْتِخْدَامُ فَالْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ لَهَا مَعْنِيَانِ مَقْصُودَانِ كِلَاهُمَا، وَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّرْجِيحِ بَيْنَهُمَا.

وَلَعَلَّ الْمُتَوَسِّمَ فِيهَا سَاقَتَهُ مُصَنَّفَاتُ الْبَدِيعِ مِنْ أَمْثَلَةٍ عَلَى الْاسْتِخْدَامِ، وَفِي طَرِيقَةٍ صَوَّغَهَا يَرَى أَنَّهُ نَمَطٌ مُعْتَصَصٌ إِلَّا فِي النَّادِرِ، فِيهِ غُمُوضٌ يُوقِعُ الْمُخَاطَبَ فِي وَهَمٍ وَشَيْءٍ مِنَ اللَّبْسِ وَالِاشْتِبَاهِ؛ وَلَا

سَيِّمًا إِنْ تَحَيَّرَ الشَّاعِرُ مِنَ الْمَشْتَرَكِ أَحَدَ مَعَانِيهِ الْمَهْجُورَةِ أَوْ الْمَتْرُوكَةِ، فَيُضْطَرُّ السَّامِعُ إِلَى التَّنْقِيبِ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ وَغَرِيبِهَا، وَتَضِيعِ عَلَيْهِ حِينئِذٍ نَشْوَةَ التَّتَابُعِ الْمَعْرِفِيِّ.

تحليل الذَّهن للإيهام في فنِّ الاستخدام:

ولو شِئْنَا أَنْ نَتَبَيَّنَ كَيْفَ يَصْنَعُ ذِهْنُ الْمُتَلَقِّي حِينَ عُبُورِ الْإِسْتِخْدَامِ فِي الْكَلَامِ، وَمَثَلْنَا بِقَوْلِ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ عَلَى طَرِيقَةِ الْقَزْوِينِيِّ: [البسيط]

وَلِلْغَزَالَةِ شَيْءٍ مِنْ تَلَفُّتِهِ وَنُورِهَا مِنْ ضِيَاءِ خَدْيِهِ مُكْتَسَبٌ^(١)

لَرَأَيْنَا أَنَّ ذِهْنَ الْمُتَلَقِّي عَقَلَ مَعْنَى الْغَزَالَةِ وَهِيَ الظَّيْفَةُ الْمَعْرُوفَةُ، وَقَدْ صَحِبَهَا مَا يُنَاسِبُ هَذَا الْمَعْنَى وَهُوَ (التَّلَفُّتُ)، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهَا ضَمِيرًا فِي (نُورِهَا)؛ فَأُضْحَى مَعْنَى الشَّطْرِ الثَّانِي «نُورُ الظَّيْفَةِ يُكْتَسَبُ مِنْ ضِيَاءِ خَدْيِ الْحَبِيبِ» وَهَذَا غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ؛ إِذِ الْغَزَالَةُ لَيْسَتْ مُنِيرَةً، فَحِينئِذٍ يَعْدِلُ ذِهْنُ الْمُتَلَقِّي عَنْ هَذَا، وَيُؤَوِّبُ إِلَى ثَرَوَتِهِ الْمَعْجَمِيَّةِ التَّرَاكُمِيَّةِ مُنْقَبًا عَنْ مَعْنَى آخَرَ تَحْتَمِلُهُ الْغَزَالَةُ؛ لِيَتَبَيَّنَ الْمَقْصُودُ، فَيَبْدَأُ بِاخْتِبَارِ الْمَعَانِي الَّتِي يَخْتَرِئُهَا لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ؛ بَوْضُوحِ كُلِّ مِنْهَا فِي السِّيَاقِ لِيَتَحَقَّقَ مِنْ إِمْكَانِيَّةِ مِلَاقَتِهِ؛ فَلَوْ أَلْفَى الذَّهْنُ مَعْنَى آخَرَ لِلْغَزَالَةِ كَالشَّمْسِ مَثَلًا، وَوَضَعَهُ فِي سِيَاقِهِ لَصَارَ الْمَعْنَى (نُورُ الشَّمْسِ يُكْتَسَبُ مِنْ ضِيَاءِ خَدْيِ الْحَبِيبِ) عِنْدَهَا يَطْمِئِنُّ الْمُتَلَقِّي لِسَلَامَةِ الْمَعْنَى وَاسْتِقَامَتِهِ، وَتَغْمُرُهُ لَذَّةُ الْاِكْتِشَافِ الذَّهْنِيِّ، وَلَوْ لَمْ يَسْتَقِمْ عِنْدَهُ الْمَعْنَى لَاسْتَأْنَفَ التَّنْقِيبَ عَنْ مَعَانٍ أُخَرَ فِي قَامُوسِهِ الذَّهْنِيِّ، وَلَتَابَعَ اخْتِبَارَهَا ضِمْنَ سِيَاقِهَا. وَلَا يَخْفَى مَا لِلْمَبَالِغَةِ الَّتِي أَضْفَاها التَّشْبِيهُ الْمَقْلُوبُ مِنْ أَثَرِ جَمَالِيٍّ مَتَعٍ.

وَكَذَا عَلَى طَرِيقَةِ ابْنِ النَّازِمِ (ت ٦٨٦ هـ) تَمَرُّ الْكَلِمَةُ فِيهَا حَمَالَةً أَوْجِهَ بِمَعْنَى مَفْهُومٍ فِي مَوْقِعِهَا، ثُمَّ لَا تَلَبُّثُ أَنْ تَرِدَ كَلِمَةً بَعْدَهَا تَكْسُوهَا مَعْنَى آخَرَ لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِفْسَاحٍ فِي الْمَجَالِ أَمَامَ الْمُتَلَقِّي لِيُسَهِّمَ فِي بِنَاءِ النَّصِّ، وَلِيَزِيدَ مِنْ تَفَاعُلِهِ مَعَهُ حِينَ يَمْلَأُ فَرَاقَاتَ هَذَا النَّصِّ، مُشَارِكًا فِي الْعَمَلِيَّةِ الْإِبْدَاعِيَّةِ.



(١) انظر: شرح عقود الجمان ص ١١٦، وأنوار الربيع ١/ ٣١٤، والبيت فيها بلا نسبة.

التَّوْجِيه

التَّوْجِيهُ مصدرٌ وَجَّهَ إلى كذا توجيهاً، كما تقول: وَجَّهْتُ وجهي لله سبحانه، وكذا مُصْطَلَحُ التَّوْجِيهِ البلاغي؛ فإنه توجيهُ للذهن لمعنى من معاني الكلمة، أو توجيهُ لدلالات اللفظ الواحد، لذا فإنك ترى السَّكَاكِيَّ (ت ٦٢٦هـ) والقزوينيَّ (ت ٧٣٩هـ) وشُرَّاحَ تلخيصه قد أطلقوا مُصْطَلَحَ (التَّوْجِيهِ) وأرادوا به الكلام الذي يُفهم على وجهين مُتضادَّين؛ كالمَدح والذَّم من غير قرينة تُرَجِّحُ أحدهما، وهو ما يُعرفُ بالإبهام أو مُحْتَمِلِ الضَّدين.

وأما المتأخرون كابن حِجَّة (ت ٨٣٧هـ) والمديني (ت ١١٢٠هـ) فقد أطلقوا التَّوْجِيهَ وأرادوا به أن يُوجَّهَ المتكلمُ مفرداتٍ بعضِ الكلامِ أو كُلَّهُ إلى أسماءٍ متلائمةٍ من أسماءِ الأعلام، أو قواعدِ العلوم والفنون... توجيهاً مُطابقاً لمعنى اللفظِ الثاني، والتَّوْجِيهُ الذي يعيننا ههنا هو على مذهب المتأخرين، أمَّا مُصْطَلَحُ التَّوْجِيهِ على مذهب القدماء فهو ما أوردناه في الإبهام.

وقد يشتبه أمرُه بالتَّورية، والفرقُ بينهما من وجهين: أحدهما: أن التَّورية تكونُ باللفظةِ المشتركةِ [المشترك اللفظي]، والتَّوجيهُ يكونُ باللفظِ المُصْطَلَحِ عليه، وثانيهما: أن التَّورية تكونُ باللفظةِ الواحدة، والتَّوجيهُ لا يَصِحُّ إلاَّ بِعِدَّةِ ألفاظٍ متلائمةٍ^(١).

وقد تبدَّت براعةُ نزار قبَّاني (ت ١٩٩٨م) حينَ أتت جملةً رائعةً من ألوانِ التَّوجيهِ في قصيدته (ترصيعُ بالذهب على سيفِ دمشق)، تراها أته بغير تكلفٍ، ولعلَّه حينَ نظمَ القصيدة لم يتفطنَ لهذه التَّوجيهات؛ لأنها لا يبدو عليها أيُّ أثرٍ للكلفة أو اعتصار الفكر، على نحو ما نرى عند معظم الشعراء الذين يُمثِّلُ البلاغيون بأشعارهم، ومن توجيهِه بقواعد النُّحو قولُه: [الخفيف]

قَادِمٌ مِنْ مَدَائِنِ الرِّيحِ وَخَدِي فَاحْتَضِنَنِي كَالطُّفْلِ يَأْقَاسِيُونُ

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٤٣١، وشرح الكافية البديعية ص ١٢٢، وخزانة الأدب ٣٥٣/٢. والتَّورية والتَّوجيه شيءٌ واحد عند بعضهم.

احْتَضِنِّي خَمْسِينَ أَلْفًا وَأَلْفًا فَمَعَ الضَّمُّ لَا يَجُوزُ السُّكُونُ

كم هو جميل أن يعبرَ الشاعرُ عن شوقه للشَّامِ وأهلِها، وأن يطلبَ من قاسيونَ أن يستعيدَ معه ذكرياته الجميلة، وأن يضمَّه ويحتضنه، ولكنَّ الأكثرَ إمتاعاً أن يقرأَ نحويُّ هذا البيتَ مُهتدياً إلى المعنى العميق المختبئ وراءَ معناه الظاهر، فالظاهرُ أنَّه مع الاحتضان والضَّم لا بُدَّ من التَّقبيل؛ والتَّوجيهُ أنَّه مع الضَّمَّة التي هي علامةُ الرَّفع لا يجوزُ السُّكُون الذي هو علامةُ الجزم! ولو قرأَ هذا البيتَ نحويٌّ لَسُرَّ بالضَّمَّة والسُّكُون، ونسيَ الضَّمَّ وأهله.

لا ريبَ في أنَّ هذا يُدهشُ المتلقِّي، ويُشعرُه بلذَّة الاكتشاف، ولا سيَّما أنَّ الشاعرَ في فنِّ التَّوجيه قد يجمعُ بينَ الأشياءِ المتباعدة في الواقع، فأين علمُ النَّحو من تقبيل الحبيب! يَشيبُ الغرابُ، وهذان لا يلتقيان؛ ومبعثُ المتعة ههنا أنَّ النَّفسَ الإنسانيَّة بطبعها تُحبُّ أن ترى المتباعدات في الحياة مُتجاورةً في رحابِ اللُّغة، ولعلَّ اجتماعَ المتباعدات على هذا النَّحو والانتقالَ الدَّهنيَّ السَّريع فيما بينها هو الأقدَرُ على تنشيطِ الفعاليَّة الإدراكيَّة لدى المتلقِّي، إلى ما تركُّه في نفسه من مظاهر الدَّهشة والتَّعجُّب والاستغراب.

ومن التَّوجيه بأسماءِ العلوم قولُ نزار في القصيدة نفسها عن السَّنوات السَّبع التي أعقبت نكسة حزيران:

سَنَوَاتٌ سَبْعٌ بِهَا اغْتَالْنَا الْيَأْ سُ، وَعِلْمُ الْكَلَامِ، وَالْيَانِسُونُ

ومن التَّوجيه بالعروض قولُه في القصيدة نفسها مُحاطباً دمشق:

سَامِحِينِي إِذَا اضْطَرَبْتُ فَإِنِّي لَا مُقَفِّئِي حُبِّي وَلَا مَوَزُونُ

ومن التَّوجيه بأسماءِ الأعلام قولُه في القصيدة نفسها:

شَامُ يَا شَامُ يَا أَمِيرَةَ حُبِّي كَيْفَ يَنْسَى غَرَامَهُ الْمَجْنُونُ

ومن التَّوجيه بأسماءِ الكُتُب قولُه في القصيدة نفسها:

عَلَّمِنَا فِقْهَ الْعُرُوبَةِ يَا شَا مٌ؛ فَأَنْتَ الْبَيَانُ وَالْتَّيِينُ^(١)

ومن التَّوْجِيهِ بقواعد النَّحْوِ أيضاً قولُ الشَّابِّ الظَّرِيفِ: [مُخَلِّعُ الْبَسِيطِ]

يَا سَاكِنًا قَلْبِي الْمُعْنَى وليس فيه سِوَاكَ ثَانِي

لَأَيِّ شَيْءٍ كَسَّرْتَ قَلْبِي وَمَا التَّقَى فِيهِ سَاكِنَانِ!^(٢)

ومثله في النَّحْوِ أيضاً قولُ أَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتِي: [الطَّوِيلِ]

عَزَلْتُ، وَلَمْ أَذْنِبْ وَلَمْ أَكُ جَانِيًا وهذا لإنصافِ الوزيرِ خِلَافُ

مُحَذِّفْتُ، وَغَيْرِي مُثَبَّتٌ فِي مَكَانِهِ كَأَنِّي نَوْنُ الْجَمْعِ حِينَ يُضَافُ^(٣)

ومثله قولُ الشَّوَاءِ يَصِفُ حَالَهُ مَعَ الْحَبِيبِ مِنَ الْوِصَالِ مَاضِيًا وَالْبُعْدِ حَاضِرًا: [الْوَافِرِ]

وَكُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ فِي الثَّمَامِ عَلَى رَغَمِ الْحَسُودِ بِغَيْرِ آفَةٍ

فَقَدْ أَصْبَحْتُ تَوْنِيًا، وَأَضْحَى حَيِّي لَا تُفَارِقُهُ الْإِضَافَةُ^(٤)

جَمَالِيَّةُ التَّوْجِيهِ:

بالإمكانِ القولُ: إِنَّ التَّوْجِيهَ بما فيه من إيهامٍ للمتلقي يُفَسِّحُ الْمَجَالَ لِلتَّفْسِيرَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ، وَيَعَكِّسُ ثِقَافَةَ الْمُتَكَلِّمِ وَيُخَبِّرُ فِطْنَةَ الْمُتَلَقِّي، وَيُشْرِكُهُ فِي الْعَمَلِيَّةِ الْإِبْدَاعِيَّةِ؛ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْكَلَامَ لَيْسَ لَهُ وَجْهٌ وَاحِدٌ يَطْمُنُّ إِلَيْهِ السَّامِعُ ابْتِدَاءً، بَلْ لَا بُدَّ لِهَذَا الْمُتَلَقِّي مِنْ نَشَاطٍ إِدْرَاكِيٍّ فَعَّالٍ يُفَضِّلُ بِهِ إِلَى الْمَعْنَى الصَّحِيحِ، وَعِنْدَهَا يَنْعَمُ الْمُتَلَقِّي بِلَذَّةِ التَّعَرُّفِ الْمُتَتَابِعِ، وَفِي هَذَا الْأَسْلُوبِ طَرَاةٌ لَا تَخْفَى؛ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمُتَكَلِّمَ يَسْتَخْدِمُ الْمُصْطَلَحَ فِي غَيْرِ بَابِهِ، فَيَنْدِهْشُ الْقَارِئُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَسْمَعَ مُصْطَلَحًا نَحْوِيًّا

(١) انظر: الأعمال الشعرية الكاملة لنزار قباني ٣/ ٤٢٩-٤٤٤. والقصيدة بتمامها في هذه الصفحات.

(٢) انظر: معاهد التنصيص ٣/ ١٤٦، وخزانة الأدب ٢/ ٣٦٦.

(٣) انظر: معاهد التنصيص ٣/ ١٤٥.

(٤) انظر: معاهد التنصيص ٣/ ١٤٩. وقصد به (خمس عشرة) هذه اللفظ المبني على فتح الجزأين، والذي يقول فيه النحاة: إِنَّهُ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ.

مثلاً وهو مُستغرقٌ في قصيدةٍ غزليّةٍ؛ وممّا يزيدُ هذا الأسلوبَ طرافةً أن يكونَ بيتُ الشعرِ الموجهُ متداولاً بينَ أبناءِ الحِرْفةِ الواحدة، أو التَّخصُّصِ العلمي الواحد، وقد أشارَ إلى شيءٍ من هذا القبيل د. زكريّا إبراهيم بقوله: «إنَّ الأشخاصَ الذين يتذوّقون فُكاهاتٍ مُشتركةً ينتمون في الغالبِ إلى وسطِ اجتماعيّ مُشتركٍ»^(١)، وهذا كما نقولُ في أيّامنا عن بعض الدُّعابات المُضحكة التي تحوي مُصطلحاً علميّاً: (نُكتةٌ مُثَقِّفين).



(١) انظر: سيكولوجيّة الفكاهة والضحك ص ٧٦.

الإلغاز

أَلْغَزَ الكلامَ وأَلْغَزَ فيه إذا عَمَى مُرَادَهُ وَأَضْمَرَ على خلاف ما أظهره، هكذا جاء في كُتُب اللُّغَةِ^(١)، واللُّغْزُ هو الكلامُ الملبَّسُ الخفيُّ المشتبهُ عن قصدٍ، ويُسمَّى أيضاً بالأُحْجِيَّةِ والمُعَمَّى كما يُفهم من كتب البلاغة^(٢) التي اصطَلَحَتْ على أَنَّ اللُّغْزَ: هو أنْ يَأْتِيَ المتكَلِّمُ بكلامٍ يُعَمِّي به المقصودَ؛ فيجيءُ بعباراتٍ يدلُّ ظاهرها على غير المقصودِ، وباطنها عليه^(٣)، بحيثُ يخفى على السَّامعِ، فلا يدركه إلا بفضلٍ تأمُّلٍ ومزيدِ نظرٍ.

والألغازُ فنُّ طريفٌ من فنون القولِ أتى على لسان الرسول العربيِّ ﷺ؛ إذ قال لأصحابه: «أخبروني بشجرةٍ مثلها مثلُ المسلم. قال ابنُ عُمَرَ (ت ٧٣هـ): فوقَ النَّاسِ في شجرِ البوادي، ووقعَ في قلبي أنَّها النَّخْلَةُ. فقال رسولُ الله ﷺ: هي النَّخْلَةُ»^(٤).

وقد أتى على الأدبِ زمنٌ لقيت فيه الألغازُ رضا النَّاسِ، فأدلى الأدباءُ والعلماءُ فيها دلوهم في رسائلهم وفي مجالسهم، وفُتِنَ بها بعضُ مشايخِ التدريسِ لإظهار البراعةِ في عمقِ التفكيرِ ودِقَّةِ العبارةِ، حتَّى صُنِفَتْ فيها المصنَّفاتُ في الفنونِ المختلفةِ، فرأينا من الألغازِ ضروباً لا تكادُ تُحصى؛ فرأينا الألغازَ النَّحْوِيَّةَ، واللُّغَوِيَّةَ، والعَرُوضِيَّةَ، والفِقْهِيَّةَ، والصُّوفِيَّةَ، وألغازَ الرَّسْمِ، والحِسابِ، والفَلَكِ، وأسماءِ الأعلام...^(٥)، ولم يدعوا شيئاً يخطرُ على البالِ إلا ألغزوا فيه؛ فألغزوا في الرُّمَحِ، وقَصَبِ السُّكَّرِ، والقُنْفُذِ، والخِيمَةِ، والقطايفِ،... إلخ.

(١) انظر: لسان العرب (لغز).

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ١٨٠.

(٣) انظر: أنوار الربيع ٤٠ / ٦.

(٤) انظر: شرح عقود الجمان ص ١٣٨.

(٥) من كتب الألغاز: (الألغاز النَّحْوِيَّة)، لابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، تحقيق موفق فوزي الجبَر، دار الكتاب العربي بدمشق، ط ١، ١٩٩٧ م. و(تسهيل المجاز إلى فنِّ المُعَمَّى والألغاز، لشرف الدين علي يزدي، (طُبِعَ بمطبعة ولاية سورية ١٣٠٣هـ)، و(الأحاجي والألغاز الأدبية) لعبد الحَيِّ كمال، من مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط ٢، ١٤٠١هـ.

ولعلَّ جوهر اللُّغزِ أو فلسفته تقومُ على أنْ تذكرَ شيئاً بصفاتٍ يشارِكُه فيها غيرُه، فيرجع الدَّهنُ في ذلك إلى حيرةٍ لا يدري مَصْرِفَها إلى أيِّ مُتَّصِفٍ منهما بتلك الصِّفات؛ لكونها تصدُق من جهةٍ وتكذبُ من أخرى، وههنا يكمن إيهامُ المتلقِّي في الإلغاز.

ويبدو لي أن هذا الفنَّ قوامه الفهمُ وحُسْنُ التَّأَيُّ والفطنةُ من المتكلِّم والمستمعِ جميعاً، ولكنك بعد أن تقرأ شيئاً من هذه الأعدادِ اللَّامتناهيةِ من الألغاز تتنبَّه إلى أمرين أراهما مُهمَّين:

أولُّهما: ألا يُبالَغ في التَّعمية على المخاطَب.

وثانيهما: أنَّه يُستحسن أن يكونَ لِلُّغزِ في نفسه معنى وراءَ المعنى المقصودِ بالتَّعمية؛ بحيثُ يقبله الطَّبعُ السَّليم؛ لأنَّك قد تُصادِفُ من الألغاز ما لا مُدخلَ له في أدبٍ ولا بلاغةٍ ولا حُسْنِ قولٍ، وكأنَّه مقدودٌ من الصَّخرِ ألقى في وجهِ سامعه.

ومن الألغاز اللطيفة قول كمال الدين الدِّميرِي (ت ٨٠٨هـ) صاحب كتاب حياة الحيوان الكبرى في (البَّجع): [بجزء الرِّجز]

مَاطِائِرٌ فِي قَلْبِهِ يَلُوحُ لِلنَّاسِ عَجَبُ

مِنْقَارُهُ كِبَطْنُهُ وَالْعَيْنُ مِنْهُ فِي السَّدَنِّ؟^(١)

ومن ذلك أيضاً أن يحيى بن أكتم ألقى على المتوكِّل قوله: [الوافر]

وَبَاسِطَةٌ بَلَا نَصَبٍ جَنَاحاً وَتَسْبِقُ مَا يَطِيرُ، وَلَا تَطِيرُ

إِذَا أَلْقَمْتَهَا الْحَجَرَ اطمَأْنَنْتَ وَتَجَزَعُ أَنْ يُبَاشِرَهَا الْحَرِيرُ^(٢)

فتأمَّل المتوكِّل، وقال: هي العين. (ولعلَّه أرادَ بالشَّطر الأوَّل من البيت الثاني الإشارةَ إلى العين الحاسدة التي تفلق الصَّخر).

(١) انظر: خزانة الأدب ١٧٣/٤.

(٢) انظر: أنوار الربيع ٤٠/٦-٤١.

وثمة ضربٌ من الألغازِ الإعرابيةِ يكونُ ترتيبُ الكلامِ فيها مُحالفاً لقواعدِ العربيةِ بحسبِ الظاهر؛ وهذه الأبياتُ أمثلةٌ على ذلك:

يُخَوِّفُنِي عَمْرًا، وَإِنِّي لَخَائِفًا عليه إذا ما استسمنتُهُ المواقِفَا^(١)
أَقُولُ لِعَبْدِ اللَّهِ يَا زَيْدُ إِنَّهُ سيأتِيكَ عَبْدُ اللَّهِ يَا زَيْدُ فَاصْبِرَا^(٢)
هَذَا سَلِيحَانِ أَبِي جَعْفَرُ فقال: بِشَرِّ أَسْرٍ حَسَنُ هَذَا^(٣)

ولنحاول ههنا حلَّ هذه الألغازِ وتوجيهها التَّوجِيهِ الصَّحِيحَ الَّذِي يُوَكِّدُ أَنَّهَا لم تخرجُ عن قواعدِ العربيةِ، وإنَّ كانَ ظاهرُها يُوهِمُ ذلكَ، ولنبدأ بقوله: [الطويل]

يُخَوِّفُنِي عَمْرًا، وَإِنِّي لَخَائِفًا عليه إذا ما استسمنتُهُ المواقِفَا^(٤)

إنَّه ليعتريك الوهمُ إذ تسمعُ قوله هذا، فإنَّ المتكلِّمَ نسجَ كلامَه على نحوٍ أرادَ له أن يُفْضِي بك إلى الوهم، وأنت إذ تسمعُ هذا البيتَ سُرْعانَ ما يقفزُ إلى تفكيرِكَ وهمٌ بأنَّ هذا البناءَ اللَّغَوِيَّ غَيْرُ جَارٍ على ما عرفته العربُ من قواعدِ النَّحوِ، وتظنُّ أنَّ فيه لَحْنًا، وأنَّ صوابه:

يُخَوِّفُنِي عَمْرُو، وَإِنِّي لَخَائِفٌ عليه إذا ما استسمنتُهُ المواقِفُ

وهكذا، فقد وقعَ لك الوهمُ - كما أرادَ المتكلِّمُ - في ثلاثة مواضعَ، هي: (عَمْرًا، ولَخَائِفًا، والمواقِفَا) وبيانُ كُلِّ منها كالآتي:

- عَمْرًا: مفعول به ثانٍ للفعل (يُخَوِّفُنِي)، وفاعلٌ يُخَوِّفُنِي ضميرٌ مستترٌ يعود على مذكورٍ سابق.
- وَإِنِّي لَخَائِفًا: رسمٌ كتابيٌّ مُوهِمٌ ياتلفُ من (وإنَّ نَيْلَ خائِفًا)، وقد أدَّتْ أسبابٌ عدَّةٌ إلى هذا اللَّبسِ وهذه التَّعميةُ المقصودةُ، كتغيبِ السَّكَّاتِ أو ما يُدعى بالمفاصلِ الصَّوتيةِ؛ إذ لا بُدَّ - عند

(١) انظر: الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب ص ٦٠.

(٢) انظر: الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب ص ٣٩.

(٣) انظر: الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب ص ٣٩.

(٤) انظر: الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب ص ٦٠. استسمنتُهُ: رفعته وجعلته كالسَّنام.

إرادة إيضاح المعنى - من سكتين قصيرتين عند قوله: (وإن * نيل * خائفاً)، فلا (إن) حرف شرطٍ جازمٌ، و(نيل) فعلٌ مبنيٌ لِمَا لم يُسمَّ فاعله، ونائبُ فاعله: ضميرٌ مستترٌ تقديره: هو، يعودُ على عمرو. ولكنَّ هذا المُلغزَ بالغَ حينَ اصطنعَ هذه التعمية الصوتية، ومزجها بتعمية كتابية؛ إذ رسمَ (وإن نيل) موصولةً (وإني ك...).

- **المواقفا:** فإنه يسبقُ إلى ذهنِ السامع أنها مرتبطة بالعامل قبلها، وأنها فاعلٌ للفعل (استسنمته)، ولكنَّ علامة النَّصب تدخضُ هذا الوهمَ، لتكونَ (المواقفا) مفعولاً به لاسم الفاعل (خائفاً)، والمعنى: يُخَوِّفُنِي فلانٌ عمراً، وإن نيلَ عمرو خائفاً على نفسه المواقفَ إذا رفعته.

أمَّا قوله: [الطويل]

أقولُ لعبدِ اللهِ يا زيدُ إنَّه سيأتيك عبدُ اللهِ يا زيدُ فاصبراً^(١)
فقد تنوَّهتُ أن في البيتِ خللاً ما، وأنَّ صوابه:

أقولُ لعبدِ الله: يا زيدُ إنَّه سيأتيك عبدُ اللهِ يا زيدُ فاصبر

إذا فالحلُّ واقعٌ في ثلاث كلمات: (لعبد، وعبد، فاصبر)، وبيان توجيهها كالآتي:

- **لعبد الله:** اللام ههنا فعلٌ أمرٌ من (ولي - يلي)، وهذا معروف؛ ومثله (وقى، بقي، قى)، (وفى، يفي، ف)، (وعى، يعي، ع)، (ولي، يلي، ل)، ... والمعنى أنه يأمرُ زيداً بتولية عبد الله؛ (أقول: ل عبد الله يا زيد)، وها أنت ترى أنَّ الاتصالَ الكتابي للفعل (ل) بمفعوله (عبد الله)، مع تغييب المفعول الصوتي (أقول: ل * عبد الله) أدَّى إلى تعمية مُحكمة.

- **عبد الله الثانية:** يجوز فيها ثلاثة أوجه، أمَّا الرَّفْعُ فظاهرٌ أنه على الفاعلية، وأمَّا النَّصبُ الظَّاهريُّ فعلى إرادة التَّشْنية؛ فكأنه قال: (سيأتيك عبد الله..) ولكنه قصَّر الصَّائتَ الطويلَ (ألف التَّشْنية) وهذا ليس بنصبٍ، وإنما هو رفعٌ؛ لأنه مثني، لكنَّ الشَّاعِرَ أوهمَ أنه منصوبٌ؛ متوسلاً بهذا العارضِ الصوتي، وأمَّا الجرُّ فعلى جعلِ الكاف في آخرِ الفعل (سيأتي) كافَ تشبيهٍ، وهنا تبرزُ أهمية

(١) انظر: الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب ص ٣٩.

المفصل الصوتي في إزالة الإيهام مرةً أخرى (سيأتي * كعبد الله)، ولا ريب في أن عوامل متنوعة اجتمعت في هذا البيت حتى أفضت إلى هذه التعمية، ومن تلك العوامل تغييب المفصل الصوتي (الوقف)، وتغييب التنغيم وهذا أمر غاية في الأهمية، فأنت حين تقصد باللام حرف الجر تنطق باللام (لعبد الله) بنغمة تختلف عما إذا أردت بها فعل الأمر (لـ * عبد الله)، وأفاد الشاعر ههنا من العارض الصوتي حين أوهمنا بأن (عبد) منصوب؛ حين قصّر الصائت الطويل (عبدًا)، ولا نُغفل أيضاً أثر تدخّل حدود الكلمات والتعمية الكتابية في تخلّق هذا الوهم وهذه الضبابية في ذهن المتلقي. وقول بعضهم: [السريع]

هذا سليمان أبي جعفر فقال: بشراً حسنٌ هذا^(١)

ففي أول وهلة تتوهم أنه أخطأ، وأن الصواب:

هذا سليمان أبو جعفر فقال بشراً حسنٌ هذا؟

ولكن هذا التركيب المتوهم - على سلامته - لا ينفي صواب الصورة التي أتى بها الملمّز، ولك أن تحلّل بنية البيت كما يأتي:

- هذا: (هاذي) فعلٌ ماضٍ دالٌّ على المشاركة، ومضارعُه (يُهاذي)، وها أنت تلحظ التماثل الصوتي بين الكلمتين، ولعلّ لقلّة شيوع استعمال الفعل (هاذي) وكثرة استعمال اسم الإشارة (هذا) أثراً في نزوع الخاطر إلى توهم أن المقصود منه اسم الإشارة، وأنت تلحظ ههنا أيضاً أثر الرّسم الكتابي - إذ لم يرسمها بالألف المقصورة - في تقوية الوهم الناتج من التماثل الصوتي.
- سليمان: مفعول به مُقدّم للفعل الماضي (هاذي).
- أبي: وكان المتوقع أن يُقال: (أبو)، ولكن الملاحظ ههنا أن الياء ليست علامة إعرابية؛ كقولنا: (سلمت على أبي جعفر)، بل هي ضمير؛ ياء المتكلم، وإعراب (أبي) ههنا: فاعلٌ مرفوعٌ.
- جعفر: بدلٌ من أبي، أو عطف بيان.

(١) انظر: الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب ص ٣٩.

- فقال: بِشْرًا حَسَنٌ هذا: فاعلٌ (قال) ضميرٌ مستترٌ يعودُ على سُلَيْمانَ، و (هذا) ههنا من المهاداة أيضاً، فـ(حَسَنٌ) مبتدأ، و(هاذى هو بشراً) خبره، وتقديرُ الكلام: (فقال سليمانُ: حَسَنٌ هاذى بِشْرًا). ولكنَّ المُلغَزَ أَفَادَ من مرونة الجملة العربية وما تُبيحُه من تقديم وتأخير، كما أَفَادَ من التَّشابهِ الصَّوتي بين اسمِ العَلَمِ (حَسَن) والصفة المشبهة (حَسَن)، وأفاد كما قبلُ من التَّمَثُّلِ الصَّوتي بين (هذا) اسمِ الإشارة، و(هاذى) الفعل الماضي.

ونتابعُ ما نحنُ فيه قائلين: لقد كَثُرَتِ الأَلْغَازُ، كما سلفَ، وَتَنَوَّعَتِ تَنَوُّعَ ألوانِ الحياةِ وفنونِها، وقد فُتِنَ طلبةُ العلمِ زمنًا بالألغاز النحويَّة التي تُبرِّزُ الطالبَ الفطنَ، وتُميِّزُه من أقرانه، كما رأيتَ، ومن الأَلْغَازِ النُّحويَّة المشهورةِ إلى يومنا قوله: [الخفيف]

إِنَّ هِنْدُ الْمَلِيحَةُ الْحَسَنَاءُ وَأَيُّ مَنْ أَضْمَرَتْ لِحْلٌ وَفَاءٌ^(١)

روايةُ هذا البيت على رَفْعِ (هندُ) و(المليحةُ)، ونَصْبِ (الحسنة)، وهذا أمرٌ مُعْجَبٌ حقًّا، كيف رَفَعَ اسمَ إنَّ وصفته الأولى؟

والجوابُ أن:

- الهمزة: فعلٌ أمرٌ، والنَّوْنُ للتوكيد، لأنَّ (وَأَيُّ) بمعنى وَعَدَ مضارعُه (يَئِي) كما في (وفي - يَئِي)، والأمرُ منه (إِهْ) بحذفِ الواو؛ لوقوعِها بينَ ياءٍ مفتوحة وكسرة، وبحذفِ لامِهِ للأمر، وبإلِفاءٍ لِلسَّكَنِ... والأصلُ (إَيْنَ) بهمزة مكسورة، وياء ساكنة للمخاطبة، ونونٍ مشددة للتوكيد، ثُمَّ حُذِفَتِ الياءُ لِأَنَّها ساكنةٌ والتقتُ مع النُّونِ المشددة، فكان لا بُدَّ من حذفِها.
- هندُ: منادى بأداةِ نداءٍ محذوفة.
- المليحةُ: نعت على الموضع لا على المحل.
- الحسناء: إمَّا نعتٌ لهندٍ تبعَ المحلَّ، وإمَّا بتقديرٍ أمدحُ.

(١) بلا نسبة في الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب ص ١٦، ومُغْنِي اللَّيْب ٢٧/١.

- وأي: مفعول مطلقٌ مُبينٌ لنوع الفعل، والتقدير: (وأيًا مثل وأي من أضمرت...)، فحذف (وأيًا) ثم (مثل) فأُنِيبَتْ (وأي) منابه^(١).

وسائل الإلغاز:

ولو تأملنا في هذه الأبيات ومثيلاتها، وحاولنا بيان ما يتوسَّلُ به المُلغِزُ من عوامل تُفضي إلى بناء نسيج لغويٍّ مُحكَّم التَّعمية؛ لَقُلْنَا: إِنَّ اللَّبَسَ الصَّوْقِيَّ كَتَغْيِيبِ بَعْضِ الظُّوَاهِرِ الصَّوْتِيَّةِ، كالتَّغْيِيمِ الذي ينقل معنى العبارة الواحدة بين الاستفهام والتعجب والإخبار...، أو المفصِّلِ الصَّوْقِيَّ (السَّكْتَةُ أو الوقف)، أو تقصير الحركة الطويلة أو العكس، أو ترخيم المنادى، أو تسهيل الهمز... لهو مما يستفيد منه المُلغِزُ، وكذا يستفيد المُلغِزُ من مرونة العلاقات المتشابكة ضمن الجملة العربية؛ من تقديم وتأخير، وحذف لحرفٍ نداء، أو عائد...، وكثيراً ما يستعين المُلغِزُ بالثروة المعجمية وأخصُّ المشترك اللَّفْظِيَّ، وقد يلجأ إلى الضَّرورات الشَّعرية، وما أكثر ما يجنح المُلغِزون إلى التَّعْقِيدِ اللَّفْظِيِّ الذي يذمه أهل الفصاحة، وأيضاً لا نملك أن نتغافل عن أثر التَّعمية الكتابية الخارجة عمَّا تُعَوِّف على صوابه، وذلك أنَّ بعض هذه الألغاز تقوم على تداخل حدود الكلمات وتداخل رسومها، ولا ننسى أنَّ هذه الألغاز تأتي مُنبَتَّة الصَّلَة بسياق الحال، وهو عادةً ما يُوجِّه المعنى ويُحدِّده، وهذا سبيلٌ يتَّبَعُهُ أهل الألغاز إغالاتاً في الإيهام والتَّعمية.

من طرائف الإلغاز:

ومن طرائف الألغاز التي كانت تدور في المجالس، أو يتبادلها الأدباء فيما بينهم، على طريق التَّسلية أو المنافسة؛ قول بعضهم مُلغِزاً في (الشَّمع): [المنسرح]

تَحِيَا إِذَا مَا رُؤُوسُهَا قُطِعَتْ وَهَنَّ فِي اللَّيْلِ أَنْجَمٌ زُهِرُ^(٢)

وقول بعضهم مُلغِزاً في (ضِرْس): [البسيط]

(١) انظر: مُغْنِي اللَّيْب ٢٧/١ - ٢٨، وأنوار الربيع ٤٧/٦.

(٢) انظر: سِرِّ الفصاحة ص ٣٣٧.

وصاحب لا أمل الدهر صُحبته يشقى لنفعي، ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه منذ تصاحبنا، فمذ وقعت عيني عليه تفارقنا إلى الأبد^(١)

وعلق صاحب الطراز (ت ٧٤٩هـ) بقوله: «فما هذا حاله من الكلام ليس فيه دلالة على
الضرس، لا من جهة حقيقة اللفظ ولا من جهة مجازه، وإنما هو شيء يُعرف بدقة الذكاء وجودة
الفطنة، ومن أجل هذا تختلف القرائح في السرعة والإبطاء في فهمه»^(٢)

وقول أحدهم في أيام الأسبوع: [الرجز]
ما سبعة كلهم إخوان ليسوا يموتون، وهم شبان
لم يـسرهم في موضع إنسان؟^(٣)

رأي في ظاهرة الإلغاز:

وقد تبين لنا أن الإلغاز فنُّ برأسه، يحاول التعمية والإلباس على المتلقي ما استطاع إلى ذلك سبيلا،
ولكن هذه التعمية تكون على هدى من المتكلم لا عن ضلال؛ فلا تكون هذه التعمية كيفما اتفق،
دون أن تترك في الأفق مصباحاً يهتدي بنوره السامع إلى المراد والمقصود، وإن ما يقع من التعمية في
باب الإلغاز وما يتبعها من إغماض وإلباس على السامع، كل أولئك لا يُفضي بصاحبه إلى الخروج
من باب الفصاحة والبيان، إذا كانت تلك التعمية مقصودة مُحكَّمة لها حلُّ يهتدي إليه الفطن، ويعضد
هذا ما يلوح من كلام الشيخ عبد القاهر (ت ٤٧٤هـ) إذ يقول: «وليس التعسف الذي يرتكبه بعض
من يجهل التأويل من جنس ما يقصده أولو الألغاز وأصحاب الأحاجي، بل هو شيء يخرج عن كل
طريق، ويبين كل مذهب، وإنما هو سوء نظير منهم، ووضع للشيء في غير موضعه، وإخلال
بالشريطة، وخروج عن القانون [يقصد قواعد النحو]، وتوهم أن المعنى إذا دار في نفوسهم، وعقل

(١) انظر: أنوار الربيع ٤٥/٦.

(٢) انظر: الطراز ٣٨/٣.

(٣) انظر: تحرير التحبير ص ٥٨٠. وفيه: (يا سبعة...).

من تفسيرهم، فقد فهم من لفظ المفسر، وحتى كأن الألفاظ تنقلب عن سجيّتها، وتزول عن موضوعها، فتحتمل ما ليس من شأنها أن تحتمله، وتؤدي ما لا يوجب حكمها أن تؤديه...»^(١)، ويؤكدّه أيضاً قول ابن سنان (ت ٤٦٦ هـ): «إن الموضوع [يقصد الكلام الموضوع] على وجه الإلغاز قد قصّد قائله إغماض المعنى وإخفاءه، وجعل ذلك فناً من الفنون التي تُستخرج بها أفهام الناس، وتمتحن أذهانهم، فلما كان وضعه على خلاف وضع الكلام في الأصل كان القول فيه مخالفاً لقولنا في فصيح الكلام؛ حتى صار يحسنُ فيهما كان ظاهره يدلُّ على التناقض»^(٢).

وأخيراً لا بدّ من القول: إنّ جماليّة هذا الفنّ تنبعث من كونه يؤهمُّ القارئ أشياء وأشياء، ويشتطُّ في ذلك، حتّى يقتلعه من أرضه ويُلقي به على جزيرة الدّهشة والدّهول، فهو يُشوِّش على القارئ، ويُخفي عنه المعنى المراد، ويُوفِّق له بين المتناقضات، ثمّ يطلبُ إليه حلّاً، وقد بيّنا شيئاً من وسائله في ذلك، ولا شكّ أنّ في ذلك رياضةً ذهنيّة ممتعة.

ولكنّ معظم هذه الألغاز تتجافى عن الأدب، ولا تروقُ لكثير من أصحاب الذوق الأدبيّ السليم؛ لأنّ صاحبها يُجهد عقله وفكره في إغماض المعنى والتورية عنه، فيسكُبُ كلّ براعته في جهدٍ عقليٍّ محضٍ يذهب برؤاء الأدب ومائه، فضلاً عمّا يكتنفها من التعقيد والتعسف والشذوذات والضرورات والتصحيف والتّحريف والحذف، وهذا يُفضي غالباً إلى الاضطراب في النظم، فضلاً عمّا يُحيطُ بهذه الألغاز من تكلفٍ ممجوج يُضني المتلقّي، إذاً بالإمكان القول: إنّ فنّ الإلغاز في حاجةٍ إلى براعةٍ وطرافةٍ وظرافةٍ في صوغه حتّى يُحقّق الجماليّة البلاغيّة المرجوة منه.



(١) انظر: أسرار البلاغة ص ٣٩٤.

(٢) انظر: سرّ الفصاحة ص ٣٣٧.

المُوارِبَة

يُقَالُ: وَرِبَ العِرْقُ إِذَا فَسَدَ، والإِزْبُ الدَّهَاءُ^(١)، من أَحَدِ هَذَيْنِ المَعْنَيْنِ اللَّغَوِيَّيْنِ أُخِذَ مُصْطَلَحُ المِوَارِبَةِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى مُدَاهَاةِ المتكَلِّمِ مُحَاطَبَهُ وَمُخَاتَلَتِهِ إِيَّاهُ، وَهُوَ يُفْسِدُ ظَاهِرَ كَلَامِهِ.

وَحَقِيقَةُ المِوَارِبَةِ فِي اصطلاحِ البَلَاغِيِّينَ أَنَّ يَقُولَ المتكَلِّمِ قَوْلًا فِيهِ مَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ وَيُؤَاخَذُ بِهِ، وَلَكِنَّهُ بِجِدْقِهِ وَمَهَارَتِهِ يَسْتَحْضِرُ - إِنْ عَوْتَبَ - وَجْهًا مِنَ الوجوه يُخَلِّصُهُ مِنْ تِلْكَ المِوَاخَذَةِ^(٢).

المِوَارِبَةُ فِي مُصَنَّفَاتِ البَلَاغَةِ:

وَأَنَّ مُصَنَّفَاتِ البَلَاغَةِ عَامَّةً وَالبَدِيعِ خَاصَّةً لَمْ تُؤَلِّ هذا الفَنَّ مِنَ العَنَايَةِ مَا يَلِيقُ بِهِ، بَلْ ذَكَرَتْهُ لِمَامًا، وَأُورِدَتْ عَلَيْهِ النَّزْرُ الِيسِيرُ مِنَ الأمثلةِ، مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَطْرَفِ ألوانِ البَدِيعِ، وَكُتِبَ الأَدَبُ لَا تَبْخُلُ بِالْقَصَصِ الكَثِيرَةِ الصَّالِحَةِ أمثلةً عَلَى هذا الفَنِّ، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ دَائِرًا عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَقَدْ مَثَّلُوا لَهُ بِآيَاتٍ مِنَ القرآنِ الكَرِيمِ^(٣)، تَعَمَّلُوا وَتَمَحَّلُوا فِيهَا حَتَّى تَسْتَقِيمَ أمثلةً عَلَى المِوَارِبَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ لَا مِوَارِبَةَ فِي القرآنِ الكَرِيمِ، وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ ذَاتُ شَجَوْنٍ لَيْسَ ثَمَّ مَحَلُّهَا.

الْفَرْقُ بَيْنَ المِوَارِبَةِ وَالاحْتِرَاسِ:

وَالْفَرْقُ بَيْنَ المِوَارِبَةِ وَالاحْتِرَاسِ أَنَّ الاحْتِرَاسَ يُؤْتَى بِهِ فِي أَثْنَاءِ صِيَاغَةِ الكَلَامِ، وَأَمَّا المِوَارِبَةُ فَيُؤْتَى بِهَا بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الكَلَامِ، عَلَى أَنَّ المِوَارِبَةَ قَدْ يُعِدُّهَا الشَّاعِرُ وَيَتَهَيَّأُ لَهَا فِي أَثْنَاءِ صِيَاغَةِ الكَلَامِ، وَقَدْ يُبَدِّعُهَا فِي لَحْظَةٍ مُعَاتِبَتِهِ وَهَذِهِ الثَّانِيَةُ أَبْدَعُ.

(١) انظر: اللسان (ورب).

(٢) انظر: تحرير التحرير ص ٢٤٩، وأنوار الربيع ٢/ ٢٩٩، ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٦٥٢.

(٣) انظر: أنوار الربيع ٢/ ٢٩٩.

طرائقُ المواربة:

المواربةُ تكونُ للمتكلّم بإفسادِ ظاهرِ كلامه وتأويلِ باطنه بما لم يكنْ يخطرُ على البال، أو بتحريف كلمةٍ، أو تصحيفها، أو بزيادةٍ أو إنقاصٍ، أو غير ذلك من الوجوه^(١).

إفساد ظاهر الكلام وتأويل باطنه:

فمن إفسادِ ظاهرِ الكلامِ وتأويلِ باطنه أنَّه تعدَّرَ على رجلٍ لقاءَ المأمون في ظلامَةٍ، فصاحَ على بابه: (أنا أحمدُ النَّبِيِّ المبعوث)، فأدخِلَ إليه، وأُعلِمَ أنَّه تَبَّأ، فقالَ له: ما تقولُ؟ فذكرَ ظلامته، فقالَ له: ما تقولُ فيما حُكيَ عنك؟ فقالَ: وما هو؟ فقالَ: ذكروا أنَّكَ نبيٌّ، فقالَ: معاذَ الله، إنَّما قلتُ: أنا أحمدُ النَّبِيِّ المبعوث، أفأنتَ يا أميرَ المؤمنينِ ممَّن لا يحمدهُ؟ فاستطرفه، وأمرَ بإنصافه^(٢).

ومنه أيضاً أنَّ رجلاً يُدعى سُلَيْمَانَ أُتِيَ به لأبي مُسْلِمٍ الخُرَاسانيّ (ت ١٣٧هـ)، فقالَ له: يا سُلَيْمَانُ، بلغني أنَّكَ كُنْتَ في مجلسٍ، وقد جرى ذِكْرِي، فقلتُ: اللَّهُمَّ سَوِّدْ وَجْهَهُ، واقطعْ رأسه، واسقني من دمه! فقالَ: نعم، قلتُ ذلك، ونحنُ جلوسٌ تحتَ كَرَمٍ حَصْرِمٍ، فاستحسنَ أبو مسلمٍ ذلكَ منه^(٣).

ومنه أنَّ المتوكِّلَ (ت ٢٤٧هـ) رمى عُصفوراً فأخطأه، فقالَ له مُرافِقُه في الصَّيْدِ: أحسنتَ واللهِ يا سيِّدي، فاستشاطَ المتوكِّلُ غَيْظاً، وقالَ: ويلَكَ! أتهزأُ بي؟ كيفَ أحسنتُ! فقالَ: إلى العُصفورِ يا أميرَ المؤمنين، فسكَنَ غَيْظَهُ، وضحك^(٤). رأيتَ كيفَ أفسدَ ظاهرَ كلامه بجعلِهِ (أحسنتَ) بمعنى: أسديتَ الإحسانَ إلى العُصفورِ بعدمِ إصابتكَ له.

ومنه أنَّ رجلاً كان يقولُ: «قولي لِعَدُوِّي: أعزّه الله؛ حتَّى لا يوجدَ في الدُّنيا، وقولي: أطالَ الله بقاءَكَ وأدامَ عَزَّكَ وتأييدَكَ وجعلني فداك، أي من هذا الدُّعاء كُله، فصارَ الدُّعاءُ لي دونَه»^(٥)، وأنتَ ترى أنَّ ذلكَ كُلَّهُ مَكْرٌ وخديعةٌ وإيهامٌ للمتلقِّي، تعدَّدتِ البواعثُ والنتيجةُ واحدة.

(١) انظر: تحرير التحرير ص ٢٤٩، وأنوار الربيع ٢/ ٢٩٩، ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٦٥٢.

(٢) انظر: شرح مقات الحريريّ للشَّريشيّ ٢/ ٤٥١. (دار الكتب العلميّة).

(٣) انظر: خزانة الأدب ٢/ ٣٥٣، وأنوار الربيع ٢/ ٣٠٣.

(٤) انظر: أنوار الربيع ٢/ ٣٠٣.

(٥) انظر: يتيمة الدَّهر ٤/ ٨٢، والرَّجل هو أبو القاسم الكسروي.

تحريف الكلمة:

من تحريف الكلمة أنه إذا أكره مؤمنٌ على الكُفر بالله ﷻ، قال: (أكفر باللاهي) مُستفيداً من هذا العارضِ الصَّوتي، بإطالة المدِّ القصير، فإذا اجتمعت هذه التَّعميةُ الصَّوتية، مع غيابِ الكتابة، فهمَ النَّاسُ أنه يكفرُ بالله ﷻ، وهو إنما عنى بقوله: (اللاهي) العابثُ الماجنُ، ومثله أن تقول: (للاهي إلهٌ فوقه) فإنَّ السَّامعَ قد يُقيمُ عليك الدُّنيا ولا يُعدها.

ومن المواربة أنَّ الشاعرَ طُريحَ بنَ إسماعيلَ الثَّقَفِيَّ (ت ١٦٥هـ) دخل على أبي جعفر المنصور في جملة الدَّاخِلين من الشُّعراء، فقال له أبو جعفر: لا حَيَّاكَ الله، ولا بَيَّاكَ، أما اتَّقَيْتَ اللهَ حيثُ تقولُ في الوليد: [يقصد الوليد بن يزيد بن عبد الملك (ت ١٢٦هـ)]: [المنسرح]

لو قُلْتَ لِلسَّيْلِ: دَغْ طَرِيقَكَ وَالْمَوْجُ
جُ عَلَيْهِ كَالهَضْبِ يَمْتَلِجُ
لَسَاخٌ وَارْتَدَّ، أَوْ لَكَانَ لَهُ
إِلَى طَرِيقِ سِوَاهُ مُنْعَرَجُ

فقال طُريحُ: قد عَلِمَ اللهُ أَنَّنِي أَرَدْتُهُ بِهَذَا وَعَنِيتُهُ، وَقُلْتُ ذَلِكَ، وَيَدِي مَمْدُودَةٌ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.
فقال أبو جعفر: يَا رَبِيعُ أَمَا تَرَى هَذَا التَّخْلُصَ؟^(١)

ومن المواربة بالتحريف أنَّ خَارِجِيًّا أُحْضِرَ إِلَى الْخُلَيْفَةِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ الْقَائِلُ يَا عَدُوَّ اللهِ: [الطَّوِيل]

فإِنْ يَكُ مِنْكُمْ كَانَ مَرْوَانُ وَابْنُهُ
وَعَمْرُو، وَمِنْكُمْ هَاشِمٌ وَحَبِيبُ
فَمَنَا حُصَيْنٌ وَالْبُطَيْنُ وَقُعْنُبُ
وَمَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ شَبِيبُ

فقال: لَمْ أَقُلْ كَذَا، وَإِنَّمَا قُلْتُ: (وَمَنَا - أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - شَبِيبُ)، فَاسْتَحْسَنَ قَوْلَهُ، وَأَمَرَ بِتَخْلِيَتِهِ^(٢).
أَلَا تَرَى أَنَّهُ بِهَذِهِ الْفَتْحَةِ مَدَّ فِي عُمَرِهِ؛ إِذْ أَحَالَ افْتِخَارَهُ بِشَبِيبِ الْخَارِجِيِّ أَمِيرًا عَلَيْهِمْ (وَمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ خُرُوجٍ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُنَاصَبَتِهِ الْعَدَاءَ)، إِلَى نِدَاءٍ لَهُ، وَانْقِيَادٍ لِأَمَارَتِهِ.

(١) انظر: الفَرَجُ بعد الشِّدَّةِ ١/ ٣٢٧.

(٢) انظر: نفحات الأزهار ص ٦٤.

ومنه أنه لَمَّا بلغ المأمون (ت ٢١٨هـ) أن قاضي دمشق عمرو بن أبي بكر العدوي قال: [الطويل]

برئت من الإسلام إن كان كل ما أناك به الواشون عني كما قالوا

= أنكر ذلك، وقال: قاضي لا يكون له يمين إلا بالبراءة من الإسلام لا تسع الاستعانة به في الدماء والفروج والأموال، وأمر به، فلما أدخل عليه سألته عن البيت، فقال: إننا قلت:

حُرمتُ مُنْأَي منكَ إن كان كل ما أناك به الواشون عني كما قالوا^(١)

فرَّده بمواربته إلى عمله!

وهناك قصّة فيها البراعة في المواربة؛ من حيث ترى فيها الشاعر كثير (ت ١٠٥هـ) قد استثمر كل الطاقة الدلالية للكلمة؛ حين سأله أبو جعفر محمد بن علي: امتدحت عبد الملك بن مروان؟ فقال: لم أقل له: يا إمام الهدى، إننا قلت: يا شجاع، والشجاع حيّة، ويا أسد، والأسد كلب، ويا غيث، والغيث موات! فتبسّم أبو جعفر^(٢).

أما قصّة البيت المنسوب لأبي نواس في السخرية من جارية الرّشيد (ت ١٩٣هـ) فإنها - وإن كان ظاهرها يُنبئ بأنها مصنوعة لبوساً للبيت؛ لانحلال حُبكتها وقربها من حكايا الخيال الشعبي - إننا من أسطع ما يُتمثل به على المواربة بالحدف؛ فقد حكي أن الرّشيد كان يُجالس جارية له سوداء تدعى (خالصة)، وكان عليها من الجواهر والآلئ والدّر ما شاء الله تعالى، وكان يُحبّها حُبّة شديدة، فلا يُفارقها ليلاً ولا نهاراً، فدخل عليه أبو نواس ومدحه بأبيات بليغة، فلم يلتفت إليه، وبقي مشغولاً بالجارية، فحصل لأبي نواس عُبنٌ في نفسه، فخرج وكتب على باب الرّشيد قوله: [المتقارب]

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع عقد على خالصة^(٣)

فلما بلغ الرّشيد ذلك تهدّده بسببه، فقال: لم أقل ذاك، وإننا قلت:

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع عقد على خالصة

(١) انظر: الكافي في العروض والقوافي ص ٢٠٣.

(٢) انظر: أمالي المرتضى ١/ ٢٨٧..

(٣) البيت في معظم كتب البلاغة لأبي نواس، وليس في ديوانه.

فاستحسنَ الرَّشِيدُ جوابه، وأجازَه بألفِ درهم! وقالَ بعضُ الحاضرين: اللهُ دَرُّهُ من شِعْرِ قَلَعَت عَيْنَاهُ فَأَبْصَرَ! ^(١)

ومنه المواربة بالتحريف أيضاً أَنَّ اليهودَ كانوا إذا دخلوا على النَّبِيِّ ﷺ قالوا: السَّامُ عليك، أو السَّامُ عليكم؛ بمعنى: (الموتُ لكم)، وهم يُوهَمون أَنَّهُم يقولون: السَّلامُ عليكم، فكان النَّبِيُّ الكريم يردُّ نَحِيَّتَهُم بقوله: (وعليكم) ^(٢) فحسب. ولأجل ذلك نزلت الآيةُ الكريمة ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨] ^(٣).

ومنه أَنَّهُم حينَ أَمَرَهُم اللهُ تعالى على لسانِ نبيٍّ من أنبيائهم أن يدخلوا بابَ القريةِ سُجَّدًا، ويقولوا: (حِطَّةٌ)؛ ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] بمعنى: اللَّهُمَّ احْطُطْ عَنَّا خطيئتنا، حرِّفُوا الكلمة، وقصدوا معنى غيرَ الَّذي طَلَبَ منهم ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، وتعددت الرواياتُ فيما قالوا؛ فقليل: إِنَّهُمْ قالوا (حِطَّةٌ) بمعنى القمح مكانَ (حِطَّةٌ) بمعنى طَلَبِ المغفرة، وقيل: بالنَّبْطِيَّةِ (حِطَّةٌ سمقانا) أي: حِطَّةٌ حمراء؛ استهزاءً منهم بما قيلَ لهم، وقيل غيرُ ذلك ^(٤).

وها قد رأيتَ المواربةَ كيفَ تجعلُ للكلامِ ظاهرًا وباطنًا، وتوجَّه الألفاظُ إلى معانٍ لم تكن لها ابتداءً، ويكونُ إيهامُ السَّامِ فيها إذا استفسرَ من المتكلِّمِ وطلَّبَ منه التَّوضيحَ (صوتيًّا)؛ كما في (السَّلام مكانَ السَّام)، و(أميرَ مكانَ أميرٍ)، و(ضياءَ مكانَ ضاعٍ)، و(حنطة مكانَ حِطَّة)، كما يكونُ (معنويًّا) بإفسادِ ظاهرِ الكلامِ وتأويلِ باطنه بما يحتملُ؛ كما في (أحسنْتَ إلى العصفور..)، و(نحنُ جلوسٌ تحتَ كَرَمِ حَضْرِمٍ).

(١) انظر: نفحات الأزهار ص ٦٤.

(٢) انظر: صحيح البخاري ٢٢٤٢/٥ - ورقم الحديث (٥٦٧٨)

(٣) انظر: تفسير الجلالين ص ٥٤٣، وأسباب نزول القرآن للواحدي ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٤) انظر: معاني القرآن للقرآء ٣٨/١، والكشاف ٢٧٢/١ - ٢٧٣.

مَوَارِبَةٌ أَغْفَلْتُهَا مُصَنَّفَاتُ الْبَلَاغَةِ:

من المَوَارِبَةِ نوعٌ خبيثٌ له صلةٌ ببحثِ البدلِ المُبَايِنِ الذي يكونُ فيه المُبَدِّلُ والمُبَدَّلُ منه متباينين؛ وهو بدل الغلط والوهم والنسيان^(١)، ولم أرَ مَنْ ذَكَرَهُ في كُتُبِ الْبَلَاغَةِ، بل إنَّ بَعْضَهُمْ عَدَّهُ خروجاً عن الْبَلَاغَةِ؛ إذ قال: «وقد أشارَ النُّحَاةُ إلى أَنَّ البدلَ المُبَايِنَ بأقسامِهِ الثلاثةِ لا يقعُ في القرآنِ الكريمِ، ولا في الشُّعْرِ، ولا في كلامِ الْبُلْغَاءِ؛ لأنَّه في حقيقَتِهِ إمَّا تصحيحٌ خطأً ناتجٌ عن سبقِ اللُّسَانِ، وإمَّا تصحيحٌ خطأً ناتجٌ عن النِّسيانِ، وإمَّا عدولٌ عن فكرةٍ إلى أُخْرَى، وهذا دليلٌ على الْحَيْرَةِ والتردُّدِ...»^(٢)، وهذا الْحُكْمُ يصدقُ على الكلامِ الذي لا عدولَ فيه، ولُغَةُ الْأَدَبِ تمتازُ بكثرةِ الانحرافِ والانزياحِ والعدولِ والخروجِ عن الأصلِ، فقد يَعْمِدُ الْبَلِغُ إلى البدلِ المُبَايِنِ عمداً ويقصِّدُهُ قصداً لدواعٍ بلاغيةٍ شتى، كالمبالغةِ إذا قلتَ في بدلِ الْبَدَاءِ: (حبيبتِي نجمٌ، قمرٌ، شمسٌ) موهماً سامعك بأنك حائرٌ لا تجدُ مُشَبَّهاً بهِ صالحاً يُضَارِعُ جمالها، وربَّما تسلكُ سبيلَ بدلِ الغلطِ لأجلِ السُّخْرِيَةِ أو الإضحاكِ أو التعريضِ أو التلميحِ... إلخ.

وإفادةُ الْبَلِغِ من بدلِ الغلطِ في المَوَارِبَةِ تكونُ بأنْ يقولَ كلمةً يُحْطِئُ فيها على عَمْدٍ (أي يتظاهِرُ بالخطأ فيها)، ثُمَّ يُسَارِعُ إلى إصلاحِها دونما مُؤَاخَذَةٍ من أَحَدٍ (وذلك أدخُلُ في إيهامِ السَّامِعِ أَنَّهُ خطأً عارضٌ) مُوهِماً سامعَهُ أَنَّها جاءتْ عفوَ الْخَاطِرِ، والحقُّ أَنَّهُ رَدَّدَها في صدرِهِ، وهياً لها البديلَ قبلَ

(١) بدل الغلط أو الخطأ: (قرأتُ الكتابَ الجريدةَ) تقولُ ذلك؛ إذا كنتَ تريدُ أن تقولَ لسامعك: (قرأتُ

الجريدةَ) فسبَقَكَ لِسَانُكَ إلى كلمةِ الْكِتَابِ، فانتبهتَ إلى الخطأ الذي وقعتَ فيه، فأُتْبِعْتَ كلمةَ (كتاب) التي تكنُ تُريدُها بكلمةِ (الجريدة) التي هي مُرادُّكَ من الحديثِ.

بدل النسيان: (سافرَ زيدٌ إلى بيروتَ دمشقَ) تقولُ ذلك إذا كنتَ تظنُّ أنَّ زيدا سافرَ إلى بيروتَ، ولكنك بعد أن تلفظَ كلمةَ «بيروت» تتذكَّرُ أنَّ سَفَرَ زَيْدٍ لم يكنْ إليها، بل كانَ إلى دمشقَ، ولذا أُتْبِعْتَها بكلمةَ «دمشق» لتصحِّحَ غلطَكَ.

بدل الإضراب أو البداء: (اقرأ ديوانَ حافظ، ديوانَ شوقي) تقولُ ذلك إذا كنتَ تُريدُ أَمْرَ سامعِكَ بقراءةِ ديوانِ حافظ، ولكنك بعد أن تأمرَهُ بذلكَ تعدِّلُ عن رأيِكَ هذا، وترى أنَّ قراءةَ ديوانِ شوقي أَجْدَى، فتذكرُ «ديوانَ شوقي» منبِّهاً إلى عدولِكَ عن رأيِكَ. انظر: المحيط في أصواتِ العربيةِ ونحوها وصرفها ٢٧٢/٢-٢٧٣.

(٢) انظر: المحيط في أصواتِ العربيةِ ونحوها وصرفها ٢٧٣/٢.

التَّلَفُّظِ بها؛ كَأَنْ تَقُولَ لَصَدِيقٍ: (أَحْمَدُ اللهُ عَلَى مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ..نِعْمَةٌ)، أَوْ فِي جَوَابِ (هَلْ تَعْرِفُ زَيْدًا؟): (نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَعْرِفُهُ، إِنَّهُ رَجُلٌ غَبِيٌّ..غَنِيٌّ)، أَوْ أَنْ تَسْأَلَ شَخْصًا (لَيْلَى هَلْ قَبَلْتَهَا..قَابَلْتَهَا؟)، أَوْ (أَيُّهَا الْوَزِيرُ، هَلْ اجْتَمَعْتَ بِالْقَوَادِ..القُوَادِ)، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا التَّظَاهُرُ بِالْخَطَأِ بِقَصْدِ الْإِضْحَاقِ لَا غَيْرٍ؛ كَأَنْ يَسْأَلَكَ شَخْصٌ: مَا تُهْمَةُ زَيْدٍ؟ (فَتَقُولُ: امْتِحَانُ شَخْصِيَّةٍ.. انتِحَارُ شَخْصِيَّةٍ.. انتِحَالُ شَخْصِيَّةٍ)، أَوْ كَجَوَابِ أَحَدِهِمْ لِمَنْ يَسْأَلُهُ عَنْ أَفْضَلِ كِتَابٍ قَرَأَهُ لِمَحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ، بِقَوْلِهِ: (جَدَّدَ حِمَاتِكَ..جَدَّدَ حَيَاتِكَ)، وَلِدَلَالَةِ الْحَالِ أَثَرٌ فِي تَوْجِيهِ هَذِهِ الْمَوَارِبَةِ وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا.

وَلِلْمَوَارِبَةِ مَهَارَةٌ تُوَهِّمُ الْمَخَاطَبَ وَتُخَادِعُهُ، وَقَدْ تُضْحِكُهُ أحيانًا، فَضْلًا عَنْ أَثَرِهَا فِي تَخْلِيصِ الْمُتَكَلِّمِ الْحَاقِقِ مِنْ مَوَاقِفَ مُحَرِّجَةٍ، وَفَضْلًا عَنْ أَثَرِهَا فِي صِنَاعَةِ الْأَسَالِيبِ السَّاخِرَةِ أَيْضًا، وَغَيْرُ خَفِيِّ مَا تَطْلُبُهُ الْمَوَارِبَةُ مِنَ التِّيَقُّظِ وَسُرْعَةِ الْبَدِيهَةِ، وَمِنْ مَعْرِفَةٍ بِتَصْرِيفِ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَمِنْ غَزَاوَةِ وَثَرَاءٍ فِي الرَّصِيدِ اللَّغَوِيِّ لِلْمُتَكَلِّمِ؛ إِلَّا أَنَّهَا قَلَّمَا تُفَارِقُ الْكَذِبَ، وَتِلْكَ آفَتُهَا.



التَّوْهِيمُ

التَّوْهِيمُ مصدرُ الفعل (وَهَّمَ)، ولو سَمَّوه (السُّوْهِمَ) لكانَ أنْسَبَ؛ لأنَّكَ حينَ تَسْتَقْري أمثلته سترى أنَّ منها ما قصدَ المتكلِّمُ فيه إيهامَ القارئِ، ومنها ما كانَ تركيبُ الكلامِ بطبيعته مُفضيًّا إلى التَّوْهِمِ، ولا يدُ للمتكلِّمِ فيما يعتادُ القارئُ من غلطٍ أو تحيُّلٍ بعدَ قراءته.

ومَّا يُعزِّزُ هذه القناعة قولُ صفيِّ الدِّين الحليِّ (ت ٧٥٠هـ) في التَّفريق بين التَّورية والتَّوْهِيمِ: «إيهامُ التَّورية مَّا يَتَعَمَّدُهُ النَّاطِمُ، والتَّوْهِيمُ مَّا يَتَوَهَّمُهُ القارئُ»^(١)، وهذا اللَّونُ كما ترى شديدُ الصِّلة بما نحنُ فيه من بحثِ الإيهامِ؛ فالتَّوْهِيمُ هو: أنْ يأتيَ المتكلِّمُ بكلمةٍ يُوْهِمُ ما قبلها أو ما بعدها من الكلامِ أنَّ المتكلِّمَ أرادَ تصحيْفَها، أو تحريفَها؛ باختلافِ بعضِ إعرابِها، أو اختلافِ معناها، أو اشتراكِ لُغتها بأخرى، أو غيرِ ذلك من وجوه الاختلافِ.

الفرق بين التَّوْهِيمِ والتَّورية:

والفرق بين التَّوْهِيمِ والتَّورية من ثلاثة أوجهٍ ذكرها صفيُّ الدِّين الحليِّ (ت ٧٥٠هـ) بقوله: «أحدها: أنَّ التَّورية لا تكونُ إلَّا باللفظةِ المشتركةِ، والتَّوْهِيمُ بها وبغيرِها، والثَّاني: أنَّ التَّورية تُوْهِمُ وجهينَ صحيحينَ قريباً وبعيداً، والمرادُ البعيدُ منهما، والتَّوْهِيمُ يُوْهِمُ صحيحاً وفساداً، والمرادُ الصحيحُ منهما، والثَّالثُ: أنَّ إيهامَ التَّورية مَّا يَتَعَمَّدُهُ النَّاطِمُ، والتَّوْهِيمُ مَّا يَتَوَهَّمُهُ القارئُ»^(٢).

فقوله سبحانه ﴿يُؤْفِكُهُمْ﴾ في الآية الكريمة: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] قد يُوْهِمُ للوهلة الأولى مَنْ لا يحفظُ القرآنَ بأنَّ الصَّوابَ (دِينَهُمُ الْحَقَّ) بفتحِ الفاءِ^(٣).

(١) انظر: شرح الكافية البديعية ص ٢٣٠.

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٤٤٢، وشرح الكافية البديعية ص ٢٣٠، وأنوار الربيع ٣٥/٦.

(٣) انظر: البديع في نقد الشعر ص ١٣٢.

ومثال التصحيف قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فلو أتيت بأعرابي لا علم له بالقرآن الكريم، وأسمعتَه هذه الآية وما فيها من الوعيد بالعذاب؛ لظنَّك قد صحَّفتَ، ولظنَّ أنَّ الكلام أصله: (قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَسَاءَ)؛ لأنَّ إصابة العذاب أوهمت السامع أنَّ لفظة ﴿أَشَاءُ﴾ بالسَّين المهملة من الإساءة. ويُعزِّزُ هذا خبرُ حمَّادٍ الرَّاويَّة (ت ١٥٥هـ) الذي قرأ الآية كذا بالسَّين المهملة، وقيل: كان لا يُحسِنُ القرآن^(١)، ومعلوم أنَّ قراءة الحسن البصري (ت ١١٠هـ) وسفيان عيينة (ت ١٩٨هـ) جاءت هكذا بالسَّين المهملة^(٢).

ومن التَّوهم ما يكون مبعثه اختلاف الإعراب، فكلُّ تغييرٍ عن المألوف من قوانين النحو وسننه المعهودة لدينا وراءه داعٍ بلاغيٌّ يبعثُ السامع على مزيدٍ من التأمل والتدبر، وربَّما وَهَمَ بادئ الأمر أن في الكلام لحنًا، وهنا نذكر قوله أبي الفتح ابن جني (ت ٣٩٢هـ): «عادةٌ منهم [يعني العرب] متى أرادوا أن يُعلموا اهتمامهم بأمرٍ، وعنايتهم به، أخرجوه عن بابِه، وأزالوه عمَّا عليه نظائره»^(٣).

ومن أمثلة اختلاف الإعراب قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُقْتَلُواكُمْ يُولُوكُمْ أَوَّلَ بَارٍ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١]؛ فالقياسُ عند النُّحاة يقتضي القول: (ثُمَّ لَا يَنْصُرُوا) بالجزم؛ عطفًا على ما جواب الشرط قبله ﴿يُولُوكُمْ﴾، لكنَّ لَمَّا كَانَ الغرضُ الإخبارَ بأنَّهم لَا يَنْصُرُونَ أبدًا؛ ألغى العطف، وأبقيت صيغة الفعل على حالها؛ لتدلَّ على الحال والاستقبال، فالجمله ﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ استئنافٌ يُراد بها الدُّعاء، ولو جُزِمَ لَمَّا دَلَّ إِلَّا على الحال. و﴿ثُمَّ﴾ ههنا للاستئناف لا للعطف^(٤).

وكان ينبغي لأهل البديع أن يُشيروا إلى أنَّ التَّوهم في القرآن الكريم مبعثه أمران لا ثالث لهما، طبيعة تركيب الكلام وعدوله عن المألوف من سنن العرب في تصريف كلامها، أو نزارة معرفة

(١) انظر: أنوار الربيع ٣٥/٦.

(٢) انظر: معجم القراءات القرآنية ٤٠٩/٢.

(٣) انظر: سر صناعة الإعراب ٢٥٩/٢.

(٤) انظر: من أسرار الجمل الاستنافية ص ٢٦٥-٢٦٦.

القارئ بتصريف كلام العرب، وليس ثمَّ قصدٌ منه سبحانه إلى إيقاع القارئ في وهمٍ، وهنا نذكر قولاً لأبي الفتح ابنِ جنِّي (ت ٣٩٢هـ) يرى فيها أنَّ جهَلَ النَّاسِ بالعربيَّة أدَّى إلى ضلالهم في فهم كلام الله تعالى؛ إذ قال: «أَكْثَرُ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ عَنِ الْقَصْدِ فِيهَا، وَحَادَ عَنِ الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى إِلَيْهَا = فَإِنَّمَا اسْتَهْوَاهُ وَاسْتَخَفَّ حِلْمَهُ ضَعْفُهُ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ الْكَرِيمَةِ الشَّرِيفَةِ»^(١).

ومن اختلاف الإعراب قولُ الأخطل: [الخفيف]

إِنَّ مَنْ يَدْخُلُ الْكَنِيسَةَ يَوْمًا يَلْقَى فِيهَا جَاذِرًا وَظِيَاءً^(٢)

فإنَّ لفظةَ (إِنَّ) أَوَّلَ الْبَيْتِ تُوهِمُ السَّامِعَ أَنَّ (مَنْ) اسْمٌ مَوْصُولٌ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ اسْمِهَا، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ بَلْ اسْمٌ (إِنَّ) هُوَ ضَمِيرُ الشَّانِ الْمَحذُوفِ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرُهَا، (وَالْمَقْصُودُ بِجُمْلَةِ الْخَبَرِ هَهُنَا جُمْلَةُ الشَّرْطِ وَالْجَوَابِ مَعًا، أَوْ إِحْدَاهُمَا)، وَلَمْ تُجْعَلْ (مَنْ) اسْمًا لَهَا؛ لِأَنَّهَا شَرْطِيَّةٌ؛ بِأَيَّةِ جَزْمِهَا الْفَعْلَيْنِ، وَالشَّرْطُ لَهُ الصَّدْرُ - كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ - وَلَا يَعْمَلُ فِيهِ مَا قَبْلَهُ.

ومن اختلاف الإعراب أنَّك إذا سمعتَ أحدهم يقول: (أَنَّ كَرِيمٌ كَالْغَزَالِ) أَسْرَعَ الْوَهْمُ إِلَى تَحْطِئَتِهِ؛ لِأَنَّهُ رَفَعَ اسْمَ (أَنَّ) وَالصَّوَابُ نَصْبُهُ، وَلَكِنَّ الْإِعْرَابَ الصَّحِيحَ الَّذِي أَرَادَهُ الْمُتَكَلِّمُ هُوَ أَنْ يَكُونَ (كَرِيمٌ) فَاعِلًا لِلْفِعْلِ الْمَاضِي (أَنَّ) بِمَعْنَى بَكَى بُكَاءً خَافِتًا.

وإنَّ مرونةَ بنيةِ النَّظَامِ النَّحْوِيِّ الْعَرَبِيِّ تَسْمَحُ أحيانًا بِالِاتِّسَاعِ فِي تَأْوِيلِ الْجُمْلَةِ الْوَاحِدَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ غِيَابُ الْعَلَامَاتِ الْإِعْرَابِيَّةِ، وَهُوَ مَا أَسَاءَهُ النُّحَاةُ بِالِإِعْرَابِ التَّقْدِيرِيِّ، هَذِهِ الْخَصِيصَةُ قَدْ يَسْتَشْمُرُهَا الْمُتَكَلِّمُ لِلإِلْبَاسِ عَلَى مُحَاطَبِهِ، أَوِ التَّعْمِيَةِ عَلَيْهِ؛ كَأَن يَقُولَ: (رَأَيْتُ رَفِيقُ أَخِي مُصْطَفَى) فَإِنَّ خَفَاءَ الْعَلَامَةِ الْإِعْرَابِيَّةِ هَهُنَا مُفْضٍ إِلَى تَوْهِيمِ السَّامِعِ؛ فَقَدْ يَظُنُّ أَنَّ (مُصْطَفَى) بَدَلٌ مِنْ (أَخِي)، أَوْ بَدَلٌ مِنْ (رَفِيقُ أَخِي) فَلَا يَعْلَمُ السَّامِعُ مَنْ مُصْطَفَى؟ أَهوَ أَخُو الْمُتَكَلِّمِ أَمْ رَفِيقُ أَخِيهِ؟ وَكَذَا لَوْ قُلْتَ: (رَأَيْتُ أَبَا الطَّالِبِ الْأَعْمَى)، وَكَذَا لَوْ قُلْتَ: (هَذَا كِتَابُ التَّلْمِيزِ الَّذِي ضَاعَ يَوْمَ الْخَمِيسِ)، فَلَا يَدْرِي

(١) انظر: الخصائص ٣/ ٢٤٥.

(٢) انظر: مغني اللبيب ١/ ٥٦.

السَّامِعُ مَنْ الذي ضاع يومَ الخميس التَّلميدُ أم كتابه؟ وكذا لو قلت: (اشتريتُ قلمَ حبرٍ أسودَ) فإنَّ غيابَ العلامةِ الإعرابِيَّةِ جُزئياً يُوهِمُ السَّامِعَ؛ فلا يدري هل القلمُ أسود، أم الحبر؟^(١).

ومن اختلاف المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِلْبَنَاتِ عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]؛ فنهاية الآية قد تُوهِمُ السَّامِعَ أنَّه ﴿غَفُورٌ لِلْمُكْرِهَةِ﴾، وإنَّما هو لَهَنٌ، ويُعزِّزُ مذهبَ العلماء في توجيه هذا الإيهام ما وجدنا في قراءة ابن مسعود (ت ٣٢هـ): (لَهَنٌ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٢).

ومنه أيضاً قول المتنبي: [الكامل]

يَلْقَاكَ مُرْتَدِيّاً بِأَحْمَرٍ مِنْ دَمٍ ذَهَبَتْ بِخُضْرَتِهِ الطُّلَى وَالْأَكْبَدُ^(٣)

فإنَّ قوله: (بأحمر من دم) يُوهِمُ السَّامِعَ أنَّ معناه بأشدَّ حُمْرَةً من الدَّمِ، وهذا يقتضي أن يكون (أحمر) ههنا اسمَ تفضيل؛ وهو محظورٌ في الألوان كما تعلم^(٤)، وإنَّما قوله: (من دم) تعليل؛ أي: أحمر من أجل التباسه بالدَّمِ، أو صِفَةٌ؛ فكأنَّ السَّيْفَ لكثرة التباسه بالدَّمِ صارَ دماً، فكأنَّه قال: بسيفٍ أحمر مصنوعٍ من دم، ومعنى التَّعليل أمدحٌ للمعنى كما ترى.

ومثله أيضاً قول المتنبي في وصفِ الشَّيبِ: [البسيط]

إِنْعَدْتُ، بَعْدْتُ، بَيَاضاً، لَا بَيَاضَ لَهُ لَأَنْتَ أَسْوَدُ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ^(٥)

فقد يتوهَّم السَّامِعُ أنَّ مقصوده: (لَأَنْتَ أَشَدُّ فِي عَيْنِي سَوَاداً مِنَ الظُّلَمِ)، وهذا ممتنعٌ كما سلف^(٦)؛ إذ إنَّ اسمَ التَّفضيل لا يُصاغُ هكذا في الألوان، بل مقصوده: (أسودُ كائنٌ من الظُّلَمِ).

(١) هذه الأمثلة وما يدور في فلكها إنَّما يَنَاهُ المقصودُ منها بمعونة القرائن.

(٢) انظر: معجم القراءات القرآنية ٤ / ٢٥١.

(٣) انظر: تحرير التَّحْبِيرِ ص ٣٥١.

(٤) انظر: ديوان المتنبي ١ / ٣٣٩.

(٥) انظر: مغني اللبيب ٢ / ٧٠٤.

(٦) انظر: ديوان المتنبي ٤ / ٣٥. البياض الأول: الشَّيب، والثاني: الخصال الحميدة.

(٧) انظر: أمالي المُرْتَضَى ١ / ٩٣، مغني اللبيب (٢ / ٧٠٣).

وقد احتفل مَنْ ذَكَرَ التَّوْهِيمَ بقوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٥-٦] مثلاً على التَّوْهِيمِ الآتي من الاشتراك^(١)، فَإِنَّ ذِكْرَ الشَّمْسِ والقمرِ أَوَّلًا يُوهِمُ السَّامِعَ أَنَّ النَّجْمَ المذكورَ بعدُ هو أحدُ النُّجُومِ السَّماويةِ، وإنَّما المرادُ به النَّبْتُ لا ساقَ له، وبالشَّجَرِ النَّبْتُ الَّذِي له ساق^(٢)، مع أَنَّ هذا النوعَ معروفٌ باسمِ (إيهامِ التَّنَاسُبِ)، وهو ما يُلحِقُه البلاغيُّونَ عادةً بمُراعاةِ النَّظيرِ^(٣).

ومن التَّوْهِيمِ أيضاً ما هو بسببِ اشتراكِ اللَّفْظَةِ؛ كقولِ صفِيِّ الدِّينِ الحَلِّيِّ: [البسيط]

حَتَّى إِذَا صَدَرُوا، وَالخَيْلُ صَائِمَةٌ مِنْ بَعْدِ مَا صَلَّتِ الْأَسْيَافُ فِي الْقِمَمِ^(٤)

فإنَّكَ حينَ تسمعُ أَنَّ الخَيْلَ (صَامَت) قد يتسرَّبُ إلى وهْمِكَ حينَ تسمعُ (صَلَّتِ الْأَسْيَافُ) أَنَّهَا مِنَ الصَّلَاةِ؛ لَتَنَاسُبِ الصَّوْمِ والصَّلَاةِ، ولكنَّ مرادهُ (صَلَّتْ) مِنَ الصَّلِيلِ؛ وهو صوتُ الحديدِ.

ومنه قولِ صفِيِّ الدِّينِ الحَلِّيِّ أيضاً في غَلامٍ سَاقٍ: [الوافر]

وَسَاقٍ مِنْ بَنِي الْأَثَرِ الْطَفْلُ أَتَيْتُهُ بِهِ عَلَى جَمْعِ الرَّفَاقِ
أَمْلَكُهُ قِيَادِي وَهُوَ رَقِي وَأَفْدِيهِ بَعِينِي وَهُوَ سَاقِي^(٥)

فقد ذُهِبَ إلى أَنَّ قولَه: (أَفْدِيهِ بَعِينِي) يُوهِمُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ بقوله: (سَاقِي) العَضْوَ المعروفَ ما بينَ الرُّكْبَةِ والْقَدَمِ^(٦)، وَأَظُنُّ أَنَّ سَلَامَةَ الذَّوْقِ الْأَدَبِيِّ عِصْمَةٌ لِمُصَاحِبِهَا مِنَ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَهْمِ، وَلَوْ لَمْ يَذْكُرْ أَهْلُ الْبَدِيعِيَّاتِ فِي التَّوْهِيمِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ.

(١) انظر: شرح الكافية البديعية ص ٢٢٩، وخزانة الأدب ٤/ ١٦٢، وأنوار الربيع ٦/ ٣٧.

(٢) انظر: أنوار الربيع ٦/ ٣٧.

(٣) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢١٩.

(٤) انظر: شرح الكافية البديعية ص ٢٢٨.

(٥) انظر: ديوان صفِيِّ الدِّينِ الحَلِّيِّ ص ٤٠١، وخزانة الأدب ٣/ ٥٢٤. طُفْلٌ بِالْفَتْحِ: الرَّخْصُ النَّاعِمُ وَالْجَمْعُ طِفَالٌ.

(٦) انظر: أنوار الربيع ٦/ ٣٧.

وقد ذكر ابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤ هـ) توهيم المطابقة، ومثّل له بقول أبي تمام: [الطويل]

تردّي ثياب الموت محمراً، فما أتى لها الليل، إلا وهي من سندس خضر^(١)

وعلق عليه بقوله: «فإن قوله: (حمر، وخضر) يؤهم أن ذلك طباق، وليس بطباق؛ إذ الأحمر لا يضاد الأخضر، فهذا شاهد توهيم المطابقة»^(٢)، ولعله أراد أن سياق البيت من حيث إن المرثي ارتدى ثياباً محمراً من دمه، ولكن ما إن زار الجنة حتى أبدل بها (هنا تظن أن اللون سيأتي مضاداً) ولكن أبدل بها ثياباً خضراً من السندس.

ولعله بالإمكان أن نلحق بالتوهيم طريقةً طريفة؛ وهي أن تقول لصاحبك بيت شعر مشهوراً، أو قولاً مأثوراً، أو غير ذلك من العموميّات المحفوظة، فيتوقع هو النهاية كما في الإرصاء، فتغير أنت فيها، فيتوهم هو أنك أخطأت أو سهوت؛ والحق أنك قصدت إلى ذلك قصداً؛ لغاية في نفسك؛ كأن تقصد إضحاك؛ فتقول: (خير الكلام ما هبّ ودبّ)، أو تقول: [البسيط]

لكل داء دواءٌ يُستطبُّ به إلا (الصّلاة) أعيت من يُداويها

أو غير ذلك من الأغراض الطريفة التي قد تخطر للمتكلّم.



(١) انظر: ديوان أبي تمام ٨١/٤.

(٢) انظر: تحرير التّحبير ص ٣٥١.

التَّجْرِيدُ

التَّجْرِيدُ لُغَةً: الْقَشْرُ وَالنَّزْعُ، وَجَرَدَ السَّيْفَ إِذَا نَزَعَهُ مِنْ غِمْدِهِ^(١)، أَمَّا التَّجْرِيدُ اصطلاحاً فهو: أَنْ يُنْتَزَعَ مِنْ شَيْءٍ مُدْعَى كِمَالُهُ فِي صِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلُهُ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ^(٢).

والتَّجْرِيدُ أَسْلُوبٌ عَرَبِيٌّ قَدِيمٌ جَرَى عَلَى أَلْسِنَةِ الْفُصَحَاءِ سَجِيَّةً بَغِيرَ مَا تَكَلَّفَ، وَخُصُّهُ فِي مَطَالَعِ قِصَائِدِهِمْ، وَكَذَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَأَتَى مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ مَنْ اسْتَحْسَنَهُ وَلَمْ يَسْتَفِضْ فِي شَرْحِ مَا هِيَ^(٣)، فَقَالَ ابْنُ جَنِّي (ت ٣٩٢هـ): «هَذَا فَصْلٌ مِنْ فُصُولِ الْعَرَبِيَّةِ طَرِيفٌ حَسَنٌ»^(٤) حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلُ الْبَلَاغَةِ حَدُّهُ بِحَدٍّ، وَقَسَمُوهُ أَقْسَاماً.

وَالْغَايَةُ مِنَ التَّجْرِيدِ الْإِيحَاءُ لِلْمَتَلَقِّي بِأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ قَدْ كَمَلَتْ فِيهِ صِفَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ إِلَى حَدٍّ يَصِحُّ مَعَهُ أَنْ يُنْتَزَعَ مِنْهُ مَوْصُوفٌ آخَرُ مَتَّصِفٌ بِتِلْكَ الصِّفَةِ؛ كَقَوْلِكَ: (مَرَرْتُ بِالرَّجُلِ الْكَرِيمِ، وَالنَّسَمَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَالْعَالَمِ التَّقِي)^(٥) فَفِي هَذَا الْقَوْلِ جَرَدْتَ مِنَ الرَّجُلِ الْكَرِيمِ نَسَمَةً مَبَارَكَةً وَعَظَفْتَهَا عَلَيْهِ، وَجَرَدْتَ مِنْهُ أَيْضاً عَالِماً تَقِيّاً وَعَظَفْتَهُ عَلَيْهِ، إِذَا فَقَدْ عَظَفْتَ كُلًّا مِنَ النَّسَمَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَالْعَالَمِ التَّقِيِّ عَلَى الرَّجُلِ الْكَرِيمِ، وَهَذَا يُوْهِمُ السَّمَاعَ بِأَنَّهُ عَظَفُ تَغَايُرٍ، مَعَ أَنَّ الْمَعْطُوفَيْنِ هُمَا الرَّجُلُ الْكَرِيمُ نَفْسُهُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، وَهَذَا الْعَظْفُ عَلَى طَرِيقَةِ التَّجْرِيدِ يُظْهِرُ الْمَعْطُوفَ وَكَأَنَّهُ شَيْءٌ مُغَايِرٌ لِلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ.

وَقَدْ قُسِّمَ التَّجْرِيدُ إِلَى سَبْعَةِ أَنْوَاعٍ^(٦)، سَنَعْرُضُ لِبَعْضٍ مِنْهَا لِيُظْهِرَ أَثَرَ التَّجْرِيدِ فِي إِيْهَامِ الْمُتَلَقِّي؛ فَمِنْهُ:

(١) انظر: اللسان (جرد).

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٥٨، والمنزاع البديع ص ٢٧٨.

(٣) كسيويه (ت ١٨٠هـ)، وأبي عليّ الفارسيّ (ت ٣٧٧هـ)، وابن جنيّ (ت ٣٩٢هـ). انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٥٨.

(٤) انظر: الخصائص ٢/ ٤٧٣.

(٥) انظر: شرح عقود الجمان ص ١٢١.

(٦) انظر: أنوار الربيع ٦/ ١٥٣، والأنواع السبعة هي: (أَنْ يَكُونَ بَيْنَ التَّجْرِيدِ وَالْإِيْهَامِ الدَّاخِلَةِ عَلَى الْمُتَنَزِّعِ مِنْهُ، أَوْ الْبَاءِ، أَوْ فِي، أَوْ بِدُخُولِ بَاءِ الْمَعْيَةِ وَالْمَصَاحِبَةِ عَلَى الْمُتَنَزِّعِ، وَقَدْ يَكُونُ بِدُونِ تَوْسُطِ حَرْفٍ، أَوْ يَكُونُ بِطَرِيقِ الْكِنَايَةِ، أَوْ بِطَرِيقِ خُطَابِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ).

• أن يكون التجريد بدخول (الباء) على المتنزع منه:

كقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْيَحْيَى الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَحْيِي بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ ذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ (٥٨) [الفرقان: ٥٨-٥٩]، فعند سماع قوله: ﴿فَتَشَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ قد يتوهم السامع أن المعنى: اسأل عنه سبحانه رجلاً عالمًا خبيراً به وبصفاته، وقد رأى الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) أن التقدير قد يكون: «فسل بسؤاله خبيراً؛ كقولك: رأيت به أسداً، أي: برؤيته، والمعنى: إن سألته وجدته خبيراً»^(١) أو إن سألته لتسألن به خبيراً.

• أن يكون التجريد بدخول (في) على المتنزع منه:

كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَأْبَيْنَا بِمُحَدَّثُونَ﴾ [فصلت: ٢٨]، ففي قوله سبحانه ﴿هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ قد يتوهم السامع أن في جهنم داراً يخلد فيها أعداء الله، وليس كذلك، بل جهنم هي دار الخلد لهؤلاء، ولكن انتزع من جهنم داراً أخرى جعلت معدة للكافرين؛ تهويلاً لأمرها، ومبالغة في انصافها بالشدة^(٢)، ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكذا قول الشاعر: [الطويل]

أفأئت بنو مروان ظمأ دماءنا وفي الله - إن لم يعدلوا - حكم عدل^(٣)

فلا يجوز بحال أن يتصور أن الله سبحانه ظرف لشيء ولا متضمن له، بل أراد التأكيد على أن العدل كل العدل عند الله تعالى، أي: في عدل الله حكم عدل، وهذا كما ترى على حذف المضاف^(٤).

(١) انظر: الكشاف ٤/ ٣٦٥.

(٢) انظر: أسرار البلاغة ص ٣٣٥، وأنوار الربيع ٦/ ١٥٥.

(٣) انظر: الخصائص ٢/ ٤٧٥، وأنوار الربيع ٦/ ١٥٥.

(٤) انظر: الخصائص ٢/ ٤٧٥.

• أن يكون التجريد بدون توسطٍ حرفٍ:

كقوله سبحانه: ﴿أَشْرَوْا بِعَايَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ① لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ②﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ④ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً كَثِيرًا ⑤ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ قُلُوبُكُمْ فَأَخَذْتُمُوهُمْ فَتَقَتَّلُوا عَلَيْهِمْ فَاصْلَوْا عَلَيْهِمْ سَلَامًا ⑥﴾ [التوبة: ١٣-٩].

فلعلَّ الذَّهْنَ يَسْبِقُ إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ ههنا بِقِتَالِ أَيْمَةِ الْكُفْرِ، أَي: زُعَمَائِهِمْ دُونَ بَقِيَّةِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ...، وَالْحَقُّ أَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ ههنا هُوَ قِتَالُهُمْ جَمِيعًا، وَلَكِنْ اتَّصَفَ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ بِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْإِنْكَارِ وَالْعُدْوَانِ حَتَّى انْتَزَعَ مِنْهُمْ قَادَةُ لِلْكَفْرِ، أَي كَأَنَّهُمْ جَمِيعًا قَادَةُ لِلْكَفْرِ؛ مَبَالِغَةٌ فِي وَصْفِهِمْ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُقَاتَلُوا وَيَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ فَسَوْفَ يَصْبِحُونَ قُدُوةً لغيرِهِمْ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ فِي الْإِرْتِدَادِ لِيَرْتَدُّوا وَيَطْعَنُوا عَلَى الدِّينِ.

وقد رأى الزَّخْمَشَرِيُّ (ت ٥٣٨هـ) أَنَّ قَوْلَهُ سبحانه: ﴿أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ مُظْهَرٌ مُوضِعٌ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ فِي ﴿فَقَاتِلُوهُمْ﴾، فَالضَّمِيرُ (هُمْ) يَعُودُ عَلَى الْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ ذُكِرُوا قَبْلَ بَأْنِهِمْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِ اللَّهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الطُّغْيَانِ وَاطِّرَاحِ عَادَاتِ الْكِرَامِ الْأَوْفِيَاءِ مِنَ الْعَرَبِ، ثُمَّ آمَنُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَصَارُوا إِخْوَانًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي الدِّينِ، ثُمَّ رَجَعُوا فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَنَكَثُوا مَا بَايَعُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَقَعَدُوا يَطْعَنُونَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَهُمْ إِذَا أَيْمَةُ الْكُفْرِ، وَذَوُو الرِّيَاسَةِ وَالتَّقَدُّمِ فِيهِ، لَا يَشُقُّ كَافِرٌ غُبَارَهُمْ^(١).

ومنه قول قتادة بن مسleme الحنفي: [الكامل]

فَلَسْنُ بَقِيْتُ لَأَرْحَلَنَّ بَغْزَوَةً تحوي الغنائم، أو يموت كريم^(١)

فالشاعر الجاهلي ههنا يُقسِمُ على أنّه إن بقي حيّاً فسوف يذهبُ مع الغازين، ليُحقّقوا النَّصْرَ
ويظفروا بعُقباهُ من الغنائم، إلّا أن يموتَ الكريمُ، فالشاعرُ يرى أمرين لا ثالثَ لهما (النَّصرُ، أو
موتَ الكريم). .. ولكن مَنْ هذا الكريمُ؟ إنّهُ الشَّاعرُ، لقد عني بالكريم نفسه، فكأنّه انتزعَ من نفسه
كريمياً؛ مُبالغةً في كَرَمِهِ، وكان في وَسْعِهِ القولُ: (أو أموتَ)، ولا يخفى الأثرُ الجماليّ لاجتماعِ التَّجريدِ
والالفتات ههنا.

• أن يكونَ التَّجريدُ بطريقِ الكناية:

كقول الأعشى: [النسر]

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ السَّمْطِيَّ، وَلَا يَشْرَبُ كَأْساً بِكَفٍّ مِّنْ بَخِيلٍ^(٢)

فظاهرُ معنى البيتِ الثَّناءُ على الممدوحِ بأمرين؛ بأنّه خيرُ الفُرسانِ، وأنّه يشربُ كأسَ المُدامِ أو
الماءِ من كَفِّ الجوادِ فحسب، ولا يشربُه من كَفِّ البخيلِ.

وليس الأمرُ كذا، بل امتدحه بأنّه خيرُ الفُرسانِ، وامتدحه بأنّه رجلٌ كريمٌ؛ وذلك أنّه انتزعَ أو
جرّدَ من الممدوحِ رجلاً جواداً يشربُ هو الكأسَ بكفِّه على طريقِ الكناية، لأنّه إذا نفى عنه الشُّربَ
بكفِّ البخيلِ فقد أثبتَ له الشُّربَ بكفِّ الكريمِ، ومعلومٌ أنّ المرءَ غالباً ما يشربُ بكفِّه، فهو إذا ذاك
الكريم.

• أن يكونَ التَّجريدُ بطريقِ خطابِ المرءِ لنفسه^(٣):

كقول أبي الطيّب: [البسيط]

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ إِن لَّمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

(١) انظر: أنوار الربيع ١٥٥/٦.

(٢) انظر: ديوان الأعشى ص ١٥٧، وأنوار الربيع ١٥٦/٦.

(٣) ونظيره في هذا المجال الفنُّ البديعي المسمّى عتابَ المرءِ نفسه. انظر: معجم المصطلحات البلاغية ص ٥٣٠.

فالظاهر أنه يُعَاتَبُ شخصاً لا عطايا لديه يجودُ بها، ولا كلامٌ عَذْبٌ يُسَعِدُ به مَنْ حوَلَهُ، فيقولُ له: إن لم يكن لديك من العطايا والسَّخاء ما تَدْخُلُ به قلوبُ النَّاسِ، فأَسْعِدْهُمْ بِحُلُوِّ الحديث.

ولكن ماذا لو عرفنا أن هذا البيت مطلع قصيدة قالها في مصر سنة (٣٤٨هـ) يمتدح بها فاتكاً الإخشيدى أبا شجاع الذي وصله بالعطايا الجزيلة قبل أن يشرع في مديحه، وكان المتنبي يأنس بفاتك وهو في مصر ويحبه كثيراً، فهل يُعَقَّل أن تمتدح امرأ كريماً تحبه بهذا الكلام!!

إذاً لا ريب في أنه يُخَاطَبُ نفسه في مطلع القصيدة قائلاً: ليس عندك من الخيل والمال ما تُهْدِيهِ إلى الأمير جزاءً له على إحسانه إليك، فامدحه وجاهزه على إحسانه بأن تُثْنِي عليه بشعر جميل، إن لم تُعِنِكَ الحال على مجازاته بالهدايا والمال، والسياق هو الأمانة على أنه أراد نفسه، لقوله في البيت الذي يليه:

وَاجْزِ الأميرَ الَّذِي نُعْمَاهُ بادِيَةً، بغير قولٍ، ونُعمى النَّاسِ أقوالاً^(١)

ولا ريب في أن ذلك يمنح القصيدة بدايةً مثيرةً تجذب السامع، بخلاف العبارات التقليدية التي جُمِدَتْ من قَرطِ الاستعمال، والتي ليس فيها شيءٌ من عناصر الإدهاش أو الإذهال أو الجمع بين المتناقضات.

ومثله قول الأعشى مخاطباً نفسه: [البسيط]

وَدَّعْ هُرَيْرَةً؛ إِنَّ الرُّكْبَ مُرْتَحِلٌ وهل تُطِيقُ وداعاً أيُّهَا الرَّجُلُ!^(٢)

جمالية الإيهام في فن التجريد:

جمالية هذا الفن تنبعث من جوانب متعددة؛ منها المبالغة اللطيفة التي تأنس النفس بها، ومنها إيهام المتلقي حين يكون التجريد على طريق الكناية؛ فإن الشاعر حينها لا يُسَلِّمُ المعنى إليك ابتداءً، بل يُوهِّمُك غير المراد؛ كما في قوله: (ولا يشرب كأساً بكفٍّ من بخلا)، وكأنه صَنِينٌ به إلا على مَنْ أَعْمَلَ

(١) انظر: ديوان المتنبي ٣/ ٢٧٦-٢٧٧، ومعاهد التنخيص ٣/ ١٤.

(٢) انظر: ديوان الأعشى ص ٤١.

ذهنه، فعقل المعنى، فتمكّن المراد في نفسه، ومعلوم أن تحصيل المعلومة بعد جهد وكد أدعى إلى تمكّنها في النفس ورسوخها في الذهن.

ومن جماليات التجريد أيضاً إيهاّم المتلقّي وخداعه حين يُخاطب المتكلّم سامعه قاصداً نفسه، وهذه الطريقة تتيح للمتكلّم أن يُعبّر عما يجول في خَلده من خواطر، وفي فؤاده من مشاعر، وأن يصف نفسه بما يشاء؛ دون أن يجد في ذلك حرجاً؛ وهذا لأنّه يُوجّه الخطاب لغيره، فيكون ههنا أعذر وأبرأ وأخفّ التزاماً بما يقول؛ ويتخفّف من المؤاخذه في ذلك؛ فقد يُصرّح بصفة له لا يجدر أن ينسبها إلى نفسه، فيأتي بها على طريق عتاب النفس وعذّلها، كقول الصّمة القشيري: [الطّويل]

حَنَنْتُ إِلَى رَيّا، وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيّا، وَشَعْبَاكُمَا مَعَا
فَمَا حَسَنُ أَنْ تَأْتِيَ الْأَمْرَ طَائِعاً وَتَجَزَّعَ أَنْ دَاعِيَ الصَّبَابَةِ أَسْمَعَا
ثُمَّ أَتَى بَعْدَهُمَا:

وَأَذْكُرُ أَيّامَ الْجُمَى ثُمَّ أَتْنِي عَلَى كَبْدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصْدَعَا
بِنَفْسِي تِلْكَ الْأَرْضَ مَا أَطِيبَ الرُّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْمِصْطَافَ وَالْمُتَرَبَّعَا^(١)

وأظن أن الشاعر ههنا يُحقّق مزيّة تخفى وتُجِلُّ عن كلّ ما ذُكر، ذلك أنّه حين يَعِدُّلُ عن صيغة التّكلّم (حننّت) إلى صيغة الخطاب (حننّت) وتراه ينسب مشاعره إلى السّامع؛ فيقول له: (حننّت، تجزّع...)، كأنّه يستدّر عواطف سامعيه، فيجعل كلّ سامعٍ له يتحدّ معه في الشّعور، وكأنّ الخطاب مُوجّه إليه، وكأنّه المعنيّ بالأمر، وكأنّ المأساة مأسأته، وهذا حقّاً أدعى إلى تفاعل المتلقّي واندماجه في أجواء النصّ، وإحساسه بالمناخ النّفسيّ أو العاطفيّ المسيطر على الشاعر لحظة إبداع النصّ، وإنّه مسلكٌ لطيفٌ بمُكنة التّكلّم البليغ أن ينحوه ليضمّن به إثارة الانفعال العاطفيّ لدى المتلقّي، وليضمّن حُسن تفاعلِهِ مع أفكارِ نصّه أيضاً.

(١) انظر: الحماسة البصريّة ٣/ ١٠٨٨ - ١٠٨٩، ومقدمة تفسير ابن النّقيب ص ٣٥٠.

ولا يخفى ههنا - في بعض الأمثلة من خطاب المرء نفسه - أثر المفاجأة أو الدهشة التي تسيطر على المتلقي قبل أن يكتشف خداع الشاعر وإيهامه؛ فلو كنا حضوراً في مجلس أبي شجاع، وسمعنا أبا الطيب يُخاطبه فيقول: (إذا لم يكن لديك من المال والعطايا ما تجود به علينا، فجمّل ملافظك، وأحسن قولك، لعل ذلك يكون خيراً لك)؛ لَعَجِبْنَا منه عَجَباً شديداً، فهذا ذمٌ لأبي شجاع وما هو بالمدح، وكذا لَعَجِبَ الممدوح من هذا الكلام الموجه إليه، ولزاد من تنبّهه ويقظته ولأصاخ السمع ليرى ماذا أراد الشاعر بهذا؟ وبأي شيء سيأتي بعد هذا؟ ليتبيّن حقيقة الأمر، فإذا ما تبين له أن الشاعر كان يُخاطب نفسه، وجدّ حلاوةً في لَذَّةِ الاكتشاف الذهني بعد أن كشف خيوط المفارقة. إذاً فهذا النحو من الخطاب له فائدتان بارزتان:

- أولاهما: أنّه منبّه أسلوبيّ يُوقظ المتلقي ويجعله أكثر انتباهاً لما سيُقال؛ لأنّه يسمع ما لم يتوقع، ويواجهه بغير ما كان يترقّب، وهذا كفيل بأن يستجلب نشاطه ويستدرّ إصغاءه.
- وثانيهما: أنّه يُشعر المتلقي بنشوة المعرفة بعد أن يتخطى إيهام الشاعر ومخادعته، ويدري أن المراد بالكلام الشاعر نفسه لا المخاطب؛ فضلاً عن أثر الصورة الفنية للحوار الداخلي للشاعر، وما تُوحى به للمتلقي.



إيهام التوكيد

هو أن يُعيد المتكلم في كلامه كلمة فأكثر تبعاً - مُراداً بها غير المعنى الأول - بطريقة توهم السامع أول وهلة أنه من باب التكرار، وأن الغرض منه توكيد المعنى^(١)، وما هي إلا لحِيظَات من تأمل المتلقي في الكلام حتى يرقص طرباً، حين يدرك أن للفظ المكرر معنى مُبايناً للمعنى الأول، ولذا سُمي إيهام التوكيد، ولكن هذا الفن جاء قليل الحظ والعناية في مُصنّفات البديع، مع أنه لا يقل عن الجناس طرافة وحسناً إن جادت به القرائح.

ومثاله من القرآن الكريم قوله سبحانه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، فقلوه: ﴿فِيهِ فِيهِ﴾ هو إيهام التوكيد؛ لأن بعض السامعين قد يظن أول وهلة أن ﴿فِيهِ﴾ الثانية توكيد للأولى، وليس كذلك؛ بل ﴿فِيهِ﴾ الأولى متعلقة بالفعل ﴿تَقُومَ﴾، و﴿فِيهِ﴾ الثانية متعلقة بخبر مقدم محذوف.

ومن الشعر قول بعضهم في عبد الحميد بن الحسين بن علي بن الوزير المغربي: [خلع البسيط]

قد أطلع الفأل منه معنى يُدرِكُهُ العالمُ الذِّكْيُ

رأيتُ جدَّ الفتى علياً فقلتُ: جدُّ الفتى علي^(٢)

فقلوه: (رأيتُ جدَّ الفتى علياً) أي: رأيتُ حظه موفوراً من الخير والسعادة عالياً عظيماً، وفي قوله في المرة الثانية: (فقلتُ: جدُّ الفتى علي) أي: جدُّ ممدوحي عبد الحميد هو علي المغربي، فكيف لا يكون حظه كذلك، ولك أن تعكس ذلك؛ فكأنه يقول: علمتُ بأنَّ جدَّه هو علي بن المغربي، فقلتُ: حظه موفورٌ لا محالة؛ لشرفِ نسبه ورفِعه.

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢١٩.

(٢) انظر: أنوار الربيع ٦/ ١٦٠، وفيه أن الشعر لأبي عبد الله محمد بن أحمد صاحب الجيش بمصر.

ومنه أيضاً أن شاعراً هاماً بغادة حسناء، فوقف يتأمل سحر جمالها، فأبدت لصديقتها تعجبها منه، وجرت بينهما حوارية، أتى الشاعر على ذكرها بقوله: [الرجز]

قَالَتْ لِرَبِّ مَعَهَا مُنْكَرَةً لِسُوقَتِي: هَذَا الَّذِي نَرَاهُ مَنْ؟

قَالَتْ: فَتَى يَشْكُو الْمَوَى مُتَمِّمٌ قَالَتْ: بِمَنْ؟ قَالَتْ: بِمَنْ قَالَتْ: بِمَنْ^(١)

فالبغادة الحسنة تسأل تَرْبَهَا: بِمَنْ هو مُتَمِّمٌ؟ فتجيبها: هو مُتَمِّمٌ بآلتي قالت: (بِمَنْ) قبل قليل، وكأنها تقول لها: هو مُتَمِّمٌ بك أنت.

وللشيخ زين الدين بن الوردى قوله: [الطويل]

تَعَشَّقْتُ أَحْوَى لِي إِلَيْهِ وَسَائِلُ وَإِصْلَاحُ أَحْوَالِي لِدَيْهِ لَدَيْهِ

أُمْرُؤُهُ مُسْتَعْطِفًا وَمُسْلِمًا فَيُثْقَلُ تَسْلِيمِي عَلَيْهِ عَلَيْهِ

فَلَا كَانَ وَاشِي كَدَّرَ الصَّفْوَ بَيْنَنَا وَبَغَضَ تَحْيِييَ إِلَيْهِ إِلَيْهِ^(٢)

فإن قوله: (لديه لديه)، و(عليه عليه)، و(إليه إليه) ليس من باب التكرار في شيء، بل لكل شفع منهما معنيان، مغاير أحدهما للآخر.

ففي البيت الأول: (لديه الأولى) متعلقة بحالٍ محذوفةٍ من إصلاح أحوالي، و(لديه الثانية) متعلقة بخبرٍ محذوفٍ تقديره كائنٌ أو موجود، فهو يشكو تمنع المحبوب وصدوده ويرى أن تخليصه من عذابات الحب بيد المحبوب لا غير، وعليه فمعنى الشطر الثاني: وإصلاح أحوالي لدى هذا الجميل موجودةٌ عنده وحده.

ولو أفاد قارئ هذا البيت من المفصل الصوتي بين هاتين الكلمتين لزال التوهم، فيقال: (وإصلاح أحوالي لديه * لديه)... وكذا في البيت الثاني: (عليه الأولى) متعلقة بالفعل يثقل، و(عليه الثانية) متعلقة بالمصدر تسليمي، ولك أن تعلقها بحالٍ محذوفةٍ من تسليمي، ومعنى كلامه: أمرٌ بهذا

(١) انظر: أنوار الربيع ١٦٠/٦.

(٢) انظر: أنوار الربيع ١٦١/٦. الأحوى: مَنْ كان لون شفاهه حمرةً ضاربةً في سواد، والمرأة حواء.

المحجوب، فأسلم عليه مُستعظفاً قلبه مُستدِراً حنانه، لكنّه يُظهر لي أنّه يجدُ سلامي عليه ثقيلاً عليه. ومثل هذا يُقال في البيت الثالث؛ إذ التقدير: (وبغض إليه تحببي إليه)، وفاعل بغض هو الواشي الذي يدعو عليه الشاعر بالزوال.

ومن إيهام التوكيد أيضاً قول بعضهم: [المتقارب]

أَلَا حَلَّ بِي عَجَبٌ عَاجِبٌ تَقَاصَرَ وَضْفِي عَنْ كُنْهِهِ

رَأَيْتُ الْهَلَالَ عَلَى وَجْهِ مَنْ رَأَيْتُ الْهَلَالَ عَلَى وَجْهِهِ^(١)

فإنك حين تسمع الشطر الأول تتوهم بادئ الأمر أنّه يقول: (على وجه من رأيت الهلال؟) حتّى إذا قرأت الشطر الثاني توهمت أيضاً أنه يكرّر الشطر السابق بحذفيره حذفوراً حذفوراً، حتّى إذا تأملت المعنى ظهر لك أنّ (من) موصولة، وصلتها هي الشطر الثاني، وليس الشطر الثاني بتكرار للأول البتّة، بل المعنى: رأيت الهلال في وجه من سحر القمر في وجهها، ويجوز أن يكون الشاعر لم ينو هذا المعنى الأدبي، وإنّا نوى التلاعب اللفظي، ويُفسّر المعنى حينها: بأنّي رأيت الهلال على وجه التي رأيت الهلال على وجهها، ويكون حينها قد فسر الماء بعد الجهد بالماء.

بين الجناس وإيهام التوكيد:

إنّ هذا الفن يشبه الجناس التام في مخادعة المتلقّي، حيث التكرار الصوّتي الذي يعقبه اختلاف دلاليّ، وإن كان يختلف عنه في بعض التفاصيل من كون الكلام المكرّر ههنا قد يكون جملة مفيدة كاملة، وقد لا تكون الكلمة المكرّرة ههنا من باب المشترك اللفظي كما في الجناس التام مثلاً، بل ههنا يكتسب أحد اللفظين المكرّرين معناه المغاير من السياق؛ فعندما قال: (لديه لديه) معلوم لنا أنّ (لدى) معناها الظرفية، وههنا كلتا اللفظتين دلّت على الظرفيّة، لكنّ السياق هو الذي وجّه تلك الظرفية، فتعلّقت الأولى بالحال المحذوفة، والثانية بالخبر المحذوف، ويختلف إيهام التوكيد عن الجناس التام أيضاً أنّ الكلمة المكرّرة ههنا تعقب أختها مباشرة حتّى تظنّها من باب التوكيد

(١) انظر: أنوار الربيع ٦/ ١٦٠. والشعر فيه لأبي نصر أحمد بن عليّ بن أبي بكر الزوزني.

والتكرار، وليس هذا شرطاً في باب الجناس الذي قد تأتي فيه الكلمة أول البيت وتكرارها في آخر البيت أو في بيت آخر، أما الفرق بينه وبين التكرار فهو أن اللفظة المعادة في التكرار لا تحمل مدلولاً جديداً سوى تمكين سابقتها، أما في إيهام التوكيد فإن اللاحقة لها مدلول مغاير للسابقة، كما رأيت.

وتمّ لونٌ بديعٌ آخر ليس يعزّبُ عما نحن فيه من إيهام التوكيد، إنه فنُّ التّرديد الذي يُعرّفونه بأن يُعلّقَ المتكلمُ لفظاً من كلامه بمعنى، ثمَّ يُردّدُ تلك اللفظة بعينها مُعلّقةً بمعنى آخر^(١)؛ كقوله تعالى: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]؛ فالجلالة الأولى مضافٌ إليها متعلّقةٌ بمعنى هو إضافة الرُّسل إليه سبحانه، والجلالة الثانية مبتدأٌ بها متعلّقةٌ بمعنى آخر.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا آدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۚ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٢-٣] فـ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ ليلةُ القدر الأولى مبتدأٌ مؤخّرٌ، وخبره (ما) الاستفهامية، و﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ هذه متعلّقةٌ بمعنى التعظيم، أمّا ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ الثانية فمبتدأٌ خبرها ما بعدها، وهي متعلّقةٌ بمعنى الإخبار عنها بكونها خيراً من ألف شهر^(٢). ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢].

جمالية إيهام التوكيد:

لعلّ أبرزَ العناصرِ الجمالية في هذا الفنّ هي المفاجأة والإدهاش، بعد خداعِ المتلقّي ومخاطبته، من حيث يُوتى بالكلمة أو العبارة تُنطقُ أولاً، ثمَّ تُعاد عينيها فيظنُّها المتلقّي من باب الإعادة والتكرار، فإذا هي كلمةٌ جديدةٌ ومعنى مختلفٌ يُباغتُ المتلقّي ويُبهِجُه بأنّه حصّل من الكلمة الثانية فائدةً جديدةً كان قد يشّس منها ولم يعد يرجو تحصيلها، وهذا كما ترى يُضفي على الكلام مظهراً من مظاهر القوة والمتانة، وهو أدعى إلى إيقاظِ الحسِّ الجمالي لدى المتلقّي، وإلى تمكين المعنى في ذهنه؛ لأنّه لا يعقّله إلا بعد تدبُّر.

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٣٠٢.

(٢) انظر: أنوار الربيع ٣/ ٣٥٩.

إيهام التناسب

هذا الفنُّ العزيز الوجود مُلحَقٌ بمُراعاة النَّظير^(١)، وإذا كانت مُراعاة النَّظير هي الجمع بين الأمور المُتناسبة لا على جهة التَّضادِّ^(٢)؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فقد جُمع بين السَّمع والبَصَر لا على جهة التَّضادِّ، وقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِخَنَسِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] فقد جُمع بين الرِّبح والتَّجارة لا على جهة التَّضادِّ.

= فإنَّ إيهام التَّنَاسُب هو: إيراد لفظين أو أكثر، يكون لأحدهما معنيان: أحدهما غير مُناسبٍ لمعنى سابقه أو سابقاته في الظاهر، لكنَّه المعنى المقصود في السَّياق، والآخر مُناسبٌ لمعنى سابقه أو سابقاته، في الظاهر، لكنَّه غير مقصود في السَّياق.

ومن أمثلة إيهام التَّنَاسُب قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٥-٦]؛ فإنَّ أوَّل ما يتبادر إلى الذَّهن عند السَّماع بالنَّجم ههنا هو الكوكب المنير في السَّماء، وذلك أنَّه وقع بَصُحْبَةِ الشَّمس والقمر، وهذا يُوهِمُ التَّنَاسُب، ومن العوالم من يفهم هذه الآية على هذا النَّحو، والحقُّ أنَّ النَّجم ههنا هو ما نَجَمَ (ظَهَرَ) من نَبَتِ الأرض لا ساق له كالْبُقُول^(٣)، وهو المناسبُ للشَّجَر الَّذي له ساق، ثُمَّ إنَّ النَّجم أكثر ما يطلق على نجم السَّماء المُناسب للشَّمس والقمر؛ فالسَّياق هو الَّذي أوهم المتلقِّي وجَدَبَ ذُهنه ليعقِل النَّجم بمعنى الكوكب؛ وليميل إلى البقاء في الحقل المعجمي نفسه؛ لأنَّ «إبقاء الذَّهن في منطقة واحدة من مناطق المُفردات، أو استخدام مُعجم الأشياء المتقاربة في الواقع أمرٌ مُحبَّبٌ إلى النَّفس»^(٤).

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوُّرها ص ٢١٩.

(٢) هذه تسمية معظم البلاغيين، وله أسماءٌ أُخرى: (التَّنَاسُب، أو التَّوفيق، أو الائتلاف، أو التَّلْفِيق، أو المواخاة). انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوُّرها ص ٦١٤.

(٣) انظر: تفسير الجلالين ص ٥٣٢.

(٤) انظر: المفصل في علوم البلاغة ص ٥٦٤.

ومنه قول شيخ المَعَرَّة أبي العلاء: [الطويل]

إذا صدَّق الجَدُّ افترى العَمُّ للفتى مكارم لا تخفى، وإن كَذَبَ الخال^(١)

فأول ما يتبادر إلى ذهن المخاطب ههنا الجدُّ وهو أب الأب، والعَمُّ الذي هو أخوه، والخال الذي هو أخو الأم، وكل أولئك يجمع بينها أنَّها ألفاظ تدلُّ على الأقارب. ولكنَّ ذهن المتلقِّي الواقع تحت تأثير الإيهام إذا ما أعاد النَّظَر في البيت، ونقَّب في معجمه الخاصَّ عن معانٍ أُخَرِ يستقيم بها معنى البيت وجدَّ أنَّ مقصودَ أبي العلاء بالجدِّ (الحظُّ)، وبالعَمِّ (الجماعة من النَّاس)، وبالخال (الظَّنُّ)، ولا يخفى ما في هذا من تورية مُضِلَّة أيضاً.

جمالية إيهام التَّنَاسُب:

هذا الفنُّ لا يحسنُ إلَّا إذا جادت به القريحة وأتى عَفَوَ الخاطر، فهو مُنبَهُ أسلوبٍ يستوقفُ المُخاطَبَ ويجعله يُعيدُ تدبُّرَ الكلامِ ويتوقَّفُ بالتَّفكير عندَ معانيه فيتمكَّنُ المعنى في نفسه؛ وهذا حال المتلقِّي مع الآية الكريمة ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ بخلاف ما لو قيل (الشَّمْسُ والقمرُ بحُسابان، والبقل والشَّجَرُ يسجدان) وإن كانا بمعنى.

وقد يُفضي هذا الأسلوب إذا سمَّح به الطَّبْعُ إلى الإضحاك في بعض المواقف؛ إذا فهِمَ المخاطبُ الكلامَ على وجهٍ بعيدٍ عما أرادَ المتكلِّم، ثمَّ ردَّه المتكلِّمُ إلى الصَّواب، وأيضاً ربَّما أفضى هذا الالتباسُ في الفهمِ في مواقف أخرى إلى ما لا يُحمدُ عُقباها، وخاصَّةً إذا أرسلتَ شخصاً لتنفيذِ مهمَّةٍ مُحدَّدة وفهِمَهَا هو على غير وجهها، على أنَّ إيهام التَّنَاسُبِ في حاجةٍ إلى معرفةٍ بغريبِ اللُّغة من المتكلِّم والمخاطب على حدِّ سواء.



(١) انظر: سرّ الفصاحة ص ٣٣٨، وأنوار الربيع ٣/ ١٣٨.

المُشَاكَلَة

المُشَاكَلَة لُغَة المُشَابَهَة والمِثَالَة^(١)، واصطلاحاً هي: أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ شَيْءٍ بِلَفْظٍ غَيْرِهِ؛ لَوُقُوعِهِ فِي صُحْبَتِهِ^(٢)، وَقَدْ تَأْتِي اللَّفْظَةُ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا الْمُشَاكَلَةُ مُتَقَدِّمَةً عَلَى أُخْتِهَا الْمُشَابَهَةِ لَهَا لَفْظاً، أَوْ مُتَأَخَّرَةً عَنْهَا. وَالزَّخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) يَرَى فِي الْمُشَاكَلَةِ فَنّاً بَدِيعاً وَطِرَازاً عَجِيباً مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ^(٣).

وَمِنْ الْمُشَاكَلَةِ أَنْ يَسْأَلَكَ صَاحِبُ الدَّارِ: أَسْقِيكَ مَاءً، فَتُجِيبُهُ: (بَلْ اسْقِنِي خُبْزاً وَلَحْماً)^(٤)، فَتَكُونُ قَدْ ذَكَرْتَ الْإِطْعَامَ بِلَفْظِ السَّقْيِ؛ لَوُقُوعِهِ فِي صُحْبَتِهِ. وَهَذَا الْأَسْلُوبُ كَمَا تَرَى يَجْعَلُ الْمُتَلَقِّيَ يَتَوَهَّمُ ابْتِدَاءً أَنْ مَدْلُولَ الْكَلِمَةِ الْمَأْتِيٍّ بِهَا لِلْمُشَاكَلَةِ هُوَ مَدْلُولُ الْكَلِمَةِ الْأُخْرَى نَفْسُهُ، ثُمَّ يَبْدُو لَهُ بَعْدَ حِينٍ أَنَّهُ أَمَامَ مَدْلُولٍ آخَرَ عُبِّرَ عَنْهُ بِلَفْظٍ غَيْرِهِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فَقَدْ يَقَعُ فِي وَهْمِ السَّامِعِ أَنَّهُ تَعَالَى يَدْعُو الْمُؤْمِنِينَ لِلْإِعْتِدَاءِ عَلَى الْمَشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْتَدُوا﴾ فَاغْتَضُّوا^(٥)،... وَمِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنْ يُسَمُّوا الْجُزَاءَ عَنِ الشَّيْءِ بِاسْمِهِ^(٦).

وَمِنْ مِثْلِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وَلَكِنَّ السُّؤَالَ هُنَا: كَيْفَ يَكُونُ رَدُّ الظَّالِمِينَ عِدْوَاناً وَقَدْ أَبَاحَهُ اللَّهُ تَعَالَى؟ فَيَقُولُ

(١) انظر: اللسان (شكل).

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٦٢١، وفيه أن أبا علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) أول من أطلق على ذا الأسلوب تسمية المُشَاكَلَة.

(٣) انظر: الكشف ٢٣٨/١.

(٤) هذا المثال مُستفادٌ من تهذيب الإيضاح ٥٩/١، وفي ٦٤-٦٥ قصةٌ وأبيات تضمّنت معنى هذه المُشَاكَلَة.

(٥) انظر: معاني القرآن للقرآء ١١٧/١.

(٦) انظر: أمالي المُرتضى ٤٩٤/١.

الفراء (ت ٢٠٧هـ): «فإن قال قائل: رأيت قوله: ﴿فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أعدوان هو وقد أباحه الله لهم؟ قلنا: ليس بعدوان في المعنى، إنما هو لفظ على مثل ما سبق قبله، ألا ترى أنه قال: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ فالعدوان من المشركين في اللفظ ظلم في المعنى، والعدوان الذي أباحه الله، وأمر به المسلمين إنما هو قصاص، ولا يكون القصاص ظلماً [يقصد: عدواناً] وإن كان لفظه واحداً^(١).

ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سِنِينَ سَنَيْنًا مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ فجزاء المسيء على إساءته في الحقيقة ليس سِنَّةً، بل قصاص، ومعنى الآية الكريمة: وقصاص السِّنَّةِ يكون بالعفو، أو يكون بمثلها وعلى قدرها، لا يزيد عليه شيئاً؛ لئلا يكون القصاص ظالماً، ولكن لوقوعها في صُحبة الأولى عبَّرَ عنها بلفظة السِّنَّةِ، مع أنها حق للمعتدى عليه، وليست بسِنَّة^(٢).

ومن المشاكلة التي قد تلبس على من يجهل هذا الأسلوب قوله تعالى في حديثه عن كفار بني إسرائيل الذين بئتوا قتل عيسى عليه السلام: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]؛ والمكر هو الاحتيال، ومكر الله هو إيقاع بلائه بأعدائه^(٣)، وههنا يقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): ﴿وَمَكُرُوا﴾ الواو لكفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، ومكرهم أنهم وكَّلوا به من يقتله غيلةً ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ أن رفع عيسى إلى السماء، وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قُتل، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ أقواهم مكرًا وأنفذهم كيداً وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعرون المعاقب^(٤).

(١) انظر: معاني القرآن للفراء ١/ ١١٦.

(٢) انظر: خزائن الأدب ٤/ ٥، وأنوار الربيع ٥/ ٢٨٤.

(٣) انظر: اللسان (مكر).

(٤) انظر: الكشف ١/ ٥٦٢.

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فهؤلاء المنافقون يظنون أنهم يخدعون الله والمؤمنين بنفاقهم هذا، فذكر سبحانه إمهاله إياهم في الدنيا واستدراجه لهم بلفظ (المخادعة لهم) من باب المشاكلة؛ لوقوعه بصحبة المخادعة الأولى، وهذا أشبه ما يكون بالطباق في تأثيره في نفس السامع، من حيث أفهمتك الآية أن هؤلاء المنافقين مخدوعون لا مُحادعون، ولكنهم لا يدرون ولا يشعرون. وقد قال الزمخشري: (ت ٥٣٨ هـ) ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾: يفعلون ما يفعل المُخادِعُ؛ من إظهار الإيمان، وإبطان الكُفْر، ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾: وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع؛ حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعدَّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة^(١).

ومن المشاكلة قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، أي: تعلم ما أخفيه في نفسي، ولا أعلم ما تخفيه من علمك، فلما عبر عن الأول بـ ﴿مَا فِي نَفْسِي﴾ عبر عن الثاني بـ ﴿مَا فِي نَفْسِكَ﴾ على سبيل المشاكلة؛ إذ الله عز وجل لا يُستعمل في حقه لفظة (النفس)^(٢)، ويُعلق الزمخشري على الآية الكريمة بقوله: «والمعنى: تعلم معلومي، ولا أعلم معلومك، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة، وهو من فصيح الكلام وبينه، فقل: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾»^(٣).

ومن الحديث النبوي الشريف قوله: «فإن الله لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»^(٤) والمعنى: فإن الله لا يَقْطَعُ عنكم فضله حَتَّى تَمَلُّوا عن مسألته، فوضع (لا يَمَلُّ) موضع: (لا يَقْطَعُ عنكم الفضل والثواب) على جهة المشاكلة^(٥).

(١) انظر: الكشف ١٦٦/٢.

(٢) انظر: خزائن الأدب ٥/٤، وأنوار الربيع ٥/٢٨٤.

(٣) انظر: الكشف ٣١٥/٢.

(٤) انظر: صحيح البخاري ١/٣٨٦ - والحديث برقم (١١٠٠).

(٥) انظر: خزائن الأدب ٥/٤.

وَمِنْ مِثْلِهِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ: [الكامل]

مَنْ مُبْلِغُ أَفْنَاءِ يَغْرُبُ كُلُّهَا آتِي ابْتَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْزِلِ^(١)

فَبِنَاءِ الْجَارِ إِنَّمَا سَوَّغَهُ بِنَاءُ الْمَنْزِلِ، وَقَدْ ذَكَرَ الشَّرِيفُ الْمُرْتَضَى (ت ٤٣٦ هـ) أَنَّهُ «مِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ أَنْ تُسَمِّيَ الشَّيْءَ بِاسْمِ مَا يُقَارِبُهُ وَيُصَاحِبُهُ، وَيَشْتَدُّ اخْتِصَاصُهُ وَتَعَلُّقُهُ بِهِ، إِذَا انْكَشَفَ الْمَعْنَى وَأُمِنَ الْإِبْهَامُ»^(٢).

وَمِنْ إِبْهَامِ الْمَشَاكَلَةِ فِي بَابِ السُّخْرِيَةِ الضَّاحِكَةِ مَا يَحْكِيهِ الشَّاعِرُ الْفَكِيهُ أَبُو الرَّقْعَمَقِ إِذْ يَقُولُ: «كَانَ لِي إِخْوَانٌ أَرْبَعَةٌ، وَكُنْتُ أَنْادِيهِمْ أَيَّامَ الْأَسْتَاذِ كَافُورِ الْإِخْشِيدِيِّ (ت ٣٥٧ هـ)، فَجَاءَنِي رَسُولُهُمْ فِي يَوْمٍ بَارِدٍ، وَلَيْسَ لِي كُسُوءٌ مُحْصَنُنِي مِنَ الْبَرْدِ، فَقَالَ: إِخْوَانُكَ يَقْرَأُونَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُونَ لَكَ: لَقَدْ اصْطَبَحْنَا الْيَوْمَ، وَذَبَحْنَا شَاةً سَمِينَةً، فَاشْتَرَيْنَا عَلَيْهَا مَا نَطْبِخُ لَكَ مِنْهَا؟ فَكَتَبْتُ إِلَيْهِمْ: [الكامل]

إِخْوَانُنَا قَصَدُوا الصَّبُوحَ بِسُخْرَةٍ فَأَتَى رَسُولُهُمْ إِلَيَّ خُصُوصاً

قَالُوا: اقْتَرَحْ شَيْئاً نَجِدُ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصاً^(٣)

فَقَوْلُهُ: «اطْبُخُوا» مَعْنَاهُ: (خِيطُوا)، وَقَدْ ذَكَرَ الْخِيَاطَةُ بِلَفْظِ الطَّبْخِ؛ لَوُقُوعِهَا فِي صُحْبَةِ طَبْخِ الطَّعَامِ، وَقَدْ غَمَزَ بِهِم بِالطَّفِ عِبَارَةً. وَلَكَ أَنْ تَقُولَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وَأَنْتَ تَرَى مَا فِيهَا مِنَ التَّهْكُمِ بِالْكَفَّارِ.

جَمَالِيَّةُ الْإِبْهَامِ فِي الْمَشَاكَلَةِ:

جَمَالِيَّةُ الْإِبْهَامِ فِي أَسْلُوبِ الْمَشَاكَلَةِ تَنْبُعُ مِنْ حَيْثُ تَوَهَّمِ الْمُتَلَقِّي أَوَّلًا أَنْ مَدْلُولَ الْكَلِمَةِ الْمَأْتِي بِهَا لِلْمَشَاكَلَةِ هُوَ مَدْلُولُ الْكَلِمَةِ الْأُخْرَى نَفْسُهُ، ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ بَهْجَةُ التَّعَرُّفِ وَلَذَّةُ الْاِكْتِشَافِ حِينَ بَدَأَ لَهُ أَنَّ الْكَلِمَةَ الثَّانِيَةَ لَيْسَتْ مِنْ جِهَةِ الْأُولَى، وَإِنَّمَا جِيءَ بِهَا اسْتِجَابَةً لِدَاعِي الْمَشَاكَلَةِ، وَيَقُولُ الْأَسْتَاذُ عَزَّ

(١) انظر: ديوان أبي تمام ١١٦/٣. الأفناء ههنا: الجماعات أو القبائل.

(٢) انظر: أمالي المرتضى ١٤٧/٢.

(٣) انظر: معاهد التنصيص ٢٠٢/٢، وخزانة الأدب ٦/٤.

الذين التّوخّي (ت ١٩٦٦م) رحمه الله: «والسرّ في اعتبار (المشاكلة) من البديع المعنوي أنّ فيها نقلاً للمعنى من لباسه المعروف إلى لباس غير مألوف، فيُحدث عَجَباً أو طَرَباً، ولذا جعلوه مُحَسَّناً بديعياً»^(١).

ويرى آخرون أنّ مبعث الجمال في المشاكلة من كونها «تبرز سلطان بعض الألفاظ في السياق على نحو تستدعي فيه مُشاكلاتها اللفظية، وإن كانت بمعانٍ أُخر... ولن يغيب عنك ما قلنا من أنّ في النفوس ظمناً لرؤية المتماثلات في معرض واحد...»^(٢). وقد ورد في الذكر الحكيم كثير من آيات المشاكلة، ومعرفة المرء بهذا الأسلوب الفصيح كفيلة بإزالة ما قد يعلق في ذهنه من وهم أو لبس في تفسير هذه الآيات^(٣).



(١) انظر: تهذيب الإيضاح ٥٩/١.

(٢) انظر: المفصل في علوم البلاغة العربية ص ٥٦٩.

(٣) واعترض بعضهم على التمثيل بهذه الآيات قائلاً: «ويتسرّع بعض البلاغيين وغيرهم فيمثلون بأمثلة قرآنية على المشاكلة، وهي لدى التحليل اللغوي والرجوع إلى أصول المعاني لا يصح اعتبارها من المشاكلة؛ كألفاظ المكر، والكيد، والسّيئة». انظر: البلاغة العربية (أسسها، وعلومها، وفنونها) ٤٣٩/٢.

الاستدراك

الاستدراك لغةً من استدرك الشيء بالشيء إذا حاول إدراكه به^(١)، واصطلاحاً: أن تأتي بكلامٍ يُوهِمُ السَّامِعَ معنىً، ثُمَّ ترفعُ هذا التَّوهُمَ المتولّدَ من الكلامِ السَّابِقِ رفعاً شبيهاً بالاستثناء، وهو معنى (لكن)^(٢)، ويُشترطُ فيه هنا زيادةُ نكتةٍ طريفةٍ على معنى الاستدراك؛ لتحسّنه وتدخله في البديع، وإلا فلا يُعدُّ منه.

والتأملُ يُفضي إلى أن الاستدراكَ جزءٌ من «الرجوع» ثالث المحاسنِ عند ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)؛ فالرجوعُ هو أن يقول المتكلّمُ شيئاً ويَرْجِعَ عنه^(٣)، وهذا ينطبقُ على الاستدراك، ولعلّ ما بعثهم على هذا الفصل - فضلاً عن التنافس والمكاثرة في الألوان البديعية بين أهل البديع - هو أن الاستدراك له هيئةٌ مخصوصة؛ من الاستثناء، وبمقدورنا القول: إنَّ كلَّ استدراكٍ رجوعٌ، وليس كلُّ رجوعٍ استدراكاً؛ وقد وقع الاختيارُ ههنا على الاستدراك وحده؛ لأنه الأكثرُ قدرةً على إيهام المتلقّي، وهو ضربان:

- ضربٌ يسبقُ الاستدراكَ فيه تقريرٌ أو توكيدٌ (لفظاً أو معنى) لِمَا أَخْبَرَ به المتكلّمُ، وهذا هو الأكثرُ.
- وضربٌ لا يسبقُ بذلك.

فمن الضربِ الأوّل قول ابن الروميّ: [الوافر]

فكأنّوها، ولكنّ للأعادي	وإخوانٍ نَحْذِثُهُمْ دُرُوعاً
فكأنّوها، ولكنّ في فؤادي	وخلّيتُهُمْ سَهَاماً صَائِبَاتٍ
لقد صدّقوا، ولكنّ من ودادي ^(٤)	وقالوا: قد صفتُ منّا قلوباً

(١) انظر: اللسان (درک).

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية ص ٧٤-٧٦، وشرح عقود الجُمُان ص ١٣٢، وأنوار الربيع ١/ ٣٨٥-٣٩١.

(٣) انظر: البديع ص ٦٠.

(٤) انظر: ديوان ابن الروميّ ٢/ ٨٠٩، وتحرير التّحجير ص ٣٣١، ومعاهد التنصيص ٣/ ١٨٥-١٨٦.

إِنَّ السَّامِعَ يَظُنُّ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ بِأَنَّ الشَّاعِرَ يَمْدَحُهُمْ؛ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ لَهُ دُرُوعاً، وَسَهَاماً صَائِبَاتٍ، وَوَاتَّقَهُمْ عَلَى صَفَاءِ الْقُلُوبِ، فَصَدَّقُوهُ الْقَوْلَ وَكَانُوا دُرُوعاً.. وَلَكِنْ بِيَدِ مَنْ؟ بِيَدِ أَعْدَائِهِ، وَسَهَاماً صَائِبَاتٍ.. وَلَكِنْ أَيْنَ؟ فِي فُؤَادِهِ، وَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُهُمْ حَقّاً.. وَلَكِنْ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ مِنْ وِدَادِهِ وَالْوَفَاءِ لَهُ...، إِنَّهُ حَقّاً أَسْلُوبٌ طَرِيفٌ مِنْ أَسَالِيبِ النَّفْيِ، فِيهِ يَحْصُلُ تَمَكُّنُ الْمَعْنَى فِي نَفْسِ السَّامِعِ؛ لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ خَادِعَ الْمُتَلَقِّي هَهُنَا.. فَاسْتَدْرَجَهُ لِيُوهِمَهُ شَيْئاً ثُمَّ فَاجَأَهُ بِخِلَافِهِ تَمَاماً، وَهَذَا أَدْعَى إِلَى تَنْشِيطِ السَّامِعِ وَتَنْبِيهِهِ إِلَى مَا سِيَّئِي بَعْدَ مِنْ كَلَامٍ، وَهُوَ أَعْلَى وَأَمْدَحُ فِي السُّخْرِيَةِ؛ لِأَنَّ فَرْقاً كَبِيراً بَيْنَ قَوْلِهِ: (أَصْدِقَائِي صَارُوا دُرُوعاً لِأَعْدَائِي) وَبَيْنَمَا قَالَ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعِبَارَةَ الَّتِي يَبْذُلُ الْمَرْءُ جَهْداً فِي تَحْلِيلِ بَنِيَّتِهَا وَتَحْصِيلِ مَعْنَاهَا يَكُونُ أَثَرُهَا أَرْسَخَ فِي الذَّهْنِ وَأَبْقَى مِنَ الْجُمْلَةِ الْمُبَاشِرَةِ الظَّاهِرَةِ الْمَعْنَى.

ولابن الرُّومِيّ أيضاً في باب الاستدراك قولٌ مُعْجَبٌ: [البسيط]

لَسْتُ فَخَرْتُ بِأَبْسَاءِ ذَوِي حَسَبٍ لَقَدْ صَدَقْتُ، وَلَكِنْ بِشَسِّ مَا وَلَدُوا^(١)

هو يمتدح مخاطبه بأنه شريف النسب، كريم الحسب، أبأؤه من دُؤَابَةِ الْعَرَبِ؛ مِنْ سَرَاةِ الْقَوْمِ وَكِرَامِهِمْ وَعِلْيَةِ النَّاسِ وَفُضْلَانِهِمْ، وَلَكِنْ سُبَّتَهُمُ الْوَحِيدَةَ بَيْنَ الْقَبَائِلِ هِيَ أَنَّهُمْ أَنْجَبُوا هَذَا الْمُخَاطَبَ، وَهَلْ ثَمَّةُ سُخْرِيَةٍ أَوْجَعُ وَأَلَمُ مِنْ هَذَا؟ أَلَا تَرَى أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ شَرَعَ فِي الْمَدِيحِ حَتَّى إِذَا طَمَأَنَّ مُخَاطَبَهُ وَجَعَلَهُ يَطْرُبُ لِلْمَدِيحِ وَيَتَشَبَّهِ، وَتَلَوَّحَ عَلَيْهِ أَمَارَاتُ الرِّضَا وَالِاسْتِبْشَارِ وَالْفَرَحِ؛ أَخَذَهُ عَلَى وَجْهِهِ بِعِبَارَةٍ صَافِعَةٍ تُنَكِّسُ رَأْسَهُ بَيْنَ النَّاسِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ.

والإيهامُ جليٌّ في قول ابن أبي حجلة: [الوافر]

شَكَوْتُ إِلَى الْحَبِيبَةِ سُوءَ حَظِّي وَمَا الْقَاهُ مِنْ أَلَمِ الْعِمَادِ

فَقَالَتْ: أَنْتَ حَظُّكَ مِثْلُ عَيْنِي فَقُلْتُ: نَعَمْ، وَلَكِنْ فِي السَّوَادِ^(٢)

وقول صدر الدين بن الوكيل: [الطويل]

(١) انظر: ديوان ابن الرُّومِيّ ٨٠٨/٢.

(٢) انظر: أنوار الربيع ٣٨٨/١.

وبى من قسا قلباً ولان معاطفاً إذا قلت: أدناسي، يضاعف تبعيدي
أقرب برق إذ أقول: (أنا له) وكم قالها يوماً، ولكن لتهديدي^(١)

الاستدراك ههنا أتى على نحوٍ مُدهشٍ؛ إذ أفاد من ظاهرة التَّنغيم الصَّوتِيّ؛ فالشَّاعرُ يقولُ: (أنا له) مُقَرَّراً بأنَّ الحبيبةَ قد ملكتُ عليه فؤاده، وأسرتُ لُبَّهُ، وشغفته حُبًّا، فصارَ مَتِيماً بها، وأسيراً طيِّعاً حُبِّها، وكأنَّه عبدٌ مملوكٌ لها.. وكذا الحبيبةُ تقولُ أيضاً كما قال: (أنا له)، وهذا يُوهِمُ السَّامِعَ أنَّ للشَّاعرِ في قلب حبيبته ما لها في قلبه من الحبِّ والحنانِ ولين الجانب، ولكن شتَّانَ ما بينَ القولين، فالشَّاعرُ قصدَ بقوله: (أنا له) أي أنا عبدٌ لحبيبي وملِكُ يديه، أمَّا الحبيبةُ فأرادتَ بها التَّهديدَ والوعيدَ..

ومنه قول ابن الدَّوَيْدَةِ المَغْرِبِيِّ يُخاطِبُ رجلاً أودَعَ بعضَ القضاةِ مالاً، فادَّعى القاضي ضياعه:

[الكامل]

إن قال: قد ضاعَتْ، فيصدِّقُ أنَّها ضاعَتْ، ولكن (منك) يعني، لو نعيي

أو قال: قد وقَعَتْ، فيصدِّقُ أنَّها وقَعَتْ، ولكن منه أحسنَ موقعٍ^(٢)

ومن الضَّرْبِ الثاني الذي لا يَسْبِقُ الاستدراك فيه تقريرٌ أو توكيدٌ (لفظاً أو معنى) لِمَا أَخْبَرَ به المتكلِّمُ قولُ زهير: [الطَّويل]

أخسي ثقة لا تهلك الخمرُ ماله ولكنَّه قد يهلكُ المالُ نائله^(٣)

فصدُرُ البيتِ يُوهِمُ بُخله، حتَّى إذا أتى العَجْزُ رَفَعَ الإيهامَ المتولِّدَ من الشَّطْرِ الأوَّلِ مُنفِرداً، ففي البَدْءِ رأينا أنَّه لا يبددُ أمواله على شُرْبِ الخمرة، وهذا يدلُّ على شُحِّه؛ لأنَّ شُرْبَ الخمرة من مواطن النَّدَى عند العربِ، وقد كانتِ العربُ تُعدُّ إتلافَ المالِ في الخمرِ من المدحِ البليغِ، ولكن أتى الشَّطرُ الثاني ليُخبرنا بأنَّه يبذلُ ماله بسخاءٍ للحمدِ والعطايا وعَوْنِ العُفاة، ولو أنَّه اقتصر على صدر البيت

(١) انظر: معاهد التَّنصيص ٣/ ١٨٢، وأنوار الربيع ١/ ٣٨٨.

(٢) انظر: تحرير التَّحجير ص ٣٣١، ومعاهد التَّنصيص ٣/ ١٨٥.

(٣) انظر: ديوان زهير ص ١٤١، وتحرير التَّحجير ص ٣٣٢.

لَدَلْ عَلَى أَنَّهُ يَوْفِرُ مَالَهُ وَلَا يُنْفِقُهُ، وَتِلْكَ صِفَةُ ذِمٍّ، وَلَكِنَّهُ اسْتَدْرَكَ بِهَا يَزِيلُ هَذَا الاحْتِمَالَ، وَيُخَلِّصُ
الْكَلَامَ لِلْمَدْحِ الْمُخْضِرِ، فَقَدْ مَدَحَهُ بِصِفَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ: أُولَاهُمَا الْعِفَّةُ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُمَعِنٍ فِي اللَّذَاتِ وَلَا يَهْلِكُ
مَالَهُ فِيهَا، وَثَانِيهَا السَّخَاءُ.

وَمِنَ الضَّرْبِ الثَّانِي أَيْضاً قَوْلُ الْمَعَرِّي: [الطَّوِيل]

فِيَا دَارَهَا بِالْحَزَنِ إِنَّ مَزَارَهَا قَرِيبٌ، وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ أَهْوَالٌ^(١)

إِنَّ الْكَلَامَ الْأَوَّلَ (إِنَّ مَزَارَهَا قَرِيبٌ) مَنَحَ السَّامِعَ بَارِقَةً أَمَلٍ بِأَنَّ الْعَاشِقَ سَيُظْفَرُ بِوَصَالِ الْمَحْبُوبَةِ،
ثُمَّ يَسْتَدْرِكُ الْقَائِلُ (وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ أَهْوَالٌ) لِيُخَيِّبَ تَوَقُّعَ السَّامِعِ، وَيَنْتَقِشَ فِي ذَهْنِهِ أَنَّ أَسْبَابَ
وَصَالِهَا مَقْطُوعَةٌ، وَهَذَا كَفِيلٌ بِالْبُوحِ عَمَّا فِي صَدْرِ الشَّاعِرِ مِنْ مَكَابِدَةِ الشَّوْقِ، وَكَثْرَةِ الْاِغْتِمَامِ؛ لِأَنَّهُ
مَمْنُوعٌ مِنْ وَصَالِ مَحْبُوبَتِهِ الْقَرِيبَةِ الْبَعِيدَةِ.

جَمَالِيَّةُ الاسْتَدْرَاكِ:

لَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا الْفَنَّ الْبَدِيعِيَّ يَقُومُ عَلَى مُفَاجَأَةِ الْمُتَلَقِّي، وَمُبَاغِتَتِهِ بِغَيْرِ مَا كَانَ يَرْتَقِبُ، إِذْ يَقُومُ عَلَى
الْعُدُولِ عَنِ الْإِخْبَارِ السَّابِقِ، وَلَكِنْ أَيُّ عُدُولٍ؟ هُوَ عُدُولٌ يَنْفِي بِشِدَّةٍ كُلَّ مَا سَبَقَ، وَيَقْطَعُ الصَّلَةَ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ، فَتَحْصُلُ هَهُنَا الدَّهْشَةُ؛ لِتَلَخُّصِ تِلْكَ الْمَفَارِقَاتِ، وَتَمْنَحِ الْمُتَلَقِّيَ الْقُدْرَةَ الْعَقْلِيَّةَ عَلَى
إِدْرَاكِ هَذِهِ الْمَفَارِقَاتِ مَعًا، وَهَذَا يُولِّدُ مُنَبِّهًا أَسْلُوبِيًّا يُوقِظُ غَفْلَةَ الْمُتَلَقِّي، وَيُنَشِّطُ فِكْرَهُ، وَيُقَرِّرُ الْمَعْنَى
فِي نَفْسِهِ، وَلَا يَغْفُلُ الذَّوْقُ السَّلِيمُ عَمَّا فِي هَذَا الْأَسْلُوبِ مِنْ طَرَاغِيَةِ تَجَعُّلِهِ يُسَهِّمُ إِسْهَامًا فِي صِنَاعَةِ
الْأَسَالِيبِ السَّاخِرَةِ؛ فَضلاً عَنْ إِضْحَاكِهَا أحياناً.



(١) انظر: ديوان سقط الزند ص ٢٦٦، وأنوار الربيع ١/ ٣٩٠.

الأسلوب الحكيم

هو أن تُوهِمَ مخاطَبَكَ؛ فتتلقَّاهُ بغير ما يترقَّبُ، صارفاً حديثه إلى وجهةٍ أُخرى لم يقصدها؛ بإحدى طريقتين: أولاهما: أن تتناسى سؤاله وتجيبه عن سؤالٍ لم يسأله، مُوهِماً إيَّاه أنك فهمته على هذا النحو، وثانيهما: أن تحمِلَ كلامه على غير ما يقصده؛ تنبيهاً على أنه الأولى به أن يقصده.

ومن الأسلوب الحكيم قوله: [الطويل]

أنت تشتكى عندي مُزاولةَ القرى وقد رأيت الضيفانَ ينحونَ منزلي
فقلت كأي ما سمعتُ كلامها هُم الضيفُ جِدِّي في قِراهم وعَجَلِي^(١)

هذا الأعرابيُّ يسوقُ كلامه للفخر، بأنَّ زوجته أتته تشكو إليه معاناتها.. وأيُّ معاناةٍ؟ لقد أضتتها كثرةُ الضيفان الوافدين على بعلها في كلِّ يوم، وما يتبعُ ذلك من إكرامهم لهم، وبأئنها هي التي تنصبُ في إعدادِ الطعام لهم، وأنها لا تستريحُ أبداً من استقبال الضيفان والقيام على خدمتهم.. ولكنَّ هذا الزوجُ تغافلَ عن كلامها.. وأجابها بغير ما كانت ترتقبُ؛ تنبيهاً لها على أنَّ هذا أولى بها؛ وكأنه يقولُ لها: إنَّ تعجيلك بإقراء الضيفان أولى لك من هذا الكلام، أو لعلَّه تغافلَ عن كلامها؛ لأنَّه لا يريدُ اصطناعَ الجدَلِ معها، وهذا حقّاً أسلوبٌ حكيمٌ في التعاطي مع مَنْ يُلقون الكلام على عواهنه.

وكثيراً ما يتعاضدُ الأسلوبُ الحكيمُ مع التورية، فيزدادُ الإيهامُ إيهاماً، وقد يخدمُ هذا في صناعةِ السخرية الطريفة؛ كقول صلاح الدين الصفدي: [السرير]

وصاحبٍ لما أتاهُ الغنى تاء، ونفسُ المرءِ طماحة
وقال: هل أبصرتَ منه يداً تشكرُها؟ قلت: ولا راحة^(٢)

(١) انظر: مفتاح العلوم ص ٤٣٥.

(٢) انظر: أنوار الربيع ٢٠٨/٢.

فاليَدُ المقصودةُ في السُّؤالِ هي النِّعمةُ، ولكنَّ المَجِيبَ حَوَّها إلى اليَدِ الجارحةِ، فكأنَّه للمبالغةِ يقولُ: لم أَرِ معروفه، بل إنِّي لم أَرِ يدهَ الَّتِي هي آلةُ المعروف أصلاً.

ومَّا زادَ هذا الأسلوبَ طرافةً اجتماعه ههنا مع التَّوريةِ، فلفظة (راحة) لها معنى قريبٌ هو باطنُ الكَفِّ، وبعيدٌ هو الارتياحُ وخُلُوُّ البالِ، فلو نوى المتكلِّمُ المعنى البعيدَ للرَّاحةِ لصارَ المعنى: (لا رأيْتُ معروفه، ولا عرفتُ الارتياحَ مُدَّ عرفتُه، أو بسببه) وهذا إمعانٌ في السَّخريةِ كما ترى، ولكنَّ لا مُدْخَلَ له في الأسلوبِ الحكيمِ؛ لأنَّ هذا الجوابَ كما ترى مطابقٌ للسُّؤالِ.

وكقول أحدهم في صاحبه: [مجزوء الرجز]

طَلَبْتُ مِنْهُ دِرْهَمًا يَوْمًا، فَأَظْهَرَ الْعَجَبُ
وَقَالَ: ذَا مِنْ فِضَّةٍ يُصْنَعُ لَا مِنْ الذَّهَبِ^(١)

صاحبه يسأله دِرْهَمًا، وهو يَصْرِفُ حديثه إلى معنى آخر، هو أَنَّ الدَّرْهَمَ مصنوعٌ من الفِضَّةِ لا من الذَّهَبِ، ليتخلَّصَ من طَلَبِ السَّائلِ، والإيهامُ في هذا ظاهرٌ.

ومثله في ركوب الأسلوب الحكيم في ذمَّ البخيلِ قول صلاح الدِّين الصَّفدي: [الكامل]

وَلَقَدْ أَتَيْتُ لَصَاحِبِي، فَسَأَلْتُهُ فِي قَرْضِ دِينَارٍ لَأَمْرٍ كَانَا
فَأَجَابَنِي: وَاللَّهِ، دَارِي مَا حَوَتْ عَيْنًا، فَقُلْتُ لَهُ: وَلَا إِنْسَانًا^(٢)

ولو تأملتَ قوله: (ولا إنسانا) لرأيتَ فيه ألواناً من البديع، منها الأسلوب الحكيم، فالأوَّلُ عني بالعين الدِّينار، والثاني أوهم أنه فهمها عيناً باصرة، فقال: «ولا إنسانا»، ولعلَّه أرادَ بهذا الجوابَ «ولا إنسانا» أن يقول لصاحبه: (أقسمتَ أن ليس في بيتك عَيْنٌ، وأنت لم تُردِّد بها الدِّينار، بل نويتَ في قلبك واحداً من المعاني الكثيرة لكلمة العين)، وكأنَّه يتهمه بامتلاكه الدِّينارَ ولجؤه إلى معاريض

(١) بلا نسبة في جواهر البلاغة ص ٤٠٦.

(٢) انظر: أنوار الربيع ٢/ ٢٠٨.

الكلام، وإنَّ له فيها لَمَنْدُوحَةً عن الكذب، فإنَّ قَصْدَ ما ذَكَرْتُ فقد رَمَى صاحِبَه بالبُخل والخِداع معاً، وإنَّ كَانَ قاله مع شيءٍ من المُبَاسَطةِ والمِزَاح فقد دَخَلَ في الهُزْل الَّذِي يُرَادُّ به الجِدُّ أيضاً.

ومثله ما حُكي من أنَّ الخَارجِيَّ الغَضْبَانَ بنَ القَبْعَثَرِيِّ كَانَ مع أَصْحَابِه في بُسْتَانٍ، فَلَمَّا ذَكَرُوا الحَجَّاجَ قال: «اللَّهُمَّ سَوِّدْ وَجْهَه، واقطعْ عُنُقَه، واسقِنِي من دِمِه»، فَوُشِيَ به إلى الحَجَّاجِ، فَلَمَّا مَثَلَ بينَ يَدَيْهِ، وسأله عن ذاك، قال: إِنَّمَا أَرَدْتُ (العِنَبَ)، فأوعده الحَجَّاجُ، فأجابَه بكلام طريف اشتُهر بينَ البلاغيِّين^(١). ولا يخفى ما وراءَ هذا الأسلوب من ذكاءٍ، وسَعَةٍ في الثَّرْوَةِ المعجميَّةِ، ومَهارةٍ في تفكير المتكلِّم تتيحُ له أن يتصرَّف بسرعةٍ في كلام المخاطَب، وأن يُغيِّر وجهته.



(١) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٣٨، ومفتاح العلوم ص ٤٣٥، وجواهر البلاغة ص ٤٠٦.

القول بالموجب

القول بالموجب من طريف الأساليب في كلام العرب، وهو ضربان^(١):

الأول: أن يقع (في كلام الغير) صفة لشيء أثبت له حكم ما، فثبتت أنت (في كلامك) تلك الصفة لشيء آخر، دون أن تتعرض لثبوت ذلك الحكم له، أو انتفائه عنه؛ كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، فإنهم أرادوا بـ ﴿الْأَعَزُّ﴾ فريقهم، وبـ ﴿الْأَذَلُّ﴾ فريق المؤمنين، وأثبتوا الإخراج للأعز، فأثبت الله تعالى في الرد عليهم صفة العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، من غير تعرض لثبوت حكم الإخراج للموصوفين بصفة العزة ولا لنفيها عنهم. وأنت ترى أنه جاء في رده سبحانه دفع لزعمهم، وتقرير لعزة المؤمنين، بأسلوب خفي لطيف، ينبغي أن يتقنه من أراد الحجاج مع الخصوم.

أما الضرب الثاني من القول بالموجب: فهو الذي يعيننا أكثر في بحث الإيهام؛ لأنه عبارة عن أن يتكلم المتكلم بكلام يفهمه المخاطب على وجهه، ويقرره، ولكنه - لنكتة ما - يؤهم المتكلم الأول أو السامعين أنه فهم الكلام بخلاف مراد المتكلم، حين يحمل لفظاً وقع في كلام الغير على خلاف مراده، مما يحتمله بذكر متعلقه^(٢)؛ كقول ابن حجاج: [الخفيف]

قلت: ثقلت إذ أثبت مراراً قال: ثقلت كاهلي بالأيادي

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٥٦٣، والإيضاح ٨٦.

(٢) زعم ابن حجة أن القول بالموجب هو أسلوب الحكيم، ورد عليه المدني بأنها: يشتركان في كون كل منهما من إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر، ويفترقان باعتبار الغاية: فالقول بالموجب: غايته رد كلام المتكلم وعكس معناه، والأسلوب الحكيم: هو تلقي المخاطب بغير ما يرقب، بحمل كلامه على خلاف مراده؛ تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتزليل سؤاله منزلة غيره؛ تنبيهاً على أنه الأولى بحاله، أو الأهم له. انظر: خزانة الأدب ٢/٢٦٩، وأنوار الربيع ٢/٢٠٩.

قُلْتُ: طَوَّلْتُ، قَالَ: لَا بَلْ تَطَوَّلْتُ سَتَ، وَأَبْرُمْتُ، قَالَ: حَبْلٌ وَدَادِي^(١)

ومن أمثله ما قاله ابن الدُّوَيْدَةِ الْمَغْرِبِيُّ يُحَاطِبُ رَجُلًا أَوْدَعَ بَعْضَ الْقَضَاةِ مَالًا، فَادَّعَى الْقَاضِي ضَيَاعَهُ: [الكامل]

إِنْ قَالَ: قَدْ ضَاعَتْ، فَيَصْدُقُ أَنَّهَا ضَاعَتْ، وَلَكِنْ (مِنْكَ) يَعْني، لَوْ تَعَي

أَوْ قَالَ: قَدْ وَقَعَتْ، فَيَصْدُقُ أَنَّهَا وَقَعَتْ، وَلَكِنْ مِنْهُ أَحْسَنَ مَوْقِعٍ^(٢)

وما أروع قول الشَّهاب محمود في حديثه مع حبيته: [المتقارب]

رَأَيْتَنِي، وَقَدْ نَالَ مَنِّي النُّحُولُ وَفَاضَتْ دُمُوعِي عَلَى الْخَدِّ قَيْضًا

فَقَالَتْ: بَعِينِي هَذَا السَّقَامُ فَقُلْتُ: صَدَقَتْ، وَبِالْخَصْرِ أَيْضًا^(٣)

ومنه قول أبي الحُسَيْن الجَزَّار: [السريع]

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ أَبِي شَيْخَةَ لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذِهْنٌ

لَوْ بَرَزَتْ صَوْرَتُهَا فِي الدُّجَى مَا جَسَرْتُ تُبَصِّرُهَا الْجِنُّ

كَأَنَّهَا فِي فَرَشِهَا رَمَّةٌ وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قِطْنٌ

وَقَائِلٌ قَدْ قَالَ: مَا سِنَّهَا؟ فَقُلْتُ: مَا فِي فَمِهَا سِنَّ!^(٤)

ومن غريب ما سَمِعَ من هذا النوع ما رَوِيَّ من أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رضي الله عنه (ت ٢١ هـ) لَمَّا أَتَى الْحِيرَةَ، وَتَحَصَّنَ مِنْهُ أَهْلُهَا، أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَنْ ابْعَثُوا إِلَيَّ رَجُلًا مِنْ عَقْلَائِكُمْ، فَبْعَثُوا إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ خَالِدٌ: مَنْ أَيْنَ أَقْصَى أَثَرِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ؟ فَقَالَ: مِنْ ظَهْرِ أَبِي، قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ خَرَجْتَ؟ قَالَ: مِنْ بَطْنِ أُمِّي،

(١) انظر: تحرير التَّحْيِيرِ ص ٥٩٩. تَطَوَّلْتُ: تَفَضَّلْتُ، وَأَبْرُمْتُ: أَمَلْتُ.

(٢) انظر: تحرير التَّحْيِيرِ ص ٣٣١، ص ٥٩٩، وَيُمَثِّلُ بِهِذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لِلْإِسْتِدْرَاكِ أَيْضًا. وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْمُسْتَعْلِينَ بِالْبَدِيعِ شَرَطُوا خُلُوءَهُ مِنْ لَفْظَةِ (لَكِنْ)؛ لِأَنَّهُمْ خَصَّصُوا بِهَا نَوْعَ الْإِسْتِدْرَاكِ. انظر: خزانة الأدب ٢/ ٢٧١، وشرح عقود الجمان ص ١٣١.

(٣) انظر: شرح عقود الجمان ص ١٣١، ونفحات الأزهار ص ٩٦.

(٤) انظر: خزانة الأدب ٣/ ٢١٣. الرَّمَّةُ: الْجَنَّةُ.

قالَ فعَلامَ أنتَ؟ قالَ: على الأرض، قالَ: ففيمَ أنتَ؟ قالَ: في ثيابي، قالَ: أتَعتَقلُ لا عَقلتَ؟ قالَ: إي والله، وأُقيّدُ، قالَ: ابنُ كَـم أنتَ؟ قالَ: ابنُ رَجُلٍ واحدٍ، قالَ خالِدُ: ما رَأيتُ كاليومَ قَطُّ، إِنِّي أسأَلُهُ عن الشَّيْءِ وينحُو في غيرِهِ! قالَ: ما أنبأتُكَ إلَّا عَمَّا سألتَ، فسَلْ ما بدا لك^(١).

ونظيرُ ذلكَ إن سألْتَ ابنَكَ العائِدَ من امتحانٍ: (كيفَ خَرجتَ من الامتحان؟ فيُجيبُ: من الباب، أقصدُ: كيفَ كُتبتَ؟ فيُجيبُ: بالقلم).

جمالية القول بالموجب:

في هذا الفنِّ براعةٌ تُمكنُ صاحبَها من نَقْضِ كلامِ المتكَلِّمِ أو نَقْدِهِ؛ بِالطَفِ صورة، وَتُكْنُّ أيضاً من العَبَثِ بالمخاطَبِ على نحو ما رأينا من خَبرِ خالِدٍ رضي الله عنه، وَمَنْ أرادَ أن يعبَثَ بمخاطَبِهِ على طريقة القولِ بالموجبِ لا بُدَّ له من أمرين، الأولُ ثروةٌ مُعْجِميةٌ وحصيلَةٌ من المشتركِ اللفظيِّ، والثاني: سرعةٌ بديهة؛ لأنَّه ينبغي له خلالَ لحظاتٍ معدودةٍ أن يستحضِرَ من ذهنِهِ كَلَّ الدلالاتِ الأخرى التي يحتملُها هذا اللفظُ، وَمِنْ ثَمَّ يَختارُ أنسبَ هذه الدلالاتِ للسياقِ الذي هو فيه، مع ضرورةِ تحصيلِ نُكْتَةٍ من وراء ذلك.



(١) انظر: أمالي المُرتَضَى ١/ ٢٦٠-٢٦١ والمثل السائر ١/ ٦٨، وأنوار الربيع ٢/ ٢٠٠. وأثرُ الكُلْفَةِ في تَلْفِيْقِ المحاورَةِ واضِح.

المشاركة

المشاركة لغةً من شارك، والاشتراك من اشترك، والاسم المشترك هو الذي تشترك فيه معانٍ كثيرة^(١)، أمّا اصطلاحاً فالمشاركة وقد يُسمّى الاشتراك ضربان: الأول يكون في اللفظ، والثاني يكون في المعنى، وهذا الذي يكون في المعنى إنّما هو السرقات، ولا شأن لنا به ههنا. أمّا الأول الذي يكون في اللفظ فنوعان: مذموم، ومحمود، ويُسمّى الاشتراك^(٢).

فمن المذموم الذي لا يُعدُّ مُحسّناً بديعياً أن يكون اللفظ مُحتملاً تأويلين؛ أحدهما يلائم المعنى، والآخر لا يلائمه، ولا دليل فيه على المراد؛ كقول الفرزدق: [الطويل]

وما مثله في النَّاسِ إِلَّا مُلْكاً أبو أمّهِ حَيٌّ أبوه يُقَارِبُهُ^(٣)

فقوله: (حَيٌّ) يحتمل القبيلة، ويحتمل الواحد من النَّاسِ، وهذا الاشتراك مذموم^(٤).

ومن مליح الاشتراك أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين اشتراكاً أصلياً وعرفياً، فيسبق ذهن السّامع إلى المعنى الذي لم يقصده المتكلم، فيأتي المتكلم بعده بما يُبين قصده، ويؤكد أن المقصود غير ما توهمه السّامع^(٥)، كقول كثيرٍ مُشبّه: [الطويل]

فأنتِ التي حَيَّيتِ كُلَّ قصيرةٍ إليّ، ولم تعلّمِ بذاك القصائر

عَنَيْتِ قصيراتِ الحِجَالِ، ولم أُرِدْ قصارَ الخطأ، شرُّ النساءِ البحائر^(٦)

(١) انظر: اللسان (شرك).

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ١٢٥، وص ٦٢١.

(٣) انظر: ديوان الفرزدق ١/ ١٠٨، ومعاهد التنصيص ١/ ٤٣.

(٤) انظر: العُمدة ٢/ ٧٣٩.

(٥) انظر: أنوار الرّبيع ٥/ ٣٢٠.

(٦) انظر: العُمدة ٢/ ٧٣٩، وخزانة الأدب ٤/ ٤٧، وأنوار الرّبيع ٥/ ٣٢٠، والبحائر: جمع بُحْرة: وهي

القصيرة المجتمعّة الخلق، والحِجَال: مفردة (حَجَلَة) وهو بيتٌ صغيرٌ فيه سرير وعليه الستور، ليكون

للفتيات. انظر: اللسان (حجل)

«فأنت ترى فطنته لما أحسَّ بالاشتراك كيف نفاه، وأعربَ عن معناه الذي نحا إليه»^(١)، «فإنه أثبت في البيت الثاني ما أزال به وهم السامع»^(٢)؛ لأن لفظة (قصيرة) في البيت الأول مشتركة بين (قصيرة القامة) أو (المقصورة بمعنى المحبوسة)، كما في قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحَيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] وهذا الثاني هو الذي عناه الشاعر، ولولا أنه أوضح مراده في البيت الثاني بقوله: (عنيتُ قصيراتِ الحِجالِ) لتوهم السامع أنه أراد قصيراتِ القامة، وإن ما يروك في هذا المثال أن الشاعر أحسَّ هو بالاشتراك الحاصل وما يؤديه من إيهام للسامع، فسارع لنفي هذا الوهم، ورفع اللبس والاحتمال، حين حدّد دلالة قوله.

ومن الاشتراك قولُ صفيّ الدين الحلّي في بديعته: [البسيط]

شَيْبُ الْمَفَارِقِ يَرْوِي الضَّرْبُ مِنْ دَمِهِمْ ذَوَائِبُ الْبَيْضِ، بِيضِ الْهَنْدِ لَا اللَّمَمِ^(٣)

فقد نبّه على أن مقصوده بالبيض السيوف، لا ذوائب الشعر الذي رشحه قوله: (شَيْبُ الْمَفَارِقِ).

ومنه أيضاً قول ابن حجة في بديعته: [البسيط]

بِالْحَجَرِ سَادَ، فَلَا نِدَّ يُشَارِكُهُ حَجَرَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ اللَّقَمِ^(٤)

والاشتراك ههنا واقع في كلمة (حجر)، فعندما تسمعه يمدح النبي محمداً ﷺ بقوله: (بِالْحَجَرِ سَادَ) تظن أن المعنى: (بسبب رجاحة عقله صار سيّداً، ولكن إذا ما مضيت في سماع البيت (حجر الكتاب المبين..)) علمت أنه يعني سورة الحجر، وقد قال ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) في شرح بيته هذا: «واشتراك بيتي في لفظة (الحجر)؛ فإني قلتُ في أوّل بيتي: (بِالْحَجَرِ سَادَ)، وهذه اللفظة مشتركة بين العقل وسورة الحجر، فلما قلتُ في الشطر الثاني: (حَجَرَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) زال الالتباس عن السامع، وعلم المراد، وترشح عنده جانبُ السورة المنزلة على الممدوح فيه»^(٥).

(١) انظر: العُمدة ٢/ ٧٤٠.

(٢) انظر: خزانة الأدب ٤/ ٤٧.

(٣) انظر: شرح الكافية البديعية ص ١٧٥.

(٤) انظر: خزانة الأدب ٤/ ٤٩. اللَّقَم: الطريق والنّهج الواضح.

(٥) انظر: خزانة الأدب ٤/ ٥٠.

ومنه قول المديني في بديعته: [البسيط]

جَلَسْتُ معاليه قَدْرًا عَنْ مُشَارَكَةِ وَهُوَ الزَّعِيمُ زَعِيمُ الْقَادَةِ الْبُهِمِ^(١)

وقد قال المديني (ت ١١٢٠ هـ) في شرح بيته هذا: «الاشتراك فيه في لفظة (زعيم)؛ فإنها مشتركة بين معنيين، أحدهما: بمعنى الكفيل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ جَاءَهُ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢] أي: كفيل، والثاني: بمعنى سيّد القوم ورئيسهم، وهو المعنى المقصود الذي بيّنه بقوله: (زعيم القادة البهم)؛ لئلا يسبق ذهن السامع إلى أنه أراد المعنى الأول، ... والبهم: جمع بهمة بالضم، وهو الشجاع...»^(٢).

والفرق بين المشاركة والتوهم: أن المشاركة تكون باللفظة المشتركة فقط، والتوهم يكون بها وبغيرها؛ من تصحيف أو تحريف أو تبديل أو سبق الذهن إلى غير المطلوب^(٣).

وإنّ ما يُميّز الإيهام ههنا أنّ المتكلّم هو الذي يَفْطُنُ له، دون أن يُنبّهه أحدٌ، فيسادرُ إلى إزالة الوهم ورفع اللبس والاحتمال الذي قد يعلّق في ذهن السامع، وأغلب الظنّ أنّ ذلك لا يقعُ للشاعر عفواً، وإنّما هو عبثٌ بالمخاطب يُثير إدراكه، ويكسر رتابة الكلام أو سكوته، وهذا سواءٌ في النصوص الأدبية وفي كلام العامة.



(١) انظر: أنوار الربيع ٣٢٠/٥.

(٢) انظر: أنوار الربيع ٣٢٢/٥. وسُمّي الشجاع (بهمة) لأنّه يستبهم على قرينه موضع غلبته، فلا يدري من أين يأتيه؛ لشدة غلبته. (اللسان: بهم).

(٣) انظر: أنوار الربيع ٣٢٠/٥.

التفريق

تكلم البلاغيون على فنون كلامية تقوم على فكرة الإجمال والتفصيل؛ كاللف والنشر، والجمع، والتقسيم، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق والتقسيم، وغير ذلك، وبينوا جماليات كل، وتكلموا أيضاً على التفريق.

والتفريق لغة ضد الجمع، واصطلاحاً: أن يذكر المتكلم أمرين يشتركان في صفة واحدة، ثم يوقع بينهما تبايناً أو فرقاً في معنى يختلفان فيه؛ وهذا يُفيدُ مُبالغة فيما هو بصدده من مدح، أو ذم، أو نسيب، أو غيره من الأغراض الأدبية^(١).

وبعد استقراء هذا الفن البديعي بالإمكان القول: ليس كل تفريق يُفيدُ إيهاماً، ولكن هذا الفن قد يُفيدُ إيهام المخاطب إن أراد له المتكلم ذلك، وصاغه على نحو ما سيأتي؛ وإليك قول أحدهم في وصف خد الحبيب: [الوافر]

وقومٌ شَبَّهُوا خَدَيْكَ وَزْدَا لقد كَذَّبُوا بما قد شَبَّهوه

فإنَّ الوردَ يذبلُ عندَ لَمْسٍ وذا يَحْمَرُّ مَهْمَا قَبَّلُوهُ^(٢)

فالشاعر كما ترى أتى على ذكر شيئين ادَّعَى فيهما التشابه؛ وهما (خد الحبيب، والورد)، ثم حين قال: (لقد كَذَّبُوا بما قد شَبَّهوه) مُعْتَرِضاً على عَقْدِ المفاضلة بينهما، أوْهَمَ المُتَلَقِّي أَنَّهُ سَيُطِلُّ هَذَا التَّشْبِيهَ؛ لَأَنَّهُ تَشْبِيهٌ خَاطِئٌ وَمُبَالِغٌ فِيهِ...، وإذا به يجعل خدَي الحبيب أجمل من الورد. إذاً فما نفيه علاقة الشبه بين الخد والورد، وما قوله (لقد كَذَّبُوا بما قد شَبَّهوه) إلا استخفافٌ بجمال الورد إذا ما قُورِنَ بجمال خدَي الحبيب، وليس كما أوْهَمْنَا في بداية كلامه أَنَّهُ اعْتَرَضَ على التشبيه لَأَنَّهُ خِيَالِي أو مُبَالِغٌ فِيهِ، وقد أفادَ هذا الإيهامُ مُبالغةً في المدح، وما زاده حُسْنُ التعليلِ بعدها إلا جمالاً وتمكيناً.

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٣٩٧، وخزانة الأدب ٤٧٨/٢، وأنوار الربيع ٢٥٩/٤.

(٢) سمعته في حديثي، ولما أجده فيما بين يدي من المصادر.

ومثله قول ابن النحويّة: [الوافر]

حَسِبْتُ بِجَمَالِهِ بَدْرًا مُنِيرًا وَأَيْنَ الْبَدْرِ مِنْ ذَلِكَ الْجَمَالِ؟^(١)

فالشاعرُ ظنَّ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ أَنْ جَمَالَ وَجْهِ الْمَحْبُوبِ يُشَبِّهُ صَفْحَةَ الْقَمَرِ الْمَضِيءِ بِهَاءٍ وَإِشْرَاقًا، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ أَنَّ حُسْنَ الْمَحْبُوبِ وَسِحْرَهُ قَدْ أَزْرَى بِجَمَالِ الْقَمَرِ، وَالْإِيهَامُ هَهُنَا مِنْ بَدَايَةِ الْبَيْتِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَنَوِيٌّ لِتَحْسِينِ الْمَعْنَى وَالْمُبَالَغَةِ فِيهِ؛ أَفَلَا تَرَى أَنَّهُ حِينَ قَالَ: (حَسِبْتُ) أَوْهَمْنَا أَنَّهُ مُتَرَدِّدٌ غَيْرُ مُتَيَقِّنٍ مِنْ صِحَّةِ عَقْدِ هَذَا التَّشْبِيهِ بَيْنَ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ الَّذِي بِهِ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي الْجَمَالِ وَبَيْنَ الْمَحْبُوبِ، أَوْ أَنَّهُ حَسِبَ ذَلِكَ فِيمَا مَضَى، وَأَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ لَهُ خِلَافُ ظَنِّهِ الْآنَ، وَإِذَا بِهِ يَرَى فِي وَجْهِ الْمَحْبُوبِ ضِيَاءً يُزِرِّي بِكُلِّ ضِيَاءٍ، وَيَرَى أَنَّ هَذَا التَّشْبِيهَ غَيْرُ مُوَفَّقٍ؛ لِأَنَّ جَمَالَ الْبَدْرِ لَا يَرْقَى بِحَالٍ لِأَنَّهُ يُقَاسُ بِجَمَالِ مَحْبُوبِهِ. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نُغْفَلَ هَهُنَا مَا لَفَنَ الرُّجُوعَ مِنْ أَثَرِ جَمَالِي، زَادَهُ حُسْنًا الِاسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِيُّ الَّذِي أَتَى لِیُؤَكِّدَ أَنَّ لَا جَمَالَ يَسْمُو عَلَى جَمَالِ الْمَحْبُوبِ.

وقول الآخر، وقد أفاد من التورية: [مُخْلَعُ الْبَسِيطِ]

قَاسُوكَ بِالْغَضَنِ فِي التَّشْبِيهِ قِيَاسَ جَهْلٍ بِلا انتصافٍ

هَذَاكَ غَضَنُ الْخِلَافِ يُدْعَى وَأَنْتَ غَضَنُ بِلَا خِلَافٍ^(٢)

وقول الواواء الدمشقي: [المنسرح]

مَنْ قَاسَ جَدُّوَاكَ بِالْغَمَامِ فَمَا أَنْصَفَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ شَكْلَيْنِ

أَنْتَ إِذَا جُذِّتَ ضَاحِكٌ أَبَدًا وَهُوَ إِذَا جَادَ بَاكِي الْعَيْنِ^(٣)

أسلفنا أن ليس كل تفريق إيهاماً، لكن بعض الأدباء يأتي بالخيال اللطيفة التي توهم المتلقي وتوحي إليه بشيء ما؛ فتُهيئُه لاستباق النص الأدبي، ولتوقع أنماط معينة من الأفكار والتعبير...، وإذا بها

(١) انظر: خزانة الأدب ٤٧٩/٢، وبلا نسبة في معاهد التنصيص ٣٠١/٢.

(٢) انظر: معاهد التنصيص ٣٠١/٢، وأنوار الربيع ٢٥٩/٤، ونسبها ابن حجة لابن الوردي في خزانة الأدب ٤٧٩/٢. (الخلافاً الأولى: صنف من شجر الصفصاف، وخلاف الثانية: اختلاف).

(٣) انظر: معاهد التنصيص ٣٠١/٢.

تَكْسِرُ أَفَقَ التَّوَقُّعِ لَدَى هَذَا الْمُتَلَقِّي، وَتُجْبِيهِ بِخِلَافِ مَا أَوْهَمْتَهُ قَبْلَ قَلِيلٍ، وَعِنْدَهَا تَتَحَقَّقُ جَمَالِيَّةُ
الإدهاش والمفاجأة التي تفيدُ تمكينَ المعنى في النَّفس، والمبالغة فيه، إلى ما تتركه في نفسِ المتلقي من
تشويقٍ لمتابعة هذا النصِّ الأدبي؛ علَّه يتمكنُ من كشفِ خداعِ المتكلم في العبارات القادمة، وذلك
بعد أن تبخَّرت توفُّعائه، وأحسَّ بأنه لا بُدَّ من التدقيق في المعاني لكشف هذا المتكلم وعدم الوقوع في
شَرَاكِ خِدَاعَةِ مَرَّةٍ أُخْرَى.



تجاهل العارف

هذه تسمية ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)^(١)، وسماه السكاكي (ت ٦٢٦هـ) بسوق المعلوم مساق المجهول^(٢)؛ لتحاشي إطلاق اسم (التجاهل) على ما يرد من أمثله في القرآن الكريم، ويحلو لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) أن يسميه مزج الشك باليقين^(٣).

وينبغي أن يكون هذا التجاهل مقصوداً لنكتة بلاغية، وإلا كان بلاهة لا محل لها من البلاغة؛ فما معنى أن تقول للمخاطب: (ليلى في الباب أم سارة؟) وأنت تعلم الواقعة بالباب منهما، وليس لك من وراء تجاهلك أي غاية؟

وتجاهل العارف: أن تسأل عن شيء تعرفه مؤمهاً أنك لا تعرفه، وأنه مما خالجت فيه الشك. وهذا الأسلوب في كلام العرب كالبحر غنى واتساعاً، يركبونه في القديم والحديث متوسلين به للتعبير عن معانٍ شتى لا تكاد تنحصر، وقد قال فيه ابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ): «هو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة؛ تجاهلاً منه ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم، أو ليدل على شدة التدلل في الحب، أو لقصد التعجب، أو التقرير، أو التوبيخ...»^(٤).

وهذا التجاهل أكثر ما يرد في الاستفهام، وقد يعتمد المتكلم إلى هذا الأسلوب البلاغي لغايات كثيرة؛ منها:

- قصد المبالغة في الذم؛ كقول زهير: [الوافر]

وما أدري، وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء؟^(٥)

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٥٦، وص ٥١٢.

(٢) انظر: مفتاح العلوم ص ٥٣٧.

(٣) انظر: الصناعتين ص ٣٩٦.

(٤) انظر: تحرير التَّحْيِير ص ١٣٥.

(٥) انظر: ديوان زهير ص ٧٣، وبديع ابن المعتز ص ٦٢، والعمدة ٢/ ٦٨٢-٨٩٦.

ما هذا السؤال المعجِب؟ إنَّه سؤالُ العارفِ الخبيرِ الَّذي يريدُ أنْ يُوهَمَكَ أنْ أمرَ آلِ حِصْنٍ قد التَّبَسَّ عليه لشدَّةِ الشَّبهِ بينَ رجالهم ونسائهم؛ حتَّى حارَ في أمرهم فأطلقَ هذا السؤالَ. وأجلُّ ما في ذا الإيهامِ أنْ زهيراً ظهرَ بمظهرٍ مَنْ يتردَّدُ في حُكمه على آلِ حِصْنٍ؛ لأنَّه يتحرَّى الدِّقَّةَ في الحُكم، ويخشى أنْ يظلمَهم، وذلك أدعى إلى تصديقهِ والاطمئنانِ إلى حُكمهِ والتَّسليمِ به؛ من قولهِ مثلاً: (آلُ حِصْنٍ في المِعاركِ كالنِّساءِ).

- قصيدُ التَّعْظِيمِ؛ كقولِ مَهْيَارَ الدَّيْلَمِيِّ: [الطَّويل]

وهل ما أراه الموتُ أم حادثُ النَّوى وهل هو شوقٌ بينَ جنبيٍّ أم جمرٌ؟

سَلُّوا بعدكم وادي الحمى ما أسالهُ؟ دمي، أم دموعُ العاشقين، أم القطرُ! ^(١)

- قصيدُ المبالغةِ في المدح؛ كأنْ تقولَ لصديقٍ لم ترهُ منذُ مُدَّةٍ: (أوجهُكَ هذا أم ضوءُ القمرِ؟)؛ لأجلِ المبالغةِ في مدحِ وجهه بحُسنِ الطَّلعةِ. ومن تجاهلِ العارفَ للمبالغةِ في تعظيمِ المدحِ قولُ ابنِ هانئِ المغربي: [الكامل]

أَبْنِي العِوَالِي السَّمْهَرِيَّةَ والمِوَا ضِي المِشْرِفِيَّةِ والعِدِيدِ الأَكْبَرِ

مَنْ مِنْكُمْ المَلِكُ المِطَاعُ كَأَنَّهُ تَحْتَ السَّوَابِغِ ثُبُعٌ فِي جَمْرِ؟

وحُكِيَ أَنَّهُ لَمَّا تَجَاهَلَ الشَّاعِرُ فِي هَذَا البَيْتِ عَن مَعْرِفَةِ المَدْحِ؛ تَرَجَّلَ الجَيْشُ بِكَمَالِهِ؛ تَعْظِيماً لِلْمَدْحِ، إِذْ هُوَ مَلِكُهُمْ ^(٢).

ومن ذلك قول أبي هلال العسكريِّ صاحبِ الصَّنَاعَتَيْنِ: [الوافر]

أَنْغَرُّ مَا أَرَى أَمْ أَقْحَوَانُ وَقَدْ مَا بَدَا أَمْ خَيْرَانُ!

وَطَرَفٌ مَا تَقَلَّبَ أَمْ حَسَامُ وَلَفْظٌ مَا تَسَاقَطَ أَمْ جُهَانُ!

وَشَوْقٌ مَا أَكَابِدُ أَمْ حَرِيقُ وَلَيْلٌ مَا أَقَاسِي أَمْ زَمَانُ! ^(٣)

(١) انظر: أنوار الرِّبيع ٥/ ١٢٠.

(٢) انظر: خزانة الأدب ٢/ ٣٠٣.

(٣) انظر: ديوان أبي هلال العسكري ص ٢١٨.

والحقيقة أنَّ هذه كلّها تشبيهاتٌ بليغةٌ ساحرةٌ أتتْ في صورةِ التَّجاهلِ؛ لقصدِ المبالغةِ، وإظهارِ
سُلطانِ الدَّهشةِ التي استولت على الشَّاعر حين أبصرَ سحرَ تلك الفتاة وفتنتها الآسرةَ، حتَّى صارَ في
حَيْرَةٍ لا يدري ما يرى، فقد ملكتْ عليه فؤاده، وسلبتْ لُبَّهُ حتَّى غدا لا يُميِّزُ نَعْرَها وما اختبأ به من
أسنانٍ صغيرةٍ بيضاءٍ من أزهارِ الأقحوان الجميلةِ، ولا يدري إلحاظُ هذه التي ترشُّقه بنبالٍ سحرها أم
سهامٍ تُصيبُ قلبه الولهان؟

ومثل ذلك قول البحرّي: [البسيط]

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أَمْ ضَوْءُ مُصْبَاحٍ أَمْ ابْتِسَامَتُهَا بِالْمَنْظَرِ الضَّاحِي! ^(١)

وهنا يسألُ المتلقّي: ألمعُ البرقِ وضوءُ المصباحِ ممّا تُخطئه العين؟ أم أنَّ الشَّاعرَ يسألُ عمّا يعلمُه؛
ليُوهِمَ أنَّ شدَّةَ الشَّبهِ بينَ لمعانِ البرقِ، وضوءِ المصباحِ، وبياضِ نَعْرِ الحبيبةِ أحدثتْ عنده التباسَ
المشبهِ بالمشبهِ به؛ قصداً إلى تأكيدِ الإشراقِ في تبسُّمها، وإلى المبالغةِ في تصويرِ ابتسامتها المضيئةِ.

ومثله أيضاً قول المتنبي مادحاً: [الطويل]

هَمَامٌ إِذَا مَا فَارَقَ الْغَمْدَ سَيْفُهُ وَعَايِنَتْهُ لَمْ تَذِرْ أَيُّهُمَا النَّضْلُ؟ ^(٢)

- التَّدْلُهُ فِي الْحُبِّ؛ أي إظهارِ الحَيْرَةِ والدَّهشةِ؛ كقولِ نزار قبّاني: [الخفيف]

أَتَرَاهَا تَحْبُنِي مِسْوَونُ أَمْ تَوْهَمُنْتُ، وَالنِّسَاءُ ظَنُونُ! ^(٣)

وقولِ ابنِ المعتزِّ: [الكامل]

وَسَكِرْتُ، لَا أَدْرِي أَمِنْ خَمْرِ الْهَوَى؟ أَمْ كَأَيْسِهِ؟ أَمْ فِيهِ؟ أَمْ عَيْنِيهِ! ^(٤)

(١) انظر: ديوان البحرّي ١/ ٤٤٢، ومعاهد التّصنيف ٣/ ١٦٤.

(٢) انظر: ديوان المتنبي ٣/ ١٨٦، وأنوار الربيع ٥/ ٣٢٥.

(٣) انظر: الأعمال الشعرية الكاملة لنزار قبّاني ٣/ ٤٢٩.

(٤) انظر: ديوان ابنِ المعتزِّ ١/ ٢٩٣. وفي رواية الديوان: «أَمِنْ خَبَلِ الْهَوَى»، وما أثبتناه من الصّناعتين
ص ٣٩٧.

وكقول العرجي: [البسيط]

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا: ليلاي منكن أم ليل من البشر؟^(١)

وقول مهيار الديلمي: [الطويل]

أمن بابل أم من نواظرك السحر أمن حانة أم من مراشفك الخمر!^(٢)

وقول أعرابي: [الطويل]

أقول لظبي مرّبي، وهوراتع أننت أخوليلي؟ فقال: يُقال!^(٣)

- التحقير؛ كقولك في مدح شخص: (من حاتم إذا ذكر نذاك؟ ومن عنتره إذا رُئيت في الوغى؟ ومن فرعون إذ تبطش بأعدائك؟)، وفيه تهكم أيضاً كما رأيت.

أو كقول أحدهم في قوم يتعالمون: [الطويل]

يقولون: هذا عندنا ليس ثابتاً ومن أنتم حتى يكون لكم عند؟^(٤)

ولذلك تجد العامة إذا أرادت أن تسأل رجلاً؛ ليُعرف بنفسه، يقولون: (من أنت؟ بلا صغرة)

وهذا الاحتراس النبئ (بلا صغرة) يدل على وعيهم بأن السؤال عن الرجل هكذا، إن كان سؤال تجاهل فهو من باب الاستصغار، وتقليل الشأن.

ومن التّجاهل للتحقير قول الشاعر وتظارف إلى الغاية: [الكامل]

لما ادّعى غصن الرياض بآئه في لينه مع قدها موصوف

قلنا له: (هل أنت تُشبه قدها) ما أنت هذا القديا مقصوف!^(٥)

(١) انظر: ذيل ديوان العرجي ص ١٨٢، والعمدة ٦٨٣/٢، وتحرير التحبير ص ١٣٦. القاع: الأرض المستوية.

(٢) انظر: أنوار الربيع ١٢٠/٥.

(٣) انظر: الصناعتين ص ٣٩٧.

(٤) انظر: أنوار الربيع ١٣٢/٥.

(٥) انظر: خزانة الأدب ٣٠٧/٢.

وكذلك نرى التَّجَاهُلَ في باب التَّحْقِيرِ في قوله تعالى حكايةً عن كُفَّارِ قُرَيْشٍ: ﴿هَلْ نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ يَبْتَئِثُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلٌّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ١٧]، فهُمْ يتجاهلون مُحَمَّدًا ﷺ وكُلَّ مَا عَلِمُوا من صفاته من الرُّسُولِيَّةِ والنُّبُوَّةِ والوَحْيِ...، وكأَنَّهُمْ لم يعرفوا عنه إِلَّا أَنَّهُ رَجُلٌ مَّا -وهو في مَكَّةَ أَسْطَعُ من الشَّمْسِ- ولكنَّهُمْ تجاهلوه قصداً إلى التَّحْقِيرِ من شأنه؛ فكأنِّي بالكُفَّارِ يقولون لأَصْحَابِهِمْ: هل تَحْبُونَ أَنْ تَقْضُوا وَقْتاً مَمْتَعاً بِسَاعِ رَجُلٍ عِنْدَنَا يُحَدِّثُكُمْ بِأَحَادِيثَ هِيَ أَقْرَبُ إلى الوَهْمِ والخيال منها إلى العقلِ والصَّوابِ؛ يُحَدِّثُكُمْ «بأعجوبة من الأعاجيب: أنكم تُبْعَثُونَ وتُنشَأُونَ خَلْقاً جديداً بعد أن تكونوا رُفَاتاً وثُرَاباً وَيُمَرِّقُ أجسادكم البلى كُلَّ مَمَرِّقٍ، أي: يُفَرِّقكم ويُبدد أجزاءكم كُلَّ تَبْدِيدٍ»^(١)، ففي قولهم ﴿نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ﴾ تجاهلُ للرَّسُولِ غايتُهُمْ فيه التَّحْقِيرُ^(٢)، وفي كلامهم أيضاً إلماحٌ خَفِيٌّ إلى رُمِيهِ بالافتراءِ أو الجنون؛ لذا أتى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

- التعريض بالمخاطب: ومن دواعي تجاهل العارف أيضاً التعريض بالمخاطب؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فهذا الكلام يُفهم من باطنه أن الكُفَّارَ على غيرِ هُدًى، وأنَّ رسولَ الله ومَنْ آمَنَ معه على الهدى، ولكنَّ ظاهره لا يشي بشيءٍ من ذلك، والسياقُ يُنبئُك أن هذا كلامُ الله تعالى أمراً نبيه أن يُخاطَبَ الكُفَّارَ به، أَفَتَظُنُّ أَنَّ الله تعالى قد شكَّ في نبيه؟ أم ترى مُحَمَّدًا ﷺ المأموراً بأنْ يَسْوَكَ للكُفَّارِ الحُجَجَ والأدلة على توحيدِ الله لديه شكُّ بأنَّه سائرٌ على منهجِ الحقِّ؟ ولكنَّ الحكمةَ في الدَّعوة تقتضي أنَّك إذا أَفْحَمْتَ مُجَادِلَكَ وأَقَمْتَ عليه البرهانَ أنْ تُعَدِّلَ في خطابِهِ من التَّصريحِ إلى التعريضِ، فالتكلُّمُ ههنا أشعرُ خصوصاً أَنَّهُ في رَيْبٍ من أمرِهِ لا يدري أيُّ الفريقين على الحقِّ، وأيهما على الباطل؛ وفي هذا الإيهام حُسْنُ خطابٍ وتلطُّفٌ مع الخصمِ ومجاراتُهُ له في الحوار؛ حتَّى يكونَ

(١) انظر: الكشاف ١٠٨/٥.

(٢) انظر: مفتاح العلوم ص ٢٨٧.

الكلامُ أدعى إلى الإيـان، وقد قال الأخفش (ت ٢١٥): «فليس هذا لأنه شكٌّ، ولكن هذا في كلام العرب على أنه [يقصد المتكلم] هو المهتدي. وقد يقول الرجلُ لعبده (أحدنا ضاربٌ صاحبه) فلا يكون فيه إشكالٌ على السامع أن المولى هو الضارب»^(١)، وقد قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في تفسير هذه الآية: «وهذا من الكلام المنصف الذي كلُّ من سمعه من موالٍ أو مُنافٍ... قال لمن حوْطَبَ به: قد أنصفك صاحبك، وفي درجِه [يقصد درج كلامه تعالى وسيقا الآية] بعد تقدمة ما قدّم من التقريرِ البليغِ دلالةٌ غيرُ خفيّةٍ على مَنْ هو من الفريقين على الهدى ومَن هو في الضلال المبين، ولكنَّ التعريض والتورية أنضِلَ [بمعنى: أرمى] بالمجادلِ إلى الغرض، وأهجمُ به على الغلبة، مع قلةِ شغبِ الخصمِ وفلَّ شوكتَه بالهويناء، ونحوه قولُ الرجلِ لصاحبه: (عَلِمَ اللهُ الصَّادِقَ مِنِّي ومنك، وإنَّ أحدنا لكاذبٌ)، ومنه بيتُ حسان: [الوافر]

أَتَهْجُوهُ، وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ فَشَرُّكُمْ لِحَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ^(٢)

- إيناس السامع، وذلك حين يكون المخاطبُ في مقامِ جلالٍ وهيبَةٍ ورهبةٍ؛ فيطرَحُ عليه المتكلمُ على سبيل الإيهامِ أسئلةً هو عالمٌ بجواباتها، ويكونُ هذا الإيهامُ بقصدِ مؤانسته ودفعِهِ إلى التحدُّث؛ ومن ذلك قولُ الزوجِ لعروسه في ليلةِ عرسهما: مَنْ أهداكِ هذا العقدَ النفيس؟ مِنْ أَيْنَ جئتِ بهذا الشعرِ الذهبيِّ الجميل؟ ماذا تُحِبِّينَ أن يكونَ بِكَرِّكِ؟ ذَكَراً أم أنثى؟^(٣). أو أن يَقْدَ ضيفٌ على قريبٍ له عظيمِ القدرِ والمكانة، فيبادره المضيفُ بالقول: كم استغرقت معكم الرحلة من دمشقَ إلى حلب؟ وهل الجوّ عندكم صَحْوٌ كما عندنا؟ وهل الأهلُ جميعاً بخير؟ أما زال أخوك أَوْسٌ يدرِّسُ في جامعة دمشق؟ أَلَمْ تَتَزَوَّجْ أختك ليلي؟ وهو عارفٌ بكلِّ ذلك؛ قاصداً إلى تهدئةِ خواطرِ الزائر، ومؤانسته.

ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً عبده موسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى﴾ [طه: ١٧]، فهو ~~خَلَّاهُ~~ يعلمُ ما في السَّمَوَاتِ وما في الأَرْضِ ويعلمُ ما تُخْفِي الصُّدُورُ، فهل تخفى عليه عصا موسى عليه السلام؟

(١) انظر: معاني القرآن للأخفش ٤٨٤/٢.

(٢) انظر: الكشاف ١٢١/٥.

(٣) هذا المثال مُستفادٌ من كتاب البلاغة العربية (أسسها، وعلومها، وفنونها) ٣٠٠/١.

- قصد التوبيخ؛ كقولك لابنك اليافع الذي يعبثُ بألعاب أخيه الصغير، ويجعله يبكي: (ألمَّا تكبرُ؟)، وقولك له وقد جلسَ إلى المائدة دونَ أن يغسلَ يديه: (أغسلتَ يديك يا فلان!)، وقولك لمن غزا الشَّيبُ رأسه، وما زال يُتبعُ الفتياتِ بصره، ولا يكفُّ عن تتبُّعِ العورات: (يا هذا! ألم تبلغ سنَّ الرُّشدِ، فترعوي عِما أنت فيه من ضلال؟)، وكقول ليلي بنتِ طريفٍ ترثي أخاها الوليدَ، وكان رأس الخوارج، وأشجعهم، وأشدَّهم بأساً وصولاً: [الطويل]

أيا شَجَرَ الخابورِ، مالِك مُورِقاً كأنَّكَ لم تَجْزَعْ على ابنِ طريفٍ! ^(١)

أفترى ليلي تجهلُ سببَ إिरاقِ شجرِ نهرِ الخابورِ؟ أم أنَّها تتجاهلُ ذلك بقصدِ توبيخِ الشَّجرِ على عدم استجابته للخطبِ الجللِ والمصاب الذي لا عزاءَ له، وكأنَّ عناصرَ الطبيعةِ جميعها مُطالبَةٌ أن تلبسَ الحدادَ حزناً على فَقْدِ أخيها، فهي ترى أن لا عُذْرَ للطبيعةِ إذا هي لم تتعرَّ من أوراقها وأزهارها؛ حزناً على أخيها الوليد.

ولو تأملتَ البيتَ لألفتَ فيه تجاهلاً آخرَ، فالشَّاعرةُ تعلمُ أنَّ شجرَ الخابورِ لم يَجْزَعْ على فَقْدِ أخيها، بآيةِ توبيخها إيَّاهُ في الشَّطرِ الأوَّل من البيت، ومع ذلك تجاهلتَ معرفتها، وخاطبته بقولها: (كأنَّكَ لم تجزع)، مستعينةً باللفظِ (كأنَّ) الدَّالَّ على الشكِّ والارتياب ههنا لا على التشبيه.

ومن إيهام الاستفهام بقصد التوبيخ قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]، فالزَّخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨هـ) يرى أنَّ الاستخبارَ ههنا متضمَّن معنى التوبيخ لهم، وكأنَّه يقولُ لهم: إنَّه يُتَوَقَّعُ من أمثالكم إِنْ تَوَلَّوْا أُمُورَ النَّاسِ وتأمَّروا عليهم أنْ يُفْسِدُوا في الأرضِ، ويُقَطِّعُوا أَرْحَامَهُمْ؛ تناحراً في المُلْكِ وتهاكماً على الدُّنيا، وذلك لما عَهِدَ عنكم من قلةِ الإيمان ^(٢)، ولك أن تُفسَّرَ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ بمعنى: أعرضتم عن الإيمان، وهو لا يَعْزُبُ عما نحنُ فيه من التَّجاهلِ بقصدِ التوبيخ. وقد يُساقُ المعلومُ مَساقَ المجهولِ توبيخاً لغيرِ المخاطبِ؛ كقوله تعالى:

(١) انظر: خزانة الأدب ٣٠٨/٢، ومعاهد التنصيص ١٥٩/٣، ونفحات الأزهار ص ٤٦.

(٢) انظر: الكشف ٥٢٥/٥.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. والحقُّ
أنَّ نكْتَ التَّجَاهِلِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَضْبُطَهَا كَاتِبٌ؛ لِأَنَّهَا تَرْتَبِطُ بِقَرَائِنِ الْأَحْوَالِ غَالِبًا، وَكَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ لَا تَلْقَاهُ فِي
تصنيفات البلاغيين؛ لِأَنَّ حَصْرَهُ مُتَعَدِّدٌ؛ فَمِنْ التَّجَاهِلِ مَا يَكُونُ لِلتَّقْرِيرِ؛ كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ: [الخفيف]

أَنَرَاهَا لِكُنْزَةِ الْعُشَّاقِ تَحَسَّبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَآقِي! ^(١)

من جماليات الإيهام في تجاهل العارف:

من التَّجَاهِلِ مَا غَايَتُهُ كَتْمُ مَكْنُونَاتِ الصَّدْرِ عَنِ الْآخَرِينَ؛ كَقَوْلِ عَمْرِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ عَلَى لِسَانِ
الفتيات المعجبات اللواتي يترقبْنَ قدومه: [الزمل]

بَيْنَمَا يَنْعَتُنَنِي أَبْصُرُنِي دُونَ قَيْدِ الْمَيْلِ يَعْدُو بِي الْأَعْرُ
قَالَتِ الْكُبْرَى: أُنَعْرِفَنَّ الْفَتَى؟ قَالَتِ الْوُسْطَى: نَعَمْ هَذَا عُمَرُ
قَالَتِ الصُّغْرَى، وَقَدْ تَيَّمَّتْهَا: قَدْ عَرَفْنَاهُ، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ؟ ^(٢)

أَلَا تَرَى أَنَّ الْكُبْرَى لَدَهَائِهَا وَجَنُكَيْهَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَتَجَاهَلَ مَعْرِفَتَهَا بِالْفَارِسِ الْقَادِمِ وَأَنْ تُخْفِيَ
مَشَاعِرَهَا نَحْوَهُ أَيْضًا، بَيْنَمَا اسْتَطَاعَتِ الْوُسْطَى أَنْ تَكْتُمَ مَشَاعِرَهَا نَحْوَهُ وَبَيَّنَّتْ مَعْرِفَتَهَا بِهِ وَبَاَحَتْ
بِاسْمِهِ، أَمَّا الصُّغْرَى فَلِقَلَّةِ حِيلَتِهَا فِي الْحُبِّ كَشَفَتْ عَنْ مَعْرِفَتِهَا بِهِ وَعَشَقَهَا لَهُ، فَوَشَى لِسَانُهَا عَلَى
قَلْبِهَا الْمَتِيمِ؛ إِذْ قَالَتْ: (وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ؟)، وَمَا يَعْنِينَا فِي الْأَمْرِ هُوَ قَوْلُ الْفَتَاةِ الْكُبْرَى (أُنَعْرِفَنَّ
الْفَتَى) عَلَى سَبِيلِ التَّجَاهُلِ؛ بِقَصْدِ إِخْفَاءِ الْأَمْرِ عَنِ الْغَيْرِ.

ومثله قولُ أَبِي فَرَّاسِ الْحَمْدَانِيِّ فِي حُورِيَّةٍ مَعَ مَحْبُوبَتِهِ: [الطويل]

تُسَائِلُنِي: (مَنْ أَنْتَ؟)، (وَهِيَ عَلِيمَةٌ) وَهَلْ بَفَتَى مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نُكْرُ
فَقُلْتُ كَمَا شَاءَتْ، وَشَاءَ لِي الْهَوَى: قَتِيلُكَ، قَالَتْ: (أَنْتُمْ)، فَهُمْ كَثَرُ! ^(٣)

(١) انظر: ديوان المتنبي ٢/ ١٦٢.

(٢) انظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة ١/ ١٩٧، والرواية فيه مُحْتَلَّة. وما أثبتناه من العمدة ٢/ ٧٨٨.

(٣) انظر: ديوان أبي فراس الحمداني ٢/ ٢١٠-٢١١.

في هذين البيتين تتذوّق سحر التّجاهل؛ ففي قولها: (مَنْ أَنْتَ؟) استخفافٌ بقدر الحبيب، وفي قولها: (أَيُّهُمْ) كلّ ما تشاء من معاني الدّهاء والخيّلاء، ومكر النساء، وخُبث الحبّ الذي لا يحلو إلّا به.

ولعلّك رأيت كيف تكونُ براعةُ البليغ في سوقِ المعلومِ مساقٍ غيره؛ ليلبّغ مراده من وجهةٍ ثمّكنُ المعنى في نفس السّامعِ وتثبتّه، إذ يأتي الكلامُ على طريقِ المُبالغة حيثُ يحاولُ الشّاعرُ أن يُوهِمَ السّامعَ أنّ وجهَ الشّبّه بينَ المشبّه والمشبّه به قد اشتدَّ إلى حدٍّ يتعذّرُ معه التّمييزُ بينهما؛ قصداً إلى المُبالغة كما في قولك للزّائر: (وجهُك أم ضوءُ القمر)، وكذا فإنّ التّمكنَ واقعٌ من حيثُ إنّ المتكلّمَ قد يُوهّمُك، فيُظهرَ نفسه بمظهرٍ من تحرّى الدّقة، والتمسّ الحقيقة، فوجدَ الأمرَ على ما وصفَ، كما في قول زهير في دَمِّ آلِ حِصْنٍ: (وما أدري... أقومُ آلَ حِصْنٍ أم نساءً)، ومعلومٌ أنّ «حُكْمَ مَنْ تَطْمِئُنُّ إلى حيّادِهِ ونزاهتِهِ أكثرُ تأثيراً في نفسِكَ مِنْ حُكْمِ الَّذِي يَكُونُ حَكْماً وَخَصْماً في الوقتِ نفسِهِ»^(١).



(١) انظر: المفصل في علوم البلاغة العربية ص ٦١١.

نفي الشيء بإيجابه

ويُسمى «نفي الشيء بنفي لازمه»^(١)، وهو أن يكون ظاهر الكلام يُفيد إثبات الشيء؛ إلا أن باطنه يُفيد نفيه مطلقاً؛ كقولي: (ليس في القرآن الكريم تناقض يذكره الناس)؛ إذ ليس المقصود أنه ثمة في القرآن تناقض، ولكن الناس لا يذكرونه، بل المقصود أنه لا يوجد في القرآن تناقض أصلاً فيذكره الناس.

وعرفه بعضهم بأن يُنفي الشيء مُقيّداً، والمُرَادُ نفيه مطلقاً؛ مُبالغة في النفي، وتأكيداً له^(٢)، وقال فيه ابن رشيّق (ت ٤٦٣ هـ): «وهذا الباب من المبالغة، وليس بها محضاً، إلا أنه من محاسن الكلام، فإذا تأملته وجدت باطنه نفيّاً، وظاهره إيجاباً»^(٣)، وقد أشار ابنُ السّيد البطليوسي (ت ٥٢١ هـ) إلى هذا الأسلوب، وإن لم يُسمّه باسمه هذا، ورأى أنه بابٌ يدقُّ على مَنْ لم يتمهز في هذه الصّناعة؛ ومثّل له بقوله تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشّٰفِعِينَ﴾ [المذثر: ٤٨]، ثم قال: «وليس المراد إثبات شفاعته غير نافعة؛ لأنه لا شفاعته هناك في الحقيقة بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شٰفِعِينَ﴾^(٤) وَلَا صٰدِقٍ

حَمِيمٍ» [الشعراء: ١٠٠-١٠١]؛ فأوقع النفي على المنفعة التي هي المُسبّب، ومُرَادُه تعالى: الشّفاعَةُ، التي هي السبب، فكأنه قال: فَمَا تَكُونُ شَفَاعَةً، فَتَكُونُ مَنفَعَةً...»^(٥)، وهذه اللَّفْظَةُ الأسلوبية ليست قصراً على القرآن الكريم؛ فقد وردت قبل في كلام العرب العرباء شعرهم ونثرهم، وإلى ذلك أشار الشّريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) حيث ذكّر «أنّ للعرب فيما جرى هذا المجرى من الكلام عادة معروفة، ومذهباً مشهوراً، عند مَنْ تصفّح كلامهم، وفهم عنهم، ومُرَادُ ذلك المبالغة في النفي وتأكيدُه؛ فمن ذلك قولهم: (فلان لا يُرجى خيره)؛ ليس يريدون أن فيه خيراً لا يُرجى، وإنما

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٦٦٣.

(٢) انظر: أنوار الربيع ٤/ ٣٦٤.

(٣) انظر: العُمدَةُ ٢/ ٧١٢.

(٤) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني ص ١٠٩.

غرَضُهم أَنَّهُ لَا خَيْرَ عِنْدَهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِ...، وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: (فَلَا نَغَيْرُ سَرِيعَ إِلَى الْخُتَا) وَهُمْ يَرِيدُونَ أَنَّهُ لَا يَقْرُبُ الْخُتَا، لَا نَفْيَ الْإِسْرَاعِ حَسْبُ^(١).

وَمِنْ أَمْثَلِهِ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا سَمِعَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] تَوَهَّمُوا أَنَّ الرِّبَا مَنَهِىٌّ عَنْهُ إِذَا كَانَ ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾، وَأَمَّا إِذَا أَخَذَ الدَّائِنُ مِنْ مَدِينَةِ رَبِحًا بَسِيطًا (فَائِدَةٌ) عَلَى أَصْلِ الْمَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَصِحُّ، وَلَكِنْ هَذَا تَوَهَّمٌ خَاطِئٌ؛ لِأَنَّ مَقْصُودَ الْآيَةِ النَّهْيُ عَنْ كُلِّ أَنْوَاعِ الرِّبَا؛ وَ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ صَحِيحٌ أَنَّهُ حَالٌ، لَكِنْ هَذِهِ الْحَالُ لَيْسَتْ لِلتَّقْيِيدِ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ أَنَّ الرِّبَا مَنَهِىٌّ عَنْهُ حَالٌ كَوْنِهِ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً؛ بَلْ جِيءَ بِالْحَالِ ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ لِبَيَانِ قُبْحِ فِعْلِهِمْ، وَلِتَوْبِيخِهِمْ عَلَى مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ مُضَاعَفَةِ الدَّيْنِ مَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ، وَلِلتَّأْكِيدِ عَلَى خَطَرِهِ بِالذَّاتِ^(٢)؛ لِأَنَّهُ الْأَشَدُّ بَلَاءً عَلَى الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ فَهْمَهُ لِلآيَةِ خَاطِئٌ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ سَابِقَةٍ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَاذْنَبُوا يَحْرِبُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِمُوا فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩] فَلِلدَّائِنِ أَنْ يَسْتَرِدَّ رَأْسَ مَالِهِ غَيْرَ مَزِيدٍ عَلَيْهِ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا، وَقَدْ عَلَّقَ الرَّخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) عَلَى الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ نَهْيٌ عَنِ الرِّبَا مَعَ تَوْبِيخٍ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ تَضْعِيفِهِ؛ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا بَلَغَ الدَّيْنُ مَحَلَّهُ زَادَ فِي الْأَجَلِ، فَاسْتَغْرَقَ بِالشَّيْءِ الطَّافِفِ مَالُ الْمَدْيُونِ^(٣).

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِن أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَنَغْوِ الدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣]، وَالْفَتَيَاتُ هَهُنَا الْإِمَاءُ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ نَهْيٌ عَنِ إِكْرَاهِ الْإِمَاءِ عَلَى الْبِغَاءِ (فِي حَالِ أَرْدَنِ الْعَقَافِ)، وَبِاطْنُ الْآيَةِ يَشْتَمِلُ عَلَى عَمُومِ النَّهْيِ؛ فَالْآيَةُ تَنْهَى عَنِ إِكْرَاهِ الْإِمَاءِ عَلَى الْبِغَاءِ أَوْ تَسْهِيلِ هَذَا الْأَمْرِ

(١) انظر: أمالي المرتضى ١/ ٢٢٨-٢٣٠.

(٢) انظر: زاد المسير ١/ ٤٥٨ (حاشية ١).

(٣) انظر: الكشف ١/ ٦٢٦.

هَئِن سِوَا كُنَّ رَاغِبَاتٍ أَوْ مُكَرَّهَاتٍ؛ وَلَكِنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ خَصَّتْ بِالذِّكْرِ ﴿إِنْ أَرَدْنَا نَحْصِنَا﴾ لِيَبَانَ قُبْحُ هَذَا الْفِعْلِ، وَلِزِيَادَةِ التَّوْبِيخِ لِفَاعِلِهِ^(١).

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْفُقَرَاءِ الْأَعْفَى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]؛ أَي لَيْسَ لَهُمْ سُؤَالٌ أَصْلًا لِيَكُونُوا مُلْحِفِينَ فِيهِ، وَلَعَلَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ قَيَّدَتْ امْتِنَاعَ سُؤَالِهِم بِالْإِلْحَافِ؛ لِأَنَّ الْمُضْطَرَّ هُوَ الَّذِي يُلْحِفُ فِي السُّؤَالِ؛ فَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ يُشْرِفُونَ عَلَى الْهَلَاكِ وَلَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ؛ فَالْمَرَادُ هَهُنَا نَفْيُ الْمَقْيَدِ وَالْقَيْدِ جَمِيعًا؛ أَي ظَاهِرُ الْكَلَامِ نَفْيُ (الْإِلْحَافِ) فِي الْمَسْأَلَةِ، وَبَاطِنُ الْكَلَامِ نَفْيُ (الْمَسْأَلَةِ) وَالْإِلْحَافِ جَمِيعًا^(٢).

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّعِ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]؛ لَيْسَ مَقْصُودُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ بِبُرْهَانٍ عَلَى إِلَهِهِ الْجَدِيدِ، وَإِنَّمَا الْمَرَادُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى لَيْسَ لَهُمْ بُرْهَانٌ عَلَى أُلُوْهِيَّةِ مَنْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ حَجَرٍ أَوْ شَمْسٍ أَوْ حَيَوَانَ... إلخ، وَفِي الْآيَةِ كَذَلِكَ تَحَدُّ تَعْجِيزِيٍّ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَأْتُوا بِبُرْهَانٍ عَلَى صِحَّةِ زَعْمِهِمْ؛ وَهَذَا تَأْكِيدٌ عَلَى عَدَمِ وَجُودِ بُرْهَانٍ يُثَبِّتُ ادِّعَاءَهُمْ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ (ت ٦٨٣ هـ): «فَقَوْلُهُ: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ لَا يُقْصَدُ بِهِ تَمْيِيزُ إِلَهٍ سِوَى اللَّهِ مِنْ إِلَهٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَدْعُوٍّ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى لَا بُرْهَانَ لَهُ، وَإِنَّمَا أُريدُ أَنَّ عَدَمَ الْبُرْهَانِ مِنْ لَوَازِمِ دُعَاءِ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى»^(٣).

وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّكَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]؛ وَهَلْ يَكُونُ قَتْلُ

(١) انظر: زاد المسير ٤٥٨/١ (حاشية ١).

(٢) انظر: الكشف ٥٠٤/١.

(٣) انظر: الانتصاف فيما تضمنته الكشف من الاعتزال، (مطبوع على حاشية الكشف طبعة دار الفكر بيروت).

أنبياء الله بالحق؟ وكيف يتبع الحق من كفر بآيات الله؟ والجائر والمجرور ﴿يَغْيِرُ﴾ متعلقان بحال محذوفة من الواو، لكن هذه الحال ليست البتة حالاً مُقيّدة، بل هي «حال مؤكدة لمضمون جملة ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ﴾؛ إذ لا يكون قتل النبيين إلا ﴿يَغْيِرُ حَقَّ﴾...»^(١)، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآبَائِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١] فالصفة ههنا أيضاً لم تأت مُقيّدة للموصوف؛ لأنّ المعنى سيصير إلى النهي عن تبديل كلام الله حالة كون المقابل أو المال المدفوع قليلاً، والسّماح بذلك إن كان المال المدفوع كثيراً، وليس كذلك، بل هذه الصّفة أيضاً مؤكّدة لمضمون الجملة قبلها؛ لأنّ القصد نهى هؤلاء الذين يبدّلون كلامه سبحانه أو يكتُمونه طمعاً بعرض الدنيا، ويُقصّد أيضاً توبيخهم على فعلتهم، وزيادة تشويه فعلتهم وتشنيعها وتقبيحها، والتّشديد أو التّأكيد عليهم في النهي بأنّه ولو كان المال قليلاً قليلاً فإنّ هذا لا يجوز، فمن باب أولى أن يكون كثيره أعظم خطراً، وهذا ظاهر لمن له أدنى عقل، وهذا أسلوب في الخطاب تنهى فيه المخاطب عن الصّغيرة حتّى لا يأتي الكبيرة، ويُعينك على اختصار الكلام حتّى لا تعدّ له مئات بل ألوفاً ممّا فوقها؛ ومثّل ذلك أن الله تعالى يأمرنا ببرّ الوالدين والتّأدّب معهما بقوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] فهل يُعقل أن يأتي شخص فيمثّل لأمر الله حرفياً فلا يقول لهما: أفّ، ولا ينهرهما، ولكنه يضرّبهما؛ لأنّ الآية لم تنه عن ضربهما! لا ريب في أنّك ترى في هذا ضرباً من الهذيان، ومثله الوهم الذي يعتاد السّامع للآيات السابقة إذا كان قليل المعرفة بتصريف كلام العرب.

ومثّل ذلك قول أبي الطيّب المتنبي: [البسيط]

أفدي ظيَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا	مَضَعُ الْكَلَامِ وَلَا صَبَغَ الْحَوَاجِبِ
وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَامِ مَائِلَةً	أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيلَاتِ الْعَرَاقِبِ

(١) انظر: التّحرير والتّنوير ٢٠٦/٣.

فظاهر الكلام أن هؤلاء الفتيات البدويات لا يبرزن من الحما على هذه الهيئة؛ وباطنه عدم دخولهن الحما مطلقاً؛ لأنهن بدويات لا يعرفن الحما؛ والغرض أن حسنهن مستغن عن التصنع والتطرية، ويؤكد هذا قوله قبله: [البسيط]

ما أوجه الحضر المستحسناً به كأوجه البدويات الرعائيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب^(١)

جمالية نفى الشيء بإيجابه:

هذا الباب كما ترى يُفيد المبالغة في نفى الحكم، والتأكيد على خطر ما يتوهم أنه (قيد)؛ كما في قوله: ﴿أَضْعَفًا مُضْعَفَةً﴾، وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَا تَحْصُنًا﴾، ومعلوم أن الكلام الذي نبذل في سبيل تحصيله جهداً بين التفكير والتدبر يكون أعلق في الذهن من غيره، ونفي الشيء بإيجابه كما رأيت يُفسح المجال للمتلقى ليشترك في بناء النص من خلال تحليله لعوامله الأولية، وفهمه فهماً مستقيماً لا يدخله الوهم، وإن جهل الناس في أيامنا بهذا الفن البديعي وقلة بصيرهم بلسان العرب، وبمسالك التعبير الرفيعة فيه = هو ما يقودهم إلى الضلال في فهم كثير من النصوص التراثية.



(١) انظر: ديوان المتنبي ١/ ١٦٨. الرعائيب: مفردها الرُعْبُوبَةُ: وهي المرأة السَّمِينَةُ.

تناسب الأَطراف

هو أن يبتدئ المتكلم كلامه بمعنى، ثم يختتمه بما يُناسب ذلك المعنى الذي ابتدأ به، وهو نوعان: ظاهر، وخفي^(١).

أمَّا الظَّاهر فكقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ فإنَّ ﴿اللَّطِيفَ﴾ يُناسبُ كونه تعالى غير مُدركٍ بالأبصار، وإنَّ ﴿الخبيرَ﴾ يُناسبُ كونه تعالى مُدركاً للأبصار؛ لأنَّ إدراكَ الشيء يستلزمُ الخبرةَ به، وهذا النوع لا إيهام فيه.

وأمَّا الخفيُّ الذي يحتاجُ إلى تدبُّرٍ وإعمالِ فكرٍ حتَّى يُدركَ فهو الَّذي يعيننا ههنا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]؛ فإنَّ قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يُؤهمُ أنَّ الفاصِلةَ (الغفورُ الرَّحيمُ)؛ ولكنَّ إنعامَ النَّظرِ في الآيةِ الكريمةِ يُؤكِّدُ أنَّها ينبغي أن تكونَ على ما هي عليه التَّلاوةُ؛ لأنَّه لا يَغْفِرُ لِمَنْ استحقَّ العذابَ إلَّا مَنْ ليسَ فوقه أحدٌ يرُدُّ عليه حُكمه؛ فهو ﴿الْعَزِيزُ﴾؛ والعزِيزُ في اللُّغةِ هو القويُّ الغالبُ كُلُّ شيءٍ^(٢)، وهو لا يَغْفِرُ للجميعِ مَنْ يستحقُّ المغفرةَ وَمَنْ لا يستحقُّ؛ فهو ﴿الْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ الحَكيمَ مَنْ يَضَعُ الشَّيْءَ فِي مَحَلِّهِ، فلا يُثِيبُ ولا يُعاقِبُ إلَّا عن حِكْمَةٍ^(٣)؛ وفي قوله: ﴿الْحَكِيمُ﴾ احتِراسٌ؛ لِئلاَّ يُتوهَّم أنَّ الغُفْرانَ لهم - مع استحقاقهم للعذابِ - خارجٌ عن الحِكْمَةِ؛ فكأنَّه يقولُ: إنَّ عَذَابَهُمْ على كُفْرِهِمْ فقد عَدَلْتُ؛ لأنَّهم أَحقُّاءُ بالعذابِ، وإنَّ غَفَرْتَ لهم مع استحقاقهم للعذابِ فلا اعتراضَ لأحدٍ عليك في ذلك، والحكمةُ فيما فعلته.

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٤٢١.

(٢) انظر: اللسان (عزز)

(٣) انظر: الكشف ٣١٨/٢، وأنوار الزَّبيع ١٩٦/٤.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، وقوله: ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المتحنة: ٥]، وقوله: ﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ٧ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ٨ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٩ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٧-١٠]؛ وقيل في هذه الفاصلة الأخيرة: «فإن بادي الرأي يقتضي (توَّابٌ رحيمٌ)؛ لأنَّ الرَّحمةَ مُنَاسِبَةٌ للتَّوبة، لكنَّ عبَّرَ به إشارةً إلى فائدةٍ مشروعية اللِّعانِ وحكمته، وهي السَّترُ عن هذه الفاحشة العظيمة»^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]؛ فإنَّ الإخبارَ بخلقِ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهنَّ يؤهِّمُ أنَّ الفاصلةَ لها صلةٌ بالقدرة؛ كأنَّ يُقالَ: (وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ)، وبمقابل ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ٢٨ قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٨-٢٩]؛ فَإِنَّ ذِكْرَ عِلْمِهِ ﷻ بما يُخفي الإنسانُ في صدره وما يُبدي وعلمه بكلِّ ما في الكونِ يؤهِّمُ أنَّ الفاصلةَ بعدُ لها صلةٌ بالعلم؛ كأنَّ يُقالَ: (وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ)، وأُجيبَ عن هذا التَّوهمِ بأنَّ التَّنَاسُبَ حاصلٌ بين كُلِّ فاصلةٍ ومضمونِ آيتها:

فأما الآية الأولى: فتضمَّنتِ الإخبارَ عن خلقِ الأرضِ وما فيها على حسب حاجاتِ أهلها ومنافعهم ومصلحتهم وخلقِ السَّمواتِ خلقاً مُستوياً مُحْكَمًا مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ؛ والخالقُ على الوصفِ المذكورِ يجبُ أن يكونَ عالماً بما فعله كُلياً وجُزئياً، مُجْمَلاً ومُفَصَّلاً، ولذا ناسبَ ختمُها بصفةِ العِلْمِ.

(١) انظر: معترك الأقران ١/ ٤٦.

وأما الآية الثانية: فكانت في سياق الوعيد لمن يُوالي الكُفَّار، وكان التعبير فيها كناية عن المجازاة بالثواب والعقاب؛ فناسب ختمها بصفة القدرة^(١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ فإن الإخبار عن تسبيح الأشياء وجهل الإنسان بهذا التسبيح يُوهِّم أن الفاصلة مما له صلة بالعلم؛ كأن يُقال: (إنه كان عليمًا خبيرًا)، ولكن لو أعدنا قراءة هذه الآية في سياقها:

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقُلُوبُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بَتَّعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٠-٤٤].

لو أعدنا قراءة هذه الآية في سياقها، ورأينا أن الآيات قبلها تستنكر قول مَنْ زعموا أن الملائكة بناتُ الله، وأن مع الله آلهة، سبحانه وتعالى عما يصفون، ثم أخبرنا تعالى عن تسبيح السموات والأرض وكل شيء في هذا الكون الكبير، مع أن الإنسان أولى من الجملادات بالمعرفة والتوحيد والتسبيح والطاعة، ومع ذلك فهو يُعرض عن ذكره، ويكفر به، = لَتَيَقَّنْتَ أَنَّ مجيء الفاصلة ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ هو الأنسب؛ والتقدير: (إنه كان حليمًا عن البشر لا يُعاجلهم بالعقاب على عصيانهم وجُحودهم وإشراكهم وهم يعيشون في رحاب كونٍ يُسبِّح بحمده، غفوراً لذنوبهم)^(٢).

إنَّ هذا مثل هذا التناسب - أعني النوع الثاني من تناسب الأطراف أو ما يُسمى بالخفي - إنه يترك في النفس أو هاماً لخفاؤه؛ لأن المتلقي عندما يسمع كلاماً ما يوطن نفسه على سماع فاصلة أو قافية مُلائمة لما ابتداء به المتكلم كلامه، وإنه قد يتوقع الكلام اللاحق بناءً على إدراكه للسابق، وإن معاني

(١) انظر: معترك الأقران ١/ ٤٧.

(٢) انظر: الكشف ٣/ ٥٢٣.

بعض العبارات قد تُوهّم فواصل بعينها، والذي يحصل في هذا النوع أنّ الكلام السابق يُوهّم المتلقي فاصلةً ما؛ فإذا به يُحبط توقُّعه ويَقعُ في خِصَصٍ يَبْصُرُ.

ويبدو لي أنّ عناية علماء البلاغة والتفسير بإيضاح هذه الظاهرة (ظاهرة التناسب الخفي لأطراف الآيات) على ندرتها، وبيان المناسبات في كلّ فاصلة على حدة هو تعبيرٌ عن إدراكهم للطاقة الإيهامية أو الإيحائية التي تتلبّس ذهن القارئ للآية الكريمة حتّى تُوحى إليه بفاصلة مُحَدَّدة؛ فإنّ خفيّ عليه التَّناسُبُ حارٌّ في أمره؛ فتراهم قد اجتهدوا لإزالة ما قد يعلّق من وهم في ذهن القارئ إنّ خفيّ عليه هذا التَّناسُبُ، وكذا ليدرؤوا عن القرآن الكريم شُبْهَةً عدم تناسُبِ آياته ومعانيه؛ ولا بأس في تذكُّرِ قصّة ذلك الأعرابي الذي مرَّ بقارئٍ يقرأ القرآن، ولم يكن الأعرابيُّ قرأ القرآن من قبل، فسَمِعَ القارئَ يَقْرَأُ: (فَإِنْ زَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(١)، فأنكره، وقال: إنّ كانَ هذا كلامَ الله؛ فلا يقولُ كذا الحكيمُ لا يذكُرُ الغُفْرانَ عندَ الزَّلَلِ؛ لأنّه إغراءٌ عليه^(٢).

فلا يقول كذا الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل



(١) البقرة: ٢٠٩. وصحّة الآية: (فاعلموا أنّ الله عزيزٌ حكيم).

(٢) انظر: الكشّاف ١/ ٤١٨-٤١٩.

اللف والنشر

وسمّاه ابنُ حِجَّةَ (ت ٨٣٧هـ) الطِّيَّ والنَّشْرَ^(١) والطِّيُّ ضدُّ النَّشْرِ. والطِّيُّ أو اللَّفُّ اصطلاحاً: هو أنْ تذكُرَ مُتَعَدِّداً من شيئين فصاعداً (مُفَصَّلاً كان أم مُجْمَلاً)، وأمَّا النَّشْرُ: فهو أنْ تذكُرَ أشياءً على عددٍ ذلك من غير تعيين، مُفَوَّضاً إلى العقلِ رَدَّ كُلِّ واحدٍ إلى ما يليقُ به؛ ثقةً بأنَّ السَّامِعَ سيرُدُّ كُلَّ واحدٍ إلى مُناسِبِهِ، وإنَّكَ لَتَرى أنَّ من جماليّات اللَّفِّ والنَّشْرِ الإيضاحُ بعدَ الإيهام، أو التَّفصيلُ بعدَ الإجمال، أو التَّخصيصُ بعدَ التَّعميم، وما يعقُبُ ذلك من تشويقٍ للسَّامِعِ، فترسيخٍ للمعنى وتمكينٍ له في نفسه.

فإن طويتَ المتعدّدَ مُفَصَّلاً؛ نصَّصْتَ على كُلِّ واحدٍ منهما، وإن طويته مُجْمَلاً؛ أتيتَ بشيءٍ واحدٍ يشتملُ على مُتَعَدِّدٍ.

فالأوّلُ (طَيُّ المتعدّدِ مُفَصَّلاً) ثلاثةُ أَضْرُبٍ من حيثُ ترتيبُ مفرداته مع ما يُناسِبُها؛ لأنَّ النَّشْرَ ثلاثةُ أنواعٍ أيضاً:

- فالنَّشْرُ إمّا أن يكونَ على ترتيب اللَّفِّ، وهو الأشهر؛ كقول ابنِ حيّوس: [الكامل]
فِعْلُ المَدَامِ، وَلَوْ نُهَا، وَمَذَاقُهَا فِي مُقْلَتَيْهِ، وَوَجْتَيْهِ، وَرِيقِهِ^(٢)
- وإمّا أن يكونَ على ترتيب اللَّفِّ (ترتيباً عكسياً)؛ فيكونُ الأوّلُ من النَّشْرِ للآخر من اللَّفِّ، والثَّاني لما قبله، وهكذا على التَّرتيب؛ كقول أبي هلال العسكري: [الخفيف]
كَيْفَ أَسْلَوْ، وَأَنْتَ حِقْفٌ وَغُضْنٌ وَغَزَالٌ؛ لَحْظاً وَقَدْ أَوْرَدْنَا^(٣)
- وإمّا ألا يكونَ على ترتيب اللَّفِّ مُطلقاً، واقترح المديني (ت ١١٢٠هـ) تسميته بمختلِط التَّرتيب، أو اللَّفِّ والنَّشْرِ المشوّش، ومثّل له بقوله: [الطويل]

(١) انظر: خزانة الأدب ٥٨/٢، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها ص ٥٢٥.

(٢) انظر: ديوان ابن حيّوس ٤٠٩/٢.

(٣) انظر ديوانه ص ١٦٣. اللَّحْظُ للغزال، والقَدْ للْغُصْنِ، والرَّدْفُ (وهو الكثيبُ من الرَّمْلِ) للحِقْفِ.

حَكَيْتِ الدُّجَى وَالصُّبْحَ وَالْغُصْنَ وَالنَّقَا قَوَامًا، وَأَزْدَانًا، وَفَرْعًا، وَرَوْنَقًا
وَأَخْجَلْتِ حُسْنًا طَلْعَةَ الْبَدْرِ وَالرَّشَا وَوُزُقُ الْحُمَى لَحْظًا، وَوَجْهًا، وَمَنْطِقًا^(١)

وَأَمَّا الثَّانِي (طَيُّ المتعدد مجملًا) - وهو بيت قصيدنا - فكقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١]، وأظنُّ أَنَّ آيَا مَنَا لو قرأ الآية لفهم بيُسْرٍ وسهولة أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى زَعَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ قَصْرٌ عَلَيْهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَدْيَانِ وَالسِّمَلِ، وَهَذَا لَا مَشَقَّةَ فِيهِ وَلَا عَنَاءَ.

وَلَكِنَّهُ لَوْ أَعَادَ النَّظَرَ وَأَنعَمَهُ فِي الْآيَةِ، لَعَرَفَ أَنَّ (وَإِنَّ الْجَمَاعَةَ فِي قَالُوا) الْعَائِدَةَ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى طُوبَى مُجْمَلَةً، وَلَوْ فَضَّلْتَ لَقِيلَ: (قَالَتِ الْيَهُودُ: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا، وَقَالَتِ النَّصَارَى: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنَ النَّصَارَى)؛ فَقَدْ أُتِيَ بِالطَّيِّ مُجْمَلًا ثَقَّةً بِقُدْرَةِ السَّامِعِ عَلَى رَدِّ كُلِّ قَوْلٍ إِلَى صَاحِبِهِ بِحُسْنِ فَهْمِهِ وَسَلَامَةِ ذَوْقِهِ، وَقَدْ رَأَى أَهْلُ الْبَلَاغَةِ أَنَّ مَا عَلِمَ مِنَ التَّعَادِي بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَمِنْ تَضْلِيلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ حَقِيقٌ بِأَنْ يَكُونَ قَرِينَةً مَانِعَةً مِنْ تَوْهَمِ أَنَّ أَحَدَ الْفَرِيقَيْنِ يَقُولُ بِدُخُولِ الْفَرِيقِ الْآخَرِ الْجَنَّةَ، وَلَا سِيَّيَا إِنْ قَرَأْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى بَعْدَهَا بِقَلِيلٍ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرِيُّ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١١٣]، إِنَّكَ تَرَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ قَرِينَةٌ صَارِفَةٌ لِلْوَهْمِ السَّابِقِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فَإِنَّ الْبَعْضَ إِذَا يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ يَظُنُّ أَنَّ شِدَّةَ أَصَابَةِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى صَارُوا يَتَضَرَّعُونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَدْعُوهُ ﷻ بِتَعْجِيلِ النَّصْرِ، فَيَأْتِي رَدُّهُ سَبْحَانَهُ فِي جُمْلَةٍ اسْتِثْنَائِيَّةٍ، تُثَبِّتُ أَفْئِدَتَهُمْ وَتُبَشِّرُهُمْ بِأَنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ.

وَلَكِنْ لَوْ عُذِّنَا إِلَى الْمَفْسِّرِينَ لَرَأَيْنَا أَنَّهُمْ انْتَبَهُوا إِلَى أَنَّ فِي الْآيَةِ لَفًّا وَنَشْرًا، فَقَدْ أُتِيَ بِالْفِعْلِ ﴿يَقُولُ﴾ وَذَكَرَ بَعْدَهُ فَاعْلَانُ: ﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، وَرُتَّبَ عَلَى ذَيْنِ الْفَاعِلِينَ قَوْلَانِ مُخْتَلِفَانِ،

(١) انظر: أنوار الربيع ١/ ٣٥٥.

قول الذين آمنوا، وقول الرسول، وأصل النظم: «وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولُوا: متى نصرُ الله؟ فيقول الرسول: أَلَا إِنَّ نصرَ الله قريب»^(١).

على أن من المفسرين من ذهب إلى أن هذا القول: ﴿أَلَا إِنَّ نصرَ الله قريب﴾ كلامٌ مُستأنفٌ، وهو بشارةٌ من الله تعالى^(٢)، وإلى ذلك أميل لأن قوله ﴿أَلَا إِنَّ نصرَ الله قريب﴾ سيكون بُشْرى للمستضعفين في كُلِّ زمانٍ، ولا إيهام عندئذٍ.

جَلِيٌّ أَنَّ اللَّفَّ والنَّشْرَ جُمْلَةٌ يعتمدُ على يَقْظَةِ المخاطَبِ ومعرفته بتناسُبِ الأشياءِ لِأَمْنِ اللَّبْسِ؛ فهو مُجْمَلٌ يُفَصِّلُهُ العِلْمُ به، وواضحٌ أَنَّ اللَّفَّ المَجْمَلَ كما في الآيةِ يُوهِمُ المتلقِّيَ بوحدةِ المطويِّ لا بتعددِهِ، وأنَّ طبيعةَ مثلِ هذه العباراتِ موهمةٌ للمتلقِّي، ولولا ما أحاطَ بها من قرائنَ لَحْفِيَّتِ أو كَادَتْ على أهلِ التفسيرِ أنْفُسَهُمْ، ولَمَّا زالَ هذا الوَهْمُ الَّذِي عَلِقْنَا ابتداءً، ولا ريبَ في أَنَّ هذا الصَّنِيعَ يَحْمِلُ القارئَ على التِّيَقُّظِ وتدبُّرِ النَّصِّ بينَ تحليلٍ وتركيبٍ؛ كيلا يفوته تحصيلُ المُرادِ.



(١) انظر: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ص ٣١٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣١٦/٢.

إيهام التَّضادِّ

ويُسمَّى إيهام المطابقة أيضاً^(١)، وهو الجُمعُ بينَ معنيين غيرِ مُتقابلين أي متضادين، عبَّرَ عنهما بلفظين يتقابلُ معناهما الحقيقيَّان^(٢)، ومثاله قولُ دِعْبِلَ: [الكامل]

لا تَعَجَّبي يا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ المَشْيِبُ برَأْسِهِ فَبَكَى^(٣)

فقد عبَّرَ بالضَّحِك الذي هو ضدُّ البُكاء عن ظهور الشَّيب في رأسه ظُهوراً تامّاً، إذاً من حيثُ الظَّاهر قد يتوهَّم السَّامعُ أنَّ بينَ الكلمتين (ضحك - بكى) تضاداً في المعنى، ولكنَّه إنَّ تأمَّلَ المعنى السِّيَاقِيَّ لكلِّ تَيَقُّين أنَّ لا تضادَّ بينهما ههنا، وإنَّ كانا مُتضادين في معناهما الوَضْعِيَّ أو المعجميَّ.

ومثله قولُ ابنِ رَشِيقِ القَيْرَوَانِي: [الطُّول]

وقد أَطفَؤُوا شَمْسَ النَّهَارِ وأوقَدُوا نُجُومَ العَوالي في سَماءٍ عَجَاجٍ^(٤)

قد يقعُ في وَهْمِ السَّامعِ أنَّ التَّقابُلَ أو الطَّباقَ بينَ الكلمتين (أطفَؤُوا - أوقَدُوا) في البيت، وهذا في المعجم صحيحٌ؛ لأنَّ بينَ الإطفاءِ والإيقادِ تضاداً، ولكنَّه في البيت توهُمُ خاطئٌ؛ لأنَّ (إطفاءَ الشَّمسِ) ههنا عبارةٌ عن إثارة العَجَاجِ حتَّى غَطَّى على الشَّمسِ، و(إيقادِ نجومِ العوالي) ههنا عبارةٌ عن تشريعِ أَسِنَّةٍ رِمَاحِهِم، فالتَّضادُّ في هذا البيت واقعٌ في المعاني المَجازِيَّة لا الحَقِيقِيَّة.

ومثله قولُ الشَّاعِرِ: [الكامل]

يُيَدِي وشاحاً أبيضاً من سِفِيهِ والجَوْ قد لَبَسَ الوِشاحَ الأَغْبَرَ

وعَلَّقَ عليه ابنُ حِجَّةَ بقوله: «فإنَّ الأَغْبَرَ ليسَ بضِدِّ الأَبْيَضِ، وإنَّما يُوهَمُ بلفظه أَنَّهُ ضِدُّهُ»^(٥).

(١) انظر: خزانة الأدب ٧٦/٢

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢١٩، وأنوار الربيع ٣٧/٢ وما بعدها.

(٣) انظر: ديوان دِعْبِلَ ص ٢٠٤، وعيار الشعر ص ١٢٤.

(٤) انظر: ونون كلمة (أبيض) للضرورة، وأنوار الربيع ٣٩/٢.

(٥) انظر: خزانة الأدب ٧٦/٢.

ومن أمثلة إيهام التضاد قول أبي تمام: [الكامل]

وَتَنْظُرِي خَبَبَ الرِّكَابِ يَنْضُّهَا مُحْيِي الْقَرِيضِ إِلَى مُمِيتِ الْمَالِ

فليس بين محيي وميت هنا تضادٌ بالمعنى، إلا بما يتوهم من ظاهر اللفظ؛ لأنَّ (محيي القريض) هنا كنايةٌ عن مجيده، ويعني به نفسه، و(ميت المال) كنايةٌ عن مُفنيه في الكرم، وليس بينهما تضادٌ.

ومنه أيضاً قول ابن حجة الحموي: [البسيط]

يَا غَائِبِينَ تَعَلَّلْنَا لِغَيْبِهِمْ بَطْنِيبِ عَيْشٍ، وَلَا وَاللَّهِ لَمْ يَطِبْ

ذَكَرْتُ وَالْكَأْسُ فِي كَفِّي لِيَا لَيْكُم فَالْكَأْسُ فِي رَاحَةٍ، وَالْقَلْبُ فِي تَعَبٍ^(١)

فالرَّاحةُ ضدُّ التَّعبِ، وفي هذا مطابقةٌ واضحة، ولكن لا ينبغي أن نحكمَ بالمطابقة على اللفظين خارجَ سياقِهما، فلو عدنا إلى البيت لوجدنا أنَّ هذه المطابقة ظاهريَّة، وليست مُنعقدة بين الكلمتين؛ لأنَّ الرَّاحةَ في قوله: (والكَأْسُ فِي رَاحَةٍ) بمعنى بطن الكفِّ، والتَّعبُ بمعنى الإجهاد، ولا تضادَ بينهما. وللتَّورية الحظُّ الأوفر في إيهام المتلقِّي في هذا البيت، ولعلَّ ما حصل من إيهام التَّضادِّ هنا؛ جاء ليرشِّحَ المعنى القريب للتَّورية (الراحة بمعنى الارتياح) وليُبعدَ عن ساحة تفكير المتلقِّي المعنى البعيد المراد الذي هو (بطن الكفِّ).

وأنت ترى أن كان بإمكان دِغِيل أن يقول: (ظَهَرَ الشَّيْبُ بِرَأْسِهِ ظُهُوراً تاماً فبكى) دونَ قوله (ضحك المشيب برأسه فبكى)، وكان لابنِ رشيقي أيضاً أن يقول: (أثَارُوا الْعَجَاجَ حَتَّى غَطَّى الشَّمْسَ وَأَبْرُقُوا بِرُؤُوسِ رِمَاحِهِم اللَّامِعَةِ)، ولكن يبدو أنَّ هذا الأسلوب أعني جَمْعَ الأضداد، وَلَمْ شَتَاتِ المتنافراتِ في مَوْضِعٍ واحدٍ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِهِ على تنشيطِ الفعاليَّة الإدراكية؛ فضلاً عن اللَّذَّةُ الدَّهْنِيَّةُ الَّتِي يَشْعُرُ بِهَا المتلقِّي بعد أن يتوصَّلَ إلى المعاني المَجَازِيَّة المقصودة في البيت، ويدري أنَّ المطابقةَ الظَّاهِرَةَ فيما بينها مُحْضٌ وَهْمٌ استطاعَ هو أن يتخطَّاه، ولا ريبَ أنَّ هذا الأسلوب إن أتى من غيرِ تكلُّفٍ أنبأ عن حِسِّ جماليِّ راقٍ، وتركَّ في نفسِ المتلقِّي تساؤلاً؛ لأنَّ الأفعالَ المتباعدة في الحياة إذا اجتمعتُ أمامَكَ في رحابِ جملةٍ واحدة، ثُمَّ تَنَقَّلْتَ فيها بينَ الحقيقةِ والمجازِ أَثَارَتْ في ذَهْنِكَ التَّعَجُّبَ والاندھاشَ في مُتعةٍ وابتهاجٍ.

(١) انظر: خزنة الأدب ٣/ ٣٣٢.

الفصل الثاني

من مواطن الإيهام في علم البيان

تمهيد: الصورة البلاغية وصلتها بمفهوم الإيهام.

المبحث الأول: الصورة الموهمة (بين محاكاة العالم الخارجي، ومحاكاة عالم الشعور والوجدان الداخلي).

المبحث الثاني: إيهام الصورة البلاغية (التشبيه، والاستعارة، والمجاز).

المبحث الثالث: دراسة تطبيقية على إيهام الكناية والتعريض.

الفصل الثاني

من مواطن الإيهام في علم البيان

تمهيد: الصورة البلاغية وصلتها بمفهوم الإيهام.

جمال الصورة مدار الخطاب الأدبي؛ فالمرء دوماً أمام خطابين: مباشر يُسمي الحقائق والأشياء بمسمياتها، وتكون مهمته توصيل الحقائق والمعلومات الصادقة المطابقة للواقع، وخطاب ذو وظيفة جمالية، فيه انزياح ومجاز وتصور، يتلامح فيه المعنى خلساً خفياً، فيشير إلى المعنى إشارة ويومئ إيماءً، يرسم بالكلمات متوسلاً بالإيهام والتخييل، لذا تراه لا يكثر بمطابقة الواقع، بل قد يهتم بما يخالف ذلك؛ كي يقرر القضايا الزائفة التي لا يسوغها إلا التأثير الذي تولده فينا، فصور البيان تقوم أصلاً على إيهام المتلقي، فترى الأديب يلوذ بالتخييل؛ ليثبت أمراً غير ثابت أصلاً؛ باعتباره وسيلة لإيهام النفس الإنسانية.

وهذه الصور الموحية يرصدها علم البيان؛ فترينا التفتن في تصوير الفكرة الواحدة في صور تخيلية كالتشبيه والمجاز والاستعارة والكنية، ومن أراد أن يعي علاقة الصورة البلاغية بإيهام المتلقي فلا يكفيه أن يعرف مصطلحات علم البيان وقواعده، بل لا بد له من الإحاطة بالخصائص الفنية لكل أسلوب، ومعرفة أبعاده النفسية، وأثره في إثارة الخيال على نحو يوهم المتلقي، ويحيل الصور في ذهنه.

ولا مراء في أن الأدب يمتاز من الأنشطة الإنسانية الأخرى بأنه نشاط تخيلي يوهم المتلقي، ولعل التخييل أو إيهام المتلقي هو أهم عناصر الخطاب الأدبي، بل هو مكون رئيس لا يقوم الخطاب الأدبي من غيره، وأظن أن التخييل على المخاطب هو قمة النشاط الإبداعي عند الشاعر.

أما الصورة البلاغية (التشبيه، والمجاز، والاستعارة، والكناية) فليست سوى واحد من مكونات الصورة الفنية للنص الأدبي، فإنها الصورة يحصل بالتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية، ولكن هذا الإيحاء الحاصل بالصورة البلاغية إيحاء جزئي لا يكتمل إلا بمعونة الأفكار، والموسيقى، وطريقة تشكيل هذه الصورة البلاغية نفسها، فالصورة البلاغية هي عنصر من عناصر إيحاء المخاطب، وليست كل شيء.

والخيال أو التخيل هو المدخل الطبيعي لدراسة الصورة الفنية؛ وهو ملكة ذهنية لدى كل إنسان تمكنه من استحضار الصور الذهنية للأشياء وهي غائبة عن مرمى حواسه، وتتباين هذه الملكة بين امرئ وآخر خصباً وجفافاً؛ لعوامل مختلفة لا مكان لها هنا.

ولكن التخيل خاص بالمتلقي، وتركيزنا سيكون على التخيل وهو الخاص بالمبدع؛ لأننا نستهدف بدراسة هذه إبداع الشاعر المخيل القادر على إثارة خيال المتلقي؛ ليستحضر صوراً ذهنية غائبة عن حواسهم، ولإيحاءهم بواقعة التخيل. وهذه القدرة على التخيل هي التي تميز الفنان المبدع؛ شاعراً ورساماً ونحاتاً وقصاصاً وموسيقياً.

والفنان المبدع ليس من يتركز الصورة البديعة وحسب، بل هو الذي يقتدر على استثارة القوة الذهنية الخيالية الكامنة في المتلقي؛ لتتفاعل مع أشياء غائبة عن عالم الحس تستحضرها من اللا شعور حيناً يلامسه ذلك الفنان المبدع، فالأولى تخيل والثانية تخيل.

المبحث الأول

الصورة الموهمة (بين محاكاة العالم الخارجي، ومحاكاة عالم الشعور والوجدان الداخلي)

الشاعرُ المبدعُ ليس فقط مَنْ له القدرةُ على الخلق، وإعادة ترتيب العالم وفق خلطةٍ عجيبة، تُناسبُ إحساسه ورؤيته الفنية؛ كأبي تمام الذي يطلبُ الصورةَ بالحاح لا اعتدال فيه ولا قصْد، ويُضفي على الواقع من روحه؛ ليُبهرنا بصورٍ لا منطقية، يختبئ وراءها معنى عميق؛ كقوله: [الطويل]

تَحَمَّلْتُ مَا لَوْ حَمَلَ الدَّهْرُ شَطْرَهُ لَفَكَّرَ دَهْرًا أَيُّ عِبَائِهِ أَثْقَلُ؟^(١)

فالدَّهْرُ الذي تَحَمَّلَ أَثْقَالَ الخلقِ من آدمَ عليه السَّلامِ وَأَثْقَالَ الأُمَمِ الغابرة لا يَقْدِرُ على النهوضِ بشطْرٍ من هموم أبي تمام، فلو جُمِعَت أَثْقَالُ أبي تمام وهوومه وجُعِلَت نصفين، فَقِيلَ للدَّهْرِ: احْتَمِلْ أَيْبَاهَا شِئْتَ؛ لَبَقِيَ الدَّهْرُ يَتَفَكَّرُ دَهْرًا: أَيُّ النِّصْفَيْنِ أَثْقَلُ؟؛ لِيتركه، وَيَعْمِدَ إِلَى الْأَخْفِ. فهل من صورةٍ أبدع من ذلك في تصويرِ خَلْجاتِ النَّفْسِ الإنسانيَّة وما يعترئها من مشاعر؟ وعلى الرَّغم من ذلك نالت هذه الصُّورة نصيبها من سِهام النُّقاد.

وأظنُّ أَنَّ الشَّاعِرَ المبدعَ ليس مَنْ يستطيعُ أَنْ يجعلَ صُورًا ذهنيَّةً لِمُدْرَكَاتٍ تتداعى إلى مُخيلة المتلقِّي وهي غائبةٌ عن حِسِّه فحسب، بل الشَّاعرُ المبدعُ المصوِّرُ ذو الخيالِ الخلاقِ هو الذي يستطيعُ أَنْ يَنْسِجَ صُورَهُ من مُعطيات الواقع، ولكنَّه يتجاوزُ حقيقةَ هذه المعطيات، ويُعيدُ تشكيلها بما يتناسبُ مع تجربته الشعريَّة والشُّعوريَّة، وبما يُعبِّرُ عن رؤيته لذاته، ولقضايا الكونِ من حوله، وهذا هو الفرقُ في الصُّورة بين أبي تمام والبُحتري.

فالبُحتريُّ يُصوِّرُ الأشياءَ كما هي في الواقع على نحوٍ مُذهِلٍ أقرب ما يكونُ إلى الحقيقةِ منه إلى الوهمِ والخيال، وأما أبو تمام فيُصوِّرُ في ذهنك تلك الأشياءَ أنفُسَها، ولكنْ بعدَ أَنْ تجاوزَ صُورتَها الواقعيَّة، وأعادَ تشكيلَ هذه المحسوساتِ على النَّحوِ الذي يُريدُ، فتراه يُفَرِّدُ بعضَها عن بعضٍ،

(١) انظر: ديوان أبي تمام ١/ ٧٤.

وِيرْكَبُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ فِي هَيْئَاتٍ وَأَنْسَاقٍ غَيْرِ تَقْلِيدِيَّةٍ، وَهَنَا يَتَجَلَّى كَسْرُ الْأُلْفَةِ وَأَثَرُهُ فِي قُوَّةِ الْإِيهَامِ وَإِثَارَةِ الْخِيَالِ؛ «فَمِنْ خَصَائِصِ الْخِيَالِ الشَّعْرِيِّ الْأَصِيلِ أَنَّهُ يُحْطَمُ سُورَ مُدْرَكَاتِنَا الْعُرْفِيَّةِ، وَيَجْعَلُنَا نَجْفُلُ لَأَثْدِينَ بِحَالَةٍ مِنَ الْوَعْيِ بِالْوَاقِعِ، تَجْعَلُنَا نَشْعُرُ كَمَا لَوْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ يَبْدَأُ مِنْ جَدِيدٍ، وَكَمَا لَوْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ يَكْتَسِبُ مَعْنَى فَرِيداً فِي جِدَّتِهِ وَأَصَالَتِهِ»^(١)، وَهَذِهِ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّخْيِيلِ مَعَ الْإِبْتِكَارِ فِي تَشْكِيلِ الصُّورَةِ وَمُفَارَقَةِ الْأَنْسَاقِ الْإِسْتِعَارِيَّةِ الْمَأْلُوفَةِ هِيَ الَّتِي تَدُلُّ أَصَالَةَ التَّجَرُّبَةِ الشَّعْرِيَّةِ.

أَمَّا فِي التَّشْبِيهَاتِ وَالْإِسْتِعَارَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ - حَيْثُ الْعِلَاقَاتُ الْمَأْلُوفَةُ بَيْنَ طَرَفَيْ التَّشْبِيهِ - فَيُضْعَفُ إِيهَامُ الصُّورَةِ فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّي، وَذَلِكَ أَنَّ طَرَفِي التَّشْبِيهِ عِنْدَمَا تَكُونُ الْعِلَاقَةُ بَيْنَهُمَا مَعْرُوفَةً وَمَأْلُوفَةً، أَوْ لِنَقُلْ: مُفْتَضَّحَةً؛ كَتَشْبِيهِ (الْجَمِيلَةِ بِالْقَمَرِ)، وَ(الشُّجَاعِ بِالْأَسَدِ)، وَ(الْكَرِيمِ بِالْبَحْرِ)، فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَضْعَفُ تَأْثِيرُ الْإِيهَامِ فِي نَفْسِ الْمُخَاطَبِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ التَّشْبِيهَاتِ الْمَكْرُورَةَ فَقَدَتْ جُزْءاً مِنْ قِيَمَتِهَا الْإِيهَامِيَّةِ وَالتَّخْيِيلِيَّةِ عِبْرَ الْأَيَّامِ، مِنْ حَيْثُ أَصْبَحَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْحَقِيقَةِ مِنْهَا إِلَى الْخِيَالِ؛ لَكثْرَةِ دَوْرَانِهَا عَلَى الْأَلْسِنَةِ، فَالْسَّامِعُ يَتَلَقَّى قَوْلَكَ: (زَيْدٌ بِحَرْ) كَمَا يَتَلَقَّى (زَيْدٌ كَرِيمٌ)؛ فَهَذِهِ صُورَةٌ اسْتَوَى فِيهَا الْحَقِيقَةُ وَالْمَجَازُ؛ لِأَنَّ الْمَجَازَ إِذَا فُشَا عَلَى الْأَلْسُنِ وَتَعَارَفَهُ النَّاسُ أَضْحَى حَقِيقَةً، وَأَمَّا لَوْ أُتِيَتْ لِهَذَا الْمُخَاطَبِ بِالصُّورَةِ ذَاتِ الطَّرَفَيْنِ الْمُتَبَاعِدَيْنِ فِي الْوَاقِعِ، لِتَجْمَعِ بَيْنَهُمَا فِي رِحَابِ اللَّغَةِ، فِي عِلَاقَةٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ؛ فَإِنَّ أَثَرَ الْإِيهَامِ - بِمَعْنَى التَّخْيِيلِ أَوْ إِثَارَةِ الْخِيَالِ - سَيَكُونُ أَقْوَى بِكَثِيرٍ؛ كَمَا فِي قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُنْتَبِي: [الوافر]

عَلَى فَلَقٍ كَأَنَّ الرِّيحَ تَحْتَسِي أَوْجُهَا جَنُوباً أَوْ شِمَالاً^(٢)

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الصُّورَةَ فِي ثَرَاتِنَا الشَّعْرِيِّ الْأَوَّلِ تَنْزِعُ نَحْوَ الْفِطْرَةِ؛ مِنْ حَيْثُ الْمِطَابَقَةُ بَيْنَ طَرَفَيْ التَّشْبِيهِ، فَيَمِيلُونَ إِلَى أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمَشَبِّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ صِلَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ لَهَا نَسَبٌ إِلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ، فَيَكُونُ

(١) انظر: الصُّورَةُ الْفَنِيَّةُ فِي الثَّرَاثِ التَّقْدِيدِيِّ وَالْبَلَاغِيِّ ص ١٤، ص ٣٨.

(٢) انظر: ديوان المتنبي ٣/ ٢٢٥.

التَّشْبِيهُ مألوفاً مُوافقاً للخيالِ الجُمُعِيِّ، كتشبيه (الجميلة بالبدن)، و(الشَّعر الأسود بالليل)، و(الخيل السريع بالبرق).

ثُمَّ لَمَّا أَتَى النُّقَادُ واستقروا ذلك التُّراثَ ولاحظوا ذلك التَّرابُطَ المنطقيَّ بينَ طرقي الصُّورة = الحُثُوةِ على الشُّعراءِ أَنْ يلتزموا هذه الطَّريقةَ في نَسجِ الصُّورِ.

ولا مِرَاءَ في أَنَّ هذا الشَّرْطَ قد يُحْدُ من شاعريَّةِ النَّصِّ، ولا يَرُقِي به إلى الابتكارِ الفنِّيِّ؛ لأنَّ مِثْلَ هذه الصُّورِ تتوقَّفُ عندَ المُشَاهَدَةِ الدَّهْنِيَّةِ والعقليَّةِ للنَّفْسِ الإنسانيَّةِ، ولا تُعيدُ قراءةَ الوجودِ، ولا تُعيدُ تشكيلَ العالَمِ الخارجيّ وَفَقَ مُعْطِيَّاتِ الشُّعورِ الباطنيِّ. لذا رأينا النُّقادَ يوجِّهونَ اهتمامهم نحوَ وُضوحِ المعنى ولُزومِ الابتعادِ عن الإبهامِ أو الغموضِ، وينظرونَ إلى الصُّورةِ على أنَّها عنصرٌ إبانةٍ لا ينبغي إبهامُها أو جعلُها مفتوحةً على فضاءاتِ الحُدْسِ والتَّأويلِ.

حتَّى أَتَى أبو تَمَّامٍ الذي أدركَ أَنَّ ليسَ الشُّعْرُ تقليداً للعالَمِ الخارجيّ، ولكنَّه محاكاةٌ لعالَمِ الشُّعورِ والوجدانِ الدَّاخِلِيِّ لذاتِ الشَّاعرِ، فتخفَّفَ من هذا القَيْدِ الفنِّيِّ، أعني المقارَبةَ بينَ طرقي التَّشْبِيهِ والملاءمةِ بينهما، وواقعيتَهما، أو وُجُودَ شَبهِ حقيقيٍّ بينهما، تخفَّفَ أبو تَمَّامٍ من تلك القيودِ؛ لِيُبدِعَ في تشكيلِ الصُّورةِ على نحوٍ جماليٍّ مُدهِشٍ، أبهرَ المتلقِّينَ بشعرٍ... هو خَلَقَ من الحياةِ مُنْعَمٌ؛ إذ رَكِبَ خياله المُجَنِّحَ، وأطلقَ له العنانَ، لِيَقَرَّ من حدودِ الزَّمانِ والمكانِ؛ إلى أعماقِ النَّفْسِ الشَّاعرةِ، يبتكرُ الصُّورَ البديعةَ المشحونةَ بالعواطفِ الدَّفَّاقَةِ، ولم ينظرْ بعينِ الاهتمامِ شروطَ عمودِ الشُّعرِ في تكوينِ الصُّورةِ، ومنها ملاءمةُ المشبَّه للمشبَّه به، فأَتَى بتشبيهاً جديدةً، وابتكرَ علاقاتٍ أُخرى بينَ الأشياءِ.

وهذا التَّجديدُ الاستعاريُّ - وإنْ ثارتْ عليه ثائرةُ النُّقادِ - فَتَحَ على شِعْرِ أبي تَمَّامٍ أبواباً من التَّأويلِ، وأثرى معانيه، وزادَ هذه الصُّورَ بلاغةً من حيثُ أفسَحَ المجالَ للمتلقِّي أن يُسهِمَ مَعَهُ في تكوينِ الصُّورةِ السَّابِحةِ في فضاءاتِ رَحْبَةٍ من التَّأويلِ الفنِّيِّ.

وأبو تمام كان واعياً إشكالية صورته البلاغية، ولا سيما استعاراته، وأنها مبطّنة عرجاء في بلوغ بعض الأفهام، وأنها ستوقّعه في إشكالية التواصل مع جمهوره؛ لأنها تُشكّل شَرخاً ثقافياً وفنياً مع فئة من المتلقين الذين لم يعتادوا مثل هذه الصُّور، فتراه يمدح أبا ذؤلف العجليّ بقوله: [الطويل]

إليك أرخنا عازب الشعر بعدما تمهّل في روض المعاني العجائب
غرائب لا قت في فنائك أنسها من المجد، فهي الآن غير غرائب^(١)

فهو يُقرّ بصنعة العجيبة، وتمهّله في اصطلاح المعاني الأبيكار، وأنّ الناس لم تفهم معانيه حتّى سيقت للممدوح، فوقعت موقعها، ونالت الرضا والاستحسان.

فأبو تمام دار بإشكالية الصُّورة والتركيب في شعره، لكنّه مُصرّ على الارتقاء الفنيّ بهذا الشعر، وعلى إشعال ثورة على الصُّورة التقليديّة التي يرى أنّها جمّدت من فرط الاستعمال، حتّى فقدت بريقها الأوّل، وتأثيرها الجماليّ الإمتاعيّ الأوّل.

وهنا أدعو الدارسين ألا ينظروا إلى عناصر الصُّورة على أنّها جُزُرٌ مُتباعِدة...، فلا ينبغي للدّارس - وهو يتذوّق الصُّورة الفنيّة في نصّ ما - أن يتكلّم عن التشبيه مثلاً بمعزل عن الاستعارة والكناية والمجاز، ولا ينبغي له أيضاً أن يتكلّم على هذه الأشياء كلّها مُغفلاً أثر العاطفة، والموسيقى، وأثر انتقاء المفردة والتركيب وملاءمة ذلك لموضوع النصّ.

ولا ينبغي الغفلة عن أثر الموسيقى الداخليّة للنصّ التي تحفّ الصُّورة بألوان من النغم تُعبّر عن الحالات النفسيّة المستعصية على الكلمة والخيال؛ لأنّ النغم هو أساس القصيدة، ولأنّ النفس تمتلئ بمناخ موسيقيّ ضبابيّ يُساعد المبدع والمتلقّي على الوصول إلى منطقة اللا شعور؛ للقبض على اللحظات الهاربة من الوعي، وهذا ما يُمكن أن ندعوه (الصُّورة السّميّة)، وأظنّ أنّ أثر الصّوت في النفس لا يقلّ عن أثر اللون أو العطر أو اللّمس، والدليل أنّنا قد نسمع لحناً موسيقياً فنشعر بالابتهاج؟ وقد نسمع لحناً آخر فتتأثّر ونشعر بظلاله الحزينة تدعونا إلى البكاء، مع أنّنا لم نفهم منه

(١) انظر: ديوان أبي تمام ١/ ٢٢١.

شيئاً؟ وما أردتُ قوله باختصار؛ هو أنَّ الشَّاعِرَ المبدعَ يستطيعُ أن يوظِّفَ موسيقى الكلماتِ لتبوحَ بمعانٍ لم تبُحْ بها الكلماتُ أنفسُها... ومقصودُ الكلامِ أنْ تَمَّ عنصراً رئيساً في تشكيل الصُّورة الفنيَّة هو الموسيقى الدَّاخِلِيَّة، وهذا العنصرُ غالباً لا يلقى عناية الدَّارسين، فقارئُ الشَّعرِ الثَّريِّ بالنَّغَمَاتِ الموحيةِ والرُّموزِ هو أشبهُ بالمنصِّتِ إلى الموسيقى يُحسُّ بها أكثرَ ممَّا يفهمُها، فكيفَ إذا كانت هذه النَّغَمَاتُ مخوفةً بالمفرداتِ المعبَّرة، والتراكيبِ الرَّشِيقَةِ، والتَّشبيهِاتِ المُخَيِّلة، والعواطفِ المؤثِّرة؟

وصفوة القول: إنَّه من العبث أن تُدرَسَ الصُّورةُ البلاغيَّةُ بمعزلٍ عن اللُّغة والنَّغَمَاتِ والعواطفِ والأفكارِ التي تكتنِفُها وتُسهمُ في تشكيلها. فمِن الدَّارسينَ مَنْ يُحلِّلُ (جماليَّة) الصُّورةَ البلاغيَّةَ بمعزلٍ عن كلِّ أولئك، فتراهُ إذا أتى على تحليلِ نصٍّ ما؛ استخرجَ التَّشبيهُ مثلاً، وحدَّدَ أركانَه، وبيَّنَ نوعَه، وتلمَّسَ وظيفتَه المعنويَّةَ في النصِّ، وقيمتَه الجماليَّةَ والفنيَّةَ. إلَّا أنَّ هذه الأخيرة لا يُمكنُ أن تُسلِّمَها نفسُها إلَّا إنْ هو رأى الصُّورةَ من بعيدٍ، فتأمَّلَ ما يكتنِفُها من أساليبِ وألحانٍ ومشاعرٍ... ثُمَّ لا بُدَّ من التَّأكيدِ مرَّةً ثانيةً على أنَّ الصُّورةَ البلاغيَّةَ (التَّشبيهُ والمجاز والاستعارة والكناية) ما هي إلَّا واحدٌ من مكوِّناتِ الصُّورة الفنيَّة؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السَّجدة: ١١٢] جوابُ شرطٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: لَرَأَيْتُ أَمراً عظيماً وشيئاً فظيماً لا يُحيطُ به الوُصفُ، فقد حُذِفَ الجوابُ هنا قصداً إلى إفادة التَّهويلِ والتَّفْظيعِ. والسُّؤالُ هنا: أَلَمْ يُؤدِّ أسلوبُ الحذفِ هنا إلى تصوُّرٍ هَوِّلِ القيامةِ في نفسِ السَّامِعِ، حتَّى ذهبتْ هذه النَّفْسُ في تصوُّرها كُلِّ مذهبٍ، مع أنَّ الحذفَ لا يدخلُ في أساليبِ الصُّورة البلاغيَّة؟ وهذا يعني أنَّ تحليلَ الصُّورة البلاغيَّةِ مع إهمالِ ما يكتنِفُها ويُحيطُ بها من أساليبِ إنَّما هو ضربٌ من العبثِ.

فدراسةُ الصُّورة البلاغيَّةِ يجبُ أن تكونَ مُحاطَةً بوعيٍ بالقيَمِ الفنيَّةِ التي تُحيطُ بها من موسيقيٍّ وعواطفٍ وأساليبٍ وغيرِ ذلك؛ لأنَّ الصُّورةَ هو الوِعاءُ الذي فيه تنصهرُ الكلماتُ التي كانت تبدو خارجَ النصِّ مُتناقِضةً مُتباعِدةً، وفي الصُّورة تغدو تلك المتباعداتُ وَحدةً بِنائيَّةً مُتكاملةً ذاتَ مناخٍ نفسيٍّ ودلاليٍّ مُتألِّفٍ، وبما أنَّ الصُّورة تقومُ أساساً على الخيالِ فإنَّها تجمعُ بينَ أشياء لا تجتمعُ في

الواقع، وتوحد بين الأشياء المتناقضة، لذا فإن الصورة بإمكانها أن تُعيد رسم الوجود، وأن تُشكّله من جديد، بما يتوافق مع تجربة الشاعر، وتصوّره للعالم.

وفي هذه الحالة نلاحظ أن الشاعر يمتلك قوة التخيل التي أتاحت له الجمع بين الأشياء المتباعدة التي لا تربط بينها علاقة ظاهرة، فيوقع الائتلاف بين أشد الأشياء تباعدًا، واستطاعت قوة التخيل أن تلغي حدود الزمان والمكان، وأن تنطلق إلى آفاق فسيحة تصنع الأعاجيب، وحازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) يرى أن اكتشاف الشاعر للتناسب بين الأشياء علامة على شاعريته، «ولقوى النفوس تفاضل في ملاحظة الجهة النبيه في نسبة معنى إلى معنى والتنبه إليها»^(١)، وبما أن جمال الشعر قد رُدَّ إلى اكتشاف العلاقات بين الأشياء المتباعدة فلا جناح على الشاعر في أن تكون صورته التي تُشكّلها قوة التخيل والملاحظة عنده غير موجودة في عالم الواقع، أو غير مدركة في مجملها للحس، والمهم أن تتألف هذه العناصر في نسق يتقبله العقل، ومن هنا يمكن لمخيّلة المتلقي أن تتقبل هذه الصور، وتمثلها، وتفترض إمكانية وجودها^(٢)، ومن هنا تفلح الصورة في إيهام المتلقي.

وعليه فإن كثيراً من الشعراء يُعبّرون عن رؤيتهم للواقع والكون والذات من خلال الصور المخيلة؛ لأن النفس الإنسانية أطوع للوهم، ولأن الإنسان كثيراً ما يتبع انفعاله وتخيلاته أكثر مما يتبع عقله أو علمه، لذا ترى المتنبي وأبا تمام يُكثران من التخيل الشعري في صوغ رؤيتهم للذات وعلاقتها بواقعها، ومن ذاك قول المتنبي: [الطويل]

أطاعنُ خيلاً من فوارسها الدهرُ	وحيداً، وما قولي كذا، ومعى الصبرُ!
وأشجعُ مني كل يومٍ سلامتي	وما بُتستُ إلا وفي نفسيها أمرُ
تمرّستُ بالآفاتِ حتّى تركتها	تقول: أمات الموتُ؟ أم دُعر الدُعرُ!
وأقدمتُ إقدام الأيّ كسأني لي	سوى مُهجتني أو كان لي عندها وتُر ^(٣)

(١) انظر: منهاج البلغاء ص ٤٤.

(٢) انظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ص ٦١.

(٣) انظر: ديوان المتنبي ٢/ ١٢٣.

ومثل ذلك قول أبي تمام: [الكامل]

لا تُنْكِرِي عَطَلَ الكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي^(١)

«فهذا قد خَيَّلَ إلى السَّامِعِ أَنَّ الكَرِيمَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِالْعُلُوِّ، وَالرَّفْعَةِ فِي قَدْرِهِ، وَكَانَ الْغِنَى كَالْغَيْثِ فِي حَاجَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ وَعِظَمِ نَفْعِهِ، وَجَبَ بِالْقِيَاسِ أَنْ يَزَلََّ عَنِ الْكَرِيمِ، زَلِيلَ السَّيْلِ عَنِ الطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ قِيَاسٌ تَخْيِيلٌ وَإِيهَامٌ، لَا تَحْصِيلٌ وَإِحْكَامٌ، فَالْعَلَّةُ فِي أَنَّ السَّيْلَ لَا يَسْتَقِرُّ عَلَى الْأَمْكَنِ الْعَالِيَةِ أَنَّ الْمَاءَ سَيَّالٌ لَا يَثْبُتُ إِلَّا إِذَا حَصَلَ فِي مَوْضِعٍ لَهُ جَوَانِبٌ تَدْفَعُهُ عَنِ الْانْصِبَابِ، وَتَمْنَعُهُ عَنِ الْانْسِيَابِ، وَلَيْسَ فِي الْكَرِيمِ وَالْمَالِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْخِلَالِ»^(٢)، وَهَكَذَا يُصْبِحُ التَّخْيِيلُ الَّذِي هُوَ قَوَامُ الشَّعْرِ وَجَوْهَرُهُ قِيَاسٌ خَادِعًا يَقُومُ عَلَى مُقَدِّمَاتٍ كَاذِبَةٍ تُوهِمُ الْمُتَلَقِّيَ بِمَعَانٍ خَادِعَةٍ تُضِلُّهُ^(٣)، فَالَّذِي يُدْخِلُ التَّشْبِيهَ وَالِاسْتِعَارَةَ فِي نِطَاقِ الْإِيهَامِ وَالتَّخْيِيلِ هُوَ قِيَامُهُمَا عَلَى فِكْرَةِ الْادِّعَاءِ وَالْمُبَالَغَةِ، فَهَذِهِ الصُّورُ الْبَلَاغِيَّةُ صَوْرٌ تَخْيِيلِيَّةٌ عِنْدَ عَبْدِ الْقَاهِرِ.

ولا بُدَّ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ مُصْطَلَحَ الْإِيهَامِ أَوْ التَّخْيِيلِ - فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ - لَيْسَ يُقْصَدُ بِهِ الْمَعْنَى السَّلْبِيُّ مِنَ الْخِدَاعِ وَالْكَذِبِ حِينَ تُطْلَقُ عَلَى التَّصْوِيرِ وَإِثَارَةِ الْخِيَالِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ إِطْلَاقَنَا مُصْطَلَحَ الْإِيهَامِ عَلَى الصُّورِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَيْسَ مِنْ بَابِ الْوَصْفِ بِالْكَذِبِ وَمُخَالَفَةِ الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهِ اسْتِدْعَاءُ الصُّورِ الذَّهْنِيَّةِ مَعَ غِيَابِهَا عَنْ مُتَنَاوِلِ الْحَوَاسِّ، وَكَانَ الزَّمْخَشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) فِي تَفْسِيرِهِ الْكَشَافِ يُعَبِّرُ عَنْ أَثَرِ الصُّورَةِ الْبَلَاغِيَّةِ بِالتَّخْيِيلِ، وَهُوَ يَعْنِي بِالتَّخْيِيلِ الْإِيحَاءَ إِلَى الْمُتَلَقِّيِّ بِشُعُورٍ مُعَيَّنٍ أَوْ إِشْعَارِهِ بِإِحْسَاسٍ مَّا؛ كَمَا فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى الصُّورَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] «فِي قَوْلِهِ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ أَرْبَعَةُ أَوْجِهٍ: أَحَدُهَا أَنَّ كُرْسِيَّهَ لَمْ يَضْغُ عَنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِبَسْطَتِهِ وَسَعَتِهِ، وَمَا هُوَ إِلَّا تَصْوِيرٌ لِعَظَمَتِهِ وَتَخْيِيلٌ فَقَطْ»^(٤)، فَالزَّمْخَشَرِيُّ لَمْ

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٧٧/٣.

(٢) انظر: أسرار البلاغة ص ٢٦٧.

(٣) انظر: الصورة الفنية في التراث التقدي والبلاغي ص ٧٦.

(٤) انظر: الكشف ٣٠١/١ (طبعة دار الفكر).

يَكُنْ يعني بالتَّخِيل المعنى السَّلْبِيَّ أخلاقياً المتمثِّل بخِداعِ النَّفْسِ وإِقْناعِها بالأوهام الكاذبة، بل كانَ يعني بالتَّخِيل بعظمةِ الله إشعارَ المتلقِّي بهذه العظمة عن طريق التَّصوِير، وعليه فإنَّ إطلاقَ هذا البحثِ لمصطلح الإيهام البلاغيِّ الذي يتضمَّنُ عناصرَ كثيرةً منها التَّخِيلُ، إنَّ إطلاقَ هذا المصطلحِ على أيِّ استعارة أو تشبيه أو مجازٍ في القرآن الكريم إنَّما هو على معنى إشعارِ المتلقِّي بشعورٍ مُعيَّنٍ أو إقناعه عن طريقِ الصُّورة، وإنَّ كانَ ابنُ المنير (ت ٦٨٣هـ) قد أنكرَ على الزَّمخشرِيِّ ذلك بقوله: «إنَّنا مُحاطَبونَ باجتنابِ الألفاظِ الموهمةِ في جلالِ الله تعالى، وإنَّ كانتِ معانيها صحيحةً، وأيُّ إيهامٍ أشدُّ من إيهامِ لفظِ التَّخِيل»^(١).



(١) انظر: الكشَّاف ١/ ٢٩٢ (طبعة دار الفكر).

المبحث الثاني

إيهام الصورة البلاغية (التشبيه، والاستعارة، والمجان).

سنعرِّض الآن نماذج من إيهام الصورة البلاغية في التشبيه والاستعارة، مع التأكيد على أنه يعيننا (التَّخِيل) بقدر ما يعيننا (التَّخِيل)، أو لنقل: (الإيهام) و (الوهم)؛ فالإيهام صادر عن المبدع، وأمَّا الوهم فهو أثر ذلك الإيهام في المتلقي؛ يعيننا الإيهام وأثره الذي هو الوهم؛ لأننا نبحث في سيكولوجية التلقي؛ فنرصد الإثارة التخيلية التي تحدثها الصورة في المتلقي، وستوقف عند هذا التخيل الذي يسهم في تشكيل الصورة ويتلاعب بها على هيئات مختلفة.

أ - إيهام التشبيه.

في الكلام على أثر التشبيه في إيهام المخاطب، ذلك التشبيه الناتج من إقامة علاقة مقارنة بين شيئين يشتركان في بعض الصفات حقيقة أو ادعاءً = يتبادر إلى ذهن القارئ سؤالان:

- ما وجه الإيهام في التشبيه؟

- وأيهما أوغل في الإيهام التشبيه أم الاستعارة؟

وللإجابة عن السؤال الأول لا بد أن نتذكر أن التشبيه يفيد الغيرية ولا يفيد العينية؛ من حيث يُحافظ على فصل الصورة الذهنية للمشبه عن الصورة الذهنية للمشبه به؛ فحين تسمع (هند قمر) يرتسم في مخيلتك صورتان منفصلتان؛ إحداها لهند، والأخرى للقمر، وتجتهد أنت في معرفة الجامع بينهما إن لم يكن مذكوراً، ومن ثم لا يمكن الإجابة عن هذا التساؤل بكلمة واحدة؛ لأن التشبيه أنواع، تام الأركان تستبين فيه كل عناصر محاولة التخيل من طرقي التشبيه وأداته ووجهه.

- التشبيه التقليدي:

ففي التشبيه التام الأركان (زيد كالأسد شجاعة) لا يتداخل طرفاه - وإن اشتركا في بعض الصفات - فهما صورتان متمايزتان لا تتداخل معالِمهما في ذهن المتلقي، وهذا أدعى إلى انخفاض

مُستوى الإيهام في هذه الصورة، ويأتي بعد ذلك وجودُ الأداةِ حاجزاً منطقياً بين طرفي التشبيه يقضي على فرصة التوهّم إن كانت موجودةً، وحتى إن حذفنا أداة التشبيه فقلنا: (زيدٌ أسدٌ في الشجاعة)، أو حذفنا الأداة والوجه معاً (زيدٌ أسدٌ) فإن الطرفين لا يزالان مُنفصلين لا تماهي بينهما في ذهن المتلقي، صحيحٌ أن تغييب أداة التشبيه في المؤكّد والبلغ يُوهّم المتلقي ويشعره بأن المشبه عينُ المشبه به، وأنّ كلّ منهما علّمٌ على الآخر، وأنّ الفوارق بينهما قد انحسرت وتبخّرت حتى أضحيا واحداً، وصحيحٌ أن تغييب الوجه في المجمل والبلغ يستنهض الطاقة الإبداعية الخلاقة لدى المتلقي؛ ليجتهد في ملء هذا الفراغ النصّي، فيأتي بتأويلاتٍ متعدّدة تزيد التشبيه رونقاً وثراءً، كلّ ذلك صحيحٌ إلاّ أنّه لا يُخرج هذه التشبيهات من حيز السّذاجة؛ إذ ليس فيه قوّة الإيهام وسلطانها على مُخيّلة المتلقي، وهذا هو الفرق بينه وبين الاستعارة التي «تتعدّى على جوانب الواقع، وتُلغي الحدود العملية بين الأشياء على نحوٍ لا يستطيعه التشبيه، والدليل البين على ذلك هو حذف الأداة والمشبه في الاستعارة إيهاماً أن المستعار له قد أصبح عين المستعار منه»^(١)، فكان لا بُدّ للمبدع الذي لم يقتنع بهذه الصّور السّاذجة أن يُطالع مُتلقيه بالوانٍ من التشبيه يظهر فيها سلطان المبالغة والإيهام، فأرنا التشبيه المقوب، والتشبيه الضمّني، والتشبيه التمثيلي.

على أن بعض التشبيهات التقليدية لها قوّة إيهام لا بفضل التّخيل؛ بل لطبيعة بنائها اللّغوي؛ كقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَ لَكُمْ تَنَقُّونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]؛ قال ابن السّيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ): «فإنّ النَّاسَ اختلفوا في هذا التشبيه من أين وَقَعَ؟ فذهب قومٌ الى أن التشبيه إنّما وَقَعَ في عددِ الايام، واحتجّوا بحديثِ رَوَوْهُ أَنَّ النَّصَارَى كَانَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي الْإِنْجِيلِ صَوْمٌ ثَلَاثِينَ يَوْماً كَالَّتِي فَرَضَتْ عَلَيْنَا، وَأَنَّ مُلُوكَهُمْ زَادُوا فِيهَا تَطَوُّعاً حَتَّى صَيَّرُوهَا خَمْسِينَ. وَذَهَبَ قَوْمٌ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ التَّشْبِيهَ إِنَّمَا وَقَعَ فِي الْفَرَضِ لَا فِي عَدَدِ الْإَيَّامِ. وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ، وَإِنْ كَانَ الْقَوْلَانِ جَائِزَيْنِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (أَعْطَيْتُ زَيْدًا

(١) انظر: الصّورة الفنيّة في التّراث النّقدّي والبلاغيّ ص ١٧٦.

كما أُعْطِيَتْ عَمراً) اخْتُمِلَ أَنْ تُرِيدَ تَسَاوِيَّ الْعَطِيَّتَيْنِ، وَاخْتُمِلَ أَنْ تُرِيدَ تَسَاوِيَّ الْإِعْطَاءَيْنِ؛ وَإِنْ كُنْتَ أُعْطِيَتْ أَحَدَهُمَا خِلَافَ مَا أُعْطِيَتْ الْآخَرُ^(١).

- التشبيه الموهَم (المقلوب، والضَّمْنِي، والتَّمثِيلِي):

• التَّشْبِيهُ الْمَقْلُوبُ: وَجْهُ الْإِيهَامِ فِيهِ أَنَّهُ تَشْبِيهُ الزَّائِدِ بِالنَّاقِصِ، وَالْحَاقُّ الْأَصْلِ بِالْفَرْعِ؛ لِقَصْدِ الْمُبَالِغَةِ، وَأَسَاسُ هَذَا التَّشْبِيهِ أَنْ يَقْصِدَ الْمُتَكَلِّمُ إِيهَامَ الْمَخَاطَبِ أَنَّ الشَّيْءَ الْقَاصِرَ عَنْ نَظِيرِهِ فِي الصِّفَةِ زَائِدٌ عَلَيْهِ فِي اسْتِحْقَاقِ هَذِهِ الصِّفَةِ، وَوُجُوبِ أَنْ يُجْعَلَ هَذَا الْقَاصِرُ أَصْلًا فِيهَا^(٢)؛ فَخَيْرٌ مَثَالٍ عَلَى الْجَمَالِ الْبَدْرُ، وَأَنْتَ إِذَا أَرَدْتَ وَصْفَ مَحْبُوبِكَ بِالْجَمَالِ قُلْتَ: (مَحْبُوبِي بَدْرٌ فِي جَمَالِهِ)، وَلَكِنْ فِي التَّشْبِيهِ الْمَقْلُوبِ أَنْتَ تَقْلِبُ الْمَوَازِينَ، فَتَقُولُ: (الْبَدْرُ كَمَحْبُوبِي فِي الْجَمَالِ)، وَفِي هَذَا إِيهَامٌ بِأَنَّ صِفَةَ الْجَمَالِ فِي الْمَحْبُوبِ أَقْوَى مِنْهَا فِي الْبَدْرِ، وَهَذَا الْإِيهَامُ - عَلَى الرَّغْمِ مِنْ افْتِضَاحِهِ لَدَى الْمُتَلَقِّي - لَهُ أَثَرٌ فِي الْمُبَالِغَةِ فِي ادِّعَاءِ صِفَةِ الْجَمَالِ لِلْمَحْبُوبِ، وَلَهُ أَثَرٌ فِي تَرْسِيخِ الْمَعْنَى فِي ذَهْنِ الْمُتَلَقِّي ثَانِيًا، فَالْبَحْرِيُّ أَرَادَ أَنْ يَمْتَدِّحَ جَمَالَ الْمَحْبُوبِ، فَقَالَ: [البسيط]

فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ شَيْءٌ مِنْ مَحَاسِنِهَا وَلِلْقَضِيْبِ نَصِيْبٌ مِنْ تَشْبِيْهَا^(٣)

وَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ يَعْبَثُ التَّشْبِيهُ الْمَقْلُوبُ بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا، وَيَتَجَاوَزُ الْوَاقِعَ فِي مُبَالِغَاتِهِ كَمَا يَتَجَاوَزُ إِلْفَ الْأَدْبَاءِ وَعُرْفَ الْبَلَائِغِينَ فِي أَصْلِ التَّشْبِيهِ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَرَبَ دَوْمًا تُشَبِّهُ الْأَدْنَى بِالْأَعْلَى؛ لِتَضَمُّنِ لَهُ أَكْبَرَ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ الصِّفَةِ الْمَدَّعَى اشْتِرَاكُهَا فِيهَا، وَلَكِنَّ بَعْضَ الْأَدْبَاءِ يَغْدِلُونَ عَنْ هَذَا؛ فَيَجْعَلُونَ الْمَشَبَّهَ مُشَبَّهًا بِهِ إِيهَامًا بِأَنَّ وَجْهَ الشَّبْهِ فِيهِ أَقْوَى مِنَ الْمَشَبَّهِ بِهِ، وَهَذَا عَدْوَلٌ يُقْصَدُ بِهِ الْمُبَالِغَةُ فِي التَّخْيِيلِ؛ كَقَوْلِ الْبَحْرِيِّ أَيْضًا يُشَبِّهُ بَرَقَ السَّحَابَةِ بِتَبَسُّمٍ مَمْدُوحِهِ: [الطويل]

(١) انظر: الإنصاف في التنبيه على الأسباب ص ٦٦-٦٧.

(٢) انظر: المفصل في علوم البلاغة ص ٤٢٦.

(٣) انظر: ديوان البحري ٤/ ٢٤١٠، والخصائص ١/ ٢٠٣، والصناعتين ص ٢٩٨. ورواية الشطر الأول في الديوان (في حُمرَةِ الْوَرْدِ شَكْلٌ مِنْ تَلْهُبِهَا)، وما أثبتناه الرواية المشتهرة في كُتُبِ البلاغة.

كَأَنَّ سَنَاها بِالْعَشِيِّ لَصُبْحِها تَبَسُّمُ عَيْسَى حِينَ يَلْفِظُ بِالْوَعْدِ^(١)

لقد قَلَبَ التَّشْبِيهَ؛ لِيُوْهِمَ الْمُتَلَقِّيَّ بِأَنَّهُ يَرى تَبَسُّمَ ممدوحه عيسى أَكْثَرَ ضياءً من بَرَقِ السَّحَابَةِ وقد استمرَّ يتلامَعُ طَوَالَ اللَّيْلِ، فتَبَسُّمُه حينَ يَلْفِظُ بِالوَعْدِ ينبعثُ مِنْهُ سَنَا مَعْنَوِيٌّ يَسُرُّ الْقُلُوبَ سروراً لا يكون حينَ يتلامَعُ سَنَا الْبَرَقِ، وهذا التَّشْبِيهُ - كما ترى - يقومُ أساساً على التَّخْيِيلِ والادِّعَاءِ لزيادةِ المبالغةِ في إيهامِ السَّامِعِ وإقناعه بالفكرةِ المختبئةِ وراءَ الصُّورَةِ، ولا شَكَّ في أَنَّ آليَةَ عَمَلِ التَّشْبِيهِ المقلوبِ أَكْثَرُ فَنِيَّةً وَتَخْيِلاً وتأثيراً في نفسِ السَّامِعِ؛ من حيثُ خادَعَتُهُ بالأوهامِ الزَّائِفَةِ، وَعَبَثَتْ بتفكيره؛ لتُوْهِمَهُ أَنَّ الْأَصْلَ صارَ فَرْعاً، والفرعَ أصلاً، ومن ذلك تشبيهُ الْبَحْرِيِّ أيضاً حيثُ يقول:

[الطَّوِيل]

شَقَائِقُ يَحْمِلُنَ النَّدى فَكَأَنَّهُ دُمُوعُ النَّصَابِي فِي حُدُودِ الْخَرائِدِ^(٢)

فقد شَبَّهَ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ عَلَيْهَا قطراتُ النَّدى بخدودِ الْخَرائِدِ تبكي، مُوْهِمًا أَنَّ حُمْرَةَ خدودِهِنَّ وَجَمَالَ الدُّمُوعِ على الخدودِ في تلكِ الهَيْئَةِ أَصْبَحَ مُشَبَّهاً بِهِ مُشْتَهَراً بِإمكانِهِ أَنْ يقيسَ بِهِ درجَةَ حُمْرَةِ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ (وهي العَلَمُ على الحُمْرَةِ).

ومن ذلك قولُ مُحَمَّدَ بنِ وَهَيْبِ الْحَمِيرِيِّ: [الكامل]

وبدا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وجهُ الخَلِيفَةِ حِينَ يُتَمَدِّحُ^(٣)

فقد علَّقَ عَبْدُ الْقَاهِرِ بالقول: «فَإِنَّ فِي الطَّرِيقَةِ الْأُولَى [طريقة التَّشْبِيهِ المقلوبِ] خِلَابَةً وَشَيْئاً من السَّخَرِ، وهو أَنَّهُ كَأَنَّهُ يَسْتَكْثِرُ لِلصَّبَاحِ أَنْ يُشَبَّهَ بوجهِ الخَلِيفَةِ، وَيُوْهِمُ أَنَّهُ قد احتشدَ لَهُ، واجتهدَ في طَلَبِ تشبيهِ يُفَخِّمُ بِهِ أَمْرَهُ. وَجِهَتُهُ السَّاحِرَةُ أَنَّهُ يُوقِعُ المبالغةَ في نفسِكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَشْعُرُ، وَيُفِيدُكُهَا من غيرِ أَنَّ يَظْهَرَ ادِّعَاؤُهُ لَهَا؛ لِأَنَّهُ وَضَعَ كَلَامَهُ وَضَعَ مَنْ يقيسُ على أَصْلٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهِ، وَيُرْجِي الْخَبَرَ عن أَمْرِ مُسَلَّمٍ لَا حَاجَةَ فِيهِ إلى دَعْوَى، وَلَا إِشْفَاقَ من خِلَافِ مُخَالَفٍ وَإِنْكَارٍ مُنْكَرٍ...، وفي هذا

(١) انظر: ديوان الْبَحْرِيِّ ٢/ ٧٥٩.

(٢) انظر: ديوان الْبَحْرِيِّ ١/ ٦٢٣، وأسرار البلاغة ص ٢١٦.

(٣) انظر: شعراء عَبَّاسِيَّون ١/ ٦٩، وأسرار البلاغة ص ٢٢٣-٢٢٧.

الموضع شبيهة بالنكتة التي ذكرتها في التجنيس؛ لأنك في الموضعين تنال الربح في صورة رأس المال، وترى الفائدة قد ملأت يدك من حيث حسبتها قد جازتك وأخلتكَ، وتجد على الجملة الوجود من حيث توهمت العدم^(١).

ومثله قول ابن النحويّة: [الوافر]

حَسِبْتُ جَمَالَهُ بَدْرًا مُنِيرًا وَأَيْنَ الْبَدْرِ مِنْ ذَاكَ الْجَمَالِ^(٢)

فالشاعر توهم لأول وهلة أن جمال وجه المحبوب يشبه صفحة القمر المضيء بهاء وإشراقاً، ثم بدا له أن حسن المحبوب وسحره قد أزرى بجمال القمر. والإيهام ههنا من بداية البيت دليل على أنه منوي لتحسين المعنى والمبالغة فيه، أفلا ترى أنه حين قال: (حسبت) أوهمنا أنه متردد غير متيقن من صحة عقد هذا التشبيه بين البدر المنير الذي يضرب به المثل في الجمال وبين المحبوب، أو أنه حسب ذلك فيما مضى، وقد تبين له الآن خلاف وهمه، وإذا به يرى في وجه المحبوب ضياء يزري بكل ضياء، ويرى أن هذا التشبيه غير موفق؛ لأن جمال البدر لا يرقى بحال لأن يقاس بجمال المحبوب.

ويُحِيلُ إِلَى أَنَّ جَمَالَ الصُّورَةِ فِي التَّشْبِيهِ الْمَقْلُوبِ عَائِدٌ إِلَى إِيهَامِ الْحَقِيقَةِ وَادِّعَاءِ الصَّدْقِ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ التَّشْبِيهِ الْمَقْلُوبَ مُتَقَدِّمٌ تَخْيِيلِيًّا قِيَاسًا بِالتَّشْبِيهِاتِ الْمُنْطَقِيَّةِ الْآخَرَى، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ دَرَجَةَ إِيهَامِهِ مَحْدُودَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَبْدَأَ الْعَامَّ لِلتَّشْبِيهِ (تَمَايُزِ الطَّرْفَيْنِ وَعَدَمِ اتِّحَادِهِمَا) لَا يَزَالُ مُسَيِّطَرًا عَلَى تَكْوِينِ الصُّورَةِ عِنْدَ الْمُبْدِعِ، وَتَحْيِيلِ الصُّورَةِ عِنْدَ الْمُتَلَقِّي.

- التَّشْبِيهِ الضَّمْنِيّ: لِبَيَانِ قِيَمَةِ هَذَا التَّشْبِيهِ مِنْ حَيْثُ ارْتِفَاعُ مَسْتَوَى الْإِيهَامِ الْإِقْنَاعِيِّ فِيهِ لَا بُدَّ مِنْ تَذَكُّرِ أَنَّ الْأُمُورَ الَّتِي أَعَاقَتِ الْإِيهَامَ وَحَدَّتْ مِنَ التَّخْيِيلِ فِي التَّشْبِيهِ الْعَادِي قَدْ انْتَفَتْ هُنَا، بَلْ إِنَّ طَرِيقَةَ تَحْيِيلِ هَذَا التَّشْبِيهِ مُخْتَلِفَةٌ عَنْ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْتَمِدُ التَّلْمِيحَ دُونَ التَّصْرِيحِ؛ فَلَا يَكَادُ الْمُتَلَقِّي يَشْعُرُ بِأَنَّ هُنَاكَ طَرَفَيَّ تَشْبِيهِ أَصْلًا، وَأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يُحَاوِلُ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَهُمَا عِلَاقَةً مُشَابِهَةً، فَلَا يَظْهَرُ الْمَشَبَّهُ وَالْمَشَبُّهُ بِهِ فِي هَيْئَةٍ عِلَاقَةٍ الْمَشَابَهَةِ، بَلْ يُلَمَّحَانِ مِنَ الْمَعْنَى، وَتُسْتَنْجَعُ

(١) انظر: أسرار البلاغة ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) انظر: خزانة الأدب ٢/ ٤٧٩، وبلا نسبة في معاهد التنصيص ٢/ ٣٠١.

هذه العلاقة بينهما من مضمون الكلام؛ ولاحظ البيانيون أن عاقد التشبيه قد يترك الطريقة المعهودة في ذكر المشبه والمشبه به، فيسر التشبيه الضمني أنه يتخذ طريقة غير صريحة في التشبيه؛ كقول أبي تمام: [الطويل]

وطول مقام المرء في الحي مخلّق
لدياجتيه فساغرتب تتجدّد
فإني رأيت الشمس زبدت حبة
إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد^(١)

فالشاعر قد أتى بفكرة مفادها كراهة الإطالة بمكان واحد، ولكنه لأجل تمكين دعواه في نفس المتلقي عمد إلى التشبيه الضمني، فأوهم الشاعر - من حديث لا يدري المتلقي - أن كراهة إطالة المكوث في مكان واحد كالشمس تزداد في قلوب الناس حباً؛ لأنها تزورهم في النهار وتدعهم في الليل، فكان البيت الثاني (المشبه به) برهاناً على صحة البيت الأول (المشبه).

ولأنها يعمد المتكلم إلى هذه الطريقة الخفية في التشبيه عندما يعرض فكرة يأنس أن مخاطبه قد يخالفه فيها، ويُنكر عليه مذهبه إزاءها، فيأتي بعدها بأمر يعرفه المخاطب ويُسلم به، فكان المتكلم يقول للمخاطب: لا تُنكر عليّ ما أزعّم؛ فإنّ لما قلت مثلاً تعرفه ولا تُجادل فيه^(٢)، وهذه طريقة من طرق الحجاج والإقناع البلاغي، وتمكين المعنى المدعى في نفس المخاطب.

ومنه قول البحرّي مادحاً: [الطويل]

ضُحُوكُ إِلَى الْأَبْطَالِ وَهُوَ يَرُوعُهُمْ
وَلِلسَيْفِ حَدٌّ حِينَ يَسْطُو وَرَوْسُ^(٣)

إذ يُفهم من الشطر الثاني ضمناً تشبيهاً مفاده أن ممدوح الشاعر كالسيف له صفتان، يسرّ الأبطال بإشراقه وبسماته، ويروعههم بسطوة سلطانه، ومن جمالية الإيهام في التشبيه الضمني أنه لا يُسلمك المعنى، بل عليك أنت أن تتأمل وتتفكر حتى تحصل منه على فائدة، وفي ذلك يقول عبد القاهر (ت ٤٧٤هـ): «ومن المركز في الطبع أن الشيء إذا نبّل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومُعانة

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٢/ ٢٣.

(٢) انظر: المفصل في علوم البلاغة ص ٤٢٣.

(٣) انظر: ديوان البحرّي ٣/ ١٤٩٦.

الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل والطف، وكانت به أضن وأشغف، ولذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ^(١).

- التشبيه التمثيلي: أما هذا النوع من التشبيه فإنه يختزن طاقة إيهامية وتخيلية عالية، وهو التشبيه الذي يكون وجه الشبه فيه وصفاً منتزعا من متعدد؛ أمرين أو أمور، وذلك كقول بشار بن برد: [الطويل]

كَأَن مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ^(٢)

وإذا أردنا أن نتذوق جمال التخييل في هذه الصورة فلا ينبغي أن نقول: «شبه ظلمة الليل بمثار النقع، والسيوف بالكواكب»^(٣)؛ لأن الشاعر لم يقصد هذه التشبيهات المجتزأة، وإنما أراد محاكاة الصورة الكلية التي تلف أجواء المعركة، بل هو تشبيه مركب موضوع ليُخيل إلينا الهيئة الحاصلة من مشهد نقع المعركة وغبارها المظلم والسيوف واللامعة في أثنائه تبرق وتومض وتعلو وتنخفض، وتتحرك بجهات مختلفة كما يوجبها حال المعركة الحامية الوطيس، شبه بشار هذه الصورة بصورة ابتدعها، وهي صورة الليل الشديد الظلام الذي تهاوى نجومه وتتطاير مع بروقها في كل مكان، فالمقصود تشبيه النقع والسيوف فيه، بالليل المتهاوي كواكبه، لا تشبيه الليل بالنقع من جانب، والسيوف بالكواكب من جانب^(٤)، والإيهام ينبعث في مثل هذه التشبيهات من وجهين؛ أولهما أن تركيب الصورة على هذا النحو يُحير العقل في تخيلها، وثانيهما أنها ربما تغمض على بعض الناس؛ فلا يعرفون أن المقصود تشبيه هيئة حاصلة بيئية، وإنما يُحللون الصورة إلى عواملها الأولية حتى يسهل عليهم فهمها، ولكنهم بهذا الصنيع يكونون قد ذهبوا بجمال الصورة وروعيتها. ومثل هذه الصورة قول البحري: [الكامل]

(١) انظر: أسرار البلاغة ص ١٣٩.

(٢) انظر: ديوان بشار بن برد ٣١٨/١، والصناعتين ص ٢٥٠، والطراز ٨٤/١.

(٣) انظر: الصناعتين ص ٢٥٠.

(٤) انظر: أسرار البلاغة ص ١٩٥.

دانٍ على أيدي العُفَاةِ وشاسِعٌ عن كُلِّ نِدٍّ في السَّوَرَى وضَرِيبِ
كالبدرِ أفرطَ في العلُوِّ وضوءُهُ للعضْبَةِ السَّارِينِ جِدُّ قَرِيبِ^(١)

فقد شبّه الممدوح في قُربِهِ من ذوي الحاجاتِ وإغداقِهِ عليهم مع بُعْدِهِ عن أن يكونَ له نظيرٌ أو
مُثِيلٌ في السَّخَاءِ = بالبدرِ في قُربِ ضوئِهِ من السَّارِينِ ليلاً مع إفراطِ علُوِّهِ وبُعْدِهِ في السَّماءِ، ووجهُ
الشَّبهِ (قُربُ الفضلِ مع بُعْدِ المنزلة).

وأظنُّ أنَّ ما سبقَ إجابةً كافيةً عن السؤالِ الأوَّل: ما وجهُ الإيهامِ في التَّشْبِيهِ؟، وأمَّا السؤالُ الآخرُ:
أيُّها أوغلُّ في الإيهامِ التَّشْبِيهِ أم الاستعارة؟ فهذا الذي سنُجيبُ عنه في الكلامِ على إيهامِ الاستعارة.
ب - إيهامُ الاستعارة.

لا ريبَ في أنَّ التَّركيبَ الاستعاريَّ أثرى من التَّشْبِيهِ في الطَّاقةِ الإيهاميَّةِ التي يختزنها؛ لأنَّ ما رأيناه
في التَّشْبِيهِ من التَّمَايُزِ والانفصالِ بينَ طرفيهِ يُضحِي ههنا تماهياً وتداخلاً وتقمُّصاً أيضاً، فالشَّاعرُ
يتجاوزُ الثَّنَائِيَّاتِ بينَ الذَّاتِ والموضوعِ؛ ففي قولِ البحترِيِّ: [الطَّويل]

أناكَ الرَّيْبُ الطَّلُقُ يَخْتَالُ ضاحِكاً من الحُسْنِ حتَّى كادَ أنْ يتكلَّمَا^(٢)

تتفاعلُ ذاتُ الشَّاعرِ معَ موضوعِهِ الشَّعريِّ، وتخلعُ عليه من بهجَتِها وسعادَتِها، فنحنُ أمامَ ذاتِ
شاعرةٍ تعي نفسَها من خلالِ تأمُّلِها لموضوعِها، تأمُّلٌ ألقى التَّمَايُزَ المنطقيَّ بينَ الذَّاتِ الشَّاعرةِ
ومضمونها، حتَّى أضحى واحداً، فالتركيبُ الاستعاريُّ يتجاوزُ فكرةَ انفصالِ طرفي التَّشْبِيهِ
ووضوحِهما، ويمنحُ الشَّاعرَ الحقَّ بأنْ يُعيدَ تشكيلَ الأشياءِ، وأنْ يُعيدَ ترتيبَ العلاقاتِ بينَ الأشياءِ
وَفَقَّ رؤيته للكونِ وللذَّاتِ.

فالاستعارة - لا شكَّ - أبلغُ من التَّشْبِيهِ إيهاماً للمتلقِّي؛ لِقوَّةِ ادِّعاءِ الاتِّحادِ والامتزاجِ بينَ المشبَّهِ
والمشبَّهِ به، إلى حدِّ زَعْمِ أنَّهما صارَا معنًى واحداً. فالبونُ شاسِعٌ بينَ قولِكَ: (زيدٌ كالأسدِ شجاعاً)،

(١) انظر: ديوان البحترى ١/ ٢٤٩.

(٢) انظر: ديوان البحترى ٤/ ٢٠٩٠.

وبين قولك: (رأيتُ أسداً يُعلِّمُ النَّاسَ فنونَ القتالِ)، أو قولك: (هَذَا قَمَرٌ)، وبين قولك: (أُطْلَ القَمَرُ مِنْ بَيْتِ جِرَانِنَا)، فهذا التَّركيبُ الاستعاريُّ الذي حُذِفَ منه الأداةُ والوجهُ وطرفٌ من طرفي التشبيه قد أزال كُلَّ الحواجزِ بين المشبَّه والمشبَّه بحيثُ يُحِيلُ إلى المتلقِّي أنَّهما واحد.

ونُقَادُنَا القُدَامَى كانوا على مذهبين في الاستعارة، ولهذه المذاهبِ أثرها في الإيهام؛ مذهبٌ يرى أنَّ التَّركيبَ الاستعاريَّ ينبغي أن يكونَ انعكاساً دقيقاً وأميناً لمعاني الألفاظِ والمفاهيم وعلاقة الأشياءِ ببعضها في العالمِ الخارجيّ، فلا يسمحون للشَّاعرِ أن يضعَ الكلماتِ في غيرِ ما وُضِعَتْ له في العُرفِ اللُّغويِّ الشَّائعِ لدى العربِ الأقحاح، ولا يقبلون بأنَّ يُغيِّرَ الشَّاعرُ في دلالاتِ الكلماتِ وَفَقَ ما تقتضيه تجربتهُ الشعوريَّة؛ وهؤلاء هم الذين قالوا بعمودِ الشعرِ، ومنهم الآمديُّ (ت ٣٧٠هـ) الذي ما فتىَّ يُهاجمُ استعاراتِ أبي تمام الذي رضي عنه الفريقُ الآخرُ من النُّقادِ الذين يرون أنَّ للشَّاعرِ أن يُبدِعَ استعاراته على النحو الذي يرتضيه، وليس وَفَقَ علاقاتٍ حدَّدها له أسلافه، ولم يرَ هؤلاء ضيراً في خروجِ التَّركيبِ الاستعاريِّ على قواعدِ العقلِ وعناصرِ الواقعِ الثَّابتة.

إنَّ أمثالَ الآمديِّ يقفون عائقاً في طريقِ التَّخييلِ الاستعاريِّ؛ لأنَّهم يُصِرُّون في الاستعارة على لزومِ اقتفاءِ الشَّاعرِ للعلاقاتِ الموروثة بين طرفي الاستعارة، وكأنَّهم لا يدركون أنَّ هذه الاستعاراتِ الموروثة تَفْقِدُ من بريقها الأوَّلِ وطاقتها الإيهاميَّة مع مرور الزَّمن؛ لأنَّها تصبحُ أشبهَ بالحقائقِ اللُّغويَّة فقد اشتهارها وافتضحها، وأنَّه لا بُدَّ للشُّعراءِ من اكتشافِ علاقاتٍ جديدةٍ بين طرفي الاستعارة؛ لكي تُحافظَ تراكيبيُّهم الاستعاريَّة على قدرتها التَّخيليَّة في رَسْمِ الصُّورِ وإثارة خيالِ المتلقِّي، فعندما يقفُ النَّاقدُ للشَّاعرِ بالمرصادِ يمنعه من اكتشافِ علاقاتٍ جديدةٍ في تراكيبيهِ الاستعاريَّة؛ فإنَّ هذا النَّاقدَ يقودُ حملةً رجعيَّةً في النِّقْدِ والفنِّ؛ لأنَّه لا يسمحُ بالتطوُّر، لذا فلا عجبَ إنَّ رأينا الآمديَّ يستنكِزُ استعاراتِ أبي تمام ويستقبحها؛ لأنَّها ليستُ على طريقةِ العربِ ولا مذهبهم، على أنَّ أبا تمام أبدعَ استعاراتٍ تستفزُّ خيالَ المتلقِّي، ولكنَّها جوهريَّة بالرَّفْضِ من اللُّغويِّين الذي لم يألُفوا تلك العلاقاتِ الجديدة بين مُفرداتِ اللُّغة على النحو الذي رآوه في صُورِ أبي تمام، بعد أن أعاد تشكيلَ عناصرِ الواقعِ وَفَقَ رؤيته.

والاستعارة التصريحية خصوصاً يكثر فيها الإيهام عند غياب القرائن، فمثلاً لو قلت: (مسحت اللؤلؤ عن عيون أمي)، أو (قطعت الصحراء على برق أبلق)، أو (رأيت بحراً يوزع المال على الفقراء) لما توهم المتلقي غير مقصودك؛ لأن القرائن موجودة؛ فعين الأم لا تقطر لؤلؤاً بل دمعاً، ولا تقطع الصحراء على برق بل على خيل سريع، والبحر لا يتخيل أنه يوزع المال على الفقراء بل هو رجل كريم.

إن الذي عصم الاستعارة التصريحية ههنا من أن تفهم بالمعنى الوضعي للكلمات إنما هو القرائن اللفظية المانعة من ذلك، وأيضاً من القرائن ما يكون حالياً؛ كأن يرى الناس رجلاً شجاعاً، فيقولوا: (أتى الغضنفر) وهم يشيرون إليه، ولكن الإيهام يحصل عندما يركب المتكلم الاستعارة التصريحية وتخفى القرينة على السامع؛ كأن تقول: (رأيت وردهً ملكت عليّ فؤادي) فلا يدري أوردت الوردة التي في الحديقة أم الغادة الحسنة؟ أو تقول: (اليوم رأيت القمر وقد ازداد بهاءً وضياءً) فلا يدري أوردت قمر السماء أم المحبوب؟ ومثل ذلك أن ترى صاحبك القادم من بعيد، فتقول: (أتى حاتم) فقد يتوهم السامع الذي لا يعرفه أن اسمه (حاتم) على الحقيقة، ولا يدري أنها استعارة تصريحية بقصد التهكم من بخل هذا الشخص مثلاً، أو مدحاً له بالكرم. وهنا قد يتعذر على المتلقي التمييز بين الدالتين الوضعية والمجازية (السياقية) لغياب القرينة التي ترشح المعنى المجازي وتؤكد أنه هو المقصود، ومعلوم أنه في حال غياب القرائن التي ترشح المعنى المجازي فالأخذ بالمعنى الوضعي (الأصلي) أولى.

ومما يؤهم المتلقي الاستعارة التمثيلية، فلو قلت: (زيدٌ ينفخ في رماد) لظن سامعٌ ما أن زيداً حقاً ينفخ في الرماد، ولا يدري أنك مثلت بهذا القول على حال زيد الذي يعمل عملاً لا جدوى منه؛ كأن تقول: (زيدٌ يحرث في البحر) أو (يضرِبُ في حديد بارد)، والاستعارة التمثيلية أكثر ما تكون في الأمثال.

ج - إيهام المجاز:

أما المَجَازُ فَبَابٌ واسعٌ للإيهامِ والتَّأويلِ؛ وعليه يتباينُ التفسيرُ وتُبنى مسائلُ في العقيدة والفقه، والسَّلَفُ فيه بينَ مانعٍ ومُجيزٍ^(١)؛ فقد يختلفُ تفسيرُ الكلامِ الواحدِ بحسبِ حملِهِ على الحقيقة أو المجاز، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فقد توهمَ قومٌ أن لفظَ ﴿نُورٌ﴾ ههنا على ظاهرِهِ، فذكرَ ابنُ السَّيِّدِ البَطْلِيُّ يَسِي (ت ٥٢١هـ) أن هذا «مِمَّا غَلِطَتْ فِيهِ الْمُجَسِّمَةُ؛ فَتَوَهُمُوا أَنَّ رَبَّهُمْ نُورٌ - تعالى الله عن قول الجاهِلين علوّاً كبيراً - وإنَّما المعنى: الله هادي أهلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. والعربُ تُسمِّي كُلَّ ما جَلَا الشُّبُهَاتِ وَأَزَالَ الالْتِبَاسَ وَأَوْضَحَ الْحَقَّ نُوراً؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] يَعْنِي: الْقُرْآنَ»^(٢).

وقد كان لإيهام هذا المبحث أثرٌ في التفكير العقديّ عند المسلمين؛ فما الفِرْقُ التي تُسمَّى بالمُعْطَلَّةِ والمُجَسِّمَةِ إلّا انعكاسٌ لهذا الفهم في تفسير المجاز، وقد أفردَ أبو الفتح بن جَنِّي (ت ٣٩٢هـ) باباً كاملاً من كتابهِ الخصائص لهذا الغرض، وأسماه بـ «بابٌ فيما يُؤْمَنُ علمُ العربيّة من الاعتقادات الدِّينية»^(٣)؛ إذ قال: «اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْبَابَ مِنْ أَشْرَفِ أَبْوَابِ هَذَا الْكِتَابِ، وَأَنَّ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ لَيْسَ إِلَى غَايَةٍ وَلَا وَرَاءَهُ مِنْ نَهَايَةٍ. وَذَلِكَ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ عَنِ الْقَصْدِ فِيهَا وَحَادَ عَنِ الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى إِلَيْهَا؛ فَإِنَّمَا اسْتَهْوَاهُ وَاسْتَخَفَّ حِلْمَهُ ضَعْفُهُ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ الْكَرِيمَةِ الشَّرِيفَةِ... وَأَصْلُ اعْتِقَادِ التَّشْبِيهِ لِلَّهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ مِنْهَا...؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَعَلَا عَمَّا يَقُولُ الْجَاهِلُونَ عُلُوّاً كَبِيراً - : ﴿بَنَحْصَرَنَّا عَلَى مَا قَرَطْتُ فِي جَنِّبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٩]، وَقَوْلَهُ عَزَّاسُمُهُ: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وَقَوْلَهُ: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى:

(١) الجمهورُ على وقوعِ المجاز، وأنكرهُ نفرٌ بَحْجَةٍ أَنَّهُ أَخُو الْكَذِبِ، وكلامُ الله والرَّسُولِ مُنَزَّاهُ عَنْهُ. انظر: مقدّمة الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص ٤٩-٥٤، والبعضُ منعه في القرآن الكريم والحديث الشريف دون غيرهما؛ انظر: منَع جواز المجاز في المُنْتَزَلِ لِلتَّعَبُّدِ وَالْإِعْجَازِ ص ٥ وما بعدها.

(٢) انظر: الإنصاف في التنبية على الأسباب ص ٨٧.

(٣) انظر: الخصائص ٣/ ٢٤٨-٢٥٨.

﴿وَمَا عَمِلْتَ أَيِّدِيًّا﴾ [يس: ٧١]، وقوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله: ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]... ونحو ذلك من الآيات الجارية هذا المجرى... حَتَّى ذَهَبَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] أَنَّهَا سَاقُ رَبِّهِمْ - ونعوذُ بِاللَّهِ مِنْ ضَعْفَةِ النَّظَرِ، وَفَسَادِ الْمُعْتَبَرِ - وَلَمْ يَشْكُوا أَنَّ هَذِهِ أَعْضَاءُ لَهُ، وَإِذَا كَانَتْ أَعْضَاءُ، كَانَ هُوَ - لَا مُحَالَةَ - جِسْمًا مُعْضًى [أي ذَا أَعْضَاءٍ وَأَجْزَاءٍ] عَلَى مَا يُشَاهِدُونَ مِنْ خَلْقِهِ...، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ أُنْسٌ بِهَذِهِ اللَّغَةِ الشَّرِيفَةِ أَوْ تَصَرُّفٍ فِيهَا، أَوْ مُزَاوَلَةٍ لَهَا لَحَمَّتْهُمْ السَّعَادَةُ بِهَا، مَا أَصَارَتْهُمْ الشَّقْوَةُ إِلَيْهِ، بِالْبَعْدِ عَنْهَا...، وَطَرِيقُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ اللَّغَةَ أَكْثَرُهَا جَارٍ عَلَى الْمَجَازِ، وَقَلَمًا يَخْرُجُ الشَّيْءُ مِنْهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ...، فَلَمَّا كَانَتْ كَذَلِكَ، وَكَانَ الْقَوْمُ الَّذِينَ خُوطِبُوا بِهَا أَعْرَفَ النَّاسِ بِسَعَةِ مَذَاهِبِهَا وَانْتِشَارِ أُنْحَائِهَا؛ جَرَى خَطَابُهُمْ بِهَا مَجْرَى مَا يَأْلَفُونَهُ وَيَعْتَادُونَهُ مِنْهَا، وَفَهَّمُوا أَغْرَاضَ الْمُخَاطَبِ لَهُمْ بِهَا عَلَى حَسَبِ عُرْفِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِي اسْتِعْمَالِهَا^(١).

وَلَا بُدَّ مِنَ التَّأَكُّيدِ هُنَا أَنَّ مَعْرِفَةَ مَوَارِدِ الْإِيهَامِ فِي أُسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ غَايَةٌ فِي ذَاتِهَا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعِصِمَ نَفْسَهُ مِنَ الضَّلَالِ فِي فَهْمِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ فَإِنَّ مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ بِالتَّعْرِيزِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مِثْلًا قَدْ يَنْسُبُ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْكَذِبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فَجَهْلُ الْمَرْءِ بِمَوَاضِعِ الْإِيهَامِ الْبَلَاغِيِّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَظْنَةٌ أَنْ يَقُودَهُ إِلَى الضَّلَالِ فِي الْفَهْمِ، أَوْ إِلَى تَخْطِئَةِ التَّأْوِيلَاتِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي يَحْتَمِلُهَا اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى، وَأَهْمٌ مَا تَكُونُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ لِمَنْ أَرَادَ تَفْسِيرَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ أَوْ اسْتِنْبَاطَ الْأَحْكَامِ الْفَقْهِيَّةِ مِنْهُ، فَإِنَّ لِلْإِيهَامِ أَثْرًا بِالْغَا فِيهَا^(٢).

(١) انظر: الخصائص ٣/ ٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠.

(٢) ثمة رسائل علمية تنبّهت لهذه القضية، منها:

- أثر البلاغة في الاختلاف الفقهي عند المفسرين (رسالة ماجستير) خالد عبد القادر - إشراف الدكتور: علي أسعد، جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان ٢٠١٢ م.
- أثر علم الدلالة في تفسير النصوص - المجاز أنموذجاً، (أطروحة دكتوراه) د. محمد ماهر زكريا - إشراف الأستاذ الدكتور: حمزة بوستان حمزة، جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان ٢٠١٠ م.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ أمرَ مُهمٍّ أيضاً؛ هو أنَّ إِيهَامَ الصُّورَةِ نوعان:

١- إِيهَامٌ بمعنى العَبَثِ بَوَهمِ المَخاطَبِ واستِشارةِ خيَالِهِ بالصُّورِ التي تُشعِرُهُ وتوحي إليه بالفكرة المراد إشعارُهُ أو إِيهَامُهُ بها؛ كالذي نراه في الاستعارات، وهذا أبلغُ الإِيهَامِ.

٢- إِيهَامٌ ناتِجٌ من تَأرجُحِ دلالةِ الصُّورَةِ بين الحقيقة والمجاز، كما حَصَلَ لأزواجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التَّوَهُّمِ في فَهْمِ كلامِهِ عندما أنبأهم بأنَّ أَسْرَعَهُنَّ به لِحَوْقاً أطولُهُنَّ يداً^(١)، وهذا الإِيهَامُ غالباً لا يكونُ بقَصْدٍ من المتكلِّمِ، فإِما أن يكونَ مِنْ طَبِيعَةِ التَّرْكِيبِ الذي أغفلَ القرينةَ المزيلةَ للإِيهَامِ لتذهبَ النَّفْسُ في فَهْمِ هذه الصُّورَةِ كُلِّ مذهبٍ، وإِما بسببِ المَخاطَبِ الذي أخطأ التَّقْدِيرَ؛ ومثالُ ذلك غَفْلَةُ البعضِ عن التَّعْرِيضِ في قولِهِ تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾

كَبُرُهمْ هَذَا ﴿﴾ [الأنبياء: ٦٣].



(١) انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ١١/ ٣٢٩. ورقم الحديث (٨٨٩٠).

المبحث الثالث

دراسة تطبيقية على إيهام الكناية والتعريض.

قيمة الكناية:

الكِنَايَةُ وجهُ العربيَّة المُشْرِقِ، ومَظهرٌ من مظاهرِ جَمالِها وحُسْنِ تعبيرِها، وأَمارةٌ على الفُطانة، والتَّهذيب الاجتماعي، والرُّقي الحضاري، وما الكِنَايَةُ قَصراً على العرب، فقد ذَكَرَ الجاحِظُ (ت ٢٥٥هـ) أَنَّ بعضَ أهلِ الهندِ سُئِلَ عن البلاغة، فقال: «جَماعُ البلاغةِ البَصَرُ بالحُجَّةِ، والمعرفةُ بمواضعِ الفرصة...» ثُمَّ قالَ: «ومن البَصَرِ بالحُجَّةِ والمعرفةِ بمواضعِ الفرصة أن تَدَعَ الإفصاحَ بها إلى الكِنَايَةِ عنها؛ إذا كان الإفصاحُ أوعَرَ طريقةً، ورُبَّما كان الإضرابُ عنها صَفْحاً أبلغَ في الدَّرَكِ، وأَحَقَّ بالظَّفَرِ»^(١)

ويمتازُ هذا الأسلوبُ بِقدرةٍ عالية تجعلُ البُلْغاءَ يُؤثِّرونَه على غيرِه من الأساليبِ ويُزيِّنون به كلامَهم، كما يحظى بِسلطانٍ كبيرٍ على نفوسِ المتلقِّين؛ لِما ينطوي على تحريكِ الذَّهنِ ومُضاعفَةِ فعاليَّتِه في تحصيلِ المرادِ من الكلامِ^(٢)، عندما لا يُقابِلُ المتلقِّي بحقائقِ الأشياءِ مُقابِلَةً، وإنَّما تتوارى المعاني خَلْفَ الألفاظِ، وهو وسيلةٌ مُقنَّعةٌ بارعةٌ لتلطيفِ الكلامِ وتخفيفِ وَقْعِه، وإبدالٌ للكلمةِ الحادَّةِ بكلمةٍ أَقلَّ حِدَّةً أو أَكثرَ قَبولاً، ومن ثَمَّ يُمتِعُ نفسَ المتلقِّي بلَذَّةِ الكشفِ والمعرفةِ المتتابعةِ؛ لذا كانتِ الكِنَايَةُ من أمتعِ أبوابِ البلاغةِ.

تعريفُ الكِنَايَةِ لُغَةً واصطلاحاً، وصلةُ ذلك بالإيهام:

إذا كانتِ الكِنَايَةُ لُغَةً مصدرُ (كَنَيْتُ عن كذا بكذا، أَكْنِي وأَكْنُو)؛ إذا تكلَّمتُ بما يُستدلُّ به عليه، أو تكلَّمتُ بشيءٍ وأنت تريدُ غيرَه^(٣)، فإنَّ البلاغيِّينَ قد عَرَّفوا الكِنَايَةَ بأنَّها: «لَفْظٌ أريدَ به لازمُ معناه

(١) انظر: البيان والتبيين ١ / ٨٨.

(٢) انظر: المفصل في علوم البلاغة ص ٥٤٦.

(٣) انظر: لسان العرب (كنو).

الوَضْعِيّ، مع جواز إرادة ذلك المعنى مع لازمه^(١)، ولو أنهم قالوا: تعبيرٌ لكانَ أفضلَ، حتّى لا يُتوهّم أن المراد باللفظ الكلمة الواحدة، وهم يعنون الكلام.

وأوجز عبدُ القاهر (ت ٤٧٤ هـ) مفهوم الكناية بقوله: «المراد بالكناية ههنا أن يُريد المتكلّم إثبات معنًى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يُجيء إلى معنًى هو تاليه ويردّفه في الوجود، فيؤمّن به إليه، ويجعله دليلاً عليه»^(٢).

وقد ربط ابنُ الأثير (ت ٦٣٧ هـ) بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي بقوله: «واعلم بأن الكناية مُشتَقّة من السّتر، يُقال: كَنَيْتَ الشَّيْءَ إِذَا سَتَرْتَهُ. وأُجِرِيَ هذا الحكم في الألفاظ التي يُستَر فيها المجازُ بالحقيقة، فتكونُ دالّةً على السّاتر وعلى المستور معاً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣] فإنّه إن حُمِلَ على الجماع كان كنايةً؛ لأنّه سَتَرَ الجماع بلفظ اللّمس الذي حقيقته مصافحةُ الجسدِ الجسد، وإن حُمِلَ على المُلامسة التي هي مُصافحةُ الجسدِ الجسد كان حقيقةً، ولم يكن كنايةً، وكلاهما يتمُّ به المعنى»^(٣).

وقد سُمّي هذا الأسلوبُ كنايةً؛ لِمَا فيه من إخفاء وجه التّصريح^(٤)، ويظهر لك من خلال التّعريف الفرق بين الكناية والمجاز، وهو أن المجاز لا يجوزُ فيه إرادةُ المعنى الوضعي لوجود قرينة مانعة (وإن كان العلماء استثنوا بعض الآيات القرآنية لخصوصية موضوعاتها)، وأمّا الكناية فيجوزُ فيها إرادةُ المعنى الوضعي مع إرادة لازمه^(٥).

أيهما أبلغُ الكناية أم التّصريحُ؟

قبل البدء بالكلام لا بُدَّ من التنبّه إلى أنّ الكناية والتّعريض حين يطلبُها المقامُ أبلغُ من الإفصاح والتّصريح، والعكسُ صحيحٌ، فالمعولُ عليه هو المقامُ، فلا يُتخيّل أن تُخاطبَ البليدَ البطيءَ الذّهن

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها ص ٥٦٨، والمطوّل ص ٦٣٠.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص ٦٦.

(٣) انظر: المثل السائر ٣/ ٥٣.

(٤) انظر: مفتاح العلوم ص ٥١٢.

(٥) انظر: مفتاح العلوم ص ٥١٣، والمطوّل ص ٦٣١.

بالكناية والتعريض والإشارة والرمز والإيحاء والتلويح كما تُخاطبُ الرجلَ اللَّمَّاحَ الفَظْنَ، وليس يحسنُ أن يعمدَ القاضي إلى أسلوب الكناية والحياء في استجواب مُتَّهَمٍ بالزنا مثلاً؛ لأنَّ أسلوب الكناية مُوهِّمٌ يختبئ فيه المجازُ وراء الحقيقة، فإنَّ أفصَحَ الكناية إلى الإيهام وفهم الكلام على غير وجهه من أحدِ الطَّرفين؛ فإنَّها قد تُودي بحياة امرئٍ أو تُرسله إلى الهلاك، ومن ذلك أنَّ الرَّسُولَ ﷺ على الرَّغم من أنَّه كان حَيِّياً لا يُفحشُ في قول، ولا يتكلَّم بأُمور الحياءِ إلَّا كنايةً، = لَمَّا أتاهُ ذلك الرَّجُل (ماعز بن مالك) يُقرُّ بأنَّه زنى، ويطلبُ مِنَ الرَّسُول أن يُقيمَ عليه الحدَّ، صرَّح الرَّسُول الكريمُ في سُؤاله ولم يكني^(١).

وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الكناية لا تصلحُ في كلِّ المقامات، وكذا أظنُّ أنَّ العقود والمبايعات والمحاکمات قد لا تحتلُّ الكناية وتعدَّد معانيها، وإنَّما يُناسِبُها الوضوح والإفصاح، لذا يُمكننا القول: إنَّ حاجةَ البليغِ إلى الكناية في موضعها كحاجته إلى التَّصريح في موضعه، وإذا كان الذَّوق العامُّ يُفضِّل الكناية على التَّصريح؛ فلا نَّ فيها انزياحاً عن الكلام العاديِّ التَّواصليِّ، ولأنَّه يُعمَلُ فِكرُ المتلقِّي وذهنه في تحصيلِ مضمون الكلام، وهذا أدعى إلى تمكينه، وأشار القزوينيُّ (ت ٧٣٩هـ) إلى ذلك بقوله: «أطبَّقَ البُلغاءُ على أنَّ المجازَ والكنايةَ أبلغُ من الحقيقةِ والتَّصريح؛ لأنَّ الانتقالَ فيهما من اللازم إلى الملزوم كدعوى الشَّيءِ ببيِّنَةٍ...»^(٢)، ولأنَّ فيها جماليَّاتٍ أُخرَ ستأتي بعد قليل.

أكثرُ أضربِ الكناية إيهاماً:

قسَّم البلاغيُّون الكنايةَ إلى ثلاثة أقسام: الكناية عن صفةٍ، وموصوفٍ، ونسبة^(٣). وأكثرُ ما يُوهِّمُ المتلقِّي منها الكناية عن صفةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْتَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فإنَّ قوله ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ كنايةٌ عن الجماع، وقد دلَّت على ذلك تِمَّةُ الآيةِ الكريمة.

(١) انظر: صحيح البخاري - رقم الحديث (٦٨٢٤).

(٢) انظر: تلخيص المفتاح ص ٩٣.

(٣) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٥٦٨-٥٧٣، ومفتاح العلوم ص ٥١٣.

ولكن قد يتوهم البعض أنَّ الكلام على أصله الوضعي وعلى ظاهره، وأنَّ النهي ههنا عن الاقتراب من المرأة مُدَّة الحيض، والأمر بخلاف ذلك تماماً، فقد ذكر الطَّبْرِيُّ (ت ٣١٠هـ) بالسَّند عن الإمام المفسِّر قَتَادَةَ بنِ دِعَامَةَ (ت ١١٨هـ) قوله: «كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا تُسَاكِنُهُمْ حَائِضٌ فِي بَيْتٍ، وَلَا تَوَاكِلُهُمْ فِي إِنْاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ فِي ذَلِكَ، فَحَرَّمَ فَرْجَهَا مَا دَامَتْ حَائِضًا، وَأَحَلَ مَا سِوَى ذَلِكَ: أَنْ تَصْبُغَ لَكَ رَأْسُكَ، وَتَوَاكِلَكَ مِنْ طَعَامِكَ، وَأَنْ تُصَاجِعَكَ فِي فَرَاشِكَ، إِذَا كَانَ عَلَيْهَا إِزَارٌ مُحْتَجِزَةً بِهِ دُونَكَ»^(١)، ومَّا يُؤَكِّدُ إِيهَامَ الْكِنَايَةِ وَأَنَّ الْعَرَبَ الْخُلَصَّ أَنْفُسَهُمْ لَيْسُوا فِي مَأْمَنِ مِنْ إِيهَامِ الْكِنَايَةِ مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّهُ لَسَمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ «أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ بظَاهِرِ (اعْتَزَلُوهنَّ)، فَأَخْرَجُوهُنَّ مِنْ بَيْتِهِمْ، فَقَالَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْبَرْدُ شَدِيدٌ وَالثِّيَابُ قَلِيلَةٌ، فَإِنْ أَثَرْنَا هُنَّ بِالثِّيَابِ هَلَكَ سَائِرُ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَإِنْ اسْتَأْثَرْنَا بِهَا هَلَكَتِ الْحَيْضُ: فَقَالَ ﷺ: إِنَّمَا أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْتَزَلُوا مَجَامِعَتَهُنَّ إِذَا حِضْنَ، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِإِخْرَاجِهِنَّ مِنَ الْبُيُوتِ كِفْعَلِ الْأَعَاجِمِ»^(٢)، وَقَالَ لَهُمْ ﷺ تَأْوِيلًا لِلْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «افْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْجَمَاعَ»^(٣).

عُدُولُ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ عَنِ التَّصْرِيحِ إِلَى الْكِنَايَةِ فِي أُمُورِ الْحَيَاءِ:

امْتَارَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ بِنُوعِ الْخِطَابِ بِحَسَبِ مَا يَسْتَدْعِيهِ كُلُّ مَقَامٍ، فَفِي أُمُورِ الْعَقِيدَةِ وَالتَّشْرِيعِ نَرَى الْوُضُوحَ وَالْكَشْفَ وَالْإِفْصَاحَ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ تَعَدُّدَ الْمَعْنَى، وَلَا إِيهَامَ فِيهِ، وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى نَرَى الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ يَعْدِلُ إِلَى الْكِنَايَةِ وَالتَّعْرِيزِ وَالتَّلْمِيحِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا فِي أُمُورِ الْمَرْأَةِ وَالْحَيَاءِ.

وَلَعَلَّ سَائِلًا يَقُولُ: لِمَ عَدَلَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ فِي هَذَا وَأَمْثَالِهِ عَنِ الْإِفْصَاحِ وَالتَّصْرِيحِ إِلَى الْأَسْلُوبِ الْكِنَائِيِّ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ الْبَيَانَ الْإِلَهِيَّ يُعَلِّمُنَا الْأَدَبَ وَالتَّلَطُّفَ فِي الْقَوْلِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْجُرْجَانِيُّ (ت ٤٨٢هـ) مُعَلِّلاً لَجُوءِ الْعَرَبِ عَمُومًا إِلَى رُكُوبِ الْكِنَايَةِ بِقَوْلِهِ: «التَّحَرُّزُ عَنْ ذِكْرِ الْفَوَاحِشِ السَّخِيفَةِ بِالْكِنَايَاتِ اللَّطِيفَةِ، وَإِبْدَالُ مَا يَفْحُشُ ذِكْرُهُ فِي الْأَسْمَاعِ بِمَا لَا تَنْبُو عَنْهُ الطَّبَاعُ،

(١) انظر: تفسير الطَّبْرِيِّ ٤/ ٣٧٣.

(٢) انظر: الكَشَافُ ١/ ٤٣٢، ومفاتيح الغيب ٦/ ٤١٤.

(٣) انظر: السُّنَنُ الْكُبْرَى لِلنَّسَائِيِّ ٨/ ٢٢٨.

ومنها تَرَكُ اللَّفْظِ الْمُتَطَيَّرِ مِنْ ذِكْرِهِ إِلَى مَا هُوَ أَجْمَلُ مِنْهُ...»^(١)، وأشار إلى ذلك الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) بقوله: «وقوله: ﴿هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿فَاتُوا حَرِّكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة. وهذه وأشباهها في كلام الله آدابٌ حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم»^(٢)، وذكر الزمخشري أيضاً أن الحياء قد يكون باعثاً على سلوك سبيل الكناية دون التصريح، وأن الكناية والتعريض أبلغ في التوبيخ؛ «مِنْ قَبْلِ أَنْ التَّأَمَّلَ إِذَا أَدَّاهُ إِلَى الشُّعُورِ بِالْمُعَرَّضِ بِهِ، كَانَ أَوْقَعَ فِي نَفْسِهِ، وَأَشَدَّ تَمَكُّناً مِنْ قَلْبِهِ، وَأَعْظَمَ أَثْراً فِيهِ، وَأَجْلَبَ لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه مِنْ أَنْ يُيَادِرَهُ بِهِ صريحاً، مع مُراعاة حُسْنِ الْأَدَبِ بِتَرْكِ الْمُجَاهَرَةِ»^(٣).

نماذج من الكنايات الموهمة التي البيان القرآني لتأرجح دلالتها بين الحقيقة والمجاز:

أنت ترى أن البيان القرآني يسلك الكناية سبيلاً للتعبير عن الجماع وعن العلاقة بين الرجل وحليلته، من نحو قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، ﴿بَشَرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]، ﴿دَخَلْتُمُ بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿فَاتُوا حَرِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]، ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله تعالى على لسان مريم عليها السلام: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [مريم: ٢٠]، وفي هذا يقول صاحب الطراز (ت ٧٤٩ هـ): «ويترك لفظ الحقيقة استحقاقاً له، وتنزهاً عن التلفظ به لما فيه من البشاعة والغلظ، وقد نزه تعالى كتابه الكريم وخطابه الشريف عن مثل هذه الأمور، وعدل إلى المجازات الرشيقة؛ لما ذكرناه، فقال:

(١) انظر: المُتَخَب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء ص ٥-٦.

(٢) انظر: الكشف ١/ ٤٣٤.

(٣) انظر: الكشف ٥/ ٢٥٣.

﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣] كناية عن الوطء، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] كنى به عن قضاء الحاجة لهما في لفظ الحقيقة من الركة والسماجة^(١).

ومن جمالية الكناية أنها تكسو المعاني أليق الألفاظ وأحسنها؛ من حيث إنها تعين المتكلم على التعبير عن المعنى القبيح باللفظ الحسن، وعن النجس بالطاهر، وعن الفاحش بالعفيف^(٢)، كما مر بك في الحديث عن علاقة الرجل بامرأته؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥] ففي قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ الضمير العائد على المعتدات فيه إيهام الكناية، فمن المفسرين من حمل هذا التعبير على معناه الكِنائي، وذهب إلى أن قوله ﴿لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ مقصود به الزنا؛ وهذا القول اختاره الطبري (ت ٣١٠هـ)^(٣)، وقد ذكروا أنه «كَانَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ أَجْلِ الزَّانِيَةِ، وَهُوَ يُعَرِّضُ بِالنِّكَاحِ، وَيَقُولُ لَهَا: دَعِينِي، فَإِذَا وَفَّيْتُ عِدَّتْكَ؛ أَظْهَرْتُ نِكَاحِي»^(٤)، وقال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): «وَالسِّرُّ وَقَعَ كِنَايَةً عَنِ النِّكَاحِ الَّذِي هُوَ الْوَطْءُ؛ لِأَنَّهُ يَمَّا يُسَرُّ»^(٥)، ومنهم من حمل التعبير على ظاهره، فقل: بل معنى ذلك لا تأخذوا ميثاقهن وعهودهن في عدهن ألا ينكحن غيركم؛ كأن تقول لها: إني عاشق، وعاهديني ألا تتزوجي غيري^(٦)، وقد اختاره ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)^(٧)، وبسط الرازي (ت ٦٠٦هـ) الأقوال في هذه العبارة بما يجلي لك أثر الكناية في

(١) انظر: الطراز ١/ ٤٥.

(٢) انظر: تحرير التَّحْيِير ص ١٤٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٠٥/ ٥.

(٤) انظر: تفسير البغوي ١/ ٣١٨.

(٥) انظر: الكشف ١/ ٤٦٠.

(٦) انظر: تفسير الطبري ١٠٧/ ٥، والهداية إلى بلوغ النهاية ٧٨٨/ ١، وبسط القول في أوجه العبارة تجده في زاد

المسير في علم التفسير ١/ ٢١٢.

(٧) انظر: التحرير والتنوير ٢/ ٤٥٣.

اتَّسَاعَ معاني العبارة^(١)، وإن كنتُ أَظُنُّ أَنَّ المعنى على ظاهره، أي لا تختلوا بهنَّ سِرّاً عن موعدٍ مُسَبَّقٍ؛ لأنَّ هذا مِنْ شأنِهِ إغواؤُهُما، والله أعلمُ.

إيهام الكِنَاية في البيان القرآني وأثره في اجتهاد الفقهاء:

ومن أمثلة إيهام الكِنَاية أيضاً أَنَّ تعبيرَ ﴿لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣] يحتملُ أَنْ يكونَ ﴿لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ مقصوداً به ظاهره، ويحتملُ أَنْ يكونَ المرادُ به الكِنَاية عن الجماع، ومما يُظهِرُ لك أثر الكِنَاية في إيهام المتلقي واتَّسَاعَ المعاني أَنَّ الفقهاء أنفسهم اختلفوا في محلِّ هذه الكلمة ﴿لَمَسْتُمُ﴾ على الظاهر أو

(١) قال في مفاتيح الغيب ٦/ ٤٧١: «ما معنى السِّرِّ؟ والجواب: يحتملُ أَنْ يكونَ السِّرُّ ههنا:

- صفة الموعدة على معنى: ولا تواعدوهنَّ مواعدة سِرِّيَّةً.
- ويحتملُ أَنْ يكونَ صفةً للموعد به على معنى ولا تواعدوهن بالشيء الذي يكونُ موصوفاً بوصف كونه سِرّاً.
- أما على التقدير الأول - وهو أظهر التقديرين - فالمواعدة بين الرجل والمرأة على وجه السِّرِّ لا تنفكُ ظاهراً عن أَنْ تكونَ مواعدةً بشيءٍ من المنكرات، وههنا احتمالات:
- الأول: أَنْ يُواعدها في السِّرِّ بالنكاح، فيكونُ المعنى أَنْ أَوَّلَ الآيةِ إِذْنٌ في التعريضِ بالخطبة، وآخر الآيةِ مَنعٌ عن التصريح بالخطبة.
- الثاني: أَنْ يُواعدها بِذِكْرِ الجماع والرَّفْتِ؛ لأنَّ ذِكْرَ ذلك بين الأجنبي والأجنبية غيرُ جائزٍ.
- الثالث: الرِّنا.
- الرابع: أَنْ يكونَ (لَا تُواعِدُوهُنَّ سِرّاً) نهياً عن أَنْ يُسارَّ الرجلُ المرأةَ الأجنبية؛ لأنَّ ذلك يُورثُ نوعَ ريبٍ فيها.
- الخامس: أَنْ يعاهدها بأن لا يتزوج أحداً سواها.
- وأما إِذَا حملنا (السِّرِّ) على الموعد به ففيه وجوه:
- الأول: الجماع.
- الثاني: أَنْ يكونَ المراد من السِّرِّ النكاح، وذلك لأنَّ الوطء يسمى سِرّاً، والنكاح سببه وتسمية الشيء باسم سببه جائزٌ.

الكناية، لذا يقول ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ): «والمُلامسة هنا يُحتملُ أن يكونَ المرادُ منها ظاهرها، وهو الملامسةُ بمباشرةِ اليدِ أو بعضِ الجسدِ جسَدَ المرأة...، وبذلك فسَّرهُ الشَّافعيُّ (ت ٢٠٤هـ)، فجعلَ لَمَسَ الرَّجُلِ بِيَدِهِ جَسَدَ امْرَأَتِهِ مُوجِباً لِلْوُضوءِ، وهو مَحْمَلٌ بَعِيدٌ؛ إذ لا يكونُ لَمَسُ الجَسَدِ مُوجِباً لِلْوُضوءِ، وإنَّما الوُضوءُ مِمَّا يَخْرُجُ خُرُوجاً مُعْتَاداً. فَالْمَحْمَلُ الصَّحِيحُ أَنَّ المُلامسةَ كنايةٌ عن الجِمَاعِ... ولم يَجِبْ عِنْدَ مالِكٍ (ت ١٧٩هـ) وأبي حنيفةٍ (ت ١٥٠هـ) الوُضوءُ مِنْ لَمَسِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ مَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شَيْءٌ، إِلَّا أَنَّ مالِكاً قَالَ: إِذَا التَّذَلَّلَ اللَّامِسُ أَوْ قَصَدَ اللَّذَّةَ انْتَقَضَ وُضوءُهُ، وَحَمَلَ المُلامسةَ عَلَى مَعْنِيهَا الْكِنَائِيَّ وَالصَّرِيحَ...»^(١)، وقد جاءَ في الطَّبْرِيِّ (ت ٣١٠هـ) أَنَّ أَوَّلَى الْقَوْلَيْنِ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ فَسَّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ بِالْجِمَاعِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ مَعَانِي اللَّمَسِ؛ لِصِحَّةِ الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَبَّلَ بَعْضَ نِسَائِهِ ثُمَّ صَلَّى، وَلَمْ يَتَوَضَّأْ^(٢).

ألا ترى إلى تأرجح تأويل الأئمة للتعبير ﴿لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ بين الصريح كما فهمه الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، والكنائي كما عند أبي حنيفة (ت ١٥٠هـ)، أو الجمع بين المعنيين الكِنَائِيَّ والصَّرِيحَ كما عند الإمام مالك (ت ١٧٩هـ)، ولعلَّ تأرجح معنى العبارة إنما هو بفضل الطاقة الإيهامية التي توسَّع دلالة الكناية بين المعنيين الأصلي والكنائي، وقد أفضى هذا الإيهام إلى اجتهد الفقهاء في هذه المسألة كما رأيت، وإن كان كلٌّ منهم لديه حُجَجٌ أخرى تعضدُ مذهبه ليس هذا محلَّ بسطها^(٣).

إيهام الكناية في البيان القرآني وأثره في اختلاف التفسير:

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، فقولهُ تَعَالَى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ كنايةٌ عن بَشَرِيَّةِ عِيسَى

(١) انظر: التحرير والتنوير ٦٧/٥.

(٢) انظر: تفسير الطَّبْرِيِّ ٣٩٦/٨.

(٣) انظر: الدرر المنتور في التفسير بالمأثور ٥٤٩/٢، وروائع البيان (تفسير آيات الأحكام) ٤٨٧/١. وفيه تفصيل أقوال الفقهاء وحُجَجِهِمْ.

وأُمّة عليها السّلام؛ يدلُّك على ذلك سياق الآية الكريمة، وهذه الكناية منطوية على دليلها وبرهانها الذي يدحض زعم القائل ﴿إِنَّ اللَّهَ تَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، و﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. وإنَّ الناظر في قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ قد يفهمه على وجهين:

- أولهما: تناول الطَّعام كما يفعل النَّاسُ جميعاً، وهذا هو المعنى الوضعي للتعبير.
- وثانيهما: وهو لازم المعنى الأوّل وهو (بشريّتهما)؛ لأنَّ حياتهما متوقّفةٌ كغيرهما على تناول الطَّعام، فكيف يكونُ الإله وجوده مرتين بتناول طعام ليس هو مَنْ خلقه وأوجده أصلاً؟! وكيف يكونُ الإله مُفتقراً محتاجاً إلى غيره ليرزقه ويُربيّه حتّى يضمن استمراره؟ إذاً لا بُدَّ من خالقٍ عظيمٍ أوجد الطَّعام، ورزق عيسى وأُمّة عليها السّلام والنَّاسَ أجمعين، إذاً فذكرُ أَكْلِهِمَا الطَّعام استدلالٌ على بشريّتهما، وهذه هي الكناية.

وعبر عن هذا الطَّبري (ت ٣١٠هـ) وإن لم يُصرِّح بلفظ الكناية؛ إذ قال: «وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾، خبر من الله تعالى ذكره عن المسيح وأُمّة؛ أنّها كانا أهل حاجةٍ إلى ما يغذّوهما وتقوم به أبدائهما من المطاعم والمشارب كسائر البَشَر من بني آدم، فإنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ، فغيرُ كائِن إلهاً؛ لأنَّ المحتاج إلى الغذاء قوَّامه بغيره. وفي قوامه بغيره وحاجته إلى ما يُقيمه دليلٌ واضحٌ على عجزه، والعاجز لا يكونُ إلّا مربوباً لا ربّاً»^(١). وإلى مثله ذهب الرَّخْشَرِيّ (ت ٥٣٨هـ) بقوله: «ثُمَّ صَرَّحَ بِبُعْدِهِمَا عَمَّا نُسِبَ إِلَيْهِمَا [مِنَ الْإِلَهِيَّةِ] فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾؛ لِأَنَّ مَنْ احتاجَ إِلَى الْإِغْتِذَاءِ بِالطَّعَامِ وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الْهَضْمِ وَالتَّنْفِصِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا جِسْماً مُرَكَّباً مِنْ عَظْمٍ وَلَحْمٍ وَعُرُوقٍ وَأَعْصَابٍ وَأَخْلَاطٍ وَأَمْزَجَةٍ مَعَ شَهْوَةٍ وَقَرَمٍ [الْقَرَمُ: شِدَّةُ الشَّهْوَةِ إِلَى اللَّحْمِ] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَصْنُوعٌ مُؤَلَّفٌ مُدَبَّرٌ كغیره مِنَ الْأَجْسَامِ»^(٢)، وكذا ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ) بقوله: «وقوله ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ جملة واقعة موقع الاستدلال على مفهوم القصر الذي هو

(١) انظر: تفسير الطَّبري ١٠/ ٤٨٥.

(٢) انظر: الكشَّاف ٢/ ٢٧٧.

نفى إلهية المسيح وأمه...، وقد استدلل على بشريتهما بإثبات صفة من صفات البشر، وهي الطعام. وإنما اختيرت هذه الصفة من بين صفات كثيرة؛ لأنها ظاهرة واضحة للناس، ولأنها أثبتتها الأناجيل؛ فقد أثبتت أن مريم أكلت ثمر النخلة حين مخاضها، وأن عيسى أكل مع الحواريين يوم الفصح خبزاً وشرب خمرًا...»^(١).

وقد ذهب بعض المفسرين والبلاغيين إلى أن قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث أو (قضاء الحاجة)^(٢)، لأن من يأكل الطعام يلزمه قضاء الحاجة. والذي أراه - والله أعلم - بمراذه - أن قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ مراد به معناه الوضعي من تناول الطعام والشراب، وما يتبع ذلك المعنى من معاني الحاجة والافتقار والعجز التي تُشير إلى أنهما مخلوقان يُغيّران صفة الألوهية، وهذا كاف لإثبات بشريتهما، دون ذكر لما يتبع تناول الطعام من قضاء الحاجة؛ فإنه إطنابٌ يفيد فقط تقبيح الصورة والتشنيع على من اتخذها إلهين؛ لأن إثبات بشريتهما قد تم لحظةً وصفاً بالحاجة والافتقار إلى من يرزقهما، ولا داعي بعد إلى إثبات المثبت، والله أعلم. وإلى هذا ذهب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) بقوله: «وقالوا في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ إن هذا إنما كان كناية عن الغائط. كأنه لا يرى أن في الجوع وما ينال أهله من الدلة والعجز والفاقة، وأنه ليس في الحاجة إلى الغذاء = ما يكتفى به في الدلالة على أنهما مخلوقان، حتى يدعي على الكلام ويدعي له شيئاً قد أغناه الله تعالى عنه»^(٣).

من إيهام الكناية في حديث النبي ﷺ:

من الكناية الموهمة أنه عليه الصلاة والسلام سأله بعض أزواجه: أينما أسرع بك لحوقاً؟ فقال: «أطولكن يداً»، فلما توفي ﷺ رُحْنٌ يذرع عن الأيدي ويطاولن بينها، لينظرن أيهن أطول يداً وأسرع

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٨٦/٦.

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١٨١٦/٣، وزاد المسير في علم التفسير ٥٧٢/١، ومفاتيح الغيب ٤٠٩/١٢، وتحرير التحجير ص ١٤٣، والبرهان في علوم القرآن ٣٠٤/٢.

(٣) انظر: الحيوان ٢٢٩/١.

لُحُوقًا؟ فَمَا لَبِثْتُ أَنْ تُوفِّتَ إِحْدَاهُنَّ (قيل: زينب بنت جحش)، ولم تكن بأطولهنَّ يداً، ولكنها كانت كثيرة الصدقة، فعلمنَّ حينئذٍ أنه لم يُردِّ الجارحة، وإنَّا أرادَ الصدقة^(١)، ومعلومٌ أنَّ العربَ كانت تُكنِّي بطولِ اليدِ والذراعِ عن كثرةِ البذلِ والعطاء؛ كقولِ أبي زياد الأعرابيِّ [الوافر]

وَلَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ الْفَتِيَانِ مَالاً وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعاً^(٢)

ومنشأُ الاتِّساعِ وتعدُّدِ الدَّلالةِ في فهمِ كلامِهِ ﷺ ههنا أنَّ العبارةَ متأرجحةً بين المعنى الصَّريحِ والكنائيِّ، ونسوةُ النَّبِيِّ ﷺ أخذنَ بظاهرِ اللَّفظِ، فإذا المرادُ به تأويلُهُ.

نموذج لمُطابَقةِ الكِنَايةِ للمَقامِ ومُقْتَضَىِ الحالِ في البيانِ القرآنيِّ:

قد يسألُ سائلٌ: لِمَ كانَ البيانُ الإلهيُّ يتلَطَّفُ دائماً ويُكنِّي بأخفى الكِنَاياتِ وأحشَمِها عندَ ذِكرِ أمورِ الحياءِ؛ ولكنَّه في قولِهِ سبحانه: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] استُعْمِلَ في هذه الكِنَايةِ لفظُ ﴿الرَّفْتُ﴾، وهو مُستَهْجَنٌ قياساً على نظائِرِهِ من نحو: (الإفشاء، الملامسة، والاقتراب، والدخول، والاستمتاع، ...)؟، وفيه تصرُّيحٌ؛ لأنَّ المعنى الأصليَّ للرَّفْتِ قبل الكِنَايةِ إنّما هو الفُحْشُ مِنَ القَوْلِ في شأنِ النِّسَاءِ، وكلامُ النِّسَاءِ في الجِماعِ؛ وحديثُ الشَّهوةِ بينَ الرَّجُلِ وامرأَتِهِ، فالرَّفْتُ هو الإفصاحُ بما يجبُ أن يُكنَّى عنه.^(٣)

فإنَّ السَّائلَ ههنا ينبغي له أن يَعْلَمَ سببَ نزولِ قولِهِ تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فقد ذُكِرَ لهذه الآيةِ أكثرُ من سببِ نزولٍ؛ أحدها ما رُوِيَ أنَّه كانَ الرَّجُلُ من أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ إذا أَمْسَى لَيْلَةَ الصَّيَامِ حَلَّ له الأَكْلُ والشُّرْبُ والجِماعُ إلى أن يُصَلِّيَ العِشاءَ الآخِرَةَ أو يَرْقُدَ، فإذا صَلَّاهَا أو رَقَدَ ولم يُفْطِرْ حَرُمَ عليه الطَّعَامُ والشَّرَابُ والنِّسَاءُ إلى القَابِلَةِ، ثُمَّ إِنَّ

(١) انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٣٢٩/١١. ورقم الحديث (٨٨٩٠).

(٢) انظر: الوساطة ص ٢٨٧، ومعاهد التنصيص ٥٩/٤.

(٣) انظر: لسان العرب (رفث).

عمر رضي الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ يكي ويلوم نفسه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة، وأخبره بما فعل، فقال عليه الصلاة والسلام: ما كنت جديراً بذلك يا عمر! فقام رجال فاعترفوا بما كانوا صنعوا بعد العشاء، فنزلت الآية الكريمة^(١).

وعليه فإن استعمال البيان القرآني لهذا اللفظ **﴿الرَّفْتُ﴾** الدال على القبح الذي فيه نوع هجنة قياساً على نظائره من الألفاظ التي كنى بها القرآن عن الجماع جاء مطابقاً للمقام، وهذا يوضحه الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) بقوله: «فإن قلت: لِمَ كُنِيَ عنه ههنا بلفظ **﴿الرَّفْتُ﴾** الدال على معنى القبح بخلاف قوله...، قلت: استهجاناً لِمَا وَجَدَ مِنْهُمْ قَبْلَ الْإِبَاحَةِ، كما سَمَاهُ اخْتِيَاناً لأنفسهم»^(٢). وقيل: إنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، إنما قال للنبي صلى الله عليه وسلم حين أتاه مُعْتَذِراً عما وقع منه ليلة الصَّوم: «يا رسول لقد هلكْتُ، قال: وما أهلكك! قال: حَوَّلْتُ رَحْلِي اللَّيْلَةَ»^(٣).

مفاضلة بين كناية عمر رضي الله عنه وكناية أبي الطَّيِّب:

لَكَ أَنْ تُفَاضِلَ بَيْنَ كِنَايَةِ عُمَرَ رضي الله عنه (حَوَّلْتُ رَحْلِي اللَّيْلَةَ)^(٤)، وَكِنَايَةِ أَبِي الطَّيِّبِ: [الكامل]

إِنِّي عَلَى شَغْفِي بِمَا فِي حُمْرِهَا لَأَعْرِفُ عَمَّا فِي سَرَائِلِهَا^(٥)

فإنَّ أبا هلالٍ العسكري (ت ٣٩٥هـ) يَنْعَثُ الْبَيْتَ بِأَنَّهُ مِنْ شَنِيعِ الْكِنَايَةِ، وَيَقُولُ: «وَسَمِعْتُ بَعْضَ الشُّيُوخِ يَقُولُ: الْفُجُورُ أَحْسَنُ مِنْ عَفَافٍ يُعْبَرُ عَنْهُ بِهَذَا اللَّفْظِ»^(٦)، وَابْنُ سِنَانٍ الْحَقَّاجِيُّ (ت ٤٦٦هـ) يَعْلِقُ عَلَى الْبَيْتِ بِقَوْلِهِ: «وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ... فَلَا شَيْءَ أَقْبَحُ مِنْ ذِكْرِ (السَّرَاوِيلَاتِ)، وَمَا أَعْرِفُ

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣١٥/١، والهداية إلى بلوغ النهاية ٦١٧/١-٦١٨، وتفسير البغوي ٢٢٨/١، والكشاف ٣٨٥-٣٨٦.

(٢) انظر: الكشاف ٣٨٨/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٤/٤١٢، والمثل السائر ٦٥/٣.

(٤) انظر: المثل السائر ٦٥/٣.

(٥) انظر: ديوان المتنبي ٢٢٦/١.

(٦) انظر: كتاب الصناعتين ص ٣٧٠.

كناية - أشهد الله - أن التصريح أجمل منها، ووصف عفة سلوك الرّيب والتّهم أحسن من التّلفظ بها إلا كناية أبي الطّيب هذه، ونعته عفافه هذا النّعت^(١)، وعلّق ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) بقوله: «وهذه كناية عن التّزاهة والعفة، إلا أن الفجور أحسن منها»^(٢)، فأين هذه الكناية من كناية عمر ومن كنايات الهدى النبويّ والبيان القرآنيّ أدباً واحتشاماً ورعاية لحياء القارئ، وارتقاء بذوقه.

الكناية و تصويرها الحال النفسية:

من الكناية ما يكون تعبيراً عن الحال النفسية؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢] فقوله: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ للمتلقي أن يفهمه على صريح اللفظ بأنه أصبح يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ على الحقيقة، وله أن يفهمه كناية عن النّدم^(٣)، وله أن يفهمه بالمعنيين الصّريح والكنائي معاً؛ أي أنه كان يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ من شدة النّدم، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أَنَا وَالرَّسُولَ سَيِّئًا﴾ [الفرقان: ٢٧] فقوله: ﴿يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ كناية عن النّدم أيضاً والحسرة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩] فقوله: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن النّدم والعجز^(٤)، وهذه كناية لم تُسمع عن العرب قبل القرآن الكريم^(٥)، وكقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨-٩] «العطف: المنكب والجانب. و﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ تمثيل للتّكبر والخيلاء، ويُقال: لوى جِئده إذا أعرَض تكبراً»^(٦)، ومثله

(١) انظر: سِرّ الفصاحة ص ٩١-٩٢.

(٢) انظر: المثل السائر ٣/ ٧١.

(٣) انظر: مجاز القرآن ١/ ٤٠٤.

(٤) انظر: مجاز القرآن ١/ ٢٢٨.

(٥) انظر: التّحرير والتّنوير ٩/ ١١٢.

(٦) انظر: التّحرير والتّنوير ١٧/ ٢٠٨.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] كناية عن التكبر^(١)، وقد قال الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ): «عَضُّ اليدين والأنامل، والسُّقُوط في اليد، وأَكُلُ البَنَان.. كنايةات عن الغَيْظ والحَسْرَة؛ لأنَّها مِن رَوادِفِها، فيذكرُ الرَّادِفَة ويُدلُّ بها على المردوف، فيرتفعُ الكلامُ به في طبقة الفصاحة، ويجدُ السَّامِعُ عنده في نفسه من الرُّوعَة والاستحسانِ ما لا يجده عندَ لفظِ المكنيِّ عنه»^(٢)

استحالة الكناية حقيقة:

الكناية إنْ كَثُرَ دورائها على الألسنة - مع مرور الوقت - تجمُدُ مِن فَرَطِ الاستعمال، حتَّى تصيرَ حقيقةً، وتحتاج إلى كناية عنها لتلطيفها، وقد نفقدُ قيمتها الجماليَّة الأولى عند مَنْ لا يعرفُ أنَّها كنايةٌ، وقد وردَ عن العربِ كنايةاتٌ لطيفةٌ اشتهرت وكُتِبَ لها الذُّيُوعُ حتَّى استحالت حقيقةً؛ مِن ذلك كلمةُ (قَحْبَة)؛ فقد تطوَّرت دلالياً بالكناية فانتقلت مِن معنى (كثيرة السُّعال) حتَّى أضحت علماً على الزَّانية، وأصلُها الوضعيُّ: «قَحَبَ يَقْحُبُ قُحَاباً وقَحْباً إذا سَعَلَ. وَرَجُلٌ قَحَبٌ، وامرأة قَحْبَة: كَثيرةُ السُّعال»^(٣)، والأزهريُّ (ت ٣٧٠ هـ) يذكرُ كلاماً يبيِّنُ فيه أصلَ هذه الكناية والصِّلة بينَ معنيها الوضعيِّ (السُّعال) والكِنائيِّ (الزَّنا) بقوله: «قيل للبعيِّ: (قَحْبَة)؛ لأنَّها كانت في الجاهليَّة تُؤذِنُ طُلَّابِها بقُحَابِها، وهو سُعَالُها»^(٤)، وقد ذكَّرَ الجاحظُ (ت ٢٥٥ هـ) أنَّهم «قالوا في الكناية عن قولهم: زنت فلانة: قَحَبَتْ... فكأنَّهم كانوا في التقدير يضعون (سَعَلَتْ) مكانَ (زَنَتْ)، فلمَّا طَالَ ذلك صارَ قولُهم: (قَحَبَتْ) أقبحَ من قولهم: (زَنَتْ)»^(٥). واليوم إذا وُصِفَتْ إحداهنَّ بـ(قَحْبَة) فإنَّه لا يخطر ببالك السُّعالُ البتَّة، فكأنَّ معنى السُّعال حقيقةً لغويَّة، ومعنى الزَّنا حقيقةً عُرْفِيَّةً عامَّة.

(١) انظر: التَّحْريِر والتَّنْويِر ١٦٦/٢١.

(٢) انظر: الكشَّاف ٣٤٥/٤.

(٣) انظر: اللِّسان (قحَب).

(٤) انظر: تهذيب اللُّغة ٤٧/٤.

(٥) انظر: البُرْصان والعرجان والحوْلان ص ١١٧.

ومثل ذلك (الغائط) فهو لغة ما اطمأن من الأرض وغاب عن البصر^(١)، وكُنِّيَ بها عن قضاء الحاجة؛ لأنَّ العرب كانوا يذهبون عند قضاء الحاجة إلى مكانٍ منخفضٍ من جهة الحيِّ بعيدٍ عن بُيُوت سُكَّانِهِمْ، فيقولون: فلانٌ ذهبَ إلى الغائط، أو تَغَوَّطَ^(٢)، وقال ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣ هـ): «كَانَتْ [الغائط] كِنَايَةً لَطِيفَةً، ثُمَّ اسْتَعْمَلَهَا النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ كَثِيرًا حَتَّى سَاوَتْ الْحَقِيقَةَ فَسُمِّجَتْ»^(٣) إِيهَامُ الْكِنَايَةِ وَآثَرُهُ فِي التَّلَطُّفِ، وَصِلَتْهُ بِالتَّهْذِيبِ الْاجْتِمَاعِيِّ:

لا ريبَ في أنَّ الكِنَايَةَ والتَّعْرِيضَ مظهران من مظاهر الرُّقْيِ الحضاريِّ والتَّهْذِيبِ الاجتماعيِّ؛ فلغةُ القومِ مرآةٌ لنفوسِهِمْ وعقولِهِمْ، وسُمُومُ أساليبِ اللُّغَةِ انعكاسٌ لسُمُومِ طبائعِ أَهْلِهَا، فالعربُ مثلاً تتلَمَّسُ أَحْسَنَ الْحِيلِ وَأَدْنَاهَا إِلَى الْحِشْمَةِ وَالْأَدَبِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ أُمُورِ الْعَوْرَاتِ وَكُلِّ مَا يُسْتَهْجَنُ ذِكْرُهُ، فتَلَجُّ إلى التَّلَطُّفِ فِي الْكَلَامِ، فتَبْلُغُ غَرَضَهَا بِأَسْلُوبٍ أَلْفَافٍ وَأَحْسَنَ مِنَ الْكَشْفِ وَالتَّصْرِيحِ، وَيَعْبِوْنَ عَلَى الرَّجُلِ إِذَا كَانَ يَكْاشِفُ فِي ذَلِكَ، بَلْ إِيَّاهُمْ كَانُوا يَأْتَفُونَ سَمَاعَ الْفَحْشِ وَالْحَتَا فَضلاً عَنْ التَّلَفُّظِ بِهِ، قَالَ الْحِمَاسِيُّ: [الطَّوِيل]

أَحِبُّ الْفَتَى يَنْفِي الْفَوَاحِشَ سَمْعُهُ كَأَنَّ بِهِ عَنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ وَقَرَا
سَلِيمٌ دَوَاعِي الصَّدْرِ، لَا بَاسَطٌ أَدَى وَلَا مَانِعٌ خَيْرًا، وَلَا قَائِلٌ هُجْرًا^(٤)

وقد كُنِيَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ عِلَاقَةِ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ - كَمَا رَأَيْتَ - بِالْفَافِظِ كَرِيمَةٍ، مِنْ نَحْوِ: السَّرِّ، وَالْحَرِثِ، وَالْمَلَامَةِ، وَالْإِفْضَاءِ، وَالرَّفَثِ، وَغَيْرِهَا.

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مُرَاعَاةَ التَّلَطُّفِ بِالْكِنَايَةِ حَالَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ تَخْتَلِفُ مِنْ أُمَّةٍ إِلَى أُمَّةٍ، وَمِنْ بَيْئَةٍ إِلَى بَيْئَةٍ، وَمِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ، فَلَعَلَّ مَا يَدْعُو إِلَى التَّلَطُّفِ عِنْدَ أُمَّةٍ لَا يَدْعُو إِلَيْهِ عِنْدَ أُمَّةٍ أُخْرَى، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ -

(١) انظر: لسان العرب (غوط).

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٦٦/٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٦٦/٥.

(٤) انظر: الحيوان ٩٨/٧، وشرح الحماسة للمرزوقي ٨٠٢/١.

خاصّة - تُراعي تلطيف العبارة كما رأيت، ومن ذاك أنّهم كانوا يَكْنُون عن الحِثان بالتّطهير^(١) وما زالوا، وحتّى العيوبُ الخلقية للنّاس كانوا يتلطّفون في إطلاقها؛ فكأنّوا يَكْنُون عن الأعمى بالمحجوب، وعن الأعور بالمُمْتَع، وعن البخيل بالمقتصد^(٢)، ويَكْنُون عن القتل والموت بقولهم: استأثّر الله به، أسعده الله بجواره، نقله الله إلى دار رضوانه، اختاره الله^(٣)، حتّى في أيّامنا هذه مازالوا يتلطّفون في ذكر الموت فيقولون: أخذ الله أمانته، ذهب إلى رحمة ربّه، لبّى نداء ربّه، صاحب الأمانة أخذ أمانته، ذهب إلى جوار ربّه. وبالإمكان القول: إنّ من أبرز دوافع التّلطف بالكناية عند المتكلّم: (الكياسة والتّأدّب، والخوف والفرع)^(٤):

أولاً: الكياسة والتّأدّب والاحتشام، ويُعدّ مجال المرأة وعلاقتها بالرّجل وما يتصلّ بذلك من أحوال أو أفعال أو أعضاء أرحب المجالات التي تبعث المتكلّم على التّلطف بشأنها، فيعبدل المتكلّم عن التّصريح بها إلى الكناية، وهذا التّلطف مطلوبٌ مُستحبٌ ليس في العربيّة فحسب، بل في مُعظم اللّغات؛ لأنّ كلمات هذا المجال ينفّر منها النّاس^(٥)، وإليك ما يقول د. عمر فروخ: «وكان قد لَقَّت نظري وُروُدُ جُمْلَةٍ في كتاب (فقه اللّغة) للثّعالبيّ (ت ٤٢٩هـ) هي: (لعلّ أسماء النّكاح تبلغُ مئة كلمةٍ عن ثقات الأئمّة بعضها أصليٌّ، وبعضها مَكْنِيٌّ)، وكنتُ في أثناء قراءتي المتكرّرة للقاموس المحيط للفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، أستغربُ كثرة الألفاظ الجنسيّة، حتّى خيّل إليّ أنّه لا تخلو مادّةٌ من موادّ المعجم العربيّ من لفظٍ جنسيٍّ دالٍّ على اسمٍ أو فعلٍ أو حالٍ لذلك الجانب من حياة البَشَرِ وحياة الحيوان...، وعددتُ أنا الألفاظ المتعلّقة بهذا المدرك في القاموس فوجدتها تزيد على ألفٍ ومئتين...، وحاولتُ تعليلاً لهذه الكثرة.. فبان لي أنّ جانباً كبيراً منها من باب الكناية، حيثُ كان العربيُّ يَكْنِي به عن المُدْرِك الجنسيّ بلفظٍ، فإذا اشتَهَرَ هذا اللفظُ ودلّ على ما كان يُكْنِي عنه صراحةً استحيا العربيُّ

(١) انظر: الكناية والتّعريض ص ٢٤.

(٢) انظر: الكناية والتّعريض ص ٤٦ - ٤٧.

(٣) انظر: الكناية والتّعريض ص ٦٢.

(٤) انظر: المحظورات اللّغويّة ص ٥١ - ٥٨، والتّعبير عن المحظور اللّغويّ ص ٥١.

(٥) انظر: دلالة الألفاظ ص ١٤٢.

من الاستمرار في استعماله، فانتقل إلى كناية جديدة غامضة^(١)، فهذه الألفاظ تَفْقِدُ عند شيوخها على الألسن تأثيرها البلاغي، فتفقد بذلك قيمتها الاجتماعية، فيلجأ العربي إلى لفظ آخر أقوى أثراً في النفس وأحسن وقعاً على الأذان، ومما يُعزِّزُ هذا لدينا ما حكاه أبو حيان التَّوْحِيدِي (ت نحو ٤٠٠هـ): «حدَّثني ابنُ فارس (ت ٣٩٥هـ): جرى بين يديه أسماءُ الفرج وكثرَتْها، فقال بعضُ الحاضرين: ماذا أرادتِ العربُ بتكثيرِها مع قُبْحِها؟ فقال: لَمَّا رَأَوْا الشَّيْءَ قَبِيحاً جعلُوا يَكْنُونُ عنه، وكانتِ الكِنَايةُ عند فُشُوها تصيرُ إلى حدِّ الاسمِ الأوَّلِ، فينتقلون إلى كِنَايةٍ أُخرى، فإذا اتَّسَعَتْ أيضاً رَأَوْا فيها من القُبْحِ مثل ما كنُوا عنه من أجلِه؛ وعلى هذا كَثُرَتِ الكِنَاياتُ، وليس غرضُهم تكثيرُها»^(٢).

ثانياً: الخوفُ والفرعُ: يُعدُّ من أبرزِ دوافعِ التَّلَطُّفِ بالكِنَاية، ويشملُ كلَّ الكِنَاياتِ الخاصَّةِ بالمجالاتِ التي نستبينُ منها الضَّعْفَ الإنسانيَّ؛ كالْمَوْتِ والمرضى والجَنِّ، ونحوها مما للتَّفاوُلِ والتَّشاوُمِ فيه أثرٌ كبيرٌ، فأنت ترى التَّلَطُّفَ بالكِنَايةِ حيثُ المجالاتُ التي تُثيرُ أَلْفَاظُها الخوفَ والهلَعَ في نفوسِ البَشَرِ وينفرون من سماعِها، ويتفادون ذِكْرَها؛ فِراراً مما تبعثُ في الأذهانِ من آلامٍ. ولعلَّ هذا يُفسِّرُ لنا تعدُّدَ مُسمَّياتِ بعضِ الألفاظِ المترادِفةِ في العربيَّةِ؛ كلفظِ (الدَّاهِيَةِ) التي قال عنها حمزةُ الأصفهانيُّ (ت ٣٧٠هـ): «إنَّ تكاثرَ أسماءِ الدَّواهي من إحدى الدَّواهي»^(٣).

وأنت ترى ما للتَّهذيبِ الاجتماعيِّ من أثرٍ في سلوكِ الكِنَايةِ سبيلاً للتَّخاطُبِ؛ فالكِنَايةُ ليستِ إلَّا صورةً مهذَّبةً متحضَّرةً ممَّا يُسمَّى (تحریم المفردات)؛ فكثيراً ما يقع لدى المتكلِّمين أن يكونَ لبعضِ الألفاظِ طابعُ السَّرِّيَّةِ والحقِّاءِ، فيمنعُ الأفرادُ من استعمالِها^(٤)، فالكِنَايةُ تُسلِّكُ مع كلِّ شيءٍ مقدَّسٍ أو ذي حَظَرٍ، أو مُثيرٍ للرَّعبِ والخوفِ أو مُزعجٍ للسَّامعِ، كما تُسلِّكُ مع الأشياءِ الشَّائنةِ، أو غيرِ المقبولةِ لدى النَّفسِ.

(١) انظر: عبقرية اللغة العربية ص ٥٧.

(٢) انظر: أخلاق الوزيرين ص ٣٨٧.

(٣) انظر: التَّنبيه على حدوثِ التَّصحيفِ ص ١٣٢.

(٤) انظر: اللغة، لفندريس ص ٢٨١.

التعريض وتمييزه من الكناية:

التَّعْرِیْضُ مِنَ الْأَسَالِیْبِ الْعَرَبِیَّةِ الْعَرِیْقَةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي أَشْعَارِ الْجَاهِلِیَّةِ وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَدِيثِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَفِي كَلَامِ الْبُلْغَاءِ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ؛ لِأَنَّهُمْ يَبْلُغُونَ بِهِ مُرَادَهُمْ فِي الْطَفِّ وَجِهٍ دُونَ الْكَشْفِ وَالتَّصْرِیْحِ، وَلَوْ تَبَعْتَ تَنَوُّعَ الْخِطَابِ الْقُرْآنِيِّ وَجَدْتَ فِيهِ ضَرْباً مِنَ التَّعْرِیْضِ، أَبْرَزُهَا أَنَّ يُخَاطَبَ الرَّجُلَ وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ، وَمُعْظَمُ الْمُفَسِّرِينَ حِينَ يَأْتُونَ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْخِطَابِ يَتَمَثَّلُونَ بِالْمَثَلِ الْعَرَبِيِّ الْمَشْهُورِ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مِنْ بَابِ (إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ) ^(١).

وَإِذَا كَانَ التَّعْرِیْضُ لُغَةً خِلَافَ التَّصْرِیْحِ، فَهُوَ فِي الْإِصْطِلَاحِ: إِطْلَاقُ الْكَلَامِ وَالْإِشَارَةُ بِهِ إِلَى مَعْنَى آخَرَ يُفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ ^(٢)، كَقَوْلِكَ لِمَنْ تَجَاوَزَ حَدَّهُ: (رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ حَدَّهُ فَوْقَ عِنْدِهِ) تَعْرِیْضاً لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ تَجَاوَزَ الْحَدَّ مَعَكَ، دُونَ مُصَارَحَةٍ لَهُ بِذَلِكَ. أَوْ كَقَوْلِكَ لِحَضَمٍ تَتَوَقَّعُ مِنْهُ الْمَكِيدَةُ: (أَمْسِ حَاوِلْ أَحَدُهُمْ أَنْ يَتَطَاوَلَ عَلَيَّ فَنَالَ مِنْ رَجَالِي مَا يَسْتَحِقُّ)؛ تَعْرِیْضاً لَهُ بِأَنَّكَ مُسْتَعِدٌّ لِلرَّدِّ عَلَى أَيِّ اعْتِدَاءٍ.

وهذا مبحثٌ ترعرع في أحضان المفسرين - كالزَّمَخْشَرِيِّ (ت ٥٣٨هـ)، والِرَّازِيِّ (ت ٦٠٦هـ) - الذين استوعبوه واستفاضوا فيه في كُتُبِهِمْ، فَمَا تَرَكُوا لِلْبَلَاغِيِّينَ كَثِيراً يُقَالُ فِي الْمَوْضُوعِ.

وإن سأل سائل: ما الفرق بين الكناية والتعريض؟ فجوابه: أَنَّ الْكِنَايَةَ وَالتَّعْرِیْضَ كِلَاهُمَا لَيْسَ فِيهِمَا تَصْرِیْحٌ بِالْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْعِبَارَةِ، وَلَكِنَّ الْمَعْنَى (الْمَكْنِيَّ عَنْهُ) فِي الْكِنَايَةِ يَكُونُ مَذْكُوراً فِي الْكَلَامِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ الْمَوْضُوعِ لَهُ، وَأَمَّا الْمَعْنَى التَّعْرِیْضِيَّةُ فَغَيْرُ مَذْكُورٍ أَصْلاً؛ لَا بِلَفْظِهِ الْمَوْضُوعِ لَهُ وَلَا بِغَيْرِهِ. بَلْ هُوَ «أَنْ تَذْكُرَ شَيْئاً تَدُلُّ بِهِ عَلَى شَيْءٍ لَمْ تَذْكُرْهُ» ^(٣).

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٤٨/١٦، والبحر المحيط ٢٩/٢، ونظم الدرر في تناسب الآيات والشُّور ٣/٣٩٥، والتحرير والتنوير ٣٦٤/٧.

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٣٧٩، والمفصل في علوم البلاغة ص ٥٤٣.

(٣) انظر: الكشف ١/٤٥٩.

وبالإمكان القول: إِنَّ التَّعْرِضَ كلامٌ له وجهان؛ ظاهرٌ وباطن، وقد وردَ مُصْطَلَحُ التَّعْرِضِ في البيان القرآني في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فالآية الكريمة ترفعُ الحَرَجَ عَمَّنْ نَوَى في قلبه خطبة المرأة التي لَمَّا تَتِمَّ عِدَّتُهَا على زوجها المُتَوَقَّى، ولكنه عَرَّضَ لها برغبته هذه تعريضاً لا يبلغُ حَدَّ التَّصْرِيحِ بِالخِطْبَةِ، وقد اجْتَهَدَ المفسِّرون في حَشْدِ عباراتٍ من آثارِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ لِيُمَثِّلُوا بها على التَّعْرِضِ في هذا الموقف؛ كأنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِلْمَرْأَةِ في عِدَّتِهَا: إِنَّكِ لَجَمِيلَةٌ، وَإِنَّكِ لَتُعْجِبِينَ، وَيُضْمِرُ خِطْبَتَهَا وَلَا يُبَيِّنُهَا، أو يَقُولُ: إِنَّكِ لَجَمِيلَةٌ، وَإِنَّ النِّسَاءَ لَمِنْ حَاجَتِي، وَإِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. أو: إِنِّي أُرِيدُ التَّزْوُجَ، وَإِنِّي لِأَحِبُّ امْرَأَةً مِنْ أَمْرِهَا وَأَمْرِهَا... أو: لَوَدِدْتُ أَنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً صَالِحَةً، أو: لَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ هَيَّأَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، أو: إِنَّكِ لَجَمِيلَةٌ، وَإِنَّكَ لَنَافِقَةٌ [مرغوبٌ فيك]، وَإِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ،... إلى غير ذلك من هذه العبارات^(١).

مفهوم التَّعْرِضِ عِنْدَ الطَّبْرِيِّ (ت ٣١٠هـ)، ووجه الإيهام فيه:

للإمام ابن جرير الطَّبْرِيُّ في تفسير مفهوم التَّعْرِضِ عبارةً جليلاً ما رأيتُ لها شبيهاً في كُتُبِ اللُّغَةِ التي سَبَقَتْهُ لِشَرْحِ هذا المفهوم، وفي عبارته يقول: «وَأَمَّا التَّعْرِضُ: فهو ما كَانَ مِنْ لَحْنِ الْكَلَامِ الَّذِي يَفْهَمُ بِهِ السَّامِعُ الْفَهْمُ مَا يَفْهَمُ بِصَرْحِهِ»^(٢). وفي هذا القولِ فوائدٌ ثلاث:

أَوَّلُهَا: أَنَّ التَّعْرِضَ مِنْ لَحْنِ الْكَلَامِ الَّذِي ندعوه نحنُ بالإيهام؛ ومعلومٌ أَنَّ اللَّحْنَ يُطْلَقُ على معانٍ عِدَّةٍ؛ منها المِيلُ بِالْكَلَامِ عَنْ جِهَةِ الاسْتِقَامَةِ؛ فَيُجْعَلُ له باطنٌ وظاهرٌ؛ فيكونُ الْكَلَامُ حِينَئِذٍ مُوَهِّماً خِلَافَ الْمَرَادِ، وهذا هو الإيهامُ الَّذِي نَعْنِي، ومن ذلك ما رُوِيَ مِنْ أَنَّ مَالِكاً بْنَ أَسْمَاءَ الْفَزَارِيَّ

(١) انظر: تفسير مجاهد ص ٢٣٨، وتفسير الطَّبْرِيِّ ٩٥ / ٥ وما بعدها، وتفسير ابن أبي حاتم ٤٣٨ / ٢، وأحكام القرآن للجصاص ١٢٨ / ٢، والهداية إلى بلوغ النِّهَايَةِ ٧٨٨ / ١، والوجيز للواحدِي ١٧٤ / ١، وتفسير البَغَوِيِّ ٣١٧ / ١، والمُحَرَّرُ الْوَجِيزُ ٣١٥ / ١، وزاد المسير في عِلْمِ التَّفْسِيرِ ٢١٠ / ١، ومفاتيح الغيب ٤٧٠ / ٦.

(٢) انظر: تفسير الطَّبْرِيِّ ١٠٢ / ٥.

كَانَ يَسْتَحْسِنُ اللَّحْنَ - بمعنى الإيهام - من جارية له فَطْنَةٌ تَأْتِي بِالشَّيْءِ تُرِيدُ غَيْرَهُ، وَتُمِيلُ ظَاهِرَهُ
عَنْ بَاطِنِهِ؛ لِتُبَلِّغَ الْمَقْصُودَ سَيِّدَهَا دُونَ الْحَاضِرِينَ، فَيَقُولُ: [الخفيف]

وَحَدِيثُ أَلَدُهُ هُوَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ يُوزَنُ وَزْنًا
مَنْطِقٌ صَائِبٌ، وَتَلَحَّنُ أَحْيَا نَأْ «وَحَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا»^(١)

أي: خيرُ الحديثِ ما فهِمَهُ صاحِبُكَ الَّذِي تَحِبُّ إِفْهَامَهُ وَحَدَهُ، وَخَفِيَ عَلَى غَيْرِهِ.

ثانيها: أَنَّ التَّعْرِیْضَ لَا بُدَّ أَنْ يُتَوَخَّى لَهُ مُحَاطَبُ فَهْمٍ فَطِنٌ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ بَطِيءِ الذَّهْنِ وَقَلِيلِ الْخَبَرَةِ
بِتَصْرِيفِ الْكَلَامِ؛ فَالتَّعْرِیْضُ فِي حَاجَةٍ إِلَى ذِكَاةِ الْمُتَكَلِّمِ وَدِهَائِهِ فِي اقْتِنَاصِ الْفُرْصَةِ وَتَطْوِيعِ الْعِبَارَةِ
لِتَعْرِیْضِهِ، كَمَا أَنَّهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مُحَاطَبٍ عَلَى مُسْتَوَى مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالْبَصَرِ بِخَفَايَا الْكَلَامِ؛ أَيِ يَسْتَطِيعُ
أَنْ يَقْرَأَ مَا بَيْنَ السُّطُورِ؛ كَمَا يُقَالُ.

ثالثها: أَنَّ التَّعْرِیْضَ لِكُونِهِ لَحْنًا يَسْتَلْزِمُ قَدْرًا مِنْ خَفَاءِ دَلَالَتِهِ، وَلَكِنْ هَذَا الْحَفَاءُ لَيْسَ بِمَنْعٍ مِنْ فَهْمِ
الْمُرَادِ فَهْمًا تَامًا؛ لِقَوْلِهِ: (يَفْهَمُ بِهِ السَّامِعُ الْفَهْمُ مَا يَفْهَمُ بِصَرِيحِهِ).

وَجْهُ الْإِيهَامِ فِي التَّعْرِیْضِ:

وَأَمَّا وَجْهُ الْإِيهَامِ فِي التَّعْرِیْضِ فَكَامِنٌْ فِي أَنَّ عِبَارَةَ التَّعْرِیْضِ حَمَالَةٌ أَوْجُهِ؛ وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ
الرَّازِيُّ (ت ٦٠٦ هـ) بِقَوْلِهِ: «التَّعْرِیْضُ أَنْ يُضْمِنَ كَلَامُهُ مَا يَصْلُحُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَقْصُودِهِ، وَيَصْلُحُ
لِلدَّلَالَةِ عَلَى غَيْرِ مَقْصُودِهِ، إِلَّا أَنْ إِشْعَارَهُ بِجَانِبِ الْمَقْصُودِ أَتَمُّ وَأَرْجَحُ...» وَنَظِيرُهُ أَنْ يَقُولَ الْمُحْتَاجُ
لِلْمَحْتَاجِ إِلَيْهِ: جِئْتُكَ لِأَسَلِّمَ عَلَيْكَ، وَلَأَنْظُرَ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ»^(٢)، وَهَذَا يُذَكِّرُنَا بِقَوْلِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي
الصَّلْتِ فِي مَمْدُوحِهِ: [الوافر]

أَذْكُرُ حَاجَتِي، أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ؟ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ

(١) انظر: البيان والتبيين ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب ٦/ ٤٦٩.

إذا أُنْثِيَ عليك المرءُ يوماً كَفَاهُ مَنْ تَعَرَّضَ لِهَذَا الشَّيْءِ^(١)

إِيهَامُ التَّعْرِضِ حَسَنٌ فِي تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ:

لَا شَكَّ فِي أَنَّ التَّعْرِضَ لِلْمَذْنِبِ بِذَنْبِهِ خَيْرٌ مِنَ التَّصْرِيحِ لَهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُجْرِجُهُ، وَيُخَدِّشُ سِتْرَ الْحَيَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآخَرِينَ، وَقَدْ ذَكَرَ الزَّخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) أَنَّ الْكِنَايَةَ أَسْلُوبٌ حَكِيمٌ فِي تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ وَمُخَاطَبَتِهِمْ؛ إِذْ قَالَ: «أَلَا تَرَى إِلَى الْحُكَمَاءِ كَيْفَ أَوْصَوْا فِي سِيَاسَةِ الْوَلَدِ إِذَا وَجَدَتْ مِنْهُ هَنَةً مُنْكَرَةً أَنْ يُعَرِّضَ لَهُ بِإِنْكَارِهَا عَلَيْهِ وَلَا يُصَرِّحَ. وَأَنْ تُحْكِيَ لَهُ حِكَايَةً مُلَاحِظَةً لِحَالِهِ إِذَا تَأَمَّلَهَا اسْتَسْمَحَ حَالُ صَاحِبِ الْحِكَايَةِ، فَاسْتَسْمَحَ حَالُ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ أَزْجَرُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ يَنْصُبُ ذَلِكَ مِثَالاً لِحَالِهِ وَمِقْيَاساً لَشَأْنِهِ، فَيَتَصَوَّرُ قُبْحَ مَا وَجَدَ مِنْهُ بِصُورَةٍ مَكْشُوفَةٍ، مَعَ أَنَّهُ أَصُونٌ لِمَا بَيْنَ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ مِنْ حِجَابِ الْحُشْمَةِ»^(٢)، وَهَذَا أَيْضاً مِنْ بَابِ (إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ) كَمَا مَرَّ أَنْفَاءً، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا الزَّرْكَشِيُّ (ت ٧٩٤ هـ) فِيهَا سَمَاءً بِالْإِسْطِرَادِ؛ إِذْ قَالَ: «وَهُوَ التَّعْرِضُ بِعَيْبِ إِنْسَانٍ بِذِكْرِ عَيْبٍ غَيْرِهِ»^(٣)، وَقَدْ يَحْسُنُ هَذَا التَّعْرِضُ أَيْضاً مَعَ غَيْرِ الْمَذْنِبِ؛ حَمَلًا لَهُ عَلَى اجْتِنَابِ هَذَا الذَّنْبِ؛ كَأَنْ يَأْتِيكَ مَنْ يَقُولُ لَكَ: أَوْ يُرْضِيكَ مَا فَعَلَ بِنَا فُلَانٍ، قَبَّحَهُ اللَّهُ؟ فَتَقُولُ لَهُ: وَمَاذَا فَعَلَ؟ فَيَجِيبُكَ: طَلَبْتُ مِنْهُ اسْتِقْرَاضَ مَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ؛ فَاعْتَذَرَ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُهُ...؛ أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ.. لَوْ كَانَ فِيهِ ذَرَّةٌ مِنْ مَرْوَةٍ هَلْ كَانَ لِفَعْلِكَ ذَلِكَ مَعِي؟ وَاللَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِ شَرَفٌ لَبَاعَ ثِيَابَهُ أَوْ اسْتَدَانَ وَمَا رَدَّنِي خَائِبًا، حَقًّا إِنَّهُ قَلِيلُ الشَّرَفِ...، وَلَكِنْ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُؤَمِّنَ لِي مَبْلَغَ مِئَةِ دِينَارٍ قَرْضًا حَتَّى شَهْرَيْنِ؟.

وَلَيْسَ التَّعْرِضُ فِي النَّصِيحَةِ فَحْشٌ؛ بَلْ إِنَّ أَعْيُنَ الْحُجَّةِ لِلتَّعْرِضِ مَسِيئٌ؛ لِأَنَّ تَصْرِيحَهَا يُنْفِرُ الْمُنْكَرَ، فَتَأْخُذُهُ الْعِزَّةُ وَالْحَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ، فَيُعْرِضُ عَنْهَا؛ خِلَافًا لِمَجِيئِهَا فِي ثَوْبِ التَّعْرِضِ الَّذِي يَتَلَطَّفُ بِالْخَصْمِ؛ فَيُورِدُ لَهُ الْحُجَّةَ الدَّامِغَةَ فِي الْعِبَارَةِ الدَّمِثَةِ السَّهْلَةِ اللَّيِّنَةِ الَّتِي تَنَالُ الْقَبُولَ.

(١) انظر: عيون الأخبار ٣/ ١٦٨، وشرح ديوان الحماسة ص ١٢٥٠.

(٢) انظر: الكشف ٥/ ٢٥٣.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٠٠.

تحليل نموذج مُشكِلٍ من أساليب التعريض في البيان القرآني:

سنقف عند قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وسياق الآية الكريمة وسباقها يُشيران إلى أن حواراً عنيفاً جرى بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه؛ فهو يدعوهم إلى التوحيد وهم يُصرُّون على عبادة الأصنام التي ينحتونها بأيديهم، فأقسم إبراهيم عليه السلام أن يكيد أصنامهم؛ ليُبين لهم حساً عجز آلهتهم، ثم أتى تلك الأصنام على غفلة من القوم، فحطمها، وجعلها قطعاً صغيرة إلا كبيرها، فلما أتى القوم، ورأوا هول ما أصاب آلهة المعبد، سألوا عن الفاعل، فأتى إبراهيم؛ لأنه كان يُسفه تلك الآلهة ويتوعدّها على الملأ، أتوا به إلى المعبد الذي فيه الأصنام، وهم على يقين لا يُخامرُه شك بأنّه الفاعل؛ لما عرِفَ عنه من المُجاهرة في معاداة هذه الأصنام وتسفيهاها، ودليل ذلك أنّهم قبل أن يأتوا به أو يسألوه: ﴿قَالُوا قَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] ومفعول ﴿يَشْهَدُونَ﴾ محذوف، وتقديره: يشهدون بأنّه توعد الآلهة وذكرها بالسوء، أو يشهدون إقراره بذنبه، أو عقوبته على فعلته^(١) ليكون عبرة، ولو أنّهم ما كانوا متأكّدين من تورط إبراهيم عليه السلام في تكسير أصنامهم لما قالوا ذلك، المهم أنّهم أتوا به، فسألوه سؤالاً مُحكماً: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يٰأَيُّهَا يٰأَيُّهَا يٰأَيُّهَا﴾ [الأنبياء: ٦٢] فأجاب: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وألقمهم الحجر بقوله: ﴿فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وقبل الكلام على إيهام التعريض ههنا لا بُدّ من قراءة هذه الآية الكريمة في سياقها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَمَلَوا عَنْكَوْنَ ٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٥٤ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ٥٥ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٥٦ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ٥٨﴾

(١) انظر: الكشف ١٥٢/٤.

لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا ابْنِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَاءُوا لَهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ [الأنبياء: ٥١-٦٩].

إيهام التعريض واقع في قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ فَإِنَّ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ حمله على معناه الظاهر الذي هو نفي إبراهيم التهمة عن نفسه وإسنادها إلى كبير الأصنام!!، لقوله: (بل فعله) أي: لم أفعله أنا، بل فعله كبيرهم...، وراح هذا الفريق من المفسرين يُسَدِّدُ وَيُقَارِبُ؛ ليجد مخرجاً حسناً لهذا القول؛ لأنه مُحَالِفٌ للواقع في نظرهم، ومعلوم أن هذا القول - بحسب فهمهم - كَذِبٌ لا ينبغي للمؤمن، فضلاً عن النبي. فراحوا يجتهدون في الاحتيال لتخليص إبراهيم (عليه السلام) من شبهة الكذب التي نسبوها إليه حين فهموا الكلام على ظاهره وبدلالته اللفظية الوضعية، ولم يفطنوا أن لهذا الكلام معنى تعريضاً مُتَصَيِّداً من السياق.

ومن العجيب أن بعض هؤلاء أعاد الضمير في ﴿كَبِيرُهُمْ﴾ على أصابعه؛ واسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ على إصبعه الأكبر؛ أي إن إبراهيم (عليه السلام) نوى في قلبه أن إصبعه الكبير هو الذي حطَّم الأصنام، بقولهم: «وَوَرَى بِأَصْبَعِهِ [يقصدون إبراهيم] تَحَاشِيًا لِلْكَذِبِ»^(١)، وهذا - كما ترى - تَمَحُّلٌ كَسِيحٌ لَا يُنْظَرُ إِلَيْهِ؛ لأنه يذهب برؤاء الآية الكريمة، ويطمس بياها، ويذهب بالمقصد العقدي الذي من أجله فعل إبراهيم (عليه السلام) فعلته وقال قوله، إذ لم تكن غايته تحطيم الأصنام، بل تحطيم فكرة الشرك في نفوس الناس من خلال الحجة والإقناع.

(١) انظر: أيسر التفاسير ٤٢٣/٣.

ولكنَّ جمهورَ المُفسِّرين لم ينظُر إلى الكلام على ظاهره، بل أخذَ بدلالة فحوى جوابِ سيِّدنا إبراهيمَ عليه السلام، وأنَّه تعريضٌ بهؤلاء القومِ وبِعَجْزِ آلهتهم، وهالك بسطُ المسألة.

فقد توهَّم الطَّبْرِيُّ (ت ٣١٠ هـ) أنَّ إجابة إبراهيمَ عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ على الحقيقة، وأنَّها كَذِبٌ صريحٌ أرادَ به إبراهيمُ اتِّقاءَ عذابهم، إذ قال: «وقد زَعَمَ بعضُ مَنْ لا يُصدِّقُ بالآثار، ولا يقبلُ من الأخبارِ إلَّا ما استفاضَ به النُّقلُ من العوامِّ = أنَّ معنى قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ إنَّما هو: بل فعله كبيرهم هذا، إنَّ كانوا ينطقون فاسألوهم؛ أي: إنَّ كانتِ الآلهةُ المكسورةُ تنطقُ، فإنَّ كبيرهم هو الذي كَسَرَهُمْ. وهذا قولٌ خلافُ ما تظاهرت به الأخبارُ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله أنَّ إبراهيمَ لم يكذبْ إلَّا ثلاثَ كَذَبَاتٍ؛ كلُّها في الله، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله لسارة: هي أختي^(١). وغيرُ مُستحيلٍ أن يكونَ الله تعالى ذكَّره أذنَ لخليله في ذلك [أي في الكذب]، لِيُقرِّعَ قومه به، ويحتجَّ به عليهم، ويعرِّفهم موضعَ خطيئهم، وسوءَ نظريهم لأنفسهم، كما قال مؤدِّنُ يوسفَ لإخوته: ﴿أَيَّتَهَا الْعِزُّ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] ولم يكونوا سَرَقُوا شيئاً^(٢).

ورأيُ الطَّبْرِيِّ هذا ردُّه كثيرٌ من العلماء؛ منهم الرَّازِيُّ (ت ٦٠٦ هـ) بقوله: «فلأنَّ يُضافَ الكذبُ إلى رُواتِهِ [أي رُواة الحديث] أولى من أن يُضافَ إلى الأنبياء عليهم الصَّلَاة والسَّلَام، والدَّلِيلُ القاطعُ عليه أنَّه لو جازَ أن يكذبوا المصلحةَ ويأذنَ الله تعالى فيه، فلنَجُوزُ هذا الاحتمالَ في كُلِّ ما أخبروا عنه، وفي كُلِّ ما أخبرَ الله تعالى عنه، وذلك يُبطلُ الوثوقَ بالشَّرائعِ...، ثم إنَّ ذلك الخبرَ - لو صحَّ - فهو محمولٌ على المعارضِ؛ على ما قالَ عليه السلام: (إنَّ في المعارضِ لَمَندوحةً عن الكذب)^(٣)»^(٤)، ثُمَّ رَدَّ الرَّازِيُّ (ت ٦٠٦ هـ) على كُلِّ واحدةٍ من هذه الشُّبُهَةِ الثلاثِ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، و﴿إِنِّي

(١) انظر: مُسند الإمام أحمد ٤/ ٣٣١.

(٢) انظر: تفسير الطَّبْرِيِّ ١٨/ ٤٦١-٤٦٢.

(٣) انظر: الجامع الصَّغِير من أحاديث البشير النَّذِير ١/ ٢٧٢، وفيه أنَّه حديثٌ ضعيف.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب ٢٢/ ١٥٦.

سَقِيمٌ ﴿١﴾ وقوله لسارة: قولي: (إِنَّكَ أُخْتِي)، وردَّ أيضاً على تمثيل الطَّبْرِيِّ (ت ٣١٠هـ) بقول المنادي في غير إخوة يوسف عليه السلام.

وَأَمَّا التَّأْوِيلُ الْجَلِيلُ لِهَذَا التَّعْرِيزِ فَهُوَ قَوْلُ الزَّمْخَشَرِيِّ (ت ٥٣٨هـ): «هذا من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الرّاضية من علماء المعاني. والقول فيه أن قصداً إبراهيم - صلوات الله عليه - لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها؛ على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم السُّجَّةَ وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رقيق، وأنت شهيرٌ بحسن الخط: أنت كتبت هذا؟ وصاحبك أُمِّي لا يُحَسِّنُ الخطَّ ولا يَقْدِرُ إِلَّا على خرمشة فاسدة، فقلت له: بل كتبتَه أنت! كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به، لا نفيه عنك وإثباته للأُمِّي أو المُخْرَمَش؛ لأنَّ إثباته - والأمرُ دائرٌ بينكما - للعاجز منكما استهزاءً به وإثباتاً للقادر»^(١)، وذكرَ تخریجاتٍ أخرى ما توخَّيناها أَجْلُها وأمدحُها، والله أعلم. «ولو أنَّ الطَّبْرِيَّ (ت ٣١٠هـ) تنبَّه إلى أنَّ الآيةَ تعريضٌ، وأنَّ دلالتها الظَّاهرة ليست هي الغاية منها؛ ما قَبِلَ تخریجها على هذا الوجه الذي يَقْدَحُ في عصمة الأنبياء، ويطرق الشكُّ إليها»^(٢).

ثمَّ بعد أن عَرَضْنَا الرَّأْيَيْنِ، وأظهرنا أثرَ التَّعْرِيزِ في إيهامِ المتلقِّي بينَ المعنيين الحقيقيِّ والمجازيِّ المتصيّد من دلالة الفحوى، لا بُدَّ من تأكيد رأي الزَّمْخَشَرِيِّ (ت ٥٣٨هـ) ومَن تَابَعَهُ، وذلك بِجُمْلَةٍ أمورٍ منها:

١- لو سلَّمْنَا جَدَلًا بأنَّ هذا القولَ ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ مقصودٌ على ظاهره، وأنَّ سيِّدنا إبراهيمَ أرادَ أن يكذبَ عليهم؛ لَيُفْلِتَ مِنْ عقوبتِهِمْ، فهل يُعْقَلُ أن يُلجَأَ إلى هذه الكذبة التي لا يقبلها عقل؟ كان بإمكانه أن يقول: لا لم أفعل هذا، ولا أعرف مَنْ فعله، ولكن لا يقول: إِنَّ الحجرَ فعلَ ذلك!! وهذا يدلُّك على أَنَّهُ إِنَّمَا أرادَ أن يُلجئَهُم إلى الاعترافِ

(١) انظر: الكشف ٤/ ١٥٢-١٥٣.

(٢) انظر: التَّعْرِيزُ في القرآن الكريم ص ٥١.

بأفواههم بأن آلهتهم عاجزة عن ذلك؛ لكي يقولوا له: (أنت كاذب! فأتى لهذا الحجر أن يفعل ذلك؟)، وهذا على مبدأ (من فمك أدبتك)، بأمانة أنه قال لهم بعد ذلك: ﴿فَنَشْكُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ﴾ على سبيل الطلب التعجيزي.

٢- إبراهيم (عليه السلام) نبي ذاك الزمان، بعثه الله تعالى ليدعو الناس إلى عبادة الخالق الواحد، ولكي ينبذوا تلك الآلهة الحجرية المتعددة وراء ظهورهم، وقد نحتوها بأيديهم، فما قيمة أن يكسر الأصنام فقط، ثم يصمت ويختبئ منهم، دون أن يصدع بكلمة التوحيد، ما دائموا سيصنعون أصناماً غيرها وسيعودون إلى عبادتها؟ ألا ترى أن الأهم في الأمر هو أن يصدع بكلمة الحق والتوحيد، وأن يظهر زيف ادعاءات كهنة المعبد وبطلانها؛ ليكسر جلاله هذه الأصنام في قلوب الناس، عندما يأتيهم بالحجة والبرهان على عجزها عن الدفاع عن أنفسها، فضلاً عن أن تنفع الناس أو تضرهم.

٣- لذا فإنه عليه السلام عندما رأى عنادهم - كما يشير سياق الآية - لم يجد بداً من أن يقرن دعوته الكلامية بشيء حسي يخرج كهنة هذا المعبد ويلزمهم الحجة أمام الناس أجمعين، بل لعل سيدنا إبراهيم كان يعلم أنه إن كسر هذه الأصنام فسوف يجمعون له الناس طراً؛ ليروا محاكمته ويعتبروا بعذابه؛ فأقدم على فعلته هذه؛ ليجمعوا له الناس قاطبة، وتكون له الفرصة الذهبية في إظهار الحق وتكذيب الباطل أمام الناس كافة؛ لأنه - وإن مات بعدها - سيكون مطمئناً أنه بلغ الرسالة للناس أجمعين، ويين دجل هؤلاء الكهنة وضلال من يعبد الأصنام، ولو كانت روحه ثمناً لذلك.

٤- إن إبراهيم (عليه السلام) لم يكن خائفاً حتى يضطر لأن ينكر أنه هو الذي كسر الأصنام، والدليل على ذلك أنه قبل أن يكسر الأصنام كان مشتهراً بين الناس بأنه موحد وأن عداوته لعبادة الحجارة عداوة سافرة يذكرها بين الناس ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾؛ فهو مشهور برفضه لعبادة هذه الحجارة المنحوتة التي لا تضر ولا تنفع وتسفيه لعبادتها، فهل يُعقل بعد ذلك أن يخاف ويكذب ويقول لهم: إن هذا الصنم هو الذي كسرهم وليس أنا!!

ثُمَّ لِنَقْرُضَ جَدَلًا أَنَّهُ اسْتَبَدَّ بِهِ الْخَوْفُ فِي ذَاكَ الْمَوْقِفِ الرَّهيبِ، وَخَافَ عِقَابَهُمْ، فَهَلْ يُعْقَلُ مِنْ خَائِفٍ مِنْ قَوْمٍ يَتَوَعَّدُونَهُ، أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾، أَهَذَا كَلَامُ خَائِفٍ؟ هَذَا كَلَامٌ لَا يَقُولُهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ مُتَوَكِّلٌ عَلَى رَبِّهِ ثَبَّتُ الْجَنَانَ، ثُمَّ هَلْ يُعْقَلُ أَنَّ رَجُلًا بِهِذِهِ الشَّجَاعَةِ وَالْفِطْنَةِ يَخَافُ وَيَكْذِبُ كَذِبًا غَيْرَ مَنْطِقِيَّةٍ! وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْخَوْفَ لَمْ يَعْرِفْ سَبِيلًا إِلَى قَلْبِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ تَحْطِيمِ الْأَصْنَامِ جَاءَهُ النَّاسُ وَرَأَوْهُ، فَلَمْ يَخَفْ أَوْ يَتَرَجَّعْ، بَلْ بَقِيَ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَهَذَا مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّ مِنْ شَيْعِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَيُّفَكَاءَ إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي التُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَّغَ إِلَهُ الْهَنَمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَّغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِيضُونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿[الضَّافَات: ٨٣-٩٧].

٥- إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَسَرَ الْأَصْنَامَ عَنْ سَابِقِ إِصْرَارٍ وَتَصْمِيمٍ وَتَحْطِيطٍ أَيْضًا ﴿وَتَأَلَّوْا لِأَكْكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُّوا مُدْبِرِينَ﴾، وَأُظُنُّ أَنَّهُ تَرَكَ الصَّنَمَ الْأَكْبَرَ عَلَى عَمْدٍ؛ وَهِيَآ جَوَابَهُ السَّاحِرَ هَذَا؛ لِيُوقِعَهُمْ فِي حَرَجٍ وَيَكُونُوا أَمَامَ خِيَارَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَقُولُوا: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ كَاذِبٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَلَهَةَ عَاجِزَةٌ، وَيَجِبُ أَنْ نُحَرِّقَكَ، وَهَنَا يَكُونُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ انْتَصَرَ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ أَجْبَرَهُمْ أَنْ يَعْتَرِفُوا بِأَفْوَاهِهِمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَلَهَةَ عَاجِزَةٌ، فَحَطَّمْ عَقِيدَتَهُمُ الْبَاطِلَةَ بَعْدَ أَنْ حَطَّمْ أَصْنَامَهُمْ، وَلَا مُشْكَلَةَ عِنْدَهُ إِذَا حُرِّقَ بَعْدَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ صَاحِبُ دَعْوَةٍ يُرَخِّصُ رُوحَهُ فِي سَبِيلِهَا.

وَالْخِيَارُ الثَّانِي أَنْ يَتَظَاهَرَ هَؤُلَاءِ الْكَهَنَةُ بِتَصْدِيقِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنْ كَبِيرَهُمْ هُوَ الَّذِي كَسَرَ الْأَصْنَامَ الْأُخْرَى، وَهَنَا سَيَحْدُثُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيَقِي حُرًّا طَلِيقًا، وَسَوْفَ يُفْلِتُ مِنْ

عقابهم، وسوف تحدث بين العامة جلبة كبيرة؛ فمن قائل: لماذا حطم الصنم الأكبر آلهتنا التي نعبدُها وآباؤنا منذ زمن طويل؟ ومن قائل: مُحال أن يتمكّن هذا الحجر من فعل ذلك؛ لأنّه عاجز، كيف يكسرُها وهو مثُلها؟ ثمّ يبدأ يُراجع نفسه.. كيف أعبدُ إلهاً عاجزاً عن الدِّفاع عن نفسه؟ وإذا كان يعجزُ أن يدافع عن نفسه فأنّى له أن يدفع عني الضّرّ والأذى؟! وكأنّي بإبراهيم عليه السلام أراد أن يلقي حجراً في تلك المياه الراكدة؛ ليحفّزهم على أعمال عقولهم؛ للتحرّر من عناكب الجهل والخرافة، وعندما تبصّر العامة بالحق، فلا قبيل للملك بمواجهة هؤلاء مهما بلغ استبداده الفكري؛ لأنّه يكون قد سقط في يده هو وكهنة المعبد الكاذبين، وعلى كلّ هذه الخيارات فإنّ دعوة إبراهيم - عليه السلام - دعوة التوحيد واطّراح الأوثان هي المنتصرة.

هذه نماذج مختصرة عن إيهام المخاطب في فنون البيان، ولا سيّما الكناية، وهنا ينبغي التنبيه أنّ من صفات الكناية الجيدة أن تكون من ثقافة المجتمع الذي تُقال فيه ومن حياته؛ لأنّ الكناية تختلف باختلاف الأذواق والبيئة والزمن، فلا ينبغي لنا اليوم أن نكنّي عن الكريم بـ (كثير الرّماذ) في عصر اللّيزر، أو بـ (مهزول الفصيل) وقد كان العربيّ إذا جاءه الضيف سقاه من لبن النّاقة أو ذبحها فحرّم الفصيل لبن أمّه أو حرّم أمّه كلّها إنّ قدّمت قرى للضيفان، فيبقى هذا الفصيل مهزولاً.. فهل من المناسب اليوم مدح الكريم القاطن في المدينة بأنّه (مهزول الفصيل) في عصر استغنى فيه أهل المدن عن تربية المواشي؟ وكذا لا ينبغي أن نُعبّر عن كثرة ضيفانه بأنّه جبان الكلب! في عصر الدّارات والقصور والحُرّاس والحَدَم، وليس لنا أن نمدح الشّجاع بالقول: فلانّ (طويل النّجاد)؛ لأنّنا في هذه الأيام لا نرى سيفاً ولا نجاداً...

الفصل الثالث

من مواطن الإيهام في علم المعاني

المبحث الأول: الوقف والابتداء، وأثره في إيهام المتلقي أو إزالة الإيهام.

المبحث الثاني: عود الضمير، وأثره في إيهام المتلقي.

المبحث الثالث: الحذف، وأثره في إيهام المتلقي.

المبحث الرابع: الإنشاء الطلبي (القسم، والنهي، والأمر، والاستفهام)، وأثره في إيهام المتلقي.

الفصل الثالث

من مواطن الإيهام في علم المعاني

تمهيد:

النحو طريق البلاغة...

ونحن دائماً أمام لغتين؛ لغة الخطاب ولغة الأدب والشعر، وقد اهتم النحاة بالأولى؛ لأن جهودهم مقصورة على إقامة المعنى الأصلي بنحوهم؛ ليضمنوا للكلام استقامته، وللمتكلم العظمة من الزلل؛ لأن النحو إذا فسد فسد الكلام، وأما البلاغيون فأكثر ما يتعاطون لغة الأدب والشعر فضلاً عن البيان القرآني الذي من أجله قامت معظم الدراسات البلاغية، فالبلاغيون موكلون بفضول الكلام على معناه الأصلي من جرأ ما يشتمل عليه من الخصائص البلاغية، وهم يهتمون بمطابقة الكلام لمقتضى حالي المتكلم والمخاطب، ويدرسون طرق القول التي تمكن المعنى في النفس وتوضحه، فشرف المعنى هو هم البلاغة، واستقامته هم النحو.

علم المعاني هو العلم الذي نعرفنا صياغة العبارة صياغة تناسب تماماً المقام الذي نقال فيه، وتعبّر تعبيراً دقيقاً عن القصد الذي نبتغيه^(١)، ومسائل علم المعاني وقضاياها مرآة تعكس عبقرية المتكلم وقدرته على تطويع اللغة وأساليبها، وجملة القول: إن علم المعاني يبحث في مناسبة المقال للمقام، ومناسبة كل كلمة أو جملة لما يسبقها وما يليها مع مراعاة السياق العام والمقام الذي فيه قيل هذا الكلام.

وعلم المعاني والنحو من عبادة واحدة، إلا أن النحو موكّل بضبط أواخر الكلمات ليُعرف خبر كان من اسمها، وللنحوي أن يُشير إلى الحذف في عبارة ما، وأن يُبين حكم هذا الحذف أجائز هو أم

(١) انظر: المفصل في علوم البلاغة ص ٦٣.

واجب؟ وله أن يُقدَّر هذا المحذوف، وله أيضاً أن يُبين جواز التقديم أو وجوبه أو امتناعه، ولكنّ البلاغيّ هو المعنيّ بتلّمس السّرّ الجماليّ المُحتبى وراء ذلك الحذف، والجمالية التي أضفاها هذا التقديم وأثره في الجملة والسياق والمعنى العام، وبالإمكان القول: إنّه بحسب النحويّ أن يذكر المحذوف؛ لتعرّف أسباب الإعراب، فإذا تكلم عن الجمال اقتحَم الخطّ الفاصل بين العِلَمين، ودخل في نطاق البلاغة.

وما من مُشتغلٍ بعلم المعاني إلّا ويدرك الجهود التي بذلها البلاغيّون في الدرس النحويّ فيما سُمي بعد بعلم المعاني، وكم استدرك هؤلاء على النحاة الذين غالباً ما يُهمِلون الوظيفة الدلاليّة للتركيب اللّغويّ، وتكون رؤيتهم قاصرة على الصّناعة الجافّة، مُقيّدة بقضية العامل والمعمول وغيرها، فمن ذلك أنّ النحاة المتقدّمين لم يبحثوا في الأسباب المعنويّة والجماليّة لظاهرة التقديم والتأخير في اللّغة، بل أشاروا إلى العناية والاهتمام سبباً للتقديم، فقد ذكّر ذلك سيبويه في أثناء كلامه على الفعل والمفعول؛ إذ قال: «كأنّهم إنّما يُقدّمون الذي بيّنه أهمُّ لهم، وهم بيّنه أغنى، وإن كانا جميعاً يهتمّانهم ويعنيانهم»^(١)، ثمّ أتى عبد القاهر (ت ٤٧٤هـ) فاستفاض في بيان أسباب التقديم والتأخير، وقسمه إلى تقديم على نيّة التأخير، وتقديم لا على نيّة التأخير، وقال مُعرّضاً بالنحاة من سيبويه فصاعداً: «وقد وقع في ظنون الناس أنّه يكفي أن يُقال: (إنه قدّم للعناية، ولأنّ ذكره أهمُّ)، من غير أن يُذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبِمَ كان أهمُّ؟ ولتخيلهم ذلك، قد صغّر أمر (التقديم والتأخير) في نفوسهم، وهوّنوا الخطب فيه، حتّى إنّك لترى أكثرهم يرى تتبّع والنظر فيه ضرباً من التكلّف. ولم تر ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه»^(٢)، وفي عبارة ذات مغزى يُعبّر ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) عن التفريق بين عمل النحويّ والبلاغيّ بقوله: «موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبه يُسأل عن أحوالهما اللفظيّة والمعنويّة. وهو والنحويّ يشتركان في أنّ النحويّ ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من الوضوح اللّغويّ، وتلك دلالة عامّة، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة،

(١) انظر: سيبويه ١/ ٣٤.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٠٨.

وهي دلالة خاصة، والمرادُ بها أن يكونَ على هيئةٍ مخصوصةٍ من الحُسْنِ، وذلك أمرٌ وراءَ النَحْوِ والإعرابِ، ألا ترى أنَّ النَحْوِيَّ يفهمُ معنى الكلامِ المنظومِ والمنثورِ، ويعلمُ مواقعَ إعرابه، ومع ذلك فإنه لا يفهمُ ما فيه من الفصاحة والبلاغة. ومن ههنا غلِطَ مفسِّروُ الأشعارِ في اقتصارِهم على شرحِ المعنى، وما فيها من الكلماتِ اللُّغويَّةِ، وتبيينِ مواضعِ الإعرابِ منها، دونَ شرحِ ما تَصَمَّنَه من أسرارِ الفصاحة والبلاغة»^(١).

والحقُّ أنَّ علمَ المعاني الذي أرسى أصوله عبدُ القاهر (ت ٤٧٤ هـ) إنَّما هو معاني النَحْوِ، واللافت للنَّظَرِ أنَّ مُصَنِّفاتِ الرِّجالِ إنَّما تذكُرُ عبدَ القاهرَ بلقبِ (النَّحْوِيِّ)، وعِلْمُ النَحْوِ والمعاني بينهما صلةٌ لا انفصامٌ لها، ولكنَّ الشَّقَاقَ الحادثَ بينهما يتحمَّلُ تَبَعَتَهُ النَّحْوِيُّونَ المتأخرونَ الذين غفلوا عن دراسةِ الظَّواهرِ النَّحْوِيَّةِ مُتَّصِلَةً بالتركيبِ اللُّغويِّ، وقَصَّروا مُهَمَّتَهُم على البحثِ في ضَبْطِ أواخرِ الكلماتِ، ولم يتنبهوا إلى البناءِ الفنيِّ وقيمتِهِ الجماليَّةِ في هذه التراكيبِ، وخاصَّةً حينَ سيطرتِ التَّرْعَةُ المنطقيَّةُ على دراساتِ النَّحْوِيِّينَ تلكَ، فالفرقُ أنَّ النَّحْوَ يدرسُ الكلمةَ وعلاقتها بما قبلها وما بعدها من حيثُ العاملُ والمعمولُ بينما يدرسُ عالمُ المعاني التَّركيبَ العربيَّ مُعْتَنِيًا بقيمتِهِ الفنيَّةِ والجماليَّةِ. وإنَّ من فنونِ القولِ التي يرصدها علمُ المعاني ما له أثرٌ في إيهامِ المتلقِّي وفي اتِّساعِ دلالةِ الخطابِ اللُّغويِّ، ومن ذلك:

اختلافُ تعليقِ شِبْهِ الجُمْلَةِ، وقد اختلفَ المفسِّرونَ والمعرِّبونَ وشُراحُ الدَّواوينِ في تعليقِ كثيرٍ من أشباهِ الجُمْلِ، تبعاً لتعددِ المعاني والدَّلالاتِ التي لَمَحَوها، والتي تحتُمِلُها ألفاظُ النَّصِّ، ومن ذلك قوله تعالى في تحريمِ الأرضِ المقدَّسةِ على بني إسرائيلَ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، فدلالةُ الآيةِ تحتُمِلُ معانيَ مُخْتَلِفَةً؛ لأنَّ الظَّرْفَ ﴿أَرْبَعِينَ﴾ مُتَحْتَاجٌ إلى تعليقٍ معنويٍّ، وبحسبِ هذا التَّعليقِ يَخْتَلِفُ تفسِيرُ الآيةِ وإعرابُها ووقوفُها؛ وهذه الدَّلالاتُ:

- أولُها: بتعليقِ الظَّرْفِ ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ بالخبرِ ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾، وتكونُ مُدَّةُ التَّحْرِيمِ أربعينَ سنةً.

(١) انظر: المثل السائر ١/ ٣٧-٣٨.

• وثانيها: بتعليق الظرف بالفعل ﴿يَتِيهُونَ﴾ فتكون مُدَّةُ التَّيِّهِ أربعين سنةً، أي: يتيهون أربعين سنةً، والتَّحْرِيمُ مُؤَبَّدٌ.

• وثالثها: بتعليقه بالفعل ﴿يَتِيهُونَ﴾ باسم المفعول ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ والمعنى عندئذٍ أَنَّ مُدَّةَ التَّحْرِيمِ والتَّيِّهِ أربعون سنةً^(١).

أو لاختلاف الإعراب، أو اختلاف المعاني النحويّة، ومعلومٌ أَنَّ المعنى أصلٌ والإعراب فرعٌ يختلف باختلاف أصله، وإذا تعدّدت احتمالات الإعراب في كلمة أو جملة فذلك دليلٌ على القوّة التعبيريّة في اختزال العديد من المعاني في نظم العبارة^(٢)، وهذا ينبئ بالطاقة التعبيريّة الغزيرة في الكلام، وأكثر ما ترى هذا في القرآن الكريم، حيث يتفرّع عن الكلمة أو التعبير الواحد أعرابٌ متعددة لمعانٍ متباينة وصحيحة معاً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلُهُنَّ فَأَتَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١]، والضَّرَارُ - كما ذكر مجاهد (ت ١٠٤هـ) - أَنْ يُطَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ تَطْلِيقَةً، ثُمَّ يُرَاجِعَهَا عِنْدَ آخِرِ يَوْمٍ يَبْقَى مِنَ الْأَقْرَاءِ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا، ثُمَّ يُرَاجِعَهَا عِنْدَ آخِرِ يَوْمٍ يَبْقَى مِنَ الْأَقْرَاءِ، يُضَارُّهَا بِذَلِكَ^(٣)، فقد عبّرت الآية الكريمة عن معنيين متباينين مقصودين مُستفادين من المصدر ﴿ضِرَارًا﴾؛ لآته يُفِيدُ الْعِلَّةُ؛ أي: ولا تَمْسِكُوهُنَّ لِأَجْلِ الْإِضْرَارِ، فَيُعَرَّبُ مَفْعُولًا لِأَجْلِهِ^(٤)، ويُفِيدُ أَيْضًا معنى الحال، أي: ولا تَمْسِكُوهُنَّ مُضَارِّينَ بِهِنَّ، فَيُعَرَّبُ حَالًا مِنَ الْفَاعِلِ^(٥)، وقد قال العُكْبَرِيُّ (ت ٦١٦هـ): «قوله تعالى: ﴿ضِرَارًا﴾: مفعولٌ مِنْ أَجْلِهِ، ويجوزُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ؛ أي مُضَارِّينَ؛

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٠/ ١٩٠، ومنار الهدى في بيان الوقف والابتداء ١/ ٢١٣-٢١٤.

(٢) انظر: اتّساع الدلالة في الخطاب القرآني ص ٩٨.

(٣) انظر: تفسير مجاهد ص ٢٣٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٨/ ٥، وتفسير ابن أبي حاتم ١/ ٧٧٣، وتفسير القرطبي ٣/ ١٥٦،

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه المنسوب للزجاج ١/ ٣١٠، وتفسير البيضاوي ١/ ١٤٣، والبحر المحيط

كقولك: جاء زيدٌ ركضاً^(١)، وكلا المعنيين المتباينين المرادين عبّرَ عنهما بلفظٍ واحدٍ. ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فمن أعرب ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ اسماً معطوفاً يرى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويلَ المتشابه، ومن أعربها مبتدأ، فالراسخون في العلم عنده لا يعلمون تأويلَ المتشابه، وإنما يؤمنون به؛ لأنه من عند الله^(٢).

أو لاختلاف معادِ الضمير؛ كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧] فإن الضمير (الهاء) في ﴿ميثاقه﴾ يحتمل مرجعين مختلفين، إما أن يعود الضمير على اسم الجلالة (ميثاق الله) أو على ﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾، وكلاهما يصح^(٣) وكذلك قوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] فالضمير في ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ لها ثلاثة مراجع محتملة؛ أولها ﴿يُوسُفَ﴾ والمعنى: وتكونوا من بعد يوسف قوماً صالحين، وثانيها (القتل المفهوم من الفعل) ﴿اطْرَحُوهُ﴾ والمعنى: وتكونوا من بعد قتله قوماً صالحين، وثالثها (الاطراح أرضاً) ... يقول الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ): «﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي بعد يوسف؛ على معنى: بعد الفراغ من أمره، أو من بعد قتله أو طرحه، فالضمير إما ليوسف أو لأحد المصدرين المفهومين من الفعلين»^(٤)، وهذا يشير إلى أثر الضمير في اختزال الألفاظ واختزان المعاني.

أو لاختلاف المتكلم دون النص على ذلك، ومعلوم أن آيات كثيرة في القرآن الكريم تحتمل الإسناد إلى غير واحدٍ من المتكلمين، وهذا يقضي إلى الاتساع في فهم العبارة؛ لأن أبعاد الكلام إنما

(١) انظر: التبيان في إعراب القرآن ١/ ١٨٣.

(٢) انظر: النشر في القراءات العشر ١/ ٢٢٧، ومنار الهدى في بيان الوقف والابتداء ١/ ١٢٧. ومن أسرار الجمل الاستثنائية ص ٣٢٤-٣٢٥. وفيه إحالات وافية على مظان المسألة.

(٣) انظر: تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) ١/ ١١٣، وزاد المسير في علم التفسير ١/ ٤٨.

(٤) انظر: تفسير الألوسي (روح المعاني) ٦/ ٣٨٣.

تتكشف للمتلقّي حين يعرف هويّة المتكلّم أو القائل والمقول فيه والمقام الذي فيه جرى التّخاطب، ومعلوم عند البيّانيّ أنّه قد يكون للعبارة الواحدة إيجاءات ومعاني ضمنيّة متعدّدة بتعدّد القائلين. والمعاني السّياقيّة لكلام يصدر عن الملائكة - مثلاً - مُختلفة عن تلك التي تصدر عن أصحاب السّعير، ومن أمثلة هذا قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملوك: ٨-٩]، فتعبير ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة لأهل السّعير، وفيه ما فيه من التّوبيخ والإهانة، ويحتمل أن يكون من تمام كلام الكفّار للمُنذِر لهم في الحياة الدّنيا على جهة الاستهزاء والسّخرية، وقد قال الرّازي (ت ٦٠٦ هـ): «في الآية وجهان؛ الوجه الأوّل: وهو الأظهر أنّه من جملة قول الكفّار وخطابهم للمُنذرين. الوجه الثّاني: يجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفّار، والتّقدير أن الكفّار لما قالوا ذلك الكلام، قالت الخزنة لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾»^(١).

أو لاختفاء الفصل الصّوتيّ المعنيّ بالكشف عن المعاني المرادة أو تغييبه عمداً، علماً أن استحضار تلك المفاصِل الصّوتية في الأحداث الكلاميّة الحيّة يعصم السّامع من الوهم والوقوع في مزالق اللّبس، وتغييب الفصل الصّوتيّ قد يُفضي إلى اللّبس في بنية الكلمة الواحدة، أو في التّركيب، كما تقول: (سيأتي * بكبري) أو (سيأتيك * بكر)، و(هي في هواة تحت * رق) أو (هي في هواة تحترق)، و(حلاي) أو (حلا * لي) و(قال * الملّك هو الصّالح) أو (قال الملّك: هو الصّالح)... إلخ، والملاحظ من الأمثلة أن تغييب الفصل الصّوتيّ أدّى إلى تداخل بين الوحدات الصّرفية أو الوحدات الصّوتية، وهذا ستره وافيّاً - إن شاء الله - في الكلام على الوقف والابتداء وأثره في إيهام المتلقّي أو رفع هذا الإيهام.

ومِمّا لا ينبغي الغفلة عنه أثر النّبر والتّنعيم في توجيه المعاني، وإزاحتها عن معانيها الوضعيّة أحياناً، فللتّنعيم أثر في تحديد المعنى النّحويّ المراد من العبارة، ومثال ذلك تراه في قول صدر الدّين ابن الوكيل: [الطّويل]

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٣٠/ ٥٨٧.

وَبِي مَنْ قَسَا قَلْبًا وَلَانَ مَعَاطِفًا إِذَا قُلْتُ: أَدْنَانِي، يُضَاعِفُ تَبْعِيدِي

أَقْرَبِرُقُّ إِذْ أَقُولُ: (أَنَا لَهُ) وَكَمْ قَالَهَا يَوْمًا، وَلَكِنْ لَتَهْدِيدِي^(١)

أَفَادَ الشَّاعِرُ ههنا من ظاهرة التَّنْغِيمِ الصَّوْتِيّ؛ فَالشَّاعِرُ يَقُولُ: (أَنَا لَهُ) مُقَرَّرًا بِأَنَّ الْحَبِيبَةَ قَدْ مَلَكَتْ عَلَيْهِ فُؤَادَهُ، وَأَسْرَتْ لُبَّهُ، وَشَغَفَتْهُ حُبًّا، فَصَارَ مُتَيِّبًا بِهَا، وَأَسِيرًا طَيِّعًا لِحُبِّهَا، وَكَأَنَّهُ عَبْدٌ مَمْلُوكٌ لَهَا...، وَكَذَا الْحَبِيبَةُ تَقُولُ أَيْضًا كَمَا قَالَ: (أَنَا لَهُ)، وَهَذَا يُؤْهِمُ السَّامِعَ أَنَّ لِلشَّاعِرِ فِي قَلْبِ حَبِيبَتِهِ مَا لَهَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْحُبِّ وَالْحَنَانِ وَلِيْنِ الْجَانِبِ، وَلَكِنْ شَتَّانَ مَا بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، فَالشَّاعِرُ قَصَدَ بِقَوْلِهِ: (أَنَا لَهُ) أَيُّ أَنَا عَبْدٌ لِحَبِيبِي وَمَلِكٌ يَدِيهِ، أَمَّا الْحَبِيبَةُ فَأَرَادَتْ بِهَا التَّهْدِيدَ وَالْوَعِيدَ... وَهَذَا لَا يُمِيطُ اللَّثَامَ عَنِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ إِلَّا التَّنْغِيمُ. وَقَدْ يَحْدُثُ أحيانًا أَنْ يَقَعَ اللَّبْسُ لِتَجْرِيدِ الْأَحْدَاثِ الْكَلَامِيَّةِ مِنْ سِيَاقَاتِهَا الْحَيَّةِ؛ فَلَوْ قُلْتُ: (عَلَيْكَ السَّلَامُ) فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مَتَرَدِّدَةٌ بَيْنَ مَعْنَى الْإِغْرَاءِ، وَعَلَيْكَ: اسْمُ فِعْلٍ أَمْرٍ، فَيَصِيرُ الْمَعْنَى: الزِّمِ السَّلَامَ، أَوْ مَعْنَى الْإِخْبَارِ (عَلَيْكَ السَّلَامُ) وَكَأَنَّكَ تُعْطِي الْأَمَانَ وَالسَّلَامَ لِمَخَاطَبِكَ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْعَلَامَةَ الْإِعْرَابِيَّةَ هَادٍ وَمُزِيلٌ لِلْوَهْمِ وَمَعْلَمٌ إِبَانَةٌ يَكَادُ يَكُونُ أَقْوَى مِنَ التَّنْغِيمِ فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ، وَلَكِنْ تَسْكِينٌ أَوْ آخِرُ الْكَلِمِ قَدْ يَنْسَخُهَا فَتَعْدُو كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ، وَعِنْدَهَا يَبْقَى التَّنْغِيمُ هُوَ الْفَيْصَلُ وَالْمَحْتَكَمُ فِي رَفْعِ هَذَا الْاِشْتِبَاهِ، فَلَوْ قَرَأْتَ: (مَا ضَرَّكَ لَوْ فَعَلْتَ كَذَا) جَازَ لَكَ أَنْ تَفْهَمَهَا عَلَى الْاِسْتِفْهَامِ، أَوْ عَلَى الْإِخْبَارِ بِالنَّفْيِ، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ﴾ [عبس: ١٧] فَقَدْ تَرَدَّدَ الْمَعْرُبُونَ فِي إِعْرَابِ ﴿مَا﴾ بَيْنَ حَمْلِهَا عَلَى الْاِسْتِفْهَامِ وَالتَّعَجُّبِ^(٢)، وَهَذَا التَّرَدُّدُ صَدَّى لِاتِّسَاعِ الْمَعْنَى فِي ظِلِّ غِيَابِ النَّيْرِ وَالتَّنْغِيمِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢] فَهَذِهِ الْآيَةُ أَيْضًا مُحْتَمِلَةٌ لِمَعْنَيْنِ: الْاِسْتِفْهَامِ وَالنَّفْيِ^(٣)، وَكِلَاهُمَا مُفَارِقٌ لِلْآخِرِ، وَلَا يَتَعَيَّنُ الْمَعْنَى إِلَّا بِاسْتِرْفَادِ التَّنْغِيمِ، وَلَعَلَّ مِنْ أَشَدِّ مَوَاضِعِ الْإِيهَامِ أَوْ اللَّبْسِ النَّاتِجِ عَنِ التَّنْغِيمِ هُوَ حَذْفُ

(١) انظر: معاهد التنصيص ١٨٢/٣، وأنوار الزبيح ٣٨٨/١.

(٢) انظر: إعراب القرآن للنحاس ٩٥/٥، ومُشْكِلُ إعراب القرآن ٨٠٢/٢، والتبيان في إعراب القرآن ١٢٧٢/٢.

(٣) انظر: مُشْكِلُ إعراب القرآن ٨٥١/٢، والتبيان في إعراب القرآن ١٣٠٨/٢.

حرفٍ معنًى من السِّياق؛ كحرف الاستفهام، أو حرف النداء، أو غيره؛ تعويلاً على فضل التنغيم في الإبانة، ولكنَّ المعضلة تحدث في المستوى الكتابي والانسلاخ من السِّياق؛ كقول الشاعر: [الخفيف]

ثُمَّ قَالُوا: نُحْيِيهَا؟ قُلْتُ: بَهْرًا عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالشُّرَابِ^(١)

وقول الكُمَيْت: [الطَّوِيل]

طَرَبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ وَلَا لَعِبًا مِنِّي، وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ^(٢)

فقلَّه: (وذو الشَّيْبِ يلعبُ) استفهامٌ إنكاريٌّ، وإن غاب حرفُ الاستفهام، وهذا لا يوضحه كالنَّبْرِ والتنغيم.

أو لسبب الإضافة؛ فلو قلت: (زيدٌ يرغبُ في مساعدة الأساتذة، ويكرهُ إزعاجَ الطُّلَّابِ)، فهذه التَّراكيبُ الإضافيةُ مُتردِّدةٌ بينَ معنيين الفاعلية والمفعولية، فزيدٌ يرغبُ في أن يُساعدَ هو الأساتذة، ويرغبُ في أن يُساعدَ الأساتذة.

أو لخفاء العلامة الإعرابية؛ فقد يحدث أن يتعدَّرَ ظهورُ العلامةِ الإعرابيةِ تعذُّراً يُفضي إلى التباسٍ في المعنى النحوي الذي تُؤدِّيه الكلمة، وليس القصدُ من هذا أن كلَّ خفاءٍ للعلامة الإعرابية يُفِرِّزُ هذا اللبسَ والاشتباه الموهِم، إذ إنَّ القرائنَ غالباً ما تتكفَّلُ بتحديد المعاني المقصودة، ولكن لو قلت: (رأيتُ رفيقَ أخي مصطفى) لفهم السَّامِعُ أنَّ أخاك مُصَفًى له رفيقٌ، وأنت رأيتَ هذا الرفيقَ، أو أنَّ صديقَ أخيك اسمه مصطفى، وقد رأيتَ أنتَ مصطفىَ صديقَ أخيك، والذي لا يعلم اسمَ أخيك فإنَّه واقعٌ في هذا اللبس لا محالة؛ لأنَّ بنية التَّركيبِ مُحتمِلةٌ لهما معاً. ومثله: (هذا دفتَرُ الغلامِ الذي ضاعَ يومَ الخميس)، أو (أنا أعلمُ مَنْ في الدَّار).

أو لتداخل العلاقات التَّركيبية في السِّياق، كما لو قلت: (رأيتُ غُلامَي الفريقين اللَّذَيْنِ فازا)؛ لأنَّ اللَّذَيْنِ) تحتَمِلُ عوداً على (الفريقين) أو (الغُلامين)، ومثله: (اشتريتُ قَلَمَ حبرٍ أسودَ)، فالصِّفَةُ

(١) انظر: إعراب القرآن للنحاس ١٧٣/٣، والخصائص ٢٨٣/٢، والتَّبيان في إعراب القرآن ١٠٩٤/٢.

(٢) انظر: الحُجَّةُ للقرَّاء السَّبعة ١٦٣/٦، والخصائص ٢٨٣/٢، ومُغْنِي اللَّيْب ٢٠/١.

(أسود) تحتملُ عوداً على (قلم) أو (حِبر) وذلك للتطابق بينهما جنساً وعدداً وتنكيراً، وزاد في الاشتباه غيابُ العلامةِ الإعرابيةِ جُزئياً.

أو لمرونةِ الجملةِ العربيّة، فقد يطولُ الفصلُ بينَ العاملِ والمعمول، فيؤذُنُ هذا بتداخلِ العلاقاتِ البنيويّةِ في التّركيب؛ ليعقبه وهمٌ واحتمال؛ كقولك: (علمتُ بمجيءِ عمرو من السّفرِ اليوم)، فالظّرْف (اليوم) يحتملُ متعلّقين (علمتُ - مجيء).

أو لتعدّدِ دلالاتِ حروفِ المعاني، فحرفُ الجرِّ (من) - مثلاً - في قولنا: (جئتُك بشيءٍ من الذّهب) يحتملُ معنيين؛ أوّلها أن تكونَ تبعيضيّةً، والمعنى: جئتُك بقليلٍ من الذّهب، وثانيها أن تكونَ بيانيّةً، والمعنى: جئتُك بشيءٍ مصنوعٍ من الذّهبِ لا من الفضةِ أو الحديد مثلاً^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَأُؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، فحرفُ العطفِ ﴿أَوْ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ مَبْعَثُ إيهامٍ أو اشتباه، وذلك لتعدّدِ معاني (أو)، فهي تأتي للتّخيير؛ كقولهم: (كُلُ سمكاً أو كَبْناً)، والمعنى أنّه لا يجوزُ أن يجمعَ بينَ المعطوفين، بل الفعلُ مُسلّطٌ على أحدهما، وتأتي للإباحة كقولهم: (جالِسِ الحَسَنَ أو ابنَ سيرين)، أو (تعلِّمِ الأدبَ أو التّفسيرَ أو الفقه)؛ أي كُلُّ ذلك مُباحٌ للمخاطَبِ يفعلُ منه ما يشاء على الانفراد والاجتماع، وتأتي أيضاً للتّقسيم والتّفصيل وغير ذلك^(٢).

وقد كانَ تردُّدُ ﴿أَوْ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ بينَ معنيين هما: التّخيير والتّفصيل باعثُ اشتباهٍ أفضى إلى اختلافِ الفقهاء، فقد ذهبَ قومٌ إلى أنّ ﴿أَوْ﴾ ههنا بمعنى (التّخيير)، وترتّبَ على ذلك الاشتباهُ حُكْمٌ فقهيٌّ مفادهُ أنّ السُّلطانَ مُحَيَّرٌ في هذه العقوبات، يفعلُ بقاطعِ السَّبيلِ أيّما شاء، وذهبَ آخرونَ إلى أنّها ههنا بمعنى (التّفصيل)؛ «فَمَنْ حَارَبَ وَقَتَلَ وَأَخَذَ السَّالَ صُلِبَ، وَمَنْ قَتَلَ وَلَمْ يَأْخُذِ السَّالَ

(١) انظر معاني (من) في الجنى الدّاني ص ٣٠٨-٣١٦.

(٢) انظر: الجنى الدّاني ص ٢٢٧-٢٣٢، ومُغني اللّبيب ١/ ٨٧-٩٥.

قُتِلَ، وَمَنْ أَحْذَ السَّالَ وَلَمْ يَقْتُلْ قُطِعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافٍ، وَاحْتَجُّوا مِنَ اللُّغَةِ بِأَنَّ الْعَرَبَ تَسْتَعْمِلُ (أَوْ) لِلْأَفْرَادِ وَالتَّفْصِيلِ؛ فَيَقُولُونَ: اجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالُوا: حَارِبُوا أَوْ صَالِحُوا، أَيْ: قَالَ بَعْضُهُمْ كَذَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ كَذَا،.... وَالْعَرَبُ تَلَفُّ الْكَلَامِينَ الْمُخْتَلِفِينَ، وَتَرْمِي بِتَفْسِيرِهِمَا جَمْلَةً؛ ثِقَةً بِأَنَّ السَّامِعَ يَرُدُّ إِلَى كُلِّ مُخْبِرٍ عَنْهُ مَا يَلِيْقُ بِهِ»^(١)، وَقَدْ أَفَاضَ الْمَفْسَّرُونَ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَثَرِ تَعَدُّدِ مَعْنَى حَرْفِ الْعَطْفِ هُنَا فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى^(٢)، وَكَذَا قَدْ يَتَسَرَّبُ الْوَهْمُ إِلَى أَذْهَانِ الْبَعْضِ حِينَ يَقْرَءُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وَذَلِكَ لِتَعَدُّدِ مَعَانِي (أَنَّى)^(٣)، وَلِلْحَذَفِ أَيْضاً أَثَرٌ فِي إِيْهَامِ الْمَخَاطَبِ سَتَرَى الْكَلَامَ عَلَيْهِ مُفَصَّلاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَمَا هَذِهِ الْمَقْدَمَةُ إِلَّا عَرَفَةٌ مِنْ نَبْعٍ صَافٍ يَنْتَظِرُ الظَّامِئِينَ، عَلَى أَنَّ مَوْضُوعَ اتِّسَاعِ الدَّلَالَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - وَإِنْ تَعَرَّضَ لَهُ الْبَلَاغِيُونَ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ - مَا زَالَ مَجَالاً رَحْباً لِلدِّرَاسَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ ذَكَرُوا الْإِتْسَاعَ لَمْ يُحْصُوا سُبُلَهُ، وَلَمْ يُبْرَزُوا جَمَالِيَّتَهُ كَمَا يَأْمُلُ الْقَارِئُ الْمُحِبُّ لِبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي قِرَائِنِهَا وَحَدِيثِهَا وَشِعْرِهَا وَنَثَرِهَا^(٤).

كَلَامٌ عَلَى مُزِيلَاتِ الْإِيْهَامِ:

عَلَى الْقَارِئِ أَنْ يَتَنَبَّهُ أَنَّ الْكَلَامَ الْبَلِيْغَ كَمَا تَرَدُّ فِيهِ أَسْبَابُ الْإِيْهَامِ وَالِاسْتِبْهَاءِ لَعَلَّةَ جَمَالِيَّةِ خَفِيَّةٍ، قَدْ تَنْتَصِبُ فِيهِ مُزِيلَاتُ الْإِيْهَامِ؛ لِتَعْصِمَ الْقَارِئَ مِنَ الزَّلَلِ فِي الْفَهْمِ؛ وَهَذَا أَصْلٌ رَاسِخٌ مِنْ أَصُولِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي مَدَّاهُ عَلَى الْفَهْمِ وَالْإِفْهَامِ، وَقَدْ قِيلَ: «يَكْفِي مِنْ حَظِّ الْبَلَاغَةِ أَلَّا يُؤْتِيَ السَّامِعُ مِنْ سَوْءِ

(١) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني ص ٤٨-٤٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٠/٢٥٧، وتفسير ابن عطية ٢/١٨٤، وزاد المسير في علم التفسير ١/٥٤٢، ومفاتيح الغيب ١١/٣٤٦، والتحرير والتنوير ٦/١٨٥.

(٣) انظر: البصائر والذخائر ٦/١٢٧، والبدیع في نقد الشعر ص ٥٥، وتحرير التّجسير ص ٥٦٢، والتّحرير والتنوير ٢/٣٧١.

(٤) صدرت دراسة بعنوان: (اتّساع الدّلالة في الخطاب القرآني) د. محمّد نور الدّین المنجد، دار الفكر بدمشق، ط ١، ٢٠١٠ م. وهي دراسة حسنة تحتاج إلى إتمام في الجهد؛ لبيان المزايا البلاغية والجمالية التي يُحقّقها أسلوب الاتّساع، فضلاً عن متابعة حصر موارد الاتّساع الدّلالي في كلام العرب وأساليبها.

إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع»^(١)، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ جملة اعتراضية.. ما الغاية منها؟ لأجل معرفة فائدتها سنتصور أن البيان القرآني لم يُورد هذا الاعتراض، وكانت الآية هكذا: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ~~وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ~~ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.. إن الكلام هكذا موهم أنه تعالى ينفي صحة قول المنافقين: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾، ولكن الاعتراض أفاد أن الله يُقر بأن محمداً ﷺ رسوله إلى البشر، ولكنه يرمي المنافقين بفساد النية وسوء الطوية ومخالفة الظاهر للاعتقاد، وأنهم كانوا يقولون: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وهم يظنون أنه كاذب وأنه ليس برسول. وتنبه لهذا الاحتراس من الإيهام الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) إذ قال: «فإن قلت: أي فائدة في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾؟ قلت: لو قال: (قالوا: نشهد أنك لرسول الله، والله يشهد إثمهم لكاذبون)؛ لكان يؤهم أن قولهم هذا كذب، فوسط بينهما قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾؛ ليميط هذا الإيهام»^(٢).

ومن أمثلة احتراس العربي من إيهام مخاطبه خلاف المقصود الفصل في الكلام، ومن ذلك البيت الذي يمثل به البلاغيون في مبحث الفصل والوصل: [الكامل]

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً، أراها في الضلال تهيم^(٣)

فقد وجب فصل جملة (أراها) عن جملة (تظن) رغم توافر المناسبة بين الجملتين - لئلا يتوهم السامع أنها معطوفة على جملة (أبغي) القريبة منها، فتكون عندئذ من مذنوبات سلمى. وعندها

(١) انظر: البيان والتبيين ١/ ١٣٨-١٣٩.

(٢) انظر: الكشف ٦/ ١٢٢، وأنوار الزبيح ١/ ٥٠٣.

(٣) انظر: مفتاح العلوم ص ٣٧٠، والإيضاح ٣/ ١١٧، والإيجاز لأسرار الطراز ص ٢٤٨، ومعاهد التنصيص

سيتوهّم المتلقّي المعنى هكذا: وتظنّ سلمى أنّي أبغي بها بدلاً وأنّني أراها تهيم في الضلال. وفي ذلك إيهامٌ مُفسدٌ للمعنى توقّاه البليغُ بالفصلِ بينَ الجملتين.

ومن مظاهر اتّقاء إيهام السّامع غير المراد قولُ الفرزدق: [الكامل]

لَعَنَ الإلهُ بنِي كُلَيْبٍ إِنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ، وَلَا يَقُونَ لِجَارٍ^(١)

فقولُه: (لا يفون) احتراشٌ؛ لئلا يتوهّم أنّ عدمَ غدْرِهم من الوفاء، فقال: (ولا يفون..). ليُفيد أنّه للعجز، ولا يخفى أنّ قوله: (لجارٍ) إيغالٌ؛ لأنّ تركَ الوفاء إنّ كانَ للجارِ كانَ أشدَّ قُبْحاً.

وبالجُملة إنّ الكلامَ على مُزيلاتِ الإيهامِ تراهُ في هذه الدّراسة منشوراً حيثُ يُتكلّمُ على مواطنِ الإيهامِ في الكلامِ، على أنّ هذا الموضوعَ يستحقُّ دراسةً مُستقلّةً تكونُ مُتابعةً لما ابتدأته هذه الأطروحة. وفي الكلامِ على مواطنِ الإيهامِ في علمِ المعاني ههنا ستتوخى ظواهرَ معدودة نتكلّمُ على جماليّة الإيهامِ فيها، وسبيلِ البليغِ في إيهامِ مُحاطِبِهِ أو إزالةِ الوهمِ من خاطِرِهِ، وسيكونُ الكلامُ على التّرتيبِ الآتي:

- الوقف والابتداء، وأثره في إيهامِ المتلقّي أو إزالة الإيهام.
- عود الضّمير، وأثره في إيهامِ المتلقّي.
- الحذف، وأثره في إيهامِ المتلقّي.
- الإنشاء الطلبيّ (القسم، والنهي، والأمر، والاستفهام)، وأثره في إيهامِ المتلقّي.

على أنّ مواطنَ إيهامِ المخاطَبِ وجماليّتها في علمِ المعاني وحدّه تستوعبها موسوعةٌ، لو أريدَ ذلك الاستقصاءُ، وهذا أيضاً في حاجةٍ إلى الدّرسِ مُستقبلاً، علّنا نخرجُ بملامحٍ نظريّةٍ أو اتّجاهٍ نقديّ نحتكمُ إليه في نقدِ النّصّ الأدبيّ.



(١) انظر: كتاب الصّناعتين ص ٣١٣، وسرّ الفصاحة ص ٣٠١، وأنوار الرّبيع ٦/ ٢٨٧.

المبحث الأول

الوقف والابتداء^(١)

معرفة الوقف والابتداء من علوم القرآن الكريم، ولا يجوز أن يغفل البلاغي عن لطائف هذا العلم، وآثاره في المعاني، إذ القارئ غير البلاغي ينبغي له معرفة الوقف والابتداء ومراعاتهما في قراءته؛ لهما من أثر في تحديد المعنى.

وكم من وقف أتى به في غير موضعه فأفهم السامع غير المراد، فلا بد للوقوف والابتداء أن تتفق مع وجوه التفسير الصحيح، واستقامة المعنى، وصحة اللغة مما يقتضيه علم النحو والبلاغة خاصة، لتحقيق الغاية من قراءة القرآن الكريم، وهي الفهم والإدراك والتدبر الذي أمرنا به تعالى في قوله: ﴿كَتَبْنَا لَهُ الْكِتَابَ أَنْ يَلْقَىٰ فِيهِ آيَاتٍ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانِ أَمَرَ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ولتذوق بلاغته، ومعرفة مواطن إعجازه البياني؛ لذا فقد اشترط حذائق هذا الفن «ألا يكون ذلك [أي: الوقف] مما يُخلُّ بالمعنى، أو يُخلُّ بالفهم؛ إذ بذلك يظهر الإعجاز، ويحصل القصد»^(٢).

وليس يخفى على أهل العلم ما للوقف والابتداء من أثر في الفهم والإفهام اللذين في فلكيهما تدور البلاغة العربية كلُّها، وبمعرفتهما يؤمن الاحتراز عن الوقوع في إيهام السامع أو الإلباس عليه، ويؤكد هذا ما صحَّح عن رسول الله ﷺ أنه نهى الخطيب لما قال: (مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ

(١) تعريف الوقف: الوقف والقطع والسكت في معظم مصنفات هذا الفن بمعنى، وللوقف تعريفات عدة؛ منها قول ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ): «الوقف: عبارة قطع النفس زمناً يُتَنَفَّسُ فيه عادةً بنية استئناف القراءة، إمَّا بما يلي الحرف الموقوف عليه، أو بما قبله لا بنية الإعراض، ويأتي في رؤوس الآي وأواسطها، ولا يأتي في وسط الكلمة، ولا فيما اتَّصَلَ رسمًا، ولا بُدَّ من التنفُّس معه».

انظر: البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٤٢، والنشر في القراءات العشر ١/ ٢٤٠ وفيه أيضاً تفریق تفصيلي بين الوقف والقطع والسكت (١/ ٢٣٨-٢٤٢)، والإتيان في علوم القرآن ١/ ٢٩٩، ومنار الهدى في بيان الوقف والابتداء ١/ ٢٣.

(٢) انظر: النشر في القراءات العشر ١/ ٢٢٥.

يعصيهما). ووقف. فقال له الرسولُ العربي: «بئسَ خطيبُ القومِ أنت!، قُلْ وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَى»^(١)، وما استنكاره ﷺ هذا الوقفَ القبيحَ إِلَّا لِأَنَّ الخطيبَ جَمَعَ حَالَ مَنْ أَطَاعَ وَمَنْ عَصَى، ولَعَلَّهُ أَوْهَمَ سَامِعَهُ غَيْرَ الْمُرَادِ، فضلاً عن جَمْعِهِ بينَ رسولِ الله ﷺ والله جَلَّ ذِكْرُهُ في ضَمِيرٍ وَاحِدٍ، والتَّأْدُّبُ مع رَبِّ العالمين يُملي عليه أن يقول: (وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ..)، وقد عَلَّقَ الأُشْمُونِيُّ (ت نحو ١١٠٠هـ) بقوله: «ففي الخبر دليلٌ واضحٌ على كراهةِ الْقَطْعِ، فلا يُجْمَعُ بَيْنَ مَنْ أَطَاعَ وَمَنْ عَصَى، فكانَ ينبغي للخطيب أن يقفَ على قوله: فقد رَشَدَ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفَ: وَمَنْ يَعَصِيهِمَا فَقَدْ غَوَى، وإذا كَانَ مِثْلُ هَذَا مَكْرُوهاً مُسْتَقْبَحاً في الكلامِ الجاري بينَ النَّاسِ فهو في كلامِ الله أَشَدُّ كَرَاهَةً وَقُبْحاً، وَتَجَنُّبُهُ أَوَّلَى وَأَحَقُّ»^(٢).

ومشهورَةٌ عندَ أهلِ البلاغةِ قِصَّةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ (رضي الله عنه) حِينَ قَالَ لِرَجُلٍ مَعَهُ نَاقَةٌ: أَتَبِيعُهَا؟ فقال: لا عَافَاكَ اللَّهُ، فقال له: «لَا تَقُلْ هَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: لا، وَعَافَاكَ اللَّهُ»^(٣)، وَرُوِيَ القِصَّةُ أَيضاً عَلَى أَنَّ الصِّدِّيقَ (رضي الله عنه) مَرَّ بِرَجُلٍ بِيَدِهِ ثَوْبٌ، فقال له: أَتَبِيعُ هَذَا الثَّوْبَ؟ فقال: لا رَحِمَكَ اللَّهُ. فقال الصِّدِّيقُ: قد قَوْمْتُ أَلَسْتُكُمْ لو تَسْتَقِيمُونَ، أَلَا قُلْتَ: لا، وَرَحِمَكَ اللَّهُ»^(٤). وقد ذَكَرَ ابنُ حِجَّةَ الحَمَوِيُّ (ت ٨٣٧هـ) أَنَّ أَبَا الفَرَجِ ابنَ الجَوَازِيِّ (ت ٥٩٧هـ) قَالَ: رَوَى عن أميرِ المؤمنينِ عَمْرٍ بنِ الحَطَّابِ (رضي الله عنه) أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ عَرَبِيٍّ: أَكَاكَ كَذَا وَكَذَا؟ فقال: لا أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ. فقال الإمامُ عَمْرٌ (رضي الله عنه): قد عَلَّمْتُمْ فَلَمْ تَتَعَلَّمُوا!!، هَلَّا قُلْتَ: لا وعَافَاكَ اللَّهُ»^(٥).

ومنه ما حُكِيَ أَنَّ المَأْمُونَ قالَ لِيَحْيَى بنِ أَكْثَمَ: هل تَغْدِيَتَ؟ قال: لا، وَأَيَّدَ اللَّهُ أميرَ المؤمنينِ. فقال المَأْمُونُ: ما أَظْرَفَ هَذِهِ الوَاوُ، وَأَحْسَنَ مَوْقِعَهَا!^(٦)

(١) انظر: مُسْنَدُ الإمامِ أحمد ١٨٢/٣٠ - برقم (١٨٢٤٧)، والقطع والائتناف ص ٨٨، والمُكْتَفَى في الوقف والابتدا ص ١٣٢، ومنار الهدى في بيان الوقف والابتدا ١٧/١. (طبعة الطَّهْرَوْنِي).

(٢) انظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتدا ١٧/١. (طبعة الطَّهْرَوْنِي).

(٣) انظر: القطع والائتناف ص ٢٠.

(٤) انظر: ربيع الأبرار ٢١٤/٥.

(٥) انظر: ثمرات الأوراق ٩/١.

(٦) انظر: ربيع الأبرار ٢١٤/٥.

ومثل هذه الأخبار أمارّة على أنّ العرب حرّصت على مُراعاة الوقف والابتداء في أداء عبارتها، لوعيتها بأثره في إيham السّامع غير المُراد، ومن المُمكن القول: إنّ مُراعاة الوقف والابتداء في الكلام من أهمّ مزيّلات الإيham في الأداء اللّغويّ عند العرب. بل إنّ الأُمم كلّها تكادُ تعي ما لهذه السّيزة اللّغويّة من أثرٍ في الحدّث الكلاميّ وما ينتجُ عنه من مدلولات؛ وقد ذكّر الجاحظُ (ت ٢٥٥هـ) أنّه لَمّا سُئل رجلٌ من الفُرسِ ما البلاغة؟ قال: «معرفةُ الفُصلِ مِنَ الوُصلِ»^(١).

وها أنت ذا ترى عنايةَ بعضِ الأُممِ بهذه الظّاهرة وعدّهم لها رأسَ البلاغةِ في الكلام التّواصليّ وفي الأحداثِ المنظومةِ المُتبادلةِ بينَ البَشَر، أفلا نريدُ من العربِ - بعدَ هذا - أن يُراعوا هذه الميزةَ في كلامِ الله تعالى، وقد نهَضَ أسلافنا من العلّماء للعناية بهذا المبحثِ البلاغيّ؛ بدافعٍ لغويّ لضمان سلامة المعنى في المُخاطبات كما كلُّ الأُمم، يُضافُ إليه باعثٌ دينيٌّ هو حِفْظُ كلامِ الله تعالى ومَعانيه من الاشتباه أو الإفساد، ومُراعاةُ المعنى لمقتضى الحال والقرائن والسّياق، وفيه مُراعاةٌ للنّظْمِ «الذي هو أُمُّ إعجازِ القرآن، والقانون الذي وقّع عليه التّحدّي، ومُراعاهُ أهمُّ ما يجبُ على المُفسّر»^(٢) وهذا أُمُّ البلاغة.

لذا فقد حظي الوقف والابتداء بعناية العلّماء من المُفسّرين والقُرّاء والنّحويّين حتّى أضحي علّماً قائماً برأيه، وأُفردتْ له الكُتُبُ الخاصّة ابتداءً من أوائلِ القرن الهجريّ الثّاني، وقد أحصى مُحقّقُ كتاب (المُكتفى في الوقف والابتداء) نحواً من ثمانين من الكُتُب التي صُنّفت منذُ بدء التّأليف في هذا العِلْم حتّى أيّامنا^(٣).

(١) انظر: البيان والتبيين ١/ ٨٨.

(٢) انظر: الكشّاف ٤/ ٨١.

(٣) وقليلٌ من هذه الكُتُب ما وُفّق برؤية النّور، ومنها:

- إيضاح الوقف والابتداء، لأبي بكر النّحويّ بن الأنباري (ت ٣٢٨هـ).

- القُطْع والائتناف، لأبي جعفر النّحاس (ت ٣٣٨هـ).

- الوقف على (كلّا وبلى، ونعم)، لِمَكِّي بن أبي طالب القيسيّ (ت ٤٣٧هـ).

- المُكتفى في الوقف والابتداء، لأبي عمرو الدّاني الأندلسيّ (ت ٤٤٤هـ).

- المَقْصِد لتلخيص ما في المُرشّد، لشيخ الإسلام زكريا الأنصاريّ (ت ٩٢٦هـ).

- منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، للأشْمونيّ (ت نحو ١١٠٠هـ).

وإنَّ هذا العِلْمَ - وإنَّ كانت غايته بلاغيَّة بالدرجة الأولى؛ لأنَّها تسعى لمُطابقة الكلام للمقام، إنَّه لِيُسَهِّم فيه البلاغيُّون في كلامهم على الفَصْلِ والوَصْلِ، ويُسهِّم فيه المُفسِّرون؛ كأبي حَيَّان الأندلسيَّ (ت ٧٤٥هـ)، والسَّمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، والشَّهاب الحفَّاجيَّ (ت ١٠٦٩هـ) الذين أبرزوا صِلَةَ الوقفِ بالإعراب في ضوء النَّظَر إلى المعنى، ويُسهِّم فيه علماء القراءات والتَّجويد، واللُّغويون، فهو عِلْمٌ لا يُحِيطُ به إلَّا مُقْتَدِرٌ في العربيَّة، ولذا قال الزُّركَّشيُّ (ت ٧٩٤هـ): «وهذا الفنُّ مَعْرِفَتُهُ تَحْتَاجُ إلى عُلُومٍ كَثِيرَةٍ»^(١)، واستفاضَ في بيان هذه العبارة في فقرة بعنوان: (حاجة هذا الفن [أي: الوقف] إلى مختلف العلوم)^(٢)، وفي ذا يقول الإمام ابنُ مُجاهدٍ (ت ٣٢٤هـ) صاحبُ السَّبعة في القراءات: «لا يقومُ بالتَّمام في الوقفِ إلَّا نَحْوِيٌّ، عالِمٌ بالقراءاتِ، عالِمٌ بالتفسيرِ والقَصَصِ،.. وعالِمٌ باللُّغة التي نزلَ بها القرآنُ...»^(٣).

ومن أوجِه عنايتهم بهذا العِلْم قولُ أبي بكرٍ الأنباريَّ (ت ٣٢٨هـ): «ومن تمام معرفة إعراب القرآن الكريم ومعانيه وغريبه معرفة الوقف والابتداء فيه، فينبغي للقارئ أن يعرف الوقف التَّامَّ، والوقف الكافي...، والوقف القبيح»^(٤)، ومثُل هذا القول كثيرٌ في كُتُب السَّلف، ومضمونُ مجملها يؤكِّدُ أنَّ معرفة الوقف والابتداء آلةٌ من آلاتِ العِلْم الشرعيِّ، فلا يجوزُ أن يشرَعَ بتفسير الدُّكر الحكيم من لا يُميِّزُ مواضع الوقف من الابتداء، ولا يتلَمَّسُ أسرارها البلاغيَّة وأثرها في توجيه المعنى، وكذا لا يجوزُ لامرئٍ - ولو أحاطَ بعِلْمِ أصولِ الفقه إحاطة السَّوارِ بالمِعَصَم - أن يستنبط الأحكامَ الفقهيَّة من القرآن الكريم وهو لا يعرفُ مواطنَ الوقف والابتداء فيه وأثرَ كُلِّ في توجيه المعاني، وكذا يُقالُ لِمَن شَمَّرَ لإعراب القرآن الكريم أو لبيان أسرارهِ البلاغيَّة ومواطنِ الإعجازِ البيانيِّ فيه.

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٤٣.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٤٣ - ٣٤٩.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٤٣.

(٤) انظر: إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٠٨.

ومن المؤكّد يقيناً أنّه لا يُراعى وقوف القرآن الكريم وابتداءاته إلّا من وعى معناه ومقاصده، فتأتي تلك الوقوف مُوافقة لما يقتضيه المعنى القرآني وإعجازه؛ وينبغي لكلّ قارئ أن يَعْلَمَ أنّ وقوف القرآن ليست وفق طولِ النَّفس، ولا وفق رؤوس الآي عند أكثر القراء، وإنّما وقوف القرآن رهنُ معانيه، فلا ينبغي لقارئ أن يتباهى مثلاً بطولِ نفسه فيقف في موضعٍ يحرف فيه المعنى عن مرماه ومُراده، بل الأجدُرُّ بالقارئ إن لم يُساعدَه نفسه على إتمام المعنى أو عطسَ فاضطُرَّ إلى الوقوف في موضعٍ لا ينبغي له = أن يعودَ على الكلام السابق فيكرّره ويصلّه بما بعده؛ لئلا يكون ابتداؤه هذا مدعاةً لإيهام المتلقّي غير المراد.

ولا ينبغي لقارئ أن يقفَ على عمْدٍ، دونَ مُراعاة سياق الآية الكريمة وسباقها، إذ المعنى يتغيّر تبعاً لمواطن الوقف، فيقبُح، أو يفسدُ إن كان القارئ على غير هُدًى من ضوابط هذا العلم، ففي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْنِعِنَا فَاكْكَلْهُ الَذِّثُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] أليس من الطرفة والغفلة أن يقف القارئ على الهاء من ﴿أَكْكَلْهُ﴾؟!، ولذا ينبغي للقارئ أن يعلم أن وقوفه إيدانُ بانتهاء الجملة واستيفاء معناها.

والبحثُ ههنا لن يصرفَ همّه إلى رصد ما تواتر من الوقوف عند القراء وأهل الأداء، فقد أُلْفَ في ذلك كُتُبٌ؛ بل الغاية الوقوف على الحكمة من تحقيق هذه الوقوف أو منعها، وبيان صلة ذلك بالمعنى إخلالاً أو إثراءً، وصلته بإيهام المتلقّي، وهذا يعني بيان أثرها البلاغيّ.

ولكن قبل الشروع بالكلام على:

- إغفال القارئ لضوابط الوقف والابتداء (أو ما يُسمّى بالوقف القبيح)، وأثر ذلك في إيهام السّامع غير المراد.
- وتفنّن القارئ المُتدبّر ذي الذوق البلاغيّ في بعض الوقوف بما تحتمله الألفاظ من المعاني المتعدّدة، وأثر ذلك في إثراء الدّلالة.
- وتحقيق الوقف والابتداء (أو الوقف التام)، وأثره في عصمة المتلقّي من الوقوع في الوهم.

= وقبل الشروع بذكر أنواع الوقف، لابد لنا من التنبيه على أمر: هو أنه ليس آخر كل آية وقفاً - وإن تعلق بها بعده - كما ذهب بعض من كتب في هذا العلم^(١)، فالمعاني معتبرة في هذا، والأنفاس تابعة لها^(٢)، فقد حكي عن الشعبي (ت ١٠٣ هـ) قوله: «إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فلا تقف حتى تقول: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]»^(٣)؛ لأن تمام الكلام في الإخبار عن بقاء الحق - سبحانه وتعالى - بعد فناء خلقه^(٤).

الابتداء يكون اختياراً لا اضطراراً؛ لأنه ليس كالوقف قد تدعو له ضرورة، والابتداء لا يجوز إلا بمُسْتَقِلٍّ بالمعنى موفٍ بالمقصود^(٥)، وأمّا أنواع الوقف فاثنتان: اختياري واضطراري، والاختياري يكون عندما يتم المعنى، ويكون بمحض اختيار القارئ، يقصده لذاته، من غير ضرورة ملجئة للوقف، ويجوز فيه أن يعود القارئ إلى الابتداء بما وقف عليه، فيصله بما بعده، أو يتدبّر بما بعد الكلمة التي وقف عليها، وهو على أربعة أضرب، وليتمكن القارئ من التمييز بينها في أثناء القراءة لابد من ملاحظة أشياء؛ هي: (الروابط اللفظية أو العلاقات الإعرابية، والمعنى الخاص بكل عبارة، والسياق العام للكلام)، وعليه فأضرب الوقف الاختياري هي: (التأمل، والكافي، والحسن، والقبیح)، وأكثر ما يعيننا في موضوع الإيهام هو القبيح والكافي، وهذا تعريف موجز بكل من هذه الأضرب الأربعة^(٦):

- (١) انظر: البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٥٠.
 - (٢) انظر: المقصد لتلخيص ما في المرشد ص ٤.
 - (٣) انظر: النسر في القراءات العشر ١/ ٢٢٥، والدّر المنثور ٧/ ٦٩٨، ومنار الهدى في بيان الوقف والابتداء ٢/ ٣١٠. (طبعة الطرّهوني).
 - (٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ٢٨٤، ومنار الهدى في بيان الوقف والابتداء ٢/ ٣١٠. (طبعة الطرّهوني).
 - (٥) انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ٢٩٢.
 - (٦) انظر أقسام الوقف في:
- إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٤٩-١٥٠، والمكتفى في الوقف والابتداء ص ١٣٨-١٥٤، والبرهان في علوم القرآن ١/ ٣٥٠-٣٥٥، والنسر في القراءات العشر ١/ ٢٢٦-٢٣٠، والإتقان في علوم القرآن ١/ ٢٨٢-٢٩٣، والمقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء ص ٥، ومنار الهدى في بيان الوقف والابتداء ١/ ٢٥-٢٩.

• الوقف التأم: هو الذي لا يتعلّق بشيءٍ ممّا بعده (لا لفظاً ولا معنى)، فيَحْسُنُ الوقفُ عليه والابتداءُ بما بعده، وأكثر ما يُوجدُ عندَ الفواصل، وقد يُوجدُ قبلَ انقضاءِ الفاصلةِ، والوقفُ التأمُّ هو ما يُسمّيه المتأخرون بالوقف اللّازم، أي: حينَ لا يكونُ بينَ العبارتين أيُّ رابطٍ لفظيٍّ، ويكونُ المعنى الخاصُّ بكلِّ عبارةٍ كاملاً بنفسه، ولا يحتاجُ إلى العبارةِ الأخرى ليكْمُلَ ويصيرَ معنىً مفيداً، مع كونِ العبارةِ الثانيةِ بدايةً تعبيرٍ جديدٍ، فلا بُدَّ مِنَ السَّكْنةِ بينَ هاتينِ العبارتين لتفريقِ معنى كُلِّ، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٥٠ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿البقرة: ٥-٦﴾، فإنَّ الآيةَ الأولى تتحدّثُ عن المؤمنين، والثانية عن الكفّار، وليس ثمَّ تعلُّقٍ إعرابيٍّ بينَ الجملتين، فوجبَ الوقفُ بينهما.

• الوقف الكافي: هو الذي ينقطعُ عمّا بعده في اللَّفْظِ دونَ المعنى، وهو أيضاً يَحْسُنُ الوقفُ عليه والابتداءُ بما بعده؛ أي أنَّ الذي بعده متعلّقٌ به من جهةِ المعنى دونَ العلاقاتِ الإعرابيّةِ، أي: يكونُ الوقفُ كافياً إذا انتفَتِ بينَ العبارتين العلاقاتُ الإعرابيّةِ، مع أنَّ السَّياقَ لا يزالُ واحداً. والمقصودُ بالعلاقة الإعرابيّةِ القيدُ، فلا ينبغي أن يُوقَفَ على الكلامِ قبلَ استيفاءِ قيده؛ وتتبعُ أمثلتهم يدلُّ على أنَّهم أرادوا باللفظِ القيودَ كالحالِ، والصّفةِ، والظرفِ، والجارِ والمجرور...، أو أنَّ يكونَ العاملُ في الأولى والمعمولُ في الثانية؛ كالفعلِ وفاعله، أو النَّاسخِ واسمه وخبره، أو المبتدأ والخبر؛ أو التفريقِ بينَ المتلازماتِ كالمضاف والمضاف إليه، أو المعطوف والمعطوف عليه، أو القسم وجوابه...^(١)؛ لئلا يُفْضِيَ ذلك التّفريقُ إلى الإخلالِ بالمعنى أو إيهامِ السّامعِ غيرَ المراد.

• الوقف الحسن: هو الذي يَحْسُنُ الوقفُ عليه، ولا يَحْسُنُ الابتداءُ بما بعده؛ كما في مطلع سورة الفاتحة، لو قرأتَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢] وتوقّفتَ، ثمَّ ابتدأتَ بـ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فقد حَسُنَ وقوفُك على اسمِ الجلالةِ في ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ العبارةَ أفادت معنى تامّاً مُستَقِلاً، وقُبِحَ ابتداءُك بالخافضِ في: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يَحْسُنْ؛ لأنَّك ابتدأتَ بما هو صِفَةٌ لِمَا قبله. أي يكونُ

(١) انظر: النّشر في القراءات العشر ١/ ٢٣٠-٢٣١.

الوقف الحسن حين يُوجد بين العبارتين رابطٌ لفظيٌّ، ورابطٌ في المعنى والسياق العام، إلا أن العبارة الأولى بنفسها تُشكّل معنى مفيداً، والعبارة الثانية إن ابتدئ بها كانت مبتورة؛ لأنها مُرتبطة بها قبلها قيداً أو معمولاً أو غير ذلك.

• الوقف القبيح: هو الوقف الذي ليس يُعرف المراد منه، أو يُخل بالمعنى القرآني، أو يوهّم السامع غير مقصود كلام الله ﷻ، كالفصل بين المتضامين في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾؛ إذا وقفت على الميم من ﴿بِسْمِ﴾، ثم ابتدأت باسم الجلالة ﴿اللَّهُ﴾؛ وقُبِحَ هذا الوقف من وجهين أولهما: عدم إفادة معنى، وثانيهما: أنك إذا ابتدأت بالمضاف إليه ﴿اللَّهُ﴾ لم يُعلم إلى أي شيء أُضيف. أي يكون الوقف القبيح حيث كل من الكلامين محتاج إلى الآخر، وحيث كل عبارة لا تكون بنفسها معنى مفيداً إلا بالعبارة الأخرى، وأقبح هذا القبيح ما أفسد المعنى، وأوهم غير المراد؛ وقد استقصى العلماء مثل هذه الوقوف للتحذير من الوقوع فيها؛ لأنها إما أن تُخل بالمعنى فلا يُعرف المراد من الكلام، أو تُحيله وتوهم غير المقصود من الآية الكريمة، أو أنها تُفسده إفساداً ظاهراً يمس العقيدة كما سيأتي بعد قليل.

وإن الوقوف القرآنية عموماً مُرتبطة بالتفسير، ومنها ما يُبنى عليه حكمٌ فقهي خاطئ إن كان الوقف المبني أصلاً على التفسير خاطئاً؛ كالوقف على ﴿أبويه﴾ من قوله تعالى في سياق الكلام على المواريث: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ﴾؛ وقد قُبِحَ هذا الوقف؛ لأن المعنى المفهوم منه أن البنت مُشتركة في النصف مع أبويه، وإنما المعنى أن النصف للبنت دون الأبوين، = ثم الابتداء بـ ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾، والمعنى يصح ويتم في ذهن القارئ حين تُقرأ العبارة كاملة: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلَهُمُ الثُّلُثُ إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ...﴾ [النساء: ١١].

وقد أورد ابنُ الجُرَيْرِي (ت ٨٣٣هـ) واحدةً من طرائفِ الوقفِ القبيح؛ بقوله: «بلغني عن شيخٍ شيوخنا الأستاذ بدرِ الدين محمد بَضْحان... أنَّ شخصاً كانَ يَجْمَعُ عليه، فقراً: ﴿تَبَّتْ يَدَايَ﴾ [المسد: ١]، وأخذَ يُعيدُها حتَّى يَسْتَوِيَ مَرَاتِبَ المَدِّ، فقال له: يَسْتَأْهِلُ الذي أَبْرَزَ مِثْلَكَ»^(١). وقد علّقَ على أمثالِ هذا الوقفِ بقوله: «وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُهُ أَقْبَحَ مِنْ بَعْضٍ؛ كالوقوفٍ على ما يُحِيلُ المعنى»^(٢)، وهذا الكلامُ دليلٌ على أنَّ القُرَّاءَ حينَما أدلّوا دلّوهم في باب الوقف والابتداء وضعوا استقامة المعنى وصِحَّتَهُ نُصَبَ أعينهم، وأنَّهم كانوا شديدي الحِرص على إزالة إيهام المتلقّي؛ لإدراكهم ما لبعض الوقوف بين الكلام المترابط من أثرٍ في إيهام المتلقّي غير المعنى المراد.

وأما الوقفُ الاضطراريُّ فليس له أَضْرَبُ، وإنَّما يَعْرِضُ للقارئِ من عطسٍ أو انقطاعِ نفسٍ، وهذا النوعُ ليسَ وقفاً حقيقياً؛ لأنَّه لم يُراعِ استيفاءَ المعنى، وهنا ينبغي للقارئِ - كما سَلَفَ - أن يعودَ إلى ما قبلَ الكلمةِ التي وقَفَ عليها، ليصلِّها بما بعدها، ويُتابعَ قراءته^(٣)، «ليكونَ الكلامُ مُتَّصِلاً بَعْضُهُ ببعضٍ، ولئلا يكونَ الابتداءُ بما بعده مُوهماً للوقوع في محذورٍ»^(٤).

والآن سنشرعُ بالكلامِ على المطالبِ الرَّئيسيةِ الثلاثة التي يتغيّاها البحثُ، وهي:

- ١ - الوقفُ القبيح وأثره في إيهام المتلقّي.
- ٢ - التجاذب (الوقف الكافي) وأثره في إثراء الدلالة.
- ٣ - تحقيق الوقف، وأثره في الاحتراس من إيهام السامع غير المراد.

(١) انظر: النُّشْرُ في القراءات العشر ٢ / ٢٠٤.

(٢) انظر: النُّشْرُ في القراءات العشر ١ / ٢٢٩.

(٣) انظر: المُكْتَفَى في الوقف والابتداء ص ١٤٨.

(٤) انظر: المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء ص ٥.

المطلب الأول - الوقف القبيح وأثره في إيهام المتلقي:

إنَّ حِرْصَ القُرَّاءِ على صِحَّةِ المعنى، وإيصالِ المراد للمتلقِّي دون خللٍ أو تحريفٍ أو إيهامٍ كان أهمَّ أسبابِ التَّصنيفِ في علم الوقف والابتداء، وإنَّ السَّامِعَ الذي لديه أدنى معرفةٍ بالعربية لا يقبلُ من قارئٍ أن يقفَ على كلمة ﴿الصَّلَاةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]؛ لأنَّ هذا الوقف يُوهِمُ النَّهْيَ عن الصَّلَاةِ بالكُليَّةِ، ويُغفلُ أنَّ هذا النَّهْيَ مُقَيَّدٌ، فالنَّهْيُ مُتَوَجِّهٌ إلى الصَّلَاةِ مع كونِ المُصَلِّي في حالة سُكْرٍ؛ لأنَّه لن يدري ما يقول، ولا يخفى أنَّ هذه الآية نزلت قبل التَّحريمِ النَّهائِيِّ للخمر، ونُسِخت بنزول آية تحريم الخمر^(١).

وكذا لو وقف على كلمة ﴿يَسْتَحْيِ﴾ من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِ﴾ أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها﴾ [البقرة: ٢٦]، وكذا لو وقف على كلمة ﴿الْمَوْقِ﴾ من قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْقِ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]؛ لأنَّ هذا الوقف أوهم العطف دون الاستئناف، والحق أنَّ الوقف ههنا على ﴿يَسْمَعُونَ﴾ هو الأكثر احترازاً من الإيهام؛ لأنَّه يُبَيِّنُ أنَّ ﴿الْمَوْقِ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ...﴾ جملةٌ مُستأنفة، ثُمَّ إنَّ عطفَ ﴿الْمَوْقِ﴾ على ﴿الَّذِينَ﴾ ههنا لا يمكن عقلاً ولا عادةً، لأنَّ ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ يُجِيبُونَ، وأما ﴿الْمَوْقِ﴾ فأنَّى لهم الإجابة! وكذا لو وقف على كلمة ﴿يُضِلِّلُ﴾ من قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّلْ فَلَنْ يَحْدِلْهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، أو ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي...﴾ [المائدة: ٥١].

(١) انظر: معاني القرآن للقرطبي ١/ ٢٧٠، وفيه: «نزلت في نفرٍ من أصحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ شَرِبُوا وَحَضَرُوا الصَّلَاةَ مع رسول الله ﷺ قبل تحريم الخمر..»، وذكر الطَّبْرِيُّ (ت ٣١٠هـ) بالإسناد أنَّه «كان هذا قبل أن ينزل تحريمُ الخمر» تفسير الطَّبْرِيُّ ٨/ ٣٧٦. وكذا يُنظرُ: تفسير البَغَوِيِّ (ت ٥١٠هـ) ١/ ٦٢٦، الكشَّاف للزَّخَشَرِيِّ (ت ٥٣٨هـ) ٢/ ٨١، والمحَرَّرُ الوجيز لابن عَطِيَّةٍ (ت ٥٤٢هـ) ٢/ ٥٦، ومفاتيح الغيب للرزازي (ت ٦٠٦هـ) ١٠/ ٨٥، وتفسير القرطبي (ت ٦٧١هـ) ٥/ ٢٠٠.

ومثل هذه الوقوف قبيح؛ لأنَّ ما قبل الوقف مُتعلِّق بما بعده في اللَّفْظ والمعنى، بل هذا التعلُّق مُشْتَدُّ بحيثُ إنَّ كلاً من الجملتين لا تُشكِّل بنفسها كلاماً مُفيداً. وقُبْحُ هذا الوقف في أنَّه لا يُفْضي إلى إيهام المتلقِّي غير المراد فحسب، بل إلى توهم معنى فاسد أيضاً.

وقد مرَّ أنَّ مِنَ القُرَّاءِ مَنْ اعتمد الوقفَ على رؤوس الآي دون اعتبار تعلُّق المعاني، وهذا غيرُ مُطَرِّدٍ في السَّلامة؛ لأنَّه قد يُفْضي أيضاً إلى توهم معنى فاسد، إنَّ كان بين الآيتين تعلُّق إعرابيٍّ ومعنويٍّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥]؛ لأنَّ المُراد: فويلٌ للسَّاهين عن صَلَاتِهِم المُرائين فيها، وهذا المعنى لا يتمُّ إلَّا بوصْل الآيتين، وقد قال الأشموني (ت نحو ١١٠٠هـ): «الوقفُ على ﴿الْمُصَلِّينَ﴾ قبيح؛ فإنَّه يُوهِمُ غيرَ ما أراده الله تعالى؛ وهو [أي: وقد أُوهم هذا الوقف] أنَّ الوعيدَ الشَّدِيدَ بالوَيْلِ للفريقين الطَّائِعِ والعاصي، والحالُ أنَّه لطائفةٌ موصوفةٌ بوصفين مذكورين بعده، ومثله في القُبْحِ ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ فإنَّه يُوهِمُ إباحةَ تَرْكِ الصَّلَاةِ بِالْكُلِّيَّةِ»^(١)

ومثل ذلك في القُبْحِ أنْ تقفَ على كلامٍ لا يؤدِّي في لحظة الوقف إلى فسادِ المعنى، ولكنَّ الابتداءَ بما بعده يُفْضي إلى فسادٍ قبيحٍ جدًّا، ويُوهمُ غيرَ الحافظِ للقرآنِ أو غيرَ المُتدبِّرِ معنى قد يؤدِّي إلى فسادِ الاعتقاد؛ كأنْ يقفَ القارئُ بين المتلازمات؛ فيقفَ على كلمة ﴿الرَّسُولُ﴾ من قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ...﴾ [المتحنة: ١]؛ لأنَّه سيبتدئ بالقول: ﴿وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ...﴾، والمصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾ في محلِّ جرٍّ، والتَّقديرُ كما ذهب المُبرِّدُ (ت ٢٨٥هـ) «ويخرجونكم لأنْ تؤمنوا بالله ربكم»^(٢)، ولو أُعربَ في محلِّ نصبٍ على أنَّه مفعولٌ له مع تقديرِ مُضَافٍ محذوفٍ مُناسبٍ لجَازَ، وكذا لو أُعربَ في محلِّ نصبٍ بنزعِ الخافضِ.

(١) انظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء ٢/ ٤٣٣.

(٢) انظر: الكامل للمبرِّد ٣/ ١٥٠٤.

وَمِثْلُهُ أَنْ يُوقَفَ عَلَى ﴿الْيَهُودُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿[المائدة: ٦٤]، أَوْ يَقِفَ الْقَارِئُ عَلَى ﴿قَالُوا﴾، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]؛ لِأَنَّهُ سَيَبْدِئُ بِالْقَوْلِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، وَكَأَنَّهُ يُخْبِرُ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ وَيُؤَكِّدُهُ لِلْسَامِعِينَ أَيْضًا، مَعَ أَنَّهُ مَقُولُ الْكَافِرِينَ، وَأُورِدَهُ الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ فِي سِيَاقِ الْإِخْبَارِ عَنْ كَذِبِهِمْ وَادِّعَائِهِمْ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ مِنَ الْوُقُوفِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي تُحِيلُ الْمَعْنَى فَتُظْهِرُ مَقُولَ الْكَافِرِينَ عَلَى هَيْئَةٍ حَقِيقَةٍ يُقَرَّرُهَا الْقَارِئُ = أَنْ يُوقِفَ الْقَارِئُ عَلَى كَلِمَةِ ﴿قَالُوا﴾ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]؛ لِأَنَّهُ سَيَبْدِئُ بِالْقَوْلِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وَهَذَا الْوُقُوفُ قَبِيحٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُرَاعِي أَثَرُ الصَّوْتِ فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى، وَهُوَ يَنْمُ عَلَى جَهْلٍ بِأَصُولِ الْخِطَابِ، وَجَهْلٍ بِقَوَاعِدِ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ؛ إِذْ يَفْصَلُ بَيْنَ الْقَائِلِ وَمَقُولِهِ، حَتَّى يُحِيلَ إِلَى السَّمَاعِ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي ابْتَدَأَ بِهِ الْقَارِئُ بَعْدَ وَقْفِهِ إِنَّمَا هِيَ حَقِيقَةٌ يُرِيدُ أَنْ يُقَرَّرَهَا، وَلَا يَدْرِي أَنَّ هَذَا مَظْنَةُ الْإِيهَامِ.

وَمِنْ تَوْجِيهَاتِ بَعْضِ السَّلَفِ فِي مُنَاسِبَةِ التَّصْوِيتِ لِلْمَعْنَى أَنْ يَخْفِضَ الْقَارِئُ صَوْتَهُ إِذَا قَرَأَ نَحْوَ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿[المائدة: ٦٤]، وَ﴿وَقَالُوا﴾ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿[الأنبياء: ٢٦] وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. ^(١)

وَمِثْلُهُ إِنْ وَقَفَ الْقَارِئُ عَلَى ﴿قَالُوا﴾ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن ص ١٢٠.

وَأَمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿[المائدة: ١٧]؛ لَأَنَّهُ سَيَتَدَيُّ بِالْقَوْلِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾، أَوْ وَقَفَ عَلَى ﴿الْيَهُودُ﴾، أَوْ ﴿النَّصَرَى﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَتْهُمْ اللَّهُ أَفَّ يُؤَفَّكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]؛ لَأَنَّهُ سَيَتَدَيُّ بِالْقَوْلِ: ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾، و﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ.

ولا ينبغي لأحد أن يتوهم أن الاجتهاد والجهد الذي بذله علماؤنا في تحديد ضوابط الوقف والابتداء يُستفاد منه في قراءة القرآن الكريم وحفظ كلامه جلَّ ذكره فحسب، بل هذه الضوابط ينبغي مُراعيتها في الكلام، سواء كان المحكي قصّة أو رواية أو مقالة...، وهذا أصل راسخ لا ينبغي أن يذهل عنه المرء، بله المشتغل بالعربية، أو إقراء القرآن الكريم.

فكلُّ هذا ونحوه من الوقوف جليّ القبح؛ وقد سمّاهُ القراء قبيحاً؛ لأنّهم كانوا يُراعون استقامة المعاني ولا يغفلون عن أسرارها البلاغية في تصويّتهم، ولأنّهم وعوا أنّ هذه الوقوف وأمثالها تُحيل المعنى وتُفسده^(١)، وتوهم معنًى آخر غير مُراد، فأوجبوا الاحتراس منها، واشترطوا على مَنْ وقَعَ فيها مضطراً أن يعود إلى الكلمة التي وقَفَ عليها أو ما قبلها، فيتدبّر قراءته من هناك ثم يأتي للكلام الجديد حتّى يزيل الاشتباه؛ وفي هذا يقول الأشموني (ت نحو ١١٠٠ هـ): «إذا اضطرَّ القارئُ ووقف على ما لا ينبغي الوقفُ عليه حال الاختيار؛ فليبتدئ بالكلمة الموقوفِ عليها، إن كان ذلك لا يُغيّر المعنى، فإن غيّر فليبتدئ بما قبلها؛ ليصحَّ المعنى المراد، فإن كان وقَفَ على مضافٍ فليأتِ بالمضاف إليه، أو وقَفَ على المفسّر فليأتِ بالمفسّر، أو على الأمر فليأتِ بجوابه...»^(٢)؛ وذلك حتّى يُزيل الإيهام، ويُجَلِّي المعنى واضحاً لدى السّامع، وتوجيهُ القراءِ هذا يُعدُّ أصلاً ثابتاً من أصول البيان العربيّ.

(١) انظر: الشّر في القراءات العشر ١/ ٢٢٩.

(٢) انظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء ١/ ٣٧.

ومما يدلُّك دلالة قاطعة على أنَّ علماء القراءات كانوا - في كلِّ توجيهاتهم المتَّصلة بالوقف والابتداء عامةً، وبالوقف القبيح خاصَّة - يصدِّرون عن وعي بضرورة تناغم الأصوات مع المعاني، خيفة إيهام المتلقِّي غير المراد = قولُ ابنِ الجزري (ت ٨٣٣هـ) بعد تنبيهه على أوجه من الوقف القبيح: «فإنَّ القصدَ تجنُّبُ ما لا يليقُ مما يُوهِّمُ غيرَ المعنى المراد»^(١)، وكأنَّه بهذه العبارة الموجزة لخصَّ الغاية من علم الوقف والابتداء، وهذه الغاية بلاغيةٌ بالمقام الأوَّل.

المطلب الثاني - التجاذب (الوقف الكافي) وأثره في إثراء الدلالة:

ليس مُجانبَةً للصَّواب وصفُ المهارة في أداء (الوقف والابتداء) بالفنِّ؛ لأنَّه ليسَ علماً مُقيَّداً كالمُعادلاتِ الرِّياضيَّة، وإنَّما فيه مجالٌ رحبٌ يتصرَّفُ فيه القارئُ بحسبِ ذوقه البلاغيِّ، فقد يُنوعُ؛ فيقفُ في الآية نفسها كلَّ مرَّة في موضعٍ مختلفٍ لتجديد المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَبَى يَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]، فقد يقفُ القارئُ على ﴿اسْتِحْيَاءٍ﴾ فيكونُ الاستحياءُ حالاً لِمَشِيِّهَا، وقد يقفُ على ﴿تَمْشِي﴾ فيكونُ الاستحياءُ حالاً لقولها، وهذان الوقفان من قارئٍ واحدٍ أمارَةٌ على أنَّه مُتدبِّرٌ للمعنى، يُشري النَّصَّ بتأويله الذي يُعبِّرُ عنه بتلك الوقوف، فقد أفادَ الوقفان زينةَ الحياء لهذه الفتاة في أقوالها وفي أفعالها، وهذا من القارئ تأويلٌ جيّدٌ مُستحسن.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في قصَّة يوسفَ **الْبَيْتُ**: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧]، فللقارئ ههنا أن يصلَّ ﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ عطفًا، على معنى فَكَذَبَتْ وَصَدَّقَ، وله أيضاً أن يقفَ على ﴿كَذَبَتْ﴾^(٢)، وأنَّ يبتدئ بكلامٍ مُستأنفٍ ﴿وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إشعاراً بأنَّ يوسفَ - **الْبَيْتُ** - من الصَّادِقِينَ في دعواه، وأنَّ هذا ليسَ محلَّ تساؤلٍ، أي: هو من الصَّادِقِينَ مُطلقاً وليس في هذه القضية فحسب.

(١) انظر: النَّشر في القراءات العشر ٢/ ٢٠٤.

(٢) انظر: النَّشر في القراءات العشر ١/ ٣٣٣.

ولا اختلاف التفسير أثر في وقوف القاري؛ كما في قوله تعالى عن تحريم الأرض المقدسة على بني إسرائيل: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]، فإن الظرف ﴿أَرْبَعِينَ﴾ محتاج إلى تعليق معنوي، وبحسب هذا التعليق يختلف تفسير الآية وإعرابها ووقوفها:

- فمن علقه بالفعل ﴿يَتِيهُونَ﴾ وبشبهه ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ كان المعنى عنده أن مدة التحريم والتية أربعون سنة، فالوقف عنده على ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وجملة ﴿يَتِيهُونَ﴾ حالية.
 - ومن علق الظرف ﴿أَرْبَعِينَ﴾ بالفعل ﴿يَتِيهُونَ﴾ فيقف على ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ثم يتدنى بـ ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، والمعنى عنده أن التحريم مؤبد، وأن زمن تيههم أربعين سنة.
 - ومن علق بـ ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ دون ﴿يَتِيهُونَ﴾، كان المعنى عنده أن التحريم مؤقت بمدة، وأن التية غير مؤقت، فهو يقف على ﴿سَنَةً﴾ ثم يتدنى بـ ﴿يَتِيهُونَ﴾ .. على أنها جملة مستأنفة^(١).
- وإنه قد يختلف نوع الوقف وحكمه باختلاف أوجه التفسير، وبحسب ما يعتقده القارئ منها، ومثاله في اختلاف أوجه التفسير: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].
- فمن وقف على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو آخذ بتفسير من قال: إنَّ عِلْمَ المتشابه لله وحده، وإنَّ الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله، بل يؤمنون به وبكل ما جاء من عند الله، وهذا وقف تام؛ لأن الكلام قد تم معنى، وما بعده مستأنف.

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٠/ ١٩٠، ومنار الهدى في بيان الوقف والابتداء ١/ ٢١٣-٢١٤.

• ومن لم يقف فهو آخذٌ بتفسير من قال: إنَّ الراسخين في العلم يعلمون تأويلَ المتشابه، فالرَّاسِخُونَ على هذا معطوفٌ على اسم الجلالة ﴿اللَّهُ﴾^(١)، ويكونُ وقوفُهُ عندئذٍ على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

وقد أفاض المفسِّرون وعلماءُ الوقفِ والمعرِّبون في بيان الصِّلة بين قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ وبين ما قبلها وما بعدها، «ومختصرُ القولِ فيها أنَّ الوقفَ تامٌّ على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، ومعنى هذا أنَّ الرَّاسِخِينَ في العِلْمِ لم يعلموا تأويله. وهو قولُ أكثرِ أهلِ العِلْمِ من المفسِّرين والقُرَّاء والنَّحْوِيِّين»^(٢)

وهكذا فإنَّ المتلقِّي لآياتِ القرآنِ الكريمِ له أن يتَّسعَ في تأويلِ العبارة الواحدة، فيأتي بمعانٍ جديدةٍ يُظهرُها الوقفُ - على أن تكونَ تلك المعاني ممَّا يحتملُه اللَّفْظُ - ووقوفُ القارئِ تُنبئُ عن فهمه للمعنى، كما تؤثرُ في إلهامه لسامعيه؛ لأنَّ الوقفَ وسيلةٌ لتوجيه دلالاتِ الخطاب؛ فمن الممكنِ سماعُ آيةٍ واحدةٍ لقارئَيْنِ اثنين مُتَقِنَيْنِ، وفهمُها من كُلِّ بمعنى، وذلك تبعاً لوقوفِ كُلِّ قارئٍ، فليسَ عجباً إن قلنا: إنَّ وقوفَ القارئِ قد يُعدُّ نوعاً من أنواعِ التفسيرِ الضَّمْنِيِّ للسَّامِعِينَ.

وإنَّ هذه التَّأويلاتِ المُتكاثِرةَ للعبارة الواحدة، إن لم يكنْ ثمَّ ترجيحٌ بينها، تُسمَّى في عِلْمِ البديعِ بالتَّأْسِاعِ^(٣)، وهذه التَّأويلاتُ تختلفُ بحسبِ قُوَى النَّظَرِ لدى كُلِّ مُتلقٍّ، وتعدُّ المعاني المستفادة من الآية الواحدة بحسبِ الوقفِ إنَّما يدلُّ على عظمة البيان الإلهي، ثُمَّ على فَطَانَةِ المتلقِّي وتيقُّظِهِ، ورهافةِ حسِّهِ.

المطلب الثالث - تحقيق الوقف، وأثره في الاحتراس من إيهام السَّامِعِ غيرِ المراد:

إنَّ من الوقفِ ما يكونُ سبيلاً للاحتراز عن توهيم السَّامِعِ غيرِ المقصودِ القرآني؛ ويستحسنُ القُرَّاءُ الوقفَ حينئذٍ، ويعدُّونه أوَّلِي، وذلك إذا كانَ الوصلُ يودِّي إلى خَلَلٍ في المعنى أو إيهامٍ للسَّامِعِ، لذا سنقفُ على بعضٍ من توجيهاتِ القُرَّاءِ فيما يتَّصلُ بالوقوفِ القبيحة، لنلحظَ أثرها في الاحتراز والاحتراس من الإيهام.

(١) انظر: الشَّرْحُ في القراءات العشر ١/ ٢٢٧، ومنار الهدى في بيان الوقف والابتداء ١/ ١٢٧.

(٢) انظر: مِن أسرار الجُمَلِ الاستثنائية ص ٣٢٤-٣٢٥. وفيه إحالات وافية على مَطَانِ المسألة.

(٣) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٧، والمنزَعُ البديع ص ٤٢٩، وأنوار الربيع ٦/ ٥٣.

من ذلك قوله تعالى: ﴿الَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فإنَّ وقوف القارئ على ﴿كَفَرَ﴾ احتراس؛ لأنَّ الوصل: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ﴾ إيهامٌ مُفسدٌ للمعنى، ومُحلٌّ بالعقيدة، فجاء هذا الوقفُ ليعصم السامع من الزلل في المعنى، ولينفي من ذهنه علاقة العطف بين الكلامين، ويدلُّه على أنَّ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ كلامٌ مُستأنفٌ.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ﴾ ٦ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٦-٧]، فالوقفُ على ﴿عَنْهُمْ﴾ ضروري؛ لأنَّك لو وصلتَ لاحتُمِلَ تعلقُ الظرفِ ﴿يَوْمَ﴾ بفعلِ الأمرِ ﴿فَتَوَلَّ﴾ وفسدَ المعنى.

ومثل ذلك: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مِنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدًا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، فإنَّ الوصلَ في ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدًا هَذَا﴾ مُوهِمٌ، وكذا الوقفُ على ﴿هَذَا﴾؛ لأنَّه يُوهِمُ أنَّ ﴿هَذَا﴾ صفةٌ لـ ﴿مَّرْقَدًا﴾، وليس كذلك، بل هو مبتدأ، والكلامُ بعده مُستأنفٌ، ولذا كان الوقفُ على ﴿مَّرْقَدًا﴾ مزيلاً لهذا الإيهام. وهذه الآيةُ تفسيرٌ لطيفٌ يستقيمُ مع سياقها العام ذكره الشيوطي (ت ٩١١ هـ) مُسنداً إلى مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنَّه قال: «للكفار هَجْعَةٌ يَجِدُونَ فِيهَا طَعْمَ النَّوْمِ حَتَّى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا صَبَحَ بِأَهْلِ الْقُبُورِ يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَتَوَلَّوْنَا مِنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدًا﴾ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ إِلَى جَنْبِهِ ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾»^(١)

وكذا لو سَمِعَ قَلِيلُ المعرفةِ بالعربيةِ قوله تعالى في خطابِ رسوله مُحَمَّدٍ ﷺ بشأنِ الكافرين الذين يُكذِّبونه ويطعونون في دين الله: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(١) انظر: شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور ص ١٨٢.

[يونس: ٦٥] لتوهم أن جملة ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ مقول هؤلاء المشار إليه بالضمير، وهذا لا يستقيم؛ فهل قولهم: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ مما يُحزن الرسول ﷺ؟! بل لو أن الكفار قالوا: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ لما كانوا كفاراً أصلاً، وقد توقف ابن هشام (ت ٧٦١هـ) عند هذه الآية، وهو يشرح مظاهر الجملة الاستثنائية وما يخفى منها، فقال: «فإنه ربما يتبادر إلى الذهن أنه محكي بالقول وليس كذلك؛ لأن ذلك ليس مقولاً لهم»^(١)، لذا حُسن أن يقف القارئ على ﴿قَوْلُهُمْ﴾؛ ليتبين للسامع أن ما بعدها ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ كلامٌ مُستأنفٌ بيانياً، وهو مقول الله تعالى ذكره في تثبيت فؤاد رسوله ﷺ.

ومثله في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتِفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، فإنَّ وصل القراءة هكذا: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ موهمٌ أن ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ من مقول المنافقين وأنهم بهذا القول يُشهدون الله تعالى على صدقهم، مع أن هذه الجملة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ استثنافٌ، وهي مقول رب العالمين؛ لذا يُستحبُّ الوقف على ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ ثمَّ الابتداء بـ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ دفعاً للتوهم عن ذهن السامع. وقد علّق الأشموني (ت نحو ١١٠٠هـ) بقوله: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ كافٍ، ولا يجوز وصله؛ لأنه لو وصله لصار قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ﴾ من مقول المنافقين، وليس الأمر كذلك، بل هو ردُّ لكلامهم [فيما بينهم]: إن رسول الله غير رسول، فكذبهم الله بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾^(٢).

وكذا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الزَّيْنِ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا] [غافر: ٦-٧]، فإنَّ

(١) انظر: مغني اللبيب ١/ ٥٠٢.

(٢) انظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء ٢/ ٣٤٠.

الوصل : ﴿أَصْحَابُ النَّارِ ۖ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ..﴾ مُوهِمٌ أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ هُمُ أَصْحَابُ النَّارِ، لَذَا يُسْتَحْسَنُ الْوَقْفُ عَلَى ﴿النَّارِ﴾، وَأَنْ يُبْتَدَأَ بِعَدَّهَا بِالْجُمْلَةِ الْجَدِيدَةِ التَّامَّةِ الْمَعْنَى ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ...﴾.

وأيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-٩]، فَإِنَّ الْوَصْلَ ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ .. مُوهِمٌ الْوَصْفِيَّةَ أَيَّ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ الَّذِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ؛ لَذَا يُسْتَحْسَنُ الْوَقْفُ عَلَى ﴿مُؤْمِنِينَ﴾، ثُمَّ يُبْتَدَأُ بِالْإِسْتِنَافِ الْبَيَانِيِّ ﴿يُخَدِّعُونَ ..﴾. وَفِي جُمْلَةٍ ﴿يُخَدِّعُونَ﴾ وَجِهَانِ:

- أَحَدُهُمَا: مُسْتَأْنَفَةٌ بَيَانِيَّةٌ؛ كَأَنَّهُ قِيلَ: لِمَ يَتَظَاهَرُونَ بِالْإِيمَانِ؟ فَقِيلَ: يُخَادِعُونَ اللَّهَ.
- وَثَانِيهَا: حَالِيَّةٌ، وَصَاحِبُ الْحَالِ هُوَ الضَّمِيرُ الْمُسْتَرِ فِي ﴿يَقُولُ﴾.

قَالَ الْعُكْبَرِيُّ (ت ٦١٦هـ): «وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعٍ جَرَّ عَلَى الصِّفَةِ لـ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ نَفْيَ خِدَاعِهِمْ، وَالْمَعْنَى عَلَى إِثْبَاتِ الْخِدَاعِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿ءَامَنَّا﴾؛ لِأَنَّ ﴿ءَامَنَّا﴾ مُحْكِيٌّ عَنْهُمْ بِـ ﴿يَقُولُ﴾، فَلَوْ كَانَ ﴿يُخَدِّعُونَ﴾ حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿ءَامَنَّا﴾ لَكَانَتِ الْجُمْلَةُ مُحْكِيَّةً أَيْضاً، وَهَذَا مُحَالٌ لَوْجِهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ هُمَا قَالُوا: آمَنَّا وَخَادَعْنَا، وَالثَّانِي: أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿يُخَدِّعُونَ﴾ وَلَوْ كَانَ مِنْهُمْ لَكَانَ (نُخَادِعُ) بِالنُّونِ.. جُمْلَةٌ ﴿وَمَا يُخَدِّعُونَ﴾: حَالِيَّةٌ^(١).

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿زِينَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، فَإِنَّ جُمْلَةَ

(١) انظر: التَّيْبَانِ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ١/ ٢٥-٢٦، وَالْجَامِعُ لِإِعْرَابِ جُمَلِ الْقُرْآنِ ص ٤٨.

﴿يَسْخَرُونَ..﴾ معطوفة على ﴿زَيْنَ﴾^(١)، ولكنَّ وصلها على هذا النحو: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ مُوهِمٌ أَنَّ الْكُفَّارَ يَسْخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وهذا لا يكون، لذا استُجِبَ الوقوفُ على ﴿ءَامَنُوا﴾ والابتداء بالكلام المستأنف ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فالوصلُّ كما رأيت أوهمَ تعلُّقَ الظَّرْفِ ﴿يَوْمَ﴾ بالفعل ﴿يَسْخَرُونَ..﴾؛ وإنَّما تعلُّقه كما الظَّرْفِ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ بـ (بخبر الذين المحذوف). وللزَّخْشَرِيِّ (ت ٥٣٨هـ) لمسةٌ بيانيةٌ في هذه الآية الكريمة؛ إذ يقول: «فإن قلت: لم قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ثُمَّ قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؟ قلت: لِيُرِيكَ أَنَّهُ لَا يَسْعُدُ عِنْدَهُ إِلَّا الْمُؤْمِنُ الْمُتَّقِي، وليكون بعثاً للمؤمنين على التَّقْوَى إذا سمعوا ذلك»^(٢).

وَمِنَ الْوَقْفِ الْمُزِيلِ لما قد ينتج من الوهم أَنَّهُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(٣) وَأَخِي هَارُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣-٣٤] فَإِنَّ الْقَارِئَ إِنْ قَرَأَ وَصَلًا: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(٤) وَأَخِي هَارُوتُ ﴿أَوْهَمَ أَنْ خَوْفَ مُوسَى ﷺ أَنْ يُقْتَلَ هُوَ وَأَخُوهُ هَارُونُ، وَالْحَقُّ أَنْ يَقِفَ الْقَارِئُ عَلَى ﴿يَقْتُلُونِ﴾؛ لِأَنَّ مُوسَى - ﷺ - إِنَّمَا خَافَ الْقَتْلَ عَلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ لَهُمْ عَلَيْهِ نَفْسًا، وَلَمْ يَخَفِ الْقَتْلَ عَلَى هَارُونِ، وَهَارُونُ مُسْتَأْنَفٌ بِحَالِهِ وَصِفَتِهِ^(٥).

(١) وعلق ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ) بقوله: «وجيء في فعلِ التَّزْيِينِ بصيغةِ الماضي وفي فعلِ السُّخْرِيَةِ بصيغةِ المضارعِ قضاءً لحَقِّي الدَّلَالَةِ على أَنَّ مَعْنَى فعلِ التَّزْيِينِ أَمْرٌ مُسْتَقَرٌّ فِيهِمْ؛ لِأَنَّ الْمَاضِي يَدُلُّ عَلَى التَّحَقُّقِ، وَأَنَّ مَعْنَى ﴿يَسْخَرُونَ﴾ مُتَكَرِّرٌ مُتَجَدِّدٌ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ الْمُضَارِعَ يُعِيدُ التَّجَدُّدَ...، فيكونُ المعنى في الآية: زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَتَزْيِينُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَسَخَرُوا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَعَلَى هَذَا فَإِنَّمَا اخْتِيرَ لِفِعْلِ التَّزْيِينِ خُصُوصُ الْمُضَيِّ وَلِفِعْلِ السُّخْرِيَةِ خُصُوصُ الْمُضَارَعَةِ إِثَارًا لِكُلِّ مِنَ الصِّفَتَيْنِ بِالْفِعْلِ الَّتِي هِيَ بِهِ أَجْدَرُ لِأَنَّ التَّزْيِينَ لَمَّا كَانَ هُوَ الْأَسْبَقُ فِي الْوُجُودِ وَهُوَ مَنشَأُ السُّخْرِيَةِ» انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ٢/ ٢٩٧.

(٢) انظر: الْكَشَافُ ١/ ٤٢١.

(٣) انظر: الْمُكْتَفَى ص ١٥١، وَمِنْ أَسْرَارِ الْجُمَلِ الاستثنائية ص ٣٢٦.

فلأجل إيضاح المعاني والفصل بين المتغاير الملبس منها، وإزالة الإيهام أو الالتباس والاشتباه كان الوقف في مثل هذه المواضع مُستحسنًا موصوفًا بالتَّمام، وبالإمكان القول: إنَّ الوقف في مثل هذه المواضع قد يكون احتراसा من الوصل القبيح، ومُزيلا للإيهام.

ومن الوقف ما يُزيل الإيهام الخفي الذي له تأوُّل إعرابيٌّ وقد لا يُتنبَّه إليه؛ كما في قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ فإنَّ الوقف على ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ﴾ له وجهٌ إعرابيٌّ (توكيد للمُضمر في: ارحمنا)؛ لكنَّه مُتمحِّل، وفيه إيهام؛ لأنَّ معناه أن الرَّحمة للعباد تكون من الله ومن غير الله سبحانه، ولكنَّهم خصُّوا الله تعالى بطلب الرَّحمة، ثُمَّ لو أعربنا ﴿مَوْلَانَا﴾ منادى، ظهر أنَّ الفاء في ﴿فَانصُرْنَا﴾ مُفحَّمة على الكلام، ممَّا يجعل هذا الوقف مرجوحاً لفظاً ومعنى، مع أنَّ هذه «الفاء طرفٌ في المُجازاة»^(١)، ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا﴾. أمَّا الوقف على ﴿ارْحَمْنَا﴾ فهو الذي يُخلِّص السَّامع من الوقوع في هذا الوهم الخفي؛ لأنَّك ستبتدئ بعده بكلام تامٍّ: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وكذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وقف بعضُ القُرَّاء على ﴿جُنَاحَ﴾^(٢)، ثُمَّ ابتدؤوا بـ ﴿عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ﴾، وهذا الوقف - وإنَّ جازَ صناعةً - لهو عُسفٌ يُفسدُ المعنى إفساداً، ويذهبُ ببلاغة القرآن وإعجاز نظمه، ويوجبُ تفسيراً مُوهماً غيرَ مقصودٍ، وهو أنَّ الحجَّ والعمرة لا جُنَاحَ على مَنْ قامَ بهما! إذ يجعلُ الحجَّ الذي هو أحدُ أركان الإسلام نافلةً جائزة. واستبعد ابنُ هشامٍ (ت ٧٦١هـ) ذلك، ودعا لتجنبِ أمثاله، فقال: «وسأضربُ لك أمثلةً ممَّا خرَّجوه

(١) انظر: القطع والانتشاف ص ٢٠٩، والمُكتفى ص ١٩٣.

(٢) انظر: النُّشر في القراءات العشر ١ / ٢٣١.

على الأمور المستبعدة؛ لتجنبها وأمثالها...؛ كقول بعضهم: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]: إِنَّ الْوَقْفَ عَلَى ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾، وَإِنَّ مَا بَعْدَهُ إِغْرَاءٌ؛ لِيُقَيَّدَ صَرِيحاً مَطْلُوبِيَّةَ التَّطَوُّفِ بِالصَّافَا والمروة.

وَيَرُدُّهُ أَنَّ إِغْرَاءَ الْغَائِبِ ضَعِيفٌ؛ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ إِنْسَانًا يَهْدُّهُ - (عَلَيْهِ رَجُلًا لَيْسَنِي)، أَيْ لِيَلْزِمَ رَجُلًا غَيْرِي، وَالَّذِي فَسَّرَتْ بِهِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خِلَافَ ذَلِكَ، وَقَصَّتْهَا مَعَ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ مَسْطُورَةٌ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، ثُمَّ الْإِيجَابُ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى كَوْنِ (عَلَيْهِ) إِغْرَاءً، بَلْ كَلِمَةٌ (عَلَى) تَقْتَضِي ذَلِكَ مُطْلَقاً^(١)

وبيانُ الآيةِ الكريمة: أَنَّ الْحَاجَّ أَوْ الْمُعْتَمِرَ يَطَّوَّفُ بِالصَّافَا والمروة، وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَرَجٌ فِي ذَلِكَ وَلَا إِثْمٌ. وَهَذَا قَدْ سَأَلَ الْمُتَلَقِّي: كَيْفَ يُقَالُ فِي الْآيَةِ نَفْسِهَا عَنِ الصَّافَا والمروة: إِنَّهُمَا مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، ثُمَّ يُقَالُ: لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا؟، وَالْجَوَابُ أَنَّهُ: «كَانَ عَلَى الصَّافَا إِسَافٌ، وَعَلَى الْمَرْوَةِ نَائِلَةٌ، وَهُمَا صَنَمَانِ، يُرَوَى أَنَّهُمَا كَانَا رَجُلًا وَامْرَأَةً زَنِيَا فِي الْكَعْبَةِ، فَمُسَخَا حَجَرَيْنِ، فَوُضِعَا عَلَيْهِمَا لِيُعْتَبَرَ بِهِمَا، فَلَمَّا طَالَتِ الْمَدَّةُ عُيِدَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا سَعَوْا مَسَحُوهُمَا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَكُسِرَتِ الْأَوْثَانُ كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ الطَّوُافَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَجْلِ فِعْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْأَيُّ يَكُونُ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ فِي ذَلِكَ، فُرِّعَ عَنْهُمْ الْجُنَاحُ»^(٢)، وَالْوَقْفُ الْمُتَوَافِقُ مَعَ الْمَعْنَى يَكُونُ عَلَى ﴿بِهِمَا﴾ لَا عَلَى ﴿جُنَاحَ﴾، وَقَدْ عَدَّهُ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ (ت ٣٣٨هـ) مِنَ الْوَقْفِ التَّامِّ^(٣)، وَعَدَّهُ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي (ت ٤٤٤هـ) مِنَ الْوَقْفِ الْكَافِي^(٤).

(١) انظر: مُغْنِي اللَّيْب ٢/ ٧١٠-٧١٣-٧١٤. وفيه حاشية ٧١٤ منه أَنَّ مَوْجَزَ الْقِصَّةِ: أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ (ت ٩٣هـ) فَهِمَ مِنَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ جَوَازَ الطَّوُافِ وَعَدَمَهُ، فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا، لَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولُ كَانَتْ: ﴿فَلَا جُنَاحَ إِلَّا يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، أَيْ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ لَيْسَ نَفْيًا لَوْجُوبِ الطَّوُافِ، بَلْ هُوَ نَفْيٌ لِلْإِثْمِ الَّذِي تَوَقَّعَهُ الْأَنْصَارُ إِذَا طَافُوا بِالصَّافَا والمروة بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَيْهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ صَنَمَانِ. وَانْظُرْ أَيْضًا: مُعْجَمُ أَسْمَاءِ الْأَفْعَالِ ص ١٠٠.

(٢) انظر: معاني القرآن للقرطبي ١/ ٩٥، وتفسير الطبري ٣/ ٢٣٠، ومعاني القرآن المنسوب للزجاج ١/ ٢٣٣، والكشاف ١/ ٣٤٩-٣٥٠، ومفاتيح الغيب ٤/ ١٣٨.

(٣) انظر: القطع والائتناف ص ١٧١.

(٤) انظر: الْمُكْتَفَى ص ١٧٨.

وكذا في قوله تعالى على لسان لقمان يعظُ ابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ، وَهُوَ يَعِظُهُ، يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾^(١)، لبيتدئ بـ ﴿يَا لَئِنْ لَطُمْتُ لَظْمًا عَظِيمًا﴾ [لقمان: ١٣]، بعض القراء وقف على ﴿لَا تُشْرِكْ﴾^(٢)، لبيتدئ بـ ﴿يَا لَئِنْ لَطُمْتُ لَظْمًا عَظِيمًا﴾ على أن ﴿يَا لَئِنْ﴾ قَسَمٌ لا متعلق للفعل ﴿تُشْرِكْ﴾، وهذا - وإن جاز صناعة - اعتسافٌ وتأوُّلٌ في غير محله، والأولى أن يقف على ﴿يَا لَئِنْ﴾، وبيتدئ بالاستئناف البياني ﴿يَا لَئِنْ لَطُمْتُ لَظْمًا عَظِيمًا﴾. وأمثال ما مرَّ من شواهد الوقف وما فيه من التَّمَحُّل والاعتساف وتحريف الكلم عن مواضعه إنما يُعرَفُ غالباً بمعرفة السِّباق والسِّياق.

ونجمل القول بأن علماء القراءة قد اهتمدوا إلى إشكالية الكلام المتصل صوتياً في إيهام السامع غير المراد في بعض المواضع، فضبطوا تلك المواضع؛ احترازاً من إيهام المتلقي، فكان علم الوقف والابتداء، وذلك حفاظاً على كتاب الله تعالى من الإخلال بمعانيه أو تحريفها أو إيهام السامع غير مقصود الله ﷻ، وهذا الفن من علوم القرآن يُضارِعُ مبحث الفصل والوصل في كُتُبِ البلاغيين غايةً، وإن تباينا تقسيماً واصطلاحاً.



(١) انظر: النثر في القراءات العشر ١/ ٢٣١.

عَوْدُ الضَّمِيرِ

للضمير في لغة العرب أهمية كبيرة؛ فهو كثير الاستعمال؛ لأنه يؤمن للغة عنصر الاقتصاد الذي تسعى إليه^(١)، والإضمار يدل في اللغة على السر والخفاء، والضمير ما تضمنه في قلبك وتخفيه^(٢)، كأن يضم المتكلم اسم من يتكلم عنه، أو من يخاطبه، أو يضم اسمه في حال التكلم، ويجعل هذه الألفاظ كناية عن الاسم المستور.

واستعمال الضمير في الكلام عدول عن ذكر ذلك المتعين متكلماً أو مخاطباً أو غائباً إلى ذكر ضمير يعود عليه، وإن عدول المتكلم عن تكرار الأسماء وتحويله على بديل هو الضمير يُجَنِّبُه الرِّثَابَةَ في الكلام ورداءة الأسلوب وركاكته، إلى ما ينهض به من نُكْتِ بلاغية كالاختصار والتفخيم والتحقير^(٣)، نُكْتُ يكشف عنها السياق والمقام لكل كلام على حدة، ومن أمثلة إفادة الضمير للاختصار قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، أنت ترى أن الضمير المتصل في ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ عائد على عشرين اسماً قبله، ولولا هذا الضمير لتوجب القول مرة ثانية: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ...﴾ وهذا مثال ساطع الدلالة على أثر الضمير في الاختصار، فضمير واحد أغنى عن إعادة ذكر عشرين اسماً.

(١) انظر: النَّحْوُ الْمَيْسَرُ ٧٠/١.

(۲) انظر: اللسان (ضم).

(٣) انظر: المطوّل ص ٢١٤-٢١٧، والبرهان في علوم القرآن ٤/ ٢٤-٢٥.

واستعمال الضمير بكل أنواعه مصدرُ إبانة وإيضاح في العربية؛ إذا أُعيدَ هذا الضميرُ على مرجع يُفسَّرُه؛ لأنَّ الضميرَ المتَّصلَ وحده مُبْهَمٌ لا يُعْقَلُ منه شيءٌ إِلَّا أَنْ تَقْدَمَ اسْمٌ يرفعُ عنه إبهامه؛ فالضمائرُ مُلبَّسةٌ باعتبارِ حقائق مدلولاتها؛ لصحَّةِ إطلاقها على المختلفات، ومع ذلك فإنَّك ترى نُحاةَ العربيَّةِ يعدُّون الضميرَ رأسَ المعارف^(١)؛ وذلك أنَّ عودَ الضمائرِ وتعلُّقها بالأسماء المذكورة قبلَ ليسَ أمراً اعتباطياً ملقًى على عواهنه في العربيَّة؛ لأنَّ المطابقةَ بينَ الضميرِ ومرجعِهِ مُحْتَكَمٌ رئيسٌ في تقرير السَّلامة اللُّغويَّة، وفي فَهْمِ المعنى وتفسيره تفسيراً صحيحاً، فإنَّ قلتَ: (أحبُّ عمراً؛ لأنَّه كريمٌ) ففي هذه الجملةِ مرجعٌ واحدٌ للضميرِ، والضميرُ ومرجعُهُ متطابقانِ في الجنس والعدد (التذكير والإفراد)، وليسَ ثمَّ مرجعٌ ثانٍ، لذا تعيَّنَ تعلُّقُ الضميرِ بمرجعِهِ المتقدِّم (عمرو).

وأما ما يُقالُ عن وجوبِ عودِ الضميرِ إلى أقربِ مذكورٍ^(٢)؛ فإنَّه غيرُ مُطَّردٍ، وإذا قامت لدى المتلقِّي القرائنُ على عودةِ الضميرِ على مذكورٍ ما قبلُ، فلا ينبغي له أن يُراعي في المسألة بُعداً ولا قُرْباً، بل المهمُّ استقامة المعنى، أمَّا إنَّ لم يَهْتَدِ إلى مُرجِّحٍ يُعيدُ الضميرَ إلى غيرِ ذلك القريبِ فينبغي أن يُعادَ الضميرُ إلى أقربِ مذكورٍ خيفة اللبس.

وتمَّ أصلُ آخرٍ ينبغي أن يُراعى، هو أنَّه إذا جاءَ مُضَافٌ ومُضَافٌ إليه، ودُكِرَ بعدهما ضميرٌ؛ فعوده على المضافِ أَوْلَى؛ لأنَّه المُحَدَّثُ عنه دونَ المضافِ إليه؛ نحو: (لقيتُ غلامَ زيدٍ فأكرمتُه)، فالضميرُ للغلامِ^(٣). ولكنَّ يجوزُ للمتلقِّي أن يُعيدَ الضميرَ على المضافِ إليه إن كانَ معه قرينةٌ دالةٌ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٥-٣٦] فالضميرُ في ﴿أَظُنُّهُ﴾ يعودُ على المضافِ إليه ﴿مُوسَى﴾ لا غير، وقد أشارَ إلى ذلك السيوطي (ت ٩١١هـ)^(٤).

(١) هذا مذهب سيبويه (ت ١٨٠هـ) ومن تبعه، ورأسُ المعارف عند الكوفيين وابن السَّراج اسم الإشارة، انظر: الأملِي الشَّجرية (ط ٢٠٠٦) ٣/ ١٩٤، والإنصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٧٠٧، وأسرار العربيَّة ص ٣٠٥.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن ٤/ ٣٩.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن ٤/ ٣٩.

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٨٤.

أَمَا لَوْ قُلْتُ: (جاء زيدٌ وهندٌ وبَيْدِهِ قِطْعَةٌ حُلْوَى) ففي هذه الجملة ضميرٌ (بَيْدِهِ) تقدّمه اسماً؛ هما: (زيد) و(هند)، وقواعد المطابقة تأبى عَوْدَهُ على (هند)؛ ذلك أَنَّهُ لَا يَتَّفِقُ مَعَهُ مِنْ حَيْثُ الْجِنْسُ؛ فـ(هند) مؤنَّثٌ، والضميرُ مُذَكَّرٌ، أَمَا (زيدٌ) والضميرُ فبينهما مُطَابَقَةٌ مِنْ حَيْثُ الْجِنْسُ؛ لذا تَعَيَّنَ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَيْهِ.

وقد يحدثُ أحياناً أَنْ يَتَقَدَّمَ الضَّمِيرُ مَرَجِعَانِ يَتطَابِقَانِ وَمَلَاخِحَهُ جِنْساً وَعَدِداً، وَالتَّلْقِي - مع هذه المطابقة - لَا يَلْتَبَسُ عَلَيْهِ عَوْدُ الضَّمِيرِ؛ فَلَوْ قُلْنَا: (غَسَلَتِ الْمَرْأَةُ الْعَبَاءَ؛ لِأَنَّهَا مُتَسَخِّخَةٌ) لَعَرَفَ السَّامِعُ أَنَّ الْمُتَسَخِّخَ هُوَ الْعَبَاءُ لَا الْمَرْأَةَ، مَعَ أَنَّهَا كِلَيْهِمَا يَصِلِحَانِ مَرَجِعاً لِلضَّمِيرِ مِنْ حَيْثُ الصَّنَاعَةُ، وَمِثْلُ ذَلِكَ لَوْ قُلْنَا: (رَمَى التَّلْمِيزُ الدَّفْتَرَ؛ لِأَنَّهُ مُزَقٌّ) لَمَا تَرَدَّدَ السَّامِعُ لِحِظَةً وَاحِدَةً فِي إِرْجَاعِ الضَّمِيرِ إِلَى الدَّفْتَرِ دُونَ التَّلْمِيزِ، رَغَمَ الْمَطَابَقَةِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَرْجِعَيْنِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِلْفَ اللَّغَوِيَّ وَالْعَلَاقَاتِ السِّيَاقِيَّةَ، وَالتَّعْوِيلَ عَلَى حَقَائِقِ الْحَيَاةِ وَمَنْطِقِ الْأَشْيَاءِ فِي الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ = كُلُّ أَوْلَئِكَ يَعْمَلُ عَلَى تَوْجِيهِ الذَّهْنِ نَحْوَ الْمُتَعَيَّنِ الْمَقْصُودِ.

وَلَكِنَّ الطَّرَافَةَ فِي الْمَوْضُوعِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَطَابَقَةُ الَّتِي هِيَ مُصَدِّرُ إِبَانَةٍ وَإِضَاحٍ وَتَأْمِينٍ مِنَ اللَّبْسِ وَالِإِبْهَامِ أَنْ تَكُونَ هِيَ مُصَدِّرُ التَّبَاسِ الْمَعْنَى فِي ذِهْنِ السَّامِعِ، وَعَلَيْهِ تَكُونُ الْمَطَابَقَةُ بَيْنَ الضَّمِيرِ وَمَرْجِعِهِ مُصَدِّرُ إِبَانَةٍ أحياناً، وَيَاعِثَ اشْتِبَاهُ وَالتَّبَاسِ أحياناً، عِنْدَ غِيَابِ الْقَرِينَةِ الْمَرْجُوحَةِ، فَلَوْ قُلْتُ: (طَلَبَ أَخِي إِلَى أَبِي أَنْ يَتَكَلَّمَ) لَفَهِمَ السَّامِعُ أَنَّ أَخَاكَ يَسْتَأْذِنُ أَبَاكَ فِي الْكَلَامِ؛ وَهَذَا إِنْ أُعِيدَ الضَّمِيرُ الْمُسْتَرْتِ فِي (يَتَكَلَّمَ) عَلَى (أَخِي)، وَلَرَبَّمَا فَهِمَ السَّامِعُ أَنَّ أَخَاكَ رَجَا أَبَاكَ أَنْ يَتَكَلَّمَ (أَيَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ أَبُوكَ)؛ وَهَذَا إِنْ أُعِيدَ الضَّمِيرُ الْمُسْتَرْتِ فِي (يَتَكَلَّمَ) عَلَى (أَبِي). وَالْمَفَارَقَةُ فِي هَذَا أَنَّ الْمَطَابَقَةَ الَّتِي هِيَ مَعْلَمٌ إِبَانَةٌ غَدَتْ فِي سِيَاقِهَا مَعْلَمٌ اشْتِبَاهٍ وَاحْتِمَالٍ قَدْ يُؤْهِمُ السَّامِعَ غَيْرَ الْمَرَادِ، هَذَا بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْمُتَكَلَّمَ لَمْ يَقْصِدْ إِلَى ذَلِكَ، أَمَا لَوْ كَانَ قَاصِداً إِلَى ذَلِكَ مُبَيِّناً هَذَا الْإِشْبَاهَ فَهُوَ الْإِبْهَامُ بَعِينُهُ.

هَذَا، وَإِنْ إِرْجَاعَ الضَّمِيرِ قَدْ يَكُونُ أَدَاءٌ تُمَكِّنُ الْمُتَكَلَّمَ مِنَ الْإِلْبَاسِ عَلَى مَخَاطِبِهِ إِنْ هُوَ أَرَادَ التَّعْمِيَةَ وَالتَّغْطِيَةَ عَلَى أَغْرَاضٍ فِي نَفْسِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقُسْرِيِّ عَلَى الْمَنْبَرِ: «إِنَّ أَمِيرَ

المؤمنين كتبَ إليَّ أنْ أَلْعَنَ عَلِيًّا، فالعنوه، لَعَنَهُ اللهُ»^(١)، فأوْهَمَ أَنَّ الضَّمِيرَ راجِعٌ على عليٍّ (عليه السلام)، وإنَّما هو عائذٌ على الأمرِ له بلعنه.

وقد يتوسَّلُ المتكلِّمُ بالباسِ عَوْدِ الضَّمِيرِ للإيهامِ على المخاطَب؛ فَمِنْ ذلك أنْ رجلينِ اختلفا في أيِّهما أكرمُ عندَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، أبو بكرٍ أم عليٌّ؟ رضي الله عنهما جميعاً، ومعلومٌ أنَّ هذا سؤالٌ لا يدري جوابه إلا رسولُ الله، فأجابهما المسؤولُ جواباً لا مزيدَ في الحُسْنِ عليه؛ إذ قال: «الذي كانت ابنته تحته»^(٢)، فأرضاهما معاً؛ لأنَّ مَنْ يُفْضَلُ أبا بكرٍ فَهَمَّ أنْ ابنته عائشة (رضي الله عنها) كانت زوجَ رسولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ومن يُفْضَلُ عليًّا (رضي الله عنه) فَهَمَّ أنْ بنتُ رسولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فاطمة (رضي الله عنها) كانت زوجَ عليٍّ، والعربُ تقولُ: فلانةٌ تحت فلان إذا كانت زوجاً له وتحت ولايته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [التحریم: ١٠]، وإنَّ منشأ الإيهام ههنا هو أنَّ المجيب تعمَّدَ ألا يُحْكِمَ عبارته، ومن ثَمَّ أتى اختلافُ المتلقِّين في إعادة الضَّمِير، فَمَنْ فضَّلَ أبا بكرٍ أعادَ الضَّمِيرَ الهاء في (ابنته) على أحدِ الرجلين، والهاء الثانية في (تحتَه) على الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ومن فضَّلَ عليًّا أعادَ الضَّمِيرَ الهاء في (ابنته) على الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، والهاء الثانية في (تحتَه) على أحدِ الرجلين. وجعلُ الكلامِ هكذا مُتَشَابِهاً يُعْطِي مَعْنَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ لَا يُرْجَحُ واحدٌ منهما؛ لأنَّهما يفتقران إلى القرائن يُسمَّى (الإيهام)^(٣) في علم البديع، وإنَّ عددنا المعنيين المفهومين من إجابته مُتباينين غيرَ مُتضادين فهما في باب (الاتِّساع)^(٤) من علم البديع.

وقد يكونُ هذا الإيهامُ المتأني من عَوْدِ الضَّمِيرِ غيرَ مقصودٍ من المتكلِّم؛ كقول عليٍّ (عليه السلام): «أيُّها النَّاسُ تزعمون أنَّي قتلْتُ عثمانَ؟ ألا وإنَّ اللهَ قتلَهُ وأنا معه»^(٥)، فتأوَّلَتْهُ الخوارجُ على أنَّه عَطَفَ (أنا)

(١) انظر: الإنصاف في التنبية على المعاني والأسباب ص ٥٧-٥٨.

(٢) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ٣٧٥/٢٨.

(٣) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٥، ص ٦٠٦، ومعاهد التَّنْصِيفِ ٣/١٣٨، وأنوار الربيع ٧/٢.

(٤) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٧، والمنزَع البديع ص ٤٢٩، وأنوار الربيع ٦/٥٣.

(٥) انظر: الإنصاف في التنبية على المعاني والأسباب ص ٥٦.

على الضمير المستتر الفاعل في (قتله)، وأرجعوا (الهاء) في (معه) على اسم الجلالة! فأوجبوا عليه من هذا اللفظ أنه شارك في قتل عثمان رضي الله عنه. وقد عطف بعضهم الضمير (أنا) على (الهاء) من (قتله) وجعلوا الهاء في (معه) عائدة على عثمان؛ يُبطلون بهذا التأول زعم الخوارج^(١)؛ وهذا عطف فاسد لأنهم عطفوا مرفوعاً على منصوب، والحق أن هذه الواو استثنائية؛ على تقدير: (إن الله قتله، وأنا مقتول معه).

إذا فاللبس المتأني من عود الضمير قد يكون متأنيًا من طبيعة تركيب الكلام وعدم إحكامه، وفي هذا تقع ملامة على المتكلم، وقد يكون مقصوداً لغرض توسيع المعنى وإثرائه والاختصار، وهذا تراه جلياً في كثير من آيات القرآن الكريم، وقد يكون هذا الاشتباه مقصوداً بغرض إيهام المتلقي وجعل الدلالة متأرجحة لا تستقر على قرار، وهذا للتلاعب بالمخاطب، وللتفليس من مواقف مُحرجة للمتكلم.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تختلف معناها باختلاف إعادة الضمير إن كان له أكثر من مرجع أو معادٍ، وقد كانت هذه الآيات مثار اهتمام عددٍ من المفسرين في جانب إعادة الضمير إن تعددت مراجعُه، وتوقف تحديد مقصود الآية الكريمة على تحديد مرجع الضمير، فوجدنا منهم من يُعيد الضمير على مرجع واحد لا يُبرز غيره، ومنهم من يذكر المراجع المحتملة للضمير الواحد، ويُرجح أحدها مع التعليل وبيان العلة البلاغية في ذلك، ويعضد ما يذهب إليه بالقرائن والأدلة؛ كالاستدلال بالقراءات القرآنية المتواترة وغير المتواترة التي تُرجح أحد معادَي الضمير الواحد، ومنهم من يستدل بقياس آية على آيات قرآنية أخرى في المعنى نفسه؛ ليرجح معاداً دون آخر، وسرى أمثلة ما ذكر بعد قليل، ولكن لا بُد من التنبيه على أن هذه الآيات نوعان:

الأول: يستطيع المتلقي بعد التأمل أن يُحدد معاد الضمير فيها مُستعيناً بالقرائن والسياق أو التأويل؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ

(١) انظر: الإنصاف في التنبيه على الأسباب ص ٥٦.

عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿[النحل: ٩٨-١٠٠]﴾ فَالظَّاهِرُ أَنَّ (الهَاءَ) فِي ﴿سُلْطَانُهُ﴾، و﴿يَتَوَلَّوْنَهُ﴾، و﴿بِهِ﴾ عَائِدَةٌ عَلَى الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَهَذَا يَصِحُّ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَمُحَالٌ فِي الثَّلَاثِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى سَيَكُونُ: وَالَّذِينَ هُمْ بِالشَّيْطَانِ مُشْرِكُونَ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَتَّبِعَ الْمُتَلَقِّي إِلَى عَوْدِ هَذَا الضَّمِيرِ عَلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ (اللَّهُ)، وَقِيلَ: «التَّقْدِيرُ: وَالَّذِينَ هُمْ ﴿بِاللَّهِ﴾ مُشْرِكُونَ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿سُلْطَانُهُ﴾ لِلشَّيْطَانِ، فَتَكُونُ الْآيَةُ مِنْ بَابِ مَا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ مِنْ ضَمِيرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ. وَأَجَازَ الرَّخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) إِعَادَةَ (الهَاءِ) فِي ﴿بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ عَلَى اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ، أَوْ عَلَى الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ بِتَأْوِيلِ الْبَاءِ لِلْسَّبَبِيَّةِ؛ إِذْ قَالَ: «﴿بِهِ مُشْرِكُونَ﴾: الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى ﴿رَبِّهِمْ﴾. وَيَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الشَّيْطَانِ، عَلَى مَعْنَى: بِسَبَبِهِ وَغُرُورِهِ وَوَسْوَستِهِ»^(١)، وَاخْتَارَ ابْنُ عَاشُور (ت ١٣٩٣ هـ) ثَانِيَهُمَا^(٢).

وَمِنْ ذَلِكَ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ)^(٣)، فَإِنَّ هَذَا الضَّمِيرَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَائِداً عَلَى آدَمَ ﷺ نَفْسِهِ، أَوْ كَمَا تَوَهَّمُ الْبَعْضُ بِأَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ (اللَّهُ)^(٤) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَقِيلَ: بَلِ الْمَقْصُودُ أَحَدُ (الْعَبِيدِ)؛ وَالَّذِينَ نَقَلُوا الْحَدِيثَ دُونَ مَقَامِهِ وَقَرَأْنِ الْأَحْوَالِ الْمُحِيطَةِ بِهِ هُمُ الَّذِي أَفْضَلُوا بِالنَّاسِ إِلَى هَذَا التَّوَهُّمِ؛ إِذْ يُرَوَّى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ يَلْطِمُ وَجْهَ عَبْدِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: قَبَّحَ اللَّهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ عَبْدَهُ؛ فَلْيَتَّقِ الْوَجْهَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ^(٥)، وَقَدْ بَيَّنَّ ابْنُ السَّيِّدِ الْبَطْلَيْوسِيِّ (ت ٥٢١ هـ) أَثَرَ غِيَابِ الْقَرَائِنِ وَالْمَقَامِ عَنِ الْمُتَلَقِّي بِإِيْهَامِهِ غَيْرِ الْمَرَادِ؛ بِقَوْلِهِ: «فَ (الهَاءِ) إِنَّمَا تَعُودُ عَلَى الْعَبْدِ، فَلَمَّا رَوَى الرَّأْيِيُّ الْحَدِيثَ، وَأَغْفَلَ رِوَايَةَ السَّبَبِ؛ أَوْهَمَ ظَاهِرُهُ أَنَّهَا تَعُودُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ،

(١) انظر: الكشاف ٤٧٣/٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٧٩/١٤.

(٣) انظر: صحيح البخاري، ورقم الحديث فيه: (٥٨٧٣).

(٤) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني ص ١٧٠.

(٥) انظر: الغنية في أصول الدين ص ١١٦، والإنصاف في التنبيه على المعاني ص ١٧٩.

وَتَعَالَى»^(١)، وذكر أبو سعيد النيسابوري المعروف بالمتولي الشافعي (ت ٤٧٨هـ) أنه قيل: «إنها كناية راجعة إلى آدم نفسه، ومعناه: خلقه بشراً سويّاً من غير والدٍ ووالدةٍ، ومن غير أن كان نُطفةً وعَلَقَةً، بل صورته ابتداءً، وخلقته على تلك الصورة»^(٢)، وفي هذا الحديث وحده كلامٌ مُستفيضٌ واجتهاداتٌ وتأويلاتٌ كثيرةٌ منثورة في كُتُبِ الشَّرْعِ واللُّغَةِ، وفي هذا أمانةٌ على أثرِ عودِ الضمير في إيهامِ المتلقي وإدخاله فضاءاتٍ رَحْبَةً من التأويل.

ومن الآيات التي اختلفوا في تفسيرها بسبب تعدّد مراجع الضمير قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فالظاهر أن (الهاء) في: ﴿سَكِينَتَهُ﴾، و﴿أَيَّدَهُ﴾ عائدةٌ على (الهاء) في ﴿نَضُرُّهُ﴾ والمرادُ بها الرسولُ محمدٌ ﷺ وإن لم يتقدّم له ذكرٌ؛ لأنّه واضحٌ من السّياق، وقال بهذا قومٌ^(٣)، وذكر الواحدي (ت ٤٦٨هـ) والباقوليّ (ت ٥٤٣هـ) أن الهاء في ﴿سَكِينَتَهُ﴾ لأبي بكرٍ رضي الله عنه، والهاء في ﴿أَيَّدَهُ﴾ بجُنُودٍ ﷺ لرسولِ الله ﷺ^(٤)، وقد ذكر الطبري (ت ٣١٠هـ) القولين كليهما^(٥)، وسكت عن ذلك الزّخشي (ت ٥٣٨هـ)، وكلامه يدلُّ على إرجاعه الهاءين إلى الرسول ﷺ^(٦)، وحكى ابنُ الجزريّ (ت ٨٣٣هـ) أن من القراء أيضاً من أوصى بالوقف على ﴿سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ والابتداء بـ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ بجُنُودٍ ﷺ لدفعِ توهمِ عودِ الضميرين على الرسول ﷺ^(٧).

(١) انظر: الإنصاف في التنبية على المعاني ص ١٧٩.

(٢) انظر: الغنية في أصول الدين ص ١١٧.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٧٧٤/٦.

(٤) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ص ٤٦٤، وكشف المشكّلات وإيضاح المعضلات ٦٩٦/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري ٢٦١/١٤.

(٦) انظر: الكشّاف ٤٦/٣.

(٧) انظر: النّشر في القراءات العشر ٢٣٣/١.

ومن الممكن القول: إِنَّ الضَّمِيرَ ههنا - والله أعلم - كما اختار الواحدي والباقولي، ففي ﴿سَكِينَتُهُ﴾ مُتَوَجِّهٌ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه هو الذي كان مُشْفِقاً عَلَى النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فيقتلوه، أو يُصِيبُوهُ بِمَضْرَّةٍ، أو يُرْجِعُوهُ إِلَى مَكَّةَ، وأبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَوَاسَاةِ، فَكَانَ الرَّسُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُثَبِّتُ فُؤَادَهُ، وَهَذَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ السَّالِفُ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، وَأَمَّا الضَّمِيرُ فِي ﴿أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فَمُتَوَجِّهٌ إِلَى الرَّسُولِ الْكَرِيمِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ السَّابِقَ كَانَ عَنِ النَّصْرَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ نَصَرَهُ، ﴿إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ ثُمَّ أُتِمَّ الْإِخْبَارُ عَنِ النَّصْرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وَأَمَّا ابْنُ عَاشُورٍ (ت ١٣٩٣ هـ) فَقَدْ دَلَّ كَلَامُهُ عَلَى أَنَّهُ يُرْجِعُ الضَّمِيرِينَ إِلَى الرَّسُولِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَرَأَى أَنَّ إِنْزَالَ السَّكِينَةِ عَلَى قَلْبِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَصْرٌ لِنَفْسَانِيٍّ لَهُ، وَأَنَّ تَأْيِيدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ يَرَوْهَا نَصْرٌ لْجُثَمَانِيٍّ أَيْضاً^(١).

ومنه قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]، هَذِهِ الْآيَةُ تَتَكَلَّمُ عَنِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى، وَهُوَ نَعْتُهُ فِي التَّوْرَةِ. وَقِيلَ: بَلْ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ^(٢). وَالتَّسْوِيلُ: تَسْهِيلُ الْأَمْرِ الَّذِي يُسْتَشْعَرُ مِنْهُ صَعُوبَةٌ أَوْ ضَرَرٌ وَتَزْيِينُ مَا لَيْسَ بِحَسَنِ، وَالْإِمْلَاءُ: الْمَدُّ وَالتَّمْدِيدُ فِي الزَّمَانِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْإِبْقَاءِ عَلَى الشَّيْءِ كَثِيراً^(٣).

وظَاهِرُ الْكَلَامِ أَنَّ الضَّمِيرَ الْمُسْتَرِ فِي كُلِّ مِنَ الْفِعْلَيْنِ: (سَوَّلَ - أَمْلَى) عَائِدٌ عَلَى الشَّيْطَانِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ هَذَا الشَّيْطَانَ يُسَوِّلُ لَهُمْ وَيُؤْمِلِي. وَقِيلَ: أَمْلَى لَهُمُ اللَّهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّتَ كِيدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] وَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْوَاوُ لِلْإِسْتِنَافِ لَا لِلْعَطْفِ؛ وَالْمَعْنَى: الشَّيْطَانُ يُزَيِّنُ لَهُمُ الْبَاطِلَ

(١) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ٢٠٣/١٠.

(٢) انظر: الْكَشَافُ ٥٢٧/٥.

(٣) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ١١٦/٢٦.

ويدفعهم إليه، وأنا أمدُّ لهم وأنظرهم؛ وهذا الكلام وعيدٌ لهؤلاء وتنبيةٌ لهم. وقد ذهب إلى ذلك الفراء (ت ٢٠٧هـ) مُستدلاً بالقراءات القرآنية، حين قال: «وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ [عند: ٢٥] زَيْنَ لَهُمْ وأَمَلَى لَهُمُ اللهُ، وكذلك قرأها الأعمش وعاصم، وذكر عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وزيد بن ثابت (رحمهم الله) أنهم قرؤوها كذلك بفتح الألف [يعني بالمبني للمعلوم إخباراً عن الله تعالى]، وذكر عن مجاهد أنه قرأها: ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ مُرسلة الياء [يعني بالمبني للمعلوم]، يُخبرُ اللهُ جَلَّ وعَزَّ عن نفسه، وقرأ بعض أهل المدينة: ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ بنصب الياء وَصَمَّ الألف، يجعلُهُ فِعْلاً لم يُسَمَّ فاعله، والمعنى مُتقاربٌ^(١)، وإلى ذلك مَالُ الطبري (ت ٣١٠هـ) إذ قال: «قوله: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾: الشَّيْطَانُ زَيْنَ لَهُمْ ارتدادهم على أدبارهم، من بعد ما تبَيَّنَ لهم الهدى...، وقوله: (وَأَمَلَى لَهُمْ): ومدَّ اللهُ لَهُمْ في آجالهم مِلاوةً من الدهر، ومعنى الكلام: الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ، واللهُ أَمَلَى لَهُمْ»^(٢)، ومثلها أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ)^(٣)، والباقولي (ت ٥٤٣هـ)^(٤)، وأما أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) فعَلَّقَ على عودِ الضمير ههنا بكلام لا مزيدَ في الحُسْنِ عليه مُستدلاً بآياتٍ أخرى في موضوع الآية نفسه وبالقراءات أيضاً؛ إذ قال: «والضميرُ في ﴿وَأَمَلَى﴾ لاسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، كما قال في أخرى: ﴿أَمَلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لَّا نَفْسِهِمْ إِنَّمَا نُطِلُّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] فأما قراءةُ أبي عمرو: ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾، فبناءُ الفعلِ للمفعول به حَسَنٌ في هذا الموضع؛ للعلمِ بأنَّه لا يُؤخَّرُ أحدٌ مُدَّةً أحدٍ، ولا يُوسَّعُ له فيها إلَّا اللهُ سبحانه. قال أبو الحسن [يقصد الأخفش ت ٣١٥هـ]: هي حَسَنَةٌ في المعنى»^(٥)، وسكتَ عن معادِ الضمير الواحدِي (ت ٤٦٨هـ) حين قال: «﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾:

(١) انظر: معاني القرآن للقرآن ٦٣/٣، السبعة في القراءات ص ٦٠٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٨١/٢٢.

(٣) انظر: إعراب القرآن للنحاس ١٢٥/٤.

(٤) انظر: كشف المُشكِلات وإيضاح المُعْضِلَات ١٢٤٨-٦٩٧/٢.

(٥) انظر: الحجة للقرآن السبعة ١٩٥-١٩٦/٦.

رَئِينَ لَهُمْ، ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾: أَطَالَ لَهُمُ الْأَمَلُ^(١)، وَذَكَرَ الرَّخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) الوجهين دون الترجيح بينهما^(٢).

ومن الممكن القول: إِنَّمَا أَنْ نَفْعَلْ كَالرَّخْشَرِيِّ؛ بَلَّا نَقْصُرَ هَذَا الضَّمِيرَ عَلَى مَرْجِعِ دُونَ آخِرٍ؛ لافْتِقَارِ ذَلِكَ إِلَى الْقَرَائِنِ وَالْمُرْجَّحَاتِ أَوَّلًا، وَلَآنَ فِي فَهْمِ الْمَعْنِينَ مَعًا إِثْرَاءً لِلنَّصِّ. وَإِنَّمَا أَنْ نُرْجِّحَ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿سَوَّلَ﴾ عَائِدٌ عَلَى الشَّيْطَانِ، وَفِي ﴿وَأَمَلَى﴾ عَائِدٌ عَلَيْهِ جَلَّ ذِكْرُهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّا إِنْ أَعَدْنَا الضَّمِيرَيْنِ كِلَيْهِمَا عَلَى مَرْجِعٍ وَاحِدٍ هُوَ الشَّيْطَانُ كَانَ الْكَلَامُ مُفِيداً مَعْنَى التَّنْبِيهِ مِنْ تَغْرِيرِ الشَّيْطَانِ وَسُوءِ صَنِيعِ هَؤُلَاءِ، أَمَّا إِنْ أَعَدْنَا الضَّمِيرَ فِي ﴿وَأَمَلَى﴾ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَفَادَ الْكَلَامُ التَّنْبِيهِ مِنْ تَغْرِيرِ الشَّيْطَانِ وَسُوءِ صَنِيعِ هَؤُلَاءِ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ مَعْنَى زَائِداً هُوَ الْوَعِيدُ وَالتَّحْذِيرُ، وَأَنَّ بَانْتِظَارَهُمْ عَاقِبَةً وَخِيَمَةً، وَإِنْ تَأَخَّرَتْ، وَاللَّهُ - تَعَالَى - أَعْلَمُ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا﴾ (٨) لِيَتُؤَمِّنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفتح: ٨-٩]، ففِي هَذِهِ الْآيَةِ يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى مَهَامَ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعْنَى (تُعَزِّرُوهُ: أَي تُوَيِّدُونَهُ بِالنُّصْرَةِ)؛ وَجَاءَتِ التَّعَابِيرُ الْآتِيَةُ: ﴿تُعَزِّرُوهُ﴾، وَ﴿تُوَقِّرُوهُ﴾، وَ﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ فِيهَا ثَلَاثَةُ ضَمَائِرَ، ظَاهِرُهَا - كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْبَعْضُ - أَنَّهَا تَعُودُ عَلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ عَمَلًا بِالقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ، وَهُوَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، وَلَكِنْ كَيْفَ يَسْتَقِيمُ الْكَلَامُ إِنْ عَادَ التَّسْبِيحُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ؟، لَذَا تَرَى مُتَوَهِّمًا يَقُولُ: «الْأَصْلُ فِي الضَّمِيرِ عَوْدُهُ عَلَى آخِرِ مَذْكُورٍ، بَيْنَمَا نَجِدُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ عَائِدٌ عَلَى الرَّسُولِ الْمَذْكُورِ آخِراً، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ فَعَائِدٌ عَلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ الْمَذْكُورِ أَوَّلًا!!»^(٣)، وَكَأَنَّهُ يَنْعَى عَلَى الْقُرْآنِ الْخَطَأَ فِي نَحْوِ الْكَلَامِ!.

(١) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ص ١٠٠٤.

(٢) انظر: الكشف ٥٢٦/٥ - ٥٢٧.

(٣) انظر: تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المُبْطِلِينَ ص ٢٢٤.

وهنا يُذكرُ أنَّ أغلبَ المفسِّرين يرون أنَّ الضَّميرَ في ﴿تُعْزِّرُوهُ﴾ و﴿تُوقِّرُوهُ﴾ للنَّبِيِّ ﷺ، وفي ﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ ﷻ (١)، والزَّخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨هـ) وغيرُه يرى أنَّ هذه الضَّمائرُ الثلاثةُ عائدةٌ على اسمِ الجلالة، ويؤوِّلُها مُستعِيناً بالمجاز، فيقولُ: «والضَّمائرُ لله عزَّ وجلَّ، والمرادُ بتعزيرِ الله: تعزيرُ دينه ورسوله ﷺ، ومَنْ فَرَّقَ الضَّمائرَ فقد أبعَدَ» (٢)، وقد يُخالفُ الزَّخْشَرِيُّ في هذا الكلام كما ستري في الأمثلة بعدُ، وأشارَ إلى ذلك الشُّيُوطِيُّ أيضاً (٣). وحكى ابنُ الجَزَرِيِّ (ت ٨٣٣هـ) أنَّ من القراء من أوصى بالوقفِ على ﴿تُوقِّرُوهُ﴾ ثمَّ الابتداءِ بـ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ «لأنَّ يَوْهَمَ اشْتِراكِ عَوْدِ الضَّمائرِ على شيءٍ واحدٍ...» (٤)، وكان الزَّخْشَرِيُّ ذا رأيٍ في التَّفريقِ بينَ الضَّمائرِ وَعَوْدِها على أكثرَ من مُتقدِّم، وهو يعيبُ ذلك، ويجعلُه تنافراً مُحرِجاً للقرآنِ الكريمِ عن إعجازِه؛ فمثلاً في قولِه تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [طه: ٣٨-٣٩] والقَذْفُ: أصلُه الرَّمي، وأُطْلِقَ هنا على الوَضْعِ في التَّابُوتِ، تمثيلاً لهيئةِ المُخْفِي عَمَلِه، فَهُوَ يُسْرِعُ وَضْعَهُ مِنْ يَدِهِ كَهَيْئَةِ مَنْ يَقْذِفُ حَجَراً وَنَحْوَهُ (٥). وحينَ وجدَ الزَّخْشَرِيُّ مِنَ المفسِّرين مَنْ يُعيدُ الضَّميرَ في ﴿أَقْذِفِيهِ﴾ الأولى على موسى، وفي ﴿أَقْذِفِيهِ﴾ الثانية على التَّابُوتِ، قالَ: «والضَّمائرُ كُلُّها راجعةٌ إلى موسى. ورجوعُ بعضها إليه، وبعضُها إلى التَّابُوتِ فيه هُجْنَةٌ؛ لِمَا يُوَدِّي إليه من تنافرِ النَّظْمِ. فإن قلتَ: المَقْذُوفُ في البحرِ هو التَّابُوتُ، وكذلك المُلْقَى إلى السَّاحِلِ. قلتَ: ما ضَرَّكَ لو قلتَ: المَقْذُوفُ والمُلْقَى هو موسى في جوفِ التَّابُوتِ؟ حتى لا تُفَرِّقَ الضَّمائرَ، فيتنافَرُ عليك النَّظْمُ الذي هو أُمُّ إعجازِ القرآنِ والقانونُ الذي وَقَعَ عليه التَّحْدِي، ومراعاتُه أهمُّ ما يجبُ على المفسِّر» (٦)، وبهذا أخذَ ابنُ عاشورٍ (ت ١٣٩٣هـ) (٧).

(١) انظر: كشف المُشكِلات وإيضاح المُعضلات ٢/ ٦٩٧-١٢٥١.

(٢) انظر: الكشَّاف ٥/ ٥٣٧، والهداية إلى بلوغ النِّهاية ١١/ ٦٩٤٣.

(٣) انظر: الإِتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٨٥.

(٤) انظر: النُّشْر في القراءات العَشْر ١/ ٢٣٣.

(٥) انظر: التَّحْريِر والتَّنْوير ١٦/ ٢١٦.

(٦) انظر: الكشَّاف ٤/ ٨١.

(٧) انظر: التَّحْريِر والتَّنْوير ١٦/ ٢١٦-٢١٧.

= وأما النوع الثاني: فهو الذي لا يجد فيه المتلقي القرائن التي تهديه إلى تحديد مرجع واحد للضمير، واطراح ما بقي من المراجع، وهذا يُكسِبُ الكلامَ غِنًى وَسَعَةً إِنْ كَانَ مقصوداً من المتكلم، وله فوائد بلاغية تستحق الوقوف عندها؛ فمثلاً في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، وموضع النظر في هذه الآية الكريمة الضمير في ﴿حُبِّهِ﴾؛ وذلك أنَّ قواعد المطابقة تُجيزُ عودَه على غير مرجع، فملاحة تتفق وملاح اسم الجلالة (الله) جلَّ ذكره، المذكور في الآيات السَّابِقَاتِ، والمعنى: أَنَّهُمْ يُطْعَمُونَ الفقراءَ على حُبِّ الله دون انتظارٍ جزاء أو ثناءٍ من أحدٍ، ويتفق هذا الضميرُ أيضاً مع ملاح ﴿الطَّعَامَ﴾ المذكور قبلاً، والمعنى: أَنَّهُمْ يُؤْثِرُونَ الفقراءَ على أنفسهم فيطعمونهم على حُبِّ هذا الطَّعامِ، أي: على قَلَّتِهِ وحُبِّهم له ورغبتهم فيه^(١). وجاء في تفسير البغوي (ت ٥١٠هـ): ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾، أي: على حُبِّ الطَّعامِ وقَلَّتِهِ وشهوتهم له وحاجتهم إليه. وقيل: على حُبِّ الله^(٢). وأنت ترى جمالية تعدد مرجع الضمير في هذه الآية حيث دعا إلى خصلتين هما (الإخلاص)، و(الإيثار). وأما الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) فاختار أَنَّهُ عائدٌ على الطَّعامِ؛ أي: يُطْعَمُونَ الطَّعامَ مع اشتهاؤه والحاجة إليه، وذكر أَنَّ الفُضَيْلَ بنَ عِيَاضٍ (ت ١٨٧هـ) فسره: على حُبِّ الله^(٣)، واختار ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ) أَنَّ الضميرَ عائدٌ على الطَّعامِ، وأنَّهُمْ يُطْعَمُونَ الطَّعامَ وهم في حاجةٍ إليه وبهم خصاصة^(٤)

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ لأنَّ الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْفُرْجِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ وَأَبْنَاءُ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ [البقرة: ١٧٧]؛ لأنَّ الضميرَ في ﴿حُبِّهِ﴾ قد يكونُ عائداً على ﴿الْمَالِ﴾، أي: وآتى المالَ على حُبِّ المالِ، وقد يكونُ عائداً على ﴿مَنْ﴾، أي: وآتى المالَ على حُبِّ المؤمنِ له، وقد يكونُ عائداً على (الإتيان)، أي: وآتى

(١) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ص ١١٥٨.

(٢) انظر: تفسير البغوي ١٩١/٥.

(٣) انظر: الكشف ٢٧٧/٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣٨٤/٢٩.

المال على حُبِّ الإتيان، وقد يكونُ عائداً على (الله) جَلَّ ذِكْرُهُ في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾، أي: وآتى المالَ على حُبِّ الله، أي على حُبِّه الله^(١)، وها نحنُ أمامَ آيةٍ كريمةٍ تتعدَّدُ فيها وجوهُ القولِ على (مَرَجِعِ الضَّمير)، وكلُّها مُتَقَبَّلَةٌ غيرُ مُتَدافِعَةٍ؛ لأنَّها مُناسِبَةٌ ومُتَوافِقَةٌ مع السِّياق، وبإمكانِ المتلقِّي أن يأخذَ بالمعاني الأربعةِ معاً لأنَّها أثَّرتِ المعنى، فيفيدُ هذا الضَّميرُ معاني كثيرةً، إذ هو قد يعودُ على: المالِ، أو المؤمنِ، أو الإتيانِ، أو الله ﷻ.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢] فالآيةُ الكريمةُ تُثَبِّتُ فؤادَ المؤمنِ لئلا يملكه الغمُّ والحزن إن أصابته مصيبة، ونبرأها بمعنى نخلقها، وقواعدُ المطابقة تُتيحُ لنا إعادةَ الضَّميرِ في ﴿نَبْرَأَهَا﴾ على ثلاثةِ مَراجِعٍ متقدِّمة:

١- الأنفُس: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَ الْأَنْفُسَ^(٢).

٢- المصيبة: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَ الْمَصِيبَةَ^(٣).

٣- الأرض: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَ الْأَرْضَ.

وقد أعاده الزَّخَشَرِيُّ (ت ٥٣٨هـ) على الأنفُسِ والمصائبِ معاً^(٤)، وجاء في تفسير القرطبيّ (ت ٦٧١هـ) وفي تفسير البيضاويّ (ت ٦٨٥هـ) أَنَّ الضَّميرَ في ﴿نَبْرَأَهَا﴾ عَائِدٌ عَلَى الْأَنْفُسِ أَوْ الْأَرْضِ أَوْ الْمَصَائِبِ أَوْ الْجَمِيعِ^(٥). وقال الرَّازِيُّ (ت ٦٠٦هـ): «أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ فَقَدْ

(١) انظر: تفسير الطُّبري ٣/ ٣٤٠، وتفسير ابن أبي حاتم ص ٢٨٨، ومُشْكِلُ إعراب القرآن ١/ ١١٨، والهداية إلى بلوغ النِّهاية ١/ ٥٥٨، والكشاف ١/ ٣٦٣، وتفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) ١/ ٢٤٣، وزاد المسير في علم التفسير ١/ ١٣٦، ومفاتيح الغيب ٥/ ٢١٥، وتفسير القرطبيّ ٢/ ٢٤٢، وتفسير البيضاويّ ١/ ١٢١، والتَّحْريِر والتَّنْوير ٢/ ١٣٠.

(٢) انظر: معاني القرآن للقرّاء ٣/ ١٣٦، وزاد المسير في علم التفسير ٤/ ٢٣٧.

(٣) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ص ١٠٧٠.

(٤) انظر: الكشاف ٦/ ٥٠.

(٥) انظر: تفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٧، وتفسير البيضاويّ ٥/ ١٨٩.

اختلفوا فيه، فقال بعضهم: من قبل أن نخلق هذه المصائب، وقال بعضهم: بل المراد الأنفس، وقال آخرون: بل المراد نفس الأرض، والكل مُحْتَمَلٌ؛ لأنَّ ذِكْرَ الْكُلِّ قد تَقَدَّمَ، وإنَّ كَانَ الْأَقْرَبُ نَفْسَ الْمَصِيبَةِ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الْمَقْصُودُ، وقال آخرون: المراد من قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَ الْمَخْلُوقَاتِ، والمخلوقات وإن لم يتقدَّم ذِكْرُهَا إِلَّا أَنَّهَا لظهورها يجوزُ عودُ الضمير إليها^(١)

وقد اختلف أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، بحسب إعادة الضمير؛ فلك أن تقول: إنَّ الضمير (ها) في ﴿إِنَّهَا﴾ عائِدٌ على الاستعانة على تقدير: وإنَّ الاستعانة...، كما في قوله تعالى: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] أي: اعدلوا؛ عدلكم أقرب للتقوى، وهذا توجيهٌ سيبويه (ت ١٨٠هـ) بقوله: «ومثل ذلك قول العرب: «مَنْ كَذَبَ كَانَ شَرًّا لَهُ» يريد كَانَ الْكَذْبُ شَرًّا لَهُ، إِلَّا أَنَّهُ اسْتَغْنَى بِأَنَّ الْمَخَاطَبَ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ الْكَذْبُ، لقوله: (كَذَبَ) في أول حديثه»^(٢)، ولك أن تقول: إنَّ الضمير (ها) عائِدٌ على ﴿الصَّلَاةِ﴾ لأهميتها، ولك أن تُعيدَه أيضاً على جملة الأوامر والنواهي في الآيات السابقة^(٣)، ولو عدنا أدراجنا قليلاً، وتأملنا في قوله سبحانه: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلُ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازَهُبُونَ﴾ ٤٠ ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ ٤١ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَالْأَمْرِ وَالنَّوَهي قَائِمُونَ﴾ ٤٢ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ٤٣ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٤٤ ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٠] = لكان بوسعنا القول: إنَّ الضمير (ها) في ﴿إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ عائِدٌ على جملة الأوامر والنواهي قبل؛ من ذكر نعمة الله، والإيفاء بعهدِهِ، وخشيته، والإيمان بالكتاب الذي أنزله عليهم، وعدم خلط الحق بالباطل طمعاً

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢٩/٤٦٧.

(٢) انظر: سيبويه ٢/٣٩١.

(٣) انظر: الكشف ١/٢٦٢.

بِعَرَضِ الدُّنْيَا، وإِقَامِ الصَّلَاةِ وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وعدمِ الرِّياءِ... وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ كَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ.
وَأَمَّا ابْنُ عَاشُور (ت ١٣٩٣ هـ) فَقَالَ: «وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ اُخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعَادِ ضَمِيرِ
(إِنَّهَا)؛ فَقِيلَ: عَائِدٌ إِلَى الصَّلَاةِ، وَالْمَعْنَى: إِنَّ الصَّلَاةَ تَصْعَبُ عَلَى النَّفْسِ؛ لِأَنَّهَا سَجَنٌ لِلنَّفْسِ، وَقِيلَ:
الضَّمِيرُ لِلِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...، وَقِيلَ: رَاجِعٌ إِلَى الْمَأْمُورَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ... وَهَذَا الْآخِرُ مِمَّا جَوَزَهُ
صَاحِبُ (الْكَشَافِ)، وَلَعَلَّهُ مِنْ مُبْتَكِرَاتِهِ، وَهَذَا أَوْضَحُ الْأَقْوَالِ وَأَجْمَعُهَا، وَالْمَحَامِلُ مُرَادَةٌ»^(١)

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾
[الواقعة: ٧٧-٧٩]، فَاَلْمُفَسِّرُونَ فِي كَلِمَةِ ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ عَلَى قَوْلَيْنِ، أَحَدُهُمَا: الْمَلَائِكَةُ^(٢)، وَثَانِيهَا:
النَّاسُ. وَاحْتِمَالُ الْكَلِمَةِ لِلْمَعْنَيْنِ هَهُنَا بِحَسَبِ إِعَادَةِ الضَّمِيرِ (الهاءِ)، وَهَذَا أَوْضَحَهُ الزَّخَّشَرِيُّ
(ت ٥٣٨ هـ) بِقَوْلِهِ: «﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ مَصْنُوعٌ مِنْ غَيْرِ الْمُقَرَّبِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ مَنْ
سِوَاهُمْ، وَهُمْ الْمُطَهَّرُونَ مِنْ جَمِيعِ الْأَدْنَسِ أَدْنَسِ الذُّنُوبِ وَمَا سِوَاهَا؛ إِنْ جَعَلْتَ الْجُمْلَةَ [لَا يَمَسُّهُ]
صِفَةً لـ (كِتَابٍ مَكْنُونٍ)، وَهُوَ اللَّوْحُ. وَإِنْ جَعَلْتَهَا صِفَةً لِلْقُرْآنِ، فَالْمَعْنَى: لَا يَنْبَغِي أَنْ يَمَسَّهُ إِلَّا مَنْ هُوَ
عَلَى الطَّهَارَةِ مِنَ النَّاسِ، يَعْنِي مَسَّ الْمَكْتُوبِ مِنْهُ»^(٣). وَمَنْ قَالَ بِثَانِيهَا فَالْمَعْنَى عِنْدَهُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ
يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا مَنْ هُوَ عَلَى الطَّهَارَةِ مِنَ الْبَشَرِ^(٤)، فَعَوْدُ الضَّمِيرِ هَهُنَا يَنَازُ وَفَقَ فَهَمُ مَقْصُودِ الْكِتَابِ
الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَمِثْلُ هَذَا الْاجْتِهَادِ وَالتَّبَايُنِ فِي إِعَادَةِ الضَّمِيرِ قَدْ يُفْضِي إِلَى اخْتِلَافٍ فِي
الْاجْتِهَادَاتِ الْفَقْهِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمِنْ مِثْلِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ
بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فَالضَّمِيرُ فِي ﴿بَعْدِهِ﴾ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ مَرَجِعَيْنِ، وَهُمَا ﴿اللَّهُ﴾ جَلَّ ذِكْرُهُ؛ أَيْ:

(١) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ١/ ٤٧٩.

(٢) انظر: معاني القرآن للقرآء ٣/ ١٢٩-١٣٠، والتَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ٢٧/ ٣٣٤.

(٣) انظر: الْكَشَافُ ٦/ ٣٨.

(٤) انظر: الْكَشَافُ ٦/ ٣٨، وَتَفْسِيرُ أَبِي السُّعُودِ ٨/ ٢٠٠.

فَمَنْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ^(١)، وَ(الْخِذْلَان)؛ أَي: فَمَنْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِ الْخِذْلَان ^(٢)، وَقَدْ ذَكَرَ الرَّازِيُّ (ت ٦٠٦ هـ) وَالْقُرْطُبِيُّ (ت ٦٧١ هـ) الْوَجْهَيْنِ مَعاً ^(٣). وَالْمَعْنَيَانِ مَقْبُولَانِ غَيْرُ مُتَدَافِعَيْنِ؛ فَالآيَةُ فِيهَا تَرْغِيبٌ بِنَصْرِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ، وَتَرْهيبٌ مِنْ خِذْلَانِهِ لغيره.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ضَمِيرَانِ تَقَدَّمَ هُمَا مَرْجِعَانِ، وَيَنْبَغِي أَنْ نَرْبِطَ كُلَّ ضَمِيرٍ مِنْهُمَا بِمَرْجِعِهِ حَتَّى يَسْتَقِيمَ الْمَعْنَى، وَقَوَاعِدُ الْمِطَابَقَةِ الَّتِي إِنْ تَحَقَّقَتْ تُفْضِي إِلَى الْإِبَانَةِ؛ الظَّاهِرُ أَنَّهَا تُفْضِي هَهُنَا إِلَى الْاِشْتِبَاهِ وَالْاِحْتِمَالِ؛ فَالضَّمِيرُ فِي ﴿آتَاهُ﴾ ذُو وَجْهَيْنِ: فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَائِداً عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَيَجُوزُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ^(٤)، وَهُوَ (نَمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ) ^(٥)، وَالْفَرْقُ الْمَعْنَوِيُّ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَرْجِعَيْنِ بَيِّنٌ لَا يَخْفَى، فَإِنْ كَانَ الضَّمِيرُ عَائِداً عَلَى (نَمْرُودَ) فَهُوَ عَلَى مَعْنَى أَنْ إِيْتَاءَهُ الْمُلْكَ أَبْطَرُهُ وَأَوْرَثَهُ الْكِبَرَ وَالْعُتُوَّ فَحَاجَّ لَذَلِكَ بِالْبَاطِلِ بَعْدَ أَنْ ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ، أَوْ أَنَّهُ وَضَعَ الْمُحَاجَّةَ فِي رَبِّهِ مَوْضِعَ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، فَكَأَنَّ الْمُحَاجَّةَ وَالْمُجَادَلَةَ وَالْمُخَاصَمَةَ كَانَتْ لَذَلِكَ، كَمَا تَقُولُ: عَادَانِي فَلَانٌ لَا تِي أَحْسَنْتُ إِلَيْهِ ^(٦)، وَهَذَا أَدْعَى إِلَى تَنْفِيرِ الْمُتَلَقِّي مِنْ فِعْلِ النَّمْرُودِ الَّذِي قَابَلَ نِعْمَةَ اللَّهِ بِالْكَفْرِ دُونَ الشُّكْرِ.

وَإِنْ كَانَ عَائِداً عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام كَانَ بَاعَثَهُ عَلَى الْمُحَاجَّةِ هُوَ شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا آتَاهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَ﴿الْمُلْكَ﴾ بِمَعْنَى التَّمَكُّنِ وَالْقُدْرَةِ وَالْبَسْطَةِ فِي الدُّنْيَا ^(٧). وَكَذَا الضَّمِيرُ فِي ﴿رَبِّهِ﴾ فَهُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الْعُودِ عَلَى النَّمْرُودِ، وَالْعُودِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَعُودُهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ أَظْهَرُ؛ وَقَدْ قَالَ

(١) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ص ٢٤٠.

(٢) انظر: تفسير البغوي ١/ ٥٢٧، والكشاف ١/ ٦٤٨، وزاد المسير في علم التفسير ١/ ٣٤١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٩/ ٤١١، وتفسير القرطبي ٤/ ٢٥٤.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب ٧/ ٢٠-٢١، والتبيان في إعراب القرآن ١/ ٢٠٦.

(٥) انظر: تفسير مجاهد ص ٢٤٣.

(٦) انظر: الكشاف ١/ ٤٨٨.

(٧) انظر: مفاتيح الغيب ٧/ ٢١.

الرَّازِيُّ (ت ٦٠٦ هـ): «والضَّمِيرُ في قوله: ﴿فِي رَبِّهِ﴾ ﴿يَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الطَّاعِنِ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨٠]، والمعنى: وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ فِي رَبِّهِ»^(١).

وأنت ترى أَنَّ هذه الظَّاهِرَةَ - تعدُّ مرجع الضَّمِير، مع انتفاء القرينة المُحدَّدة - بابٌّ من الاتِّساع في فَهْمِ المعنى ينفُتِحُ على فضاءاتٍ رَحْبَةٍ مِنَ التَّأْوِيلِ، وَيُثْرِي النَّصَّ، وَيَزِيدُهُ غِنًى، وَيُكَسِبُهُ صِفَةَ التَّجَدُّدِ؛ لِأَنَّ الْمُتَلَقِّيَّ هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ المعنى بِحَسَبِ فَهْمِهِ، وَقَدْ يَتَنَبَّهُ إِلَى أَنَّ لِهَذِهِ الْعِبَارَةَ مَعَانِيَّ مُتَنَوِّعَةً كُلُّهَا صَحِيحٌ، وَهَذَا هُوَ الْإِعْجَازُ فِي الْإِيْجَازِ، حَيْثُ الْأَلْفَاظُ الْيَسِيرَةُ تُخْتِزِنُ الْمَعَانِيَ الْكَثِيرَةَ، وَتَعُدُّ الْمَعَانِيَ فِي الْعِبَارَةِ الْوَاحِدَةِ أَدْعَى لِحَيَاةِ النَّصِّ؛ لِأَنَّ النَّصَّ الْأَحَادِيَّ الدَّلَالَةَ يَقْرُوهُ الْمُتَلَقِّيُّ وَيَفْقَهُ مَعْنَاهُ، ثُمَّ قَدْ لَا يَكُونُ مُضْطَرًّا إِلَى مُرَاجَعَتِهِ لِاسْتِنْبَاطِ مَعَانِيهِ الْخَفِيَّةِ وَدَلَالَتِهِ الْمُحْتَمَلَةِ، بِعَكْسِ النَّصِّ الَّذِي يُخْتِزِنُ وَيَسْتَوْعِبُ دَلَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةً؛ لِأَنَّ مَعَانِيَهُ تَتَجَدَّدُ بِتَجَدُّدِ قِرَاءَاتِهِ.

وهنا لَا بُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَمْرٍ هُوَ أَلَّا يُذْهَبَ إِلَى أَنَّ الضَّمَائِرَ مِنْ مَوَارِدِ اللَّبْسِ عَلَى الْمُتَلَقِّيِّ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ فَقَدْ يَحْدُثُ أَلَّا يَكُونَ مَرْجِعٌ مَذْكُورٌ لِلضَّمِيرِ، وَلَكِنَّ الْإِلْفَ اللَّغَوِيَّ وَالْعَهْدَ الذَّهْنِيَّ كَفِيلَانِ بِاسْتِرْفَادِ الْمَرْجِعِ الْمَغِيبِ؛ وَالتَّكَلُّمُ قَدْ يَلْجَأُ لِهَذَا تَوْشَعًا وَاخْتِصَارًا؛ ثِقَةً بِفَهْمِ الْمُخَاطَبِ، أَوْ تَحْرِيكًا لِفَهْمِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّصَّ الَّذِي يَأْخُذُ مِنَّا جَهْدًا وَتَفَكُّرًا هُوَ الْأَكْثَرُ عُلوْقًا وَرُسُوخًا فِي أَذْهَانِنَا.

وقد ذَكَرَ هَذَا الْمَطْلَبَ ابْنُ قُتَيْبَةَ (ت ٢٧٦ هـ) تَحْتَ عِنْوَانٍ: «وَمِنَ الْإِخْتِصَارِ أَنْ تُضْمِرَ لغير مَذْكُور»^(٢)، وَمِثْلُ ذَلِكَ بآيَاتٍ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] يَرِيدُ: الشَّمْسُ، وَتَحْدِيدُ الْعِلْمَاءِ لِمَرْجِعِ مِثْلِ هَذَا الضَّمِيرِ لَمْ يَكُنْ خَبْطَ عَشَوَاءَ، وَإِنَّمَا كَانَ يَسْتَنْدُ إِلَى الْقَرِينَةِ وَالْذَّلِيلِ، فَهَذِهِ الْآيَةُ مِثْلًا لَكِي نَعْرِفَ كَيْفَ اسْتَدَلُّوا عَلَى مَرْجِعِ هَذَا الضَّمِيرِ فِيهَا، يَنْبَغِي أَنْ نَقْرَأَهَا فِي سِيَاقِهَا: ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَنًا نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِئَتُ الْهَيَّادُ [ص: ٣٠-٣٢]، وَقَدْ اسْتَدَلُّوا عَلَى هَذَا

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٧/ ٢٠.

(٢) انظر: تأويل مُشْكِلِ الْقُرْآن ص ٢٤٣.

المرجع (الشمس) من السَّباق الذي ذُكِرَ فيه (العشي)، ومن السَّباق الدَّالُّ على فواتِ وقتِ الصَّلَاةِ (ذُكِرَ رَبِّي)، وهذا مع ذُكْرِ (التَّواري بالحجاب) يدلُّ على أنَّ مرجع الضَّمير للشمس، وقد قال ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣ هـ): «وَالْعِشْيُ: مِنَ الْعَصْرِ إِلَى الْغُرُوبِ...، وذلك وقتُ افتقادِ الخيلِ والماشيةِ بعدَ رَوَاجِها من مَرَاعيها ومَرَاتِعِها. وَذُكِرَ الْعِشْيُ هُنَا لَيْسَ لِمُجَرَّدِ التَّوَقُّيتِ بَلْ لِيُنَبِّئَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾^(١)، وَيُضْمُّ إِلَى هَذِهِ الْقَرِينَةِ ذِكْرُ حَرْفِ الْغَايَةِ ﴿حَتَّى﴾، وَلَفْظِ (الحِجَابِ)^(٢)».

وقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَابِكَةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، يريد: على الأرض، ومن الآيات التي أُعيد فيها الضَّميرُ إلى الأرضِ ولم تكن ذُكِرَتْ قوله ﷻ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(٣) وَبَعَثَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿الرَّحْمَنُ: ٢٦-٢٧﴾، أي على الأرض^(٤).

ونخلص من الكلام على عود الضَّمير إلى أَنَّهُ يُمَكِّنُ لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يَفِيدَ مِنْ هَذِهِ الْمِيزَةِ اللَّغَوِيَّةِ فِي إِيهامِ مُحَاطَبِهِ، وَجَعَلَ الْكَلَامَ مُحْتَمِلًا أَكْثَرَ مِنْ مَعْنَى، إِمَّا بِقَصْدِ إِيهامِهِ وَالتَّلَاعُبِ بِهِ، وَإِمَّا بِقَصْدِ إِثْرَاءِ الْكَلَامِ وَجَعْلِهِ مُحْتَصِرًا مُحْتَرِزًا مَعَانِي كَثِيرَةً، وَنُؤَكِّدُ أَنَّ تَرْجِيحَ مَعَادِ الضَّميرِ إِنَّمَا هُوَ بِالْقِرَائِنِ وَالسِّيَاقِ. وَقَدْ يَكُونُ ثَمَّةَ مَرَجَعَانِ أَوْ أَكْثَرُ لِلضَّميرِ الْوَاحِدِ - وَتَخْتَلِفُ الْمَعَانِي أَوْ تَتَنَاقِضُ بِحَسَبِ إِعَادَةِ الضَّميرِ - فَتَكُونُ التَّأْوِيلَاتُ مَفْتُوحَةً عَلَى كُلِّ احْتِمَالٍ، وَالمُتَكَلِّمُ سَاءٌ غَافِلٌ عَنْ ذَلِكَ، غَيْرُ مُحْتَرِزٍ لِعِبَارَتِهِ وَلَا مُحْتَرِسٍ، وَهَذَا لَا يُعَدُّ إِيهامًا، بَلْ هُوَ ضَعْفٌ فِي تَرْكِيبِ الْكَلَامِ؛ يُلَامُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ.



(١) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ٢٣ / ٢٥٤.

(٢) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ٢٣ / ٢٥٦.

(٣) انظر: تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ ٢٣ / ٣٨، وَالْوَجِيزُ فِي تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ص ١٠٥٤.

المبحث الثالث

الحذف

تمتاز العربية بفضيلة الإيجاز الذي يحققه أسلوب الحذف وغيره، وقد عرّف العربي بحسّه اللغويّ المرفه، وبسرعة البديهة؛ فكان الحذف محبباً إلى قلبه؛ لأنّ الشّيء المذكور في الكلام له وجه واحد لفهمه، أمّا إن حذف فإن له وجوهاً عديدة في تفسيره، وإذا كانت القاعدة المركوزة في أذهاننا تقول بأنّ كلّ زيادة في المبنى تقتضي غالباً زيادة في المعنى؛ فإنّ الحذف قد يكون أحياناً بخلاف تلك المسلمّة؛ ومردّد ذلك إلى ما يكتنف بعض التراكيب من غموض وإيجاء واحتمالات متعدّدة لمعانيه تذهب النفس فيها كلّ مذهب، وقد أشار إلى ذلك ابن رشيّق (ت ٤٦٣هـ) بقوله: «وإنّما كان هذا [يقصد الحذف] معدوداً من أنواع البلاغة؛ لأنّ نفس السامع تتسع في الظنّ والحساب، وكلّ معلوم فهو هيئاً؛ لكونه محصوراً»^(١)، والبلغ يسلك الحذف سبيلاً للإبانة كما يسلكه سبيلاً للإيهام، وهذا بحسب مراده.

وصحيح أنّ الفصاحة هي الوضوح، غير أنّ الفصاحة في سياق الأدب الجميل لا تعني الكشف والسفور مطلقاً؛ بل إنّ الأدبيّة أو الشعريّة قوامها اللّغة الموحية الغامضة نسبياً التي يكثر فيها الانزياح والحذف والتكثيف؛ لأنّ الحذف البلاغيّ يدع للمتلقّي فضيلة التأمل والمشاركة أو التفاعل مع النصّ من خلال تقدير المحذوف، وتلمّس السرّ الجمالي وراءه.

فضيلة الحذف بين أبواب البلاغة:

ما من ريب في أنّ الحذف أدقّ أبواب البلاغة مسلكاً، وأكثرها إعمالاً للفكر، وقد عدّه ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ) من شجاعة العربيّة، وعبد القاهر (ت ٤٧٤هـ) رأى فيه أمراً عجيباً شبيهاً بالسحر، واستكثر عليه من الأمثلة دون أن يُقرّر له ضوابط مطردة كالتّي وضعها للتقديم والتأخير، أو كالتّي

(١) انظر: العُمدة ١/ ٤٠٢.

قَرَّرَهَا المتأخرون فيما بعد؛ وذلك لِوَعْيِهِ أَنَّ الحذفَ لا سبيلَ إلى حَصْرِ مراميه؛ لأنَّ فائدةَ الحذفِ لا تتعَيَّنُ من بنية تركيب الكلام، بقَدْرِ ما تتعَيَّنُ ممَّا يُحِيطُ به من قرائنَ وأحوالٍ، ويرجعُ ذلك أيضاً إلى مقدارِ عِلْمِ السَّامِعِ ونباهتِهِ وإلى تدبُّرِهِ أعطافَ الكلام، لذا تراه قد اقتصرَ على تذوُّقِ الشَّواهِدِ البلاغيَّةِ دونَ تفعيدها؛ ليدعَ بابَ التَّأْوِيلِ الجُماليِّ مفتوحاً لِمَن أرادَ، وقد قالَ في الحذفِ: «فإنَّكَ ترى به تَرْكَ الذِّكْرِ أَفْصَحَ مِنَ الذِّكْرِ، والصَّمتُ عن الإِفادةِ أَزِيدَ للإِفادةِ، وتَجِدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطَقْ، وأنَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تُبَيِّنْ»^(١)، وقد كانَ الحذفُ سِمَةً أُسلوبِيَّةً بارزةً في القرآنِ الكريمِ، فضلاً عمَّا دونَه من الكلامِ البليغِ؛ فابنُ جَنِّي حينَ يذكُرُ حذفَ المضافِ يقولُ: «إنَّ في القرآنِ مثلَ هذا الموضعِ نَيْفًا على ألفِ موضعٍ»^(٢).

الحذفُ في الأحداثِ الكلاميَّةِ المنطوقة:

من الملاحظِ أنَّ الحذفَ أكثرُ ما يكونُ في الأحداثِ الكلاميَّةِ المنطوقة؛ لأنَّ الكلامَ المنطوقَ مسموعٌ مُشاهدٌ صاحبه معاً، فإنَّ فيه من قرائنِ التَّصْوِيتِ الموضحةِ (النَّبرِ والتَّغْييمِ) ومن قرائنِ الحالِ (اللُّغَةِ التَّعْبِيرِيَّةِ من حركاتِ الأعْيُنِ والأَيْدِي وانطباعاتِ الوجه) ما يُجَلِّي المعانيَ ويُسهِمُ في كَشْفِ المحذوفِ وإبرازِهِ في يُسرٍ وسهولةٍ، وقلَّما يحدثُ فيه اللَّبْسُ والإشكالُ قياساً بالكلامِ المكتوبِ الذي قد يغدو بعد انسلاخِهِ من سياقه الحيِّ مُلبساً مُشكِلاً مُحْتَمِلاً للتَّأْوِيلِ؛ لأنَّه فَقَدَ بعضَ عناصرِ الإِبانةِ التي سَلَفَتْ.

لا حذفَ إلاً بدليل:

مع التَّأكِيدِ على أنَّهم اشترطوا ألاَّ يكونَ في الكلامِ حذفٌ إلاً بدليلٍ، وقد فَصَّلَ ابنُ هشامٍ (ت ٧٦١هـ) في ذلك، وأقرَّ ثمانيةَ شروطٍ للحذفِ، وهي في جُمْلِها تدورُ في فَلَكِ الإِفْهَامِ، ومنها

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٤٦.

(٢) انظر: الخصائص ١/ ١٩٣، وقد استقصى الإمام العزُّ بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) هذه المواضعَ في كتابه الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز.

وجود دليلٍ حاليٍّ^(١)، وقد تحدّث ابنُ يعيش (ت ٦٤٣هـ) في ظاهرة الحذف مُعوّلاً على دلالة السّياق والقرائن اللَّفْظِيَّة والحاليَّة، ومن ذلك قوله: «الألفاظ إنّما جيءَ بها؛ للدّلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى بدون اللَّفظ جازَ ألا تأتي به، ويكونُ مُراداً حُكماً وتقديراً»^(٢). وأمّا الزّخشي (ت ٥٣٨هـ) فقال: «ومحذوفٌ لا دليلَ عليه مُطَرَّحٌ»^(٣)، وذكر ابنُ رشيّق (ت ٤٦٣هـ) أنّهم «يحذفون بعضَ الكلام لدلالة الباقي على الدّاهب»^(٤)، وأمّا أبو الفتح بنُ جنّي (ت ٣٩٢هـ) فيقول: «وليس شيءٌ من ذلك [يقصد الحذف] إلّا عن دليلٍ عليه، وإلّا كان فيه ضَرْبٌ من تكليفٍ عِلْمِ الغَيْبِ في معرفته»^(٥)، وكان المبرّد (ت ٢٨٥هـ) قد أشارَ إلى ذلك بقوله: «فكُلُّ ما كان معلوماً في القول جارياً عندَ النَّاسِ فحذفه جائزٌ؛ لِعِلْمِ المُخاطَبِ»^(٦) وهذه قاعدةٌ عريضةٌ أساسُها التّواصلُ أو الفهمُ والإفهامُ بين المتكلّم والمخاطَب، وقانونٌ أساسٌ منه تتفرّعُ كلُّ شروط الحذف وأدلّته، وكان سيّويه (ت ١٨٠هـ) سبقَ إلى ذلك بقولٍ مُقتَضِبٍ مُجَمَّلٍ: «وما حُذِفَ في الكلام؛ لكثرة استعمالهم كثيرٌ»^(٧) حينَ قرّرَ أن كثرة الاستعمال قرينةٌ دالّةٌ على المحذوف.

وإذا كان ركوبُ البليغ أسلوبَ الحذف على نحوٍ رائعٍ معدوداً في البراعة؛ فإنّ قُدرةَ المتلقّي على تقدير المحذوف تقديرٌ حسناً براعةً أيضاً، ووجهُ البراعة في ذلك أنّ تقديرَه الصّحيحَ إيذانٌ بأنّه قد فهمَ الكلامَ فهماً مُستقيماً، وأنّه أدركَ أبعادَ الكلام وخفاياه، وهذا مُوكَّلٌ إلى النُّحاة، وكمالُ البراعة بعد ذلك أن يُتَقَطَّنَ إلى مزايا الحذف، وأن تُتكلّمَ أسرارُه الجماليّة في كلّ موضعٍ على حِدَةٍ، وهذا شأنُ البلاغيِّ.

(١) انظر: مُغني اللّيب ٧٨٦/٢ - ٧٩٦.

(٢) انظر: شرح المفصل لابن يعيش ٩٤/١.

(٣) انظر: الكشاف ٧٣/٤.

(٤) انظر: العُمدَة ٤٠١/١.

(٥) انظر: الخصائص ٣٦٠/٢.

(٦) انظر: المقتَضِب ٢٥٤/٣.

(٧) انظر: سيّويه ١٣٠/٢.

غاية الحذف غير مقصورة على الإيجاز:

وما من شك في أن الإيجاز أشهر غايات الحذف، ولكن لا ينبغي أن يُعزى كل حذف إلى الإيجاز وحسب، إذ إن له أسراراً تكاد تكون مُستفيضة تستعصي على الحصر؛ على أن الحذف جُملة له سمة مُشتركة هي كونه مُنبهاً أسلوبياً يُجدد نشاط المتلقي، من حيث يُثير نشاطه الإدراكي؛ لأنه يُعمل فكره في تقدير المحذوف، ويُثير حسَّ الجمالي؛ لأنه يَحْمِلُه على تلمُّس موطن الجمال والسحر والخلابة وراء ذلك الحذف، وهذا أدعى إلى تمكين المعاني في نفسه؛ لأنَّ المرء إذا بذل جهداً في فهم الكلام، ووصل بنفسه إلى المراد؛ اطمأنَّ هذا المراد في نفسه واستقرَّ في ذهنه.

إيهام الحذف على أضرَب:

ولكن قد يردُّ على السامع كبس وإيهام من وراء الحذف؛ لأنَّ الحذف باعث قوي من بواعث تعدد المعنى؛ وقد أشار إلى ذلك مَنْ له بصَرٌ بتأويل مُشكِـل القرآن ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) إذ قال: «وقد يُشكِـل الكلام وَيَغْمُضُ بالاختصار والإضمار»^(١)، وقد ذهب عبد القاهر في كلامه على الحذف إلى أن: «من حَذَقَ الشَّاعِرِ أَنْ يُوقِعَ المعنى في نفس السامع إيقاعاً يَمْنَعُه به مَنْ أَنْ يَتَوَهَّم في بدء الأمر شيئاً غير المراد، ثُمَّ ينصرف إلى المراد»^(٢)، وهذا الكلام بخلاف الجوهر الذي على أساسه بُني هذا البحث، ولا بد من التوضيح بأنَّ هذا الإشكال أو الإيهام المتولَّد من الحذف إن كان مقصوداً من المتكلِّم فهو إيهام للمخاطب ويحقِّق جماليات لا تنحصر، وإنَّما تُلْتَمَسُ في كلِّ كلام على حدة، ولا سيما إن كان المتكلِّم قصداً إلى تضليل المخاطب والتعمية عليه، أو أراد أن يُوهِّمَهُ بأنَّه جاهلٌ وغير عارف بالمعلومة التي حذفها... وقد يكون هذا الإيهام الذي قد يُفْضِي بالسامع إلى توهم غير المقصود مُتخلِّقاً من بنية تركيب الكلام نفسه من غير نيَّة للمتكلِّم إلى ذلك، ولكن جهلُ المُخاطَب بهذه الأساليب أفضى به إلى توهم غير المقصود، وقد يكون هذا الإيهام عيباً من عيوب الكلام ونقصاً في البيان؛ لأنَّه ليس مقصوداً من قائله، ولم يخطر له أصلاً ولم ينو نكتةً بلاغيةً من وراءه، ولم يكن المُخاطَبُ جاهلاً

(١) انظر: تأويل مُشكِـل القرآن ص ٢٣٨.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٧٢.

بالأساليب حتّى تُلقَى باللائمة عليه، وهذا النوع الأخير لا محلّ له في بحثنا؛ لأنّه ليس من البلاغة بل من العيِّ.

أثر الحذف في إبهام المعنى عن قصدٍ من المتكلّم:

بدا بعد الاستقراء أنّ بعض الحذف يُفْضِي إلى إبهام القارئ والإبهام عليه قصدٌ؛ لنكتةٍ ما في ضمير القائل، وهذا الحذف يطال مجمل كلام العرب، وهاك أمثلة ذلك:

حذف المُسند إليه؛ لتأني الإنكار عند الحاجة:

كأن تكون في مجلسٍ، فيدخل خَصْمٌ لك تكرهه، فتقول لصديقك الذي بجوارك: (تافهٌ حقير..)، إنك قد حذفَ المبتدأ، ولم تقل: (زيدٌ تافهٌ حقير)؛ ليتيسّر لك الإنكار إذا لامَكَ زيدٌ على سبِّه، عندها تقول له: (ما عنيتك.. بل قصدتُ شخصاً آخر)، ومثل هذا في حذف المفعول؛ إن قلت: (قاتلَ الله) وسكّنت، وأنت تريدُ خصماً بعينه، مع وجود قرينةٍ حالّية (كرويتك له، أو سماعك باسمه..)، وذلك أيضاً ليكون في وسعك إنكاره إذا ما اتهمت بالدُّعاء عليه، وحيثما لن يملك أن يُحاسبك أو يلومك، ولو كان مُتيقناً من أنّك عنيتَه؛ وذلك لأنك جرّدتَه من كلّ دليلٍ على ادّعائه، وهذا لا يبعدُ عما يُسمّى بالمواربة في فنون البديع^(١)، من إفسادِ ظاهر الكلام بتأويله تأويلاً يُخلّص صاحبه من الملامة، وهنا لو قال قائل: ألم تسمع قول العتّابي إذ سُئل: ما أقربُ البلاغة؟ فقال: «الأيُّوتى السّامعُ من سوءِ إفهامِ القائل، ولا يُؤتى القائل من سوءِ فهمِ السّامع»^(٢)؛ لأجيب بأنّ هذا الحذف وما أفضى إليه من الإيهام كان مقصوداً، ولهدف الإنكار، ولم يتخلّق هذا اللبسُ في غفلةٍ من المتكلّم؛ لأنّه سيكون حينئذٍ عيباً قادحاً في بلاغة الكلام.

حذف المُسند إليه؛ لإخفائه عن غير المخاطب:

من مواضع حذف المسند إليه أن يكون معهوداً في ذهن المتكلّم والمتلقّي، فيحذفه المتكلّم لإخفائه عن غير المخاطب، وهذا أيضاً من المواضع التي يُمكن الإفادة منها في صنْع الإيهام؛ كأن تكون في

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية ص ٦٥٢.

(٢) انظر: الكامل ١٥٠٢/٣.

جماعة من الناس، ويأتيك مَنْ يقول لك: (حَصَلَ)، والأمرُ الحاصلُ معهودٌ في ذهنك وذهن المتكلم، وغائبٌ عن كلِّ السامعين حولكما، فقد أبهم عليهم الأمر، وجعل كلَّ واحدٍ منهم يجتهد في ملء الفراغ مُستنداً إلى ما يعرفه من قرائن، وإلى خبرته الخاصة.

حَذَفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ؛ لادِّعَاءِ تَعْيِينِهِ:

رُبَّمَا حُذِفَ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ لادِّعَاءِ تَعْيِينِهِ؛ وهذا عينُ الإيهام، كأن تقول: (شاعرُ الملايين) تريدُ (نزار قباني) مثلاً، فقد حذفتُ المسندَ إليه لتعيينه وتفريده بهذا الوصف؛ ادِّعَاءٌ لا حقيقة؛ لأنَّ غيره من الشعراء يُمكنُ أن يتَّصفَ بهذا الوصف، ولكنك أردتَ أن تُقرِّرَ في نفسِ السامع أن اتَّصافَ نزار بكونه (شاعر الملايين) حقيقةٌ بديهيَّةٌ ومُسلمةٌ مُستقرَّةٌ في الأذهان؛ بآيةٍ أنه إذا أُطلقَ هذا الوصفُ ينبغي ألاَّ يُفهمَ منه إلا نزار... ومثله لو قلت: (شاعرُ العربيَّة) وأنت تريد أبا الطَّيِّب، أو قلت: (وهَّابُ الألوْف) مُريداً أميرَ بلدتك، ومثُل ذلك لو تأملت ما حكاه سبحانه عن كُفَّارِ مَكَّة: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ثُمَّ تَأَمَّلْتَ قَوْلَهُ حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ ﴿وَهَمَّنَ﴾ وَقَارُونَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَّنَ وَقَرْنُوهُ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤]، هؤلاء أيضاً يريدون القول: هذا ساحرٌ كذاب، ولكنهم أرادوا بحذفِ المسندِ إليه (هذا) الزَّعمُ أن قولهم: ﴿سَاحِرٌ﴾ لا يُفهمُ منه حين يُطلقُ إلا موسى ﷺ؛ ادِّعَاءٌ لتعيينه بهذه الصِّفة، وهذا إيهامٌ له سلطانٌ على السامع؛ لأنَّه يُقرِّرُ الأفكارَ في نفسه على أنَّها مُسلماتٌ لا تقبلُ الجدل.

حَذَفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ قَدْ يُؤْهِمُ مُحَالَفَةَ الْقِيَاسِ:

من مواطن حذفِ المسندِ إليه المُفضية إلى الإيهام اتِّباعُ الاستعمالِ الوارد على تركِ نظائره؛ لقصد إنشاء المدح أو الذم أو الترحُّم؛ كقولهم في المدح: (الحمدُ لله أهلُ الحمدِ)^(١) برفع (أهل)، ومثله في

(١) انظر: سيبويه ٦٣/٢.

الذم: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وفي الترحم: (اللهم ارحم عبدك المسكين). لا بُدَّ أن بعض الناس قد يُخامرُه وهم لأوّلِ وهلةٍ مفادُه أن خطأً نحويّاً قد وقعَ في هذه العبارة، فالصوابُ في جملة المدح أن يُقال: (الحمدُ لله أهلِ الحمدِ) بجرّ (أهل) لأنّها نعتٌ لاسمِ الجلالة لا برفعها، وكذا في الذمّ: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وفي الترحم: (اللهم ارحم عبدك المسكين)... وهذا الوهم الذي يخطرُ للبعض هو أشبه ما يكونُ بأسلوبِ التوهم في البديع^(١)؛ لأنّ هذا الأسلوبَ في قطعِ الصّفة أو النّعتِ ظاهرُه مُحالِفٌ للقياس، وهذا الوهم الذي نعنيه، أي أنّ ظاهرَ الأسلوبِ مُحالِفٌ لمقتضى الظّاهر في أوّلِ وهلةٍ، ولكن حقيقةً أنّه على قانونِ الكلامِ العربيّ بعد أدنى تدبّرٍ له؛ فبعد التأمل يتّضح أنّه استئنافٌ غرضُه تقويةُ المعنى في النّفس، سواء كان هذا الغرضُ مدحاً أم ذمّاً أم ترحمّاً، والتّقديرُ: (الحمدُ لله، هو أهلُ الحمد)، و(أعوذ بالله من الشيطان، هو الرجيم)...، وقد قال فيه عبدُ القاهر: «من المواضع التي يطردُ فيها حذفُ المبتدأ (القطعُ والاستئناف)، يبدوون بذكرِ الرّجل، ويُقدّمون بعضُ أمره، ثمّ يدعونَ الكلامَ الأوّلَ، ويستأنفون كلاماً آخرَ، وإذا فعلوا ذلك، أتوا في أكثرِ الأمرِ بخبرٍ من غيرِ مبتدأ...»^(٢)، ويحسُنُ ههنا ذكرُ قولِ أبي الفتح بنِ جنّي (ت ٣٩٢هـ): «عادةٌ منهم [يقصدُ العربَ] متى أرادوا أن يُعلّموا اهتمامهم بأمرٍ، وعنايتهم به، أخرجوه عن بابِه، وأزالوه عمّا عليه نظائره»^(٣).

حذفُ المُسنَدِ إليه (الفاعل) وأثرُه في إيهامِ المخاطَبِ:

من مواطنِ حذفِ المسندِ إليه التي قد يُرادُ بها إيهامُ المتلقّي حذفُ الفاعلِ، في الفعلِ الذي لم يُسمَّ فاعلهُ، وهذه التّسميةُ أوّلى من (الفعلِ المبني للمجهول)؛ لأنّها على الأقلّ تؤيّدُ ما سيأتي من كونِ هذا الأسلوبِ مركباً لإيهامِ المتلقّي. وليس كلُّ فعلٍ لم يُسمَّ فاعلهُ مقصوداً به إيهامُ المتلقّي أو الإيهامُ عليه؛ فقد يُحذفُ الفاعلُ؛ لأنّه أشهرُ وأعرَفُ من أن يُذكرَ؛ كما في قوله سبحانه: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٤٤٢.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٤٧.

(٣) انظر: سر الصناعة ٢/ ٢٥٩. (دار الكتب).

سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿[الأنبياء: ٣٧]، أو ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿[البقرة: ١٨٣]، وقد يُحذف الفاعل لأن المتكلم جاهلٌ به حقيقةً ولا علمٌ له به أصلاً، ولكن يكون حذفُ الفاعل مُهماً إذا كان المتكلم عارفاً بالفاعل، ولكنه تظاهرٌ بجهله خوفاً عليه، أو خوفاً منه، أو استحقاراً لشأنه؛ ومثال ذلك أن عالماً جليلاً.

شتمه أو ضربه شخصٌ بذِيءٍ اسمه (صخر)، وعلمت أنت بالقصة، وسألك شخصٌ: ماذا حصل ههنا قبل قليل؛ فتقول: (ضربَ العالمُ) مُوهماً إياه أنك تجهل اسمَ الفاعل، والحق أنك أهملت ذكره، وأسقطته من الكلام؛ تحقيراً له لوضاعته، وتعظيماً للعالم؛ لئلا يُذكر اسمه بجانب اسم هذا الخسيس.

ومثل ذلك أيضاً «قولُ البائع المتجول: صُودِرَت البِضَاعَةُ، وهو يعلم يقيناً أن الذي صادرها الجهةُ الفلانية والجماعةُ الفلانية، لكنه طوى ذكرَ الفاعلِ خشيَةً على نفسه من أذاهم».^(١)

وقد يُحذفُ الفاعلُ قصداً إلى الإبهام على السامعين؛ لئلا يعلمه غيرُ المخاطب الذي يعنيه المتكلم. ولا ينبغي الفراغُ من الكلام على حذفِ المسندِ إليه قبلَ الإشارةِ إلى قولِ محمد بن علي الجرجاني (ت بعد ٧٢٩هـ) لأن كلامه الآتي ينمُّ على حسٍّ مُرهَفٍ استطاعَ به أن يرصدَ أعماقَ النفسِ الإنسانية، وكيف تتفاعلُ مع هذا الحذف؛ إذ قال: «إذا أُبهِمَ المسندُ إليه بالحذفِ حصلَ للنفسِ ألمٌ؛ لجهلها به، وإذا التفتتُ إلى القرينة تفتنتُ له، فيحصلُ لها اللذةُ بالعلم به. واللذةُ الحاصلةُ بعدَ الألمِ أقوى من اللذةِ الحاصلةِ ابتداءً. ومنها أنه لو ذُكرَ المسندُ إليه مع المسندِ انتقلَ الذهنُ من اللفظِ إلى معناه من غير تجشُّمٍ كَسْبٍ؛ لا تحصلُ للنفسِ لذةٌ ولا ذوقٌ بإدراكِ معناه»^(٢)، وهذا التحليلُ لنفسيةِ المخاطبِ كيف تستقبلُ الحذفَ وتتفاعلُ معه ليس قَصراً على المسندِ إليه، بل هو أصلٌ يُقاسُ عليه في غيره من الحذوف.

(١) انظر: الفعل المبني للمجهول في اللغة العربية ص ١٦٥.

(٢) انظر: الإشارات والتنبيهات ص ٣٣.

حَذَفُ الْمُسْنَدِ:

أَمَّا حَذَفُ الْمُسْنَدِ فَمِثْلُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ: [الكامل]

قَالَتْ، وَقَدْ رَأَتْ أَصْفَرَارِي، مَنْ بِهِ؟ وَتَنَهَّدَتْ، فَأَجَبْتُهَا: الْمَتْنُهُدُ^(١)

فتلك الحسناء لما رأت صُفْرَةَ وَجْهِ الْمُتَنَبِّي، استعظمت ذلك، وسألت: مَنْ الْمُطَالِبُ بِهِ؟ كأنها تقول: مَنْ الذي فعل به هذا الفعل حتى يُؤْخَذَ به؟ فأجابها المتنبّي بقوله: (المتنهّد) حاذفاً المسند، وتقدير الكلام: (قتلني المتنهّد، أو فعل ذلك بي المتنهّد). وقد رأيت كيف أثر المتنبّي حَذَفَ الْمُسْنَدِ، فكان في جوابه بُعدٌ عن التّصريح يجعل فهم مقصوده قسراً على مَنْ عَلِمَ مَنْ هو المتنهّد، فأخفى ذلك عن الرّقيب إن كان يسمّع إلى حديثهما، وذلك ليتأتّى له الإنكار^(٢)، والحذف ههنا مناسبٌ لمقام الخوف من تنبّه الرّقباء.

الحذف بقصد تحقير المحذوف:

من الحذف ما ظاهره الإيجاز؛ لانتصاب قرينة تُيسّر حذفه، وباطنه (أي نيّة المتكلّم) الاستهانة بشأن المحذوف؛ ليكون حذفه إشعاراً للمتلقّي بإهمال هذا المحذوف وازدراؤه، وكأنّ إهمال ذكره في الكلام تعبيرٌ عن الإهمال والتّقليل من شأنه؛ وصحيحٌ أنّ قرينة الحال يَسّرُ لك حذفه للإيجاز، غير أنّك لشدة ازدرائك إيّاه وبُغضك له أثّرت إهمال ذكره، ويتّضح هذا جليّاً إنّ رافق الكلام تنغيماً أو نَبْرٌ مناسبٌ لحالة الكره والاستخفاف، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١] فقد حُذِفَ المفعول (الكُفّار)؛ احتقاراً لشأنهم، والقرينة التي يَسّرُ حذفه هي قوله في الآية السابقة: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٣) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿﴾ [المجادلة: ١٩-٢٠].

(١) انظر: ديوان المتنبّي ١/ ٣٢٨.

(٢) انظر: القرائن في علم المعاني ص ٤٥٤-٤٥٨، وفيه تحليل حسنٌ لهذا الحذف.

حَذَفُ الْمَفْعُولِ وَأَثَرُهُ فِي إِيهَامِ الْمُتَلَقِّي:

من أغراض حذف المفعول به البيان بعد الإيهام؛ كما في فعل المشيئة والإرادة ونحوهما إذا وقع شرطاً؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩٩]، فإن السامع لصدر هذه الجملة أداة الشرط وفعله: ﴿لَوْ شَاءَ ..﴾ سيقول في قلبه: ما مفعول المشيئة؟ وستذهب به التوقعات كل مذهب؛ فثمة أمر متعلق بفعل المشيئة، لكن هذا الأمر مبهم عند السامع، في هذه اللحظات التي تسبق تلفظ المتكلم بجواب الشرط يحصل الإيهام أو الإيهام، وتشوق النفس إلى معرفة مفعول المشيئة، وبعد سماع جواب الشرط ﴿لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تحصل الإبانة والإفصاح الذي يزيل الإيهام والغموض. وقد أشار عبد القاهر (ت ٤٧٤هـ) إلى جمالية الحذف في مثل هذا الموضع، ورأى أنك إن لم تحذف فعل المشيئة ههنا فقد «صرت إلى كلام غث، وإلى شيء يمتجه السمع، وتعافه النفس؛ وذلك أن في البيان، إذا ورد بعد الإيهام وبعد التحريك له، أبداً لطفاً ونُبلاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك»^(١)، ثم نبه بعد على أن مفعول المشيئة يحسن به الذكر إن كان شيئاً غريباً عجبياً حتى يأنس به السامع ويألفه ويتقرر في نفسه؛ إذ قال: «وإذا استقرت وجدت الأمر كذلك أبداً؛ متى كان مفعول (المشيئة) أمراً عظيماً، أو بديعاً غريباً، كان الأحسن أن يذكر ولا يضمن. يقول الرجل يحير عن عزّة (لو شئت أن أردد على الأمير ردّدت) و(لو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم لقيت). فإذا لم يكن مما يكبره السامع فالحذف؛ كقولك: (لو شئت خرجت) و(لو شئت قمت)»^(٢).

الإيهام المتخلّق من طبيعة أسلوب الحذف، لا بقصد من المتكلم:

من مواضع حذف المفعول الموهمة - بطبيعة البنية التركيبية للكلام، لا بنية من المتكلم - أن بعض الناس لو سمعوا قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴿[آل عمران: ١٧٥] فسألتهم عن معنى الآية الكريمة لقالوا: إِنَّ الشَّيْطَانَ يُخَوِّفُ أَتْبَاعَهُ وَيَقْذِفُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ،

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٦٥.

ونحنُ منهمُون عن مخافتهِ أو خشيته، بل الخشيةُ والمهابةُ والمخافةُ كُلُّها من الله وحده. ولو أنَّهم تنبَّهوا إلى الحذف في الآية، لعرفوا أنَّ التقدير: ﴿الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ...﴾ أي يُخَوِّفُ النَّاسَ من أتباعه الطُّغاة، ولذا قال عليه السلام: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ...﴾ فنهى المؤمنين عن الخوف من الطُّغاة الذين هم أولياء الشَّيْطان، ولو كانَ مقصودُ الآية أنَّ الشَّيْطانَ يُوقِعُ تخويفه على أوليائه وأتباعه كما أمرنا بعدم الخوف منهم، بل لأمرهم هم بعدم الخوف من الشَّيْطان. وأولياؤه الذين يُخَوِّفُ النَّاسَ منهم هم الطُّغاة، ومعنى الآية: لا تجبنوا عن مدافعتهم، بل قاوموهم؛ لإقامة العدل. «وقد أفادَ الحذفُ ههنا التَّهوينَ من شأنِ الطُّغاة، والعَضُّ من أقدارِهم، وخاصَّةً أنَّ المقامَ مقامُ تحريضٍ»^(١). وقد تنبَّه المبرِّدُ (ت ٢٨٥هـ) إلى أثرِ هذا الحذف في تخلُّق الإيهام أو اللَّبس في فهم الآية، فقال: «ونذكُرُ آياتٍ من القرآنِ رُبَّما غَلِطَ في مجازِها النُّحويون؛ قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، مجازُ الآية: أنَّ المفعولَ الأوَّلَ محذوفٌ، ومعناه: يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ»^(٢)، وقد سبقه إلى ذلك الفراءُ (ت ٢٠٧هـ) إذ قال: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ...﴾ يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، ومثُل ذلك قوله: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] معناه: لينذركم يومَ التَّلَاقِ. وقوله: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢] المعنى: لينذركم بأسًّا شديدًا، البأسُ لا يندُرُ، وإنما يُنْذَرُ به»^(٣)، والفراءُ ههنا مُصِيبٌ كمالِ الإصَابَةِ، ولو أنَّه قدَّرَ المفعولَ الأوَّلَ المحذوفَ في الآية الأخيرة بقوله: ﴿لِيُنْذِرَ الْكَافِرِينَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ لكانَ خيرًا؛ وذلك أنَّ المقدَّرَ ينبغي أن يكونَ مُناسِبًا روحَ المعنى، فالآية تصفُ القرآنَ الكريمَ: ﴿قِيَمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢]، فهذا الكتابُ يُنْذِرُ الكافرينَ بأسًّا شديدًا، ويبشِّرُ المؤمنينَ أَجْرًا حَسَنًا، وهكذا حصلَ التَّقابُلُ في الآية، ولكنْ لو قال قائلٌ: إنَّ تقديرَ الفراءِ ههنا هو الأمدَحُ للمعنى؛ لأنَّه لم يُخَصَّصِ الإنذارَ

(١) انظر: الحذف البلاغي في القرآن الكريم ص ٥٨.

(٢) انظر: الكامل للمبرِّد ٣/ ١٥٠٣.

(٣) انظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٢٤٨.

والتَّرهيبَ، بل جعله مُطلقاً يطال كلَّ قارئٍ من مؤمنٍ أو كافرٍ؛ يخوِّفهم من بأسه جميعاً دون تخصيص؛ لكانَ ذلك خيراً أيضاً.

ومَّا عدَّه المبرِّدُ (ت ٢٨٥هـ) من مواضع حذف المفعول به التي يتَّوهمُ فيها النُّحاةُ غيرَ الصَّوابِ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فقال: «والشَّهْرُ لا يغيَّبُ عنه أحدٌ، ومجازُ الآية: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ شَاهِداً بِلَدِّهِ فِي الشَّهْرِ فَلْيَصُمْهُ، والتقدير ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ﴾ أي فَمَنْ كَانَ شَاهِداً فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَلْيَصُمْهُ، نَضَبَ الظُّرُوفِ، لا نَضَبَ المَفْعُولِ بِهِ»^(١)، فالمبرِّدُ يرى أنَّ مفعول ﴿شَهِدَ﴾ محذوفٌ، والتَّقدير: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ بِلَدِّهِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَلْيَصُمْهُ.

يبدو لي أنَّ لا حذفَ في هذه الآية، وأنَّ ﴿الشَّهْرَ﴾ مفعولٌ به لا فيه، فلو عُدنا إلى حيثُ بدأ إذ قال: (والشَّهْرُ لا يغيَّبُ عنه أحدٌ)، وقلنا: إنَّ الشَّرْطَ أَرَادَ ههنا الاستغراقَ التَّامَّ لكلِّ مُحاطَبٍ مُحاطَبٍ، ثُمَّ اسْتَنَى مِنْهُمْ الْمَرِيضَ وَالْمَسَافِرَ، فمَثُلَ ذَلِكَ إِنْ قَالَ الْأُسْتَاذُ - وَهُوَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى -: كُلُّ تَلْمِيزٍ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ فَهُوَ مُطَالَبٌ بِأَنْ يَلْتَحِقَ غَدًا بِالْدَّوَامِ؛ إِلَّا مَنْ أُعْطِيَتْهُ إِذْنًا. وكذلك جاءت الآية الكريمة، فقيل: ﴿مَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ﴾ ومعلومٌ أنَّ كلَّ حيٍّ غَيْرُ غَائِبٍ عَنِ الشَّهْرِ؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ: كُلُّ مَنْ هُوَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ فِي رَمَضَانَ فَلْيَصُمْهُ، ولا حذفَ حينئذٍ. أمَّا إِذَا فَسَّرْنَا الشَّهْرَ بِالْهَلَالِ وَهُوَ مِنْ مَعَانِيهِ الْمَعْجَمِيَّةِ، فَلَا حَذْفَ عِنْدَئِذٍ أَيْضاً، وَصَارَتِ الْهَاءُ فِي ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ عَائِدةً عَلَى الشَّهْرِ أَيْضاً، وَلَكِنْ لَيْسَ بِمَعْنَى الْهَلَالِ، بَلْ بِمَعْنَى الْمُدَّةِ الْمَعْلُومَةِ، وَهَذَا مَا يُعْرَفُ بِالِاسْتِخْدَامِ^(٢) فِي فَنُونِ الْبَدِيعِ.

حَذْفُ الْمُضَافِ وَأَثَرُهُ فِي إِيْهَامِ الْمُتَلَقِّي:

من مواضع حذف المضاف قوله تعالى في تشبيه المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١٧) صُمْ بِكُمْ عَنْهُمْ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ^(١٨)

(١) انظر: الكامل للمبرِّد ٣/١٥٠٣.

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٧٠.

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٧-١٩﴾ [البقرة: ١٧-١٩]، والصَّيْبُ هو المطر، وليس مقصودُ الآية تشبيهَ المنافقين بالمطر، بل المقصودُ تشبيهُهم بأصحابِ مطرٍ يخافون منه مع أنَّه خيرٌ لهم، أي: كأصحابِ صَيِّبٍ...، والصُّورة في الآية الكريمة تُشَبِّهُ حَالِ المنافقين الذين يأتِيهم الخير وهم يُعرضون عنه ويخافون من أن تميلَ قلوبُهم إليه «فَهُؤُلَاءِ إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ فِيهِ ذَكَرَ الْكُفْرَ الْمُشَبَّهِ بِالظُّلُمَاتِ، وَالْوَعِيدَ عَلَيْهِ الْمُشَبَّهِ بِالرَّعْدِ، وَالْحُجَجَ الْبَيِّنَةَ الْمُشَبَّهَةَ بِالْبَرْقِ، يَسُدُّونَ آذَانَهُمْ لِيَلَّا يَسْمَعُوهُ فَيَمِيلُوا إِلَى الْإِيمَانِ وَتَرَكَ دِينَهُمْ وَهُوَ عِنْدَهُمْ مَوْتٌ...»^(١).

ومن مواضع حَذَفِ التي قد تُشَكِّلُ أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]، ومثله: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، هذا الحذفُ ربَّما أَوْهَمَ أَنَّ ﴿يَوْمًا﴾ ظرفٌ للاتِّقاء، وهذا محذورٌ لأنَّه يُفْضِي إلى فساد المعنى؛ لأنَّ يومَ البعثِ ليس محلاً للاتِّقاء وللأعمال الصَّالحة أو السيِّئة، فليس مقصودُ الآية أن تأمُرنا بأن نتقي الله ونحُنُّ في ذلك اليوم، ولكن إذا تنبَّهنا للمحذوف كان التَّقْدِيرُ: واتَّقُوا عذابَ يومٍ...، وكان ﴿يَوْمًا﴾ مفعولاً به للاتِّقاء، لا مفعولاً فيه، وكلُّ امرئٍ أعربَ ﴿يَوْمًا﴾ ظرفاً؛ فقد وَقَعَ في الإيهام؛ لأنَّه لم يتنبَّه إلى حذف المضاف.

حَذَفِ المضافُ إليه وأثره في إيهام المتلقي:

من مواضع حذف المضاف إليه قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الزوم: ٤]، أي من قَبْلِ الْغَلَبِ وَمِنْ بَعْدِ الْغَلَبِ^(٢)، يدلُّك على صِحَّةِ هذا التَّقْدِيرِ أَنَّ الْجُمْلَةَ في سباقها: ﴿غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ

(١) انظر: الكشف ١/ ٢٠٠- وما بعدها، وتفسير الجلالين ص ٤.

(٢) انظر: مغني اللبيب ٢/ ٨١٤.

وَمِنْ بَعْدُ ﴿[الزوم: ٢-٤]﴾ فالمضافُ إليه المحذوف قد تَعَيَّنَ من السَّباق، ولا إيهامَ في ذلك. ولكنْ ماذا لو قَطَعَ المتكلِّمُ الظَّرْفَ عن الإضافة، وكانَ المضافُ إليه معهوداً في ذهنه وذهن مُحاطِبِه فحسبَ دون بقية السَّامعين، ولم يكن في الكلام ما يُعَيَّنُ هذا المحذوف أو يَنْصُصُ عليه؟ كأنْ تَخاطَبَ صاحبك وهو في مَلَأ: (سأذهبُ إلى المعركة، ولكنْ ليس قبلُ).. وهنا سيبدأ السَّامعون بمحاولة مَلء هذا الفراغ، قبل أيِّ شيء؟ قبل أيِّ شيء؟ قبل أنْ أَجلو سيفي؟ قبل أنْ أُدَّعِ زوجي؟ قبل رَدِّ ديوني...، فلا شكَّ في أنْ قَطَعَ هذا الظَّرْفَ عن الإضافة، وغيابَ المحذوف عن السَّامعين سيفضي بهم إلى الإيهام؛ ليتوهَّم كلُّ ما يحلو له؛ أو ما يهتدي به من خبراته في الموضوع المُتكلَّم فيه. ولا بدَّ من الإشارة ههنا إلى أثر النَّظر في السَّباق والسِّياق عندَ تقدير المضاف إليه المحذوف؛ فهذا ابنُ يعيَش (ت ٦٤٢هـ) لم يُوفِّق إلى تقدير المحذوف؛ لأنَّه أغفلَ النَّظر في سياق الكلام، فقَدَّر المضاف إليه المحذوف بقوله: «من قبل كلِّ شيء ومن بعده»^(١)، وهذا المعنى حقٌّ في الشَّرْع والحقيقة المُطلقة، على أنَّ الأنسبَ في هذا المقام أنْ يُقدَّر: من قبل الغلبِ ومن بعده.

ولكن ليس كلُّ قطعٍ للإضافة مقصوداً به الإيهام؛ لأنَّ منه ما يكونُ لوضوح الدلالة عليه؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ﴾ [الحديد: ١٠]، قال الرَّنْخِشْرِي (ت ٥٣٨هـ): «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ قَبْلَ عِزِّ الْإِسْلَامِ وَقُوَّةِ أَهْلِهِ وَدُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً وَقِلَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى الْقِتَالِ وَالتَّقَةِ فِيهِ، وَمَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِ الْفَتْحِ، فَحُذِفَ لَوْضُوحُ الدَّلَالَةِ»^(٢)، فإنَّ قوله ﴿مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ دَلٌّ على أنَّ قوله: ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ مقصودٌ به من بعد الفتح، ولا إيهامَ في هذا الحذف كما رأيت، بل فيه اختصارٌ كسا الكلام جزالةً وأبهةً ظاهرة، بخلاف ما لو دُكر؛ لأنَّ الكلام كان سيبدو ضعيفاً ركيكاً.

(١) انظر: شرح المفصل ٣/ ٢٨-٣٠. وأشار إلى ذلك ابنُ هشام (ت ٧٦١هـ) في شرح شذور الذهب ص ١٣٣.

(٢) انظر: الكشف ٦/ ٤٥.

حَذْفُ الصِّفَةِ وَآثَرُهُ فِي إِيْهَامِ الْمُتَلَقِّي:

من مواضع الحذف الموهمة حذف الصِّفة؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، فالسَّامِعُ قد يتوهم أن الملك كان يأخذ أي سفينة بدليل قوله: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾، ولكن ثَمَّةَ صفةٌ محذوفة، والتقدير: (يأخذ كل سفينة صالحة...) بدليل قوله قبله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾^(١). ومن ذلك ما يروى في الحديث: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»، أي: لا صلاة كاملة أو فاضلة له إلا في المسجد^(٢).

أثر التَّنْغِيمِ وَلُغَةِ الْجَسَدِ وَقَرَأَنِ الْحَالِ فِي إِزَالَةِ إِيْهَامِ الْحَذْفِ:

أشار ابنُ جنِّي (ت ٣٩٢هـ) إلى ضَرْبٍ من حذف الصِّفة عَجِيبٍ من حيثُ تعاضد فيه الحذف والتَّغْنِيمِ وقرينة الحال؛ إذ قال: «وقد حُذِفَتِ الصِّفَةُ وَدَلَّتِ الْحَالُ عَلَيْهَا. وذلك فيما حكاه صاحبُ الكتاب من قولهم: (سَيَرَّ عليه لَيْسَلٌ)، وهم يريدون: لَيْلٌ طَوِيلٌ. وكأنَّ هذا إِنَّمَا حُذِفَتْ فِيهِ الصِّفَةُ لِيَمَّا دَلَّ مِنَ الْحَالِ عَلَى مَوْضِعِهَا»^(٣). ثُمَّ أشار ابنُ جنِّي إلى التَّغْنِيمِ والنَّبَرِ وآثَرُهُ فِي تَوْجِيهِ الْمَعَانِي بِقَوْلِهِ: «وذلك أَنَّكَ تُحَسُّ فِي كَلَامِ الْقَائِلِ لِدَلَالَتِهِ مِنَ التَّطْوِيحِ وَالتَّطْرِيحِ وَالتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ مَا يَقُومُ مَقَامَ قَوْلِهِ: (طَوِيلٌ)»^(٤)، وَضَرْبَ عَلَى ذَلِكَ أَمْثَلَةٌ كَأَن تَكُونَ آخِذًا «فِي مَدْحِ إِنْسَانٍ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، فَتَقُولُ: كَانَ وَاللَّهِ رَجُلًا، فَزَيْدٌ فِي قُوَّةِ اللَّفْظِ بِ(اللَّهِ) هَذِهِ الْكَلِمَةُ، وَتَتِمَكَّنُ فِي تَمْطِيطِ اللَّامِ وَإِطَالَةِ الصَّوْتِ بِهَا وَعَلَيْهَا، أَي: رَجُلًا فَاضِلًا أَوْ شَجَاعًا أَوْ كَرِيمًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنسانًا، وَتَتِمَكَّنُ الصَّوْتُ بِ(إِنْسَانٍ) وَتَفْخَمُهُ، فَتَسْتَغْنِي بِذَلِكَ عَنْ وَصْفِهِ بِقَوْلِكَ: إِنْسَانًا سَمَحًا أَوْ جَوَادًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ. وكذلك إن ذُمَّتْهُ وَوَصَفْتَهُ بِالصُّيُوقِ قُلْتَ: سألناه وكان إنسانًا! وَتُزَوِّي وَجْهَكَ وَتُقَطِّبُهُ،

(١) انظر: المثل السائر ٢/ ٢٤٧، ومغني اللبيب ٢/ ٨١٨، والإتقان في علوم القرآن ٣/ ١٨٥.

(٢) انظر: مُصَنَّفُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ الصَّنْعَانِيِّ ١/ ٤٩٧، الخصائص ٢/ ٣٧٤، والجامع الكبير ص ١٣٢.

(٣) انظر: الخصائص ٢/ ٣٧٢.

(٤) انظر: الخصائص ٢/ ٣٧٣.

فَيُغْنِي ذَلِكَ عَنْ قَوْلِكَ: إِنْسَانًا لَثِيمًا أَوْ لِحْزًا أَوْ مَبْخَلًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ. فَعَلَى هَذَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ تُحْدَفُ الصِّفَةُ^(١).

فَيُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ جَنِّي هَهُنَا أَنَّ الْحَذْفَ قَدْ يَكُونُ أحيانًا أَبْلَغَ مِنَ الذِّكْرِ كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ عَبْدُ الْقَاهِرِ بَعْدُ، وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَيْضًا ضَرُورَةُ التَّنْبِهِ إِلَى أَثَرِ التَّنْغِيمِ وَالتَّبَرُّ فِي تَوْجِيهِ الْمَعَانِي؛ أَفَلَا تَرَاهُ ضَرَبَ مَثَلًا جَمَلَةً بَعَيْنِهَا: (سَأَلْنَاهُ فَوَجَدْنَاهُ إِنْسَانًا) فَفَهَمَهَا السَّامِعُ مَرَّةً مَدْحًا، وَأُخْرَى ذَمًّا، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَعُونَةِ قَرِينَةِ الْحَالِ، وَقَدْ رَأَيْتَهُ كَيْفَ نَبَّهَ عَلَى أَمْرِ طَالَمَا أَغْفَلَهُ وَيُغْفِلُهُ الدَّارِسُونَ؛ إِذْ نَبَّهَ عَلَى تَعَاُضِدِ اللُّغَةِ الْمَنْطُوقَةِ مَعَ لُغَةِ الْجَسَدِ حِينَ قَالَ (تُزَوِّي وَجْهَكَ وَتُقْطِبُهُ)، وَكَمْ مِنْ عِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ، تُفْهَمُ بِمَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ بِحَسَبِ انْطِبَاعَاتِ وَجْهِ الْمُتَكَلِّمِ وَهُوَ يَتَلَفَّظُ بِهَا، وَبِحَسَبِ نَغْمَةِ صَوْتِهِ، وَكَمْ مِنْ حَرَكَةٍ فِي الْوَجْهِ يَسَّرَتْ لِلْمُتَكَلِّمِ الْحَذْفَ، وَأَغْنَتْهُ عَنِ الذِّكْرِ، وَأَبْلَغَتْ الْمُخَاطَبَ الْمُرَادَ، مَعَ تَحَقُّقِ جَمَالِيَّةِ الْإِيهَامِ؛ فَلَوْ ذَهَبَتْ إِلَى مَدْرَسَةِ طِفْلِكَ، وَكَانَ كَسُولًا مُشَاغِبًا، فَسَأَلَتْ الْأُسْتَاذَ قَائِلًا: كَيْفَ هُوَ زَيْدٌ؟ فَأَجَابَكَ: (زَيْدٌ؟) وَقَدْ طَوَّلَ الْبَاءَ، وَجَاءَ بِهَا عَلَى نَغْمَةِ الْاسْتِفْهَامِ، وَأَنْغَضَ رَأْسَهُ؛ لَعَلَّمَتْ حَتْمًا أَنَّهُ يَقُولُ لَكَ: عَنْ أَيِّ زَيْدٍ تَسْأَلُنِي؟ إِنَّهُ سَيِّئٌ. أَوْ إِذَا سَأَلْتَنِي عَنْ أُسْتَاذٍ فِي الْجَامِعَةِ، فَقُلْتُ لَكَ: (إِنَّهُ أُسْتَاذٌ) وَمَكَّنْتُ الْأَلْفَ وَلَمْ أُطِلْ فِيهَا، وَكَانَتْ انْطِبَاعَاتٌ وَجْهِي إِيْجَابِيَّةً؛ فَكَأَنِّي قُلْتُ لَكَ: هَذَا هُوَ الْأُسْتَاذُ الْحَقُّ، وَكَأَنِّي قَصَرْتُ صِفَةَ الْأُسْتَاذِيَّةِ عَلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ، وَلَعَلَّ سَكُوتِي كَانَ أَبْلَغَ فِي مَدْحِهِ مِمَّا لَوْ قُلْتُ: إِنَّهُ أُسْتَاذٌ جَيِّدٌ.

حَذْفُ الْمَوْصُوفِ:

قَدْ يُفْضِي حَذْفُ الْمَوْصُوفِ أَيْضًا إِلَى تَعَدُّدِ الْمَعَانِي وَالْإِحْتِمَالَاتِ الَّتِي قَدْ تَخْطُرُ لِلْسَّامِعِ عِنْدَ سَمَاعِهِ الْكَلَامِ؛ وَقَدْ قَالَ ابْنُ جَنِّي (ت ٣٩٢ هـ): «أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: مَرَرْتُ بِطَوِيلٍ، لَمْ يَسْتَبِينَ مِنْ ظَاهِرِ هَذَا اللَّفْظِ أَنَّ الْمُرُورَ بِهِ إِنْسَانٌ دُونَ رُمُحٍ أَوْ ثَوْبٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ حَذْفُ الْمَوْصُوفِ إِنَّمَا هُوَ مَتَى قَامَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ، أَوْ شَهِدَتْ الْحَالُ بِهِ، وَكُلَّمَا اسْتَبْهَمَ الْمَوْصُوفُ كَانَ حَذْفُهُ غَيْرَ

(١) انظر: الخصائص ٣٧٣/٢.

لا تَقْبَلُ بِالْحَدِيثِ»^(١)، وهذا يعني أَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ الحذفِ إِنْ كَانَ مِنْ غيرِ قرينة لفظية أو حالية، ولم يكن الغرضُ منه الإيهامُ على السامع وتشتيت ذهنه؛ فإنه من أقبح القبيح؛ لأنَّ المتكلم حينئذٍ يكونُ قد أوغلَّ في الإلباس على المخاطب من غير ما فائدةٍ يرتجيها، وهذا مُحَالِفٌ أصْلُ البلاغةِ الرَّاسخ الذي هو البيان والإفهام وتبليغ مضمون الرسالة للمرسل إليه.

حَذْفُ الْجُمْلَةِ وَأَثَرُهُ فِي إِيهَامِ الْمُتَلَقِّي:

قد تحذفُ العربُ الجملَ بأنواعِها إذا قام عليها دليلٌ، وقد يُفْضَى حذفُ الجملةِ إلى إيهامِ المتلقي إن خفيت عليه القرائن؛ فمن حذف الجملةَ الحالية الذي يُفْضَى إلى الإيهام في حال غياب القرينة قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ...﴾ [المائدة: ٦] فَمَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالصَّلَاةِ والوضوء والإسلام، وقرأ هذه الآية الكريمة ظنَّ أَنَّ المسلمَ مأمورٌ بالوضوء لكل صلاة، مُحْدَثًا كَانَ أَمْ غَيْرَ مُحْدَثٍ، أَمَّا مَنْ لَهُ عِلْمٌ بِالَّذِينَ أَوْ كَانَ مُصَلِّيًا كَانَ ذَلِكَ لَهُ قرينةً تدلُّه على المحذوف، وأنَّ التقدير: إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنْتُمْ مُحْدَثُونَ، وقد استشعر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) الإيهامَ المتولد من هذا الحذف، فبادرَ بالقول: «فإن قلت: ظاهرُ الآيةِ يُوجبُ الوضوءَ على كُلِّ قائمٍ إلى الصَّلَاةِ مُحْدَثٍ وَغَيْرِ مُحْدَثٍ، فما وجهه؟ قلت: يحتملُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ لِلْجُوبِ، فيكونُ الْخُطَابُ لِلْمُحْدَثِينَ خَاصَّةً، وَأَنْ يَكُونَ لِلنَّدْبِ. وعن رسول الله ﷺ والخلفاء بعده، أُنْهَمَ كَانُوا يَتَوَضَّؤُونَ لِكُلِّ صَلَاةٍ...»^(٢)، وقد ظهرَ ههنا ما للحذفِ من أثرٍ في إيهامٍ مَنْ افْتَقَدَ الْقَرِينَةَ الصَّارِفَةَ لِهَذَا الْوَهْمِ، وهذه القرينةُ كما سلفَ هي المعرفةُ السابقةُ بمتى يكونُ الوضوءُ.

حذفُ الجملةِ المعطوفة:

إِنَّ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] من حذف الجملةِ المعطوفة الموهمة؛ إذ قد يتبادرُ إلى ذهنٍ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ أَنَّ اللَّهَ

(١) انظر: الخصائص ٢/ ٣٦٨.

(٢) انظر: الكشف ٢/ ٢٠١.

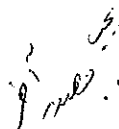
تعالى إذا أراد إهلاك قرية أمر المترفين فيها بالفسق، ثم يُعَذِّبُهُمْ ويُدمِّرُ تلك البلاد والعباد، وهذا وهم صوابه أنه ثمة جملة معطوفة والتقدير: أمرنا مترفيها بالطاعة والخير، «فخالفوا أمرنا»^(١)، وفسقوا فيها، فأتاهم عذابنا.

حذف جملة الخبر:

من حذف جملة الخبر الذي قد يُفْضِي إلى الإيهام قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] فقد يُتَوَهَّم أَنَّ الجارَّ والمجرورَ ههنا متعلقان بخبر محذوف تقديره: كائنٌ أو موجود، والصَّواب أنَّهما متعلقان بخبرٍ محذوفٍ تقديره: (يجريان) أي يجريان بانتظام، أو (يسبحان)، وهنا قال ابنُ هشام (ت ٧٦١هـ): «الأرجحُ في قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أن يُقَدَّرَ (يجريان) فإذا قَدَّرْتَ (الكَوْنَ) قَدَّرْتَ مُضَافاً؛ أي: جَرَيَانُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كائِنْ بِحُسْبَانٍ»^(٢)، وفي هذا تنبيهٌ على أن التَّقْدِيرَ باعتبارِ المعنى.

حذف الجملة المستدركة:

قد يُفْضِي حذفُ الجملةِ المستدرِكةِ إلى الإيهام؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]، فلعلَّ سائلاً يحارُّ في عِلَّةِ نَصْبِ ﴿رَحْمَةً﴾، ولا يدري أنَّها مفعولٌ لأجله لفعلٍ محذوفٍ تقديره: (اخترناك)، ويكون إعرابُ هذه الجملة المحذوفة خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: ولكن نحن اخترناك أو أرسلناك رحمة... وقد ذكرها ابنُ الأثير (ت ٦٣٧هـ) في كلامه على الاكتفاء بالسبب عن المسبب، أي اكتفي في الآية بذكر السبب الذي هو الرَّحْمَةُ عن المسبب الذي هو إرساله ﷺ، وقال: «فإنَّ في هذا الكلام محذوفاً، لولاه لما فهم؛ لأنَّه قال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ

(١) انظر: الحذف البلاغي في القرآن الكريم ص ١٤١. 

(٢) انظر: مغني اللبيب ٥٨٦/٢.

نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴿١﴾، وهذا لا بُدَّ له من محذوفٍ حتَّى يستقيمَ نَظْمُ الكلام. وتقديرُه: ولكن عَرَفْنَاكَ ذلك وأوحينا إليك؛ رحمةً من ربِّك؛ لتندَرَ قوماً ما أتاها من نذيرٍ من قبلك. فذكرَ الرَّحمةَ التي هي سببُ إرساله إلى الناس، ودلَّ بها على المسبَّب الذي هو الإرسال»^(١).

حَذَفُ جُمْلَةِ جَوَابِ الشَّرْطِ:

كثيراً ما تُحذفُ جملةُ جوابِ الشرط؛ فيكونُ المعنى أو التَّقديرُ واضحاً حيناً، ومُبهماً أحياناً أخرى؛ فقد تُحذفُ جملةُ الجوابِ للدلالة على أَنَّهُ شيءٌ لا يُحيطُ به الوصفُ، أو لتذهبَ نفسُ السَّامعِ فيه كُلُّ مذهبٍ مُمكنٍ، ولا يُتصوَّرُ شيءٌ إلاَّ والجوابُ المحذوفُ أعظمُ منه، ولو عُيِّنَ شيءٌ اقتصرَ عليه لَخَفَّ أمرُه وشأنُه عند السَّامعِ؛ ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] وتقديرُ الجواب: لرأيتُ أمراً عظيماً لا تحيطُ به العبارة^(٢)، وكقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥] أي: «لو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلمَ العظيمَ بِشركهم أَنَّ القدرةَ كُلَّها لله على كُلِّ شيءٍ؛ من العقاب والثَّواب دون أندادِهِم، ويعلمون شدَّةَ عقابه للظالمين إذا عاينوا العذابَ يومَ القيامة، لكانَ منهم ما لا يدخلُ تحتَ الوصفِ من النَّدمِ والحسرةِ ووقوعِ العِلْمِ بظلمهم وضلالهم..»^(٣)، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، والتَّقدير: نالوا من السَّعادة والرِّضا والتَّكريم ما نالوا، والحذفُ في مثل هذه المواطن يصدقُ فيه قول السَّجلماسي (ت نحو ٨٠٠هـ): «وإنَّما يُحذفُ الجوابُ في مثل هذه الأدوات المقتضية الجواب؛ لقصدِ المبالغة؛ لأنَّ السَّامعَ يُتركُ مع أقصى تَخيلِهِ، بتقديره أشياء لا يحيطُ بها الوصفُ، وذلك حين يسوقُ السياقُ إلى معنى واحدٍ يقعُ على أنحاءٍ كثيرة، ووجوهٍ متعدِّدةٍ وآخذةٍ بالنَّوع، ولأخذِ بعضها بدَلِ بعضٍ في زمنٍ كأنَّها تقعُ فيه

(١) انظر: المثل السائر ٢/ ٢٢٣.

(٢) انظر: مغني اللبيب ٢/ ٨٥٠.

(٣) انظر: الكشاف ١/ ٣٥٤.

دفعاً يحارُّ الوهمُ ويعظمُ التَّخِيلُ لها بذلك. ولو صُرِّحَ بالجوابِ لَوَقَفَ الذَّهْنُ عِنْدَ الْمَصْرَحِ بِهِ الْمَعْنَى، فلا يكونُ له ذلك الوقوعُ^(١)، وهذا نوعٌ من الإيهامِ الذي يُرادُّ للحذفِ أن يصنعه في ذهن السامع.

ومن حذف جواب الشرط الشديد الإيهام إلا على أهل البصر أن مَنْ يسمع قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤] ويحلُّلُ أسلوبَ الشرط، قد يتوهمُ أن قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ...﴾ هو جوابُ الشرط، وأنَّ الفاءَ ههنا رابطة لجواب الشرط، وليس كذلك، بل الجوابُ محذوفٌ والتقديرُ: وإن يكذبوك فلا تحزنْ واصبرِ فقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ^(٢)، وإعرابُ جملة ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ...﴾ استئنافٌ بياني، ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧]، والتقديرُ: فلا ضيرَ عليّ، فقد أبلغتكم^(٣).

أمثلة على حذف الجملة عموماً، وأثره في التباس المعنى:

ومن حذف الجملة أيضاً أن يُوقَعَ الفعلُ على شيئين، وهو في الحقيقة لأحدهما، فيقعُ في وهم البعض أن هذا الفعل واقعٌ حقاً على ذينك الشيئين، ولكن المعرفة بطرائق القول عند العرب تجعل المتلقي يَضمِرُ للآخر فعله؛ كقوله تعالى على لسان نوحٍ عليه السلام يُخاطَبُ قومه: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] أي: وادعوا شركاءكم^(٤)، ومثله قول الشاعر: [الطويل]

تراه كأنَّ الله يجدُّ أنفه وعينه إن مولاه ثابَّ له وفر^(٥)

أي: يجدُّ أنفه، ويفقأ عينيه.

(١) انظر: المتزَّع البديع ص ١٩٠.

(٢) انظر: إعراب القرآن الكريم من مغني اللبيب ص ٢٧٢.

(٣) انظر: إعراب القرآن الكريم من مغني اللبيب ص ١٦٧.

(٤) انظر: الكشف ٣/ ١٦١.

(٥) انظر: تأويل مُشكِل القرآن ص ٢٣٣، وهو فيه بلا نسبة. ثابَّ له وفر: عاد أو صار له غنى.

إذا ما الغايات برزن يوماً وزَجَّجْنَ الحواجبَ والعيونا^(١)

أي: وكحلن العيون، وقال فيه الفراء (ت ٢٠٧هـ): «فالعين لا تزجج إنما تكحل، فردّها على الحواجب؛ لأن المعنى يُعرف»^(٢)، وما أجمل هذه اللفظة من الفراء؛ إذ جعل العرف قرينة ينأز بها المراد.

ومن حذف الجملة قوله سبحانه: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فإن ظاهر الآية يؤهم من لا علم له بأحكام الفقه أن الحاج الذي يكون مريضاً أو به ألم من رأسه فعليه فدية، ولكن بعد أن يتنبه السامع إلى الحذف؛ ويُقدّر المحذوف، يصبح المعنى: فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه فحلقه؛ فعليه فدية...^(٣)؛ لأن الجملة في سياقها هكذا: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، والمعنى جلاء الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) بقوله: «فمن كان به مرض يُجوجه إلى الحلق أو به أذى من رأسه وهو القمل أو الجراحة، فعليه إذا احتلق فدية من صيام ثلاثة أيام، أو صدقة على ستة مساكين؛ لكل مسكين نصف صاع من بُرٍّ، أو نُسك وهو شاة»^(٤)، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] أي: فضرب، فانفجرت.

وقد تُحذف جملة الصلة، والعرب تقول: فعل فلان ذلك بعد اللَّتْيَا واللَّتْيَا، أي بعد شدة ومحنة، وليكون مضمون الصلة مبهماً على السامع لا يدرى إلا المخاطب العالم به، ولا يخفى ما في ذلك من

(١) انظر: معاني القرآن للفراء ٣/١٢٣، وتأويل مُشكِـل القرآن ص ٢٣٤، وهو فيها بلا نسبة.

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء ٣/١٢٣.

(٣) انظر: الخصائص ٢/٣٦١، والمثل السائر ٢/٢٤٨.

(٤) انظر: الكشف ١/٤٠٣.

التَّهْوِيلِ والتَّفْخِيمِ، وقال الرَّنْخَشَرِيُّ (ت ٥٣٨هـ): «وإنَّما حَذَفُوا [يقصد: الصَّلَة]؛ لِيُوهِمُوا أَنَّهَا بَلَغَتْ من الشَّدَّةِ مَبْلَغاً تَقَاصَرَتِ العِبَارَةُ عَنْ كُنْهِهِ»^(١)، ومثُل ذلك قول عَيْبُد بن الأبرص متحدِّياً الشَّاعِرَ المشهور امرأ القَيْس: [مجزوء الكامل]

نَحْنُ الأُلَى، فَاجْعِ جُمُوءَ عَكَ، ثُمَّ وَجَّهْهُمْ إِلَيْنَا^(٢)

أي: نحنُ الأُلَى عرفتهم^(٣)، أو نحنُ الأُلَى عُرِفُوا بالشَّجَاعَةِ^(٤) التي يَقْصُر الوصفُ عن الإحاطَةِ بها، وفي هذا إِيْهَامٌ لِلسَّامِعِ بهول الصَّلَة المحذوفة وعظمتها، وقد رأى السَّكَّاكِيُّ (ت ٦٢٦هـ) أنَّهم يَحْذِفُونَ الصَّلَة «تَنْبِيهاً على أَنَّ المَشَارَ إليها باللَّتِيَا والتي، وهي المِخْنَةُ والشَّدَائِدُ، بَلَغَتْ مِنْ شِدَّتِهَا وَفُظَاةِ شَأْنِهَا مَبْلَغاً يُبَيِّهَتِ الوَاصِفُ مَعَهَا؛ حَتَّى لَا يُحِيرَ بَيْنَتِ شَفَةِ»^(٥)، وقال فيها صَاحِبُ الطَّرَازِ (ت ٧٤٩هـ): «فإنَّ هذا واقِعٌ في الإِيْهَامِ أعْظَمُ مَوْقِعٍ، وما حَذَفُوا الصَّلَة إِلَّا من أَجْلِ إِرَادَةِ الإِيْهَامِ؛ لأنَّ الصَّلَة مُوَضَّحَةٌ لِلْمَوْصُولِ في عِلْمِ الإِعْرَابِ،... وكأنَّها [يقصد الصَّلَة المحذوفة] بَلَغَتْ مَبْلَغاً لَا تُطَبِّقُ العِبَارَةُ على وَصْفِهِ»^(٦)، وهذا يُذَكِّرُ بقول عبد القاهر (ت ٤٧٤هـ) في الحذف: «فإنَّكَ تَرى به تَرْكَ الذِّكْرِ، أَفْصَحَ من الذِّكْرِ، والصَّمْتُ عن الإِفَادَةِ أَزِيدَ لِلإِفَادَةِ، وَتَجْدُكَ أَنْطَقَ ما تَكُونُ إِذَا لم تَنْطَقْ، وَأَنْتُمْ ما تَكُونُ بَيَاناً إِذَا لم تُبَيِّنْ»^(٧).

حَذَفُ أَكْثَرِ مِنْ جُمْلَةٍ:

قد يَكُونُ المحذوفُ أَكْثَرَ مِنْ جُمْلَةٍ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى على لِسَانِ صَاحِبِ يَوْسُفَ عليه السلام الَّذِي رَافَقَهُ فِي السَّجَنِ، ثُمَّ خَرَجَ وَعَمَلَ سَقَاءً عِنْدَ الْمَلِكِ، وَلَمَّا قَصَّ الْمَلِكُ رُؤْيَاهُ على حَاشِيَتِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ تَأْوِيلَهَا،

(١) انظر: المفصل في صنعة الإعراب ص ١٨٣.

(٢) انظر: الحماسة البصريّة ٢٦٤ / ١.

(٣) انظر: اللسان (أولى).

(٤) انظر: مُغْنِي اللَّيْبِ ٨١٦ / ٢.

(٥) انظر: مفتاح العلوم ص ٣٩١.

(٦) انظر: الطراز ٤٧ / ٢.

(٧) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٤٦.

فَعَجَزُوا وَقَالُوا: ﴿أَضَعْتُ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]، تذكر الذي نجا من صاحبي السجن يوسف وعلمه بتأويل الرؤيا، فاستأذن في المضي إليه، وذلك قوله تعالى حكاية عنه:

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ ٤٥ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ...﴾ [يوسف: ٤٥-٤٦]، أي: فأرسلوني إلى يوسف، فاستعبره الرؤيا، فأرسلوه إليه، فأتاه، وقال له: يا يوسف، أيها الصديق، أفتنا...^(١)، ألا ترى أن مثل هذا الحذف يزيد من إيهام المتلقي من حيث يقوي تخيُّله لأحداث القصة، لينسى أنه يسمع الآن قصّة لأجل العِظة والعبرة، بل تمرُّ المشاهد متحرّكة مُتسارعة أمام عينيه، وكأنه يراها عياناً، ولا سيّما أن طريقة عرض الشخصية ههنا جاءت تمثيلية لا تحليلية؛ لتوهم المتلقي عبر طاقة تخيلية عالية أثارها هذا الحذف العجيب، ومن جمالية هذا الحذف أيضاً أنّه «ساعد على نقل حال هذا الرجل في إسرعه إلى يوسف ﷺ، فما إن أُذن له بالنفاذ إليه حتّى كان بين يديه يتدّره الفتيا من غير تمهيد، ولعلّ إسرعه هذا إنّما كان بسبب مانسي من وصية يوسف ﷺ بأن يذكره عند الملك، وهو الذي أحسن إليه بأن فسّر له رؤياه وبشّره بالنجاة وينقله من السجن إلى حاشية الملك، فلمّا تذكر أمر يوسف ﷺ هاجت نفسه إلى الإسراع إليه؛ تكفيراً عمّا فات، وإحراز قصب السبق في أداء خدمة للملك عجز عنها جميع من حوله، ولا سيّما أنّه واثق بأنّ عند يوسف الخبر اليقين»^(٢). ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ ٣٥ ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥-٣٦]، قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في بيان المحذوف منها: «والمعنى: فذهبا إليهم، فكذبوهما، فدمرناهم...»^(٣).

الاجتزاء ببعض الكلمة:

من الحذف المبهم - إلّا على من يكون المحذوف معهوداً في أذهانهم - ضرب يقوم على اجتزاء بعض أحرف الكلمة، والاكتفاء به في التّخاطب؛ وتتمثل هذه الظّاهرة بحذف حرف أو حرفين من

(١) انظر: الكشف ٣/ ٢٩٢.

(٢) انظر: القرائن في علم المعاني ص ٤٦٣، بتصرّف.

(٣) انظر: الكشف ٤/ ٣٥٠.

آخر الكلمة غالباً؛ كقولهم الذي أوردَه سيبويه (ت ١٨٠ هـ) في باب (إرادة اللفظ بالحرف الواحد) قائلاً: «سمعتُ من العرب مَنْ يقول: ألا تا؟ بلى فا؛ فإنما أرادوا: ألا تفعل؟ وبلى فافعل»^(١)، وقد يجتزئون بحرفٍ، فيذكرون اسمَ هذا الحرفِ؛ لا بلفظه، كما في قول الآخر: [الرجز]

قلنا لها: قفي لنا، قالت: قاف

أي: وقفتُ^(٢).

ولا شك في أن الرّاجزَ اجتزأ ههنا مُعوّلاً على الحال المشاهدة لديه من وقوف المرأة، وقد ألمح ابنُ جنّي (ت ٣٩٢ هـ) إلى أثر الحال المشاهدة؛ إذ قال: «لو نُقِلَ إلينا هذا الشاعرُ شيئاً آخرَ من جملة الحال، فقال مع قوله (قالت: قاف): (وأمسكت بزمام بعيرها) أو (وعاجتُه علينا)؛ لكانَ أبينَ لِمَا كانوا عليه وأدَلَّ على أنّها أرادت: وقفتُ أو توقّفتُ، دون أن يُظنَّ أنها أرادت: (قفي لنا!) أي يقول لي: قفي لنا! متعجّباً منه. وهو إذا شاهدَها، وقد وقفتَ علِمَ أن قولَها: (قاف) إجابةٌ له لا ردُّ لقوله وتعجّبٌ منه في قوله: (قفي لنا)»^(٣).

والعربُ تجتزئ ببعض الكلمة «في المقام الذي يأنس فيه ناطقُهم فهمَ سامعِهِ مُرادَه بما اجتزأ، والمقام الذي يكونُ عليه المتكلّمُ ضروريّاً لإدراك معنى الكلام»^(٤)، وإنّك لَترى في هذا الحذفِ المسموعِ عن العربِ باجتزاء بعض حروف الكلمة والاكتفاء بها سبيلاً رُحباً إلى الإيهام والإيهام على السّامع؛ لأنّه إن لم يكن على عِلْمٍ بالكلماتِ الأصلية التي اجتزئت منها هذه الحروف؛ فإنّه سيُشعرُ أنّه في غايَةٍ من الرّموز المُبهِمة.

(١) انظر: سيبويه ٣/ ٣٢١.

(٢) انظر: الخصائص ٢/ ٣٦١.

(٣) انظر: الخصائص ١/ ٢٤٧.

(٤) انظر: مجلّة جامعة دمشق، المجلّد ٢٠ - العدد ٣+٤، ٢٠٠٤م، مقال للدكتور إبراهيم عبد الله بعنوان:

(الاجتزاء ببعض الكلمة).

حَذْفُ الْحَرْفِ وَأَثَرُهُ فِي الْإِيهَامِ:

من حذف الحروف الموهِم قوله: [الطويل]

ويرغِبُ أن يَبْنِي المعَالِي خَالِدٌ ويرغِبُ أن يَرْضَى صَنِيعَ الْأَلَاءِ^(١)

معلومٌ أنَّ قولنا: (رغِبَ في الشَّيْءِ: أَحَبَّهُ)، و(رغِبَ عنه: كرهه)، وعليه فإنَّ حذفَ الجارِّ ههنا أفضى إلى إيهام السامع حتَّى احتملَ البيتُ عنده معنيين لا يدفعُ أحدهما الآخرَ، إذ يحتملُ المدحَ والذَّمَّ من حيث إنَّ قَدَّرْتَ: (في) أولاً، و: (عن) ثانياً فهو مدحٌ، وإنَّ عكستَ فهو ذمٌّ؛ إذ يُقال: (رغِبَ فيه) و (رغِبَ عنه)، والإيهامُ الحاصلُ في البيت إنَّ لم يكن على نيَّةٍ من الشَّاعر وقصدٍ فهو غيرُ مرغوبٍ في المدح؛ لأنَّ الممدوحَ لا يَسْتَحْسِنُ أن يُمدَحَ بقصيدةٍ تُفهمُ على جهة المدح والذَّمَّ في آنٍ معاً، كما فعلَ أبو الطَّيِّبِ في كافوريَّاته؛ لأنَّ عدمَ تعيينِ الجارِّ ههنا أوقعَ في اللَّبسِ، أمَّا إنَّ كانَ الشَّاعرُ قاصداً لحذفِ الجارِّ مُريداً الإيهامَ فاللَّبسُ والإيهامُ ههنا حسنٌ.

ومثُلُ هذا الحذفِ تراه في قوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ أَلَدَى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغْبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ إِنْ تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧]، فقوله: ﴿وَرَغْبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ محذوف الجارِّ، فلا ندري: ترغبون في أن تنكحوهن، أم ترغبون عن أن...، ولكنَّ الزَّخَشَرِيَّ (ت ٥٣٨هـ) يكشفُ لنا جماليَّةَ هذا الإيهام الذي ولَّده الحذفُ إذ عَقَّبَ على الآية بقوله: «كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَضُمُّ الْيَتِيمَةَ إِلَى نَفْسِهِ وَمَالَهَا. فَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً تَزَوَّجَهَا وَأَكَلَ الْمَالَ، وَإِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً عَضَّلَهَا عَنِ التَّزْوُجِ حَتَّى تَمُوتَ فَيَرِثَهَا﴾ ﴿وَرَغْبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ يحتملُ في أن تنكحوهن لجمالهنَّ، وعن أن تنكحوهنَّ لدمامتهنَّ^(٢)، فحذفُ الجارِّ ههنا أفضى إلى الاتِّساعِ في المعاني، والإيهامُ الحاصلُ ههنا فيه ترغيبٌ وترهيبٌ، وجلالٌ وجمالٌ في آنٍ معاً، كما رأيت.

(١) انظر: أنوار الربيع ١٣/٢.

(٢) انظر: الكشف ١٥٥/٢-١٥٦.

ومن حذف الحرف أيضاً قول امرئ القيس: [الطويل]

فقلت: يمينُ الله أبرحُ قاعداً ولو قطعُوا رأسي لَدَيْكَ وأوصالي^(١)

فَمَنْ لا بَصَرَ له بالعربية قد يتوهم المعنى على الإثبات، و(برح بمعنى زال)، والمعنى على النفي؛ لأنَّ في الكلام حرفاً محذوفاً، والتقدير: لا أبرحُ قاعداً، فحذفَ (لا) ههنا، وهي مرادة. والقرينة الدالة على المحذوف ههنا إنما هي معرفة الاستعمال اللغوي، كما أشار إلى ذلك ابنُ جني (ت ٣٩٢هـ) إذ قال: «لو أراد الواجب [يقصد المثبت] لَمَا جاز؛ لأنَّ (أبرح) هذه لا تُستعمل في الواجب، فلا بُدَّ من أن يكونَ أراد: (لا أبرح)، ويكفي من هذا قولهم: رَبِّ إشارة أبلغ من عبارة»^(٢)

حَذْفُ الاحْتِبَاكِ وَأَثَرُهُ فِي الْإِيهَامِ:

ومن لطيف الحذف الذي قد يُفْضِي إلى الإيهام ما يُسَمَّى الاحتباك، وهو أن تحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول^(٣)؛ كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٣] أي: إحداهما فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطَّاغوت^(٤)، وبالإمكان الإفادة من هذا الحذف في توليد أساليب الإيهام؛ كأن يُحدِّثَكَ صديقٌ بأمرٍ حصلَ له وكيف تصرَّفَ حيالَ ذلك، فتقول له: لقد أخطأت، وزيدٌ أيضاً تصرَّفَ مثلك؛ إنَّه لا يُحَسِّنُ التَّصرُّفَ. فظاهرُ كلامِكَ دَمُّ زيدٍ، ولكنَّ أدنى تأملٍ يكشف أن باطنه دَمُّ مخاطبك على طريق التعريض، فتقديرُ الكلام: لقد أخطأت فأنت لا تُحَسِّنُ التَّصرُّفَ، وزيدٌ أخطأ فهو لا يُحَسِّنُ التَّصرُّفَ.

(١) انظر: المثل السائر ٢/ ٢٥٦.

(٢) انظر: الخصائص ٢/ ٢٨٦.

(٣) انظر: معجم المصطلحات البلاغية ص ٣٥.

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٣/ ١٨٣.

مَزِيَّةُ فِي الحَذْفِ البلاغيّ:

لا شكّ في أنّ أساليب الحذف هذه بالإضافة إلى ما تصنعه من إيهام، أو إيهام، أو إشكالٍ مقصودٍ على المخاطب لغاياتٍ مختلفةٍ يريدها المتكلم، لا شكّ في أنّها اختبارٌ حقيقيٌّ لِفطنةِ المتلقّي، وبيانٌ لمقدارِ يَقْظَتِهِ وتنَبُّههِ وعِلْمِهِ عندما يتمكّن من معرفة القرائن التي سوَّعت الحذف، ويتمكّن من تقدير المحذوف تقديرًا صحيحًا، واختبارٌ لرهافة حسّه وسلامة ذوقه في تلمّسه مواطن الجمال التي حقّقها ذلك الحذف، إلى ما تحقّقه من غايةٍ مهمّةٍ أظنّها مقصودة تتمثّل في حُلّ المتلقّي على أعمال فكره وتدبُّر الكلام واستنباط المحذوف، وهذا - بلا ريب - أنه يُجَدِّد نشاطه حين يبحث عن المحذوف، ويُعيّنه على تدبُّر الكلام والتعمّق في فضاءات النص، وربطه الكلام أوّلَه بآخره، لأنّ السياق غالباً هو الذي يُعين على تصيّد المحذوف، ومعلومٌ كما سلف أنّ بذلَ المرءَ جهداً في تحصيل المعلومة أدعى إلى تمكينها في ذهنه واستقرارها في قلبه، ولا يخفى أنّ أسلوبَ الحذف يحملُ المتلقّي على أن يكون متلقياً إيجابياً يُسهم في تشكيل النص والتفاعل معه، ومملّء فراغاته، وهذا أيضاً كفيلٌ بتمكين المعنى في ذهنه وقلبه، وأخيراً نتذكّر بأنّ ليس كلّ حذفٍ باعثاً على الإيهام، بل أمرُ الحذف في ذلك على أربعةٍ أضْرِبُ: الأوّل ليس فيه إيهامٌ مطلقاً لا في نية المتكلم ولا في طبيعة التركيب، والثاني: ما يكون موهماً بنيتة من المتكلم لغرضٍ ما، والثالث: ما يكون مُتخلّقاً من طبيعة التركيب وقلة معرفة السامع بسنن العرب في كلامها، والرابع: ما يكون بسبب جهل المُتكلّم وعدم إحكامه لتأليف كلامه. والثاني أعلاها إيهاماً وقيمةً فنيّة، والرابع قبيحٌ مُطرَحٌ يُعابُ قائله، وليس مجالاً لبحث الإيهام البلاغيّ.



المبحث الرابع (بعض أساليب الإنشاء)

المطلب الأول : القسم.

المطلب الثاني: النهي.

المطلب الثالث: الأمر.

المطلب الرابع: الاستفهام.

المطلب الأول – القسم:

القسم من أساليب الإنشاء غير الطلبية، ويكون بالواو، والباء، والتاء، وبغيرها، وسوف نعرض اثنتين من صور القسم الموهم للمخاطب؛ الأولى يتخلق الإيهام فيها من طبيعة التركيب، وأما الثانية فيعمد فيها المتكلم إلى إيهام مخاطبه والتعمية عليه عمداً.

أما الصورة الأولى فقولته تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢]، وقوله سبحانه: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَوَالِدٌ وَمَوْلَا ۖ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ١-٤]، فلعل متلقياً يظن أن (لا) ههنا نافية للفعل بعدها، وأنه تعالى يُخبر بأنه لن يُقسم بيوم القيامة، ولن يُقسم بالنفس اللوامة، ولن يُقسم بالبلد.

قال فيها أبو عبيدة (ت ٢٠٩هـ) في الآية: «مجازها: أقسم بيوم القيامة، وأقسم بالنفس اللوامة»^(١). وذهب قوم منهم الواحدي (ت ٤٦٨هـ) إلى أن (لا) ههنا زائدة؛ بقوله: ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ لا: صلة، معناه: أقسم^(٢). وكان للفراء (ت ٢٠٧هـ) رأي جليل ذهب فيه إلى أن (لا) ههنا رد على كلام سابق مُقدّر، هو كلام الجاحدين..، إذ قال: «ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة

(١) انظر: مجاز القرآن ٢/ ٢٧٧.

(٢) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ص ١١٥٣.

والنار، فجاء الإقسام بالردّ عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ؛ كقولك في الكلام: (لا والله لا أفعل ذاك)، جعلوا (لا) وإن رأيتها مُبتدأة ردّاً لكلام قد كان مَضَى...، ألا ترى أنك تقول مُبتدأً: (والله إنَّ الرُّسولَ لَحَقُّ)، فإذا قلت: (لا والله إنَّ الرُّسولَ لَحَقُّ)، فكأنك أكذبت قوماً أنكروه، فهذه جهة (لا) مع الإقسام، وجميع الأيمان في كل موضع ترى فيه (لا) مُبتدأً بها، وهو كثير في الكلام^(١).

أمّا الزمخشريُّ (ت ٥٣٨ هـ) فجعل (لا) في هذه المواطن نافية لا زائدة، وبين أسرار دخولها في هذه التراكيب، وذكر أن إدخال (لا) النافية على فعل القسم مُستفيض في كلامهم وأشعارهم، ومثل بقوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۝١ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢]، ولم يؤيد زيادتها في هذا الموضع؛ بل قال: «والوجه أن يُقال: هي للنفي، والمعنى في ذلك أنه لا يُقسم بالشئ إلا إعظاماً له؛ يدلُّك عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ الْجُورِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ إِنَّهُ لَقَرَّآنٌ كَرِيمٌ» [الواقعة: ٧٥-٧٦]؛ فكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إنَّ إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام، يعني أنه يستأهل فوق ذلك^(٢).

وأمّا الرّازي (ت ٦٠٦ هـ) فضعّف رأي من جعل (لا) ههنا زائدة من وجوه عدّة، أحدها أن تجويز هذا يفضي إلى الطعن في القرآن الكريم؛ لأنّه على هذا التقدير يجوز جعل النفي إثباتاً وإثبات نفيّاً، وهذا التجويز يفضي إلى التخليط؛ فلا يبقى قاعدةٌ تميّز بها النفي من الإثبات، واعتمد قول من يرى بأنَّ (لا) ههنا نافية للقسم، فكأنه قال عزّ من قائل: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب؛ فإنَّ هذا المطلوب أعظم وأجلُّ من أن يُقسم عليه بهذه الأشياء، ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه. أو كأنه تعالى يقول: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب، فإنَّ إثباته أظهر وأجلى وأقوى وأحرى من أن يُحاول إثباته بمثل هذا القسم^(٣).

(١) انظر: معاني القرآن للقرّاء ٢٠٧/٣.

(٢) انظر: الكشف ٢٦٥-٢٦٦/٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٧٢٠/٣٠.

وأما أبو السُّعود (ت ٩٨٢هـ) فسَلَّمَ ابتداءً أنَّ إدخالَ (لا) النَّافيةِ على فعلِ القَسَمِ شائعٌ، وأنَّ فائدتها ههنا توكيدُ القَسَمِ، ثمَّ أَوْضَحَ وجوهَ توكيدها للقَسَمِ^(١).

وأما ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ) فأَوْضَحَ ذلكَ بكلامٍ لا مزيدَ عليه في الحُسْنِ؛ إذ قال: «وَصِيغَةُ ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ صِيغَةُ قَسَمٍ، أَدخَلَ حَرْفَ النَّفْيِ عَلَى فِعْلِ ﴿أَقْسِمُ﴾؛ لِقَصْدِ السُّبَالِغَةِ فِي تَحْقِيقِ حُرْمَةِ الْمُقْسَمِ بِهِ، بِحَيْثُ يُوْهِمُ لِلسَّامِعِ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهِمْ أَنْ يُقْسِمَ بِهِ، ثُمَّ يَتْرُكُ الْقَسَمَ؛ مَخَافَةَ الْحِنْثِ بِالْمُقْسَمِ بِهِ، فيقول: لَا أَقْسِمُ بِهِ، أَي: وَلَا أَقْسِمُ بِأَعَزِّ مِنْهُ عِنْدِي، وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ تَأْكِيدِ الْقَسَمِ...، وَفِيهِ مُحْسَنٌ بَدِيعِيٌّ مِنْ قَبِيلِ مَا يُسَمَّى تَأْكِيدَ الْمَدْحِ بِمَا يُشَبِّهُ الذَّمَّ. وَهَذَا لَمْ نَذْكُرْهُ فِيْمَا مَضَى، وَلَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ»^(٢)، وَذَكَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ (لَا) مَزِيدَةٌ لِلتَّوْكِيدِ، وَأَصْلُهَا نَافِيَةٌ...، بِمَعْنَى أَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَاجٍ إِلَى الْقَسَمِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ وَاضِحَ الثُّبُوتِ، ثُمَّ كَثُرَ هَذَا الِاسْتِعْمَالُ، فَصَارَ مُرَادًا تَأْكِيدَ الْخَبَرِ، فَسَاوَى الْقَسَمَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَقِبَهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، وَهَذَا الْوَجْهُ... هُوَ الْأَنْسَبُ بِمَا وَقَعَ مِنْ مِثْلِهِ فِي الْقُرْآنِ»^(٣). هَذِهِ أُولَى الْحَالَتَيْنِ اللَّتَيْنِ لُجِحَ فِيهِمَا إِيْهَامٌ لِلْمُخَاطَبِ، يَظُنُّ أَنَّ الْقَسَمَ مَنْفِيٌّ وَهُوَ مُؤَكَّدٌ.

أَمَّا الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ الْمَلَا حِن، وَتِلْكَ طَرِيقَةٌ مِنْ طَرَائِفِ الْإِيْهَامِ، لِلْقَسَمِ فِيْهَا مُدْخَلٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ لِلْحِنِّ مَعَانِيَ عِدَّةً؛ مِنْهَا الْخَطَأُ فِي الْقَوْلِ، وَمِنْهَا الْفَصَاحَةُ، وَمِنْهَا الْمَيْلُ بِالْكَلامِ عَنْ جِهَةِ الْاسْتِقَامَةِ؛ فَيُجْعَلُ لَهُ بَاطِنٌ وَظَاهِرٌ، فَيَكُونُ الْكَلَامُ حِينَئِذٍ مُوْهِمًا خِلَافَ الْمُرَادِ، وَهَذَا هُوَ الْإِيْهَامُ الَّذِي تُرِيدُ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَالِكًا بْنَ أَسْمَاءَ الْفَزَارِيَّ يَسْتَحْسِنُ اللَّحْنَ - بِمَعْنَى الْإِيْهَامِ - مِنْ جَارِيَةٍ لَهُ فَطَنَةٌ تَأْتِي بِالشَّيْءِ تُرِيدُ غَيْرَهُ، وَتُمِيلُ ظَاهِرُهُ عَنْ بَاطِنِهِ، لِتُبَلِّغَ الْمَقْصُودَ سَيِّدَهَا دُونَ الْحَاضِرِينَ، فيقول: [الخفيف]

وَحَدِيثُ الْإِذْهُ هُوَ مَآ
تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ يُوزَنُ وَزْنًا
مَنْطِقٌ صَائِبٌ، وَتَلَحُّنٌ أَحْيَا
نَا «وَأَخِيرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَنَا»^(٤)

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود ٩/ ٦٤.

(٢) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ٢٩/ ٣٣٨.

(٣) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ٢٧/ ٣٣٠.

(٤) انظر: الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ١/ ٢٢٨.

أي: خير الحديث ما فهمه صاحبك الذي تحب إفهامه وحده، وخفي على غيره.

وأصل اللحن أن تريد الشيء فتورّي عنه بغيره؛ وجاء في اللسان: «ولحن له يلحن لحنًا: قال له قولاً يفهمه عنه ويخفى على غيره؛ لأنه يميله بالتورية عن الواضح المفهوم؛ ومنه قولهم: لحن الرجل: فهو لحن إذا فهم وفطن لِمَا لَا يَفْطِنُ لَهُ غَيْرُهُ»^(١)، من ذلك أن رجلاً أذحل على الخليفة الواثق، وكان الواثق يقول بخلق القرآن، ويعاقب من يخالفه في هذا، فقال له الواثق: ما تقول في خلق القرآن؟ فتصامم عليه، فأعاد السؤال ثانية، فقال: من تعني يا أمير المؤمنين؟ فقال: إياك أعني، فقال: (مخلوق). وهو يعني نفسه، فتخلص منه^(٢).

ومنه أيضاً أنه تعذر على رجل لقاء المأمون في ظلامه، فصاح على بابهِ: (أنا أحمد النبي المبعوث)، فأدخل إليه، وأعلم أنه تنبأ، فقال له: ما تقول؟ فذكر ظلامته، فقال له: ما تقول فيما حكى عنك؟ فقال: وما هو؟ فقال: ذكرُوا أَنَّكَ نبيٌّ، فقال: معاذ الله، إِنَّمَا قُلْتُ: أنا أحمد النبي المبعوث، أفأنت يا أمير المؤمنين ممن لا يحمده؟ فاستطرفه، وأمر بإنصافه^(٣).

والذي يعيننا ههنا من الملاحن هو أن ابن دُرَيْد (ت ٣٢١هـ) ألّف كتاباً أسماه (الملاحن)، وله صلة وثيقة بالقسم؛ فقد قال فيه مؤلفه في المقدمة: «هذا كتاب ألفناه؛ ليفزع إليه المُجَبِّرُ المضطَّهدُ على اليمين، المُكْرَهُ عليها، فيُعَارِضَ بها رَسْمَنَاهُ، ويُضْمِرَ خلافَ ما يُظْهَرُ؛ ليسلّمَ من عاديَةِ الظَّالِمِ، ويتخلّصَ من جَنَفِ الغاشِمِ»^(٤).

فغاية هذا الكتاب هي معونة المظلوم على التهرب من الكذب في القسم إذا كان أمام خيارين: إمّا قول الحق، وإمّا الهلاك، وحسبك من أمرين أحلاهما مُرٌّ، فابن دُرَيْد (ت ٣٢١هـ) لجأ إلى اللغة، فأفاد من ظاهرة المشترك اللفظي في اللغة، وبنى عليها كتابه؛ ليسعف هذا المُكْرَهُ، فيعلّمه طريقةً تُجَنِّبه

(١) انظر: لسان العرب (لحن).

(٢) انظر: شرح مقات الحريري للشريشي ٢/ ٤٥١. (دار الكتب العلمية).

(٣) انظر: شرح مقات الحريري للشريشي ٢/ ٤٥١. (دار الكتب العلمية).

(٤) انظر: الملاحن ص ٦٣-٦٤.

الكذب والقتل معاً؛ عندما يُطلبُ منه القسم عند أحد الظالمين، هذه الطريقة تعتمدُ على العُدول في استعمال لفظٍ مُعَيَّن عن الدلالة العامة الشائعة المعروفة بين الناس إلى دلالةٍ مُعجميةٍ أخرى لهذا اللفظ نفسه تكون من غريب اللغة أو مهجورة في المجتمع الذي يتكلَّم فيه اللاحن، دلالة لا يعرفها السامع ولا يدرك معناها إلا بعد التنقيب في بطون المعجمات أو بعد أن تُفسَّر له.

ويَمِينُهُ حينئذٍ تحتملُ معنيين: أحدهما قريبٌ غيرُ مقصودٍ يَتَّقِي به الظالمُ الفاتك الذي يستحلفه، وثانيهما بعيدٌ مقصودٌ يُضْمِرُهُ وينويه في قلبه؛ ليهرب من الكذب الذي كاد يُوقِعُهُ فيه خشيتُهُ من الهلاك والتلف على يد ذلك الظالم، وهذه الطريقة لها ضوابطٌ شرعية واضحة تُحدِّدُ ضروراتِ إباحتها وليس هنا محلُّ بسطها؛ ومن ذلك القاعدةُ العامة في قوله ﷺ: «اليمينُ على نية المستحلف»^(١) (بكسر اللام)، ولهذا الحديث روايةٌ ثانية: «يمينُك على ما يُصدِّقُك عليه صاحبُك»^(٢).

وليست هذه الطريقة من مُبتكرات ابن دُرَيْدٍ، بل هي من كلام العربِ القدامى، فقد رُوِيَ أنَّ النبي ﷺ كان سائراً بأصحابه في خُروجهم إلى بدرٍ، وقد لقيهم أعرابيٌّ فسألهم: يَمِّنُ القوم؟ فقال له النبي ﷺ: من ماء، فأخذ الأعرابيُّ يُفَكِّرُ، ويقول: من ماء.. من ماء! لينظر أَيُّ بطونِ العربِ يُسمَّى ماء؟ وسارَ ﷺ مع القوم إلى وجهته، وقصد أن يَكْتُم أمره، وقد قصد الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، فورى عنه بقبيلة من العرب^(٣).

ومما أورده ابن دُرَيْدٍ في ملاحن القسم لك إن كنت سألت فلاناً حاجةً، وأردت الإنكار حين سئلت عن ذلك: (والله ما سألتُ فلاناً حاجةً قطُّ)؛ لأنَّ «الحاجة ضربٌ من الشجر له شوكٌ، والجمعُ حاج»^(٤)، وإن كنت رأيت فلاناً وكلمته واستحلفك من حرَم عليك ذلك، وتخشى عاقبة

(١) انظر: صحيح مسلم ٣/ ١٢٧٤ - ورقم الحديث (١٦٥٣)، والجامع لأحكام القرآن ٨/ ١٥١.

(٢) انظر: انظر: صحيح مسلم ٣/ ١٢٧٤ - ورقم الحديث (١٦٥٣).

(٣) انظر: الطراز ٣/ ٣٩، وأنوار الربيع ٥/ ٦.

(٤) انظر: الملاحن ص ٦٩ - ٧٠.

معرفته بهذه الرؤية وذاك التكليم؛ فلك أن تقول: (والله ما رأيتُ فلاناً قط ولا كَلَّمْتُهُ)؛ لأنَّ «معنى رأيتُ فلاناً: ضربتُ رِثَّتَهُ، ومعنى كَلَّمْتُهُ: جرَّحْتُهُ»^(١).

وختامُ الكلامِ على القسمِ الموهِمِ قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، فكلمة ﴿وَرَسُولُهُ﴾ مرفوعةٌ على الابتداء، والتقديرُ: أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ بَرِيءٌ مِنْهُمْ أيضاً، وثَمَّ مَنْ قرأها بالجرِّ، وخُرِّجَتْ قراءته هذه على أوجهٍ، منها أن تكون الواو حرفَ جرٍّ وقسمٍ^(٢)، فيكون التقديرُ: أَنَّ اللَّهَ يَتَبَرَّأُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مُقْسِماً بِعِزَّةِ رَسُولِهِ^(٣)، ومعلومٌ أنَّ المتلقِّي - ولا سيما إن لم يكن نحويّاً - إن سَمِعَ هذه القراءةَ فَإِنَّ أَوَّلَ ما يتبادرُ إلى ذهنه هو العطفُ، فيكون المعنى في ذهنه: أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَبَرِيءٌ مِنْ رَسُولِهِ أيضاً، وهذا المعنى لن يستقرَّ في ذهن المتلقِّي بل سيقى قليلاً، ولا يلبثُ هذا المتلقِّي أن يستنتج أنَّ هذا معنَى متوهَّمٌ فاسدٌ. وهذا المعنى المتوهَّمُ المتخلِّقُ من تلك القراءة فاسدٌ يُلجئ صاحبه إلى التَّنْقِيرِ عن وجهٍ من وجوه النَّحو؛ ليُخْرِجَ عليه هذه القراءةَ، حتَّى يُخَرِّجَهَا على القسمِ المقدَّرِ، أو غير ذلك ممَّا جاء به النُّحاة. وممَّا يُؤكِّد ما في هذه القراءة من إيهامٍ ما يُروى من أنَّ أعرابياً سَمِعَ رجلاً يلحنُ ويقرأها بالكسر، فقال: إِنَّ كَانَ اللَّهُ بَرِيئاً مِنْ رَسُولِهِ؛ فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ^(٤).



(١) انظر: الملاحن ص ٧٠.

(٢) انظر: الكشاف ١١/٣، والبحر المحيط ٥/٣٦٧.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب ١٥/٥٢٧.

(٤) انظر: الكشاف ١١/٣.

المطلب الثاني - النهي:

من المعلوم أن النهي الحقيقي هو طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء؛ لتنفيذه على وجه الإلزام الفوري والدائم، وصيغته وحيدة مؤلّفة من الفعل المضارع المقترن بلا الناهية^(١)، على أن المتكلم قد يخرج بهذه الصيغة نفسها إلى أغراض أخرى، يتيّن لك بعد تأملها أن ليس فيها معنى النهي عن الفعل على جهة الاستعلاء، والتنفيذ على جهة الإلزام، وتوجّه صيغة النهي عندئذ إلى معانٍ أخرى تُجلبها للمتلقّي إحاطته بالمقام والقرائن والسياق، فالسكاكي (ت ٦٢٦هـ) يُشير إلى ذلك في كلامه على ألوان الإنشاء؛ إذ يقول: «متى امتنع إجراء هذه الأبواب [يقصد أنواع الإنشاء الطلبي: التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء] على الأصل تولّد منها ما ناسب المقام...، أو كما إذا قلت لعبد لا يمثل أمرك: (لا تمثل أمري) امتنع طلب ترك الامتثال؛ لكونه حاصلًا، وتوجّه على غير حاصل، مثل: (لا تكثر لأمري، ولا تُبال به)، وتولّد منه التهديد»^(٢)، والتعويل ههنا على القرائن التي تُحدّد للمتلقّي دلالة النهي، أهو على معناه الوضعي أم انزاح في هذا المقام إلى معانٍ أخرى.

ومن هنا فأسلوب النهي ضربان: حقيقيٌّ ومجازيٌّ، ووجوه الإيهام تقع للمتلقّي في كليهما، وهذا ممّا ينبغي معرفته؛ لأنّ أسلوب النهي كثيرٌ في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وإنّ كثيراً من أحكام الشرع مبنية على أساليب النهي المذكورة في التنزيل العزيز، فمعرفة أسلوب النهي وخفاياه وما قد يلتبس منه على العامة أمرٌ منوطٌ بأهل البلاغة والشرع على حدٍّ سواء، فضلاً عن النحاة. وصور الإيهام في أسلوب النهي تكاد تكون مُستفيضةً، وسنعرّض ههنا بعضها؛ استغناءً بما سيمرّ في أسلوب الأمر؛ لفرط القرب بينهما.

إنّ من صور النهي التي كثيراً ما تُوقّع المتلقّي في توهم غير المراد إذا كان قليل البضاعة من النحو والبلاغة = أن تدخل أداة النهي على صورة من صور الفعل، والمراد النهي عن صورته كلّها، وهذا جزء ممّا يُسمّى بـ (نفي الشيء بإيجابه) في علم البديع^(٣).

(١) انظر: مفتاح العلوم ص ٤٢٩، والطراز ٣/ ١٥٦، والمطول ص ٤٢٧.

(٢) انظر: مفتاح العلوم ص ٤١٧.

(٣) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٦٦٣، وأنوار الربيع ٤/ ٣٦٤.

ومن ذلك أنَّ في القرآن الكريم آياتٍ عدَّة تدعو إلى عدم تحريف كلام الله سبحانه لقاء المال القليل؛ كقوله في خطاب علماء بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١]، فقد «كانت عامتهم يُعطون أحبارهم من زُروعهم وثمارهم، ويهدون إليهم الهدايا، ويرشونهم الرِّشا على تحريفهم الكلام، وتسهيلهم لهم ما صَعُبَ عليهم من الشرائع، وكان ملوكهم يدرون عليهم الأموال؛ ليكتُموا أو يحرفوا»^(١). ومثله قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [النحل: ٩٥]، فظاهر الكلام يُوهِّمُ أنَّه نهي عن التَّفريط في كلام الله وعهده إذا كان المقابل ثمنًا قليلًا، وإباحة ذلك إن كان المقابل ثمنًا كبيرًا مجزيًا، وهذا فاسدٌ لا يستقيم.

فالآية الأولى نهي عن تحريف كلام الله وكتمانه، والثانية نهي عن نقض عهده سبحانه، ولكنَّ البيان القرآني عمَد إلى هذه الصُّورة من النهي؛ ليدلَّ على أنَّ أيَّ ثمنٍ مُستفادٍ مقابل تحريف كلام الله وكتمانه هو قليلٌ جدًّا ومُحتقرٌ أمامَ عظمة كلام الله، وأمام ما ينتظرُ فاعله من العذاب.

وذكر الثمن القليل يدلُّ أيضًا على أنَّ هذا الفاعل شديد الاستخفاف بدين الله، ومُتساهلٌ في التَّفريط بدينه، وهذا يُنبئ بأنَّ عذابه سيكونُ من جنسِ فعله وشِدَّتِه، أي: يُوحى بِشِدَّة العذاب الذي ينتظرُ من يُحرِّف كلام الله من أجلِ عَرَضٍ زائل. وإنَّ في ذِكْرِ الثَّمَنِ «تعريضاً بهؤلاء بأنَّهم مغبونو الصَّفقة؛ لأنَّهم بذلوا أنفُسَ شيءٍ وهو كلامُ الله مقابل حُطام الدُّنيا»^(٢) وفي ذلك تجهيلٌ لهم وتقريعٌ؛ لأنَّ هذه الأثمان والمغريات من الحظوظ الدُّنيوية - وإنَّ جلَّت - قليلةٌ مُستردَّة بالنسبة إلى ما فات عنهم من حظوظ الآخرة بترك الإيثار^(٣)، ولا يخفى ما في تنكير الثمن القليل من تحقير لشأنه، وما في تعريف الآيات بالإضافة إلى ضمير الجلالة من تشريفٍ لشأنها، وهذا يُبرزُ قباحة مُقايضتهم وخساسة فاعله ووضاعته.

(١) انظر: الكشف ٢٥٩/١.

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير ٤٦٤/١. (بتصرُّف)

(٣) انظر: تفسير أبي السُّعود ٩٦/١.

وقد تنبّه الفخر الرّازي (ت ٦٠٦ هـ) إلى أنّ وهماً قد يتسرّب إلى أفهام بعض المتلقّين لهذه الآية الكريمة؛ فقال: «قوله: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الزّعد: ٢]، لا يدلُّ على وجودِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا. وقوله: ﴿وَقَتَّلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٥] لا يدلُّ على وقوع قتلِ الأنبياءِ بِحَقٍّ. وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآبَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا يدلُّ على إباحة ذلك بالثمن الكثير»^(١)، وتنبّه إلى هذا الإيهام ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) ورأى أنّ الوصف ﴿قَلِيلًا﴾ «ليس المرادُ به التقييدُ، بحيث يُفيدُ النّهْيَ عن أخذِ عَوَضٍ قليلٍ دونَ أخذِ عَوَضٍ له بالٌ، وإنّما هو وَصْفٌ مُلَازِمٌ لِلثَّمَنِ المَأخُوذِ عَوَضًا عن استبدالِ الآياتِ، فإنَّ كُلَّ ثَمَنٍ في جانب ذلك هو قليلٌ، فذكرُ هذا القيدِ مقصودٌ به تحقيرُ كُلِّ ثَمَنٍ في ذلك. فهذا النَّفْيُ شبيهٌ بنفي القيودِ المُلَازِمَةِ لِلْمُقَيَّدِ؛ لِيُفِيدَ نَفْيَ القيدِ والمُقَيَّدِ معاً»^(٢)، ولولا انتباهُ المفسّرين إلى الإيهام في بنية هذا التّركيبِ، ورؤيتهم أناساً وهموا في فهمه ما حرصوا هذا الحرصَ على إيضاحه وإيضاح نظائره في غير موضعٍ من كتُبِهِم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] فقد يتوهّم أحدُهم أنّ الجملةَ الحاليّةَ فيه ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قيدٌ للنّهْيِ، أي أنّ الخطابَ ههنا للنّهْيِ عن لبسِ الحقِّ بالباطلِ وكتمانه على عِلْمٍ، وإباحته بغيرِ عِلْمٍ، وهذا وهمٌ ناتجٌ من طبيعة التّركيبِ، وعدم تمييزِ وظيفة الجملةَ الحاليّةَ وأثرها في النّهْيِ، وعاهُ الرّازي (ت ٦٠٦ هـ) فذهبَ إلى أنّ: «النّهْيَ عن اللّبسِ والكتمانِ - وإن تقيّدَ بالعلمِ - فلا يدلُّ على جوازِها حالَ عدمِ العلمِ؛ وذلك لِأَنَّهُ إذا لم يُعْلَمْ حالُ الشّيءِ لم يُعْلَمْ أنّ ذلك اللّبسَ والكتمانَ حقٌّ أو باطلٌ، وما لا يُعرَفُ كونه حقّاً أو باطلاً لا يجوزُ الإقدامُ عليه بالنّفْيِ ولا بالإثباتِ، بل يَجِبُ التَّوَقُّفُ فيه، وسببُ ذلك التّقييدُ أنّ الإقدامَ على الفعلِ الضّارِّ مع العلمِ بكونه ضارّاً أَفَحَشُ مِنَ الإقدامِ عليه عندَ الجهلِ بكونه ضارّاً، فلمّا كانوا عالمينَ بما في التّلبّيسِ مِنَ المفسدِ كانَ إقدامُهم عليه أقبحَ. والآيةُ دالّةٌ على أنّ العالمَ بالحقِّ يَجِبُ عليه إظهارُهُ ويَحْرُمُ عليه

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٣/ ٤٨٥.

(٢) انظر: التّحرير والتّنوير ١/ ٤٦٦.

كتّمه»^(١)، وهذا الكلامُ كُلُّه باعتبار الواو للحال، وأمّا إذا عُدَّتِ استثنائيةً فلا إيهامَ حينئذٍ؛ لأنَّ الاستثناءَ ليسَ قيداً للكلام، ومعنى الاستثناء ههنا إخبارٌ عن عِظَمِ حَقارتهم وبيانُ مدى ضَعْفِهِمْ وَخِسَّتِهِمْ، وإخبارٌ أيضاً بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ عالِمٌ بما يُخْفُونَ في صدورهم.

ومثله قوله تعالى في النَّهْيِ عن إضاعة مال اليتيم: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢]، فظاهرُ النَّهْيِ أَنَّهُ مُوجَّهٌ لِلْأَغْنِيَاءِ الَّذِينَ لَهُمْ أَمْوَالٌ، وهذا وهمٌ صوابه أَنَّ النَّهْيَ ههنا مُوجَّهٌ لِكُلِّ مَنْ وَلِيَ الْيَتِيمَ، سواءٌ أَكَانَ لَهُ مَالٌ أَمْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ، ولكنَّ الآيةَ الكريمةَ عَمَدَتِ إِلَى تَصْوِيرِ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ مع وجود الأموال لهذا الولي؛ لتعرض أقبح صورة من أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى، فهذا أَذْلٌ عَلَى الْجَشْعِ، ودناءة النفس، وقلة المروءة، وهو أدعى كذلك إلى تنفير نفس المتلقّي من أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وقد تنبّه إلى ذلك الزّخشي (ت ٥٣٨ هـ) إذ قال: «فإن قلت: قد حرّم عليهم أَكْلَ مَالِ الْيَتَامَى وحده، ومع أموالهم، فلم ورد النَّهْيُ عن أَكْلِهِ [يقصد مال اليتيم] معها [يقصد مع أموالهم]؟ قلت: لأنّهم إذا كانوا مُسْتَغْنِينَ عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مالٍ حلال - وهم على ذلك يطمعون فيها - كان القبحُ أبلغَ والذمُّ أحقَّ، ولأنّهم كانوا يفعلون كذلك فنعى عليهم فعلهم، وسَمِعَ بهم؛ ليكونَ أَزْجَرَ لَهُمْ»^(٢)، وقد أشار ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) إلى أَنَّ الْقَيْدَ (إِلَى أَمْوَالِكُمْ) ليسَ هو مُحِطٌ بِالنَّهْيِ، بل النَّهْيُ واقعٌ على أَكْلِ أَمْوَالِهِمْ مُطْلَقاً، سواءً كَانَ لِلْأَكِلِ مَالٌ يُضَمُّ إِلَيْهِ مَالٌ يَتِيمُهُ أَمْ لَمْ يَكُنْ، ودُكِرَ هذا القيدُ؛ لِأَنَّهُ أَذْخَلَ فِي النَّهْيِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ حَيْثُ يَأْكُلُونَ حَقَّ النَّاسِ مع أنّهم أغنياء^(٣).

ولعلَّ سائلاً يقول: أليس طريقُ أهل البيان إذا كان المنهي عنه ذا درجاتٍ أن يُوجَّهَ النَّهْيُ إلى أدنى درجاته، فيكونَ هذا النَّهْيُ عامّاً له ولكلِّ ما علاه من درجات هذا المنهي عنه؟ فلو نُهيَ الفقراءُ عن أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى لَكَانَ شَمُولُ النَّهْيِ لِلْأَغْنِيَاءِ أُولَى؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمْ أُفٍّ﴾

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٣/ ٤٨٥.

(٢) انظر: الكشف ٢/ ١٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ٢٢١.

[الإسراء: ٢٣] فالنَّهْيُ عن التَّأْفُفِ بوجه الوالدَيْنِ هو من باب أولى نهيٍّ عن سبِّهما أو صَرْبِهما أو كلِّ فعلٍ فوق التَّأْفُفِ، وهنا أعلى درجات أَكْلِ مالِ اليتيمِ في النَّهْيِ أَنْ يَأْكُلَهُ وهو غنيٌّ عنه غيرُ مُضْطَرَّرٍ إليه، وأدناها أَنْ يَأْكُلَهُ وهو فقيرٌ إليه، فلماذا لم يتوجَّه النَّهْيُ ههنا إلى أدناها (أي إلى الفقراء) ليكون ذلك تنبيهاً حازماً على أعلاها (إلى الأغنياء)؟

هذا سؤالٌ مشروعٌ جوابه أَنَّ «المنهيَّ عنه كُلِّما كان أقبح؛ كانتِ النَّفْسُ منه أنْفَر...، ولا شكَّ في أَنَّ المستقرَّ في النفوس أَنَّ أَكْلَ مالِ اليتيمِ مع الغِنَى عنه أقبحُ صورِ الأكلِ، فخصَّصَ بالنَّهْيِ؛ تشبيهاً على مَنْ يقعُ فيه، حتَّى إذا استحكَمَ نفوره من أَكْلِ مالِهِ [اليتيمِ] على هذه الصُّورة السَّنةاء، دعاه ذلك إلى الإحجام عن أَكْلِ مالِهِ مُطْلَقاً»^(١). وفي هذه الآية لفظةٌ بيانيَّةٌ ثانيةٌ هي أَنَّ ظاهرَ الآيةِ الكريمةِ نهيٌّ عن أَكْلِ مالِ اليتيمِ، أي أَنَّ الآيةَ خَصَّصَتْ أَخْذَ مالِ اليتيمِ في الأكلِ، مع أَنَّ المرادَ هو النَّهْيُ عن تناوُلِ مالِ اليتيمِ في أيِّ وجهٍ من وجوه الإنفاقِ من لباسٍ أو مسكنٍ أو نكاح...، فلماذا جاء النَّهْيُ هكذا مُخَصَّصاً في الظَّاهر بشيءٍ مع أَنَّ المرادَ النَّهْيُ عن كلِّ وجوه الإنفاقِ؟ والجوابُ أَنَّ «العَرَبَ كانتِ تنذِّمُ بالإكثارِ من الأكلِ، وتعدُّ البُطْنةَ من البهيميةِ، وتعيبُ على مَنْ اتَّخَذَهَا ديدَنَهُ»^(٢)، فكيف إذا كانَ مَلَأَ البَطْنَ من مالِ اليتامى؟

ومن أساليب النَّهْيِ ما ظاهره النَّهْيُ عن صورةٍ من صور الفعل، والمرادُ النَّهْيُ عن صورهِ كُلِّها؛ كقوله تعالى في النَّهْيِ عن أَكْلِ الرِّبَا: ﴿يَأْتِيهَا الذِّبْءُ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، فعَلَّ بعضُ النَّاسِ إذا سَمِعَ هذه الآيةَ الكريمةَ تَوَهَّمُ أَنَّ الرِّبَا منهْيٌ عنه إذا كانَ ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، وأمَّا إذا أَخَذَ الدَّائِنُ من مَدِينَةِ رِبْحاً بسيطاً (فائدة) على أصلِ المالِ فَإِنَّ ذلكَ يَصِحُّ.

الحقُّ أَنَّ النَّهْيَ ههنا عن كلِّ أنواعِ الرِّبَا؛ وقولُه (أضعافاً مضاعفة) حالٌ مؤكِّدةٌ لكلمةِ الرِّبَا لا مُقَيِّدةٌ لها بأنَّ النَّهْيَ واقعٌ عليها حالة كونها أضعافاً مضاعفة، وإنَّما جيءَ بها؛ لبيانِ قُبْحِ فعلِهِم،

(١) انظر: الانتصاف فيما تضمَّنه الكشَّاف، في حاشية الكشاف ١/ ٤٩٥. طبعة بيروت.

(٢) انظر: الانتصاف فيما تضمَّنه الكشَّاف، في حاشية الكشاف ١/ ٤٩٥. طبعة بيروت.

ولتوبيخهم على ما كانوا يفعلون من مُضاعفة الدين مع مرور الوقت، وللتأكيد على خطره بالذات؛
لأنه الأشدُّ بلاءً على البلاد والعباد؛ والدليل على أن فهمه للآية خاطئ قوله تعالى في سورة سابقة:
﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]
فللدائن أن يستردَّ رأس ماله غير مزيد عليه قليلاً أو كثيراً.

وقد علّق الزّحشرّي (ت ٥٣٨هـ) على الآية بقوله: «(لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً) نهى عن
الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه؛ كان الرجل منهم إذا بلغ الدين حِلَّهُ زاد في الأجل،
فاستغرق بالشّيء الطّفيف مال المديون»^(١). وقال الزّركشي (ت ٧٩٤هـ): «وأكل الربا منهى عنه
قليلاً وكثيراً، لكنّها نزلت على سببٍ وهو فعلهم ذلك، ولأنّه مقام تشنيع عليهم، وهو بالكثير
أليق»^(٢).

وقد تنبّه إلى هذا الإيهام ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ) فحاول رفع هذا اللبس المتخلّق من الحال
(أضعافاً)، وأوضح أن النهي ليس مُتوجّهاً إليها؛ إذ قال: فالحال وارِدَةٌ لقصد التشنيع وإراءة هذه
العاقبة الفاسدة [يقصد تضاعف الدين أضعافاً حتّى يعجز الدائن عن الوفاء به]. وإذ قد كان غالبُ
المدينين تستمرُّ حاجتهم آجالاً طويلة، كان الوقوع في هذه العاقبة مُطردّاً، وحيثُ فالحال لا يُفيدُ
مفهوماً كذلك؛ إذ ليس القصد منها التّقييد بل التشنيع، فلا يقتصرُ التّحريمُ بهذه الآية على الربا
البالغ أضعافاً كثيرة، حتّى يقول قائل: إذا كان الربا أقلّ من ضعف رأس المال فليس بمُحرّم. فليس
هذا الحال هو مَصَبُّ النهي عن أكل الربا حتّى يتوهّم مُتوهم أنّه إن كان دون الضّعف لم يكن
حراماً^(٣). وهذا يعني أن الآية الكريمة تنهى عن أكل الربا مُضاعفاً وغير مُضاعف، ولكنّ النهي

(١) انظر: الكشف ١/ ٦٢٦.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٤٠١.

(٣) انظر: التّحرير والتّنوير ٤/ ٨٦.

جاء بهذه الصورة - وإن كانت مُوهمةً لَمَن لا بصَرَ له بَسَنَ كَلامِ العربِ - لزيادة التَّفْطِيعِ والتَّشْنِيعِ، وهذا أَدْعَى إلى نُفْرَةِ النَّفْسِ وانصرافِها عن صورهِ كُلِّها.

ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَنَاتِكُمْ أَرْضَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾ [التور: ٣٣]، والفتياتُ ههنا الإمامُ^(١)، وكان أهلُ الجاهليَّةِ يُكرِهونَ الإمامَ ويلتمسونَ مِنْهُنَّ الغَلَّةَ فيفجُرْنَ^(٢)، ووردَ أَنَّهُ كانَ لعبدِ الله بنِ أبي رَأْسِ النِّفاقِ سِتُّ جَوَارٍ يُكرِهُهُنَّ على البِغاءِ لقاءَ المالِ، فشَكَتُ ثَتانٍ مِنْهُنَّ إلى رسولِ الله ﷺ، فنزلتْ فيهِ الآيةُ الكريمةُ^(٣).

وظاهرُ الآيةِ يُوهِمُ بعضَ المتلقِّينَ أَنَّ المنهْيَ عنه إكراهُ الإمامِ على البِغاءِ أي الزَّنا (في حالِ أَرَدْنَ العَفافَ)، وإباحتهُ لَمَن إنَّ كانَ عن رغبةٍ مِنْهُنَّ وطواعيَّةٍ، وذهبَ إلى ذلكَ بعضُهم، فقال: «إنَّما جاءَ النَّهْيُ عن الإكراهِ لا عن البِغاءِ»^(٤). وألحَ الفخرُ الرَّازِي (ت ٦٠٦هـ) إلى شيءٍ من ذلكَ بقوله: «لا نزاعَ أَنَّ ظاهرَ الآيةِ يقتضي جوازَ الإكراهِ على الزَّنا عندَ عدمِ إرادةِ التَّحَصُّنِ، ولكنَّه فسَدَ ذلكَ لامتناعِهِ في نفسِهِ؛ لأنَّه متى لم تُوجَدْ إرادةُ التَّحَصُّنِ في حقِّها لم تُكُنْ كارِهَةً لِلزَّنا»^(٥). وقالَ مُعاصِر: «مفهومُ الآيةِ أَنَّهُ يجوزُ البِغاءُ مِنْهُنَّ إذا لم يُكرِهُهُنَّ أحدٌ، أي إذا لم يُرَدَّنِ التَّحَصُّنَ، وهذا المفهومُ باطلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]»^(٦). وعلَّقَ أبو السُّعود (ت ٩٨٢هـ) بقوله: «وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس لتخصيصِ النَّهْيِ بصورةِ إرادتِهِنَّ التَّعَفُّفَ عن الزَّنا وإخراجَ ما عداها من حُكْمِهِ»^(٧)، وثَمَّ أمرٌ آخرٌ لا بدُّ من التَّنبيهِ عليه، وهو أَنَّ الشَّرْطَ إنَّ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا

(١) انظر: مجاز القرآن ٢/ ٦٦.

(٢) انظر: معاني القرآن للقرآء ٢/ ٢٥١.

(٣) انظر: الكشاف ٤/ ٣٠٣، ومفاتيح الغيب ٢٣/ ٣٧٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٢٢٧. وقد أوردَه ابنُ عاشورَ منقولاً عن تفسير الأصفهاني (شمس الدِّين مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَنِ الشَّافِعِي (ت ٧٤٩هـ)، وهو قد نقلَه عن غيره، بصيغة: (وَقِيلَ).

(٥) انظر: مفاتيح الغيب ٢٣/ ٣٧٧.

(٦) انظر: المنار في علوم القرآن مع مدخل في أصول التفسير ومصادره ص ١٨٣.

(٧) انظر: تفسير أبي السُّعود ٦/ ١٧٣.

غير مقصود به الشرط ههنا، وقد أشار إلى ذلك الإمام زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦ هـ) بقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا﴾، إن قلت: كيف قال ذلك، مع أن إكراههن على الزنا حرام، وإن لم يردن التحصن؟ قلت: الشرط هنا لا مفهوم له، لخروجه مخرج الغالب من أن إكراههن إنما يكون مع إرادتهن التحصن، ولوروده على سبب، وهو أن الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنا، مع إرادتهن التحصن^(١)، فهذا الشرط ليس تقييداً للنهي، بل وصف للحال الذي كنَّ عليه من إرادة التعفف، فهذا الشرط ملغى معنًى، وليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهن التعفف، بل لزيادة تقبيح صورة هؤلاء السادة.

أي أن المراد عموم النهي؛ فالآية تنهى عن البغاء للإماء وللحرائر، سواء كنَّ راغبات أم مكرهات، فلا يجوز إكراه الجوّاري على الزنا، ولا يجوز إرسالهن إلى الزنا أصلاً، حتى لو لم يكن مكرهات، فالموافقة على زناهن محرمة، وإرسالهن للزنا محرم، وإكراههن على الزنا كذلك. ولكن الآية الكريمة خصّت (الإكراه) أي إكراه السيّد لأمتيه على البغاء (وهي تطلب العفاف والطهر)، فما الجمالية البلاغية من وراء ذلك؟ إنها لبيان قبح هذا الفعل، ولزيادة التوبيخ لفاعله، فالنهي توجه ههنا إلى إبراز أبشع ما في الصورة، فالمراد - كما سلف - النهي عن البغاء سواء أكان عن طريق إكراه الفتيات أم إقبالهن طواعية؛ ولكن الذكر الحكيم اختار هذا الموقف (إكراه الأمة مع إرادتها العفاف) لزيادة تقبيح المنهي عنه في نفس المتلقّي، وفي هذه الآية لفظة رائعة إلى المفارقة الاجتماعية؛ لتكون الصورة أكثر قبحاً وأفعّل في النفوس، وهي أن الأمة التي دون الأحرار، والمحتقرة الشأن في مجتمع العبودية = يسمو بها طبعها، وفطرتها تطلب العفاف، بينما السيّد الحر ينزل بها قسراً إلى مستنقع الخسّة والرذيلة وقلة الشرف والمروءة، وهذا أدعى إلى استثارة نخوة هؤلاء القوم الذين نزل عليهم القرآن الكريم، وإلى ذلك أشار ابن المنير (ت ٦٨٣ هـ) إذ قال: «فائدة ذلك [يقصد إقحام قوله: ﴿إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا﴾ وتعليق النهي عن الإكراه على إرادة التحصن] - والله أعلم - أن يُشّع عند المخاطب

(١) انظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن ص ٣٩٦.

الوقوع فيه؛ لكي يتيقظ أنه كان ينبغي له أن يأنف من هذه الرذيلة، وإن لم يكن زاجراً شرعياً، ووجه التبشيع أن مضمون الآية النداء عليه بأن أمته خير منه؛ لأنها أثرت التحصن على الفاحشة، وهو يأبى إلا إكراهها عليه، ولو أبرز مكنون هذا المعنى لم يقع الزاجر من النفس موقعة^(١)

ومن صور النهي التي قد تخفى ألا يأتي على صيغته المعروفة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩]، الذي أتى فيه أسلوب النهي بصيغة الإخبار والنفي المحصور ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ فالفُسرُون في كلمة ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ على قولين، أحدهما الملائكة^(٢)، والثاني الناس. واحتمال الكلمة للمعنيين ههنا بحسب إعادة الضمير (الهاء)، فإن جعلت الضمير (الهاء) في ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ عائداً على الكتاب المكنون أي اللوح؛ فالقصود الملائكة، وإن جعلته عائداً على القرآن؛ فالقصود الناس^(٣)؛ ، وعليه فهذا الكلام، وإن كان ظاهره الإخبار، مُراد به النهي، وهذا الموضع لإيهامه موطن خلاف كما صرح الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ)؛ بقوله: «لكنَّ الخلافَ في أنَّه هل هو بمعنى النهي؟»^(٤)، والذي عليه التحقيق أنَّه «نفيٌّ بمعنى النهي، وهو أبلغ»^(٥)؛ لأنَّه نهْيٌ قاطع، والجمالية في نيابة النفي عن النهي، أو في محيئ النهي بزيي النفي أنَّه أدعى إلى سرعة الامتثال للنهي الضمني؛ لأنَّ المتكلم يفترض أنَّ هذا النهي مُسلمةٌ أو بديهيةٌ لدى المخاطب، وأنَّه لن يفكر مجرَّد التفكير في خلافه، و(لا) النافية أفادت المبالغة في هذا النهي، فكأنَّ المخاطب مُهيَّ، فامتثل، فأخبرت الآية عن امتثاله بذلك، ولا يخفى ما لأسلوب القصْرِ ههنا من مبالغة في إظهار هذا النهي، فالمطهرون هم وحدهم من يمسون هذا الكتاب.

(١) انظر: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف ٦٦/٣. بحاشية الكشاف (طبعة بيروت).

(٢) انظر: معاني القرآن للقرآء ١٢٩/٣-١٣٠، والتحرير والتنوير ٣٣٤/٢٧.

(٣) انظر: الكشاف ٣٨/٦، وتفسير أبي السعود ٢٠٠/٨.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب ٤٣١/٢٩.

(٥) انظر: نظم الدرر ٢٣٨/١٩.

والنهي يكون مجازياً كما سلف إذا جاءت صيغته الوحيدة (المضارع المقترن بلا الناهية) غير مُراد بها نهي المُخاطَب وكفه عن فعلٍ ما على جهة الاستعلاء والإلزام، ولهذا النهي المجازي صورٌ كثيرة، بعضها قد يُفْضَى إلى إيهام السامع إن لم يكن على دراية بالقرائن المحيطة بهذا الخطاب اللغوي بين الناهي والمنهي، وهالك بعض هذه الصور.

النهي بمعنى التفتيح والتَّهْوِيل، كما في قراءة مَنْ قرأ بالجرم: ﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩] بالجرم^(١). فلو قيل: (لا تسأل عن فلان) فهذا في ظاهره نهي عن السؤال عن فلان، ولكن لو قُلت هذه العبارة في سياق مَنْ يسأل عن فلان الذي وَقَعَ في بليّة؛ لَكُنْتَ كَأَنَّكَ تقولُ لمُخاطَبك: إِنَّ فلاناً لَفَرَطٍ ما هو فيه من الهول، ولفظاعة ما أَلَمَّ به من الكرب = لا أستطيع أن أصِفَ لك حاله، أو لا أستطيع أن أُجَرِّي هذه الأوصاف على لساني؛ لأنِّي لا أَطيقُ ذلك، فأنا مُشْفِقٌ عليك، ولا أريدُ إساءتك بأن أسمعَكَ ما هو فيه. وقد تقول: (لا تسأل عن فلان) تقصدُ الذي فتحَ الله له أبوابَ الرِّزْقِ والخير، وكأنَّكَ تقول: إِنَّهُ لَوْفَرَةٍ ما هو فيه من مظاهر الرِّفاهة والنِّعمة والهيبة والجلال لا أستطيع أن أصِفَ لك حاله؛ ولا تُساعدني العبارة على ذلك؛ لأنَّه أَجَلٌ وأكْبَرُ من أن تنالَه الألفاظُ^(٢).

إن كُنَّا في الكلام على الأمر المجازي الذي قد يُفْضَى إلى إيهام المُخاطَب لم نتعرَّض إلى الدِّعاء والالتماس والرَّجاء، فلا بأس في ذِكْرِ جانبٍ منه ههنا، فلو مررتَ برجلين يقول أحدهما للآخر: (لا تتأخَّر عن الموعد، ولا تنسَ أن تحضرَ كتبي معك) لوقع في ظنِّكَ أن المتكلِّمَ منهما أعلى درجةً من المُخاطَب، وهذا هو الأصل في أسلوب النهي، فإذا كانا متساويين مُتكافئين كنتَ قد وقعتَ في الوهم؛ لأنَّكَ لم تُحِطْ بقرائن حاليهما، ولم تدري أنَّه خاطَبَ صديقه على جهة الالتماس لا الاستعلاء كما بدا لك في الظَّاهر، بل ربَّما يكون المُخاطَب أعلى مرتبةً من الناهي الذي أخرجَ كلامه مُخرَجَ الرَّجاء، وما نريدُ قوله: إنَّ السامع الذي لا يدري أحوال الناهي والمنهي، ولا يدري طبيعة العلاقة بينهما، قد

(١) انظر: معاني القرآن للقرَّاء ١/ ٧٥.

(٢) انظر: الكشف ١/ ٣١٦، ودلالات التراكيب ص ٢٦١.

يحمل النهي على ظاهره ومعناه الحقيقي (الاستعلاء والإلزام) ويظن أن الناهي أعلى شأنًا من المخاطب، وهذا وهم ناشئ من بناء هذا السامع على الظاهر، وعدم إحاطته بقرائن الأحوال.

أثر المقام والسياق وقرائن الأحوال في توجيه معنى النهي:

وإنَّ أيَّ أسلوبٍ نهْيٍ مُغَيَّبٍ عن مُتَلَقِّيهِ مَقَامُهُ وسِيَاقُهُ وقرائنُ أحواله هو مَظَنَّةُ اللَّبْسِ وحمله على غير المراد، فمثلاً عبارة (لا تعتذر) هكذا معزولة عن سياقها، مُغَيَّبَةٌ قرائنُ أحوالها، تُؤْخَذُ على أصلِ النهي الذي هو طلبُ الكفِّ عن الفعل، ولكن قُرئت في قوله تعالى مُحَاطِبًا المنافقين: ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذَرُوا فَمَنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿[التوبة: ٦٤-٦٦] لَعَلِمَ أَنَّ النَّهْيَ ههنا خارجٌ إلى معنى التَّيْسِ وإحباطِ الهَمِّ والإغَاظَةِ وتشديدِ الوعيدِ لهؤلاءِ المنافقينِ المستهزئين، أو لمعنى التَّسْوِيةِ بين اعتذارهم وعدمه. وهل ينهاهم المولى عن شيءٍ هو واجبٌ عليهم؛ إلا وقد عَلِمَ نفاقهم وفسادَ نياتهم وأنَّ اعتذارهم وعدمه سواءٌ؛ لأنَّهم فاسدو النِّيَّةِ كاذبون في أقوالهم وأفعالهم، وفي ذلك قال الرَّخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨هـ): ﴿لَا تَعْذَرُوا﴾: لا تَسْتَغْلُوا باعتذاراتكم الكاذبة؛ فَإِنَّهَا لا تَنْفَعُكُمْ بَعْدَ ظُهُورِ سِرِّكُمْ^(١)، وكذا الفخر الرَّازِي (ت ٦٠٦هـ) ذهبَ إلى أنَّ استهزاءهم بآياتِ الله ورُسُلِهِ جَعَلَهُمْ أَحِقَّاءَ بقوله تعالى: ﴿لَا تَعْذَرُوا﴾؛ أي: لا تُبَالِغُوا في إثباتِ العُذْرِ لتنفوا عن أنفسكم الملام؛ فَإِنْ ذَلِكَ لَنْ يَغْنِيَكُمْ وَإِنْ اجْتَهَدْتُمْ؛ لِأَنَّ الْقَطْعَ حَاصِلٌ بِأَنْكُمْ ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾^(٢)، فما هذا العُذْرُ العَجِيبُ الذي أَتَوْا بِهِ ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وهل أَصَحَّتْ آيَاتُ الله موطنَ الخوضِ واللَّعِبِ والمزاح والتَّروِيجِ عن النَّفْسِ؟ وأنت ترى أنَّهم لَمَّا «كَشَفَ اللهُ أَمْرَ استهزائهم، أَرَدَفَهُ بِإِظْهَارِ قِلَّةِ جَدْوَى اعتذارهم؛ إِذْ قَدْ تَلَبَّسُوا بِهَا هُوَ أَشْنَعُ وَأَكْبَرُ مِمَّا اعتذروا عنه، وهو التَّيْبَاسُهم بِالْكَفْرِ بَعْدَ

(١) انظر: الكشف ٣/ ٦٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب ٨/ ٥١٧.

إظهار الإيمان. فإن الله لما أظهر نفاقهم، كان ما يصدر عنهم من الاستهزاء أهون....، فالمعنى لا حاجة بكم للاعتذار عن التناجي؛ فإنكم قد عرفت بما هو أعظم وأشنع، النهي مستعمل في التسوية وعدم الجدوى^(١)، وهكذا قد تبين ما لوضوح المقام والسياق وقرائن الأحوال من أثر في عصمة المتلقي من الضلال في فهم أسلوب النهي المجازي، بلة الأساليب الإنشائية عامة، أو أساليب البيان كلها. ولا يخفى ما في الكلام الذي أمر عليه الصلاة والسلام بقوله للمنافقين من تعاضد معنوي بين الاستفهام الإنكاري التوبيخي ﴿قُلْ أَيْلَهُ وَعَيْنُكُمْ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، وهذا النهي ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ في تقرير التوبيخ، وزيادة التقريع، ثم أتى قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ليعين أن نفاقهم هو سبب نهيهم عن الاعتذار، وعدم اعتبار هذا الاعتذار.

ومن بليغ صور النهي قوله تعالى على لسان النملة تحذّر قومها: ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٢) حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يكأيتها النمل ادخلوا مسكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ [النمل: ١٧-١٨] فهذا النهي الموجه للنمل ليس نهيًا على الحقيقة؛ وكيف تُنهى النمل أن يحطمها الجنود، وهل هذا الأمر بيدها لكي تكف عن فعله؛ إلا أن تكون هذه النملة أطلقت أحد المتلازمين وأرادت به الآخر، على سبيل المجاز؛ إذا نهت عن المسبب وهي تريد السبب، وكأنها تقول لهم: (لا تبقوا في مكان تبلغه أقدام الجنود) وهذا تمكين للأمر السابق ﴿ادخلوا﴾، وهذا أبلغ من حيث ذكر النهي ومسوغه في كلمة واحدة، وظهر للمخاطب عاقبة أمره إن هو لم يلتزم بتنفيذ مضمون هذا النهي، وذهب ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) إلى أن في النهي عن حطم سليمان إياهن كناية عن نهيهن عن التسبب فيه وإهمال الحذر منه؛ كما يقال: لا أعرفك تفعل كذا، أي: لا تفعله فأعرفك بفعله^(٣)، وأرى هذا قريباً من قول العرب: (لا أرينك ههنا) أي لا

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٥١/١٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٤٢/١٩.

تَكُونَنَّ ههنا فَإِنِّي أراك، «المرادُ بالنَّهي الكونُ لا الرُّؤية»^(١)، وكذا فَإِنَّ النَّهْيَ في الآية الكريمة متوجِّهٌ نحو البقاء في الأماكن التي ستدوسها أقدام الجنود وحوافر خيولهم، لا الحطِّم.

ومثله إذا طُلِبَ إلى أحدهم أن يُحدِّدَ المقصودَ في كلِّ من التراكيب الآتية: (لا تكتب وظائفك)، و(لا تعد إلى البيت قبل منتصف الليل)، (لا تمتثل لأوامر أمك، ولا تخفض صوتك أمامها) فسوف ينسبها إلى نهْيِ المخاطَب عن الفعل، وهو واهمٌ عندئذٍ؛ لأنَّه لم يدرِ السِّياقَ والحالَ الذي جرت فيه هذه التراكيبُ، ولكن لو قلنا له: إِنَّ هذه التراكيبَ مُوجَّهَةٌ من أبٍ لابنِه لَعَلِمَ يقيناً أن ليس فيها نهْيٌ، وإنَّما أريد بها إنذارُ المخاطَب وتهديده، ولا سيَّما أن المتكلِّمَ ينهى المخاطَب عن فعلٍ شيءٍ هو يريده ويحضُّ عليه عادةً، وهذا يُشيرُ إلى درجة السَّخَط التي بلغت بالمتكلِّم حتَّى جعلته ينهى عما يؤمِّن به، وهذا بلا شكَّ توبيخٌ وتقريعٌ للمخاطَب، مع وعيدٍ يكاد يكون صريحاً لَمَن درى قرائن الأحوال التي فيها تُلفَّظ بأسلوبِ النَّهي.

وقد يُفيد النَّهْيُ التَّعجُّبُ؛ كأن يُخبرَكَ زميلُكَ أنَّه تقرَّرَ منحُكَ جائزةً كبيرةً؛ فتتعجَّبُ: (لا، لا تقل ذلك)، فمن غير المعقول لَمَن يدري الحال أن يفهم التركيب على أنَّكَ تنهاه عن قولِ هذه العبارة، وكيف تنهاه عن قولٍ لعلَّه أجهلُ كلامٍ سمعته في حياتك، وإنَّما هذا تعجُّبٌ استعارَ صيغةَ النَّهي؛ لأنَّ المرءَ من شدَّة تعجُّبه من أمرٍ ما قد يلجأ إلى أسلوبِ الإنكارِ وعدم التَّصديقِ ابتداءً حتَّى يُخفِّفَ على نفسه هولَ النَّبأ الذي تلقَّاه، والوهمُ ههنا قصُرٌ على مَن سمع الكلام، وكان جاهلاً بالحال.

ومما يتزَيَّأ بصيغةِ النَّهي الكلامُ الموجهُ للمخاطَب على سبيلِ حثِّه على الاستمرارِ في عملٍ فاضلٍ؛ وهذا ما يُسمَّى بالإلهاب والتَّهيج، ومن ذلك النَّواهي التي خُوطِبَ بها الرَّسولُ الكريم، مع أنَّه كان مُنتهياً عنها بعيداً عنها قبل مخاطبته بأسلوبِ النَّهي؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

(١) انظر: الإنصاف في التنبية على المعاني والأسباب ص ١١٠.

وههنا قال صاحبُ الطراز (ت ٧٠٥هـ): «وحاشاهُ أن يكونَ جاهلاً، أو أن يفعلَ أفعالَ السُّفهاء والجهال،... وإِنَّمَا هو [يقصد النهي] على جهة التأكيد والحثُّ بالتَّهْيِيج والإلهاب»^(١). وأمَّا الزمخشريُّ (ت ٥٣٨هـ) فلم يَحْمِلِ النَّهْيَ على أَنَّهُ نَهْيٌ عن الجهلِ مُطْلَقاً، بل قَيَّدَهُ بالجهلِ في الأمر المذكور في السِّبَاق، ﴿وَإِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِثَآئِفَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]، إذ قال الزمخشريُّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ بأن يَأْتِيَهُمْ بآية مُلَجَّجَةٍ، ولكنه لا يفعل؛ لخروجه عن الحكمة، (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ): من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه^(٢)، وبالجُمْلَةِ إِنَّهُ إِنْ كَانَ هَذَا النَّهْيُ عن الجهلِ مُطْلَقاً أو عن الجهلِ بالأمر المذكور في الآية؛ فَإِنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَمَّا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْإِلْهَابِ والتأكيد على المخاطب أن يُدَاوِمَ على ما هو فيه، وأَلَّا يَنْفَكَّ عَنْهُ الْبَتَّةَ، وَإِنْ كُنْتُ أَرَى أَنَّ النَّهْيَ ههنا عن الجهلِ مُطْلَقاً أمدحُ للمعنى.

ومثُلُ ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، نَهْيٌ للمؤمن عن الظنِّ بغفلةِ الله سبحانه عن أفعالِ الظَّالِمِينَ، وفيه أيضاً كما قيل: وعيدٌ للظَّالِمِ وتعزيةٌ للمظلوم، ولكن حين كَانَ خِطَاباً لَهُ ﷺ كَانَ على جهة الحثِّ على المداوِمة والاستمرار، والبيان للنَّاسِ أَنَّ هَذَا هو مِنْهُجُ الْحَقِّ فَاتَّبِعُوا عَلَيْهِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وانتهوا عنه أَيُّهَا الظَّالِمُونَ، وقد تنبَّه الزمخشريُّ (ت ٥٣٨هـ)؛ إذ قال: «إِنْ قُلْتَ: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسولُ الله ﷺ - وهو أعلم الناس به - غافلاً حَتَّى قِيلَ: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا)؟ قُلْتَ: إِنْ كَانَ خِطَاباً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ ففيه وجهان:

- أحدهما: التثييتُ على ما كَانَ عَلَيْهِ من أَنَّهُ لَا يَحْسَبُ اللَّهُ غَافِلاً؛ كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، كما جاء في الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]

(١) انظر: الطراز ٩٣/٣.

(٢) انظر: الكشف ٣٤١/٢.

- والثاني: أن المراد بالنهي عن حُسابه غافلاً الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه مُعاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتَّهديد؛ كقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]؛ يريد الوعيد. ويجوز أن يُراد: ولا تحسبته يُعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم، المحاسب على النَّقير والْقَطْمِير^(١). وإن كان خطاباً لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه^(٢)، وإن كان هذا الخطاب لغير الرسول ﷺ فلا إيهام فيه؛ وهو أمرٌ حقيقي يكون للتثبيت إن كان المخاطب مؤمناً، وللنهي على جهة الإلزام الفوري إن كان المخاطب حاسباً سبحانه غافلاً عما يعمل الظالمون، ولا يخفى أن هذا النهي إن كان موجَّهاً إلى النبيِّ الكريم وحاشاه أن يحسب ذلك؛ فمن باب أولى أن يمثل الناس كلُّهم هذا التوجيه، ولا سيما المغترِّين الغافلين منهم.

ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، فظاهر التركيب قد يؤهم أن ترك الإسلام جائزٌ غير منهيٍّ عنه إلا في لحظات الموت، وقد تنبه لهذا الإيهام ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ) حين قال: «وهذا المركَّب مُستعملٌ في غير معناه... ولو كان المراد به معناه الأصلي، لكان ترخيصاً في مُفارقة الإسلام إلا عند حُضور الموت، وهو معنى فاسدٌ»^(٣)، وثمَّ قرائنٌ واضحة تدلُّ على فسادِ حملِ النهي ههنا على أصله.

فمعلوم أن الإيمان أعلى درجة من الإسلام، ومرحلةٌ لاحقةٌ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، فكيف يُنهي المؤمن

(١) القِطْمِير: القشرة الدقيقة على نواة التمر، ومثله النَّقير، وهذه الأشياء تُضربُ مثلاً على الشيء القليل الحقيق.

(٢) انظر: الكشف ٣/ ٣٨٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ٣٠-٣١.

أن يموتَ إلّا على الإسلام؟ إلّا على جهة التّثبيت والتّشجيع على المداومة والاستمرار، والنّهْيُ ههنا لم يتوجّه إلى الموت؛ لأنّ المرء لا يملك لنفسه حياةً أو موتاً، بل النّهْيُ موجّهٌ إلى أن يتنبّه الإنسان من أن يُباغته الموتُ وهو على غير الإسلام، فمعنى: ﴿لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ «النّهْيُ عن مُفارقة الإسلام، أعني مِلَّةَ إبراهيم في جميع أوقات حياتهم، وذلك كناية عن مُلازمته مُدّة الحياة؛ لأنّ الحي لا يدري متى يأتيه الموتُ، فنهي أحدٍ عن أن يموتَ غير مُسلمٍ أمرٌ بالانصافِ بالإسلام في جميع أوقات الحياة، فالمراد من مثل هذا النهي شدّة الحرص على ترك المنهي»^(١).

وقد كان الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) تنبّه إلى هذا المعنى إذ قال: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ معناه: فلا يكن موْتُكم إلّا على حالٍ كونكم ثابتين على الإسلام، فالنّهْيُ في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: (لا تُصلِّ، إلّا وأنت خاشع)، فلا تنهاه عن الصّلاة، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته. فإن قلت: فأيّ نكتة في إدخال حرف النّهْي على الصّلاة، وليس بمنهي عنها؟ قلت: النكتة فيه إظهار أن الصّلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاَةٍ، فكأنه قال: أنهاك عنها إذا لم تُصلّها على هذه الحالة^(٢)، وقد تكلم ابنُ السّيد البطليّوسي (ت ٥٢١هـ) على هذا النّهْي من طرفٍ طريفٍ هو المجاز؛ لأنّ المتكلّم قد يُوقع أدوات المعاني على السّبب ومرادُه المسبّب؛ لتعلّق أحدهما بالآخر، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] «أوقع النّهْي على الموت في اللفظ، والموت ليس بفعلٍ لهم فيصحّ نهْيهم عنه، وإنّا نهاهم عن مُفارقة الإسلام، فمعناه: لا تُفارقوا الإسلام حتّى تموتوا عليه؛ فأوقع النّهْي على الموت؛ لأنّه السّبب الذي من أجل توقُّعه وخوفه يلزم الإنسان أن يستعدّ لوُروده، ويتأهّب له بصالح عمله»^(٣) ونعوذُ إلى أن النّهْي الموجّه للمؤمنين في قوله: ﴿لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إنّما هو للحثّ على المداومة والاستمرار.

(١) انظر: التّحرير والتنوير ١/ ٧٢٩.

(٢) انظر: الكشاف ١/ ٣٢٩.

(٣) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب ص ١٠٨-١٠٩.

أثر الصيغة الصّرفية في إيهام أسلوب النّهي:

ومن أساليب النّهي التي قد تخفى وتلتبس، فتدلّ على معنيين مختلفين؛ لعارضٍ تصرّفيٍّ في أحوال الكلمة قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فليس جليّاً أنّ المضارّة تأتي من جهة الكاتب والشّاهد، أم تقع بهما، وذلك لأنّ الفعل مُدْعَمُ العين واللام، وهذا يُخفي حركاتها على المتلقّي، فهذا الفعل المجزوم ﴿لَا يُضَارَّ﴾ يحتمل بناءين: للفاعل والمفعول، فيحتمل أن يكون أصله قبل الإدغام (لا يُضَارَر) بفتح الرّاء، فيلزم من هذا أن يكون الكاتب والشّاهد مفعولاً بهما لم يُسمَّ فاعلهما، ويحتمل أن يكون أصله: (لا يُضَارِر) بكسر الرّاء، فيلزم على هذا أن يكون الكاتب والشّاهد فاعلين، ونمّ قراءة بإظهار التّضعيف مفتوحاً، وأخرى بإظهاره مكسوراً^(١). وبناءً على هذا العارض التّصرّفيّ في أسلوب النّهي اختلّف في تحديد المنهيّ عنه في الآية الكريمة، فقيل: إنّ مُضَارّة الكاتب أن يكتب ما لم يُملّ عليه، ومُضَارّة الشّاهد أن يشهد بخلاف الشّهادة، وقيل: إنّ مُضَارّتهما أن يُمنعا من أشغالهما ويكلّفا الكتابة والشّهادة في وقت يشقّ ذلك فيه عليهما^(٢).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ حَوْلَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] على تقدير الباء للسّببية أو للوساطة، فيكون المعنى نهياً للأب والأمّ كليهما أن يلحق أحدهما الأذى بالآخر بسبب الولد أو بوساطته، فالأُمّ منهية عن الإضرار بزوجه بوساطة ولدها، كأن تأبى إرضاعه إضراراً بأبيه، أو تطلب منه ما ليس بعدلٍ من الرّزق والكسوة، وأن تُشغل قلبه بالتّفریط في شأن الولد، وما أشبه ذلك..، والأب منهى عن الإضرار بزوجه بوساطة ولده؛ كأن يأخذ الولد منها وهي تريد إرضاعه، أو يمنعها شيئاً ممّا وجب عليه من رزقها وكسوتها،^(٣) وقد نبّه الزمخشريّ (ت ٥٣٨هـ) على لفظة بيانية ههنا من أروع ما يكون من مطابقة الخطاب لمقتضى حال

(١) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب ص ٥٤.

(٢) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب ص ٥٣-٥٤.

(٣) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب ص ٥٥ في حاشيته تعليق حسن، والكشاف ١/٤٥٦.

المخاطَب؛ إذ قال: «فإن قلت: كيف قيل: ﴿يُولَدُهَا﴾ و﴿يُولَدُهَا﴾؟ قلت: لما مُهِيتِ المرأة عن المضارَّة أضيفَ إليها الولدُ استعطافاً لها عليه وأنه ليس بأجنبيٍّ منها، فمن حقها أن تشفق عليه، وكذلك الوالد»^(١)، وهذا يُسمَّى في علم البديع بالانتساع، أو بالإيهام باعتبار أنَّها متضادان؛ لأنَّه يُتيح للمتلقِّي أن يُفيدَ من الطاقات الدلالية للكلمة أكملَ فائدةٍ ممكنة، وأن يستثمرَ ما يكمن فيها من دلالات تُثري النَّصَّ، وتجعلُ له آفاقاً رَحْبَةً بكليات قليلة، وقد علّق ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ) على هذا - أقصدُ بناءَ الكلامِ بحيثُ يحتملُ هذينِ المعنيين - بقوله: «ولعلَّ اختيارَ هذه المادّة هنا مقصودٌ، لاحتماها حُكْمَيْنِ؛ ليكونَ الكلامُ مُوجَّهاً فيُحمَلُ على كلا معنَييه لعدم تنافيهما، وهذا من وجوه الإعجاز»^(٢).

ولا شكَّ في أنَّ ما يستعيرُ صيغةَ النَّهي من الأساليب كثيرٌ، كالتعجب، والتسوية، والتَّهديد، وغيره، وهذه تُوهِمُ السامعَ غيرَ المراد، إن خفيت عليه مقاماتها وسياقاتها وقرائنُ أحوالها، كما أنَّه ينبغي التَّنَبُّه في القرآن الكريم خاصَّةً إلى النَّهي الذي ظاهره التَّقْييد بحالٍ، أو صفةٍ، أو شرطٍ، أو غير ذلك، وحقيقته الإطلاق؛ لأنَّ غفلةَ المتلقِّي عن مثل ذلك مَظَنَّةٌ اقتياده إلى الضلال في فهم المراد، والحقُّ أنَّ الجملةَ الإنشائيةَ عموماً غابةٌ متشابكة من الرموز، لا يُجَلِّيها إلا معرفة قرائن الأحوال والسياق الذي فيه تُلفَّظ بهذه الجملة، وما من ريبٍ في أنَّ في خفاء النَّهي تَلَطُّفاً مع المخاطَب أحياناً، وقسوةً بالغةً في النَّيل منه على جهة الكناية والتعريض أحياناً أخرى، وتتمازُ جماليةٌ كلُّ نهيٍّ على حِدَةٍ، تبعاً للمقام ومطابقتها لمقتضى الحال الذي هو لبُّ البلاغة.



(١) انظر: الكشاف ٤٥٧/١.

(٢) انظر: التَّحْريْر والتَّنْويِر ١١٧/٣.

المطلب الثالث - الأمر:

أسلوبُ الأمرِ كغيره من أساليب الإنشاء؛ له حَدٌّ، وصيغٌ أو تراكيبٌ نحويّةٌ مخصوصة، وهي فعلُ الأمر، واسمه، ومصدره النائب عنه، ولامه المقترنة بالمضارع، وهذه التراكيب المخصوصة الأصلُ فيها أن تطلّب من المخاطب القيامَ بالفعل على جهة الإلزام والاستعلاء؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وقوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا احْسَنُوا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧].

ولكن المتكلّم العربي لم يتقيّد بمعيارية هذه التراكيب النحوية، لأنّه إذا كان الأمر الحقيقي هو طلبُ فعلٍ - غير كَفٍّ - على جهة الاستعلاء^(١)، فإنّك واجدٌ له في كلام العرب ما لا يُحصى من الأمثلة والشواهد الخارجة على روح هذا التعريف، لأنّ الأمر فيها لم يقتضِ إلزام المأمور بتنفيذ مضمون الطلب، وهذا ما يُدعى بالأمر المجازي، وليس شرطاً فيه أن يكون الأمر من الأعلى إلى الأدنى حقيقةً، وهذا النوع قد يلتبس على السّامع بالأمر الحقيقي، فلا يُبصره أو يُميّزه إلا مَنْ اطلّع على حال المتكلّم ونيّته، وعلى قرائن الأحوال المحيطة بهذا الخطاب اللغوي.

وإذا كان الأوائل من النحويين قد حدّدوا أسلوبَ الأمر، وحدّدوا صيغَه، فإنّ البلاغيين الذين أتوا بعدُ اجتهدوا في رصْد أساليب الأمر واتّسعوا في دائرة معانيه، ولا سيّما المجازيّة منها، فكم من خطابٍ لغويٍّ جاء على إحدى الصّيغ النحويّة المعياريّة المعروفة لأسلوب الأمر، وليس فيه أيُّ قصْدٍ للأمر، بل هو خارجٌ إلى مقصِدٍ آخر، وهذا ما يُوقِعُ البعض في الوهم؛ كأن يكون التّركيب ظاهره الأمر وباطنه الاستهزاء والتّهمك، فإنّ غير العارف بنية المتكلّم وقرائن الأحوال المحيطة بهذا الخطاب قد يتوهم أنّه أمرٌ على الحقيقة، لذا لا ينبغي للمتلقّي أن يتعامل مع هذه الصيغ أو الصور اللغوية بمعزلٍ عن سياقها، وهذه الملاحظة واجبةٌ على المتلقّي في كلّ أساليب العرب، لا في الأمر وحده.

(١) انظر: المطول ص ٤٢٤.

وللأمر أغراض مجازية كثيرة قد تلبس على غير العارف بنية المتكلم، وبالأحوال المحيطة بالأمر والمأمور في أثناء التلفظ بهذا الخطاب اللغوي، ومن ذلك لو قرأت العبارة الآتية: (ارفع صوتك أكثر)، فإنها أمرٌ حقيقيٌّ إن كانت مثلاً خطاباً من أستاذٍ لطالبٍ يُجيبُ عن السؤال بصوتٍ منخفض، وإن كانت هذه العبارة خطاباً من أبٍ لابنه الذي يتكلم مع أمه بصوتٍ مرتفعٍ مع شيءٍ من التبرُّم فإنَّ هذا الأمر خارجٌ إلى معنى التوبيخ والتَّهديد، وإن كانت من أخٍ نائمٍ استيقظَ على الصَّوت المرتفع لأخيه الذي يتكلم على الهاتف فإنَّ هذا الأمر خارجٌ إلى معنى الإنكار، وقد تكون أيضاً بقصد الاستهزاء...، وهذا كله رهنٌ بمعرفة السياق والأحوال التي قيلت فيها العبارة، وكذا لا ينبغي إغفال النَّبر والتَّنعيم وما له من أثرٍ فاعلٍ في توجيه دلالة أسلوب الأمر، فلو أنَّ أمّاً تقولُ لابنها الذي يتشاغل عن دوسه وواجباته: (أهمل دروسك ما استطعت، وأرني نفسك عند صدور النتائج)، فهل يُعقلُ عند مَنْ اتَّضح له ما قدّمنا من قرائن الأحوال أن يكونَ هذا الأمرُ على جهة الحقيقة؟ بل هو صيغةٌ أمرٍ خرجت إلى معنى التَّهديد والتَّوبيخ، والأمرُ يخرجُ إلى التَّهديد حينَ تُستعملُ صيغته في سياقٍ عدم الرِّضا بالمأمور به، ومثل ذلك إنَّ قالت هذه الأمُّ لابنها الكسول: (نم كثيراً والعب كثيراً؛ فإنَّ الفوزَ كله في النوم واللَّعب) فهل قصدت غيرَ توبيخه على جهة التَّهكُّم؟ وأمّا قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] فهل هو إلَّا رسالةٌ لهؤلاء المشركين الذين جعلوا الله أنداداً، وهذه الرسالة الغرض منها أن يرتدع المرسلُ إليه. ومثلُ هذا الأسلوب أكثرُ ما نراه في مخاطبة المقصّرين والعاصين والمتكبرين؛ ليرتدعوا، ولأنَّ فيه طاقةً انفعاليّة توحى للمخاطب أنَّ المتكلم في سخطٍ شديد، ومنه قوله تعالى في مُحاطبة المُلجدين في آياته أي المنحرفين في تأويلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْجِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنُلْقِيَ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّن يَأْتِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، فهذا ليس إلَّا مبالغةً في التَّهديد والوعيد^(١)، وبحملِ المخاطب على الإقرار بأنَّه يتحمَّلُ المسؤوليّة بما سيحلُّ به من عواقب وخيمة إذا ما تابعَ هذا الفعل، ولم ينته عنه، وهو أبلغُ كثيراً من قولك: (لا تلحدوا، ولا تكفروا، إنَّ الله بما تعملون بصير..)، ولا يخفى أنَّ هذا التَّهديد بدأ

(١) انظر: الطراز ٣/ ١٥٦.

بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ وإن في إيراد المسند إليه ههنا إيماء إلى طريق بناء الخبر، وأنهم لا بُدَّ
مُواقعو العذاب، لأنَّ الجزاء من جنس العمل، وفي إضافة الآيات إليه ﷺ ﴿يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ تعزيزٌ
لذلك، وبيانٌ لسخط الله تعالى عليهم، وأنَّ ما ينتظرهم هو العذاب، ثم في قوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ تفرُّعٌ
أعنف، وأمَّا قوله: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَّاتِيهِ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فتلويحٌ صريحٌ بسوط العذاب
الموجع، وفي هذا الاستفهام إنكارٌ لأعمالهم واستجهاً لهم، واستخفافٌ بعقولهم التي قادت إلى طريق
الضلال، وهنا عندما قال سبحانه: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ في التفاتٍ مخصوصٍ إليهم اتَّضح التهديد والوعيد،
وفي هذا الالتفات إيقاظٌ لهم من غفلتهم، والتهديد في قوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ من أنَّه سبحانه يأمرهم بأن
يفعلوا ما يشاؤون من أنواع الشرور والمعاصي؛ ليوقع بهم ألوان العذاب وضروب الإيذاء، وقد رأيت
أنَّ التهديد إنَّما انحدر من السياق من مصدر بعيدٍ عن صيغة الأمر نفسها^(١)، ومثله قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا
بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْاْ أَنَّهُمْ يَلْعَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٦]، فسبحانه لا يأمرهم هنا بأن يكفروا، وهذا لا
يُعقل، بل هو للتهديد لما رأى منهم من الثبات على الكفر، وقد أشار إلى ذلك الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)
بقوله: «فإن قلت: كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر، وبأن يعمل العصاة ما شاؤوا، وهو ناهٍ عن ذلك
ومتوعدٌ عليه؟ قلت: هو مجازٌ عن الخذلان والتخلي، وأنَّ ذلك الأمر مُتسَخِّطٌ إلى غاية. ومثاله أن ترى
الرجل قد عزم على أمرٍ، وعندك أنَّ ذلك الأمر خطأ، وأنه يؤدي إلى ضررٍ عظيم، فتبالغ في نصحه
واستنزاله عن رأيه، فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم، حردت عليه [أي: غضبت]، وقلت: أنت وشأنك،
وافعل ما شئت، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر. وكيف والأمر بالشئ مريدٌ له، وأنت شديد الكراهة
مُتَحَسِّرٌ، ولكنك كأنك تقول له: فإذا قد أبيت قبول النصيحة، فأنت أهلٌ ليقال لك: افعل ما شئت،
وتُبَعِّث عليه، ليتبين لك - إذا فعلت - صحَّة رأي الناصح وفساد رأيك»^(٢)، ولولا أنَّ الزمخشريَّ
أحسَّ أنَّ هذا التركيب قد يؤهم بعض الناس لما أتى على هذه الفنقلة كلها.

(١) انظر: دلالات التراكيب ص ٢٤٩.

(٢) انظر: الكشف ٥٦١/٤.

ومثل ذلك لو قرأت رسالة مكتوباً فيها: (تقدّم فقط خطوة واحدة في ديار العرب)، فإنّ هذا الخطاب اللغوي ^{فهو} حقيقي يطلب من المخاطب التقدّم لمسافة محدّدة في ديار العرب، ولكن لو عرفت مثلاً أنّ هذا الخطاب هو رسالة من قائد عربيّ لقائد أعجمي؛ لأدركت أنّه أمر مجازي غرضه التهديد والتخويف، وكأنّه يقول له: (حذار أن تتقدّم خطوة في أرض العرب؛ لئلا تلاقى مصيراً أسود..)، وهذا الأسلوب هو أبلغ أنواع التهديد فيما أظنّ، لأنّ فيه تحدياً للمخاطب، وكأنّك تقول له: تقدّم إن استطعت، وفيه وعيدٌ، وكأنّك تقول له: تقدّم وسوف ~~تخلى~~ ترى الردّ، وفيه هويلا ^{سويلا} للعاقبة لأنّك لم تُصرّح له بما ينتظره إذا هو فعل هذا الأمر، وفيه استعلاء كبير على المخاطب؛ لأنّك عندما أردت أن تطلب منه ألا يفعل هذا الفعل لم تستعمل أسلوب النهي وتقلّ له: (لا تفعل كذا)، بل على العكس، قلت له: (افعل هذا الأمر) وفي هذا إيذان بأنّ المتكلّم قويّ وقادر على الردّ بحزم إن حصل هذا الأمر، وأنّه واثق من أنّ المخاطب لن يتجرأ على فعل هذا الأمر الذي أمره به على سبيل التّهكّم والتهديد.

ولو قال رجل لآخر: (ألف مثل هذا الكتاب) فهذا أمر حقيقيّ، ولكن ماذا لو علمت أن هذا الخطاب من عالم تحرير إلى متعلّم انتقد كتابه وزعم أنّ بوسع الإتيان بأحسن منه؟ أليس هذا الأمر خارجاً إلى معنى التحدي والتعجيز؟ لأنّ المتكلّم يعلم يقيناً أنّ هذا المخاطب عاجز عجزاً مطلقاً عن تأليف كتابٍ مثابه، وفيه أيضاً معنى التّهكّم والاستهزاء بعجزه، وفيه تمكين لهذا الاستهزاء من حيث إنّ هذا المخاطب عندما ^{يسمع} ~~يسمع~~ الأمر ^{بمعلم} ~~بمعلم~~ في قلبه أنّه عاجز عن تنفيذه، وسيقرّ هو بعجزه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فإنّ فيه معنى التحدي الذي إنّ فكر فيه المخاطب قليلاً أقرّ هو بعجزه، وهذا أبلغ من قولك: (أنتم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن)، ومثله قوله سبحانه: ﴿يَمَعَشَرِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، ومثل ذلك قول الفرزدق مخاطباً جريراً الذي حاول أن ينال من الفرزدق وأشراف بيته: [الكامل]

فَادْفَعْ بِكَفِّكَ إِنْ أَرَدْتَ بِنَاءَنَا تُهْلَانِ ذَا الْهَضْبَاتِ هَلْ يَتَحَلَّلُ؟^(١)

فالفردق يأمر جريراً بدفع جبلِ تهْلان بكفِّه، وإن نجح في ذلك، فربما يتمكن من النيل من الفردق، ومن له ذرَّة من عقلٍ يُدرِكُ أنَّه يطلبُ منه المُحال، وهل ذاك إلا لتعجيزه التَّهْكُمَ به، ومما زاد هذا التَّهْكُمَ جمالاً الاستفهامُ المجازيُّ (هل يتحلَّل) الخارجُ إلى معنى النَّفي القاطع. (و)

وكذا لو سمعتَ من يقول: (اقرأ أو لا تقرأ) فإنَّ هذا الخطابَ محتملٌ معنيين، الأول: الإباحة وهو أنَّ يُسمَحَ لك أن تقرأ أو تكتريح من القراءة، والثاني: التسوية وهو أنَّه سواءُ قراءتُك وعدمُها فهي بلا جدوى، والفيصلُ المرجحُ بين هذين المعنيين المتباعدين هو معرفة قرائن الأحوال لدى كلٍّ من طرفي الرسالة اللغوية المرسل والمرسل إليه.

أمَّا الأمر المقصودُ به التسوية بين الأمرين لا على جهة التَّخيير بينهما فكقوله تعالى في خطابِ أهل النار وهم فيها: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ [الطور: ١٦]^(٢). ومثل ذلك إن قلتَ لعدوك: (اقتلني شرّدي احرقني فلن أتخلّى عن أرضي) فكأنَّك تقول له: مهما يكن فلن أتخلّى عن أرضي، وإنَّ قيامك بهذا الإرهابِ أو عدمه سواءٌ عندي، أي: قم بهذا الأمر أو امتنع عنه فهذا لا يعنيني، وأمَّا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣]؛ فقد يُتوهم أنَّه أمرٌ بالإنفاق، أو يُتوهم أنَّ الإنفاق طَوْعاً مقبول منهم، دون الإنفاق كرهاً، ولكنَّ المراد التسوية بين إنفاقهم كرهاً أو طَوْعاً لأنَّه غيرُ مُتَقَبَّلٍ في كلا الحالين، وقد تنبَّه الزمخشريُّ (ت ٥٣٨هـ) إلى هذا الوهم الذي قد يقع للبعض، فقال: «فإن قلت: كيف أمرهم بالإنفاق، ثم قال لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ؟ قلتُ: هو أمرٌ في معنى الخبر...، ومعناه: لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ أَنْفَقْتُمْ طَوْعاً أَوْ كَرْهًا...»^(٣)، وإذا كان هذا الإنفاق طاعةً وامتثالاً لأمره تعالى غيرِ مُتَقَبَّلٍ أيضاً؛ فهذا يدلُّ على عِظَم سُخْطِهِ سبحانه وتعالى عليهم، ويدل على سوء عاقبتهم.

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص ٤٧١.

(٢) انظر: الطراز ٣/ ١٥٦.

(٣) انظر: الكشف ٣/ ٥٣-٥٣.

وأما التَّخْيِيرُ فكأن تقول لأحدهم: (تزوِّج هنداً أو أختها) فأنت لا تأمره بالزَّواج من إحداهما على جهة الوجوب، بل تُخَيِّرُهُ بينهما، وقد يكون هذا الأمر للتَّسْوِية إن كلًّا ^{كنت} قصدت أن زواجه بهنَّ أو أختها عندك سواء، وهذان المعنيان التَّسْوِية والتَّخْيِيرُ ^{لح} حتَّى الإباحة كما سيأتي الالتباس بينهما وارِدُ؛ لأنَّها معانٍ متقاربة، وقرائنُ الأحوال هي المُرجَّحُ بينهما، وفي هذه الأساليب نلُمُسُ «جمالية الوظيفة النفسية والاجتماعية في احترام إرادة المخاطب وعقله، فهو حرٌّ في تنفيذ الأمر»^(١)، وأما قوله تعالى:

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فإنَّ هذا الأمر وإن كان فيه معنى التَّخْيِيرِ للإنسان؛ إلا أنَّ فيه معنى التَّهْدِيدِ بعاقبة الكُفْرِ أيضاً، بدلالة أنَّ تمام الآية: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ...﴾، وهذا الأمر جاء للتَّخْيِيرِ والتَّهْدِيدِ؛ لبيان أنَّ عاقبة الكُفْرِ من النار والعذاب حقٌّ على الكافرين لأنَّهم كانوا في خيرة من أمرهم بين الكفر والإيمان (مع أنَّهم مأمورون بالإيمان) إلا أنَّهم اختاروا طريق الكفر والضلال، فاستحقَّوا باختيارهم هذا ما نزل بهم من العذاب.

وأما قول أبي الطَّيِّب: [الخفيف]

عش عزيزاً، أو مُتْ وأنت كريمٌ بين طعنِ القنا، وخفقِ البُؤودِ^(٢)

فالأمر فيه ليس للإباحة، ولا للتَّخْيِيرِ، إذ ليس غرضه أن يُبيحَ للمخاطب الأمرين، ولا أن يُخَيِّرَهُ بينهما وإن كان معنى التَّخْيِيرِ لا يبعدُ بالبيت عن مُراد الشاعر، لكنَّ المعنى الأمدح المقصود بهذا الأمر إنَّما هو التَّسْوِية، ومقصوده أن يوضح المساواة بين الأمرين، وأنَّ ميتة العزِّ والفَخار على صهوة الخيل تعدلُ الحياة العزيزة الكريمة، ولا تقلُّ عنها غنيمَةً، الأمر ههنا للحثِّ والتشجيع أيضاً؛ إذ ليس مُرادُه أمرَ المخاطب بالموت، وإنَّما يريدُ حثَّهُ على الاتِّصاف بالشَّجاعة والعِزة حتَّى لا يموت إلا وهو مُتَّصِفٌ بها، وكأنَّه يقول له: إنَّ موتَكَ وأنت مُتَّصِفٌ بهذه الصِّفة موتٌ يجبُ أن تطلبه وتحرص عليه؛

(١) انظر: جمالية الخبر والإنشاء ص ١١٠.

(٢) انظر: خزانة الأدب ١٥٢/٢.

لأنه موت الكرامة، ومثل ذلك ولكن في أسلوب النهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ولا يخفى ما في هذا النهي من الإلهاب والتهييج للمخاطب، فإن قلت: إن الخطاب ههنا للمؤمنين، والمؤمن أعلى درجة من المسلم، فكيف يؤمر المؤمن بالإسلام، والإسلام مرحلة سابقة على الإيمان؟ قيل: المراد ههنا تشجيع المخاطب وحثه على التمسك بالإسلام حتى آخر لحظة من حياته.

ومن أسلوب الأمر الموهم أن تأمر بصورة من صور الفعل، والمراد الأمر بصور الفعل كلها، وذلك لنكتة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨] فظاهر الآية الكريمة الأمر - على سبيل النذب - بإعطاء أولي القربى شيئاً من الميراث ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ إن كانوا حاضرين لاقتسامه ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ﴾، والمراد الأمر بإعطائهم حاضرين وغائبين، ولكنه حاشا خص صورة الحضور؛ ليكون ذلك أبعث للنفوس على العطاء؛ حيث يتصور الوارثون أن ذوي قرابتهم معهم شهوداً، ولو لم يذكر حالة حضورهم القسمة لم تكن الأنفس بالمنبئة إلى هذا المعروف كانبعاثها مع حضورهم، بخلاف ما إذا حضروا، فإن النفس يرق طبعها الشحيح المحب للمال، وتنفر أن تستأثر بالمال الجزل، وذو القربى حاضر محروم^(١)

ومن أسلوب الأمر الذي قد يقع فيه الوهم للمتلقي أنك تجد في القرآن الكريم أوامر للرسول ﷺ؛ كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الرؤ: ٢]، وقوله: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، فإن السامع لهذه الآيات، ولا معرفة له بالقرآن الكريم، وأحوال الرسول ﷺ،

(١) انظر: الكشف ١/ ٤٩٥-٤٩٦. حاشيته، طبعة بيروت.

قد يظنُّ أنَّ الرسول لم يكن يفعلُ هذه الأمور ابتداءً، فلم يكن يخلصُ الدينَ لله، ولم يكن يُقيم وجهه للدين الحنيف، ولم يكن يستقيم كما أمره الله، ولكنَّ هذا الأمر فيه إيهام؛ من حيثُ إنَّه لا يُرادُ به أنَّ هذا الأمر غيرُ حاصلٍ، ويطلبُ تنفيذه بعد التلفُّظ به، بل المرادُ الحثُّ والتشجيع على المداومة والاستمرارية، وأنَّ يزدادَ الرسول ﷺ تمسُّكاً بما هو عليه من الحقِّ واليقين، وقد أضاف د. أبو موسى جماليَّة رائعة على ذلك إذ قال: «ولكنَّا نلمحُ في هذه الأساليب معنًى آخر يُضافُ إلى هذه، وهو الإشارةُ إلى بسطة سلطان الرُّبويَّة، وعَليَّتها، وتفرُّدها بالأمر والنَّهي، وأنَّ البشريَّة في أسمى صورها - وهي النُّبوة - تُؤمَّر وتُنهى، وهذا تعميقٌ للفرق بين الألوهيَّة والنُّبوة، وبذلك يضمنُ القرآنُ نقاء عقيدة الوحديَّة لهذه الأُمَّة...»^(١).

وقد أشارَ صاحبُ الطَّراز (ت ٧٠٥هـ) إلى ذلك، فأسماه (الإلهاب والتَّهيج)، وعلَّق على هذه الآيات بقوله: «والمعلومُ من حاله ﷺ أنَّه حاصلٌ على هذه الأمور كلّها من عبادة الله تعالى، وإقامة وجهه للدين، والاستقامة.. لا يفتر عن ذلك، ولا يتصوَّرُ منه خلافتها؛ لأنَّ خلافتها معصومٌ منه الأنبياء، فلا يُمكنُ تصوُّره من جهتهم بحالٍ، ولكنَّ ورودها على هذه الأوامر إنَّما كانَ على جهة الحثِّ له بهذه الأوامر وأمثالها..»^(٢).

وإنَّ صاحبَ الطَّراز إذ استهلَّ كلامه بالقول: والمعلومُ من (حاله) ﷺ، إنَّه يُشير إلى أهميَّة الإحاطة بقرائن الأحوال وأثرها في رفع هذا الإيهام أو هذا اللبس الذي قد يقع لغير العارف بأحوال المخاطب، وشبيهٌ بهذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَلَكِنَّا الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] لأنَّه تعالى ناداهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ومعنى هذا أنَّهم مؤمنون، ثمَّ أمرهم بالإيمان بالله والكتاب.. فهل يفهمُ من هذا غير أنَّهم مدعوون إلى الثبات على الإيمان والاستمرارية عليه؟ وقد تنبَّه إلى ذلك الزَّحَّشريّ (ت ٥٣٨هـ) إذ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

(١) انظر: دلائل التراكيب ص ٢٥١.

(٢) انظر: الطَّراز ٩٣/٣.

خطابٌ للمسلمين، ومعنى ﴿ءَامِنُوا﴾: اثبتوا على الإيمان، وداوموا عليه وازدادوه..^(١)، ويرى بعضهم أن «جمالية الفعل الممتد في الزمن تكتسب حيويّتها من قيم الخير، باعتبارها أجزاء من علم الجمال»^(٢)، ولا يخفى أثر هذا الأمر في تشجيع المأمور، وفي تنبيهه إلى أن المتكلم عالم بما تقوم من عملٍ حسن؛ فإن مررت بولدك ورأيتَه مستغرقاً في الدراسة، فربت على كتفه، وقلت له: (ادرس، وفّقك الله) فكلُّ مَنْ رأى حال ابنك واستغراقه في الدراسة يعلم أنك إنما أردت أن تُشجّعَه على الاستمرار والازدياد، وأنت تريد أن تقول له: أنا عارفٌ بما تبذله من جهدٍ في سبيل الدراسة، وهذا غيرُ خافٍ عليّ، وكذا أوامره سبحانه لنبيه ﷺ، والله المثل الأعلى.

ومثله أيضاً قولنا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقد أشار إلى ذلك الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) بقوله: «معنى طلب الهداية - وهم مهتدون - طلبُ زيادة الهدى...؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾»^(٣)، والأمرُ يخرجُ إلى معنى طلب المداومة حين تُستعمل صيغته في مطلوبٍ حاصلٍ عند الطلب، كما رأيت.

وإن سمعت أحدهم يقول لآخر: (ادخل) فهذا أمر، ولكن قلت هذه الصيغة لمن طرق الباب، فأنت تريد إخباره بأنك أذنت له بالدخول، فالأمر يكون للإذن حين تُستعمل صيغته في سياق بيان جواز الأمر والإذن به.

وإن خطابك لقوم بقولك: (اسمعوا ما يقول) هو أمرٌ حقيقيّ لهم بالاستماع إلى قوله، ولكن لو كان هذا الخطاب في مجلسٍ كان الجميع فيه يستمعُ إلى شخص، فإذا به يقول كلاماً غريباً عجيباً، فتقول لهم: (اسمعوا ما يقول) وهم جميعاً سمعوا، فأنت - بلا ريب - تعجب، تدعوهم إلى التعجب من قوله، لا إلى الاستماع إليه كما يوحي ظاهر العبارة.

(١) انظر: الكشف ١٦٣/٢.

(٢) انظر: جمالية الخبر والإنشاء ص ١١١.

(٣) انظر: الكشف ١٢١/١.

ومن الأساليب ما يكون ظاهره الأمر للمخاطب، وباطنه أو مقصوده الهزء به والسخرية منه والتَّهْكُم عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨] وفي هذا نفي لما ذهبوا إليه من قدرتهم على دفع الموت عن أنفسهم بالعودة عن القتال، لأنهم حُكي عنه قولهم في بداية الآية: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي قالوا عن إخوانهم المنافقين، وقد قعد هؤلاء القائلون عن القتال: لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من القعود ووافقونا فيه لما قُتلوا كما لم نُقتل، فجاء قوله سبحانه: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فليس المقصود أنهم مطالبون بدفع الموت عن أنفسهم، وهذا لا طاقة به لبشر، بل المقصود السخرية من كلامهم هذا، ودفعه بالحجة والمنطق، وقد أوضح ذلك الزمخشري بقوله: «معناه: قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً، وهو القعود عن القتال، فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً، يعني أن ذلك الدفع غير مُغنٍ عنكم؛ لأنكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت، لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبتوثة، ولا بدَّ لكم من أن يتعلَّق بكم بعضها»^(١)، وهذا الأمر الخارج إلى معنى التَّهْكُم والسخرية أكثر ما يُخاطب به المعاندون والمستكبرون، لأنَّ فيه تقليلاً من شأن زعيمهم، ولأنَّه كما في الآية يدفع زعيمهم بالمنطق.

ومن الأمر الخارج إلى معنى الاستخفاف والهزء، قوله تعالى حكايةً عن موسى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠]، فلم يكن موسى عليه السلام يأمرهم بإلقاء ما بأيديهم على جهة الإلزام الفوري، وليس له ذلك؛ لأنَّه وإياهم جاؤوا لهذا الغرض، ولا سلطة له عليهم، بل كان كلامه بمعنى: أروني ماذا جلبتم من السحر المكذوب الذي لا قيمة له؟ وكأنَّه يقول لكم: إنَّ كلَّ سحرٍ ستأتون به هو - سلفاً - حقيرٌ صغيرُ الشأنٍ أمام ما أيدي به ربِّي من الحقيقة، ولا يخفى ههنا ما لاستعمال الاسم الموصول من أثرٍ في هذه الزرابة عليهم؛ لأنَّ فيه تعميماً، وهذا يعني أن أيَّ شيء، وكلَّ شيء قد تأتون به مُستحقَّر ضعيفٌ في مواجهة ما سترون بعد قليل، وحقاً هذا الذي حصل إذ

(١) انظر: الكشف ٦٥٧/١.

آمن سحره فرعون لما رأوا عصا موسى حيّة تسعى. ومثل هذا أن تقول لمن يتوعدك: (افعل ما بدا لك، أو افعل ما يحلو لك)، ومن هذا القبيل قول الأخطل الصغير في تخليد بطولات أبناء فلسطين ضد المستعمر البريطاني وعلى لسانهم مخاطبون المستعمرين: [الزمل]

٩٦
١٢

انشروا الهول، وصبوا ناركم كيفما شئتم؛ فلن تلقوا جانا وأما قولك: (غض الطرف) فهو أمر للمخاطب بأن يغمض عينيه، ولكن لو قرأنا أسلوب الأمر هذا في قول جرير: [الوافر]

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَغَبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا^(١)

فلا يمكن أن نقول: إنه أمر حقيقي للراعي النميري بأن يغمض عينيه، بل إنه أشد ألوان الأمر تقيحاً وإساءةً وأعظمها زرايةً، وفيه كناية عن حقارة شأن المخاطب؛ فكأنه يقول له: من كان هذا نسبه، وهذه قبيلته فالأولى به ألا يرفع بصره بين الناس؛ وينبغي له أن يعلم من نفسه الوضاعة والخساسة، وأن يغمض من طرفه إذا مرّ بقوم مثلنا.

وقد يخرج الأمر إلى السخرية من غير المخاطب؛ ومن ذلك أن رجلاً يدعى مربعا كان يروي أشعار جرير، فنذر الفرزدق دمه وأوعده بالقتل، فقال جرير: [الكامل]

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مَرْبَعًا أَبْشَرَ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَا مَرْبَعُ^(٢)

فجرير يأمر راوية شعره مربعا بقوله: (أبشر)، ولا شك في أن المعنى الظاهري التماس من مربع بأن يبشر، وتسرية له، وتثبيت لفؤاده، وهذا عشر معشار ما نواه جرير، وأما مقصده من هذا الأمر هو أن ينال من الفرزدق، وكأنه يقول لمربع: هذا قول، يهذي ولا يفعل، ولا يجرو على شيء مما أوعدك به، وإن رجلاً أوعده الفرزدق هو في أمن وسلام واطمئنان؛ لأنه أعجز وأضعف من أن يقدر على إيذاء نملة، وكأنه يقول له: اضحك وأبشر بطولة السلامة يا مربع، فالفرزدق لضعفه لا يستحق أن تُشغل بالك به طرفه عين أو أقل من ذلك.

(١) انظر: مفتاح العلوم ص ٧٠٤.

(٢) انظر: الصناعتين ص ٣٨٥.

ومن الأمرِ للتَّهْكُمِ قول الحَطيئة مُخاطباً الزُّبرقان بن بدر: [البسيط]

دَعِ الْكَارِمَ، لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا واقْعُدْ؛ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي^(١)

فَفَهَمَ الزُّبْرَقَانُ أَنَّ الْحَاطِيئَةَ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَذَرَ الْمَآثِرَ، وَعَلِمَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَارِجٌ إِلَى الشُّخْرِيَةِ وَالذَّمِّ وَالْقَدَحِ بِمَرُوءَتِهِ، وَهَلْ لَمْ يَبْقَ مِنْ مَرُوءَةِ الزُّبْرَقَانِ إِلَّا أَنْ يَجْلِسَ فِي بَيْتِهِ كَالنِّسَاءِ يُطْعَمُ وَيُكْسَى؟! وَفِي هَذَا إِزْرَاءٌ لَا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، وَفِيهِ مِنَ الرَّمْيِ بِالْبَخْلِ وَالْجُبْنِ وَقَلَّةِ الْمَرُوءَةِ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ عَرَبِيٌّ، وَقِيلَ: إِنَّهُمَا اخْتَصَمَا إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، وَالْحَاطِيئَةُ يُزَعَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ إِلَّا الْمَدْحَ، وَالزُّبْرَقَانُ مُصِرٌّ عَلَى أَنَّ هَذَا هَجَاءٌ مُوجَعٌ لَا بُدَّ لِلْحَاطِيئَةِ أَنْ يَنَالَ عِقَابَهُ عَلَيْهِ، حَتَّى أَرْسَلَ عُمَرُ فِي طَلَبِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمَا^(٢).

وَمِنَ الْأَمْرِ الْمُزْرِي بِالْمَأْمُورِ مَا يُقْصَدُ بِهِ التَّكْذِيبُ مَعَ التَّحْدِي؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي خِطَابِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالْإِسْخَافِ فِي الْأَرْضِ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ وَعَلِمَ آدَمُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٣١ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة: ٣٠-٣٢﴾ فَقَوْلُهُ لِلْمَلَائِكَةِ (أَنْبِئُونِي)، وَسَبْحَانَهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ غَيْرُ قَادِرِينَ فِيهِ إِذْ بَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ خَابَتْ ظُنُونُهُمْ، وَأَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ. وَمِثْلُ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَشَدُّ لَهْجَةً خِطَابُهُ سَبْحَانَهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَرِّعُهُمْ وَيُؤَبِّخُهُمْ عَلَى كَذِبِهِمُ الَّذِي يُخَفُونَهُ، وَيَزَعُمُونَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى فِي الْآخِرَةِ مِنْ دُونِ الْآخَرِينَ، بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، فَفِي هَذَا تَحَدُّ لَهُمْ، لِيَجْعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَسْأَلُ نَفْسَهُ: هَلْ أَنَا أَتَمَنَّى الْمَوْتَ؟ وَهَلْ أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، لَا شَكَّ فِي أَنَّ الْجَوَابَ سَيَكُونُ بِالنَّفْيِ لِأَنَّهُ

(١) انظر: ديوان الحَطيئة ص ٥٠، وفيه قصَّةُ تحكيم حَسَّانَ رضي الله عنه بَيْنَهُمَا.

(٢) انظر: ديوان الحَطيئة ص ٥٠، وطبقات فحول الشعراء ١١٦/١.

يعلم ما قدّم من سوء في حياته، لذا سيقرّ هو بأنّه كاذب، فهذا الأسلوب قوّته في أنّه تحدّد وتعجيز ومن ثمّ حمل للمخاطب على أن يُقرّ هو بكذبه وبُطلان زعمه، ولا يخفى ما استعمال حرف الشرط ﴿إِنْ﴾ وهو الدّال على التشكيك، في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وكأنّه يقول لهم: لن تتمنوا الموت، وأنتم كاذبون، ويؤيّد هذا الآيات بعدها: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (١٥) وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿[البقرة: ٩٥-٩٦]. وكذلك قوله تعالى حكاية عن عاد قوم هود عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، فقولهم: ﴿فَأَيْنَا﴾ أمرٌ خارجٌ إلى معنى التّكذيب والاستهزاء، بل الإنكار والاستبعاد، وهم بقولهم هذا ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُنَا﴾ يطلبون منه أن يُعجّل لهم ما وعدهم به من العذاب^(١)، ليكون ذلك دليلاً على صدقه لديهم، ولو أنّهم صدّقوه مقدار ذرة لما استعجلوا العذاب، ولكنهم لما كانوا مُنكرين بالجملة لكلّ يُخبر عنه، طلبوا إليه تعجيل العذاب. ومثل ذلك قول الفرزدق [الطويل]

أولئك آبائي، فجئني بمثلهم
إذا جمعنا، يا جرير، المجمع^(٢)

فإنّ طلب الفرزدق من جرير أن يأتيه بآباء كآبائه شرفاً وسُوداً مقصوداً به تكذيب زعم جرير بأنّ لديه من آبائه من يُثاثل آباء الفرزدق كرمّاً وشجاعاً ونجدةً ومروءة، وهو أيضاً تحدّد له أن يفعل ذلك، ولعلّ هذا الخطاب - وإن كان موجّهاً لجرير - يكون لكلّ من تُسوّل له نفسه أن يزعم أن في عشيرته رجالاً كآباء الفرزدق، وفي هذا التّعيم يكون للبيت جماليّة مُبهرة، لأنّ جريراً يُصبح في هذا البيت نموذجاً وعبرة لمن اعتبر، ولا يخفى أثر اسم الإشارة (أولئك) الذي يُشير إلى بُعد منزلة آبائه ومكانتهم، فهم أسمى وأبعد من أن يتطاوّل مثل جرير، فيأتي بمثلهم.

(١) انظر: الكشف ٢/ ٤٥٩.

(٢) انظر: مفتاح العلوم ص ٢٧٧.

ومن الأمر الذي ظاهره اللغوي الإلزام وباطنه خلاف ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] فليس المقصود أنهم مأمورون بالأكل والشرب إلى أن يطلع الفجر، بل المقصود أنهم يُباح لهم الطعام والشراب حتى ذلك الحين، ولا يخفى أن هذا أمرٌ حقيقي، بل هو تشريع، ولكن ما يعيننا فيه أنه للإباحة، لا للإلزام بالتنفيذ الفوري لمضمون الأمر. ومثله قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، وقال الزمخشري فيه: «فَاصْطَادُوا إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم، كأنه قيل: وإذا حللتهم فلا جناح عليكم أن تصطادوا»^(١)، وأما إن قلت لصديقك الغضوب: (تكلم وأنت غاضب؛ فستقول أعظم حديث تدم عليه طول حياتك) فهذا الخطاب جاء على صيغة من صيغ الأمر المعروفة؛ إلا أنك أردت به النفي على جهة التخويف والتَّهْكُمُ معاً.

وقد تأني صيغة الأمر ومرادُ بها التَّعَجُّبُ^(٢)؛ كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨]، أي: ما أسمعهم وأبصرهم!

ومن الممكن ألا يأتي أسلوب الأمر في واحدة من صيغ الأربع المخصوصة، بل تراه يتزايًا بزي الصيغة الخبرية ظاهراً، أو بزي جملة إنشائية غير الأمر، ولكنه في مضمونه يدعو المخاطب إلى فعل أمرٍ ما، وهذا ليس له صيغة أو صيغ بالمقدور إحصاؤها، بل هو تفتنٌ بأساليب القول تكشفه السياقات وحدها، ومن ذلك أن تعدل عن صيغة الأمر احتراماً للمخاطب وتأدباً معه، فتقول في حاشية الكتاب: (يُنْظَرُ الصفحة الفلانية - بدلاً من انظر)، أو تُلْطَفُ كأن تقول لولدك: (بإمكانك أن تذهب إلى فراشك؛ لتستيقظ باكراً - بدلاً من اذهب إلى فراشك..)، أو أن يكون الطبيب ذاهباً إلى المشفى مُسرِعاً لإجراء عملية جراحية مستعجلة، فيستوقفه مريضٌ قديم لديه، يريد أن يُسَلِّمَ عليه، وأن يُخَبِّره أن صحته بخير، فيردُّ عليه الطبيب: (أهلاً ومرحباً بك، رافقتك السلامة)، فقوله:

(١) انظر: الكشاف ١٩٣/٢.

(٢) انظر: الإنصاف في التنبيه على المعاني ص ٩٤.

(رافقتك السلامة) ظاهره دعاء لهذا المريض، ولكن فيه إيذان له بأن وقتي ضيق وينبغي ألا أقف معك مُطوّلاً فاذهب، لذا دعا له بأن تُرافقه السلامة، وهذا أكثرُ لباقةً من قوله: اذهب عني، فأنا مشغول جداً.

فليس ذلك قَصْراً على خطاب الأدنى للأعلى كما رأيت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ﴾ أَلْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿[آل عمران: ٩٧]، ومنه أن يتّصل بك صديق يريدُ مقابلتك لتقضي له حاجةً، وأنت ليس لديك سعةٌ من الوقت، ولا ترغب في استقباله اليوم، فتقول له: (تأتيني غداً - بدلاً من اتتني غداً)، فقد طلبتَ منه بعبارةٍ دافئةٍ لطيفةٍ أن يأتيك غداً، دون أن تتلفظ بفعل الأمر المباشر الذي غالباً ما يكون ثقیلاً الظلّ في مثل هذه المواقف، دون أن تجعلَ بينك وبين المخاطب فجوةً، وقد يكون الاستفهامُ نفسه صيغةً لطيفةً لأسلوب الأمر؛ كأن يسأل صاحبُ الشركة عاملاً عنده في دوامه الرّسمي: هل لك في مرافقتي إلى السوق ثم نعود؟ فهذا السؤال لا ينتظرُ جواباً، بل هو تبليغٌ لهذا العامل بأن هيئ نفسك؛ لأنك سترافقني إلى السوق بعد قليل. وقد رأيت أن الأمر المجازي لا يضطلعُ بوظيفةٍ جماليةٍ فحسب، بل بوظيفة اجتماعيةٍ تواصليةٍ.

ومن ذلك أنه سبحانه يُرغِبُ عباده بالعفو فيقول: ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤]، فصحيحٌ أن هذا التّركيبَ جملةً شرطيةً، وليس من الصّيغ الأربع المخصوصة لأسلوب الأمر، لكن فيه دعوةٌ وندبٌ إلى الصّفح والعفو.

ومما ينبغي الإشارةُ إليه أن أسلوبَ الأمر المجازي لسعته وغناه لا تُحيطُ به قاعدةٌ، ولا يمكنُ أن يحدها دارس؛ لتعدد الرّوى والمواقف، وللأثرِ الجليّ الذي تؤدّيه المعرفة بقرائن الأحوال والسّياق في توجيه معنى الأمر، فلا بُدَّ للمتلقّي من تأمّل السّياق؛ لأنه هو الذي تستمدُّ منه الصيغةُ دلالتها، وقد نرى - كما سلف - تركيباً واحداً يجري في سياقين، فيُنتجُ معنيين متباينين؛ لأننا في أسلوب الأمر كما في غيره من الأساليب الإنشائية لا نتعامل مع جملةٍ لغويةٍ صماء، لذا فالجماليةُ ههنا لم تُعد وحيدةً الاتجاه مرتبطةً بمعيارية التّركيب النّحوي، بل إنّ جمالية أسلوب الأمر تكمن في انحرافه وانزياحه.

المطلب الرابع - الاستفهام:

الاستفهام أبرز أساليب الإنشاء، وأكثرها خروجاً عن أصله الوضعي، فأصل الاستفهام أن يطلب المتكلم من مخاطبه إفهامه أو إعلامه بأمر لم يكن معلوماً له قبل؛ وذلك بوساطة إحدى أدواته^(١)؛ ليحصل فائدة أو معلومة كانت مجهولة عنده قبل أن يسأل، كسؤالك من لا تعرف اسمه: (ما اسمك؟).

بيد أن أسلوب الاستفهام أكثر دورانه على الألسنة - وخاصة في اللغة الأدبية - على سبيل المجاز؛ وذلك حين يكون السائل عالماً بالجواب، فيكون الاستفهام مفارقاً معناه الحقيقي لمقاصد شتى تفهم من السياق الذي ورد فيه الكلام، ويُعَيَّنُها المقام الذي تُحمَلُ عليه، وهذا مجال رحب لإيهام المتلقي إذا لم يُحِطْ خُبراً بالقرائن والسياقات المكتنفة لهذا الاستفهام.

وأشار إلى ذلك ابن جني (ت ٣٩٢هـ) بقوله: «وذلك أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفاً به - مع استفهامه في الظاهر عنه - لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء؛ منها: أن يُريَ المسؤول أنه خفي عليه؛ ليسمع جوابه عنه، ومنها أن يتعرف حال المسؤول؛ هل هو عارف بما السائل عارف به؟، ومنها أن يُريَ الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد لما له في ذلك من الغرض. ومنها أن يُعدَّ ذلك لما بعده مما يتوقَّعه، حتى إن حلف بعد أنه قد سألَه عنه حلف صادقاً فأوضح بذلك عذراً. ولغير ذلك من المعاني التي يسأل السائل عما يعرفه لأجلها وبسببها»^(٢)، وهل ثمة أسطح من هذا بياناً ودلالة على ما نذهب إليه من أن الاستفهام المجازي قد يوقع المتلقي في الوهم إذا لم يكن هذا المتلقي على إحاطة ودراية بالقرائن والسياقات والمقام الذي قيل فيه هذا الاستفهام، على أن الأمثلة التي أوردتها ابن جني تُعدُّ من أكثر أضرب الاستفهام إيهاماً؛ لأنَّها ليست موهمةً لمتلقٍ يقرأ استفهاماً حاصلاً بين رجلين، وهو لا يدري المقام الذي قيل فيه هذا الاستفهام، بل إنه إيهامٌ مباشرٌ من المتكلم للمسؤول نفسه.

(١) انظر: مفتاح العلوم ص ٤١٨. أدوات الاستفهام إحدى عشرة، وهي: (الهمزة - هل - ما - من - متى -

أيان - أين - كيف - أنى - كم - أي).

(٢) انظر: الخصائص ٢/٤٦٦-٤٦٧.

وسلف أن الاستفهام إن كان خارجاً على حقيقته، ولم يكن للمتلقّي دراية وإحاطة بالقرائن والسياق الذي ورد فيه هذا الاستفهام = فقد يتوهّم المتلقّي أن هذا السؤال حقيقي، وأن السائل كان جاداً فيه، ومُنْتَظِراً للإجابة، وهذا من شأنه أن يُغيّر جهة الكلام كلّها في نظر المتلقّي، وأن يُضلّله؛ لأنّه سيفهم الكلام على غير وجهه؛ لأنّه لو سمع ذلك الاستفهام في سياقه وسباقه لدرى أن السائل إنّما أراد الاستهزاء مثلاً أو النقي أو التعجّب لا طلب الفهم.

ثم إن الاستفهام المجازي نفسه قد يُفهم التركيب الواحد منه على أوجه، فلا يكون ظاهر الدلالة إلا إن أُعيد في سياقه، ونُظِرَ إلى القرائن من حوله، ورُزِقَ مُتَلَقِياً ذِوَاقَةً ذا حسّ بلاغيّ سليم؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، فجّلّ جلاله يسأل نار جهنّم إن كانت امتلأت، وهذا سؤال العارف، وهو كما يقول ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ): «مقصود به ترويع المدفوعين إلى جهنّم ألا يطعموا في أن كثرتهم يضيق بها سعة جهنّم، فيطمع بعضهم أن يكون ممّن لا يوجد له مكان فيها، فحكاه الله في القرآن عبرة لمن يسمعه من المشركين...، والاستفهام في (هل امتلأت؟) مُستعملٌ في تنبيه أهل العذاب... على وجه التعريض»^(١)، فتجيب النار بسؤال: (هل من مزيد؟)، وهذه العبارة الاستفهاميّة قد تُفهم على أن النار تطلب المزيد من الكافرين وهذا يوحي كم هي ظمأى لتعذيب هؤلاء الدّاخلين فيها وكأنّها في شوقٍ لهم، وقد تُفهم أيضاً على أنّها إخبارٌ باتّساع النار لكلّ كافٍ، وتُفهم أيضاً على أن النار تتعجّب من كثرة المدخلين فيها، فتسأل: (هل من مزيد؟) لإظهار اندهاشها من كثرة هؤلاء الكافرين الذين أدخلوا فيها.

وهنا يقول الزّخشي (ت ٥٣٨ هـ): «وفيه معنيان؛ أحدهما: أنّها تمتلئ مع اتّساعها وتباعّد أطرافها حتّى لا يسعها شيءٌ، ولا يُزاد على امتلائها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١٩] والثاني: أنّها من السّعة بحيث يدخلها من يدخلها، وفيها موضعٌ للمزيد. ويجوز أن يكون ﴿هَلْ مِنْ

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣١٧/٢٦.

مَزِيدٌ ﴿ استكثرًا للدَّاخلين فيها واستبداعًا للزيادة عليهم؛ لَفَرَطِ كَثَرَتِهِمْ، أو طَلَبًا للزيادة غيظًا على العُصاة ﴾^(١)

ومعلومٌ أنَّ لأدواتِ الاستفهامِ معانيَ مخصوصةً، بيدَ أنَّ تناوبَها على تلكِ المعاني قد يُوهِمُ المتلقِّي غيرَ المراد، فمثلاً اسمُ الاستفهامِ (أَنَّى) الأصلُ أنَّ يُسْتَفْهَمَ به عن المكانِ، فيكونَ بمعنى (من أين؟) كما في قوله تعالى: ﴿كَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنِعِمُّ أَتَى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧] أي: من أين لك هذا؟، وقد يُسألُ به عن الحالِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَو كَأَن لَّي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقد يكونُ أيضاً للسُّؤال عن الزَّمانِ، وأمَّا معناه المقصودُ فينمازُ للمتلقِّي وينكشفُ تبعاً للسياق؛ ففي قوله سبحانه: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، قد يتبادرُ لذهنِ المتلقِّي أنَّ الآيةَ الكريمةَ تُبيحُ للرجلِ أن يأتيَ زوجَه في القُبُلِ أو في الدُّبُرِ إن هو حمل ﴿أَنَّى﴾ على المكانية.

ومن عجيب ما ذكرَ أبو حيَّان التَّوحِيدِيُّ (ت نحو ٤٠٠ هـ) أنَّه «قالَ بعضُ العلماءِ في قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ على معنى: كيف شِئتم في الحالِ والهيئة، و﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾، على معنى: في أيِّ مكان شِئتم؛ في القُبُلِ والدُّبُرِ»^(٢).

ولعلَّ معترِضاً يقول: وهل يذهب إلى هذا التفسير أو يقولُ به مَنْ له أدنى عقلٍ، أو ذرَّةٌ علمٍ بالعربية؟ فيأتيه الجواب: نعم؛ لأنَّ ظاهر الآية من حيثِ (البنية اللُّغوية) - بصرف النَّظر عن أيِّ حُكم فقهيٍّ - يُجيزُ أن تُحمَلَ ﴿أَنَّى﴾ في الآية على المكانية، ويُجيزُ أن تُحمَلَ ﴿أَنَّى﴾ على الزَّمانية

(١) انظر: الكشاف ٦٠٢/٥.

(٢) انظر: البصائر والذخائر ١٢٧/٦.

فيكون المقصود الإباحة لهما بالزمان، ويُجيزُ أن تُحمَلَ ﴿أَنِّي﴾ على الحالية فيكون المقصودُ الإباحة لهما بالهيئة والحال التي يرتضيانها. وهذه ثلاثة معانٍ: (كيف شئتم، ومتى شئتم، ومن أين شئتم) أجازها الفهم اللغويُّ للآية مبتورةً عن القرائن والسِّياق، ثلاثة معانٍ لا يدفعُ أحدها الآخر ولا يترجَّحُ عليه.

أما إن كان مُتلقًى هذه الآية عارفاً بأحكام النكاح في الفقه الإسلامي، فتلك قرينة صارفة لأيِّ وهم أن يتسرَّب إلى فهمه، ولا سيما أن السِّباق قبل أشار بوضوح إلى ضرورة أن يكون الإتيان في الموضع المنصوص عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٣﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٢-٢٢٣] فقوله سبحانه: ﴿فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى أن الإتيان مقصورٌ على مكانٍ مخصوصٍ، ثم إنَّ مكانَ الحرث هو الرَّحِم؛ لآته كالأرض، فيه تُحبَّبُ البذرة التي هي كالنُّطفة، ثم تُحصَدُ الثَّمرة التي هي كالطُّفل.

وقد جعلَ بعضهم كلمة ﴿حَرْثَكُمْ﴾ من الاحتراس؛ فابنُ مُنيذ (ت ٥٨٤هـ) يقول: «ومن الاحتراس قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. لما كانت ﴿أَنَّى﴾ تحتلُّ معنيين: معنى: كيف، ومعنى: أين، احتسَّسَ الباري سبحانه بقوله: ﴿حَرْثَكُمْ﴾؛ لأنَّ الموضعَ المكروه ليس بحرثٍ، والحرثُ موضعُ الزَّرع»^(١).

أما ابنُ أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ) فيقرُّ أيضاً أنَّ في هذا الكلام إشكالاً يحتاجُ إلى إيضاح، وأنَّ تسمية النساء بالحرثِ أولاً في قوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ هي التي صرفتِ المتلقَّي عن الوقوع في الوهم؛ لقوله: «ومن الإيضاح نوعٌ يتقدَّم الإيضاح فيه على الإشكال؛ كقوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا﴾

(١) انظر: البديع في نقد الشعر ص ٥٥.

حَرَّكُمْ أَنِّي شَتَّمْتُ ﴿١﴾ إذ لو لم تتقدّم تسمية النساء بالحَرْث، وهو موضع الزرع؛ لَوَهْمَ متوهم من قوله: (أَنِّي شَتَّمْتُ) إباحة الوطء في غير المكان المشروع»^(١).

وإنك لتلاحظ من هذا المثال وغيره ميل الذكر الحكيم إلى استعمال الألفاظ والتراكيب الكنائية، والابتعاد عن التصريح الذي يخلّش الحياء، فمن بلاغة القرآن الكريم أنه يُكنّي ويُعَرِّض - للتعبير عن المعاني غير المستحسنة - بألفاظ لا تعافها الأذواق ولا تمجّجها الأذان، وأمثلة هذا كثيرة في القرآن الكريم؛ فمنه قوله سبحانه كناية عن الجماع: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]، ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] والرفث: هو الكلام مع النساء في شؤون الالتذاذ بهنّ، ثم أطلق على الجماع كناية، وعُدّي بـ(إلى)؛ ليتضمّن معنى الإفشاء^(٢). وفي الكناية عن النكاح: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وفي الكناية عن قضاء الحاجة: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء: ٤٣]، و﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وهذه سمة قرآنية لا بُدّ من التوقف عندها في أثناء الكلام على الكناية في علم البيان، وأمّا الرّخشريّ (ت ٥٣٨هـ) فقال: «شُبّهَنَ [بالمحارث؛ تشبيهاً لما يُلقى في أرحامهنّ من النطف - التي منها النسل - بالبذور. وقوله: ﴿فَأَتُوا حَرَّكُمْ أَنِّي شَتَّمْتُ﴾ تمثيل؛ أي: فأتوهنّ كما تأتون أراضيكُم التي تريدون أن تحرثوها من أيّ جهة شتّم، لا تحظرُ عليكم جهة دون جهة، والمعنى: جامعوهنّ من أيّ شقّ أردنتم [أي: مُقْبِلَاتٍ أو مُدْبِرَاتٍ] بعد أن يكون المأثي واحداً، وهو موضع الحرث»^(٣)، أي: بشرط أن يكون هذا الإتيان من مكان الحرث الذي يُنبت الزرع.

وقد رجّح ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ) كونَ ﴿أَنِّي﴾ ههنا للزمانية مُستفيداً من سياق الآية؛ ورأى أنْ فَعَلَ الأمر ﴿فَأَتُوا﴾ ههنا، إنّما هو للإباحة؛ إذ قال: «فالذي يتبادر من موقع الآية، وتساعدُ عليه

(١) انظر: تحرير التّحبير ص ٥٦٢.

(٢) انظر: التّحرير والتّنوير ١٨٢/٢.

(٣) انظر: الكشف ٤٣٤/١.

معاني الألفاظ أنّها تذييلٌ واردةٌ بعدَ النهي عن قربان النساء في حالِ الحيض. فتُحمَلُ ﴿أَنِّي﴾ على معنى (متى)، ويكون المعنى: (فأتوا نساءكم متى شئتم إذا تطهّرن)؛ فوزائنها وزانُ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ بعد قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ١]... ولا مُناسَبَةٌ تَبْعُثُ لَصَرْفِ الآية عن هذا المعنى^(١).

وإنَّكَ لَتَرَى أَنَّ الإيهامَ في هذه الآية قد يتبادرُ للمتلقِّي من جهتين:

- الأولى: جهلهُ بسياقها وما أحاطَ بها من قرائن، ومن تلك القرائن أسبابُ النزول.
- والثانية: أنَّ تناوُبَ المعاني الثلاثة الزمانية والكيفية والمكانية على اسم استفهامٍ واحدٍ رَشَحَهُ لِأَنَّهُ يَكُونُ مَجَالاً لِلْبَسِّ وتعدّد احتمالات الدلالة.

إنَّ الكلامَ على الآية الكريمة ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ ..﴾ كان لييان أنَّ اللبسَ والإيهامَ قد يتخلَّق من تناوُبِ بعض أدوات الاستفهام على المعاني، أمَّا الجهةُ الثانيةُ المولدةُ لهذا الإيهامَ فإنَّما هي انزياحُ الاستفهامِ عن معناه الأصليِّ إلى معنى آخرَ قد لا يلتفتُ إليه البتَّةُ مَنْ غابَ عنه السِّياقُ وقرائنُ الأحوال.

ولا بدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ أسلوبَ الاستفهامِ إنَّ كانَ على أصلِهِ (طلبُ العلمِ بشيءٍ لم يكن معلوماً من قبل) أمرٌ ليس له كبيرُ شأنٍ في البلاغة، ولا يتجاوزُ الاستعمالَ النَّحويَّ، أمَّا ما له كبيرُ قدرٍ عند أهل البلاغة والتفسير والأدب فهو الاستفهامُ المجازيُّ الذي لا يَبْحَثُ عن إجابةٍ مُحدَّدة، ولا يُدْرِكُ مَرْمَاهُ إلا بمعرفةِ السِّياقِ وقرائنِ الأحوال.

وقد أشارَ إلى ذلك السَّكاكِيُّ (ت ٦٢٦هـ) بقوله: «واعلم أنَّ هذه الكلمات [يقصد أدوات الاستفهام] كثيراً ما يتولَّدُ منها أمثالُ ما سَبَقَ من المعاني بمعونة قرائن الأحوال؛ فيقال: ما هذا؟ ومن هذا؟ لمجرَّد الاستخفافِ والتحقير...»^(٢)، وتبعه التَّفْتَازانيُّ (ت ٧٩٢هـ) بالقول: «ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ

(١) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ٣٧٢/٢.

(٢) انظر: مفتاح العلوم ص ٤٢٤.

الكلمات الاستفهامية كثيراً ما تُستعمل في غير الاستفهام؛ مما يُناسبُ المقامَ بمعونة القرائن»^(١)، وإنَّ في كلامهما نصّاً على خطَرِ المعرفة بالسياق وقرائن الأحوال في توجيه معنى الاستفهام، وعلى هذا مدار ما سترى من الكلام على المعاني التي قد ينزاح إليها الاستفهام، والتي قد توقع المتلقي في الإيهام إن غُيِّت عن قرائن الأحوال والسياق.

وسوف نتكلّم على تلك المعاني؛ كالآتي: الأمر، فالنهي، فالنفي، فالتشويق، فالتعجب، فالتنبيه على ضلال، فالتمني، فالتّهكّم والسخرية والاستخفاف، فالاستبطاء، فالاستبعاد، فالتكثير، فالتعظيم، فالتقريب، فالإنكار، فالتّهويل، فالوعيد والتّهديد، فالإيناس، فالتّحسر، وهذه المعاني على جيء بها سبيل المثال، إذ لا سبيل إلى حصر المعاني المستفيضة المتكاثرة التي ينزاح إليها الاستفهام.

فلو كان في المكتبة المدرسية تلميذان، أحدهما يقرأ قصةً والآخر ينتظر فراغه منها حتّى يشرع في قراءتها، ورأى المنتظرُ منهما أنّ صاحبه أودع القصةً جانباً، وانصرف إلى كتابٍ آخر، فسأله: (هل أنت مُنتهِ؟) فهذا السؤال حقيقيٌّ؛ لأنّه يطلبُ منه أن يُعلِّمه بكونه هل انتهى من القراءة أو لا، ويحتملُ هذا السؤال أن يكون للاستبطاء.

ولكن لو قرأت هذا السؤال نفسه في سياقٍ آخر، كما في قوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿[المائدة: ٩١]، أليس وزانُ قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ وزانَ الاستفهام الوارد قبل قليل؟ ألا يفهم على أنّه استفهامٌ حقيقيٌّ وأنّه سبحانه يريدُ منهم أن يُحدّثوا له إن كانوا موافقين على اجتناب هذه المحرّمات أم لا؟ بالطبع لا يفهم ذلك، بل إننا إن نظرنا إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ؟﴾ في سياقه؛ لتيقّنّا أنّ هذا الاستفهام الظاهريّ مقصودٌ به الأمرُ لهم بأن يجتنبوا هذه المحرّمات، ومقصودٌ به حثُّهم على الإسراع في الإقلاع عنها، وليس قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ؟﴾ إلا تمكينٌ وتأكيّد لقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾،

(١) انظر: المطول ص ٤١٩.

وهو التحريض على نبذ الإشراك وعلى الدخول في دعوة الإسلام. واسمُ الفاعل مُستعملٌ في الحالِ على أصله، أي: فهل أنتم مسلمون الآن؟ استبطاءً لتأخير إسلامهم... وكان فيه تعريضاً بهم بأنهم في ريبٍ يترددون^(١).

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧] هذه الآية تكررت أربع مراتٍ في سورة القمر، وليس المقصود منها السؤال إن كان ثمة مُدَكِّرٌ أم لا، بل المقصود منها التحضيض على سماعِ مواعظِ القرآن الكريم، وفهمِ معانيه، والاهتداء به^(٢)، وهذا التحضيض شاملٌ كلَّ مُتلقٍ لهذه الآيات الكريمة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٨]، و﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٥] ليس استفهاماً عن السبب الذي منعهم من ذلك، بل أمرٌ لهم بأن يؤمنوا بالله، وأن يقاتلوا في سبيله، مع بيان أن ليس لهم حجةٌ في ترك ذلك، وهذا لومٌ لهم على تأخيرهم.

وأما قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [العلق: ٩-١٣]، فالاستفهام فيه ليس على الحقيقة، وليس مُتظراً لإجابة المخاطب نفيًا أو إيجابًا، بل إن الاستفهام في هذه الآية التي نزلت في أبي جهل الذي أقسم: لئن رأيتُ محمدًا يُصلي لأطأَنَّ رقبته^(٣) = مقصود به الأمرُ أيضاً عند الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)؛ إذ قال: «ومعناه: أخبرني عمن ينهى بعض عباده الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقةٍ سديدةٍ فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح»^(٤).

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٧/ ١٧٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٧/ ١٩٠.

(٣) انظر: مُسند أحمد ١٤/ ٤٢٥. برقم: (٨٨٣١).

(٤) انظر: الكشف ٦/ ٤٠٥.

والذي أراه أن الاستفهام ههنا للتعجب أو لتعجيب المتلقي من حال هذا الناهي، وإلى ذلك ألح الفراء (ت ٢٠٧هـ) بقوله: «مثله في الكلام لو قيل: كيف ينهى عبداً إذا صلى، وهو كاذبٌ مُتَوَلٍّ عن الذكر؟ أي: فما أعجب من ذا»^(١)، وربما كان هذا الاستفهام للتشويق كما في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ (١) ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١-٢]، وكأنه يقول: هل عرفت الذي يكذبُ بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه فذلك الذي يكذبُ بالجزاء هو الذي يدعُ اليتيم؛ أي: يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى^(٢)، فقد جعل إيذاء اليتيم علماً على عدم الإيمان بالدين والجزاء، وكأنه يقول مُحذراً: يا مَنْ تؤذي اليتيم، لو كان عندك ذرةٌ من إيمانٍ بحسابِ الله لم تكن لتؤذيه، وقد رأى الزمخشري معناه «أنه لو آمنَ بالجزاء وأيقنَ بالوعيد، لخشيَ الله تعالى وعقابه، ولم يُقدم على ذلك، فحين أقدمَ عليه عَلِمَ أنه مُكذِّبٌ، فما أشدُّه من كلام! وما أخوفه من مقام! وما أبلغه في التحذير من المعصية! وأنها جديرةٌ بأن يُستدلَّ بها على ضعفِ الإيمان ورخاوة عقد اليقين»^(٣).

ومن الكلام ما يكون ظاهره الاستفهام والمقصود به النهي؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، إنَّه تعالى لا يسألهم إن كانوا يخشون هؤلاء المشركين أم لا، لأنَّه عالمٌ بأنَّهم يخشونهم، بآية قوله: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وإنَّما المقصود من الاستفهام ههنا نهيهم عن خشية هؤلاء المشركين وتوبيخهم على ذلك، وإنَّما تخلَّق هذا المعنى بمعونة السياق، ولا يخفى أن الاستفهام الأول في الآية: ﴿أَلَا تَتَّقِلُونَ..﴾ إنَّما هو للحض.

وقد ذهب الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) إلى أن قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ «تقريرٌ بالخشية منهم وتوبيخٌ عليها»^(٤). ويجوز أن يتوجَّه هذا الاستفهام أيضاً إلى معنى الحض والإنكار؛ حضٌ على قتال

(١) انظر: معاني القرآن للفراء ٢٧٨/٣.

(٢) انظر: الكشاف ٤٤٠/٦.

(٣) انظر: الكشاف ٤٤٠/٦.

(٤) انظر: الكشاف ١٩/٣.

هؤلاء المشركين، وإنكاراً لخشية بعض المخاطبين منهم، والتقدير: «أينتفي قتالكم إياهم لخشيتكم إياهم، وهذا زيادة في التحريض على قتالهم...»^(١).

ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيرُ﴾ [الأنفطار: ٦] فالاستفهام ههنا نهي للإنسان عن الاغترار والانخداع بالشيطان الذي يوسوس له أن يفعل ما شئت؛ فإن ربك غفورٌ رحيم، وفي هذا الاستفهام أيضاً إنكارٌ لا يخفى، وذهب البقاعي (ت ٨٨٥هـ) إلى أن فيه تعجباً من الإنسان كيف يرى فعله القبيح حسناً أو يرى أنه سيُعفى عنه لا محالة^(٢).

ولو قرأت العبارة الآتية: (هل أسأت إليك؟) ما فهمت سوى أنها سؤال صريح وطلب إلى المخاطب أن يؤكد حصول الإساءة من المتكلم أو ينفيها عنه. بيد أن هذه العبارة الاستفهامية نفسها لو دريت أن السائل فيها رجل طيب يسأل جاره الذي أساء إليه كثيراً وأذاه دوناً سبب مفهوم؛ لعلمت أن هذه العبارة - وإن تزيّت بزي الاستفهام - ما هي إلا إخبارٌ بالنفي المفضي إلى الإنكار، والتقدير: أنا لم أسئ إليك، فكيف تؤذيني!، وقد ظهر لك ههنا أثر قرينة الحال في تجلية المقصود من العبارة.

وغاية القول أن الكلام ربّما أتى ظاهره استفهاماً وباطنه النفي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، أي: ما جزاء الإحسان إلا الإحسان في الثواب^(٣)، وأشار ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) إلى أن هذا الاستفهام تذييل للجمل المبدوء بقوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٌ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وتلك الآيات تتكلم على نعيم المؤمنين في الجنة، أي أنهم أحسنوا أعمالهم في الدنيا، فجازاهم ربهم بالإحسان الذي هو الجنة في الآخرة، وقال: «والاستفهام مُستعمل في النفي، ولذلك عُقب بالاستثناء، فأفاد حُضْرَ مجازة الإحسان في أنها إحسان، وهذا الحصر إخبار عن كونه الجزاء الحق ومقتضى الحكمة والعدل»^(٤).

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٠/ ١٣٤.

(٢) انظر: نظم الدرر ٢١/ ٣٠٢.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٨/ ١٨٥.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٧/ ٢٧١.

ومن الكلام الذي ظاهره استفهامٌ ومقصوده النفيُّ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وأسماها الزركشي (ت ٧٩٤هـ): «الاستفهامية التي أُشربت معنى النفي»^(١)، وقال الفراء (ت ٢٠٧هـ): «فإن معنى قوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ما يغفر الذنوب أحدٌ إلا الله، فجعل على المعنى. وهو في القرآن في غير موضع»^(٢). والفراء بقوله: (فجعل على المعنى) يُشير إلى أنَّ المتلقي ينبغي أن يُراعي المعنى السياقي لهذه العبارة (النفي)، وإن كانت بنيتها التركيبية استفهامية، فلا يُنظر إلى المبنى بمعزلٍ عما يُحيط به من قرائنٍ وسياقاتٍ قادرةٍ على حَرْفِ ذلك المبنى وإزاحته عن دلاليته الوضعية. ومثل ذلك قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام مُجيباً ضيوفَه من الملائكة: ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ ﴿٥٦﴾ [الحجر: ٥٥-٥٦]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن الكلام ما يلتبس بالاستفهام، والغرض منه تهيجُ السامع وإلهابُه وجذبُ نفسه وتشويقُها إلى الأمر الذي يُسأل عنه؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَخْرَجٍ تُجِبُّونَ عَنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] فالسائل لا ينتظر من المتلقي إجابةً بكونه موافقاً على أنه يدلُّه على تلك التجارة أو أنه غير موافق، ولكننا هذا السؤال غايةً اجتذابِ قلوبِ المؤمنين؛ ليتشوقوا إلى معرفة ما التجارة التي تُنجيهم من عذابِ أليم؟ فيأتيهم الجواب: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١١-١٢].

ولا يخفى أنَّ قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ أمرٌ بصيغة الخبر، وعللَ الزمخشريُّ (ت ٥٣٨هـ) مجيء هذا الأمر على صيغة الخبر أنه «للإيدان بوجوب الامتثال، وكأنه أمثل؛ فهو يُخبر عن إيمانٍ وجهادٍ

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن ٤/ ٤١١.

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٤.

موجودين»^(١)، وهذا الأمر يدعو إلى المداومة على الفعل والاستمرارية فيه؛ لأنه تعالى ناداهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثُمَّ طَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا، وهذا ما يُدعى بالإلهاب والتَّهْيِيجُ^(٢)، حينَ تدعو المخاطَبَ لَأَنْ يَفْعَلَ أمراً هو في الأصلِ فاعِلٌ له قبل أن تدعوه إليه. وجمالُية التشويق ههنا أن «الأمر الوارد على النفوس بعد تشويق وتطلُّع منها إليه = أوقع فيها، وأقرب من قبولها.

ومثل ذلك قوله سبحانه حكايةً عن إبليسَ عندما أخذَ يوسوسُ لآدمَ عليه السلام، ويُغريه بالأكلِ من الشَّجرة التي نهاه الله تعالى عن الاقتراب منها: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنَادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَلَى﴾ [طه: ١٢٠]، وجليُّ أن الاستفهام ههنا خرج إلى معنى التشويق والإغراء بوساطة السياق؛ لأنَّ النَّفْسَ بطبيعتها تشوِّقُ إلى معرفة ما تجهل، يُضافُ إلى ذلك ذِكْرُ شجرة الخلد، والإنسانُ أحبُّ شيءٍ إليه طولُ البقاء، = وذِكْرُ المُلْكِ الذي لا يَفْنَى، وكأنَّه يقولُ لآدمَ عليه السلام: ليس بينك وبين الخلود والغنى الدائم إلا أن تأكلَ منها. وليس ببعيدٍ أن يُقال: إنَّ هذا الاستفهام «مُستعملٌ في معنى العرض»^(٣).

وقد ترى من أصحابك مَنْ يتكَبَّرُ ويتصَلَّفُ ويدَّعي ما ليس له؛ فتقولُ له: (ألا أعرفُك؟) فأنت لا تقصدُ أن تستفهمَ منه عن تصديق نسبة معرفته إليك، بل تقصدُ إلى الإنكارِ والتَّعْجِيبِ، ورُبَّما الغمز منه بأنه يكذبُ، وقد تسمع أن بخيلاً تعرفه صنَّعَ مَادِبَةً كبيرةً دعا إليها النَّاسَ، فتقول: (لا، وكيف فعلها؟) فأنت لا تسألُ عن كيفية صنَّعِ الوليمة، بل تتعجَّبُ من المفارقة بين ما عهدته من بُخله وشُحِّه وما سمعته من نَبَأٍ عجيب.

وقد تذهبُ من الشامِ إلى مكَّةَ للحجِّ فترى هناك صديقاً لك، فتسأله: (أأنتَ هنا؟)، وقد ترى صديقك قد غفا وأنتما تُشاهدان عَرْضاً مسرحياً، فتسأله: (هل نمتَ؟)، وقد ترى ابنتك عندَ عودته من المدرسة حاملاً صحيفةَ علاماته؛ ومكتوبٌ عليها أنَّه التلميذُ الأوَّلُ على صفِّه، فتسأله: (أأنتَ

(١) انظر: الكشف ١٠٦/٦.

(٢) انظر: الطراز ٩٣/٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٣٢٥/١٦.

التلميذ الأول على صفك؟)، أو ترى ولدك عائداً من المدرسة قبل الموعد؛ فتسأله: (هل انصرفتم من المدرسة؟)، وغير ذلك.

وربما سمعك من لا علم له بأساليب العرب فنسبك إلى الضلال في القول؛ لأنك تسأل عما هو واضح وضوح الشمس لذي عينين، فلا يُخطئه من له أدنى إدراك، وهذا السامع لا يدري أن الاستفهام ههنا ظاهري؛ أي أن التركيب استعار من الاستفهام ثوبه، ولكن غايته التعجب. فأنت في المثال الأول لم تنتظر من صديقك إجابة؛ بأن يقول لك: (نعم أنا هنا، أو لا أنا لست هنا)، وإنما أردت أن تعبر عن اندهاشك واستغرابك أو تفاجئك من لقياء في مكان لم تكن تتوقع رؤياه فيه، وكذلك لم تكن تنتظر من صديقك الغافي أن يقول لك: (نعم نمت، أو: لا أنا لم أنم)، بل كنت تعبر أيضاً عن تعجبك واستغرابك من صنيعه؛ كيف ينام وقد أتيتها لمشاهدة المسرحية.

ومثل ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، فهو لاء لا يريدون أن يسألوا عن علة أكله وشربه، بل أرادوا إبطال رسوليته؛ بزعمهم أنه لو كان رسول الله حقاً لكان مُستغنياً عن الطعام والشراب وما يتبعه من الإحداث أو قضاء الحاجة كما يفعل سائر البشر، فهم منكرون لرسوليته، ويتعجبون من حاله (الأكل والشرب... كالبشر) كيف يتفق مع ادّعاءه بأنه رسول الله، وفي هذا تكذيب له؛ لأن حاله وادّعاءه متناقضان.

وأشار ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) إلى أن الاستفهام في هذه الآية تعجبي مُستعمل في لازمه، وهو بطلان كونه رسولاً، بناءً على أن التعجب من الدعوى يقتضي استحالتها أو بطلانها، وهم عندما نعتوه بـ (الرسول) ليس تصديقاً منهم بأنه رسول، وإنما أجروا عليه وصف الرسالة تجارةً منهم لقوله، وهم لا يؤمنون به، ولكنهم بنوا عليه؛ ليتأتى لهم التعجب من المفارقة بين (حالهِ وادّعاءهِ)، والمراد منه الإحالة والإبطال^(١)، وهذا الكلام مُتضمن في كلام الزخشي وإن لم يُصرح بلفظ

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٣٢٧.

التَّعَجُّبُ، وإنَّما أشارَ إلى معنى الاستهزاء الذي هو قَصْدُ المتعجِّبين؛ إذ قال: «وفي هذا [يقصد الاستفهام: ما لهذا الرسول يأكل...] استهانةً وتصغيرُ شأنه، وتسميته بالرسول سخريةً منهم...، كأثمهم قالوا: ما لهذا الزَّاعِم أَنَّهُ رسولٌ؟... أي: إنَّ صَحَّ أَنَّهُ رسولُ الله فما بألِه حالُه مثلُ حالِنا ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كما نأكل؛ ويتردَّدُ في الأسواقِ لطلبِ المعاش كما نتردَّدُ، يَعْنُونَ أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مُسْتَغْنِيًا عَنِ الْأَكْلِ وَالنَّعِيشِ»^(١).

وقبل الفراغ من الكلام على هذه الآية لا بُدَّ من الإشارةِ إلى سِمَةِ قرآنيَّةِ هي التَّحَرُّزُ عن ذِكْرِ الفواحش بوساطة الكنايات اللَّطيفة، ففي هذه الآية كان هؤلاء في سُؤالِهِم ينتَقِصون من قَدْر ذلك الزَّاعِم أَنَّهُ رسولٌ؛ لأنَّه يُحَدِّثُ كما البشر؛ ولكن البيان القرآني ذَكَرَ السَّبَبَ (الأكل والشُّرب) وقَصَدَ بهما (المسبَّب) الإحداث. ومثُلُ هذا قوله سبحانه في تكذيبِ مَنْ زعموا أَنَّ الله ثالثُ ثلاثة، فأثبتَ لهم بشريةَ عيسى وأُمَّه مريم عليهما السَّلام بقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلُ الْطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وفي هذه الكناية اللَّطيفة عُدُولُ إلى ما هو الطُّفُّ وألبقُّ وأليق.

ومن التَّعَجُّبِ المتخفِّي بزَيِّ الاستفهام أيضاً قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤-٥]، وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] فَإِنَّهُ ﷻ لَا يَسْأَلُ عَنْ كَيْفِيَّةِ كُفْرِهِمْ، بل الاستفهامُ ههنا على جهة التَّعَجُّبِ من عقول هؤلاء الكُفَّار ومن أَبْصَارِهِمْ، كيف يكفرون وأمامَ أعْيُنِهِمْ دلائلُ وحدانيَّةِ الخالق، ودلائلُ سُلْطَانِهِ وهو الذي بيده الإِمامَةُ والإِحياء، ثُمَّ بعدَ ذلك تراهم يصدِّفون عن عبادة الله وتوحيده، أفلا يدعوك ذلك إلى التَّعَجُّبِ من حالِهِمْ؟. وقد لَمَحَ الفراءُ (ت ٢٠٧هـ) معنى التَّوْبِيخِ ممزوجاً بالتَّعَجُّبِ في هذا

(١) انظر: الكشاف ٤/ ٣٣٣-٣٣٤.

الاستفهام إذ قال: «على وجه التعجب والتوبيخ، لا على الاستفهام المحض؛ أي: وَيُحْكَمُ كيف تكفرون؟»^(١)

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦] فإنه استفهامٌ خارجٌ إلى معنى التعجب من حالهم، وتوبيخهم أيضاً^(٢)، وإلى تنبيههم على ما هم فيه من الضلال^(٣)، وأنَّ العذاب مُدرِكُهُم حيثما كانوا، وهذا المعنى يتبدى لك من تأمل السِّياق؛ حيث ترى أنَّ هذا الاستفهام جاء جملةً اعتراضيةً، لتنبيه المخاطبين إلى ضلالتهم، وتبيين لهم بعد الاعتقاد الصَّواب الذي ينبغي أن يكونوا عليه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ يَمْلِكُونَ﴾ [٢٢] وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ [٢٣] وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ [٢٤] وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ [٢٥] فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ [٢٦] إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [٢٧] لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ [التكوير: ٢٢-٢٨].

وقد عبّر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) أنَّ الاستفهام ههنا لتنبيههم على ضلالتهم بقوله: «(فأين تذهبون) استضلالٌ لهم؛ كما يُقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بُنيات الطريق: أين تذهب؟، مُثِّلَتْ حالهم بحاله في تركهم الحقَّ وعدولهم عنه إلى الباطل»^(٤)، وذكر ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) أنَّه يجوز أن يكون هذا الاستفهام (فأين تذهبون) «مُستعملاً في التعجيز عن طلب طريق يسلكونه إلى مقصدهم من الطعن في القرآن، والمعنى: أنه قد سُدَّتْ عليكم طُرُقُ بُهتانكم؛ إذ اتَّضَحَ بالحُجَّةِ الدَّامِغَةِ بطلانُ ادِّعائكم أنَّ القرآن كلامُ مجنونٍ أو كلامُ كاهنٍ، فماذا تدَّعون بعد ذلك؟»^(٥)، وهذا المعنى (التعجيز) غير خارجٍ عما نحن فيه من الكلام الذي ظاهره استفهامٌ، وباطنه غير ذلك بعد تأمل السِّياق والقرائن.

(١) انظر: معاني القرآن للقرآء ١/ ٢٣.

(٢) انظر: معاني القرآن للقرآء ١/ ٢٣.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٣٤٠.

(٤) انظر: الكشف ٦/ ٣٢٧. بُنيات الطريق: هي الطُّرُق الصَّغَارُ تتشعبُ من الجادة. (اللَّسان: بني).

(٥) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ١٦٥.

ومن التنبيه على الضلال في هيئة الاستفهام قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال فيها الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ): ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم^(١)، ولا يخفى ما في هذا الاستفهام من معنى النفي القاطع، وما فيه من معنى التوبيخ، ولا سيما إذا تأملنا السياق على طوله، ورأينا أن الآيات قبل: ﴿وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١١٢) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْخَدُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١١٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١١٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٩) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٣٠]، فإنك ترى هذه الآية جاءت كالنتيجة بعد كل ما ذكر من الأدلة والبراهين أو المقدمات التي أفضت إلى هذه النتيجة أنه: لا يفارق ملة إبراهيم إلا السفه الخفيف العقل الذي لا يحسن تقدير الأمور، ومن هنا تولد معنى النفي في هذا الاستفهام.

وقد يكون ما ظاهره الاستفهام لا للتنبيه على الضلال بل للفت النظر فحسب؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْسِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَفَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣]، فإنه ﷺ لا ينتظر من المسؤول جواباً، وإنما هي دعوة إلى التفكير في خلق الله وتدبيره، ولفت لنظر المتلقي إلى تلك الظواهر الطبيعية؛ لكي يجتهد في تفسيرها والاستفادة من قوانينها، أضف إلى ذلك أنها

(١) انظر: الكشف ١/ ٣٢٤.

تذكيرٌ له بنعم الله ورحمته، ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٥] فهل هذا الاستفهام إلا تذكيرٌ بنعماء الله تعالى وفضله.

ولو قلت لأحدهم: (هل لك من حصانٍ تركبُه؟) لكانَ كلامُك استفهاماً، فأنت تنظرُ جوابه إيجاباً أو نفيّاً، ولكن لو سمعتَ رجلاً فقيراً مُعْدماً يقولُ: (هل لي من حصانٍ يحملُنِي فأستريحَ!) لعلمتَ أَنَّهُ يتمنّى ولا يستفهم، ومثل ذلك قول العباس بن الأحنف: [الطويل]

بكيتُ على سِرْبِ القَطَا إِذْ مرزَنَ بي فقلتُ، ومثلي بالبكاء جسدٌ
أَسِرْبَ القَطَا هل مَن يُعيرُ جناحَه لعلِّي إلى مَن قد هويتُ أُطيرُ^(١)

فالعاشق هنا لا يستفهم، ولا يطلبُ من الطير أن تُخبرَه إن كانت على استعدادٍ بأن تُعيرَه جناحَها أم غير مُستعدة، وإنَّما هي أُمْنِيَّة، وأنت ترى جماليَّة الاستفهام ههنا في إنزاله المستحيل منزلةً الممكن؛ لبيان عِظَم الشوق في نفسِ العاشق.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى حكايةً عن الذين اتَّخذوا دينَهم في الحياة الدُّنيا لهواً ولعباً، ونسُوا كتاب الله، وغرَّتْهم الحياة الدنيا وزيناتها، يَتَمَنَّونَ يومَ القيامة أن يكونَ لهم شفعا، فيشفعوا لهم، أو أن يُردُّوا إلى الحياة الدُّنيا، ليعملوا غيرَ الذي كانوا يعملون ممَّا يُرضي ربَّهم عليهم، فما سيأتي من الاستفهام حكايةً عن مقالَتهم يومَ البعث؛ إذ يقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْرَوْنَ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وأشار إلى ذلك ابنُ جني (ت ٣٩٢هـ) بقوله: «وفيه معنى التَّمني»^(٢)، وعقب الزركشي (ت ٧٩٤هـ) على الآية بقوله: «حُمِلَتْ (هل) على إفادة التَّمني؛ لعدم التَّصديق بوجود شفيعٍ في ذلك المقام، فيتولَّد التَّمني بمعونة قرينة الحال»^(٣)، وكان السَّكَّاكِي (ت ٦٢٦هـ) أشار إلى ذلك بقوله: «إذا قلت: (هل لي من شفيعٍ؟) في مقام

(١) انظر: شرح ابن عقيل ١/ ١٤٨.

(٢) انظر: المحتسب ١/ ٢٥٢.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٣٢١.

لا يَسَعُ إِمكَانَ التَّصَدِيقِ بِوُجُودِ الشَّفِيعِ امْتِنَعَ إِجْرَاءُ الاسْتِفْهَامِ عَلَى أَصْلِهِ، وَوَلَّدَ بِمَعُونَةِ قِرَائِنِ الْأَحْوَالِ مَعْنَى التَّمَنِّيِ^(١)؛ فَالاسْتِفْهَامُ بِهِ (هَلْ) يَدُلُّ عَلَى التَّمَنِّيِ حِينَ يُعْلَمُ فَقَدْ ذَلِكَ الشَّيْءُ الْمَسْئُولِ عَنْهُ. فَهَؤُلَاءِ يَعْلَمُونَ يَقِينًا أَنَّ لَا شَفِيعَ لَهُمْ، وَلَا رُجُوعَ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَالاسْتِفْهَامُ هَهُنَا ذَاهِبٌ إِلَى التَّمَنِّيِ؛ وَجَمَالِيَّتُهُ أَنَّهُ يَكْشِفُ عَنِ الْهَوْلِ وَالْخَوْفِ وَالْعَذَابِ الَّذِي يَقَعُ بِهِؤُلَاءِ حَتَّى أَضْحَوْا يَتَمَنَّوْنَ مَا يُوقِنُونَ بِأَنَّهُ مُسْتَحِيلُ الْحَصُولِ، وَفِي هَذَا تَنْبِيْهُ لِلْأَحْيَاءِ عَلَى قِيَمَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَنَّهَا دَارُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لِيَتَذَكَّرُوا فِعْلَ الْخَيْرَاتِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي يَتَمَنَّوْنَ فِيهِ الرُّجُوعَ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَاتَ حِينَ رُجُوعٍ. وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الدَّلَالَهَ هَهُنَا انْسَلَخَتْ عَنِ الْمَعْيَارِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ الَّتِي تَحْكُمُ الْمُبَانِي الظَّاهِرِيَّةَ؛ لِتَحْمَلَ الْمُتَلَقِّيَ عَلَى الْغَوْصِ فِي الْعِلَاقَاتِ الْكَامِنَةِ فِي الْعِبَارَةِ الْوَاحِدَةِ، وَبِخْتَبَرِهَا فِي ضَوْءِ السِّيَاقِ وَقِرَائِنِ الْأَحْوَالِ.

وَمِنَ الْكَلَامِ مَا يَتَخَفَّى بِهِئَةَ الاسْتِفْهَامِ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ التَّهْكُمُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْمٍ شُعَيْبُ: ﴿قَالُوا يَسْئَعُ شُعَيْبُ أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، فَالسِّيَاقُ يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُمْ أَرَادُوا الْاسْتِهْزَاءَ بِهِ وَبِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ اسْتِفْهَامَهُمْ ﴿أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ...؟﴾ لَيْسَ سَوْأَلًا جَدِّيًّا، بَلْ هُوَ اسْتِفْهَامٌ اسْتِنكَارِيٌّ الْقَصْدُ مِنْهُ الْاسْتِهْزَاءُ، وَقَدْ قَالَ الزَّخَّشَرِيُّ (ت ٥٣٨هـ): «كَانَ شُعَيْبٌ - ﷺ - كَثِيرَ الصَّلَوَاتِ، وَكَانَ قَوْمُهُ إِذَا رَأَوْهُ يُصَلِّي تَغَامَزُوا وَتَضَاحَكُوا، فَقَصَدُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ السُّخْرِيَّةَ وَالهُزْءَ»^(٢). وَبِذَلِكَ عَلَى ذَلِكَ سِيَاقُ كَلَامِهِمْ، إِذْ قَالُوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ وَمَا أَرَادُوا بِذَلِكَ أَيْضًا إِلَّا «نَسَبَتَهُ إِلَى غَايَةِ السَّفَهِّ وَالْغَيِّ، فَعَكَسُوا؛ لِيَتَهَكَّمُوا بِهِ»^(٣)، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: يَا شُعَيْبُ إِنَّكَ إِذْ تَدْعُونَا إِلَى تَرْكِ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، إِنَّكَ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٌ مُبِينٌ، وَهَذَا الْأَسْلُوبُ الْخَارِجُ عَلَى

(١) انظر: مفتاح العلوم ص ٤١٦-٤١٧.

(٢) انظر: الكشف ٣/ ٢٢٥.

(٣) انظر: الكشف ٣/ ٢٢٦.

مُقتضى الظاهر ليس له ضابطٌ يكشفه إلا الدَّرايةُ بقرائن الأحوال؛ ليعلمَ المتلقِّي أكانَ ما سمعه من الاستفهام حقيقياً أم مُراداً به الهزءُ من المسؤول عنه.

وإنَّما يعودُ المتكلِّمُ إلى هذا الأسلوب الموهِم (الاستفهام التَّهكُّمي) «لشدَّة الغضب...، أو لشدَّة الكبر، وتهاوُّنه بالمخاطب»^(١)، ومن الاستفهام المقصود به التَّهكُّمُ أَنْ يَسْأَلَ الأبُّ ابْنَه الرَّاسِبَ في الامتحان - وهو يعلمُ برسوِيه - أنْجَحْتَ في الامتحان؟، ومنه أيضاً أَنْ تَزُورَ أَنْتَ وأَصْحَابُكَ رجلاً مُوسِراً فيذبحُ لكم دجاجةً واحدةً، فتقولُ: (للهِ دُرُّكَ يا أبا فلان! ما هذا الكرمُ الحامِي؟) فأنت لم تقصد السؤالَ عن ماهيَّةِ كَرَمِه؛ لأنَّكَ لا تعتقدُ بوجودِ كَرَمٍ له أصلاً، بل قصدتَ إلى التَّهكُّمِ بِشُحِّهِ وبُخْلِهِ، وقرينةُ الحال أنْ ذبحَ دجاجةً واحدةً لكثيرٍ من الضَّيفان - مع أنَّه من أهل اليسار - هي قرينةٌ دامغةٌ تؤكِّدُ أنَّ سؤالَكَ ساخرٌ.

ومن ذلك قوله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿فَرَأَى إِلَى آلهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾^(١١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿[الصَّافَات: ٩١-٩٢]، هذان في الظاهر سؤالان للمخاطبين عن رغبتهم في الطعام، وعن عِلَّةِ صمتِهِم، ولكنَّ المقصودَ منهما يتبيَّن واضحاً بعد وضع هذين السؤالين في سياقهما: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾^(٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ^(٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ^(٨٥) أَفَبِكُلِّ عِلَةٍ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ^(٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(٨٧) فَظَرَنْظَرَةً فِي النُّجُومِ^(٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ^(٨٩) فَنَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ^(٩٠) فَرَأَى إِلَى آلهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ^(٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿[الصَّافَات: ٨٣-٩٢].

لا ريبَ في أنَّ إبراهيمَ عليه السلام مُوقِنٌ بأنَّ هذه الآلهة المنحوتة من الصَّخر لا تأكل ولا تنطق، ولكنَّه أخبرَ عن يقينه هذا بهيئة الاستفهام؛ لِيُثَبِّتَ عَجْزَ هذه الآلهة المزعومةِ أوَّلاً، وليتَّهَكَّم بها ثانياً؛ فكيف تكونُ آلهةً معبودةً وهي عاجزةٌ أن تفعلَ كعابديها من الكلام والطعام، وأظنُّ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام أرادَ بسؤاله هذا الاستهزاء بقومِه الكافرين الذين سَفَهُوا أحلامهم واستخفُّوا عقولهم، وقد أهلكَ نفسه وهو يدعوهم إلى التَّوحيد وهم مُعرِّضون، ولم يقصد إلى الاستهزاء بهذه الأحجار التي لا تعقلُ

(١) انظر: تحرير التَّحبير ص ٥٦٨.

كلامه، لكنها - والله أعلم - نفثة المصدور من قومه المنحوتة عقولهم من حجارة صماء، فكأنني به يقول: أين يذهب هؤلاء بأنفسهم؟ ألا يدرون أنك حجارة لا تقدمين ولا تؤخرين؟ لذا فالتهمكم حقيقة ليس بالآلهة، بل بمن يعبد هذه الآلهة الحجرية العاجزة عن كل شيء، لذا تراه يقول لقومه بعد أن أسرعوا إليه وأمسكوه وأوقفوه عما يفعل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا نَنحِتُونَ ۖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥-٩٦]، وهذا استفهام فيه أعلى درجات الإنكار والتوبيخ، وما أظنه عليه السلام بادر إلى تكسير هذه الأصنام إلا بعد أن أعياء القوم، فأراد أن يضعهم مع الحقيقة وجهاً لوجه؛ ليسألوا أنفسهم: إن كانت هذه الآلهة تعجز عن الدفاع عن أنفسها، فكيف ترد عن الأذى، بله أن تنفعنا؟

وذكر ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) أن مخاطبة «إبراهيم تلك الأصنام بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ (١١) مَا لَكُمْ لَا نَطْقُونَ؟﴾ وهو في حال خلوة بها، وعلى غير مسمع من عبدتها قصد به أن يثير في نفسه غضباً عليها؛ إذ زعموا لها الإلهية؛ ليزداد قوة عزم على كسرها. فليس خطاب إبراهيم الأصنام مستعملاً في حقيقته، ولكنه مستعمل في لازمه، وهو تذكر كذب الذين أهوها، والذين سدّوا لها، وزعموا أنها تأكل الطعام الذي يضعونه بين يديها، ويزعمون أنها تكلمهم وتخبرهم»^(١).

ومثل ذلك قوله تعالى في المشركين: ﴿وَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، فإن المشركين كانوا يؤذونه ﷺ في حضوره، بحيث إذا مرّ قال بعضهم لبعض: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ؟﴾، وظاهر قولهم أن المتكلم لا يدري من الشخص الذي يذكّر آلهم ويسأل عن ذلك ليتأكد، بينما مراده الهزء والسخرية، ولا يخفى أن جملة ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ؟﴾ مبيّنة لجملة ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾^(٢)، ولا يخفى أيضاً ما لاستعمال اسم الإشارة ههنا من معنى الاستخفاف وتحقير الشأن، ويدلّك على ذلك السياق. ومثل ذلك مما يكون ظاهره الاستعلاء وباطنه

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٣/ ١٤٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٧/ ٦٦.

التَّهْكُمُ أَوْ التَّحْقِيرُ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْمَشْرِكِينَ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

وَأَمَّا اسْتِفْهَامُ زَهِيرٍ: [الوافر]

وَمَا أُدْرِي، وَسَوْفَ إِخَالُ أُدْرِي أَتَسْأَلُ أَلِ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءً؟

فَإِنَّهُ سَخَرِيَّةٌ وَاضِحَةٌ؛ فَمَا هَذَا السُّؤَالُ الْمَعْجَبُ؟ إِنَّهُ سَوْأَلُ الْعَارِفِ الْخَبِيرِ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يُوْهِمَكَ أَنَّ أَمْرَ أَلِ حِصْنٍ قَدْ التَّبَسَّ عَلَيْهِ لَشِدَّةِ الشَّبَهِ بَيْنَ رَجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ؛ حَتَّى حَارَ فِي أَمْرِهِمْ فَأَطْلَقَ هَذَا السُّؤَالَ. وَأَجْمَلُ مَا فِي ذَا الْإِيهَامِ أَنَّ زَهِيرًا ظَهَرَ بِمَظْهَرٍ مَنْ يَتَرَدَّدُ فِي حُكْمِهِ عَلَى أَلِ حِصْنٍ؛ لِأَنَّهُ يَتَحَرَّى الدَّقَّةَ فِي الْحُكْمِ، وَيَخْشَى أَنْ يَظْلِمَهُمْ، وَذَلِكَ أَدْعَى إِلَى تَصَدِيقِهِ وَالْأَطْمِئْنَانِ إِلَى حُكْمِهِ وَالتَّسْلِيمِ بِهِ؛ مِنْ قَوْلِهِ مَثَلًا: (أَلِ حِصْنٍ فِي الْمَعَارِكِ كَالنِّسَاءِ).

وَأَحْيَانًا تَطْلُبُ مِنَ الشَّخْصِ أَنْ يُعَرِّفَ بِنَفْسِهِ، وَأَنْتَ تَعْرِفُهُ جَيِّدًا، مُوْهِمًا أَنَّكَ لَا تَعْرِفُهُ؛ قَاصِدًا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ أَنْ تُشْعِرَهُ أَوْ تُشْعَرَ السَّامِعِينَ مِنْ حَوْلِكَ بِأَنَّهُ نَكْرَةٌ لَا شَأْنَ لَهُ، وَمَنْ حَقَّهُ أَنْ يُجْهَلَ. وَإِنْ كَانَ طَلْبُكَ هَذَا اسْتِفْهَامًا فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِيهَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْاسْتِفْهَامِ الْمَوْهِمِ؛ فَكَثِيرًا مَا يَكُونُ سَوْأَلُكَ عَنِ الشَّخْصِ ظَاهِرُهُ طَلْبُ الْعِلْمِ، وَبَاطِنُهُ التَّحْقِيرُ وَالْاسْتِخْفَافُ؛ كَقَوْلِ أَبِي فِرَاسٍ الْحَمْدَانِي حِكَايَةً عَنِ حَبِيبَتِهِ الَّتِي تَتَجَاهَلُهُ وَتَسْأَلُ مِنْ هُو: [الطَّوِيل]

تُسَائِلُنِي: (مَنْ أَنْتَ؟)، (وَهِيَ عَلِيمَةٌ) وَهَلْ بَفْتَى مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نُكْرُ

فَقُلْتُ كَمَا شَاءَتْ، وَشَاءَ لَهَا الْهَوَى: قَتِيلُكَ، قَالَتْ: (أَيُّهُمْ؟) فَهُمْ كَثُرُ^(١)

إِنَّكَ لَتَتَلَمَّسُ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ سِحْرَ الْاسْتِفْهَامِ الْمَوْهِمِ الَّذِي يُرَادُ مِنْهُ الْاسْتِخْفَافُ بِقَدْرِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ، فَفِي قَوْلِهَا: (مَنْ أَنْتَ؟) اسْتِخْفَافٌ بِقَدْرِ الْحَبِيبِ، وَفِي قَوْلِهَا: (أَيُّهُمْ) كُلُّ مَا تَشَاءُ مِنْ مَعَانِي الدَّهَاءِ وَالْحَيَلَاءِ، وَمَكْرِ النِّسَاءِ، وَخُبْنِ الْحُبِّ الَّذِي لَا يَجْلُو إِلَّا بِهِ.

(١) انظر: ديوان أبي فراس الحمداني ٢/ ٢١٠-٢١١.

وأَمَارَةٌ صِحَّةٌ مَا تَقَدَّمَ أَنَّكَ إِنِ ارْتَدْتَ مَدَحَ شَخْصٍ، فَقُلْتَ: (مَنْ حَاتَمَ إِذَا ذُكِرَ نَدَاكَ؟ وَمَنْ عُنْتَرُهُ إِذَا رُئِيتَ فِي الْوُغَى؟ وَمَنْ فَرَعُونَ إِذْ تَبَطَّشَ بِأَعْدَائِكَ؟)، فَأَنْتَ قَدْ اسْتَحَقَرْتَ شَأْنَ الْمَسْئُولِ لِحَنِهِ فِي كُلِّ جُمْلَةٍ؛ لَتَرْفَعَ شَأْنَ مَمْدُوحِكَ.

ومثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ أَحَدِهِمْ فِي قَوْمٍ يَتَعَالَمُونَ: [الطويل]

يقولون: هَذَا عِنْدَنَا لَيْسَ ثَابِتًا (مَنْ أَنْتُمْ) حَتَّى يَكُونَ لَكُمْ عِنْدُ؟

وَمَا يُؤَكِّدُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْبَلَاغِيَّةَ الْقِصَّةَ الْمَشْهُورَةَ الَّتِي تَرَوِي أَنَّ زَيْنَ الْعَابِدِينَ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ - عليه السلام - كَانَ فِي الْحَرَمِ، وَالنَّاسُ تُوسِّعُ لَهُ، وَتَسْتَقْبِلُهُ بِالْبَشَاشَةِ وَالْبِشْرِ، فَسَأَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ مَنْ مَعَهُ: (مَنْ هَذَا)، مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِهِ؛ اسْتَصْغَارًا لَشَأْنِهِ، فَأَجَابَهُ الْفَرَزْدَقُ بِقَوْلِهِ: [البسيط]

وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بِضَائِرِهِ الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ^(١)

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ أَبِي عِيْنَةَ: [الكامل]

فَدَعَ الْوَعِيدَ، فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي أَطْنِينَ أَجْنَحَةَ الذُّبَابِ يَضِيرُ؟^(٢)

لَا شَكَّ فِي أَنَّ الشَّاعِرَ يَسْخَرُ مِمَّنْ هَدَّاهُ وَأَوْعَدَهُ، وَالْاِسْتِفْهَامُ هَهُنَا يُفِيدُ مَعْنَى النَّفْيِ ابْتِدَاءً، أَيْ: لَيْسَ طَيْنُ أَجْنَحَةِ الذُّبَابِ بِضَائِرٍ أَحَدًا، وَلَكِنَّ هَذَا الْاِسْتِفْهَامَ أَفَادَ السُّخْرِيَّةَ حِينَ تَعَاضَدَ مَعَ التَّشْبِيهِ الضَّمْنِيِّ مِنْ تَشْبِيهِ وَعِيدِ خَصْمِهِ بِصَوْتِ الذُّبَابِ، وَأَسْهَمَا مَعَ النَّفْيِ فِي تَشْكِيلِ الصُّورَةِ السَّاخِرَةِ، ثُمَّ أَتَى رَدُّ الْعَجْزِ عَلَى الصَّدْرِ لِيُمْكِّنَ الْمَعْنَى فِي النَّفْسِ، فَقَوْلُهُ: (فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي) نَفْيٌ، وَسَوَالُهُ: (أَطْنِينَ أَجْنَحَةَ الذُّبَابِ يَضِيرُ) مُفِيدٌ النَّفْيِ كَمَا سَلَفَ، فَرَدُّ الْعَجْزِ عَلَى الصَّدْرِ أَكَّدَ مَعْنَى النَّفْيِ فِي نَفْسِ السَّامِعِ، وَهَذَا يَصُبُّ فِي خِدْمَةِ السُّخْرِيَّةِ الَّتِي صَنَعَهَا الشَّاعِرُ مِنْ هَذِهِ الْعُنَاوَةِ مُجْتَمِعَةً. عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَمْثَلَةَ الْأَخِيرَةَ لَيْسَ فِيهَا إِيْهَامٌ، بَلْ هِيَ سُخْرِيَّةٌ صَرِيحَةٌ تَوَسَّلَتْ بِالْاِسْتِفْهَامِ سَبِيلًا إِلَى تَمْكِينِ تَحْقِيرِ

(١) انظر: أنوار الربيع ١/ ٢٦٨.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٢١.

المسؤول عنه في نفس المتكلم؛ لأنَّ المتلقِّي حين يُعْمَلُ فِكْرُهُ في الإجابة عن هذا السؤال المجازي، ويستخلص هو الإجابة = يكون ذلك أدعى إلى رُسوخ المعنى في نفسه.

ولو قلَّت لَمَنْ بعثتَ إلى مُهِمٍّ، وأنتَ تراه عندك: (أما ذهبَ بعدُ؟) ^(١) امتنع أن يكون سؤالك متوجَّهاً نحو تصديق نسبة الذهاب إليه؛ لكونه معلوم الحال لديك، وما زال واقفاً أمام عينيك، بل السؤال مُتوجَّهٌ إلى الاستبطاء والتَّحْضِيض.

ولو قال طالبٌ: (آه.. متى سينتهي العامُّ الدِّراسيُّ؟) فظاهرُ كلامه الاستفسارُ عن الموعد الذي به ينتهي العامُّ الدِّراسيُّ، ولكن إذا كان هذا السَّائلُ عالِماً بموعد الانتهاء من الامتحانات؛ كان سؤاله خارجاً إلى معنى التَّمَلُّل أو التَّذمُّر من طول هذا العام، وبُطءِ نَفَادِ أَيَّامِهِ، وهذا ما يُسمُّونه «الاستبطاء» ^(٢)، وبالمقدور القول: إنَّ من الاستفهام ما يكون ظاهره السؤال، وباطنه يدعو إلى الإسراع في المسؤول عنه، ويُسمَّى الاستبطاء، وهذا إنَّما يُميِّزه من الاستفهام الحقيقيِّ القرائنُ التي تدلُّ المتلقِّي على أنَّ السَّائلَ لم يُردِّ الإجابة التي تُحدِّد موعد حصول هذا المسؤول عنه، بل أراد أن يُعبِّر عن معاناته من طول انتظار حصول الشيء المسؤول عنه.

وهذا الأمرُ على نوعين: أوَّلُهما أن يكون السَّائلُ عارِفاً بالجواب؛ كقول الطالب: (متى سينتهي العامُّ الدِّراسيُّ؟) فإنَّ فيه إيهامين: الأوَّلُ أنَّه يسأل، وفي الحقيقة هو يشتكي ولا يسأل، والإيهام الثاني أنَّه جاهلٌ بالجواب، والحقيقة أنَّه عالمٌ به، ولكنه يشعُرُ بتأخُّره. وثاني هذين النوعين ألا يكون السَّائلُ عارِفاً بالجواب، ولكنه في الغالب يكون مؤمناً بحصول المسؤول عنه، بيد أنَّه كما سلف يُعبِّر عن بُطءِ إتيانه وتأخُّره.

ومن ذلك قوله سبحانه حكايةً عن المؤمنين والرَّسول حين تأخَّر النَّصرُ عليهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ

(١) المثال مُستفاد من مفتاح العلوم ص ٤١٦.

(٢) انظر: معجم المصطلحات البلاغيَّة وتطوُّرها ص ١١٠.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ. مَتَى نَصَرَ اللَّهُ؟ أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿البقرة: ٢١٤﴾، أتت هذه الآية الكريمة تُثَبِّتُ فؤاد الرّسول ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَتُشَجِّعُهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، وتحكي لهم ما أتى على الذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ وَالْفَزَعِ، وبلغت بهم الشَّدَّةُ مَبْلَغًا حَتَّى يَقُولَ رَسُولُهُمْ مَعَهُمْ: ﴿مَتَى نَصَرَ اللَّهُ؟﴾ أي: «بَلَّغَ بِهِمُ الضَّجْرَ، ولم يبقَ لهم صَبْرٌ حَتَّى قَالُوا ذَلِكَ. ومعناه: (طَلَبُ الصَّبْرِ وَتَمَنِّيهِ، واستطالةُ زمانِ الشَّدَّةِ). وفي هذه الغاية دليلٌ على تناهي الأمرِ في الشَّدَّةِ وتماديهِ في الْعِظَمِ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ لَا يُقَادَرُ قَدْرُ ثَبَاتِهِمْ وَاصْطِبَارِهِمْ وَضَبْطِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، فإذا لم يبقَ لهم صَبْرٌ حَتَّى ضَجُّوا؛ كَانَ ذَلِكَ الْغَايَةَ فِي الشَّدَّةِ الَّتِي لَا مَطْمَحَ وَرَاءَهَا»^(١). وقال ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ): «(متى): استفهامٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي اسْتِبْطَاءِ زَمَانِ النَّصْرِ»^(٢). فقد استطالوا مُدَّةَ الْعَذَابِ وَاسْتَبْطَؤُوا مَجِيءَ النَّصْرِ. ومثُلُ ذَلِكَ إِنْ قَالَ الْمَغْتَرِبُ: (حَتَّى أَبْقَى غَرِيبًا بَعِيدًا عَنْ أَهْلِي وَأَرْضِي؟).

وإن قلتَ لشخصٍ: (إلى متى تظلُّ لاهيًّا؟)، أو (أما آنَ لك أن تتركَ التَّدخينَ؟) فإنَّ في ذلك استِبْطَاءً، ودلالةً على ضلالِ المخاطَبِ لا على مُعَانَاةِ المتكلِّمِ كما في الآية السَّابِقَةِ. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، فظاهرُ الكلامِ من حيثُ ظاهرُ البنية اللُّغَوِيَّةِ استِخْبَارٌ عَنْ زَمَنِ خَشَوْعِهِمْ، والمُرَادُ اسْتِبْطَاءُهم^(٣)، أي حَثُّهم على الخشوع، وأشار ابنُ فارس (ت ٣٩٥هـ) إلى أنَّ هَذَا الاسْتِفْهَامَ بِمَعْنَى الْإِغْرَاءِ وَالْحَثِّ^(٤)، وهذا الاسْتِفْهَامُ «يَتَضَمَّنُ عِتَابًا لَطَائِفَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَرَّتْ عَلَيْهِمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ مُدَّةٌ كَافِيَةٌ، كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَقُوا فِيهَا مِنْ دَرَجَةِ إِيمَانِ الْوَجَلِ إِلَى دَرَجَةِ إِيمَانِ الْخَاشِعِ»^(٥)، ومَّا يُوَكِّدُ مَا فِي هَذَا الاسْتِفْهَامِ مِنَ الْعِتَابِ قولُ ابنِ مسعود (ت ٣٢هـ): «مَا

(١) انظر: الكشاف ١/ ٤٢٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢/ ٣١٦.

(٣) انظر: الجنى الداني ص ٣٣، ومُغْنِي اللَّيْبِ ١/ ٢٧.

(٤) انظر: الصَّاحِبِيُّ ص ٣٠٣.

(٥) انظر: البلاغة العربية (أسسها، وعلوُّها، وفنونها) ١/ ٢٨٠.

كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ (عُوتِبْنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا أَرْبَعُ سَنِينَ)^(١)، وَأَشَارَ إِلَى مَعْنَى الْاسْتِبْطَاءِ فِيهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ (ت ٥٠ هـ) رحمته الله؛ بِقَوْلِهِ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَبْطَأَهُمْ وَهُمْ يَقْرَأُونَ مِنَ الْقُرْآنِ أَقْلَ مَا تَقْرَأُونَ، فَانْظُرُوا فِي طَوْلِ مَا قَرَأْتُمْ مِنْهُ وَمَا ظَهَرَ فِيكُمْ مِنَ الْفُسْقِ»^(٢)، وَقَدْ أَشِيرَ إِلَى الْمَعْنَيْنِ فِي قَوْلِ حَبْرِ الْأُمَّةِ ابْنِ عَبَّاسٍ (ت ٦٨ هـ) رحمته الله؛ إِذْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اسْتَبْطَأَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، فَعَاتَبَهُمْ»^(٣)، وَقَدْ أَلَمَحَ ابْنُ عَاشُورٍ (ت ١٣٩٣ هـ) إِلَى مَعْنَى لَطِيفٍ، وَهُوَ أَنَّ الْخُطَابَ فِي الظَّاهِرِ لِعَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَعَلَّ الْمَقْصُودَ بِهِ مَنْ قَصَرَ مِنْهُمْ؛ إِذْ قَالَ: «وَالْمَقْصُودُ مِنَ (لِلَّذِينَ آمَنُوا): إِمَّا بَعْضُ مِنْهُمْ رُبَّمَا كَانُوا مُقْصَرِينَ عَنْ جُمْهُورِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ فَأَرَادَ اللَّهُ إِيقَاطَ قُلُوبِهِمْ بِهَذَا الْكَلَامِ الْمُجْمَلِ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ وَأَقْوَالِ الرَّسُولِ صلوات الله عليه فِي التَّعْرِيزِ، مِثْلُ قَوْلِهِ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا؟»^(٤)، وَبِالْإِجْمَالِ فَإِنَّ هَذَا الْاسْتِفْهَامَ يَكُونُ ظَاهِرُهُ سُؤلاً، وَبَاطِنُهُ اسْتِبْطَاءُ الْمَسْئُولِ عَنْهُ، وَهَذَا يَشِي بِمَعَانَاةِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَمِيقَةِ، وَأَظُنُّ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ تَصْلُحُ لِدَرَاةِ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ لِلْأَدِيبِ، وَهُوَ يُبْدِعُ نَصَّهُ، فَإِنْ قَالَ سَاهِرٌ يَتَأَلَّمُ مِنْ أَضْرَاسِهِ، وَلَا يَلْقَى طَبِيباً فِي اللَّيْلِ: (مَتَى تَأْتِي أَيُّهَا الصَّبَاحُ؟) فَإِنَّ هَذَا الْاسْتِفْهَامَ مِرَاةً تَعَكِّسُ مَعَانَاةَ الْمُتَكَلِّمِ.

وَلَوْ قَرَأْنَا الْعِبَارَةَ الْآتِيَةَ: (كَيْفَ سَتَنْجَحُ؟) فَظَاهِرُهُ أَنَّهُ سُؤْلٌ لِلْمَخَاطَبِ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي سَيَنْجَحُ بِهَا، وَلَكِنْ لَوْ دَرَيْنَا أَنَّ السُّؤَالَ مِنْ أَبِي لَابِنِهِ الْمُقْصَرِ الَّذِي لَا يُتَابِعُ دَوْرَسَهُ وَلَا يَحْرُصُ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبَاتِهِ، فَضْلاً عَنْ تَغْيِيهِ الْمُتَكَرِّرَ عَنِ الْمَدْرَسَةِ؛ لَتَيَقَّنَّا أَنَّ الْأَبَ لَمْ يُرِدِ الْاسْتِفْسَارَ مِنْ ابْنِهِ عَنِ كَيْفِيَّةِ نَجَاحِهِ مُسْتَقْبَلاً، بَلْ أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَهُ بِأَنَّ نَجَاحَهُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مُسْتَبْعَدٌ أَوْ مُشْكُوكٌ فِي حَدُوثِهِ. وَمِثْلُ ذَلِكَ إِنْ قَالَتِ الشَّكْلَى: (أُحْسِنُ بِأَلْمِي مَنْ لَمْ يَفْقِدِ ابْنَ قَلْبِهِ؟) فَهِيَ تَسْتَبْعِدُ أَنْ يَحْزَنَ حُزْنَهَا مَنْ لَمْ يُصَبِّ بِمُصَابِهَا.

(١) انظر: الكشاف ٤٨/٦.

(٢) انظر: الكشاف ٤٨/٦.

(٣) انظر: الكشاف ٤٨/٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣٩٠/٢٧.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِذَاؤُنَا أَينًا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزهد: ٥]، ومما اجتمع فيه الاستبعاد والتعجب قوله تعالى حكاية عن سارة زوج إبراهيم عليه السلام حين بشرتها الملائكة بالحمل: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧١) قَالَتْ يَتُولىَّ ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧١-٧٣].

فاستفهامها «استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله»^(١)، وتعجب من ولادة ولد لأبوين هرمين، ولا يخفى أن استفهام الملائكة تعجب من تعجبها، وتنبية على ضلالها بأنه لا ينبغي أن تتعجب من قدرة الله تعالى. وأشار ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) إلى علة تعجبها بقوله: «والتعجب بأن يؤلدها ابنٌ ويعيش وتعيش هي حتى يؤلدها لابنها ابنٌ؛ وذلك أدخل في العجب؛ لأن شأن أبناء الشيوخ أن يكونوا مهزولين لا يعيشون غالباً إلا معلولين، ولا يؤلدهم في الأكثر، ولأن شأن الشيوخ الذين يؤلدهم ألا يدرِكوا يقع أولادهم، بل أولاد أولادهم... والاستفهام في ﴿ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ مُستعمل في التعجب»^(٢).

ولو قال الأب لابنه: (أجني: كم مرة حذرتك من هذا الصديق؟) فظاهر الكلام سؤال ينتظر الإجابة، وحقيقته إخبار بالكثرة مصحوب بتوبيخ وتنبية على الضلال، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَمٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]، وهذا أيضاً ظاهره سؤال ينتظر الإجابة بدلالة قوله: ﴿سَلِّ﴾، والمراد أن ما أتاهم من البينات كثير العدد، لكنهم مع ذلك مكابرون، وقال

(١) انظر: الكشف ٢/٣١٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٢/١١٩-١٢٠.

الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): «وهذا السؤال سؤال تفریع»^(١)، وقال أبو السَّعود (ت ٩٨٢هـ): «والمراد بالسؤال تبكيته وتقریعهم بذلك، وتقریر لمجيء البينات»^(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فظاهره السؤال عمن له القدرة على الشفاعة عنده ﷺ دون إذنه، وحقيقته النفي كما سلف، وهذا النفي خارج إلى معنى التعظيم؛ لأن فيه تقرير الوجدانية، وقصراً للقدرة والملكووت والجبروت والكبرياء عليه وحده سبحانه وتعالى.

ومن ذلك قول العرجي: [الوافر]

أضاعوني، وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر؟^(٣)

فالشاعر لا يريد أن يسأل: من هو الفتى الذي أضاعوا؟ بآية قوله: أضاعوني، وإنما يريد أن يقول: إنهم أضاعوا فتى عظيم الشأن، رفيع المنزلة، شجاعاً مقداماً في الحروب، سديد القول والتدبير في الكلام والمنافحة عن قومه، لأن سداد الثغر ههنا تحتمل الثغر الذي يخشى قدوم العدو منه، وهذا الذي يرجح المقام، وهذا يكون سده بالخيال والرجال، وتحتمل الفم، ويكون هذا من المجاز وعلاقته الآلية، لأنه ذكر آلة الكلام (الثغر) وأراد به الكلام السديد الذي يصيب ولا يخيب. وكذا لو قلنا في رثاء عزيز: (من للفقراء بعدك؟ ومن للمحافل والبيان بعدك؟ ومن يرد عتاً ظلم الأعادي؟) فكأننا قلنا: إنه يقري الأحباب كرمًا وبيانًا، ويقري الأعداء سيوفًا ورماحًا، ولا أحد سواه يتمكن من ملء الفراغ الذي خلفه، فكان هذا الاستفهام خارجاً إلى معنى النفي المفضي إلى التعظيم، وفيه معنى التفجع والتحسر أيضاً.

وأما الاستفهام في قوله تعالى سائلاً نبيه ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ ٦ ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ٧ ﴿وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦-٨]، فإنه في الحقيقة ليس سؤالاً، فجّل جلاله لا ينتظر

(١) انظر: الكشف ١/٤١٩.

(٢) انظر: تفسير أبي السَّعود ١/٢١٣.

(٣) انظر: ديوان العرجي ص ٣٤.

من نبيّه جواباً بأن يقول: بلى وجدّنتي يتيماً فأوتيتني، أو نعم لم تجدني يتيماً، بل المراد تذكيره؛ ليفكر في نفسه ويتأمل نعمة الله عليه، ومثله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

وأما قول فرعون لموسى عليه السلام حين أتاه يدعوهُ إلى عبادة الله: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِيَنَا وَلِيدًا وَلَيْسَتْ فِيْنَا مِنْ عَمْرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿ [الشعراء: ١٨-١٩] فإن فرعون أيضاً لم يكن ينتظر من موسى جواباً لأمر لا مندوحة لإنكاره، بل أراد أن يحملهُ على الإقرار بما يعرفان ويعرف الجميع ثبوته؛ فإن فرعون أعرَضَ عن الاعتناء بإبطال دعوة موسى، وعدل إلى تذكيره بنعمه عليه، وتخويفه من جنائيه كُتِيَ عنها، فقد عدّد عليه نعمته؛ من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال، ووبّخه بما جرى على يده من قتل ذلك الفرعوني، وعظّم ذلك وفضاعته، ثم هو من بعد ذلك يكفر بنعمه هذه^(١)، وفي هذا الاستفهام حمل لموسى على الإقرار بهذه النعم، وتذكير له بها من باب المنّة والفضل، وفي هذا أيضاً توبيخ له يُظهره بمظهر مُنكر الجميل في عيون الملأ، وكأنّه يقول له: إنّ لنا عليك من الحقّ «ما ينبغي أن يمنعك من مواجهتنا بمثل هذا»^(٢). وأما ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) فيرى أنّه استفهام تقريريّ، وأنّه «جعل التقرير على نفى التربية مع أنّ المقصود الإقرار بوقوع التربية؛ مجازاً لِحَالِ موسى في نظر فرعون؛ إذ رأى في هذا الكلام جرأة عليه لا تُناسب حال من هو مَمْنُونٌ لأسرته بالتربية؛ لأنّها تقتضي المحبة والبرّ، فكأنّه يُرخي له العنان بتلقيّن أنّ يجحد أنّه مُربّى فيهم، حتّى إذا أقرّ ولم يُنكر، كان الإقرار سالياً من التعلّل بخوف أو ضغط، فهذا وجه تسليط الاستفهام التقريريّ على النفي في حين أنّ المقرّر به ثابت. وهذا كما تقول للرجل الذي طال عهدك به: ألسنت فلاناً؟ ومثله كثير»^(٣). ولا يخفى ما أضفاه ضمير جماعة المتكلّمين ﴿أَلَمْ تُرَبِّكْ فِيْنَا وَلِيدًا؟﴾ من مظاهر العظمة والأبهة على فرعون، ولا سيّما عندما قرّنه بكلمة ﴿وَلِيدًا﴾ ليصنع المفارقة ويبيّن قلة قدر موسى في حضرته.

(١) انظر: الكشف ٤/ ٣٨٣.

(٢) انظر: نظم الدرر ٢١/ ١٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٩/ ١١١.

ومن ذلك قول جرير يمدح عبد الملك: [الوافر]

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْسَى الْعَالَمِينَ بَطْوَنَ رَاحٍ؟^(١)

فلعلَّ سامعاً يتوهم أنَّ جريراً يسأل على الحقيقة، فيأتيه جوابُ أبي عُبَيْدَةَ (ت ٢٠٩ هـ): «لم يستفهم، ولو كان استفهاماً ما أعطاهُ عبدُ الملك مئةً من الإبل بُرْعَاتِهَا»^(٢)، وفي موضعٍ آخر قال: «فهذا لم يشكَّ، ولكنَّ أوجبَ لهم أنَّهم كذلك، ولولا ذلك ما أثابوه»^(٣). وهذان القولان يدلان على إحساس أبي عُبَيْدَةَ بما تفعله مثل هذه التراكيب من إيهامٍ للمتلقي، ولولا أنَّه رأى أناساً وقعت في الوهم، وفهمت الاستفهام على غير وجهه؛ ما قالَ هذا الكلام، ولما قالَ بعده ابنُ الشَّجَرِيِّ (ت ٥٤٢ هـ): «لو قال جريرُ هذا على جهة الاستخبار لم يكن مدحاً... وكيف يكون استفهاماً، وقد جعل الرواة لهذا البيت مكاناً عليّاً، حتَّى قال بعضهم: هو أمدح بيت»^(٤)

ويُشترطُ كما رأيت أن يُذكرَ بعدَ الهمزة ما حُمِلَ المخاطب على الإقرار بها يعرفُ إثباتاً أو نفيّاً، وقد جاءت الهمزةُ للتقرير بالفاعل في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] فليس المرادُ بالسؤال أن يُقرَّ عيسى عليه السلام أنَّ هذا الكلام قيل في حقِّ الله سبحانه أم لا، بل المطلوبُ أن يُقرَّ بأنَّه هل كان منه هو هذا الكلام أم لا، والله تعالى يعلم أنَّ رسوله عيسى لم يقلْ بذلك، ولكنه أراد أن يفضح افتراء مَنْ ادَّعى ذلك كذباً وكفرَ بوحداية الله، ويُعلن بطلانَ دعواهم، وفي ذلك توبيخٌ شديدٌ وتقريعٌ لهم، وفيه أيضاً إقامةُ الحُجَّةِ على كلِّ مَنْ يُتابعُ ادِّعاء هؤلاء.

(١) انظر: ديوان جرير ١/ ٨٩. (ط ٤).

(٢) انظر: مجاز القرآن ١/ ١٨٤.

(٣) انظر: مجاز القرآن ١/ ١١٨.

(٤) انظر: أمالي ابن الشَّجَرِيِّ ١/ ٤٠٥.

وقد علّق عبدُ القاهر (ت ٤٧٤هـ) على قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَتَتْ فَأَعْلَتْ هَذَا إِشْرَافًا مِنَّا بِرَبِّهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٢] بقوله: «لا شُبْهَةَ فِي أَتَمُّهُمْ لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ لَهُ - ﴿الْبَيْتُ﴾ - وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُقَرَّرَ لَهُمْ بِأَنْ كَسَرَ الْأَصْنَامَ قَدْ كَانَ، وَلَكِنْ أَنْ يُقَرَّرَ بَأَنَّهُ مِنْهُ كَانَ»^(١)، ومعنى التّقرير ههنا: «حَمَلَ الْمُخَاطَبَ عَلَى الْإِقْرَارِ بِمَا يَعْرِفُهُ، وَالْجَاوِزَ إِلَيْهِ»^(٢)، وقال ابنُ هشام (ت ٧٦١هـ): «وَالْأَوَّلَى أَنْ تُحْمَلَ الْآيَةُ عَلَى الْإِنْكَارِ التَّوْبِيخِيِّ أَوْ الْإِبْطَالِيِّ»^(٣).

وإن رأيتَ فتى يضربُ أباهُ فسألتَه: (أَتَضْرِبُ أَبَاكَ؟) فليس مطلوبُك بالاستفهامِ التّصديقَ بحالٍ ضربه لأبيه، لكونه حاصلًا؛ لأنّك تراه عيانًا، وإنّما مرادُك ههنا الإنكارُ التّوبيخيّ، وكأنّك تقول: كَيْفَ تَسْتَحْسِنُ أَنْ تَضْرِبَ أَبَاكَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِكَذَا وَكَذَا؟

وأمّا قوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصّافات: ١٥٣] فإنّ هذا الكلامَ، وإن كانَ بهيئةِ الاستفهامِ، لا ينتظرُ جوابًا، بل هو إنكارٌ لما قال به الكافرون^(٤)، قال عبدُ القاهر (ت ٤٧٤هـ): «هذا رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَتَكْذِيبٌ لَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ»^(٥)، وقال فيه الزّخشيُّ (ت ٥٣٨هـ): «استفهامٌ على طريقِ الإنكارِ والاستبعاد»^(٦)، فهذا استفهامٌ للإنكارِ والتّكذيبِ.

وأمّا قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] فإنّكارٌ لا للتّكذيبِ، بل للتّوبيخِ على فعلتهم، وهذا ما يقودُ إلى التّعجيبِ من حالهم^(٧)، ومنه في الشّعْرُ لِلْإِنْكَارِ وَالْإِسْتِبْعَادِ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ: [الطويل]

أَيَقْتُلُنِي وَالْمُشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقُ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالِ؟^(٨)

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص ١١٣.

(٢) انظر: المطول ص ٤١٩.

(٣) انظر: مغني اللبيب ٢٧/١.

(٤) انظر: الجنى الداني ص ٣٣.

(٥) انظر: دلائل الإعجاز ص ١١٤.

(٦) انظر: الكشف ٢٣٢/٥.

(٧) انظر: التّحرير والتّنوير ٤٧٤-٤٧٥.

(٨) انظر: ديوان امريئ القيس ص ٣٣.

فهذا تكذيبٌ منه لإنسانٍ تهدَّدهُ بالقتل، وإنكارٌ أن يَقْدِرَ على ذلك وَيَسْتَطِيعَهُ^(١).

وأما الاستفهامُ الواردُ في مثل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١-٣]، و﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرُ﴾ [المدثر: ٢٦-٢٨]، فإنه ليس استفهاماً على وجه الحقيقة، بل تهويلٌ وتعظيمٌ لشأنِ المسؤولِ عنه، وتشويقٌ لشأنِ الخيرِ المسوقِ عنه، وقد قال الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ (١) مَا الْحَاقَّةُ ۝ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣]: «(وما أدراك): وأيُّ شيءٍ أعلمك ما الحاقة؟؛ يعني: أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظيمها، على أنه من العظم والسُدَّة بحيث لا يبلغه درايةٌ أحدٍ ولا وهمه، وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك»^(٢)، من ذلك: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، وقد قال أبو السعود (ت ٩٨٢ هـ): «هو استفهامٌ أُريدَ به التعجبُ ممَّا في حيزه، والتشويقُ إلى استماعه، والإشعارُ بأنَّه من الأحاديثِ البديعةِ التي حقُّها أن يتناقَلها الرُّواة ويتنافس في تلقِّيها الوُعاة من كلِّ حاضرٍ وبادٍ، والغاشيةُ الدَّاهيةُ الشَّديدةُ التي تَغشى النَّاسَ بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها»^(٣)، وذهب ابنُ عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) إلى أنَّ الابتداءَ بهذا الاستفهامِ يُشوقُ المُتلقِّي إلى تعرُّفِ هذا الخبرِ الآتي، فهو استفهامٌ صوريٌّ يُكَنَّى به عن أهميَّة الخبر، بحيثُ من شأنِ مثلِ هذا الخبرِ أن يكونَ بَلغَ السَّامعِ^(٤).

وإن قال أستاذُ لتلميذٍ شكسٍ: (ألم أُؤدِّبْ فلاناً؟)^(٥)، فلعلَّ سامعاً يتوهمُ أنَّ الأستاذَ ينتظرُ من تلميذه أن يردَّ إيجاباً أو نفيّاً، بيدَ أنَّ هذا السَّامعَ إن درى أنَّ التلميذَ المخاطَبَ يعلمُ بذلك التَّأديبَ المعهودَ بينَ طرفي الرسالةِ المرسلِ والمرسلِ إليه؛ = أدرك أنَّ الأستاذَ إنَّما أرادَ تذكيره وتهديده على جهةِ التَّعريضِ.

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص ١١٧، والطراز ١٠٩/٢.

(٢) انظر: الكشف ١٩٤/٦.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ١٤٨/٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٩٤/٣٠.

(٥) المثال مُستفادٌ من مفتاح العلوم ص ٤١٦.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦] فالاستفهام ههنا تقريرى؛ وخطب به النبي ﷺ؛ تثبيتاً له، ووعداً بالنصر، وتعريضاً للمعاندين بالإنذار بمثله؛ لأن التذكير بالنظائر واستحضار الأمثال يُقَرِّبُ إلى الأذهان الأمر الغريب الوقوع؛ لأن بُعد العهد بحدوث أمثاله يُنْسِيهِ النَّاسُ، وإذا نُسِيَ استبعد النَّاسُ وقوعه، فالتذكير يُزِيلُ الاستبعاد^(١).

ومما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦]؛ فلو تأملنا في سياق هذا الاستفهام وسباقه لتيقننا من خروجه إلى معنى التقرير وما يليه من الوعيد على جهة التعريض؛ فسبحانه يقول: ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥-١٩] فقد أتى وعيد المكذبين بالويل، ثم جاء الاستفهام ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ؟﴾، ثم أتى ما يؤكد أن هذا الاستفهام تهديدٌ للمخاطب على جهة التعريض عندما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، ثم أعاد تعالى وعيد المكذبين بالويل، وهذا يدلُّ على أن هذا الاستفهام المستأنف به والمعرّض بين هذين الوعدين للمكذبين السابقين ما هو إلا تمكينٌ لهما في جهة المكذبين الذين كانوا زمن نزول هذه الآية، أي: كما فعلنا بالمكذبين في القرون الأولى والأمم السالفة سنفعل بأمثالهم منكم ومن الأمم اللاحقة، ومثله قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ۝١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢-١٠٣].

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ بِمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] فقد يتوهم سامع أنه سؤال عن حقيقة ما بيده أو ماهيته، ولذا قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ): «فظاهر الاستفهام أنه سؤال عن شيء أشير إليه...، ولذلك أجاب موسى عن هذا الاستفهام ببيان ماهية المسؤول عنه؛ جرياً على الظاهر»^(٢).

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/٣١٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٦/٢٠٥.

والسَّائِلُ ﷺ يعلمُ ما في السَّمَاوَاتِ وما في الأَرْضِ ويعلمُ ما تُخْفِي الصُّدُورُ، فهل تخفى عليه عصا موسى ﷺ؟، ولكنَّ هذا الاستفهامَ مُؤانسةً لموسى في هذا الموقف وما فيه من الجلال والرَّهْبوت والخوف والخشوع في حضرة ربِّ العالمين، ويحسُن الاستفهامُ ويكونُ إيناساً للسَّامع حينَ يكونُ المخاطَبُ في مقامِ جلالٍ وهيبَةٍ ورهبةٍ؛ فيطرَحُ عليه المتكلِّمُ أسئلةً هو عالمٌ بجواباتها، وذلك بقصدِ مُؤانسته ودفعِهِ إلى التَّحدُّث؛ ومن ذلك قولُ الزوجِ لعروسِهِ في ليلةِ عُرُسهما: مَنْ أَهْدَاكَ هَذَا الْعِقْدَ النَّفِيسَ؟ مِنْ أَيْنَ جِئْتَ بِهَذَا الشَّعْرِ الذَّهَبِيِّ الْجَمِيلِ؟ ماذا تُحِبِّينَ أَنْ يَكُونَ بِكَرُّكَ؟ ذَكَراً أَمْ أُنْثَى؟

ومثل ذلك أَنْ يَفِدَّ ضَيْفٌ عَلَى قَرِيبٍ لَهُ عَظِيمِ الْقَدْرِ وَالْمَكَانَةِ، فَيُيَادِرُهُ الْمَضِيفُ بِالْقَوْلِ: كَمْ اسْتَغْرَقْتَ مَعَكُمْ الرِّحْلَةَ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى حَلَبَ؟ وَهَلِ الْجَوْ عِنْدَكُمْ صَحْوٌ كَمَا عِنْدِنَا؟ وَهَلِ الْأَهْلُ جَمِيعاً بِخَيْرٍ؟ أَمَا زَالَ أَخَوُكَ أَوْسٌ يَدْرُسُ فِي جَامِعَةِ دِمَشْقَ؟ أَلَمْ تَتَزَوَّجْ أَخْتُكَ لَيْلى؟ وَهُوَ عَارِفٌ بِكُلِّ ذَلِكَ؛ قاصداً إلى تهذئةِ خواطرِ الزَّائرِ، ومُؤانسةً.

وقد ذَهَبَ الزَّمَخْشَرِيُّ (ت ٥٣٨ هـ) إِلَى أَنَّ هَذَا الاسْتِفْهَامَ ﴿مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى؟﴾ يُفِيدُ تَثْبِيتَ حَقِيقَةِ الْعَصَا فِي ذَهْنِ مُوسَى قَبْلَ أَنْ تَنْقَلِبَ حَيَّةً تَسْعَى، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ: انْظُرْ، إِنَّمَا تَحْمِلُ بِيَدِكَ عَصَا؛ إِذْ قَالَ: «إِنَّمَا سَأَلَهُ لِإِرْيَةِ عِظَمَ مَا يَخْتَرِعُهُ - عَزَّ وَعَلَا - فِي الْحَشَبَةِ الْيَابِسَةِ؛ مِنْ قَلْبِهَا حَيَّةٌ نَضْاضَةٌ [أَي: تُحَرِّكُ لِسَانَهَا فِي فَمِهَا]، وَلِيَقَرَّرَ فِي نَفْسِهِ الْمَبَايِنَةَ الْبَعِيدَةَ بَيْنَ الْمَقْلُوبِ عَنْهُ وَالْمَقْلُوبِ إِلَيْهِ، وَيَنْبِئُهُ عَلَى قَدَرَتِهِ الْبَاهِرَةِ. وَنَظِيرُهُ أَنْ يُرِيكَ الزَّرَادُ زُبْرَةً مِنْ حَدِيدٍ، وَيَقُولَ لَكَ: مَا هِيَ؟ فَتَقُولَ: زُبْرَةٌ حَدِيدٍ، ثُمَّ يَرِيكَ بَعْدَ أَيَّامٍ لَبُوساً مُسَرَّداً فَيَقُولَ لَكَ: هِيَ تِلْكَ الزُّبْرَةُ صَيَّرْتُهَا إِلَى مَا تَرَى مِنْ عَجِيبِ الصَّنْعَةِ وَأَنِيقِ السَّرْدِ»^(١).

وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي الْبَقَاءِ الرَّنْدِيِّ: [البسيط]

فاسأل بَلَنَسِيَّةً: مَا شَأْنُ مُرْسِيَّةٍ أَمْ أَيْنَ شَاطِئَةٍ، بَلْ أَيْنَ جَيَّانٍ؟
وَأَيْنَ قَرطَبَةٌ دَارُ الْعُلُومِ، فَكَمْ مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَأْنٌ؟^(٢)

(١) انظر: الكشَّاف ٧٤/٤.

(٢) انظر: نفح الطَّيِّب ٤٨٧/٤.

فإنَّه - وإنَّ كانَ في الظَّاهرِ استفهاماً - ليس سوى تفجُّعٍ وتحسُّرٍ؛ لأنَّ أبا البقاء يبكي بألمٍ حواضرِ
الأندلس التي سقطتْ في أيدي الإفرنج، ويتذكَّرُ عهودَ العزِّ والحضارةِ التي نشرها المسلمون في تلك
الدِّيار.

وبالجُملةِ فإنَّ الاستفهامَ حيثُ يمتنعُ حملُه على حقيقته؛ فلا بُدَّ أن يُلتَمَسَ له معنًى بلاغيٌّ يكشفُ
عن سرِّ تشكيكه الجماليِّ واثتلافه مع مُكوِّناتِ النِّظمِ الأخرى في السِّياقِ ذاته، وإنَّ هذا المعنى البلاغيَّ
يتعذَّرُ على المتلقِّي تحديده إلا بمعونةِ السِّياقِ وقرائنِ الأحوال، ومتى غابت القرائنُ والسِّياقُ عن
المتلقِّي فإنَّه مُعرَّضٌ للوقوعِ في الوهم، وإنَّ العبارةَ الاستفهاميَّةَ الواحدةَ قد توحى للمتلقِّي - بعد
اطِّلاعه على كُلِّ الحيثيَّاتِ المحيطة بها - بمعانٍ عدَّةٍ تجتمع في العبارةِ نفسِها، ولا حصرَ للمعاني
المجازيَّةِ التي قد ينزاحُ إليها الاستفهامُ، ولا ضابطَ لأكثرِها سوى الذَّوقِ المرهفِ، والطَّبعِ الأدبيِّ
السَّليمِ، والبَصَرُ في القرائنِ والسِّياقاتِ.



الباب الثاني

دراسة تطبيقية لمفهوم الإيham البلاغي
في شعر أبي تمام والبحتري

مدخل إلى دراسة الإيهام البلاغي شعر الطائيين

أولاً - تعريف بالطائيين:

درج الدارسون الذين يتصدون لدراسة شاعر أن يُقدّموا بين يدي دراستهم بُدأً من حياة الشاعر، وعصره، وبيئته، وطُرفاً من أخباره، يتوخون فيها أن تكون مدخلاً لدراسة فنّه، ورأيت بعضهم يُسرف في ذلك حتّى تُلهيه الأسباب عن بلوغ النتائج، وهذه الملاحظة لا أحسبها تنطبق على أناس أكثر من انطباقها على الدراسات التي أُلقت حول الطائيين، ولا سيما أبي تمام، ومن المسلم به أن هذين الرجلين وثالثهما المتنبي قد أشغلوأ أهل الأدب والبلاغة بالخصومات النقدية التي دارت حول كلٍّ، وليس ثمّ دارسٍ للأدب وفنونه إلّا وله علمٌ بأخبار هؤلاء الثلاثة؛ لذا نَحْدُثُ الإيجاز سبيلاً في التعرّيج على ملامح من سيرة كلٍّ من الطائيين بما يخدم موضوع البحث لا أكثر.

١ - أبو تمام (١٨٨هـ - ٢٣١هـ):

هو حبيب بن أوس الطائي، وبعضهم يُسمّيه (الطائي الكبير)^(١)، أو (الطائي الأكبر)^(٢)، تميّزاً له من (الطائي الأصغر) الذي يُقصّد به تلميذه البحتري. وكان أبو تمام شاعرَ زمانه، واتفقت المصادر على تميّزه بذكاءٍ حادٍّ مُتّقِدٍ، وعقلٍ راجحٍ، وحافظةٍ قويّةٍ، وبديهةٍ سريعةٍ، حتّى ذُكِرَ أنّه كان يُجيبُ مَنْ يُكلّمه قبلَ انقضاءِ كلامه؛ كأنّه علِمَ ما يقولُ فأعدّ له جوابه^(٣)، وساعدته هذه الملكة على التّفنّن في صناعة الأعياب الإيهام البلاغي في شعره كما سترى.

وقد وُلِدَ أبو تمام في قرية من حوران في بلاد الشام، يُقال لها: (جاسم)^(٤)، وتاريخ ولادته مختلفٌ فيه بين (١٨٨هـ)، أو (١٩٠هـ)^(٥).

(١) انظر: الخصائص ١/١٩١، ٣٠١، ٣٤٤ - ٤٧/٢، ١٢٤ - ١٦٧/٣، ٢٧١.

(٢) انظر: الموازنة ٦/١.

(٣) انظر: أخبار أبي تمام ص ٧٢، وعبريّة أبي تمام ص ٩.

(٤) انظر: معجم البلدان ٢/٩٤.

(٥) انظر: أخبار أبي تمام ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

وتُنفِذُ المصادِرُ أَنَّ أبا تَمَّامٍ نشأ في أُسْرَةٍ فقيرةٍ انتقلت من جاسم إلى دمشق، فعَمِلَ - وهو غُلامٌ - عند حائكٍ^(١)، ثُمَّ لَمَّا أَسْلَمَ وحده من دون عائلته نَزَحَ إلى مِصرَ، فَهَلَلَ من حلقاتٍ مساجِدِها العلومَ والمعارِفَ (وخاصَّةً مسجدَ عَمْرِو بنِ العاصِ) الذي كان أشبهَ بجامعةٍ متنوّعةِ العُلومِ والمعارِفِ والتَّخصُّصاتِ^(٢)، وفي تلك الأجوَاءِ العلميَّةِ تَفَتَّحتُ أزاهيرُ شِعْرِ أبي تَمَّامٍ. وتوالَتْ أسفارُه على الممدوحين في الأصقاع، فما يكادُ أبو تَمَّامٍ يَضَعُ عصا السَّفَرِ عن عاتقه إلَّا وقد أزمَعَ السَّفَرُ إلى ممدوحٍ آخرٍ؛ حتَّى قيل فيه: «أبو تَمَّامٍ شاعرُ أسفارٍ وعَناءٍ وتأمُّلاتٍ»^(٣)؛ وهنا نتذكَّرُ قوله: [البسيط]

بِالشَّامِ أَهْلِي، وَبَغْدَادُ الْهَوَى، وَأَنَا بِالرَّقَّتَيْنِ، وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِهَا صَنَعْتُ حَتَّى تُطَوِّحَ بِي أَقْصَى خُرَاسَانَ^(٤)

وأطبقت المصادِرُ على أَنَّ أبا تَمَّامٍ أَمِيرٌ من أُمراءِ البيانِ، بَزَّ أقرانه حِفْظاً ونَظْماً وجمْعاً (اختياراً وانتقاءً)، وإنَّ نظرةً في ديوانه تدلُّك على سَعَةِ معارفه وغزارةِ عِلْمِهِ؛ ففي هذا الشَّعر تجلُّ الحِكمُ الجليلةُ، والمعارِفُ والإشاراتُ إلى علومٍ مُتنوّعةٍ كالقرآن الكريم، والنَّحو، والتَّاريخ، وعِلْمُ الكلام، والمذاهب الفلسفيَّة^(٥)، وحسبُه في ذلك شهادةُ أبي الطَّيِّبِ (ت ٣٥٤هـ) إذ قال فيه: «هو أستاذُ كُلِّ مَنْ قَالَ الشَّعْرَ بَعْدَهُ»^(٦)، وروى الصُّوَيْفِيُّ (ت ٣٣٥هـ) عن المبرِّدِ (ت ٢٨٥هـ) قوله: «ما سَمِعْتُ الحَسَنَ بنَ رجاءٍ ذَكَرَ قَطُّ أبا تَمَّامٍ إلَّا قال: ذاك أبو التَّمَّامِ، وما رأيتُ أعلمَ بكلِّ شَيْءٍ مِنْهُ»^(٧)، وفيه قال تلميذه البحتريُّ: «والله.. لو رأيتُ أبا تَمَّامٍ الطائِيَّ، لَرَأَيْتُ أَكْمَلَ النَّاسِ عَقْلاً وأدباً، وعلمتُ أَنَّ أَقْلَ شَيْءٍ فِيهِ شَعْرُهُ!»^(٨).

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق ١٢/ ١٩.

(٢) انظر: تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٨.

(٣) انظر: أبو تَمَّامٍ (د. علي شلق) ص ١٠٨.

(٤) انظر: ديوان أبي تَمَّامٍ ٣/ ٣٠٩ - ٣١٠.

(٥) انظر: مصادر الفكر في شِعْرِ أبي تَمَّامٍ ص ١١ وما بعدها.

(٦) انظر: الصَّبْحُ المنبِي عن حيثة المتنبِّي ص ١٧٤.

(٧) انظر: أخبار أبي تَمَّامٍ ص ١٧١.

(٨) انظر: أخبار أبي تَمَّامٍ ص ١٧١.

وذكرت المصادر أنه كان يحفظ أكثر من أربعة عشر ألفاً أرجوزة غير القصائد والمقطعات^(١)، وكان بعض علماء العربية وثقاة الشعر الأفاضل تستوقفهم مخالفات أبي تمام فيتحرّجون من تغليطه، وهذا أحدهم عند وقوفه على لفظ أو تركيب أو صورة مما عيب على أبي تمام، يقول: «يجوز أن يكون أبو تمام سمعها من شعر قديم؛ لأنه كان مستبحراً في الرواية»^(٢)، وهذا العالم بالعربية نحوها وبلاغتها وبالتفسير وباللغة العلامة الزخشي^(٣) (ت ٥٣٨ هـ) يدعو إلى إجازة الاستشهاد بشعره، وإن لم يكن من عصر الاحتجاج؛ إذ يقول: «وهو - وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة - فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه»^(٤). وإن مما يدعوك إلى الدهشة سعة المادة اللغوية في ديوان أبي تمام، وفي ذلك يقول د. محمد نجيب البهيتي: «وديوان أبي تمام أغزر الدواوين، وأكثرها عدداً لفظاً، فإن سعة مادته اللغوية تدعو إلى الدهشة، وإن الإنسان لیسائل نفسه عن مقدار ما كان الشاعر يلم به من مفردات اللغة، وإذا كانت هذه المجموعة الضخمة هي مقدار ما كان يجري منها على لسانه ويستعمله في شعره»^(٥)، وقال في لغته الأستاذ عبد السلام هارون: «فكثير من ألفاظه قد نفوت ما وصل إلينا من معاجم... حتى ليظن المتعجل أن الرجل قد أخطأ، وهو على عين الصواب»^(٦)، وهنا لا ينبغي أن نغفل عن اختياراته الشعرية، وهي مرآة لذوقه الأدبي، وهي أيضاً تجربة نقدية؛ لأن اختيار الرجل قطعة من عقله، وقد بلغت اختياراته الشعرية سبع مجموعات؛ منها الوحيات، والحماسة التي تعد من أقدم المدونات اللغوية التي يعود إليها اللغويون ودارسو الأدب العربي.

وأما غموض شعر أبي تمام، واحتماله الدلالات المتباينة، واتساع الاختلاف في تفسير معانيه فقد دفع عدداً من سراًة العلماء، للتوقف عند شعره شرحاً ونقداً، وكشفاً لعويصه، وحلاً لعقده، وقد أحصى

(١) انظر: وفيات الأعيان ١٢/٢، وسير أعلام النبلاء ٦٨/١١.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام شرح التبريزي ٣٠٥/١.

(٣) انظر: الكشف ٢٠٨/١.

(٤) انظر: أبو تمام الطائي (حياته وشعره) ص ٢٣٦.

(٥) انظر: همزيات أبي تمام ص ٨.

بعض الدارسين ستّة وعشرين من شروح شعر أبي تمام^(١)، وثمّة عشرات الكتب والأبحاث تناولت بالدرس شعر أبي تمام بين القديم والحديث، وبإمكانك أن تلاحظ أن شعر هذا الرجل أثار حركة تأليفيّة نقدية نشطة تناولته بين مدح وذم، ولولا إشكاليّة هذا الشعر وخروجه عن المألوف وتعدّد معانيه لسا أثار هذه الجلبة النقدية، وما استدعى تلك الخصومات النقدية المزمّنة.

وقد اختلف أيضاً في سنة وفاة أبي تمام، والأرجح أنّها (٢٣١هـ)^(٢)، في الموصل بشمال العراق، ونقل صاحب وفيات الأعيان عن البحرريّ أنّه بُنيت على قبره قبّة، ثمّ قال: «رأيت قبره بالموصل خارج باب الميدان على حافة الخندق، والعامّة تقول: هذا قبر أبي تمام»^(٣). وبذلك يكون أبو تمام - رحمه الله - عمراً اثنتين وأربعين سنة - على قصرها - حُفِلَتْ بأعظم شعر، وكانت زاخرةً بالعطاء والإبداع.

٢ - البُحْريّ (٢٠٦هـ - ٢٨٤هـ):

هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، يُكنى بأبي عبادة^(٤)، ويُلقب بالبُحْريّ، وُلِدَ في الشّام في (منبج)^(٥) من القرى بين حلب والفرات.

وإقليم منبج مشتهر بأنّه كثير البساتين وارف الظلال، ولا ريب في أنّ جماله ألهم قلب الشاعر حبّ الجمال، فكان رائق الشعر، وواحداً من الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي، وأبو تمام، والبحريّ، وقيل في شعره: (سلاسل الذهب)^(٦).

(١) انظر: الظواهر النحويّة والصّرفيّة في شعر أبي تمام ص ٣٤-٣٨.

(٢) انظر: وفيات الأعيان ١٧/٢.

(٣) انظر: وفيات الأعيان ١٧/٢، وقد أُفيد في ترجمة أبي تمام من مقدّمة كتاب (الظواهر النحويّة والصّرفيّة في شعر أبي تمام).

(٤) انظر: وفيات الأعيان ٢١/٦.

(٥) انظر: وفيات الأعيان ٢٣/٦.

(٦) انظر: طبقات الشعراء ص ٣٩٣.

ولم يُعرف له أستاذ غير أبي تمام الذي عرفه يافعاً فقيراً مُعوزاً، وسمعه شعره فأعجبه، فأرسله إلى أهل المعرفة، وأوصاهم أن يُكرموه، ثم ارتحل إلى العراق، فاتَّصل بجماعة من الكبار والولاة ثم الخلفاء؛ وأولهم المتوكل العباسي (ت ٢٤٧هـ)، فأجزلوا له العطاء^(١).

ويظهر لك من شعر البحتري أنه واسع الاطلاع على الشعر واللغة، وعالمٌ بأسرارهما، وقد امتاز البحتري بصفاء قريحته الشعرية، وقد سُئل أبو الطيب المتنبي: أيُّ الثلاثة أشعر؟ أنت أم أبو تمام أم البحتري؟ فقال: أنا وأبو تمام حكيان، وإنما الشاعرُ البحتري^(٢).

وقد كان أبو تمام معترفاً بفضل البحتري مُقرّاً له بخلافته على عرش الشعرية، فقد روت الأخبار أن البحتري أنشد أبا تمام يوماً شيئاً من شعره، فلما انتهى تمثل أبو تمام بقول أوس بن حجر: [الطويل]

إِذَا مُقِرَّمٌ مَنَّا ذَرَا حَدُّ نَابِهِ تَحَمَّطَ فِينَا نَابُ آخِرِ مُقِرَّمٍ

ثم قال للبحتري: نعتت إليّ والله نفسي، فقال: أعيدك بالله من هذا القول! فقال: إن عمري لن يطول، وقد نشأ في طيٍّ مثلك. أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيب بن شبة - وهو من رهطه - يتكلّم فقال: يا بُنيّ، لقد نعى إليّ نفسي إحسانك في كلامك؛ لأننا أهل بيت ما نشأ فينا خطيبٌ إلا مات من قبله. فقال: بل يُبقيك الله ويجعلني فداك. ومات أبو تمام بعد سنة من ذلك الحديث (٢٣١هـ)^(٣). ولحقه بعد ذلك صديقها الثالث دُعبل الخزاعي (ت ٢٤٦هـ) فرثاها البحتري بأبيات مؤثّرة منها: [الكامل]

قد زاد في كمّدي، وأضرَمَ لوعتي مشوى حبيب يومَ بان ودعبل^(٤)

وبغياب هذين الفحلين خلا للبحتري وجه الخلفاء وأجواء القصور والعظماء في بغداد، حتّى أضحى شاعر الخليفة المتوكل ونديمه، فجعل يُمجّده ويُورّخ بشعره جلائل أعماله، وبقي معه ستّة

(١) انظر: وفيات الأعيان ٢١/٦.

(٢) انظر: ديوان البحتري ١٧٩٠/٣.

(٣) انظر: معاهد التنصيص ٢٤١/١.

(٤) انظر: الصُّبح المنبي عن حقيقة المتنبي ٢٤٨/١.

عَشَرَ عاماً هي الدُّنيا وبهجتها، وبعد ذلك قُتِلَ المتوكِّلُ غيلةً تحتَ سَمْعِ البحريِّ وبَصَرِهِ، وكانت تلك الحادثة طعنةً نجلاءً في فؤادِ البحريِّ أَلَمَتْهُ أَبَدَ الدَّهرِ على مقتلِ سيِّدهِ ووليِّ نِعَمَتِهِ الذي فيه سَطَرَ أَجْمَلَ القصائد.

في شعرِ البحريِّ أصالةُ العربيَّةِ شكلاً ومضموناً؛ أمَّا الشَّكلُ فمن التزامِهِ عمودَ الشَّعرِ، وأمَّا المضمونُ فمن تعصُّبِهِ لقبيلته وللعربِ عموماً، لذا تراه يَجْزَعُ حين تقتتلُ بطونُ تغلبَ، ويُحذِّرها من الفتنة، فيقول: [الطَّويل]

و فرسانٌ هيجاءٌ تحيِّشُ صدورُها	بأحقادِها حتَّى تضيقَ دروعُها
تُقَتِّلُ مِن وَثَرٍ أعزَّ نفوسِها	عليها بأيِّدٍ ما تكادُ تطيعُها
إذا احتربتُ يوماً ففاضتْ دِماؤها	تذكرتِ القُربى ففاضتْ دُموعُها
شَواجرُ أرماحٍ تُقَطِّعُ بينهم	شَواجرُ أرحامٍ ملُومٍ قَطوعُها ^(١)

في هذه الأبيات تتجلَّى الرُّوحُ العربيَّةُ الطَّيِّبةُ الرَّاعِبةُ في السَّلمِ بينَ القبائلِ المتقاربةِ المتعاديةِ، وليست تُذكِّرُك هذه الأبيات بشيءٍ أكثرَ من مُعلِّقةِ زُهير بنِ أبي سُلمى.

وقد تُوفِّيَ البحريُّ بمنبجِ سنة (٢٨٤هـ) وله حماسةٌ اختارَها من عيونِ الشَّعرِ العربيِّ، وعُدَّ البحريُّ فيما بعدُ رأسَ مدرسةِ الطَّبَعِ التي أريدَ لها أنْ تقابلَ تيارَ الصَّنعةِ أو التَّصْنيعِ الذي عُرِفَ عند أبي تمام، وقد أفاضتِ الدِّراساتُ قِدماً وحاضرّاً في دراسةِ شعرِ البحريِّ، ومن ذلك كتابُ أبي العلاءِ المعرِّي (ت ٤٤٩هـ) «عَبَثُ الوليد»، وكتابُ الأَمَدِيِّ (ت ٣٧٠هـ) «الموازنة بين أبي تمام والبحتري»، وقد اختيرَ البحريُّ ههنا مُضارِعاً لأبي تمام في دراسةِ الإيهامِ البلاغيِّ في شعرِهِ؛ علَّنا نرصدُ أثرَ الطَّبَعِ والصَّنعةِ في الإيهامِ البلاغيِّ في الشَّعرِ العربيِّ.

(١) انظر: ديوان البحري ١٢٩٩/٢.

ثانياً - لماذا الطائيان دون غيرهما؟

قد يتساءل قارئ عن علّة اختيار أبي تمام دون غيره من الشعراء، وهو الذي تناولته أقلامُ النقاد والبلاغيين في مواضع كثيرة من شعره؟

والجواب أن شعر هذا الرجل له خصائص فنيّة - ولا سيّما في بديعه واستعاراته وميله إلى الغموض - تُقدّمه على غيره ليكون مجال تطبيق لهذه الدراسة، كما سيظهر بعد، وأمّا ما تسقطه النقاد والبلاغيون من هنات أبي تمام فإنّ بعضها يسلم لهم، ولكن ينبغي أن نتذكّر أنّ هؤلاء الذين ينتقدون شعر أبي تمام هم أنفسهم أسرفوا في تفتيق شعره، واستخراج ما فيه من صور بلاغيّة، بل إنّ بعض تلك الصور والتأويلات ربّما لم تكن لتخطر لأبي تمام على بال، فتراهم من البيت الواحد من شعره يستخرجون سبعة فنون بديعيّة أو أكثر، ويتغنّون بها ثمّ يعودون إلى انتقاده، وهذا يدلّك على أنّ في شعر الرجل ما لا ينبغي لسواه، ويدلّك على إعجاب البلاغيين والنقاد بأبي تمام وانبهارهم بما أتاهاهم به من الصور البديعة التي تميل إلى الغموض والإيهام وتستلزم إعمال الفكر، وهذا أدعى إلى مشاركة المتلقّي في عمليّة بناء النصّ؛ لتكون عمليّة الإبداع تفاعليّة..

ومعلوم أنّ للشعر أصولاً أرساها الأولون، وكلّ من خالفها أو خرج عليها مخالفاً مبتدعاً عند النقاد الذين جعلوا أبا تمام إمام مذهب متبوعاً؛ لأنّه خالف سنن الأولين في طرّق المعاني وتأنيها، وهذا الذي دأب الأمدئي (ت ٣٧٠هـ) وغيره على إظهاره؛ ليعيبوا به أبا تمام؛ فلقد ذكروا أنّ العرب يُكثرون من ذكر بكاء الحمام ونواحه للدلالة على مُشاركته للشاعر في الحزن والشجن، ولكنهم كانوا يُنكرون على الشاعر بكاءه لمجرد سماع هتاف الحمام كما فعل أبو تمام^(١)، وهذا مثال على ظاهرة تكاد تكون مُستفيضة في ديوان الرجل؛ ففي شعره مُحالفات لكثير من المعاني التي تواضع الشعراء ضمناً على أنّها أصول ثابتة، وهذه المخالفات كانت سبباً في إطلاق النقاد لألسنتهم في تغليط الشاعر، وتصيّد ما عدّوه عيوباً والتّشهير بها، وساقوا لإثبات دعوهم حشوداً من الشواهد؛ ليثبتوا أنّ أبا تمام

(١) انظر: الموازنة ٣/ ١٤٣-١٥٧.

خالف طريقة شعراء الجاهلية وصدر الإسلام والأمويين، وهذه المخالفات للمعاني - على جدارتها بالدراسة - لن نتناولها بالبحث؛ لأن قصداً متوجهاً نحو الطريقة الفنية في صناعة هذا الشعر واكتشاف أساليب الإيهام البلاغي فيه، وبيان جمالياتها، لا نحو المعاني الشعرية.

ولعل أبرز ما امتاز به المذهب الفني لأبي تمام هو تصنيع البديع، وطريقة بناء الصورة وتشكيلها، وكيفية تأليف خيوطها المتنافرة في نظام فني متسق، يُحقق متعة التدقيق والإحساس بالجمال. وأما البديع فقد سعى أبو تمام إليه فحشا شعره منه، وأفرط وتجاوز الحد؛ تملحاً وتظرفاً ليخطف به أبصار المتلقين الذين كانوا يبتهجون لسباع البديع في الشعر، وقد كان قبل قليلاً شحيحاً عفواً، ثم أتى أبو تمام وأفرط فيه حتى طغى البديع على العناصر الفنية الأخرى التي تُشكل المشهد الشعري في قصائده، ولهذا ثارت نائرة النقد عليه واحتدم جدلهم حول بديعه، فابن رشيقي (ت ٤٦٣هـ) هاله ما صنع النقد بأبي تمام حتى أوصى الشعراء باجتنب السرف في البديع؛ حتى لا ينالهم من السنة النقد ما نال أبا تمام؛ قائلاً: «وكذلك لا يجب أن يكون [الشعر] استعارة وبديعاً كشعر أبي تمام؛ فقد رأيت ما صنع به ابن المعتز، وكيف قال فيه ابن قتيبة، وما ألف عليه المتعقبون؛ كالجرجاني [ت ٣٧٥هـ]، وأبي القاسم بن بشر الأمدي، وغيرهما»^(١).

وإن الذي يدعونا لاختيار أبي تمام مجالاً لتطبيق هذه الدراسة ما امتاز به شعره من غموض، ومن طاقة دلالية كانت مجالاً رخباً للتأويل عند أهل الأدب والبلاغة، ولأن تشكيل الصورة الفنية عنده ذو طاقة إيحائية وتصويرية مبهرة إلى حد الاستسلام، فالتلقي لا يملك في مواجهة الصورة الشعرية عند أبي تمام إلا أن يعمل ذهنه في تحليل العبارة، وخياله في تصور تلك المشاهد الفنية، ولا يخفى ما لهذه الصور من سلطان إيهامي على نفس المتلقي؛ إذ يُمكن في نفسه المعاني المدعاة ويُقررها حتى كأنها حقيقة مُشتهرة على الرغم من ريفها وعدم واقعيتها، ونحن إن أردنا أن نبين أثر الطبع والصناعة في الإيهام البلاغي أو الصلة بينهما فلا بُد لنا من وقفة مع زعيم هذا التيار؛ لأن أبا تمام استطاع في زمن مُتقدم كثر فيه المحافظون، استطاع أن يؤسس لمدرسة شعرية أو لمذهب عُرف به فيما بعد، وقد صرح

(١) انظر: العُمدة ١/ ٤٦٦.

بذلك الصُّوليّ (ت ٣٣٥هـ) إذ قال: «وهو رأسٌ في الشعرِ مُبتدئٌ لمذهبٍ سلكه كلُّ مُحسِّنٍ بعده، فلم يبلغه فيه، حتّى قيل: (مذهبُ الطّائي). وكلُّ حاذقٍ بعده يُنسبُ إليه، ويُقنّى أثره»^(١)، ولو أجهلنا سمات شعر أبي تمام؛ لكانت:

١ - الإسراف في ألوان البديع، ولا سيّما الجناس، وما يُضفيه على المعنى من إيهام، وعلى الشّكل من رنينٍ صوتيّ متكرّرٍ يُسهّم في إثراء الموسيقى الدّاخلية لشعره، وإن كان بعضُ المولّدين سبقه إلى خَسَفِ عينِ البديع؛ كمُسلم بن الوليد (ت ٢٠٨هـ)، لكنّ أبا تمام أسرفَ في البديع والعناية بالموسيقى حتّى ذكّر أنّه كان «يُعنى بالموسيقى وجمالِ اللَّفظ، ولكنّه يتجاوزُ هذه العناية إلى عنايةٍ أخرى بالمعنى، ومن هنا يشتدُّ أبو تمام في الدقّة حتّى لا يُحسّ، وحتّى لا يُرى، وحتّى لا يُفهم، وحتّى يُفسدَ الموسيقى أحياناً»^(٢)، وقد أبدى كثيرٌ من القُدّامى والمحدّثين إعجابهم ببديع الرّجل، ومنهم د. عمر فروخ قائلاً: «لأبي تمام براعةٌ في الجناسِ والطّباقِ وقفَ أمامها أنصاره وخصومه مبهورين»^(٣).

٢ - الغموض، وقع قُدّامى البلاغيّين والنّقّادِ في إشكالٍ، وهو ربطُهم غموضَ الشعرِ بالخطأ، وغرابةَ معانيه بالرّداءة، ومن هنا تصيّدوا أبا تمام، وليس مذهبهم دقيقاً؛ لأنّه لا بُدَّ أن يكونَ في ذهنِ النّاقِدِ فرقٌ واضحٌ المعالمِ بين الرّداءة والغموض. فكم من شعرٍ رديءٍ وهو واضحٌ لا يخفى على ذي عَقْلٍ! على أنّ الغلّبة في ديوانِ أبي تمام هي لوضوحِ المعاني وجلالِها، وقد نالت هذه ثناء النّقّاد وإعجابهم قُدّماً وحاضراً، فالغموضُ أو الإغماضُ لم يكنْ ديدنَ أبي تمام في كلّ شعره، ولكنّ الغامضَ من شعره جديرٌ بالدراسة ههنا لتعددِ تأويلاته ومعانيه؛ لأنّ شعره في الغالب لا يُعطيك معناه إلّا بعدَ مَشَقَّةٍ وتأمّلٍ وكَدِّ تفكيرٍ وإنعامٍ نَظَر. وفرقٌ كبيرٌ بين الإيهام الناتج عن عَجْزِ الشّاعر عن بيانِ مراده، وبين الغموض الناتج عن المُحايلة والمراوغة أو الدّهاء اللّغوي.

(١) انظر: أخبار أبي تمام ص ٣٧.

(٢) انظر: من حديث الشعر والنثر ص ١٠٣.

(٣) انظر: أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم ص ٨١.

ولا بُدَّ من التَّنبيه على أَنَّ الغموضَ الذي اشتهرَ به أبو تمام وتحدَّث عنه القُدَّامى لم يكن قَصْراً على المبتدئين في رحابِ الأدبِ والشَّعر، بل إنَّ شطراً من شعره الغامضِ عَسَرَ على جِلَّةٍ من العلماء الكبار بلسان العرب، فتعدَّدت تأويلاتهم للبيت الواحد، وهذا ما دفعَ الأديبَ المرزوقيَّ (ت ٤٢١هـ) لتأليف شرحٍ لمُشكِلاتِ شعر أبي تمام. ولعلَّ أبرزَ مقوِّماتِ الغموضِ في شعره المعازلةُ اللَّفْظِيَّةُ، واستخدامُ اللَّفْظِ الحُوشيِّ الوَعْرِ والبدويِّ النَّافرِ، وتأثُّرُ أبي تمام بالفلسفة وعِلْمُ الكلام^(١).

٣- الإلحاح على المعاني الدَّقيقة المبتكرة، والكَلَفُ بالأفكار الغريبة البديعة؛ فأبو تمام رائدُ المعاني بلا مُنازع، ففي معانيه الجِدَّةُ والطَّرَافَةُ والابتكارُ، فضلاً عن عُمقِ الرُّؤية، فانظر إلى قوله [الطَّويل]

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحسيِّ مُخلِّقٌ لِدِياجِيتِيهِ، فاغترِبْ تتجدَّدُ
فإني رأيتُ الشَّمسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إلى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمِ بَسْرَمِدُ^(٢)

فأبو تمام قدَّمَ للقارئِ شِعراً مُحْكَمَ النِّظْمِ، وأقصدُ بالنَّظْمِ ههنا فرعيه: المعنى والصِّياغة، فأتى بالفكرة الجيدة في لبوسٍ حَسَنِ من الصِّياغة، ومثلُ هذا كثيرٌ في ديوانِ أبي تمام، وهذا الذي قدَّمَ أبا تمام على شعراءِ زَمَانِهِ؛ لأنَّ مِنَ الشَّعرِ ما تسمعه فيهِرُّك حُسْنُ صياغته فإذا تحرَّيتَ المعنى افتقدته، ومنه ما لا معنى شريفاً له ولا صياغة؛ كقول أبي العتاهية: [المديد]

ماتَ - والله - سعيدُ بنُ وهبٍ رَحِمَ اللهُ سعيدَ بنَ وهبٍ
يا أبا عُثْمَانَ أبكىتَ عيني يا أبا عُثْمَانَ أوجعتَ قلبي^(٣)

فهذا نواحٍ وليس بشعرٍ، وإنَّه رثاءٌ لقائله الحيِّ، ولذا فإنَّ أبا تمام حينَ يُقدِّمُ معانيه فإنَّها تحتاجُ إلى فضلٍ تأمُّلٍ وتدبُّرٍ، وإلى كَدِّ الذَّهْنِ أحياناً، بالإضافة إلى أسبابٍ فنيَّةٍ أدَّتْ إلى إبهامِ معانيه، فجاءت معانيه استجابةً لإلحاحه على ابتداعِ المعاني الدَّقيقة البعيدة غيرِ عابئٍ بغموضِها أو عدمِ مُسايرتها معاني الشعراءِ القُدَّامى، وما ألفتَه العربُ في كلامِها، وقد شهدَ علماؤنا القُدَّامى لأبي تمام بمزِيَّة

(١) انظر: الظَّواهر النَّحويَّة والصَّرْفِيَّة في شعر أبي تمام ص ٢٦-٣٠.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٢/ ٢٣.

(٣) انظر: ديوان أبي العتاهية ص ٤٩٥.

الابتكار وتوليد المعاني البديعة؛ فالصُّوليّ (ت ٣٣٥هـ) يقول: «وليس أحدٌ من الشعراء - أعزك الله - يَعمَلُ المعاني ويخترعُها، ويتكئ على نفسه فيها أكثر من أبي تمام»^(١)، وكذا يقول ابنُ رشيق (ت ٤٦٣هـ): «وأكثرُ المولدين معاني وتوليداً - فيما ذكره العلماء - أبو تمام»^(٢)، وإنَّ أبا تمام لم يستسلم لزعمِ النُّقاد بأنَّ الأوَّل لم يتركُ للأخِر شيئاً، وأنَّ القدماء قد استفدوا المعاني حتَّى أخلقوها، وأنَّ المحدثين عالَّةٌ على القدامى، فقال: [السريع]

يَقُولُ مَنْ تَقَرَّعُ أَسْمَاعُهُ كَمْ تَرَكَ الأوَّلُ لِلآخِرِ!^(٣)

وإنَّ ما في ديوانه من المعاني الأ Bakar المستفيضة يُؤكِّد هذا البيت، وليس هذا باليسير على الفحول من الشعراء بله المقلِّدين، وفي هذا يقولُ الصُّوليّ: «وقد كان الشعراء قبلَ أبي تمام يُبدعون في البيت والبيتين من القصيدة، فيُعتدُّ بذلك لهم من أجلِّ الإحسان، وأبو تمام أخذَ نفسه، وسامَ طبعه أن يُبدع في أكثرِ شعره، فلعمري لقد فعَلَ وأحسن»^(٤)، وأبو تمام على درايةٍ بمقدرته الإبداعية الفدَّة، وأنَّ معانيه أ Bakar لا مسروقة ولا مُعاراة ولا مُعادة؛ إذ يقول: [الوافر]

إِلَيْكَ بَعْنْتُ أَبْكَارَ السَّعَانِي يَلِيهَا سَائِقُ عَجَلٍ وَحَادِي
مُنَزَّعَةٌ عَنِ السَّرَقِ الْمُورِي مُكْرَمَةٌ عَنِ الْمَعْنَى السُّعَادِي^(٥)

وكانَ أبو تمام لا يخرجُ على النَّاس بهذه المعاني إلَّا وقد كساها لبوساً حسناً يليقُ بها، وقد وشَّها بألوانٍ بالبديع، وأرعى لها عِنانَ الخيالِ والأحلام؛ لتحلَّق في سماءِ الشَّعر متحرِّرةً من قيود الزَّمان والمكان إلى ما وراء الواقع، يعزفُ على قيثارة الرُّوح، فتنسكبُ العاطفةُ شلالاتٍ هادرة، تُعبِّر عن خبايا النَّفسِ وأسرارِ الذَّات، وتكتنفُها موسيقى يَلدُّ سماعُها في آذان المتلقِّين.

(١) انظر: أخبار أبي تمام ص ٥٣.

(٢) انظر: العمدة ٩٧٩/٢.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام ١٦١/٢.

(٤) انظر: أخبار أبي تمام ص ٣٨.

(٥) انظر: ديوان أبي تمام ٣٨٢/١، ٣٨٠.

والمشكلة أنَّ ألفاظَ أبي تمام وتراكيبه كانت تنوء أحياناً بعبء التعبير عن معانيه الدقيقة المبتكرة، فتُسَلِّمُه إلى الغموض والتعقيد واستغلاق المعاني، ومن هنا ينشأ الإيهام والاتساع في فهم معانيه وتعدّد تفسيراتها، وقد أشار إلى شيء من ذلك الصّوليّ (ت ٣٣٥هـ) بقوله: «إنَّ أبا تمام يصنع الكلام ويخترعه، ويتعب في طلبه حتى يُبدع، ويستعير ويغرب في كلّ بيت إن استطاع...، وأبو تمام لا يسقط معناه البتّة، وإنَّما يختل في الوقت بعد الوقت لفظه، فإذا استوى له اللفظ فذلك هو الجيّد من شعره النادر الذي لا يُتعلّق به»^(١)، وإنَّ ما اكتشف شعره من غموض وتعقيد في ألفاظه وتراكيبه أفضى بعبارته إلى إيهام تعدّد فيه التّأويلات المعنوية والجمالية الفنية.

وأما البحريُّ فأريد له أن يكون رأس مدرسة تُضارع مدرسة أبي تمام، وهو خليفٌ بذلك، فهو - إن قيسَ بأبي تمام - مطبوعٌ، وعنده صفاء الشعر العربيّ الأعرابيّ، ومن هنا توخّينا أن يكون البحريُّ نظيرَ أبي تمام في هذه الدّراسة؛ لإيضاح أثر الطّبع والصّنع أو التّصنيع في الإيهام البلاغيّ، وكان البحريُّ هو المختار من أهل الطّبع؛ لأنّ معارك نقدية اشتدّت رحاها طويلاً بين أنصار ذينك الرّجلين (البحري وأبي تمام)، ونتوقّع سلفاً أن يكون الإيهام البلاغيّ عند المطبوعين أقلّ بكثير مما عند أهل الصّنع، وذلك أنّ صناعة الإيهام تحتاج غالباً إلى تدبّر وتأملٍ وحُبكة لا يأتي بها إلا أهل الصّنع الذين يُفكّرون في أشعارهم مليّاً، ويهدّبون ويُنقّحون ويُصلّحون، حتّى يستوي لهم الكلام كما أرادوا. وإذا كنّا نتكلّم عن الطّبع والصّنع فلا بدّ لنا من بيان أنّ الطّبع أصلُ الشعر عند العرب؛ فقد كان الشعرُ يتداعى للشاعر استجابةً للمؤثرات النفسيّة أو الخارجيّة التي تعترضه، وكان الشّاعر يقول القصيدة ثمّ لا يعتدي على مُسوّدّة الشّعور الأوّل؛ لأنّ ما نتج عنها من شعرٍ إنّما هو مرآة النّفس ودفتر الرّوح، وفي ذلك يقول الجاحظُ (ت ٢٥٥هـ): «وكلُّ شيءٍ للعرب فإنّما هو بديهة وارتجال، وكأنّه إلهامٌ، وليست هناك معاناة ولا مُكابدة، ولا إجاله فِكْرٍ ولا استعانة، وإنّما هو أن يَصْرِفَ وَهْمَهُ إلى الكلام... فتأتيه المعاني إرسالاً، وتتنال عليه الألفاظُ انثيالاً، ثم لا يُقيّده على نفسه، ولا يُعلّمه

(١) انظر: أخبار البحريّ ص ٥٧-٥٨.

أحداً مِنْ وَلَدِهِ. وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ، وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ»^(١)، فَالشَّعْرُ عِنْدَ الْقَدَامَى كَانَ أَشْبَهَ بِالْهَامِ أَوْ وَحْيٍ يَنْزِلُ مِنْ عَوَالِمَ مَجْهُولَةٍ، فَالشَّاعِرُ يُؤَلِّدُ شَاعِراً، وَمَا إِنْ تُرَاوِدُهُ الرَّغْبَةُ فِي قَوْلِ الشَّعْرِ حَتَّى تَنْسَكِبَ الْقَوَافِي الْمُوَثَّرَةُ الَّتِي تَسْحَرُ السَّامِعِينَ، وَأَمَّا الصَّنْعَةُ وَإِعَادَةُ النَّظْرِ فِي الشَّعْرِ، وَالْمَعَانَاةُ فِيهِ، وَصَنْعَةُ تَرْبِيئِهِ فَهُوَ الْأَمْرُ الْإِسْتِثْنَاءُ الْخَارِجُ عَلَى الطَّبْعِ الشَّعْرِيِّ، وَلَا شَكَّ عِنْدِي أَنَّ الْبَحْتَرِيَّ لَمْ يَكُنْ مُصَنِّعاً كَأَبِي تَمَّامٍ، وَقَدْ عَدُّوا الْبَحْتَرِيَّ إِمَامَ الطَّبْعِ حَتَّى قَالَ الثَّعَالِبِيُّ (ت ٤٢٩ هـ): «طَبَعُ الْبَحْتَرِيَّ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ؛ لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ وَاقِعٌ عَلَى أَنَّهُ فِي الشَّعْرِ أَطْبَعُ الْمُحَدِّثِينَ وَالْمَوْلَدِينَ»^(٢)

وَلَكِنْ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ مَطْبُوعاً كَالْأَعَشَى أَوْ عَمْرُو بْنِ كَلْثُومٍ أَوْ لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ، إِنَّ الْبَحْتَرِيَّ كَانَ صَاحِبَ صَنْعَةٍ خَفِيَّةٍ تَلَطَّفُ إِلَّا عَلَى ذَوِي الْبَصَرِ بِالشَّعْرِ، تَلَحُّظُهَا فِي تَقْسِيمَاتِهِ فِي الْبَيْتِ الشَّعْرِيِّ الْوَاحِدِ، وَتَوَازُنِ تَرَكَيبِهِ ضَمْنَ الْبَيْتِ الْوَاحِدِ، وَعِنَايَتِهِ بِالْمَوْسِيقَى الدَّخْلِيَّةِ فِي النَّصِّ، وَهَذِهِ وَحْدَهَا تَحْتَاجُ إِلَى دَرَسَةٍ مُفْرَدَةٍ. وَلَكِنَّ النَّقَادَ وَالْبَلَاغِيِّينَ لَمَّا قَاسَوْهُ بِأَبِي تَمَّامٍ وَأَرَادُوا لَهُ أَنْ يَكُونَ زَعِيمَ مَدْرَسَةٍ نَقِيضَةٍ لِمَدْرَسَةِ أَبِي تَمَّامٍ فَقَدْ بِالْغَوَا فِي وَصْفِهِ بِالطَّبْعِ، وَهُمْ يَرْمُونَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ إِلَى تَشْكِيلِ مَلَامِحِ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي سَتَكُونُ مُعَادِلًا لِمَدْرَسَةِ أَبِي تَمَّامٍ، فَشِعْرُ الْبَحْتَرِيَّ يُمَثَّلُ فِي ذَاكَ الزَّمَنِ صُورَةَ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْأَوَّلِ الَّذِي يَحْفَظُ عَلَى الْقَصِيدَةِ دِيْبَاجَتَهَا وَرَوْنَقَهَا، وَهَذَا مَا لَمْ يُنَكِّرْهُ أَصْحَابُ أَبِي تَمَّامٍ أَنْفُسَهُمْ.

وَلَوْ شِئْنَا أَنْ نَتَوَقَّفَ عَنْ أَبْرَزِ السَّيِّئَاتِ الْفَنِيَّةِ لِشِعْرِ الْبَحْتَرِيَّ عَلَى غَرَارِ مَا فَعَلْنَا مَعَ أَبِي تَمَّامٍ؛ لَكَانَتْ هِيَ:

- حَلَاوَةُ اللَّفْظِ: فَابْنُ الْأَثِيرِ (ت ٦٣٧ هـ) يَصِفُ لَفْظَ الْبَحْتَرِيَّ بِقَوْلِهِ: «وَتَرَى أَلْفَاظَ الْبَحْتَرِيَّ كَأَنَّهَا نِسَاءٌ حِسَانٍ، عَلَيْهِنَّ غَلَائِلُ مُصْبَغَاتٌ، وَقَدْ تَحَلَّيْنَ بِأَصْنَافِ الْحُلِيِّ»^(٣)، وَفِي الْجُمْلَةِ كَانَتْ أَلْفَاظُ الْبَحْتَرِيَّ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ إِلَى الصَّحَةِ وَالسَّلَامَةِ وَفَقاً لِمَقَايِيسِ الْبَلَاغِيِّينَ فِي فَصَاحَةِ الْمَفْرَدَةِ، بَلْ إِنَّ جِهَالَ اللَّفْظِ وَحَلَاوَتَهُ عِنْدَ الْبَحْتَرِيَّ لَيْسَ نَابِعاً مِنْ جِهَالِ كُلِّ مَفْرَدَةٍ عَلَى حِدَةٍ، بَلْ مِنْ اتِّسَاقِ الْمَفْرَدَةِ مَعَ

(١) انظر: البيان والتبيين ٢٨/٣.

(٢) انظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٢٢٤.

(٣) انظر: المثل السائر ١/١٩٥.

مُجاوراتها، وتناغمها مع سياقها وسباقها موسيقي ومعنى. وهذا لا ينبغي أن من ألفاظه ما يثقل على قَلْبِهِ.

- حُسْنُ العبارة: فتراكيب البحريّ جارية على وفق الترتيب النحويّ سلامةً، وليس إعجابُ النقادِ والبلاغيين بلفظه سوى جزءٍ من إعجابهم الأكبر بتركيبه وعبارة التي لا تختل ولا تسقط ولا تمنح نحو التعقيد والركاكة والحشو، والباقلاني (ت ٤٠٣هـ) يُسوِّغُ تقديمه البحريّ على غيره بـ«حُسْنِ عبارته، وسلاسة كلامه»^(١)، ولكن ما ينبغي أن يستوقفك في أسلوب البحريّ هو الصورة الفنيّة وقدرتها على الوصف، وتحريك الجوامد، بل إنطاقها أيضاً.

- التشبيه: لا يكادُ يخلو كتابٌ بلاغيٌّ أو نقديٌّ من أمثلةٍ على تشبيهات البحريّ، والحقُّ أنَّ التشبيهَ يدلُّك على عمق التجربة الشعوريّة لدى الشاعر، وهذا ما يفتقده كثيرٌ ممن يدرسون هذه التشبيهات بطريقة جافّة عقيمة، حيثُ يرونه من زاوية طرقيّ التشبيه لا أكثر، ولكن عبد القاهر (ت ٤٧٤هـ) في أسرار البلاغة استطاع أن ينفذَ إلى أعماق الصورة الفنيّة في شعر البحريّ، ولا سيّما التشبيه؛ فمن ذلك وقوفه على قولِ البحريّ: [الكامل]

دانٍ على أيدي العُفاةِ وشاسِعٌ عن كُلِّ نَدٍّ في الندى وضَرِيبِ
كالبدرِ أفرطَ في العُلُوِّ، وضوؤه للمُضَيِّبِ السَّارينِ جدُّ قريبِ^(٢)

«فكّر في حالِك وحالِ المعنى معك، وأنت في البيت الأوّل لم تَنَتِه إلى الثاني ولم تتدبّر نُصْرَتَه إِيَّاه، وتمثّله له فيما يُملي على الإنسان عيناه، ويؤدّي إليه ناظره، ثُمَّ قَسَّهَما على الحال وقد وقفت عليه، وتأملت طَرَفَيْهِ، فإنّك تعلمُ بُعدَ ما بين حالتيك، وشدّة تفاوتهما في تمكّنِ المعنى لديك، وتجبّه إليك، ونُبْلِهِ في نفسك، وتوفيره لأنّسك، وتحكّم لي بالصدّق فيما قلتُ، والحقّ فيما ادّعيْتُ»^(٣)، فالإيهامُ ههنا من حيثُ إنّ البيت الأوّل محض تناقض لا يستقيم في عقلٍ، ولا يناصرُه دليل، ولكنّ مجيء البيت

(١) انظر: إعجاز القرآن ص ٢٤٣.

(٢) انظر: ديوان البحريّ ١/ ٢٤٩.

(٣) انظر: أسرار البلاغة ص ١١٦.

الثاني، وانعقاد التشبيه التمثيلي أفضى إلى هذه الصورة البديعة، وحول تلك الفكرة الذهنية الغامضة إلى لوحة فنية بارزة الملامح كاملة التفاصيل، فالبحتري يتكئ على الصورة الفنية في التعبير عن المعاني الذهنية المجردة التي يروم، وفي هذا تمكين لتلك المعاني، وفيه أتمها تبرُّزُ إلى المتلقِّي ترفُّلُ بأثوابٍ بهيَّة جاذبة، وهذه سمة ظاهرة في شعر البحتري؛ منها قوله في الشَّيب: [الخفيف]

عَدَلْتَنَا فِي عَشَقِهَا أَمْ عَمِّرُوا هل سمعتم بالعاذل المعشوق؟!
وَرَأَتْ لَمَّةً أَلَمَ بِهَا الشَّيْبُ ب، فَرِيعَتْ مِنْ ظُلْمَةٍ فِي شُرُوقِ
وَلَعَمْرِي لَوْلَا الْأَقَاحِي لِأَبْصَرُ ث أنيق الرِّياضِ غَيْرَ أُنِيقِ
وَسَوَادُ الْعَيُونِ لَوْلَمْ يُحَسِّنْ بياضٍ مَا كَانَ بِالموموق^(١)

فالبحتري كثيراً ما يُعقَّبُ بالتشبيه التمثيلي على المعاني التي يُمكنُ أن يَضِلَّ الفَهْمُ في تفسيرها، وكأنَّه اتخذ من التشبيه التمثيلي ههنا وسيلة لإزالة إيهام مُفترَضٍ، وهو بذلك يُحدِّدُ مراده تحديداً دقيقاً لا لبس فيه، ويبرزُ معناه بصورة فنيَّة ملموسة لقصد تمكين الفكرة التي ادَّعاها والمبالغة فيها أيضاً.

وإذا كان أبو تمام يمتاز بغموض المعاني وتعقيد العبارة، فإنَّ البحتري يمتاز أحياناً بغموض الصورة الفنية، وهذه سمة شعريَّة تتصل بطبيعة الشعر الإبداعية الغائمة؛ وهي تدعُ لمتذوقها مجال التفكير والتَّخيل والاستنتاج، والغالبُ على التشبيه التمثيلي في ديوان البحتري أنَّه ينسجُه من بيتين لا من بيت واحد؛ فإذا قرأت الأول توهمت، حتَّى إذا أخذ البيت بيد أخيه اتَّضحَتْ لك الصورة جليَّةً، وهذا يُفضي بالمتلقِّي إلى الإيهام في البيت الأول، ويجعلُ البيت الأول شديد الافتقار إلى تاليه، وإنَّه لا يُمكنك تقدير ما في هذه الصورة من الصَّنعة حتَّى تستجلي صورة المعنى في البيت الثاني، ومن هنا يَسْرُبُ غموضُ الصورة الفنية عند البحتري.

- الاستعارة: وأمَّا استعاراتُ البُحتريِّ فإنَّها سَلِمَتْ ونجَتْ ممَّا عيبَ به أبو تمام، من انحلال النسبة بين طرفي الاستعارة، ومخالفة مبدأ التَّناسب العقلي. وأبدى البلاغيون والنقاد رضاهم عن

(١) انظر: ديوان البحتري ١٤٨٦/٣.

استعارات البحريّ قياساً على غيره من الشعراء وقياساً على أبي تمام خصوصاً؛ لأنّ البحريّ يُدخلُ عناصرَ الاستعارة في علاقاتٍ مألوفة، تجدُّ ما يسندُها من الذّوقِ الأدبيّ القديم، وإن كان ذوقاً منطقيّاً، هدفه الأوّل منطقيّة الأمور، والحرصُ على تناسب الأشياء. فاستعاراتُ البحريّ على نقيضِ استعارات أبي تمام من حيثُ نالتُ رضا النُّقاد؛ لأنّها تقفُ أبداً عند حدودِ التّصوُّر التّقليديّ، ولا تجرُّ على خدشِ الذّوقِ العامّ، ولا على إعادة صياغة الواقع وتشكيله من جديد، والحقيقة أنّ استعاراتِ البحريّ من هذا الجانب أقلُّ ممّا بولغَ في الثناء عليها؛ وإن استعاراتِ أبي تمام - رغم كلّ ما قيلَ فيها - هي أقربُ إلى مفهومِ الاستعارة الشعريّة؛ لما فيها من انحرافٍ واضحٍ عن المألوف، ومعارضةٍ واعيةٍ للأسلوبِ البلاغيّ الثّريّ، ومعلومٌ أنّ الشّاعِرَ بمقدارِ ما يبتعدُ بلُغته عن ميدانِ النثر يُكسِبُها قيماً جديرةً تدلُّ على عمقِ شاعريّته وأصالتها؛ ومن هنا كان لا بُدَّ للشّاعر من التجدّد الاستعاريّ؛ لأنّ الاستعارة أو الكناية مع الزّمن تستحيلُ حقيقةً أو مجرّد علامةً لغويّةً تمرُّ كغيرها في درج الكلام.

ومن هنا كان لا بُدَّ من إيضاح أثرِ هذا الاختلافِ الاستعاريّ في إيهامِ المتلقّي.



الفصل الأول

من ملامح الإيهام البديعي في شعر الطائيين

المبحث الأول: جمالية الإيهام البديعي في شعر الطائيين (تحليل نماذج).

الاستخدام	التلميح
الاتساع	التورية
التوجيه	المشاكلة
التجريد	إيهام التضاد
الاستطراد	

المبحث الثاني: جمالية الإيهام بالتجنيس في شعر الطائيين (تحليل ومقارنة).

أ- إيهام التجنيس في شعر أبي تمام.

ب- إيهام التجنيس في شعر البحتري.

الفصل الأول

من ملامح الإيهام البديعي في شعر الطائيين

مقدمة:

مُستفيضة هي الدِّراساتُ التي تناوَلتْ شِعَرَ الطَّائِيَّينَ من حيثُ اللُّغَةُ والنَّحْوُ والصَّرْفُ والفلسفةُ وتكوينُ الصُّورةِ والبديعُ، إلَّا أَنَّهُ ما زالَ في حاجةٍ لِلدَّرْسِ من زاويةِ (الإيهام البلاغيِّ) وما يَتَّصِلُ فيه من تعدُّدِ الدَّلالةِ، وانفتاحِها على فضاءاتِ التَّأويلِ، وما لذلك من أثرٍ في جَمالِ النَّصِّ الأدبيِّ، وفي حياةِ هذا النَّصِّ الأدبيِّ، وأثرٍ في المتلقِّي الذي يُشارِكُ في عمليةِ بناءِ النَّصِّ وملءِ الفراغاتِ.

وقد امتازَ الطَّائِيَّانِ ببراعةٍ في توظيفِ فنونِ البديعِ في أشعارِهما، فبديعُ البُحْثَرِيِّ يُثْري الموسيقى الدَّاخِلِيَّةَ لِلنَّصِّ؛ لأنَّه مشغوفٌ بتوازنِ العِباراتِ في البيتِ الواحدِ؛ وما يَنشأُ عن هذا من رنينٍ صوتيٍّ لذيذٍ؛ إلَّا أنَّ هذا التَّنْغِيمَ أو التَّقْسِيمَ - على جَمالِهِ - لا يُسهِمُ في إيهامِ المتلقِّي كثيرًا. وأمَّا أبو تَمَّامٍ فأَسْرَفَ - كما هو معلومٌ - في استدعاءِ فنونِ البديعِ واستجلائِها في شِعْرِهِ؛ فأَسْهَمَتْ هذهِ الفنونُ بلا شَكٍّ بشيءٍ من إيهامِ المتلقِّي، وفي تعدُّدِ احتمالاتِ الدَّلالةِ؛ ولذا فإنَّكَ ترى مُفَسِّرِي شِعْرِهِ غالبًا لا يتجرَّؤونَ على الحُسمِ في تحديدِ دلالةِ كلامِهِ؛ لأنَّ عِبارَتَهُ حَمالَةٌ أَوْجِهٌ؛ فتراهم يَستَهْلُونَ عِبارَاتِهِم المفسَّرةَ بِالْفَظِّ تُفِيدُ الظَّنَّ والحَدَسَ؛ مثل: (يَحمَلُ أن يكونَ...)، و(قيل: أرادَ...)، و(كَأنَّه عَنَى)، و(يَجوزُ أن يُريدَ...) ^(١)، وهذه الطَّاقةُ الدَّلاليَّةُ في شِعْرِ أبي تَمَّامٍ لا بُدَّ لها مِن دراسةٍ نُجَلِّيَ مَعالِمَها البلاغيَّةَ، وقيمتَها الفنيَّةَ، وتبيِّنُ أثرَ الصَّنعةِ فيها، وتُقارِنُها ببديعِ البَحْثَرِيِّ؛ لتَبَيَّنَ سِماتُ الإيهامِ المطبوعِ، وما علاقةُ الطَّبْعِ والصَّنعةِ بِقُدرةِ الشَّاعرِ على إيهامِ المتلقِّي.

(١) انظر: ديوان أبي تَمَّامٍ (بشرح التَّبْرِيزِيِّ ١/ ١١، ١٨، ٣٤) - والنَّظَامُ في شرح شعر المتنبي وأبي تَمَّامٍ ٣/ ٨٣.

المبحث الأول

جمالية الإيهام البديعي في شعر الطائيين (تحليل نماذج).

ستتوقف ههنا عند طائفة من الأمثلة من شعر أبي تمام والبحري نستجلي مواطن الإيهام البديعي فيها، ونبين قيمتها الفنية، ثم نتوقف عند فنّ الجنس خاصة.

فمن إيهام المتلقي بطريق الاستخدام^(١) قول أبي تمام: [الكامل]

وَإِذَا مَشَتْ تَرَكْتُ بِصَدْرِكَ ضِعْفَ مَا
يُحْلِيهَا مِنْ شِدَّةِ الْوَسْوَاسِ^(٢)

فـ(الوسواس) ههنا يحتمل معنيين هما (بلا بل الصدر) و(صوت الحلي)؛ وقد استطاع أبو تمام بفطنته أن يستثمر الطاقة الدلالية الكامنة في كلمة (الوسواس) خير استثمار؛ فهذه الحسنة إذ يُسمع لحليها وسواس إذا انصرف، وتترك في قلبك أضعاف هذا الصوت من وسواس الصدر وبلا بله، ولا يخفى أن هذا التفنن في توجيه دلالات الألفاظ يجعل المتلقي ينعم في لذة التدفق المعرفي المتتابع، ويحس بالدهشة والتعجب من حيلة الشاعر ودهائه اللغوي.

ومن هذا الاستخدام الموهم قول البحري: [الكامل]

فَسَقَى الْغَضَا وَالسَّاكِنِيهِ، وَإِنْ هُمْ
شَبَّوْهُ بَيْنَ جَوَانِحِ وَقُلُوبِ^(٣)

فلفظ (الغضا) يُطلق على موضع بنجد، كما يُطلق على شجر الغضا، والسقيا صالحة لهما، فأشار البحري إلى المعنيين بالضميرين العائدين على الغضا في (الساكنيه)، وفي (شبو)، ويُحِيلُ إِلَى أَنَّ للاستخدام ههنا نكتة لطيفة؛ هي أن الشاعر بكلمة الغضا هذه عبّر عن تعلقه بالديار ومن فيها من

(١) الاستخدام: الإتيان بلفظ ذي معنيين؛ إمّا أن يُراد به أحدهما، ثم يُؤتى بضمير يعود عليه مُراداً به المعنى الآخر. وإمّا أن يُعاد عليه ضميران يُرادُ بشانیهما غير ما أُريدَ بالأول. انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٧٠، وخزانة الأدب ٥/٢، وأنوار الربيع ٣٠٧/١.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٢/٢٤٥.

(٣) انظر: ديوان البحري ١/٢٤٦، وفيه (والنأزليه) بدل (والسأكنيه)، وتحرير التحرير ص ٢٧٥.

أحبابه، وعبر في المرة الثانية عن عواطفه التي تلتهب شوقاً وهوى لمن كانوا علّة معاناته، وهم يُشعلون أغصان الغضا؛ ذلك الشجر الصّلب الذي جمّره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفئ، يُحرقونه في تلك الديار كما يُحرقون بيّدهم قلبه المعلق في تلك الديار، وهذا الاستخدام هو الذي أكسب اللفظة طاقة إيهامية لها سلطانها وتأثيرها تخيلية المتلقي. وغير خافٍ ما لهذا الاستخدام عند الطائيين من إفساح للمجال أمام المتلقي؛ ليسهم في إتمام بناء النص؛ وليزيد من تفاعله معه؛ حين يملأ فراغات هذا النصّ مشاركا في العملية الإبداعية.

ومن إيهام أبي تمام على جهة التلميح والتعريض قوله مُهتئاً المعتصم بفتح عمورية: [البسيط]

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضوج الثين والعنب^(١)

فإن ظاهر الكلام أن النصّر كان لهذا الجيش قبل موسم الثين والعنب، وكأن ذكر (التين والعنب) إنما أتى لتحديد المرحلة أو الزمان الذي فيه تحقّق النصر، وهذا وهم يتسرّب إلى من لا علم له بحديثات القصة، فإن الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد لما عزم على مهاجمة عمورية، ذكر له المنجمون أنه لا يفتح عمورية، وأرسل إليه الروم أننا نجد في كتبنا أنه لا تفتح مدينتنا إلا في وقت إدراك الثين والعنب، وبيننا وبين ذلك شهرٌ يمنعك من المقام بها البرد والثلج، فأبى أن ينصرف، فأكب عليها، ففتحها، فأبطل ما قالوا^(٢)، فقال أبو تمام:

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضوج الثين والعنب

قاصداً إلى التعريض بمقاتلتهم، وزخرفهم، لا إلى تحديد الفترة الزمنية كما قد يُتوهم من ظاهر الكلام، وجمالية هذا الإيهام أنه في مقام الحفّض من قدر هؤلاء الكاذبين المهزومين والشّاتية بهم، دون ذكر أسمائهم أو الإشارة إليهم صراحةً، وفيها إعلاء شأن الممدوح الذي ترفع عن عناكب الجهل والوهم والخرافة، وأقدم بعزيمة وإصرارٍ على فتح عمورية، والانتقام من الروم الذين كانوا

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٧٥ / ١.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٤٥ / ١ (بشرح التبريزي).

يستبيحون التَّخومَ فيسلبون غِلالها، وَيَسْبُونَ نساءها، وَيُحْرِقُونَ مُدَمِّها، ولم يكتفِ أبو تمامٍ بالتَّعريضِ
بهؤلاء، وقد كان استهْلَ قصيدته بالتَّعريضِ بالمنجِّمين أيضاً إذ قال:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ	فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجَسَدِ وَاللَّعِبِ
بَيْضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي	مُتَوْنَةٍ جَلَاءِ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ	بَيْنَ الْخَمِيسِينَ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

فاللَّامُ فِي الْكُتُبِ لَيْسَتْ لَامُ الْجِنْسِ كَمَا قَدْ يُتَوَهَّمُ، بَلْ هِيَ لَامُ الْعَهْدِ الذَّهْنِيِّ الْعَائِدَةِ عَلَى كُتُبِ
الْمُنْجِّمِينَ خُصُوصاً، فَأَبُو تَمَّامٍ رَجُلٌ عَالِمٌ مُوسِعِي الثَّقَافَاتِ وَالْعُلُومِ، لَمْ يَكُنْ لِيَذُمَّ الْعِلْمَ وَالْفِكْرَ
وَيُفَضَّلَ عَلَيْهِ قُوَّةَ السَّيْفِ كَمَا قَدْ يُتَوَهَّمُ مِنْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَعْنِي كُتُبَ الْمُنْجِّمِينَ حَصِراً،
وَأَشَارَ إِلَى ذَلِكَ (لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ)، ثُمَّ صَرَّحَ وَأَتْبَعَ بِالْقَوْلِ:

أَيْنَ الرُّوَايَةُ أَمْ أَيْنَ التَّجْزُمُ وَمَا	صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ وَمِنْ كَذِبِ
وَحَوُّفُوا النَّاسَ مِنْ ذَهْيَاءٍ مُظْلِمَةٍ	إِذَا بَدَا الْكَوْكَبُ الْغَرِيبَ ذُو الذَّنَبِ ^(١)

فَأَبُو تَمَّامٍ لَا يَسْأَلُ عَنِ النُّجُومِ؛ فَالنُّجُومُ فِي السَّمَاءِ يَرَاهَا كُلُّ ذِي عَيْنِينَ، وَلَكِنَّهُ يُشِيرُ إِلَى كَذِبِ
الْمُنْجِّمِينَ. وَالسَّبِيلُ الْوَحِيدُ لِإِزَالَةِ هَذِهِ الْأَوْهَامِ - كَمَا رَأَيْتَ - إِنَّمَا كَانَ مَعْرِفَةُ قَرِينَةِ الْحَالِ الَّذِي فِيهِ قِيلَ
هَذَا الشَّعْرُ.

وَمِنْ إِيهَامِ أَبِي تَمَّامٍ فِي الْإِتْسَاعِ^(٢) قَوْلُهُ مَادِحاً: [البسيط]

بِالشَّعْرِ طُولٌ إِذَا اضْطَكَّتْ قِصَائِدُهُ	فِي مَعْشَرٍ، وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرُ ^(٣)

(١) انظر: ديوان أبي تمام ١/ ٥٤-٥٩.

(٢) الإِتْسَاعُ: هُوَ أَنْ يَقُولَ الْمُتَكَلِّمُ كَلَاماً يَتَّسِعُ فِيهِ التَّأْوِيلُ، فَيَأْتِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ السَّامِعِينَ بِتَأْوِيلٍ أَوْ مَعْنَى جَدِيدٍ
تَحْتُمِلُهُ الْأَلْفَاظُ، وَتَتَعَدَّدُ تِلْكَ التَّأْوِيلَاتُ لِاحْتِمَالِ اللَّفْظِ وَقُوَّتِهِ وَاتِّسَاعِ الْمَعْنَى، وَتَتَكَاثَرُ بِحَسَبِ قُوَّةِ النَّظَرِ
لَدَى كُلِّ مُتَلَقٍّ، مِنْ غَيْرِ تَرْجِيحٍ بَيْنَهَا. انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٧، والمنزَع البديع
ص ٤٢٩، وأنوار الربيع ٥٣/ ٦.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام ٢/ ١٩٠.

فهذا البيت يحتمل تأويلين: أحدهما أن الشعر يتسع مجالُه بمدحك ويضيق بمدح غيرك؛ لأنّ مآثرَكَ كثيرة، فالشاعر الذي يريد مدحك يغرف من بحر مكارمك ومآثرِكَ، ومآثر غيرك قليلة، وهذا المعنى يُذكرنا بقول الشاعر الفارس عمرو بن معدي كرب: [الطويل]

فلو أن قومي أنطقنسي رماحهم نطقن، ولكن الرماح أجرت^(١)

والتأويل الآخر: أن الشعر يكون ذا فخرٍ ونباهةٍ بمدحك، وذا خمولٍ بمدح غيرك. فلفظة (الطويل) يفهم منها ضدّ القصّر، ويفهم منها الفخر؛ كقولنا: (طال فلان على فلان) أي: فخر عليه^(٢)، ولك أن تفهمه بمعنى ثالث هو أن شعري به طولٌ عن بعض المدوحين؛ لأنهم لا يستحقونه، وبه - على جودته - قصّر عن قوم؛ لأنه دون ما يستحقونه، فهم يطولونه^(٣)

ومن إيهام أبي تمام في الاتساع أيضاً قوله مادحاً: [الخفيف]

قد بلّونا أباسعيد حديناً وبلّونا أباسعيد قديماً
ورزّناه ساحلاً وقلبيّاً ورعّيناه بارضاً وجوميّاً
فعلمنا أن ليس إلا بشقّ النَّـ فسي صار الكريم يُدعى كريماً^(٤)

فالإسراع في هذا البيت مُتأتّ من معانيه المجازيّة، ولنبداً بإيضاح المعاني الحقيقيّة لكلمات البيت الثاني؛ فالقلبيُّ: البئر، و(البارض: أوّل ما يظهر من النبات)، و(الجميم: ما غطّى الأرض من النبات)^(٥). فأنت ترى أن هذه المعاني متضادّة؛ إذ الساحل ماءٌ كثيرٌ ظاهرٌ، والقلبيُّ ماء قليلٌ مغمور، والبارض أوّل ظهور النبات، وهو قليل، والجميم أكثر من ذلك.

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٥٧، وأمالى المرتضى ١٨٥/٢.

(٢) انظر: المثل السائر ٦٩/١.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام ١٩٠/٢.

(٤) انظر: ديوان أبي تمام ٢٢٧/٣.

(٥) انظر: ديوان أبي تمام ٢٢٧/٣.

فالسَّاحِلُ والقَلْبُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُمَا تَأْوِيلَانِ:

- أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَرَادَ بِهِمَا الْكَثِيرَ وَالْقَلِيلَ.

- وَالْآخَرُ: أَنَّهُ أَرَادَ بِهِمَا السَّبَبَ، وَغَيْرَ السَّبَبِ؛ فَإِنَّ السَّاحِلَ لَا يُحْتَاجُ فِي وَرْدِهِ إِلَى سَبَبٍ، وَالْقَلْبُ يَحْتَاجُ فِي وَرْدِهِ إِلَى سَبَبٍ.

وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ التَّأْوِيلَ هَهُنَا لَمْ يَتَأَرَّجَحْ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ، بَلِ الدَّلَالَتَانِ الْمَفْهُومَتَانِ كِلْتَاهُمَا مَجَازٌ؛ فَإِنَّ حَقِيقَةَ السَّاحِلِ وَالْقَلْبِ غَيْرُهُمَا.

وَرَجَّحَ ابْنُ الْأَثِيرِ (ت ٦٣٧هـ) التَّأْوِيلَ الثَّانِي؛ لِأَنَّهُ أَدُلُّ عَلَى بِلَاغَةِ الْقَائِلِ وَمَذْحِ الْمَقُولِ فِيهِ؛ وَأَمَّا بِلَاغَةُ الْقَائِلِ: فَالسَّلَامَةُ مِنْ هُجْنَةِ التَّكْرِيرِ بِالمُخَالَفَةِ بَيْنَ صَدْرِ الْبَيْتِ وَعَجْزِهِ، فَإِنَّ عَجْزَهُ يَدُلُّ عَلَى الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ؛ لِأَنَّ الْبَارِضَ هُوَ أَوَّلُ النَّبْتِ حِينَ يَبْدُو، إِذَا كَثُرَ وَتَكَاثَفَ سُمِّيَ جَمِيعًا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: أَخَذْنَا مِنْهُ تَبْرُعًا وَمَسْأَلَةً^(١)، وَقَلِيلًا وَكَثِيرًا، أَوْ كَأَنَّهُ قَالَ: لَقَدْ أَتَيْنَاهُ حَالَ السَّرَّاءِ وَحَالَ الضَّرَّاءِ فَبَلُونَاهُ، فَكَانَ فِي كِلْتَا الْحَالَيْنِ كَرِيمًا بَازِلًا.

مِنْ إِيْهَامِ أَبِي تَمَّامٍ الَّذِي أَسْهَمَ فِيهِ التَّوْرِيَّةُ وَالتَّوْجِيهُُ وَالْإِتْسَاعُ مَعًا قَوْلُهُ مَا دِحًا: [الكامل]

خَرَقَاءُ يَلْعَبُ بِالْعُقُولِ حَبَائِبُهَا كَتَلْعَبُ الْأَفْعَالِ بِالْأَسْمَاءِ

جَهْمِيَّةُ الْأَوْصَافِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ لَقَّبُوها: جَوْهَرُ الْأَشْيَاءِ^(٢)

الْخَرَقَاءُ هِيَ الَّتِي لَا تُحْسِنُ الْعَمَلَ مِنَ النِّسَاءِ، فَاسْتَعَارَ أَبُو تَمَّامٍ هَذِهِ الْكَلِمَةَ لِلرَّاحِ؛ لِأَنَّهَا تَخْرُقُ بِشَارِبِهَا^(٣)، ثُمَّ ذَكَرَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهَا تُحْسِنُ اللَّعِبَ بِعُقُولِ الشَّرْبِ كَتَلْعَبُ الْأَفْعَالِ بِالْأَسْمَاءِ؛ يَرِيدُ أَنَّهَا تُغَيِّرُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ؛ فَتَرْفَعُهَا تَارَةً وَتَنْصِبُهَا أُخْرَى. وَأَمَّا الْجَهْمِيَّةُ فَطَائِفَةٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ يُنْسَبُونَ إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ (جَهْمٌ)، وَمِنْ عَقْدَادِهِمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا، وَمَعَ ذَلِكَ يُلْزِمُونَهُ

(١) انظر: المثل السائر ١/ ٧٤.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ١/ ٣٣-٣٤. الحَبَاب: طرائقُ الماءِ فِي الْحَمْرِ حِينَ تُمْزَجُ.

(٣) انظر: النَّظَامُ ١/ ٢٤١.

العقوبة على ما يفعل، فتقع بذلك المناقضة^(١). وأبو تمام - في وصف الخمرة - كأنه يذهب مذهب جهم؛ لأنه يجعل الخمر لا فعل لها، ثم يزعم أنها أسكرته وشوقته، فيختلف خبراه عنها في الحال الواحدة.

وأما ما يعيننا من الإيهام فهو في قوله: (جَوْهر الأشياء) فهذا نوع من التورية، أوضحه التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) بقوله: «وهذا ضرب من صناعة الشعر يُسميه أصحاب النقد التورية، وذلك أنه ذكر هذه الطائفة من المتكلمين - ومن شأنهم أن يتكلموا في الجوهر والعرض - فأوهم السامع أنه يريد الجوهر الذي يستعمله أصحاب الكلام، وإنما يريد الجوهر الذي هو رونق الشيء وصفاءه، من قولك: ظهر جوهر الشيء، أي أن الأشياء ليس لها حسن إلا بالخمير...»^(٢).

ومثل هذه التورية نجدها عند البحريّ مزوجة بالاستدراك في قوله: [الكامل]

ووراء تسديّة الوشاة ملىّة بالحسن تملح في القلوب وتعذب
كالبدر إلا أنها لا تجتلى والشمس إلا أنها لا تغرب^(٣)

فظاهر اللفظ يؤهم في أول وهلة أن (تملح) من الملوحة، ولا سيّما أنه قال بعد ذلك: (وتعذب) من العذوبة التي هي ضد الملوحة، ولكنه أراد (تملح) من الملاحاة والجمال، فاتفقت له تورية راقية، ومّا زاد جمالية هذه التورية أنها تورية مرشحة؛ لأنها قرنت بما يلائم المعنى القريب ويرشحه (تعذب)، ويقويه ويميل الذهن إليه، وهذا أدعى إلى إيهام السامع.

ولا يخفى ما في استدراكه بـ (إلا) في البيت الثاني من جمال ومبالغة لا مزيد في الحسن عليها؛ أضفاها ذلك الإيهام الذي يشعر المتلقي أن الشاعر سوف يذكر بعد (إلا) صفة تنزل بتلك الفتاة دون الشمس والقمر؛ وإذا بالصفة المذكورة ترفعها فوقهما. فهي كالبدر جمالاً وبهاءً؛ إلا أنها لا تجتليها عيون الناظرين؛ لأنها محجوبة عنهم، فهي كالدرّ المكنون، وهي كالشمس نوراً وسُموّاً وعلاءً،

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٣٥ / ١.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٣٥ / ١.

(٣) انظر: ديوان البحريّ ٧٢ / ١. التسدية: الإصلاح والإحسان - ملىّة: مليئة (بالتخفيف).

وضيائُها يُزري بكلّ ضياء، وكلّ نورٍ دونها، إلّا أنّها دائمةُ الإشراقِ والبهاء، وليس هذا للشمس. فقد أوهمنا أنّه سيقلل من شأنِ المشبهِ فإذا به يزيده قوةً وادّعاءً، وفي ذلك أيضاً إيهامٌ بأنّ الصّفةَ في المشبهِ أقوى من المشبه به، وهذا عينُ التشبيهِ المقلوب، ويجيءُ في البديع على هيئة الاستدراك، ولا يخفى أنّ هذا الاستدراك يقومُ على مُفاجأةِ المتلقّي، ومُباغتته بغير ما كان يرتقبُ، فتحصلُ هنا الدّهشةُ؛ لتلخّص تلك المفارقات، وتمنحَ المتلقّي القدرةَ العقليّةَ على إدراك هذه المفارقات معاً، وهذا يولّدُ مُنبهاً أسلوبياً يوقظُ غفلةَ المتلقّي، ويُنشّطُ فكره، ويُقرّرُ المعنى في نفسه.

وأما التّوجيهُ ففي قوله [أبي تمام]: (كتلّعِبِ الأفعالِ بالأسماءِ) لأنّه أشارَ بذلك إلى قواعد علم النّحو، ومعلومٌ أنّ التّوجيهَ هو توجيهُ المتكلّمِ مُفرداتٍ بعضِ الكلامِ أو كلّهُ إلى أسماءٍ متلائمةٍ من أسماءِ الأعلام، أو قواعدِ العلومِ والفنون... توجيهاً مطابقاً لمعنى اللفظِ الثّاني^(١)، وهذا الفنُّ من ديدنِ أبي تمام، ومنه قوله مادِحاً: [الطّويل]

فلو صَحَّ قولُ الجعفرِيّةِ في الذي تَسْنُصُ من الإلهامِ خِلْناكَ مُلْهِماً^(٢)

فالتّبريزيّ (ت ٥٠٢ هـ) يقول: «الجعفرِيّةُ: أرادَ بهم قوماً من الشيعة، يُغالون في جعفر بن محمّد، فيزعمون أنّه يُلْهِمُ الأشياءَ فيعلّمُها، وكذلك يعتقدون في أئمّتهم أنّهم يعلمون الغيب»^(٣).

ومن ذلك قوله موجّهاً بالبدعِ والسُّننِ في قوله مادِحاً: [البسيط]

كم في العلّالِهمُ والمجدِ من بدعٍ إذا تُصَفِّحَتْ اختيرَتْ على السُّننِ^(٤)

فقد ذكّرَ البدعَ والسُّننَ، وهما من ألفاظِ الفقهاء.

ومن ذلك قوله في أحمد بن المعتصم في مرضه: [المنسرح]

صاغَهُمُ ذو الجلالِ مِن جَوْهرِ المجدِ - صِدِّ وصاغِ الأنامِ مِن عَرَضِهِ^(٥)

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغيّة ص ٤٣١، وشرح الكافية البديعيّة ص ١٢٢، وخزانة الأدب ٣٥٣/٢.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٢٤٢/٣.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام ٢٤٢/٣.

(٤) انظر: ديوان أبي تمام ٣٣٩/٣.

(٥) انظر: ديوان أبي تمام ٣١٧/٢.

يقول التبريزي (ت ٥٠٢هـ): «هذا مأخوذ من الجوهر والعرض اللذين وضعهما المتكلمون؛ لأنَّ الجوهر عندهم أثبت من العرض»^(١).

ومن ذلك قوله مادحاً: [الخفيف]

لن ينال العلا خصوصاً من الفئت بيان مَنْ لم يكن نداءً عموماً^(٢)

فقد ذكر الخصوص والعُموم، وهما من ألفاظ المناطق.

وبالإمكان القول: إنَّ أبا تمام عكس ثقافته الواسعة في أسلوب التوجيه وكان من أوائل مَنْ طرَّقه، ولذا فإنَّ التوجيه عند أبي تمام لم يحمل طاقةً إيهاميةً عالية؛ لأنَّه كان يُعبّد الدرب لمن وراءه، ثمَّ شاع هذا الفنُّ ورأى طريقه إلى النور في العصور المتأخِّرة؛ واكتسى بحُلل الإيهام؛ كما في قول الشَّابِّ الظَّريف: [مُخلع البسيط]

يا ساكناً قلبي المَعْنَى وليس فيه سواك ثاني

لأي شيء كسرت قلبي وما التقى فيه ساكناً!^(٣)

وقول نزار قبَّاني: [الخفيف]

شام يا شام يا أميرة حُبِّي كيف ينسى غرامه المجنون؟^(٤)

فقد وجَّه باسم العَلَم؛ وبذا يُفهم البيت على وجهين؛ (كيف ينسى غرامه المجنون بحبك أيَّتها الشَّام)، أو (أنا لا أستطيع نسيان حبِّك كما أنَّه يتعدَّر على مجنون ليل أن يتناسى هواه).

فالتوجيه بما فيه من إيهامٍ للمتلقِّي - أحياناً - يُفسِّح المجال للتفسيرات المتعدِّدة، ويعكس ثقافة المتكلِّم ويختبر فطنة المتلقِّي، ويُشركه في العملية الإبداعية؛ من حيث إنَّ الكلام ليس له وجهٌ واحد يطمئنُّ إليه السَّامع ابتداءً، بل لا بُدَّ لهذا المتلقِّي من نشاطٍ إدراكيٍّ فعَّال يُفضي به إلى المعنى

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٣١٧/٢.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٢٢٥/٣.

(٣) انظر: معاهد التنصيص ١٤٦/٣، وخزانة الأدب ٣٦٦/٢.

(٤) انظر: الأعمال الشعرية الكاملة لنزار قبَّاني (قصيدة: ترصيعٌ بالذهب على سيف دمشق ٤٢٩/٣ - ٤٤٤).

الصَّحيح، وعندها يَنْعَمُ المتلقِّي بِلَذَّةِ التَّعْرِفِ المتتابع، وفي هذا الأسلوبِ طَرَفَةٌ لا تَخْفَى؛ من حيثُ إنَّ المتكلمَ يَسْتَخْدِمُ المصطلحَ في غيرِ بابِهِ، فيندهِشُ القارئُ؛ لأنَّه لم يكنْ يتوقَّعُ أنْ يسمعَ مُصطلحاً نحويّاً مثلاً وهو مُستغرقٌ في قصيدةٍ غزليَّة.

وأما الاتِّساعُ في قوله: [الكامل]

جَهْمِيَّةُ الأوصافِ إلَّا أنَّهم قد لقَّبوها: جَوْهَرَ الأشياءِ^(١)

فلأنَّه كَثُرَ الكلامُ والخِلافُ في تفسيرِ هذا البيتِ والكلامِ على مذهبِ الجَهْمِيَّة؛ فتعرَّضَ لتأويله الصُّوليُّ (ت ٣٣٥هـ)، والآمديُّ (ت ٣٧٠هـ)، والمرزوقيُّ (ت ٤٢١هـ)، والمعريُّ (ت ٤٤٩هـ)، والتبريزيُّ (ت ٥٠٢هـ)، وابنُ المستوفي (ت ٦٣٧هـ)، فقال الصُّوليُّ: «مذهبُ جَهْمٍ الجَحْدُ وقِلَّةُ التَّحصيل. مِنْ رَقَّتْها تكادُ لا تتحصَّلُ، إلَّا أنَّهم على حالٍ قد جعلوها جوهرًا، أي أصلًا للأشياء، يريدُ قَدَمَها»^(٢)، وذكرَ المرزوقيُّ أنَّ جَهْمَ بنَ صفوانٍ يمتنعُ من أنْ يُسمِّيَ اللهَ تعالى شيئاً؛ لاعتقاده أنَّ هذه اللَّفظةَ إنَّما تُطْلَقُ على المُحدَثات: الجواهر والأعراض، فيقول: رَقَّتْ هذه الخمرةُ حتَّى كادتُ تخرجُ من أنْ تكونَ عَرَضاً أو جوهرًا، أو أنَّ تُسمَّى شيئاً، إلَّا أنَّ (الجلالة) لفخامةَ شأنِها لُقِّبَتْ بجوهرِ الأشياءِ كُلِّها. ويجوزُ أنْ يكونَ أرادَ أنَّها لِعِتْقِها وقَدَمِها سُمِّيتْ أصلَ الأشياءِ، وأوَّلَ الأشياءِ»^(٣). وقال الآمديُّ في (تفسير معاني أبي تمام): «وهذا البيتُ ممَّا عهدتُهم يُفيضون فيه وفي تفسيره، فلا يَصِحُّ إلَّا بالحدسِ والظنِّ؛ لأنَّ (جَوْهَرَ الأشياءِ) لا يُدرى ما أرادَ به»^(٤). واختلافُ العلماء والأدباء في تأويلِ هذا البيتِ يوافِقُ حدَّ الاتِّساعِ البلاغيِّ الذي يُوهِمُ المتلقِّي، ويذهبُ به كلُّ مذهبٍ، ويُثري دلالةَ الكلام. وأنت تتأمَّلُ التَّأويلاتِ المستفيضةَ التي يُقدِّمها الشُّراخُ لكلِّ بيتٍ من مُشكِلاتِ أبي تمام ترى فطنةَ هؤلاء المتلقِّين، وأنَّ تأويلاتهم هذه ما هي إلَّا استنطاقٌ للنصِّ الأدبيِّ، وإبداعٌ على

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٣٣-٣٤.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام (بشرح الصُّولي) ١/ ١٨٤.

(٣) انظر: شرح مُشكِلاتِ أبي تمام المفردة ص ٢٤٨.

(٤) انظر: النِّظام ١/ ٢٤٥.

الإبداع، وأظنُّ أنَّ التأويلات المتكاثرة التي تتولّد من بيت شعريٍّ ما هي إلاَّ اجتهاداتُ أبدعها المتلقّي، ولم تكن أكثرُ هذه المعاني والدلالات المتباينة لِتُخَطِّرَ للشاعر وهو يُعِدُّ كلامه.

فأبو تمام بسعة ثقافته وبراعته الفنيّة يقتدرُ على صناعة نصٍّ أدبيٍّ مفتوح على كثيرٍ من الفضاءات الدلاليّة، ليمنح النصَّ حياةً وتجديداً، ويمنح المتلقّي سُلطةً تُمكنه من المشاركة في العمليّة الإبداعيّة، وأنَّ يُقولَ المؤلّف ما لم يُقل، فالنصُّ ههنا تتعدّد معانيه بتعدّد قراءاته؛ وتباينُ تلك المعاني والتأويلات بتباينِ المرجعيّة الفكرية والثقافية والاجتماعيّة التي يستند إليها كلُّ قارئ.

وجمالية الإيهام ههنا أنَّ النصَّ التّماميَّ المتعدّد المعاني الغنيّ بدلالاته يسمحُ للمتلقّي بالقراءة التفاعليّة؛ ليعبرَ عن ذاته في تأويل النصّ، وليُسهّم في إعادة تشكيله، وههنا يبرزُ الفرقُ بين النصوص الفقيرة الدلالات وبين النصوص الغنيّة.

ومن الإيهام بطريق المشاكلة^(١) قولُ أبي تمام: [الكامل]

مَنْ مُبْلَغُ أَفْنَاءِ يَغْرُبُ كُلُّهَا أَنِّي ابْتَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْزِلِ^(٢)

فقد جعلَ الجارَ يُبْنَى كما تُبْنَى الدّار، وبناء الجار إنّما سوّغَه بناءُ المنزل وهو متأخّر عنه. وجمالُ هذه المشاكلة أنَّ الابتناء تثبيتٌ وإحكامٌ، وكأنّه استعارَ هاتين الصّفتين لجاره الذي أوثّق أمره معه.

ومن المشاكلة أيضاً قوله: [الوافر]

أَظُنُّ الدَّمْعَ فِي خَدِّي سَيُبْقِي رُسوماً مِنْ بُكَائِي فِي الرُّسُومِ^(٣)

(١) المشاكلة: هي أن يُعبّرَ عن شيءٍ بلفظٍ غيره؛ لوقوعه في صُحبته؛ كأن يسألك صاحبُ الدّار: أأسقيك ماءً؟

فَتُجِيبُهُ: (بل أسقني خبزاً ولحماً). انظر: معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها ص ٦٢١، وخزانة الأدب

٥/٤، وأنوار الرّبيع ٢٨٤/٥، وتهذيب الإيضاح ٥٩/١-٦٥.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٤٩/٣.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام ١٦٠/٣.

ألا ترى إلى براعة أبي تمام كيف لفَّ المشاكلة في لونٍ مُبهرٍ من التصوير يزيدُ المعنى طرافةً؛ إذ جعلَ آثارَ الدَّمعِ الجاري على خَدِّهِ مثلَ الآثارِ الدَّارِسةِ في ديارِ المحبوبة^(١)، وهذا من المشاكلة وليس من التَّجنيس كما قد يُتوهم؛ لأنَّ اللَّفْظَيْنِ مُتَّفِقَانِ صوتاً ومعنى.

ومثله الإيهامُ المنبعثُ من المشاكلة في البيت الثاني من قوله مادِحاً المأمون: [الكامل]

عَطَفُوا الخُدُودَ على البُودُورِ، ووَكَّلُوا ظَلَمَ السُّتُورَ بِحُورٍ عَيْنٍ نُهَدَ
وَتَنَوا على وَشِي الخُدُودِ صِيَانَةً وَشِيَ البُرُودَ بِمُسْجَفٍ وَمُهَدٍ^(٢)

استطاع أبو تمام أن يستعيرَ لخدودِها البيضاء المصبوغة بِحُمْرَةِ الحَجَلِ وَشِيَ الخُدُودَ؛ لوقوعِها بِصُحْبَةِ (وَشِيَ البُرُودَ)، فعَبَّرَ عن زينة الخُدُودِ وامتزاجِ البياضِ بِالْحُمْرَةِ فيها بالوشى، فأسهمت المشاكلة في تشكيل الصُّورة الفنِّية على نحوٍ مُدهشٍ. وجمالية الإيهام في أسلوب المشاكلة تنبعُ من حيثُ تَوَهَّمِ المتلقِّي أولاً أَنَّ مدلولَ الكلمةِ المأتي بها للمشاكلة هو مدلولُ الكلمةِ الأخرى نفسه، ثُمَّ أدركته بهجةُ التَّعْرِيفِ ولَذَّةُ الاكتشافِ حين بدا له أَنَّ الكلمةَ الثَّانيةَ لَيْسَتْ من جهةِ الأولى، وإنَّما جيءَ بها استجابةً لداعي المشاكلة. ولا يخفى ما في البيت من تصويرٍ خفيٍّ لجمالِهن؛ إذ العادةُ أَنَّ البرودَ الموشاةَ تلبَّسُها الفتياتُ تَجْمُلاً وتزِيناً بألوانِها، أمَّا حُورُ أبي تمام فيستعينُ بهذه البرودِ الزَّاهيةِ الألوانِ على سِتْرِ جمالٍ وجوههن، وهذا المعنى فيه مُبالغةٌ خفيةٌ مُستَحَبَّةٌ.

ومن إيهام أبي تمام على طريق التَّجريدِ^(٣) قوله: [الكامل]

هَكَكَ الظَّلَامَ أَبُو الوليدِ بَغْرَةً فَتَحَتْ لَنَا بَابَ الرَّجَاءِ السُّمُفْلَ
بَاتَمَّ مِنْ قَمَرِ السَّاءِ إِذَا بدا بَدَرًا، وَأَحْسَنَ فِي الْعَيُونِ وَأَجْمَلَ
وَأَجَلَ مِنْ قُسٍّ إِذَا اسْتَطَقَّتْهُ رَأْيًا، وَالْطَفَ فِي الْأُمُورِ وَأَجْزَلَ^(٤)

(١) انظر: الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام ص ٣٣.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٤٦/٢. المُسْجَفُ: المُسْبَل.

(٣) التَّجريدُ: هو أن يُتَرَكَ من شيءٍ مُدْعَى كماله في صفةٍ من الصفاتِ شيءٍ آخَرُ مثله في هذه الصِّفةِ، وله

طرائق مختلفة. انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٢٥٨، والمنزَعُ البديع ص ٢٧٨.

(٤) انظر: ديوان أبي تمام ١١٦/٣.

فقد جرّد أبو تمام من ممدوحه (أبي الوليد) فارساً مُحَيَّاهُ أَجَلُ في العيون من بدر التّمام، وأعقل من قُسّ إذا تكلم، وهنا قد يقع في وَهْمِ المتلقّي أَنَّ البيتَ الثّاني والثّالث يتكلّمان على غير أبي الوليد، وجماليّة التّجريد تنبعثُ ههنا من المبالغة اللّطيفة التي تأنسُ النّفسُ بها، وإنّ الشّاعر لا يُسلّمُ المعنى إليك ابتداءً، بل يُوهّمُك غير المراد؛ وكأنّه ضنّين به إلّا على مَنْ أعملَ ذهنه، فعقل المعنى، فتمكّن المراد في نفسه، ومعلوم أن تحصيل المعلومة بعد جهد وكد أدعى إلى تمكّنها في النّفس ورسوخها في الدّهن.

ومن إيهام التّضادّ في شعر أبي تمام ما وقّع في البيت الثّاني من قوله: [الكامل]

لا تُنْكِرِي عَطَلَ الكَرِيمِ مِنَ الغنى فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكانِ العَالي
وتَنظُرِي خَبَبَ الرُّكَّابِ يَنْضُها مُحْيِي القَرِيضِ إلى مُمَيّتِ المالِ^(١)

فليس بين (مُحْيِي) و(مُمَيّت) ههنا تضادّ؛ إلّا بما يُوهّمُ ظاهرُ اللَّفْظِ؛ لأنّ (مُحْيِي القريض) ههنا كناية عن مُجِيده، ويعني به نفسه، و(مُمَيّت المال) كناية عن مُفنيه في الكرم، ويعني به ممدوحه، على أنّ النّاظر في ظاهر الألفاظ قد يتوهّم بينهما التّضادّ.

ومن إيهام التّضادّ قوله أيضاً في الشّيب: [الطّويل]

لَهُ مَنظَرٌ في العَيْنِ أبيضُ ناصِعٌ ولكنّه في القلبِ أسودُ أسْفَعُ^(٢)

فليس المراد بالأسود ضدّ اللون الأبيض، وإنّما هو كناية عن السُّخْطِ والأسى على فَقْدِ الشّباب.

ومن إيهام التّضادّ أيضاً قوله: [الكامل]

كم جئتُ في الهيجا بيومٍ أبيضٍ والحربُ قد جاءتْ بيومٍ أسوداً^(٣)

يقصدُ باليوم الأبيض أنّك كشفتَ فيه الشّدّةَ وأزحمتَ الغمّةَ، وأبليتَ فيه بلاءً حسناً، وباليوم الأسود هجومَ الأعداء من كلّ جانبٍ بلا هَواذٍ ولا رحمة.

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٣/ ٧٧.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٢/ ٣٢٤.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام ٢/ ١٠٥.

ومن الإيهام الذي لم يسبق إليه أبو تمام قوله هاجياً عُثْمَانَ بن إدريس الشَّامِي مُسْتَطَرِداً ^(١) في
فرسي: [البسيط]

وسايح هَطِلِ التَّغْدَاءِ هَتَانِ	على الجراء أمسين غير خَوَّانِ
أظمى الفُصُوصِ ولم تَظْمَأْ قَوَائِمُهُ	فَحَلَّ عَيْنِكَ في ظَمَانٍ رِيَانِ
فلو تَرَاهُ مُشِيحاً، والحصى فَلَيقُ	تَحْتَ السَّنَابِكِ مِنْ مَثْنَى وَوُحْدَانِ
حَلَفْتَ إِنْ لم تَثَبَّتْ أَنْ حَافِرَهُ	مِنْ صَخِرٍ تَدْمُرُ أَوْ مِنْ وَجِهٍ عُثْمَانِ ^(٢)

فأبو تمام أظهر لنا أنه بحث عن مُشَبِّه به مُلائِم لحافر ذلك الفرس فعنَّ له عن غير قصد وجه عُثْمَانَ مُشَبَّهاً به أقرب ما يكون إلى صِحَّة التشبيه وسلامته، وكأنَّ وجه عُثْمَانَ غداً علماً على القساوة، وكأنَّه لم يبق في الدنيا شيءٌ يتعلَّق أبو تمام بأذياله ليدلَّ على قساوة وخشونة حافر الحصان سوى وجه عُثْمَانَ، ألا تراه انعطف كالبرق الخاطف من وصف قوائم الفرس إلى هجاء عُثْمَانَ مُوهماً أنَّ هذا الرَّجُلَ قَعَدَ في طريق قافيته، وأنَّه ما انتواه ابتداءً، وهذا إيهامٌ لم يسبق إليه أبو تمام فيما أدري، وقد احتذاه البحريُّ وهو يمدحُ محمداً بن عليَّ القُمِّيَّ، ويصفُ فرساً له من عطايا هذا الممدوح؛ بقوله: [الكامل]

وَأَغَرَّ في الزَّمَنِ البَهِيمِ مُحَجَّلِ	قَد رُحْتُ مِنْهُ على أَغَرِّ مُحَجَّلِ
يَهْوِي كَمَا يَهْوِي الْعُقَابُ، وَقَد رَأَتْ	صَيْدًا، وَيَنْتَصِبُ انْتِصَابَ الْأَجْدَلِ
مَا إِنْ يَعاْفُ قَدَى، وَلَوْ أوردَتْهُ	يَوْمًا خَلائِقَ حَمْدِ وَيَه الْأَحْوَلِ
ذَنَبٌ كَمَا سُحِبَ الرِّدَاءُ يَذُبُّ عَنْ	عُرْفٍ، وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمُسْبِلِ ^(٣)

(١) الاستطرادُ البلاغيُّ: هو أن يكون الناظم أو الناثر آخذاً في غرض من أغراض الكلام؛ من غزلٍ أو مدحٍ أو وصفٍ أو غير ذلك، فيخرج منه إلى غرض آخر يذكره، وغالباً ما يخرج إلى القدح والهجاء، ثم يعود إلى غرضه الأصلي. انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص ٧٩، وأنوار الربيع ١/ ٢٣٥.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٤/ ٤٣٤.

(٣) انظر: ديوان البُحْريِّ ٣/ ١٧٤٤. الأغَرُّ: من الرجال الشريف، ومن الخيل ما كان في جبهته بياض، وقصد بالأغَرِّ في صدر البيت ممدوحه وفي عجزه الفرس الذي أهده إليه. والمُحَجَّلُ من الرجال المشهور ومن الخيل ما كان في قوائمه بياض، والبَهِيم: المظلم، والأَجْدَلُ: الصَّقَرُ الشَّدِيد، والقَدَى: ما يقع في العين أو الماء من ترابٍ أو تبنٍ ونحوها، والعُرْفُ: شعرٌ عنق الفرس. وقد مرَّ تحليلُ هذا الشاهد في الدراسة النظرية.

فالبحتريُّ يُثني على شَرَفٍ ممدوحه وشُهرته وعلى ما وصله به من فَرَسٍ عتيقٍ كريمِ الصِّفات؛ له من العقابِ سرعته، ومن الصَّقرِ انتصابه، مطَّوَّعٍ لصاحبه مُوطَّنٍ نفسه على المكاره؛ لا يعافُ ماءً أصابها شيءٌ من تُرابٍ أو تينٍ، بل إنَّه بلغَ من الانقيادِ لصاحبه مَبْلَغاً لا يُعَانِدُه فيه، ولو أمره الحَوُصُ في خلائقِ حَمْدِويه الأحوال، زدْ على ذلك ما يُجَمِّله من طُولِ ذَيْلِه، وغزارة الشعر المُتدَلِّي على عُقْبِه. فماذا لو عرفنا أنَّ «حمْدِويه الأحوال» هذا كانَ عدوًّا لممدوحه^(١)، لا ريبَ في أنَّ الشَّاعِرَ يُموِّه؛ فقد جاء بحمْدِويه الأحوال في عَرْضِ الكلام ونالَ منه، ثُمَّ مضى كأنَّه ما رمى إلى ذلك، ولا انتواه ابتداءً. ولو نظرتَ في تعقيبِ ابنِ أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ) لرأيتَه كاشفاً قِناعَ البحتريِّ، مُتنبِّهاً لإيhamه، عارِفاً بمكيدته، لم يقعْ في لَبْسٍ منه أو اشتباهٍ، إذ قال: «ألا تراه كيفَ استطرَدَ بِذِكْرِ حَمْدِويه الأحوال الكاتبِ، وكأنَّه لم يقصدْ ذلك، ولا أرادَه، وإنَّها جرَّته القافية، ثُمَّ تركَ ذِكْرَه، وعادَ إلى وَصْفِ الفَرَسِ؟ ولو أقسمَ إنسانٌ أنَّه ما بنى القصيدةَ مُنْذُ افتتحها إلَّا على ذِكْرِه، ولذلك أتى بها على رَويِّ اللام، لكانَ صادقاً»^(٢).

ولارِيبَ في أنَّ هذا المسلكَ اللَّطيفَ يُضفي على الكلامِ جدَّةً وطرافةً، من قِبَلِ أنَّه يُخَطِّفُ أنظارَ المتلقِّين ويصنَعُ عنصرَ المفاجأة الذي يُقوِّي السُّخريةَ، وطرافته أيضاً من حيثَ يبدو المتكلِّمُ بمظهر المتعالي المترفع الذي لم يقصدِ السُّخريةَ من خصمه، بل قعدَ الخصمُ في طريقِ قافيته، أَضِفْ إلى ذلك أنَّ المستطرِدَ يُورِدُ تلكَ السُّخريةَ وكأنَّها أمرٌ مُسلَّمٌ به، مما يُضفي عليها قوَّةَ ادِّعاءٍ تجعلُها تبدو للقارئِ صفةً لازمةً أو مُلازمةً للمستطرِدَ به، ومما يزيدُ الاستطرادَ نكايةً ومُكايَدةً التَّصريحُ باسمِ المستطرِدَ به أو المسخور منه؛ كما فعلَ البحتريُّ بحمْدِويه الأحوال، ولو حَدِّقْ هَجَاءُ فِعْلِ البحتريِّ؛ لأمكَنَه ذلك من اتِّخاذِ أسماءِ خُصومه تَكَاةً له، يُتِمُّ بهم أوزانه، ويَجْبُرُ بهم قوافيه، ما شاء أنْ يَكِيدَهم ويَمَكُرُ بهم. ويُحْيِلُ إلَيَّ أنْ عبارة هِجائيةً واحدةً تحيُّ في قصيدة مدحٍ أو غزلٍ هُي أوجَعُ من جراحِ الأَسِنَّةِ؛ لأنَّها تعلقُ في الذَّهن، وتَجْري بِجَري المثل، وقد تسيرُ بها الرُّكبانُ لِطرافتها وغرايتها. وقد ذكرتِ الأخبارُ أنَّه قيلَ للبحتريِّ: إنَّكَ احتذيتَ - في شِعْرِكَ هذا - أبا تمامٍ، وعملتَ كما عملَ من المعنى، وقد عابَ هذا عليك قومٌ، فأجابَ البحتريُّ: أَيْعَابُ عَلَيَّ أنْ أَتَبَعَ أبا تمامٍ، وما عملتُ بيتاً قَطُّ حتَّى أُخْطِرَ شِعْرَه بِيالي؟^(٣).

(١) انظر: أخبار أبي تمام ص ٦٩-٧٠.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة ٧/ ٢٤٢.

(٣) انظر: أخبار أبي تمام ص ٧٠.

المبحث الثاني

جمالية الإيهام بالتجنيس في شعر الطائيين (تحليل ومقارنة).

الجناس فنٌ جميلٌ يقوم على تكرار صوتيٍّ يؤهم السامع ويُخادعه؛ من حيث إنك إن سمعت اللفظة تُعاد على مسامعك كما هي، حسبتها من باب التوكيد، فإذا بها تُفاجئك بحملها دلالةً جديدةً مختلفةً مُتكررةً بزيٍّ اللفظة السابقة، فتراها قد خاتلتك في شيءٍ من المداهاة والمواربة، مع نشوةٍ تشعرُ بها بعد زوال الوهم عنك؛ لأنك قد اقتنصت الفائدة من حيث لم تكن ترجو أو تحتسب أولاً، ولأنك قد عشت لذة التتابع المعرفي ثانياً، فضلاً عن الرنين الصوتي الذي يصنعه الجناس، فيُسهم هذا الرنين في التشكيل الموسيقي للنص الأدبي.

وهذا الوهم أكثر ما يكون في الجناس التام، وهذا الإيهام الممتع أكثر ما يتفق عند من يتصنعون الجناس ويحشدون له طاقات اللغة، ومنهم أبو تمام الطائي (ت ٢٣١هـ)، ولكنه قد يرد عذباً نميراً أيضاً عند المطبوعين كالبحتري (ت ٢٤٨هـ) ونما يزيد في جمالية الجناس الموهم عند هؤلاء المطبوعين أمران: أولهما أنه يأتي على نحو يشعر المتلقي معه أنه جاء عفواً الخاطراً، وأنه جادت به القريحة من غير تمحّلٍ أو تكلفٍ يذهب برواء الشعر ومائه، وثانيهما أن وروده في أشعار هؤلاء نادرٌ جداً؛ لأن الجناس التام نادراً ما يتفق للبليغ في كلامه، فوروده القليل في الكلام يجعل المتلقي يحتفي به، كما يحتفي ظمأن الصّحراء بقطرات الماء البارد، وسوف نسعى ههنا إلى تحليل نماذج من الجناس الموهم عند الطائيين، ونبين جمالية الإيهام فيهما، وسنحاول أن نتلمس أثر الطبع والصّنع في ذلك.

وقبل البدء بالكلام على الجناس الموهم لا بد من الكلام على أمرٍ هو غاية في الأهمية قد ساءه النقاد خسفاً، إذ راح بعض الناس يردد كالبيغاء، وينعى على الجناس العيوب، ويرميه بمثالب أهل الأرض واضعاً نصب عينيه أمثلة تالفة مُتهالكة لأناس نسبتهُم إلى الشعر سُبةً، متناسياً وجوه البيان والجمال والإحساس التي تبعثها في النفس موسيقى الجناس المطبوع الرائقة.

فنحنُ نعلمُ أنَّ موسيقى القصيدة العربية لم تحظَ بعنايةِ البلاغيين العربِ قديماً وحديثاً إلاَّ لإماماً، فالقصيدةُ العربيةُ القديمةُ فيها خطوطٌ موسيقيةٌ إجباريةٌ لا يجوزُ التحلُّلُ منها، وهي وَحدةُ البحر والقافية، وهذا يُمثِّلُ الموسيقى الخارجيّة للنصّ، وثمة أيضاً خطوطٌ موسيقيةٌ اختياريةٌ منها تنبعُ الموسيقى الداخليّة للنصّ كالترّكّارِ الصّوتيّ الذي سنأخذُ الجناسَ مثلاً عليه، ومثُل ذلك التكرار تجده في التّصريع، والتّرصيع، والتّصدير، والتّرديد، وعكس اللفظ، والتّشطير^(١)، والجناسُ أميرُ هذه المقوّماتِ الصّوتية التي تُضفي على النصّ حركةً ورشاقةً وانسياباً لا تلتفتُ إليه كتبُ البديع التّقليديّة التي تُعنى بجمع المصطلحات والأمثلة التي تُنفّرُ الناسَ من فنون البديع، وهذه المقوّماتُ الصّوتية تتداخلُ مُكوّناتها لتَمنَحَ المتلقّي مزيجاً صوتياً يُسهِمُ في التّشكيل الإيقاعيّ والموسيقى للنصّ؛ لذا فإنَّ اختيارَ الشّاعرِ للكلماتِ المتشابهة جُزئياً أو كلياً داخلَ الجملةِ الشّعريّة عمليةٌ مقصودةٌ يلجأُ إليها الشّاعرُ لتحقيق أغراضٍ فنيّةٍ وجماليّةٍ مُبتغاةٍ في عقله ووعيه أو مُحتبّةٍ في لاشعوره الفنّي أو سليقته الأدبيّة التي صقلتها روايته الشّعريّة وتعاطيه، فذوقه الأدبيّ قد يطلبُ هذه التماثلاتِ الصّوتية ويستدعيها بإلحاح؛ لأنَّ موسيقاها ممّا يُطربُ الأذنَ ويُريحُ النّفسَ، وهذا الذي يُفسّرُ وجودها عند المطبوعين.

وآفةُ بعضِ البلاغيين التّقليديين أنّهم كانوا ينظرون إلى الفنونِ البديعيّة عامّةً على أنّها زينةٌ طارئةٌ وزخارفٌ لفظيّة لا تعدو كونها مُحسّناً، ويتناسون أثرها في الإيهام وخداع المتلقّي بالمعاني، وتشكيل موسيقى النصّ، وتمكين المعنى، ولعلَّ هذه النّظرة تعودُ إلى موقفِ بعضِ النّقّادِ المحافظين من النصّ المحدث، إلاَّ أنّنا ههنا لن نتوقّفَ عندَ الجانبِ الصّوتيّ والموسيقى من الجناسِ إلاَّ بمقدارٍ ما يعضدُ مذهبنا في إبرازِ أثرِ الجناسِ في إيهام المتلقّي عند الطّائفتين، ولا بُدَّ من التّأكيد أنّه ينبغي أن يُنظرَ إلى الجناسِ من أربعِ زوايا: تكرارُ الأصواتِ نفسها أو أغلبها، ثمَّ اختلافُ الدّلالةِ بين المتجانسين، ثمَّ أثرُ هذا التّجانسِ الصّوتيّ في إيهام المتلقّي، ثمَّ أثرُ هذا الإيهام في التّشكيل الفنّي للنصّ الأدبيّ وموافقته للمقام.

(١) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (التصريع ص ٣٦٣، والتّرصيع ص ٣٠٦، والتّصدير ص ٣٥٥، والتّرديد ص ٣٠٢، وعكس اللفظ ص ٥٣٥، والتّشطير ص ٣٥٢).

أ - إيهام التّجنّيس في شعر أبي تمام:

إنَّ أبا تمامَ كانَ مدرسةً في صنعةِ البديعِ في عصره، لا شبيهةَ لها في تاريخِ الأدبِ العربي؛ لأنَّه - على صنعتِه - لم يُفَرِّطْ أو يُفَرِّطْ، لم يُفَرِّطْ بإيرادِ الجناسِ مثلاً وتلفيقه على نحوٍ مُثَلِّ مُنْفَرِّ (إلا نادراً)^(١)، ولم يُفَرِّطْ بهذا الفنِّ الجميل الذي يجعل الكلامَ مرموقاً موموقاً، بل كانَ أبو تمامٍ مشغولاً بالجناسِ مُغَرِّماً به لا يدعُ فرصةً إلا ويكسو شعره من حُلِّله؛ حتَّى أضحي التّجنّيسُ من أبرزِ خصائصِ مذهبه الفنّي، وأصلاً من الأصولِ التي يعملُ عليها في شعره؛ لأنَّه أسلمَ نفسه إلى التّكلُّفِ.

والفارقُ بين تجنيسِ أبي تمامٍ وتجنيسِ مَنْ قلدوه من المتأخّرين هو أنَّ تكلُّفَ الجناسِ يُجبرُ الشَّاعِرَ على البحثِ عن الكلمةِ الأخرى التي بها يَتِمُّ الجناسُ، ثُمَّ يُفَكِّرُ بطريقةٍ مُناسبةٍ تجمعُ هاتين الكلمتين المتباعدين معنًى، ثُمَّ قد يُضطرُّ إلى تحويرِ معنى البيت؛ لكي يصطنعَ ملاءمةً بينَ هاتين الكلمتين من جهة، وبين المعنى العامِّ للبيت من جهةٍ أخرى، وهنا يتوقَّفُ تفكيرُ الشَّاعرِ بمعنى البيت؛ لِيُفَكِّرَ في طريقةٍ إلباسِ معنى البيت لهاتين الكلمتين المتجانستين، وعندَها لن يكونَ حظُّ العنايةِ بالمعنى موفوراً؛ لأنَّ التَّجربةَ الشُّعوريَّةَ المرادَ التَّعبيرَ عنها قد يهدُرُ شيءٌ غيرٌ قليلٌ من أصلاتها في أثناء هذه العملية العقلية لتلفيقِ الجناسِ، وهذا ما نجدُه عندَ كثيرٍ مِمَّنْ حاولوا الإكثارَ من البديعِ مُقلِّدين أبا تمامَ، فأتت تجنيساتُهم غثَّةٌ باردةٌ مُستقلَّةٌ ذهبتْ بقاءُ الشُّعْرِ ورونقه، وأمَّا أبو تمامُ فإنَّك - على صنعتِه - تشعرُ بأنَّه «مالكٌ زمامي النِّظْمِ: الفكرة، ووسيلةُ التَّعبيرِ عنها»^(٢)، وإن كنتَ لَترى له أبياتاً أثقلها التَّجنّيسُ حتَّى أضحَت مَرْتَعاً لِمَنْ أرادَ أن يشتغلَ به من النُّقادِ.

وأنبأُ التَّجنّيسُ في شعره كثرةً، منها الجناسُ المجازي، وهذا التَّجنّيسُ يتركزُ على الاختلافِ الدَّلاليِّ بينَ كلمتين مُتجانستين؛ إحداهما حقيقيَّةٌ والأخرى مجازيَّةٌ، ومن ذلك قوله: [البسيط]

كَمْ أَحْرَزْتُ قُضْبُ الهنديِّ مُضَلَّتَةً تهتزُّ من قُضْبٍ تهتزُّ في كُتُبٍ^(٣)

(١) تتبَّع النُّقادُ قبيحَ جناسِ أبي تمام؛ كما في الموازنة ١/ ٢٨٢-٢٩٢، والصَّناعتين ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٢) انظر: الفنُّ والصُّنعة في مذهب أبي تمام ص ٥٠.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام ١/ ٧٧.

الجناسُ العجيبُ ههنا واقعٌ بين (قُضِب) في الشَّطر الأوَّل وهي سيوفُ الهند المصلَّتة، و(قُضِب) في الشَّطر الثاني وهي القدودُ المستقيمة للنِّساءِ الحِسان التي تنتصبُ قاماتها المشوَّقة على أعجازٍ وأردافٍ ككثيبِ الرَّمْل استدارةً، وكانتِ العربُ تُشَبِّهُ أعجازَ النِّساءِ بالكُثبان^(١)؛ أي أنَّ الشُّيُوفَ تُظَفِّرُ المصاولين بها بحِسانِ النِّساءِ إذ يَقَعْنَ في السَّبيِّ. والجميلُ عندَ أبي تمامٍ ههنا هو هذا الجناسُ الموهِّمُ لأمرين: أولهما الاتحادُ التَّصويُّتي بينَ الكلمتين، وثانيهما أنَّ إحداها على الحقيقة (قُضِبُ الهندي) والثانية على الاستعارة التَّصريحِيَّة (قُضِبُ تَهتَزُّ في كُثْبٍ)، وهذا نوعٌ عزيزُ الوجودِ عندَ أكثرِ الشعراءِ، لذا ترى ابنَ الأثيرِ مُعجِباً بهذا التَّجنيسِ، ويقول: «وهذا من النَّادر الذي لا يتعلَّقُ به أحدٌ»^(٢).

وكذلك لو نظرنا في قوله مادحاً أبا دُلْفٍ العِجْلِيَّ: [الطَّويل]

أَعْنِي أَفَرَّقُ شَمْلَ دَمْعِي؛ فَإِنِّي أرى الشَّمْلَ مِنْهُمْ لَيْسَ بِالْمُتَقَارِبِ
أَصَابَتْكَ أَبْكَارُ الْخُطُوبِ، فَشَتَّتْ هَوَايَ بِأَبْكَارِ الطُّبَّاءِ الْكَوَاعِبِ^(٣)

الشَّاعرُ يذكُرُ نوعين من الشَّمْل، شَمْلُ الدُّمُوعِ وَشَمْلُ الْأَحْبَةِ، وتزدادُ الهوَّةُ والمفارقةُ بينَ الشَّمْلَيْنِ الْمُتَّحِدَيْنِ صوتاً المتباينين دلالةً من خلال تصويرِ الشَّمْلِ الحَقِيقِيِّ في الشَّطرِ الثاني في صورةِ المتباعدِ (أرى الشَّمْلَ مِنْهُمْ لَيْسَ بِالْمُتَقَارِبِ) وتصويرِ الشَّمْلِ المجازيِّ في الشَّطرِ الأوَّل في صورةِ التَّحْدِ الذي يُجَاهِدُ الشَّاعرُ في تفريقه ويستعينُ بالمدحِ على تفريقه (أَعْنِي أَفَرَّقُ)؛ وهذا يزيدُ التَّنَافُرَ الدَّلَالِيَّ بينَ الصَّوْتَيْنِ الْمُتَّحِدَيْنِ، علماً أنَّهما جناسٌ بينَ الحقيقةِ والمجازِ، ولا يخفى ما لهذا الأثرِ التَّبَاعُدِيِّ مِنْ أثرٍ في نفسِ الممدوحِ الذي يرسمُ له أبو تمامٍ صورةَ عاشقٍ بالكِ يزدادُ ألماً وبكاءً كلّما ازدادَ المحبوبُ ابتعاداً، وليس لهذه المأساةِ مندوبٌ سوى الممدوحِ يُطِيبُ خاطرَ ذلك العاشقِ ويُكرِّمُهُ بما هو أهله، ومثلُ هذا ممَّا يُطِرِبُ الممدوحَ ويهزُّه على السَّحابةِ والسَّخاءِ، وهذا مطابقٌ لمقامِ المدحِ الذي يتطلَّبُ من الشَّاعرِ أن يستدعيَ كُلَّ الصِّفَاتِ التي تُرضي الممدوحَ وتُبهِجُه وتبعثُه على جزيلِ العطاءِ.

(١) انظر: الخصائص ٣٠١/١ وما بعدها.

(٢) انظر: المثل السائر ١/٢٦٤.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام ١/٢٠٧.

والإيهامُ تراه حيثُ أبو تمام استعملَ لفظةَ (الشَّمْل) بالمعنى المجازيِّ، ثُمَّ أعادَ استعمالها بالمعنى الحقيقيِّ، وكذا كرَّرَ الأَبْكَارَ (أبكار الخطوب)، و(أبكار الظُّباء)، مع امتزاجِ عُنْصَرِ المجازِ في (أبكارِ الخطوب). وههنا قد يقعُ للمتلقِّي - لأوَّلِ وهلةٍ - وهمٌ أنَّ الشَّاعِرَ كرَّرَ اللَّفْظَةَ صوتاً ودلالةً، لكنَّ السِّيَاقَ يتولَّى بعدَ ذلكَ مهمَّةَ إزالةِ هذا الوهمِ وإعطاءِ المتلقِّي معنىً جديداً غيرَ متوقَّعٍ، وهنا ينكشفُ له زَيْفُ ظَنِّهِ الأوَّل، ويلتدُّ بنشوةِ التَّأْبَعِ المعرفيِّ المتدرِّج، بناءً على فكرةِ الإيهامِ المُخادِعِ الذي منه ينبُعُ جمالُ التَّجْنِيسِ، وإلى ذلكَ أشارَ عبدُ القاهر (ت ٤٧٤هـ) في كلامه على بيتِ أبي تمام: [الطَّويل]

يَمْدُون من أَيْدِ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبٍ^(١)

بقوله: «واعلم أنَّ النُّكْتَةَ التي ذكرتها في التَّجْنِيسِ، وجعلتها العِلَّةَ في استيجابهِ الفضيلةِ، وهي حُسْنُ الإِفَادَةِ، مع أنَّ الصُّورَةَ صورةُ التَّكْرِيرِ والإِعَادَةِ...؛ وذلكَ أنَّكَ تَتَوَهَّمُ قَبْلَ أن يَرِدَ عليك آخِرُ الكلمةِ كالميمِ من (عواصم) والباءِ من (قواضب) أنَّها هي التي مَضَتْ، وقد أَرَادَتْ أن تَحْيِيكَ ثانيةً، وتعودَ إليك مُؤَكَّدَةً، حتى إذا تَمَكَّنَ في نَفْسِكَ تمامُها، ووعى سَمْعُكَ آخِرَها، انصرفتَ عن ظَنِّكَ الأوَّل، وزُلَّتْ عن الذي سَبَقَ من التَّخِيلِ، وفي ذلكَ ما ذكرتُ لك من طُلُوعِ الفائدةِ بعدَ أن يُجَالِطَكَ اليأسُ منها، وحصولِ الرِّيحِ بعدَ أن تُغَالِطَ فيه حتَّى تَرى أنَّه رأسُ المالِ»^(٢).

ومثلُ هذا التَّجَانُّسِ الاستعاريِّ أو المجازيِّ واسعٌ كالبحرِ في ديوانِ أبي تمام الذي كثيراً ما يعمدُ إلى ركوبِ الجناسِ المجازيِّ لتقويةِ الصُّراعِ بينَ طرفي التَّجْنِيسِ، ومن ذلكَ قولُه في وَصْفِ غَادَةٍ حَسَناءَ مُرْهَفَةٍ تبكي فِرَاقَ الحبيبِ: [الطَّويل]

فأَجْرَى لها الإِشْفَاقُ دَمْعاً مُورِداً مِنْ الدَّمِ يَجْرِي فَوْقَ خَدِّ مُورِدٍ
هي البدرُ يُغْنِيها تَسْوِدُّ وَجْهَهَا إِلَى كُلِّ مَنْ لَاقَتْ وَإِنْ لَمْ تَوَدِّ^(٣)

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٢١٣/١.

(٢) انظر: أسرار البلاغة ص ١٧-١٨.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام ٢٢-٢٣.

فالمجانسة المجازية حاضرة في (دمعاً مُورّداً) و(خُدَّ مُورِّد)، فقد يتبادرُ إلى ذهنِ المتلقّي في أوّل وهلة أنّ هذا من بابِ التكرار اللفظي الذي بُغِيتْ تثبيتُ المعنى وترسيخُه، ولكنه بعد أدنى تأملٍ يتنبّه إلى أنّ خُدعةً لغويّةً أوقعته في شَرَكِها، وأنّ هذين الصّوتين المتّحدّين هما لمعنيين مُتباينين، فكأنّها الكلماتُ أحبَّت أن تُعابِثَ المتلقّي وتلاعَبَ به، فأثته الدّلاتان المختلفتان مُتَنكِّرتين بزَيٍّ واحد ولبوسٍ واحدٍ يختبرانه هل سيقعُ في الإيهام؟ أم تمتازُ عنده إحداهما من الأخرى من أوّل نظرة.. فالإشفاقُ والحزنُ من الهَجَرِ والفراقِ الذي دلَّ عليه السّياقُ أجرى لها دموعاً مخلوطةً بالدمِ لشدّة ما أصابها من الحزنِ والغَمِّ على فراقِ الحبيب، ولكنّ النّاظرَ إليها يرى لوحةً فنيّةً ساحرةً الألوانِ من هذه الدّموعِ الحُمْرِ المترقّقة على خدودٍ بيضٍ مُشرّبةٍ حمرةً كالورودِ في جلالها... وتتصاعدُ موجاتُ الإيهامِ التّجاسُسيّ في البيتِ الثّاني حينَ يذكُرُ أنّها كالبدْرِ بهاءٌ وضياءٌ، وأنّ حُسنَ وجهها وبهاءَ طلعتها يجذبُ إليها محبّةَ القلوبِ ويستعطفُها دون أن تسعى هي إلى مُلاطفةِ النَّاسِ أو استدراجِ عطفِهِم أو استجلابِ محبَّتِهِم، ف(تودّدُ وجهها) حُسْنُهُ وجمالُهُ، و(وإن لم تودّد) مِنَ التّودّدِ وهو أن تخطبَ ودَّ النَّاسِ وتسعى في استرضائِهِم وطلبِ محبَّتِهِم. وإنّك لا ترى هذا التّجنيسَ المكثّفَ المتتابعَ على هذا النّحوِ المدهشِ إلّا عندَ أبي تمام، وفي هذا ما رأيْت من كسرِ أفقٍ توقّعِ القارئِ ومُباغتته، وفيه أيضاً ما رأيْت من الإيضاحِ بعدَ الإيهامِ، والنّفسُ تشعرُ بنوعِ التّذاذِ حينَ يغمضُ عليها أمرٌ ثمّ تُفْلِحُ في استبيانهِ وتجليّته، بعد أن رأيْت الصّوتَ لا يحتفظُ بدلالتهِ الأولى، بل يُعادُ عليك وقد استوعبَ دلالةً جديدةً تسحرُكُ بإيهامها ومُخاتلتها، وقد تنبّه أرسطو (ت ٣٢٢ ق.م) إلى هذه المزيّة الكلاميّة - أعني مُخادعةَ المتلقّي ولقاءه بغير ما كان يرتقبُ وكسرِ أفقٍ توقّعه - وأنّ مُعظَمَ الفنونِ البلاغيّةِ إنّما تُبنى على إيهامِ المتلقّي، وأنّ مُعظَمَ النُّكْتِ البلاغيّةِ التي نلمحُها في الكلامِ بلاغتها في المخاتلة التي يلجأ إليها الأديبُ، إذ قال: «ومُعظَمُ التّعبيراتِ الرّشيقة تنشأ عن المجاز، وعن نوعٍ من التّمويه يدركه السّمعُ فيما بعدُ، ويزدادُ إدراكاً كلّما ازدادَ علماً، وكلّما كان الموضوعُ مُغايِراً لِمَا كانَ يتوقّعه، وكانَ النّفسُ تقولُ: (هذا حقٌّ! وأنا التي أخطأتُ)...، وللسّببِ عينه كانتِ الألفاظُ لذيذة...، والتّوريةُ تودّي إلى نفسٍ الأثر؛ أعني إلى إثارة الدّهشة، وهذه الحيلةُ نجدها في الشّعْرِ حينَما لا يبيحُ حَسَبُها

يتوقَّعه السَّامِع»^(١)، وهذا ما عبَّرَ عنه علماؤنا بخلاف مُقتضى الظَّاهر، والخروج عن الأصل، والعدول، وهذا أيضاً ما أفادت منه نظرية التَّلَقِّي في العصر الحديث. على أنَّه ينبغي التَّنَبُّه إلى أنَّ التَّمَاثُلَ الصَّوْتِيَّ بَيْنَ المتجانسين كُلِّما ازدادَ ازدادتِ الطَّاقَةُ الإيهاميَّة التي تسطو على مُخيَّلة المتلقِّي وبرَزَ أثرُ السِّياقِ ووظيفته في التَّمييزِ بَيْنَ المتجانسين، وإزالة الإيهام. فقد وعى أبو تمام أنَّ الجِناسَ يُبرِزُ الحُضُورَ الصَّوْتِيَّ للكلمة، وأنَّ تماثُلَ البِنيتين الصَّوْتِيَّتين لدالَّتَيْنِ في سياقٍ واحدٍ فيه نوعٌ من الخِلافةِ والتَّشويق، فأكثرَ منه حتَّى شارَفَ على السَّرَفِ، ومن جميلِ ذلك قولُه: [الكامل]

غَنَى فِشاقَكَ طِسانٌ غَرِيْبٌ لَمَّا تَرَنَّمْ، والغِصونُ تَمِيدُ
ساقٌ على ساقٍ دعا قُمْرِيَّةً فدَعَتْ تُقاسِمُهُ الهوى وتَصِيدُ^(٢)

فالسَّاقُ الأولى: (ذَكَرُ الحِمَام) والثَّانية: (ساقُ الشَّجَرَة).

ولكنَّك حينَ تَطَوَّفُ بَيْنَ جناساتِ أبي تمامٍ تُدهِشُكَ براعتهُ في توليدِ الجِناسِ بِكُلِّ أنواعِه ما سَنَحَتَ له الفُرصة؛ كقولِه: [الطَّويل]

مَتى أَنتَ عن دُهلِيَّةِ الحَيِّ ذاهِلٌ وقلْبُكَ مِنْها مُدَّةُ الدَّهْرِ أَهْلٌ
تُطِلُّ الطُّلولُ الدَّمْعَ في كُلِّ موقِفٍ وتَمُثِّلُ بالصَّيْرِ الدِّيَارُ الموائِلُ
دِوارِسُ لَمْ يَجِفْ الرِّبْعُ رِبوْعُها ولا مَرٌّ في أَغْفالِها وهُوَ غافِلٌ
فقد سَحَبَتْ فيها السَّحائبُ ذيلَها وقد أَخْمَلَتْ بالنُّورِ مِنْها الخِمالُ
تَعَفَّيْنَ مِنْ رَادِ العُفَّةِ إِذا انتَحَى على الحَيِّ صَرَفُ الأَزْمَةِ المُتَماحِلُ
لَهم سَلَفٌ سُمِرُ العِوَالِي وسامِرٌ وفيهِمْ جَمالٌ لا يَغِيضُ وَجامِلٌ^(٣)

هذه الأبياتُ في سياقِ الحنينِ والشَّوقِ، فأبو تمامٍ يُخاطِبُ نَفْسَه على سبيلِ التَّجريدِ المحضِ (وهذا مَسَلِّكٌ لطيفٌ من الإيهام) مُستَبْعِداً أنْ يَنسى تلكَ الغادَةَ الهُدَلِيَّةَ التي سَلَبَتْ لُبَّهُ وملكَتْ عليه فؤادَه..

(١) انظر: الخطابة لأرسطو ص ٢٢٦.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ١٤٨/٢.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام ١١٢/٣ - ١١٤.

فكيف ينساها وقلبه معمورٌ بحُبِّها؟ وكيف ينسى والطلولُ تُجدُّ الذكرى فتنهمرُ الدُموعُ؟ فكأنَّه أراد أن يسقي هذه الأرضَ بدموعه بعدما جافاها الربيعُ والعُشبُ وتغافلَ الحيا عن سُقيها.. إذ ابتعدت عنها الغيومُ - وكأنَّ الخيرَ يأبى أن يُصيبَ أرضاً ليس بها المحبوبُ - وقد سِرت (أُخِلت) هذه الدِّيارُ بنورِ الهجيرِ وحرِّها... وخَلت من معروفِ أهلها ونائلهم الذي كان العُفاةُ ينالونه في السَّنةِ الماحلة...، وكأنَّ أسبابَ الخيرِ قد انقطعت من السَّماءِ والأرضِ لانبثاتِ الصَّلَّةِ بين أبي تمام والمحبوب.. ثُمَّ يدلُّفُ أبو تمام إلى وصفِ الرِّحلة وأنَّ هؤلاء القومَ في الرِّحلة - على عادةِ العرب - يُقدِّمون الطَّعائنَ ووراءهم الفرسانَ يحمونهم مع رماحهم «فيقال هؤلاء الفرسان: السَّلف»^(١)، وفي اللَّيل يتجاذبون أطرافَ الأحاديث في اللَّيالي الجميلة المُقَمِّرة، والحُسْنُ والجمالُ كُلُّه في هؤلاء الطَّعائن اللّواتي يعتلين الجمالَ التي يسوقها الجاملُ (راعي الإبل)..

إنَّ وقوفَ الشَّاعرِ بتلك الطُّلول الدَّارسة هو وقوفٌ على أعتابِ اللُّغة؛ هذا الوقوفُ وما ينطوي عليه من اختلاطِ مشاعرِ الجَزَعِ والشَّوقِ والحبِّ والحنين فجَرَّ لُغةَ الشَّعرِ، فكانَّ الكلماتُ لشدةِ حنينها تأبى إحداهنَّ أن تستقرَّ إلَّا بُصحبةِ أُختها، فترى النِّصَّ يعمدُ إلى استدعاء جماليَّة التَّماتلِ الصَّوتي: (ذُهليَّة - ذاهل)، و(تُطِلُّ - الطُّلول)، و(تَمُثِّلُ - الموائِل)، و(الرَّبيع - ربوعها)، و(أغفائها - غافل)، و(سَحَبَت - السَّحائب)، و(أُخِلت - الخُمائل)^(٢)، و(تَعَفَّينَ - العُفاة)، و(سُمِر - سامر)، (جَمال - جامل)؛ فهذه الأبياتُ خيرُ مثالٍ على سَرَفِ أبي تمام في توليد الصَّيغِ التَّجنسيَّة، وتوظيفها في سياقِ الغرضِ الشَّعريِّ، وأنت حينَ تتبَّعُ ديوانَ الرَّجُلِ ترى أنَّ هذا السَّرَفَ لم يُفَضِّ به إلى تغييبِ المعنى وسَترِه بهذه الزِّينات، بل تراه دائماً يدعُ للدَّلالة العامَّة للبيت مُتَّسعا لكي تُعبِّرَ عن ذاتها، وهذا هو الذي يمتازُ به أبو تمام من غيره من المتأخِّرين الذين حاولوا تقليده، فأفسدوا البلاغة، وطمسوا صِباحةَ وجهها، وسودُّوا إشراقها الفَتان حين باعوا المعاني باستجلاب الجناس.

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٣/ ١١٤.

(٢) أي: الأرض السَّهلة.

ب - إيهام التّجنيس في شعر البُحترّي:

إنّ لقاء البُحترّي بأبي تَمّام وتتلّمذه عليه لم يكن له ذلك الأثر المرجو في التّوجيه الفنّي لشعر البُحترّي، إذ لم يكن البُحترّي - على المستوى الفنّي - كما كانت الحال بين أوْسٍ وزُهَيْرٍ وكَعْبٍ والحطيئة. وصحيح أن أبا تَمّام حين لقيه ذلك اليقعة البُحترّي، وعرض عليه شعره أعجب به، وشهد له بالبراعة والحدق وبأنه من أشعر من أنشده^(١)، إلا أن التلميد - على أدبه الجَمِّ مع أستاذه وإجلاله له بعد - لم يكن وفيّاً لهذا النهج الفنّي الغريب الذي ارتضاه أبو تَمّام لنفسه، وذلك أن الثورة الأدبية التي أشعلها الطائي الكبير في عصر الأصمعيّ (ت ٢١٦هـ) وابن الأعرابيّ (ت ٢٣١هـ) وأضرابهما من رِوَاة الشعر وعلماء اللّغة المتعصّبين للقديم = كانت شبه مُستحيلة، وكان عَمَلُ أبي تَمّام هذا قفزة في المجهول لا يتجرأ أحدٌ على متابعته فيها لأسباب؛ أولها: أن هذه الطّريقة الفنّية تحتاج إلى طاقة إبداعية خلاقية وفريدة تستطيع أن تكسر المألوف وأن تخرج على رتبته وأن تُفتّق أكفان اللّغة للبحث عن لغة شعريّة جديدة، وثانيها: أن مثل هذه القفزة الأدبية تحتاج إلى استعداد نفسيّ يمدُّ صاحبه بالجرأة على تحطيم الأوثان الشعريّة التي نَحَتَهَا ابنُ الأعرابيّ وغيره، واستسلم النَّاسُ للتّرنّج في محرابها، وكذلك تستلزم جرأة يُواجه بها الشّاعر هؤلاء النّقّاد الذين سيمتشقون أقلامهم سيوفاً للدّفاع عن عمود الشعر وقُدسيّته، وأظنُّ أن البُحترّي كان مُفتقراً لتلك الصّفات، أو لعلّه لم يكن مقتنعاً أصلاً بجدوى هذه الطّريقة الشعريّة، فلم ينحْ نحو أستاذه وزهّد في طريقتي التّعَمُّلِ البديعيّ، مُختطّاً لنفسه نهجاً يرتضيه هو، يكون هذا النهج مُسائراً عمود الشعر من محاولة شَرَفِ المعنى وصِحّته وجزالة اللفظ واستقامته، والمقاربة في التّشبيه وغير ذلك، ويبدو لي أن البُحترّي كان مُعجباً بأبي تَمّام، فأخذ منه ما راق له واطّرح ما رآه تكلفاً يذهبُ بهاء الشعر ورونقه. فالْبُحترّي - على إعجابه بالبديع وحرصه عليه - كان أكثر اتزاناً واعتدالاً من أبي تَمّام الذي أفرط إفراطاً في بعض المواضع، وما رأيت أنصف من البُحترّي حين سُئل: أيكما أشعر أنت أم أبو تَمّام؟ فقال: «جيدٌ خيرٌ من جيّدِي، ورديني خيرٌ من

(١) انظر: أخبار البُحترّي ص ٦٣.

ردئي»^(١)، وهذه شهادة حق مُنصِف، وشهادة عالِم بمسالك الشعر وأصوله، فإنك عندما تقرأ ديوان أبي تمام ترى من شعره ما يقتلعك من أرضك ويرمي بك على جزيرة الدهشة والذهول؛ لأنه يَسْحَرُكَ بمعانيه الأبتكار وبصوره البديعة ولُغَتِهِ السَّامِقَةِ الرَّفِيعَةِ، وكذا ترى من قصائده ما يدعوك إلى النُّفُورِ وإلى إنكار أن تكون مثل هذه لأبي تمام، وأما البحرِيُّ فإنَّ في شعره استواءً نسيباً؛ فلا ترى هذه الفروق العميقة بين قصائده، إلا أن جيده لا يتعلّق بجيد أبي تمام.

فالبحرِيُّ كان ميّالاً إلى طريقة القدماء في قول الشعر؛ يدلُّك على ذلك تصفُّح اختياراته في حماسته؛ لأنك ستري أن حماسته رَوَتْ عن أكثر من ستمئة شاعرٍ مُعْظَمُهُم من الجاهليين والمخضرمين، وهذا خيرُ برهانٍ على مُحَافَظَتِهِ في الشعر وعلى سَعَةِ رصيده الشعريِّ المحفوظ، ولعلَّ الرَّجُلَ أراد أن يُتَابِعَ القومَ الألى عنهم أُخِذَ الشعرُ وبهم عُرف؛ لأنَّ مهوى فؤاده في تراويل الشعر العربيِّ الخالصِ خلوصاً يُبرِّئُه من التَّمَحُّلِ والتَّصْنُعِ والإعنات الذي يميلُ بالشعر عن وجهته، أو الغمُوضِ والتَّعْقِيدِ الذي يعبثُ بشعريَّةِ النَّصِّ وخَلَجَاتِهِ الرُّوحِيَّةِ، فلقد كان البحرِيُّ شاعراً ولم يكن يُحاوِلُ أن يكونَ فيلسوفاً أو منطقياً؛ لذا تراه متمكناً من أدواته الفنيَّة مع موهبةٍ رائعةٍ جعلته مُستغنياً عن لَيِّ التَّعَابِيرِ في سبيلِ تصنيع البديع.

ولكن قبل البدء لنا أن نتساءل: لماذا تُرَكِّزُ مُعْظَمُ الدِّرَاسَاتِ اهتمامها على أبي تمام، ولماذا كانت عيون القدماء والمحدثين تنظرُ بشغفٍ نحو أبي تمام حين يتكلّمون عن البديع، وعيونهم وسنى حين يدورُ الكلامُ حولَ بديع البحرِيِّ؟

هذه الملاحظة ليست قسراً على كُتُبِ النَّقدِ والأدب، بل إنَّ كُتُبَ البلاغةِ أيضاً باديةٌ فيها هذه الظَّاهرة، ولعلَّ ذلك يرجعُ إلى أنَّ وَلَعَ هؤلاء المصنِّفين - منذُ أواخر العصرِ العبَّاسيِّ - بالإبهار والإثارة والمبالغة دفعهم إلى حشدِ الأمثلة الأكثرِ تكلفاً، ممَّا أودى بالبحرِيِّ إلى غياهبِ اهتماماتهم.. ولكن لا ضيرَ في ذلك حين نرى أن أعظمَ النُّقَّادِ القُدامى قد خَصَّ البحرِيَّ بنقده التَّطْبِيقِيِّ، وأعني

(١) انظر: أخبار أبي تمام ص ٦٧.

عبد القاهر (ت ٤٧٤هـ) في الأسرار والدلائل، والقاضي الجرجاني (ت ٣٧٥هـ) في الوساطة، وحسب البحري من النقد أن يعجب به مثل هذين الرجلين، وأن يريا في شعره مادة خصب للنقد الأدبي والبلاغي...، على أنه لا ينبغي أن يفهم من كلامنا أن البحري كان مطبوعاً كل الطبع، وأن ما نتذوقه من البديع في شعره إنما اتفق له عفو الخاطر، وجادت به القرينة من غير حول منه ولا قوة، بل الحق أن البحري كان صاحب صنعة خفية، صنعة متقنة مقنعة إذا قيس بتصنيع أبي تمام، وهذا ما ستره بعد قليل، لكن صنعة البديع - ولا سيما الجناس - عند البحري لم تذهب بهاء الشعر وروائه وتحوّل تذوقه من عمل فني جمالي إلى محاكمة عقلية مخضة تزيح الشعر عن غايته الإمتاعية والتواصلية أعني تبادل المشاعر حباً وفرحاً وألماً...، لأنه لم يكن يتقصّد التّجنيس أو يتعمّد إيرادَه كتعمّد أبي تمام له، وإن نظرة في ديوانه تُريك أن مذهبه في التّجنيس أقرب إلى مذهب القدامى وأبعد عن مذهب أبي تمام، وهذا - لا محالة - له صلة بنية الشاعر إيهام المتلقي أو عدم توفر هذه النية، وفي ديوان البحري ترى أن الجناس التام عزيز في شعره، وأن جناساته لم يكن الغرض منها الإيهام، بقدر ما كان باعثها إثراء الموسيقى الداخلية للنص، ومن ذلك قوله واصفاً فرساً: [الكامل]

وأغرّ في الزّمن البهيم محجّل قد رُحْتُ منه على أغرّ محجّل^(١)

فالبحريّ غدا على خيل عتيق شريف في جبهته وقوائمه بياض، وهذا الخيل من عطايا رجل شريف كريم غرة بين الرجال. فالبحريّ كرّر (أغرّ محجّل) مُراداً به أولاً الممدوح المشتهر بين الرجال، وأريد به ثانياً الفرس ذو القوائم البيضاء.

وعندما راح يُثني على جودة شعره بقوله: [الطويل]

إذا قلت شعراً فالنجوم روائه ومن ذا رأى الشعرى روت لا مري شعراً
وما أنا ممن يركب الشعر قدره ولكنّ قدرى يركب الشعر والشعرى^(٢)

(١) انظر: ديوان البحري ٣/ ١٧٤٤.

(٢) انظر: ديوان البحري ٥/ ٢٧١١.

هذا الجنس الذي ترى - على صنعته الظاهرة - استطاع أن يحقق إيهاماً صوتياً لافتاً، ولكن هذا وأضرابه من تنجيسات البحريّ يُعدّ استثناءً، وإنّما أكثرُ جناسه على نحو ما تراه في قوله واصفاً صلح بني تغلب: [الطويل]

إذا احترَبَتْ يوماً، ففاضَتْ دِماؤها تَذَكَّرَتْ القُرْبى، ففاضَتْ دموعُها
شَواجرُ أَرْماحٍ تُقَطِّعُ بَيْنَهُمْ شَواجرُ أَرْحامٍ مَلُومٍ قَطَّوعُها^(١)

إنّك ترى هذا التّرشيحَ للقافية الذي يمتازُ به البحريّ من كلّ الشعراء بما فيهم أبو تمام، إنّه يُثيرُ في النّفس شيئاً من الموسيقى والجمال، فضلاً عن امتزاج هذا الجنسِ برّد العَجْزِ على الصّدر، وما أشرنا إليه آنفاً من وِلاعِ البحريّ بالتّقسيمات الموحية مع توازن عباراته في البيت الواحد، ومن هنا يُمكننا القول: إنّ جناساتِ البحريّ أسهمت في إثراء الموسيقى الدّاخلية للنّص، وأسهمت في تكوين الصّورة أيضاً من خلال التّقسيمات الموحية، ولم تكن هذه الجناساتُ مُوهمةً كما عند أبي تمام؛ لأنّ الإيهامَ أشدّ ما يحتاجُ إلى الصّنعة الظّاهرة التي لم يتيسّر بها شعْرُ البحريّ.



(١) انظر: ديوان البحريّ ١٢٩٩/٢.

الفصل الثاني

من ملامح الإيهام بالصورة في شعر الطائيين

مدخل إلى إيهام الصورة في شعر الطائيين.

المبحث الأول: إيهام الصورة في شعر أبي تمام.

المطلب الأول: أثر المبالغة في إيهام الصورة في شعر أبي تمام.

المطلب الثاني: غموض الصورة وتعدد دلالاتها.

المبحث الثاني: إيهام الصورة في شعر البُحتري.

الفصل الثاني

من ملامح الإيهام بالصورة في شعر الطائيين .

مدخل إلى إيهام الصورة في شعر الطائيين

شغلت الصورة الفنية في شعر الطائيين شطراً مهماً من نقدنا القديم، ولا سيما صور أبي تمام الذي كان له القدرة على الخلق والابتكار، وإعادة ترتيب العالم وفق إيقاع إحساساته ورؤيته للذات وللواقع من حوله.

فالصورة في تراثنا الشعري الأول كانت تنزع نحو الفطرة؛ من حيث المطابقة بين طرفي التشبيه، فيميلون إلى أن يكون بين المشبه والمشبه به صلة منطقية لها نسب إلى المعنى الأول، فيكون التشبيه مألوفاً موافقاً للخيال الجمعي، كتشبيه الجميلة بالبدر، والشعر الأسود بالليل، والشجاع بالأسد، والكريم بالبحر، والخيال السريع بالبرق، وكذا اشترط النقاد.

ولا مراء في أن اشتراط النقاد هذا يحذ من شاعرية النص، ولا يرقى به إلى الابتكار الفني؛ فمثل هذه الصور تتوقف عند المشاهدة الذهنية والعقلية للنفس الإنسانية، ولا تُعيد قراءة الوجود، ولا تُعيد تشكيل العالم الخارجي وفق مُعطيات الشعور الباطني. لذا ترى النقاد القدامى يوجهون اهتمامهم نحو وضوح المعنى ولزوم الابتعاد عن الإيهام أو الغموض، وينظرون إلى الصورة على أنها عنصر إبانة لا ينبغي إيهامها أو جعلها مفتوحة على فضاءات الخدس والتأويل.

حتى كان أبو تمام الذي أدرك أن ليس الشعر تقليداً للعالم الخارجي، ولكنه محاكاة لعالم الشعور والوجدان الداخلي لذات الشاعر، فتخفف من هذا القيد الفني، أعني المقاربة بين طرفي التشبيه والملاءمة بينهما، وواقعيتها، أو وجود شبه حقيقي بينهما، تخفف أبو تمام من تلك القيود؛ ليبدع في

تشكيل الصورة على نحو جمالي مُدهش، فشعره خُلِقَ من الحياة مُنعم؛ إذ ركب خياله المُجَنِّح، وأطلق له العنان، ليَقَرَّ من حدود الزمان والمكان؛ إلى أعماق النفس الشاعرة، يبتكر الصور البديعة المشحونة بالعواطف الدفّاقة، ولم ينظر بعين الاهتمام شروط عمود الشعر في تكوين الصورة، ومنها ملاءمة المشبّه للمشبّه به، فأتى بتشبيهات جديدة، وابتكر علاقات أخرى بين الأشياء، وهذا الصنيع - وإن ثارت عليه نائرة النقد - فتح على شعر أبي تمام أبواباً من التأويل، وأثرى معانيه، وزاد هذه الصور بلاغة من حيث أفسح المجال للمتلقّي أن يُسهِمَ معه في تكوين الصورة السابحة في فضاءات رحيّة من التأويل الفنيّ. وأبو تمام كان واعياً إشكاليّة صورته الفنيّة، ولا سيّما استعاراته، وأنها مطيّة عرجاء في بلوغ بعض الأفهام، وأنها ستوقّعه في إشكاليّة التّواصل مع جمهوره؛ لأنّها تُشكّل شرخاً ثقافياً وفتناً مع فئة من المتلقّين الذين لم يعتادوا مثل هذه الصور، فتراه يمدح أبا ذُلف العجليّ بقوله:

[التّأويل]

إليك أرخنا عازب الشعر بعدما تمهّل في روض المعاني العجائب

غرائب لا قت في فئائك أنسها من المجد، فهي الآن غير غرائب^(١)

فهو يُقرُّ بصنعة العجيبة، وتمهّله في اصطیاد المعاني الأكار، وأنّ الناس لم تفهم معانيه حتّى سيقت للممدوح، فوقعت موقعها، ونالت الرضا والاستحسان.

فأبو تمام يعي إشكاليّة الصورة والتركيب في شعره، لكنّه مُصرٌّ على الارتقاء الفنيّ بهذا الشعر، وعلى إشعال ثورة على الصورة التقليديّة التي يرى أنّها جمّدت من فرط الاستعمال، حتّى فقدت بريقها الأوّل، وتأثيرها الجماليّ الإمتاعيّ الأوّل.

لقد استطاع أبو تمام أن يُعيد تشكيل الحقائق والأشياء في صورهِ، فلم تكن صورهِ محاكاة للواقع، بل كانت نتاج التفاعل بين عالمه الذاتيّ والعالم الخارجيّ، فهو لا يُصوّر الأشياء كما تراها عيناه، بل يُصوّرُها كما يراها إحساسه، لذلك لم يعبأ بما اشترطوا من التمايز والانفصال والوضوح بين طرفي الصورة.

(١) انظر: ديوان أبي تمام ١/ ٢٢١.

وأكثر ما يُلحَظُ هذا في استعاراته التي طَغَتْ على الديوان قياساً على التشبيه الذي انحسرَ جداً من حيث الكم والكيف؛ أمّا انحسارُ التشبيه في شعره؛ فلأنَّ أبا تمام كان يُدركُ نقطةَ ضعفِ التشبيه وعدمِ فعاليته في التخيل والإيهام؛ لأنَّ التشبيه يُراعي تمايزَ طرفي الصورة وعدم تماهيهما، ويراعي المنطقية في العلاقة بينهما أيضاً، بينما تسمحُ الاستعارةُ للشاعر أن يُبدعَ صورةً تكونُ نتاجَ تفاعلِ ذاته مع الواقع. وأمّا انحساره من حيث الكيف وانحصاره بالضمني والتَّمثيلي غالباً؛ فلأنَّ أبا تمام أدرك أيضاً أنَّ التشبيه التقليدي يُعيقُ حركةَ الإيهام في ذهنِ المتلقي، فالأداة تُشكِّلُ حاجزاً يمنعُ ذهنَ المتلقي من محاولةِ الدِّمج بين طرفي التشبيه، وحتى التشبيه البليغ الذي تخفَّفَ من الأداة والوجه (هندُ قمر) هو أيضاً يفصلُ فصلاً تاماً بينَ المشبَّه والمشبَّه به، ولا يُحاولُ استثارةَ خيالِ المتلقي أو إيهامه حقاً بالصورة. لذا رأينا أبا تمام حين يوظفُ التشبيه قليلاً ما يعمدُ إلى التشبيه الصَّريح، وإذا عمَدَ إليه حسَّنه بفكرةٍ من أفكاره؛ كقوله: [الطويل]

هي البدرُ يُغنيها تودُّدُ وجهها إلى كُلِّ مَنْ لاقَتْ، وإنْ لم تودِّد^(١)

وإذا كان أبو تمام سيَتَّخذُ التشبيهَ مَرَكَباً فإنه أكثرُ ما يلجأُ إلى التشبيه الضمَّني؛ لأنَّه يسترُ علاقةَ التشبيه فتكونُ خفيةً قد لا يشعرُ بها السامعُ، ومهمَّتها الإقناع، فأبو تمام شاعرُ فكرٍ وفلسفةٍ، وقد كان أحياناً يأتي بأفكارٍ يأنسُ من المخاطبينَ بأنَّهم سيُنكرونها عليه، فيتَّبِعُها بِذِكْرِ أمرٍ مُشابهٍ للأوَّل يعرفونه ويُسلِّمون به، فيكونُ كالدليل والبرهان على دَعواه؛ كقوله: [الكامل]

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ

لَوْ لَا اشْتِعَالَ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرِفُ طَيْبُ عَرْفِ الْعُودِ^(٢)

فقد يتساءلُ المرءُ عندَ سماعه البيتِ الأوَّل: هل من المُمكن أن يكونَ الحاسدُ المَبغُضُ هو سببُ فضائل محسوديه؟ إنَّ هذا يدعو إلى العَجَب! فيأتيهِ الجوابُ في البيتِ الثاني بأنَّ النَّارَ تَظُنُّ نَفْسَهَا تُحْرِقُ

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٤٧/٢.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٤٠٢/١.

العُودَ وهي إِنَّمَا تُسَاعِدُ على نَشْرِ عِطْرِهِ، وكذلك أَلْسُنُ الحُسَدِ تتناولُ فضيلةً كامنةً في صُدُورِ أصحابِها، يظُنُّ الحاسِدُ أَنَّهُ يمحوها، وهو إِنَّمَا يجلوها ويُشهرُ بها.

وكذا لم يقنع أبو تمام بالتشبيهات الساذجة المفتضحة (زيد كالبحر)؛ حيث طرفا التشبيه مُفردان، والوجه واضح لا يُخطئه مَنْ له أدنى عقلٍ، بل كان يلوذُ بالتشبيه الذي لا يكون طرفاه مُفردين؛ ليرسم الصُورَ المتراكبة التي تُعملُ العقلَ وتثيرُ الخيالَ وتُنشِطُ الفعاليَّةَ الإدراكيةَ عندَ المتلقِّي؛ كقولِه:

[الكامل]

يا صَاحِبِي تَقْصِّياً نَظَرِيكُمَا تَرَيَا وَجُوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَاراً مُشْمِساً قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرُّبَا فَكأنَّها هُوَ مُقْمَرُ^(١)

فهو يُشَبِّهُ المُرْكَبَ (النَّهارَ المشمسَ الذي شابهَ زَهْرُ الرُّبَا) بالمفرد (اللَّيلةُ المقيمةُ)، فهو يُشَبِّهُ الهيئةَ الحاصلةَ من الشَّمسِ السَّاطعةِ على الرَّوايِ المزهرةِ المخضرةِ، وقد اختلطتِ الأشعةُ المشرقةُ بخضرةِ الربيعِ التي تكاثفتُ حتَّى ضربَ لوئُها إلى السَّوادِ، فأنتها أشعةُ الشَّمسِ تنزلُ على أوراقِها، فأضحى المشهدُ أشبهَ ما يكونُ بالليِّلةِ المقيمةِ؛ حيثَ تنعكسُ أضواءُ القمرِ على الأوراقِ والأغصانِ، وهذه صورةٌ بديعةٌ.

أما البحريُّ فَإِنَّ لَهُ قُدْرَةً عَجِيبَةً على مُحَاكاةِ الأشياءِ كما هي في الواقعِ، بحيثُ يُصوِّرُ لك المشهدَ ويرسمُه بالكلماتِ، فيضَعُك منه على عِلْمٍ، وكأنَّه قد رأيتَه بعينيك وسمعتَه بأذنيك، بل هو أيضاً مَنْ يأتي على الجوامِدِ، فيستنطقُها، ويبعثُ فيها الحياةَ؛ فإذا هي حيَّةٌ تسعى بين يدي المتلقِّي، كما فعلَ في وَصْفِ إيوان كسرى؛ إذ دخلَ قصرَ الجُرَمازِ فراهَ خاوياً مُقْفِراً كالقبرِ الموحِشِ، ورأى في بهوهِ صورةً تُجَدُّ انتصارَ آلِ ساسانِ الفرسِ على الرُّومِ، وهذه الصُّورةُ يُضفي عليها البحريُّ من روحِ الشاعرةِ، فيستنطقُها، ويجعلُها تمرُّ في ذهنِ المتلقِّي كمشهدٍ دراميٍّ متحرِّكٍ، تتابعُ صُورُهُ في تصويرِ المعركةِ الحاميةِ الوطيسِ، حيثُ الموتُ تلتطمُ أمواجهُ، والردى يبذرُ ساحةَ الوغى فناءً ويحصدُها رجالاً، وحيثُ القائدُ الفارسيُّ يرفعُ الرِّايةَ مُحْتالاً على صهوةِ حصانه الأشقرِ، والرَّجالُ بين يديه يتقاتلون في

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٢ / ١٩٤.

صُنِتْ مُطْبِقٌ، وَرِمَاحُهُمْ تَتَطَايَرُ ظِمَائِي لِدِمَاءِ الرُّومِ الَّذِينَ يَتَّقُونَهَا بِتُرُوسِهِمْ، فَبِرَاعَةِ النَّحَاتِ أَوْ
الرَّسَامِ أَوْقَعَتْ صَاحِبَنَا الْبَحْتَرِيَّ فِي الْوَهْمِ، فَمَا عَادَ يَدْرِي.. أَهْوَى فِي مَعْرَكَةٍ حَقِيقِيَّةٍ رَجَالُهَا خُرُسٌ
يَتَقَاتِلُونَ بِضِرَاوَةٍ وَشِرَاسَةٍ صَامِتَةٍ؟ أَمْ أَنَّهُ أَمَامَ صُورَةٍ مَنْحُوتَةٍ عَلَى الْجِدَارِ؟ لَقَدْ وَقَعَ الْبَحْتَرِيُّ نَفْسَهُ
فِي شِبَاكِ تِلْكَ اللَّوْحَةِ الْبَارِعَةِ، فَمَا عَادَ يَدْرِي أَحَقِيقَةُ مَا يَرَى أَمْ خِيَالٌ، فَجَعَلَ يَتَقَرَّى هَذِهِ الصُّورَةَ
وَيَتَلَمَّسُهَا بِيَدَيْهِ؛ لِيَطْمَئِنَّ فِي النَّهَايَةِ إِلَى أَنَّهَا مُجَرَّدُ صُورَةٍ أَبَدَعَ رَسَامُهَا إِلَى حَدِّ إِيهَامِ النَّاظِرِينَ، وَأَنَّهُ لَا
مَعْرَكَةَ حَقِيقِيَّةً أَمَامَ الْعَيُونِ، فَيَقُولُ: [الْخَفِيفُ]

وَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا	كَيْفَةً، ارْتَعْتَ بَيْنَ رُؤْمٍ وَفُرْسٍ
وَالنَّايَا مَوَائِلُ، وَ(أَنْوَشَسُرُ	وَأَنْ) يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرْفُسِ
فِي اخْضِرَارٍ مِنَ اللَّبَاسِ عَلَى أَصْ	فَرَّ يَحْتَالُ فِي صَبِيغَةِ وَرْسٍ
وَعِرَاكِ الرِّجَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ	فِي خُفُوتٍ مِنْهُمْ وَإِعْصَافِ جَرَسٍ
مِنْ مُشِيحٍ يَهْوِي بِعَامِلٍ رُمَحٍ	وَمُلِيحٍ مِنَ السَّنَانِ بِتُرْسٍ
تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا	عَ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ خُرْسٍ
يَغْتَلِي فِيهِمْ ارْتِيَابِي حَتَّى	تَنْقَرَاهُمْ بِأَيْدِي بَلْمَسٍ ^(١)

إِنَّ الْبَحْتَرِيَّ الَّذِي أَوْهَمْتُهُ بِرَاعَةُ الرَّسَامِ، هُوَ أَيْضاً أَوْهَمْنَا بِبِرَاعَةِ تَصْوِيرِهِ، صَحِيحٌ أَنَّهُ كَانَ أَمِيناً فِي
تَصْوِيرِ مَشْهَدِ الْمَعْرَكَةِ، وَلَمْ يَسْمَحْ لْخِيَالِهِ أَنْ يُجَوِّرَ فِي الصُّورَةِ، لَكِنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يُخَفِّزَ كُلَّ طَاقَتِنَا الْخَيَالِيَّةِ
إِلَى حَدِّ الْاسْتَفْزَازِ، فَأَثَارَ فِينَا الصُّورَةَ الْبَصَرِيَّةَ، وَالسَّمْعِيَّةَ، وَالنَّفْسِيَّةَ مَعاً بِبِرَاعَةِ مُنْقَطِعَةِ النَّظِيرِ:

• الصُّورَةُ الْبَصَرِيَّةُ: فَقَدْ أَسهَمَتِ الْأَصْبَاغُ اللَّوْنِيَّةُ فِي تَزْيِينِ تِلْكَ الصُّورَةِ؛ فَأَنْوَشَسُرُ وَأَنْ فِي ثَوْبِهِ
الْأَخْضَرِ (فِي اخْضِرَارٍ مِنَ اللَّبَاسِ) عَلَى حِصَانِهِ الْأَشْقَرِ (عَلَى أَصْفَرِ) الْمُجَلَّلِ بِحُلَّةٍ مَصْبُوغَةٍ
بِالْوَرْسِ (فِي صَبِيغَةِ وَرْسٍ)، كَمَا صَوَّرَ الْأَشْيَاءَ الْمَحِيطَةَ بِهَذِهِ الشُّخُوصِ وَأَفْعَالِهَا، لِيَسْتَدْعِيَ
إِيهَامَ الْمُتَلَقِّي بِصُورَةٍ مُتَكَامِلَةٍ مُوَحِيَّةٍ، فَذَكَرَ (الدَّرْفُسَ، وَالرُّمَحَ، وَالسَّنَانَ، وَالتُّرْسَ..)،
وَصَوَّرَ الْحَرَكَاتِ، فَآتَتْ الصُّورَةُ حَيَّةً مُتَحَرِّكَةً لَا سَاكِنَةً جَامِدةً عَاجِزَةً عَنِ إِثَارَةِ الْخِيَالِ،

(١) انظر: ديوان البُحْتَرِي ٢/ ١١٥٦-١١٥٧.

وذلك بفضل استدعاء المفردات الملائمة للموقف التعبيري؛ من مثل: (يهوي، يُزجي، مُشيع، مُليح، عراك الرّجال، تتقّراهم يداي)، وقد صوّر احتدام المعركة وهولها حين صوّر ذلك المحارب الذي يُقاتل بشراسة وإقدام، فينسكّر منه الرّمح ويضيع السّنان، فيبقى يُقاتل بعامل الرّمح، وآخر يصدّ عن نفسه ضربات الرّماح بترسه، وهذه اللّقطات الجزئية مرآة لجانب من جوانب المعركة القديمة تُصوّر شدّتها وضراوتها.

- والصّورة السّمعية: فقد صوّر البحريّ الصّمت المريب لهؤلاء المقاتلين الشّرسين (في خُفوتٍ منهم وإغماضٍ جرسٍ)، وأرّته عيناه أنّ بين القوم جلبّةً وضجيجاً وصياحاً وصهيلاً وعويلاً، ولكن بلغة الإشارة (لهم بينهم إشارة خرسٍ)، فهذا إصرارٌ من البحريّ أنّه لا يريد لنفسه أن تخرج من وهمها في هذه الصّورة المريعة، ويريد لنفسه أن تبقى في أجواء معركة طاحنة تتطايّر فيها الرؤوس والأشلاء وتغيب عنها قعقة السيوف وصهيل الجياد وصراخ الفرسان.

- والصّورة النّفسية: فقد صوّر مشاعر المقاتلين؛ فالقائد أنوشروان على حصانه يشعرُ بالعظمة والكبرياء والخيلاء، وهو يوجّه الصّفوف العظيمة من جنوده الذين يهون برماحهم على أعداء استبدّ بهم الخوف، حتّى رأوا المنايا التي لا تُرى (والمنايا موائل)، فالمنية ذلك المفهوم الذّهنيّ أصبح ماثلاً أمام الفرسان يروّنه رأي العين عند البحري؛ للدلالة على هول المعركة وما قذفته من الرّعب في نفوس القوم أجمعين، فاختبئوا وراء التّروس (ومُليح من السّنان بترس)، ويصوّر لنا أيضاً انطباعاته الداخليّة وحيرته هو، والرّيب الذي تملّكه من حقيقة هذه الصّورة، فعينه مُقتنعة أنّ ما تراه معركةٌ حقيقيّة (تصِفُ العين أنّهم جدُّ أحياءٍ) لبراعة ذلك المصوّر، وعقله يأبى أن يُصدّق؛ لأنّه لم يسمع أصواتهم، (يغتلي فيهم ارتياي)، فما كان منه إلّا أن تحسّس الصّورة بيديه؛ ليطمئن قلبه من هذا الوهم الذي عاش فيه، فأراد أن ينقله إلينا أيضاً عبر هذه القصيدة الموهمة السّاحرة التّصوير والجمال.

ولو أردنا أن نحكم بين مُصوِّرين؛ الرِّسَام والشَّاعر ههنا، لرأينا أنَّ الفُضيلةَ بينهما للبحرِيِّ الذي استطاع أن يُصوِّرَ لنا تلك المعركة واللَّوحة معاً، فرسمَ بالكلمات، ولَوْنُ بالمشاعر الدَّفَاقَة، وأضافَ على اللَّوحة من روحه وجماله وأحاسيسه حتَّى استنطقَها، وأظهرَ إعجابه بها، وبَيَّنَ تأثيرَها فيه، فكانَ تصوُّره هذا إبداعاً على الإبداع، فالجمالُ في هذا التَّصوُّير مُنبعثٌ من النَّصِّ الشَّعريِّ نَفْسِه لا من اللَّوحة الموصوفة فيه، وهذا واردٌ، أعني أن يكونَ الجمالُ مُنبعثاً من النَّصِّ الأدبيِّ المصوِّر للشَّيءِ الحَسَنِ أو القبيح، وليس مُنبعثاً من الشَّيءِ المصوِّر نَفْسِه، وأشارَ إلى ذلك حازمُ القرطاجيّ (ت ٦٨٤ هـ) بقوله: «ومن التذاذِ النَّفوسِ بالتَّخيلِ أنَّ الصُّوَرَ القبيحةَ المستبشعةَ عندما قد تكونَ صوُرها المنقوشةُ والمخطوطةُ والمنحوتةُ لذيذةً إذا بلغتِ الغايةَ القصوى من الشَّبهِ بما هي أمثلةٌ له، فيكونُ موقعُها من النَّفوسِ مُستلذاً؛ لا لأنَّها حَسَنَةٌ في أنفُسِها، بل لأنَّها حَسَنَةٌ المحاكاةِ لِمَا حوَكِي بها عندَ مُقايستِها به»^(١).

إنَّ الصُّورةَ عندَ البحرِيِّ طريقةٌ للتَّعبيرِ عن معنَى، تعرِّضُ المعنى بتأثيرٍ خاصٍّ ومُوحٍ، ولكنَّها في النِّهاية طريقةٌ عرضٍ وكيفيَّةٌ تقديمٍ، لا تخرجُ عن الواقع، وعن العلاقاتِ المألوفةِ بين طرقي الصُّورة، ولا تُؤثِّرُ في تحويرِ المعنى أو تبديله، وأمَّا أبو تمامُ فصوِّره ليستَ وسيلةً عرضٍ للأفكارِ وحسب، لكنَّها عنصرٌ رئيسٌ في توليدِ الدَّلالاتِ المنبعثةِ من الكلام؛ لأنَّ طبيعةَ صوره تجعلُ الدَّلالةَ مُنْفَتِحَةً على ألوانٍ من التَّفْسيرِ وتعدُّدِ القراءاتِ، إذا فالصُّورةُ عندَ أبي تمامٍ ليستَ عنصراً حياديّاً في نقلِ المعاني والأفكار، بل هي موجَّهةٌ لتلك المعاني ومولَّدةٌ لها أيضاً.

إنَّ الصُّورةَ المبعثرةَ الأجزاءِ في شعرِ أبي تمامٍ تبعثُ المتلقِّيَ على اليقظةِ والانتباه، وتُشغِلُ باله في تقصِّيِ العناصرِ المكوِّنة للصُّورة، وفي تتبُّعِ دلالَتِها، فيشعرُ إزاءَها بنوعٍ من الفضولِ يجذِّبه إلى تأمُّلِ علاقاتِ المشابهةِ والتَّناسُبِ بين أجزاءِ الصُّورة، ليصلَ إلى المعنى، وأشكُّ أن يقبُضَ على المعنى؛ لأنَّه يتنكَّرُ بأثوابٍ مختلفةٍ، إذ تشكُّلُ الصُّورةِ على تلك الهيئاتِ التي أسرفَ النُّقادُ في استردادِها جعلَ

(١) انظر: منهاج البلغاء ص ١١٦.

دلالة الصُّورة في شعر أبي تمام عائمةً على بحرٍ من التَّأويلاتِ والمعاني المزدوجة، ومن هنا تنبعُ أهميَّةُ الصُّورة الفنيَّة وثراؤها عند الطَّائي الكبير.

وأما البحري ففنان تشكيليٌّ يُصوِّرُ لك الواقعَ تصويراً أميناً جميلاً، فهو ذو قدرة عالية على التَّخيل ونقل الصُّور وإثارة مُخيِّلة المتلقِّي. وأبو تمام ذو قدرة عالية على الإبداع، وإثارة عقل المتلقِّي في فهم أبعاد الصُّورة، واكتشاف المعنى المختبئ وراءها. وقد نظر يعقوبُ الكنديُّ في شعر أبي تمام، فقال: «هذا رجلٌ يموتُ قبلَ حينه؛ لأنَّه حَمَلَ على كيانِه بالفكر»^(١)، ومعلومٌ أنَّ أبا تمام عاشَ لنيِّفٍ وأربعين عاماً.

ونحن هنا سندرسُ أثرَ الصُّورة الفنيَّة في إيهام المتلقِّي، وسنستخذُ من شعر الطَّائيين قاعدةً للدَّرسِ والتحليل، ولكن لن ندرسَ الصُّورَ بالطَّريقة الجافَّة التي يلجأ إليها الكثرون، حين يدرسون التَّشبيهَ على حِدَةٍ، والاستعارةَ على حِدَةٍ، وكذا المجاز، والكناية، ولا يلتفتون إلى شيءٍ من مُكوِّنات الصُّورة الأخرى من عواطف وأفكارٍ ونغماتٍ موسيقيَّةٍ وألوانٍ بديعيَّةٍ..، كلُّ أولئك يتآلفون ويُسهمون في تشكيل الصُّورة الفنيَّة.

لذا أدعو الدَّارسين ألا ينظروا إلى عناصرِ الصُّورة على أنَّها جُزُرٌ مُتباعِدة..، فلا ينبغي للدَّارس - وهو يتذوَّقُ الصُّورة الفنيَّة في نصٍّ ما - أن يتكلَّم عن التَّشبيهِ مثلاً بمعزلٍ عن الاستعارة والكناية والمجاز، ولا ينبغي له أيضاً أن يتكلَّم على هذه الأشياءِ كُلِّها مُغفِلاً أثرَ اللُّغة وانتقاء المفردة والتركيب وملاءمة ذلك لموضوع النصِّ، ولا ينبغي الغفلةُ عن أثر الموسيقى الدَّاخِلِيَّة للنصِّ التي تحفُّ الصُّورة بألوانٍ من النِّغم تُعبِّرُ عن الحالاتِ النَّفْسِيَّةِ المستعصِيَّة على الكلمة والخيال؛ لأنَّ النِّغم هو أساسُ القصيدة، ولأنَّ النَّفسَ تمتلئُ بمناخٍ موسيقيٍّ ضبابيٍّ يُساعدُ المبدِعَ والمتلقِّي على الوصول إلى منطقةٍ اللَّاشعور؛ للقبضِ على اللَّحظَاتِ الهاربة من الوعي، وهذا ما يُمكنُ أن ندعوهُ (الصُّورة السَّمعيَّة)، وأظنُّ أنَّ أثرَ الصَّوْتِ في النَّفسِ لا يَقلُّ عن أثرِ اللَّوْنِ أو العِطْرِ أو اللَّمَسِ، والدَّلِيلُ أنَّنا قد نسمعُ لحناً

(١) انظر: الموشح ص ٤٠٧.

موسيقياً فنشعرُ بالابتهاج؟ وقد نسمع لحناً آخرَ يُحرِّكُ مشاعرنا العميقة، فتأثّر ونشعر بشيءٍ من الأسى أو الرغبة بالبكاء، مع أنّنا لم نفهم منه شيئاً؟ وما أردتُ قوله باختصار؛ هو أنّ الشاعر المبدع يستطيع أن يوظفَ موسيقى الكلمات لتبوح هذه الموسيقى بمعانٍ لم تبوح بها الكلمات أنفسها.. ومقصودُ الكلام أن تَمَّ عنصراً رئيساً في تشكيل الصورة الفنية هو الموسيقى الداخلية، وهذا العنصرُ غالباً لا يلقى عناية الدارسين، فقارئُ الشعرِ الثريّ بالنغماتِ الموحية والرموزِ هو أشبهُ بالمنصِتِ إلى الموسيقى يُحسُّ بها أكثرَ ممّا يفهمها، فكيف إذا كانت هذه النغماتُ مخفوفةً بالمفرداتِ المعبرة، والتراكيبِ الرشيقة، والتشبيهاتِ المخيلة، والعواطف المؤثرة؟

وصفوة القول: إنّه من العبث أن تُدرَسَ الصورةُ الفنيةُ بمعزلٍ عن اللغة والنغمات والعواطف والأفكار التي تكتنف هذه الصورة وتُسهم في تشكيلها. لأنّ الصورةَ هي الوعاء الذي فيه تنصهرُ الكلمات التي كانت تبدو خارج النصّ مُتناقضةً مُتباعِدةً، وفي الصورة تغدو تلك المتباعداتُ وحدةً بنائيةً متكاملةً ذاتَ مناخٍ نفسيٍّ ودلاليٍّ متآلفٍ، وبما أنّ الصورةَ تقومُ أساساً على الخيالِ فإنّها تجمعُ بينَ أشياءٍ لا تجتمعُ في الواقع، وتوحدُ بينَ الأشياءِ المتناقضة، لذا فإنّ الصورةَ بإمكانها أن تُعيدَ رَسَمَ الوجودِ، وأن تُعيدَ تصوُّرها للعالم، وتُشكِّله من جديد، بما يتوافقُ مع التجربة الشعريّة للشاعر، ومع وجهة نظره، ومكوناته العاطفية.



المبحث الأول

إيهام الصورة في شعر أبي تمام

امتازت الصورة الفنية في شعر أبي تمام بصفات عدة لها صلة بإيهام المخاطب، ستوقف عند اثنتين منها: (المبالغة، وغموض الصورة وتعدد دلالاتها)، ذلك الغموض في تشكيل الصورة أثار ثائرة النقاد على أبي تمام، وحصلت لأجله خصومات نقدية وفنية كانت الأجدى نفعاً على نقدنا الأدبي القديم، لكن اهتمامنا لن يتوجه لأولئك النقاد، بل لبيان صلة ذلك الغموض بإيهام المتلقي، وأوجز ذلك بكلمة واحدة؛ هي أن وثباته الخيالية التي تلغي الفواصل بين الأشياء، ولا تكثرث بالتناسب المنطقي بين عناصر الصورة، ومفارقة الأنساق الاستعارية المألوفة أدت إلى إغماض الصورة على من ألف التقاط المعاني الظاهرة من الكلام ولم يألف هذا النوع من التصوير أو لم يألف إعمال فكره في تدقيق الصورة الشعرية، وأدت في الوقت نفسه إلى انفتاح تلك الصور على فضاءات التأويل وتعدد المعاني المحتملة عند من له استعداد لتلقي هذه الصور ذات العلاقات المبكرة والمتشابهة، فأصبح هذا المتلقي مولداً لمعانٍ كثيرة قد تكون لم تخطر للمبدع الأول أصلاً. ولا شك في أن أبا تمام امتلك القوة الشاعرة؛ فهو يتمتع بقدر عالٍ من الحساسية ودقة الملاحظة، مما يمكنه من النظر أبعد مما سواه، فيكتشف التناسب والتجانس الذي لم لحظه البشر العاديون بين الأشياء والعناصر.

ولو رأينا الأمدّي (ت ٣٧٠هـ) كيف علّق على قوله: [الكامل]

جارى إليه البين وصل خريدة ما شئت إليه المظل مشي الأكبد^(١)

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٢/ ٤٤-٤٥ الهاء في (إليه) راجعة إلى المحب، يريد أن (البين) و(وصل الخريدة) تجارياً إليه، فكأنه أراد أن يقول: إن البين حال بينه وبين وصلها، واقتطعها عن أن تصله، فعَدَل إلى أن جعل البين والوصل تجارياً إليه، وأن الوصل في تقديره جرى إليه يريدُه، فجرى البين ليمنعه، فجعلها متجارين، ثم أتى في المصراع الثاني بنحو من هذا التخليط، فقال: ما شئت إليه المظل مشي الأكبد، (الهاء) هنا راجعة إلى الوصل: أي لما عزمْتُ على أن تصله عزمْتُ عزمَ مُثاقِلٍ مُماطِلٍ، فجعل عزمها مشياً، وجعل المظل مُماشياً لها. انظر: الموازنة ١/ ٢٨٠.

لأدرُكنا مدى الحملةِ النَّقديةِ التي طالتِ الصُّورةَ في شعرِ أبي تمامٍ من مُعاصريه فضلاً عن لاحقيه، فالآمديُّ في ختامِ حديثه عن البيت لا يتمالكُ إلا أن يقول: «فيا مَعشَرَ الشعراءِ والبُلغاءِ ويا أَهْلَ اللُّغةِ العربيَّةِ: خَبِّرُونَا كيفَ يُجاري البَيْنُ وَضَلَّها؟ وكيفَ تُماشِي هي مَطْلَها؟ ألا تسمعون؟ ألا تضحكون؟»^(١).

فالآمديُّ - وهو مَنْ هو - يَستنجدُ بالنُّقادِ والشُّعراءِ والبُلغاءِ وأهْلِ العربيَّةِ عندما غَشَتْهُ سُحْبُ الغموضِ في صُورِ أبي تمامٍ حتَّى أُبهِمَ عليه المعنى وتعدَّدَتِ الاحتمالاتُ في ذهنه، فهو يستنجدُ بهم؛ وكأنَّه يقول: إمَّا أن تشرحوا لي هذا الكلامَ وتُفهموني إذا كُنْتُ قليلَ البَصَرِ بكلامِ العرب، وإمَّا أن تضحكوا معي على هذا العبَثِ اللُّغويِّ.

والحقُّ أنَّ كلا الرَّجُلَيْنِ على حقٍّ؛ فأبو تمامٍ حينَ أطلَقَ العِنانَ لِخياله يُعَرِّبُ ويَجْمَعُ في الإغرابِ لم يُطلِقْ لِسَانَ الآمديِّ وحده، بل أطلَقَ ألسنةَ أنصارِهِ والمتعصِّينَ له حتَّى عابُوا بعضَ استعاراته، والآمديُّ (ت ٣٧٠هـ) يُحاكُمُه إلى مقاييسِ عمودِ الشعرِ التي لم يلتزم بها أبو تمامٍ أصلاً، وأنت تعلمُ أنَّ النَّاقِدَ القديمَ كانَ يُلحُّ على ضرورةِ التَّناسُبِ المنطقيِّ الصَّارِمِ بينَ عناصرِ الصُّورةِ، ويؤكدُ على ضرورةِ وُضوحِها، وأن تكونَ عناصرُها متميِّزةً من بعضها في إدراكِ المتلقيِّ، فالآمديُّ يريدُ من أبي تمامٍ أن يفصلَ بينَ عناصرِ الصُّورةِ، وأن يكونَ بينَ هذه العناصرِ تناسُبٌ خارجيٌّ، ولذا بقي كثيرونَ ينظرونَ إلى استعاراتِ أبي تمامٍ نظرةً تنطوي على الرِّيبة؛ لأنَّ هذه الاستعاراتِ كانت تعبثُ بصفةِ الوُضوحِ، وتُخلُّ بمَطْلَبِ التَّمَايزِ وانفصالِ الحدودِ بينَ عناصرِ الصُّورةِ.

على حينٍ نجدُ أبا العلاءِ المعريَّ (ت ٤٩٤هـ) يذوبُ وَلَهَّاءَ بهذه الصُّورِ العميقة، والتَّبْرِيزيَّ (ت ٥٠٢هـ) يُعجَبُ بتصويراته، وغيرَهم كثير.

ولا ريبَ في أنَّ المبالغةَ من أبرزِ خصائصِ الصُّورةِ الفنيَّةِ الموهمة، فالشَّاعرُ يلجأُ إلى المبالغةِ والتَّهويلِ والكذبِ الفنيِّ، ويتجاوزُ النُّواميسَ الكونيَّةَ العامَّةَ بقصدِ الإيهامِ والتَّخيلِ، وتمكينِ الفكرةِ

(١) انظر: الموازنة ١/ ٢٨٠.

المختبئة وراء الصورة في نفس المتلقي، وهذا مذهب محمود في الشعر، فالنابغة يقول: «أشعر الناس من استجيد كذبه»^(١)، ومن أحسن المبالغة وأكثرها إيهاماً التقصي؛ أعني أن يحاول الشاعر في أثناء تشكيل الصورة بلوغ الحد الأقصى للصفة المدعاة، بل يُغالي أحياناً ويُسرف في تجاوز المعقول أو المعتاد من هذه الصفة؛ ليوهم أن هذه الصفة المدعاة موجودة في جهة القول التي يقصدها على الحقيقة، وهذا إن كان معضوداً بتشبيهه أو مجاز كان أدعى إلى التخيل وإيهام المتلقي، وسوف نتوقف عند هاتين السمتين الأسلوبيتين (المبالغة والغموض) نتقصى أثرهما في الطاقة الإيهامية لصور أبي تمام، ونحن هنا ستعرض لهاتين السمتين، وأثرهما في إيهام المتلقي وتعدد المعاني واحتمالات الدلالة المختبئة وراء الصورة، وبيان أثر ذلك في حياة النص برؤية نقدية:

المطلب الأول: أثر المبالغة في إيهام الصورة في شعر أبي تمام.

الصورة عند أبي تمام تمنح دائماً نحو المبالغة، وخاصة في مقام المديح، وهذا أدعى إلى التخيل وإيهام المتلقي وإقناعه؛ لأن النفوس أطوع للوهم منها للعقل - وخاصة في لغة الأدب - يُضاف إلى ذلك أن النفس دائماً مولعة بالطريف والغريب كالمبالغات التي في شعر أبي تمام التي تزيد شعريّة الكلام، وتكثف فكره ومعانيه في ألفاظ يسيرة؛ كقوله مادحاً المعتصم: [الطويل]

هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتُهُ	فَلَجَّتُهُ الْمَعْرُوفُ، وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوَّاهُ	تَنَاهَا الْقَبْضُ لَمْ تُجِبْهُ أَنَامِلُهُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ	لَبَادَ بِهَا، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ ^(٢)

فهذا غلو في الوصف تميل إليه النفس، وقد أفاد أبو تمام من التشبيه البليغ عندما جعل المعتصم بحراً في الكرم، فأوقع في نفس السامع صورة البحر الواسع الملائن بالخيرات والجواهر والأرزاق، وأفاد باستعارة البحر سعته في الجود وفَيْض الكف.

(١) انظر: العُمدة ٦٥٨/٢.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٢٩/٣.

وقد اعتاد الأدباء والشعراء أن يُشَبِّهوا الجواد بالبحر؛ لأنَّ البحر ماؤه كثير، وعطاؤه وفير، فهو لا يمنع أخذاً منه... لكنَّ إشرافات الذكاء مكَّنت أبا تمام من إعطاء هذا التشبيه المتداول زينةً جديدةً مُحَبَّبةً؛ بتقسيم البحر إلى جُلَّةٍ وساحلٍ، وقد ادَّعى ههنا الاتحاد بين طرفي التشبيه، وكأنَّ المعتصم هو البحر، والبحر هو المعتصم، وهذا ادَّعى إلى التَّخيل والإيهام؛ لأنَّه يُنَكِّرُ التشبيه نُكراناً يدلُّ على المبالغة وادِّعاء المماثلة الكاملة بين البحر والمدوح، ثُمَّ أَغْرَقَ أو غالى في وصفه بالكرم حين لم يَقْنَعْ بأنَّ كَنَّى عن كرمه بسطِّ اليد، بل ذهبَ إلى أنَّ هذه الكفَّ إنَّ حاول المدوح قَبْضَها أَبَتْ عليه؛ لأنَّها تعودت أن تبقى مبسوطةً للسَّائِلين والرَّاعِبين، وكأنَّ يده ذات أخلاقٍ وخِصالٍ ومعروفٍ فتتَّصِفُ بالجود، وذات عقلٍ وإرادة فتأبى أن تنقبض، وهذا عينُ الكرم، وأمَّا قوله:

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها، فليتيق الله سائله

فإنَّه مُبالِغةٌ - وإنَّ كانت مُستحيلة - مليحةٌ مُمكنةٌ للمعنى المختبئ وراء الصُّورة، فهذا المدوح لَفَرَطِ كرمه ولطولِ اعتياده العطاء والبذل، لو جُعِلَتْ روحه - ولا أنفَسَ ولا أغلى من الروح - لو جُعِلَتْ روحه في كفه؛ لجاد بها، وجعلها من الموهوبات للعفاة؛ جرياً على عاداته في بذل ما في الكفِّ من نفائس.

وشبيه هذا في المبالغة (الإغراق) قوله مادحاً المأمون: [الكامل]

الله أكبر! جاء أكبر من جرَّت	فتحيَّرت في كُنْه الأوهام
من لا يُحيط الوصفون بقدره	حتَّى يقولوا: قَدْرُهُ إلهام
من شَرَّد الإعدام عن أوطانه	بالبذل حتَّى استُطِرَف الإعدام
وتكفَّل الأيتام عن آبائهم	حتَّى ودَّنا أننا أيتام ^(١)

فأبو تمام أراد أن يُقدِّم لنا صورة الخليفة الكريم العظيم، فالنَّاسُ في جَلَبَةٍ يتساءلون فيما بينهم عن سرِّ هذه القدرة والعظمة التي عُرِفَ بها المأمون، وكأنَّه شيءٌ غيرُ جنسِ البَشَر، حتَّى يحاروا في فهمِ

(١) انظر: ديوان أبي تمام ١٥٣/٣.

كُنْهِهِ وَجَوْهَرِهِ، بَلْ إِنَّ أَرْبَابَ الْكَلَامِ وَالْبَلَاغَاتِ عاجزون عن الإحاطة بعظمته، فهذا الخليفة لفرط جُودِهِ وَكَرَمِهِ وَبَسْطِ كَفِّهِ قَدْ (شَرَّدَ الإِعْدَامَ عَنْ أَوْطَانِهِ)، فكأنَّ للفقيرِ أوطاناً هي مساكنُ الفقراء المعدمين أتاها سخاءُ المأمون، فشرَّدَ هذا الإعدامَ وأبعده عنها، حتَّى أضحى الفقرُ عزيزَ الوجودِ، وعزَّ العثورُ على الفقيرِ بينَ النَّاسِ، بعدما أفاضَ عليهم المأمونُ من سَيِّبِ إِفْضَالِهِ وَكَرَمِهِ، وهو بعدَ ذلك أَبٌ رَحِيمٌ لِلرَّعِيَّةِ فَقَدْ وَلِيَ الْإِيْتَامَ كُلَّهُمْ بعدَ فَقْدَانِهِمْ آبَاءَهُمْ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ إِحْسَاناً، وَخَصَّهِمْ بِالْعَطَايَا وَالْهِبَاتِ حتَّى تَمَنَّى النَّاسُ لو أَنَّهُمْ أَيْتَامٌ. وفي هذا كما ترى مُبَالِغَةً، فَالْيُسُّمُ ذَلِكَ الشُّعُورُ الْمُؤَلِّمُ، شُعُورُ الْفَقْدِ وَالْحَرَمَانِ أَصْبَحَ مُحِبِّباً إِلَى النَّاسِ مَرْغُوباً فِيهِ بعدَ مَا رَأَوْا من رعايةِ الخليفةِ لهؤلاءِ الْإِيْتَامِ وَكَرَمِهِ مَعَهُمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ.

إِنَّ أَبَا تَمَّامٍ قَدَّمَ لَنَا صُورَةَ الْعَظَمَةِ وَالْكَرَمِ فِي ثَوْبِ الْمُبَالِغَةِ، (تَحَيَّرْتُ فِي كُنْهِهِ الْأَوْهَامِ)، (لَا يُحِيطُ الْوَاصِفُونَ بِقُدْرِهِ)، (قُدْرُهُ إِلْهَامُ)، (شَرَّدَ الإِعْدَامَ عَنْ أَوْطَانِهِ)، (حتَّى اسْتَطَرَفَ الإِعْدَامُ)، (حتَّى وَدِدْنَا أَنَّا أَيْتَامٌ)، وَالْإِيهَامُ وَالتَّخْيِيلُ ههنا واقعٌ من حيث إنَّ هذا الكلامَ - لفرطِ مُبَالِغَتِهِ فِي تَصْوِيرِ الصِّفَةِ الْمَدْعَاةِ - لو سَمِعْتَهُ فَلَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ ستعتقدُ الكرمَ والعظمةَ في الممدوح، ولو لم يكنِ اعتقادُكَ بالمقدارِ الذي رَسَمَهُ أَبُو تَمَّامٍ، عَلَى أَنَّكَ ستعتقدُ مَوْقِفَنَا بِكَرَمِ الرَّجُلِ إِلَى حَدٍّ لَنْ تَقْبَلَ مَعَهُ قَوْلَ مُنْكَرٍ لِهَذِهِ الصِّفَةِ فِي الْمَأْمُونِ، فَأَبُو تَمَّامٍ جَاوَزَ الْحَدَّ فِي رَسْمِ صُورَةِ الْكَرِيمِ، وَبَالَغَ فِيهَا؛ لِيُضْمَنَ مِنَ الْمُتَلَقِّيِ الْإِقْتِنَاعَ بِالْحَدِّ الْأَدْنَى مِنَ الصُّورَةِ وَعَدَمَ إِنْكَارِهَا، فَهُوَ يَطْلُبُ الْكَثِيرَ؛ لِيَحْصُلَ عَلَى حَدٍّ أَدْنَى مِنَ الْإِقْنَاعِ يَطْمَئِنُّ مَعَهُ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى قَدْ تَمَكَّنَتْ فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّيِ تَمَكُّناً يَمْنَعُهُ مِنْ إِنْكَارِهِ، وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الصُّورَةَ عِنْدَ أَبِي تَمَّامٍ ذَاتُ وَظِيفَةٍ إِقْنَاعِيَّةٍ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ وَشْيٍ لِلْكَلامِ.

وَلَمَّا أَرَادَ أَبُو تَمَّامٍ أَنْ يَمْدَحَ الْمُعْتَصِمَ وَيُقَدِّمَهُ لَنَا بِصُورَةِ الْقَائِدِ الشُّجَاعِ قَالَ: [البسيط]

لَمْ يَغْزُ قَوْمًا، وَلَمْ يَنْهَذْ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعُوبِ
لَوْ لَمْ يَقْدُ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعَى لَعَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَّهَا فِي جَحْفَلٍ لَبَّ (١)

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٦٤/١.

هذا قائدٌ أسطوريٌّ خياليٌّ لا شبهة له في وقائع التاريخ، ما هذا الفارسُ المغوارُ ممتطياً جواده الأغرَّ، مُتَشِقّاً سيفه البتَّارَ، وجيشٌ من الرُّعب يسبقُه إلى أي مدينة شاءَ فَتَحَهَا!! استعارةٌ تصرّيجيةٌ مُبهرّة، فصيّتُ المعتصمَ وأعماله البطوليّةُ الخالدةُ التي سارت بها الرُّكبانُ صارت جيشاً من الرُّعب يتقدّمه في أيّ معركة يقصدها، لاسمِهِ رهبةٌ تستبدُّ بقلوبِ خُصُومِهِ، وتجعلُ الخوفَ يلفُّهم ويتملّكُهم، وهذا الفارسُ أُمَّةٌ وحده، فهو بمُفرده جيشٌ عظيمٌ جرّار، لفرطِ إقدامِهِ وبَطْشِهِ وجُرْأَتِهِ وشجاعته. وإن لم يصحبْ معه جيشُهُ الكبيرُ إلى المعركة فإنَّ قُوَّتَهُ وبأسَهُ وشهرته تكفي لهزيمة أعظم جيوش الأرض.

استطاع أبو تمام أن يُوقِعَ هذه الصِّفاتِ في نفسِ السَّامع، وأن يُقدِّمَ المعتصمَ في صورة القائد الخُلُم...، كما قدّمَ المتنبي الأميرَ سيفَ الدَّولة فيما بعد. إنَّ كُتُبَ التاريخ تُحدِّثنا عن قُوَّة المعتصم وبطوليته وشجاعته على المستوى الفردي والقيادي، ولكن لنفترض أن هذه القصيدة أُلقيت لمتلقٍ ليس له معرفة بتاريخ المعتصم؛ فهل من ريبٍ في أن صورةً مُشرقةً قد ارتسمت في مخيلته عن ذلك البطلِ الأسطوريِّ الذي تنجذبُ إليه النفوسُ وتُعظِّمُهُ القلوبُ؟

فأبو تمام حاكى المعتصمَ بما هو أعظمُ منه حالاً؛ ليزيدَ النفوسَ استمالةً إليه، والعقولَ تصديقاً لما ادَّعى من صفات البطولة والشَّجاعة فيه. وإنَّ كانت هذه الطَّريقة من المبالغة لا تفي أحياناً بالمقصود منها وهو الإيهامُ والتَّخيل؛ لأنَّ المبالغة إذا وقعت في الأمرِ الممكنِ سكنتُ إليه النفسُ وجازَ تمويهه عليها، وأمّا المبالغة الواقعة في المحالِ فإنَّها قد تنفُرُ عنها النفسُ ولا تقعُ في وهيمها^(١)؛ لافتضاحِ كذبها، وهنا لا يعودُ بمقدورِ الشَّاعرِ الاحتيالُ على المتلقِّي كما في قول أبي نواس مادحاً الرَّشيدَ: [الكامل]

وَأَخْفَتَ أَهْلَ الشُّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفُ التِّي لَمْ تُخْلَقِ^(٢)

فهذه المبالغة الموعِلة لا شكَّ في أنَّها مَكَنَّتِ المعنى في نفسِ المتلقِّي، وأعلتْ من قدرِ المدحِ عنده، إلَّا أنَّها غيرُ قادرةٍ على إيهامِهِ أو إشعارِهِ بواقعيّةِ الصُّورة؛ لأنَّ الشَّاعرَ غالى في رَسْمِ الصُّورة حتَّى أخرجَ المبالغةَ عن مقصودِها الذي هو إيهامُ المخاطَبِ، وأحالَ الكلامَ إلى أشبه بحكاياتِ الأطفال.

(١) انظر: منهاج البُلغاء ص ٢٩٤.

(٢) انظر: العُمدة ٢/ ٦٧٥، وسرّ الفصاحة ص ٤٠٦.

ومن المبالغات المؤثرة في تشكيل الصورة عند أبي تمام قوله وهو يُردُّ على شاعرٍ يُدعى عُتْبَةَ كان قد هجا بني عبد الكريم الطائيين: [المنسرح]

شُعْرِي، أَنَّى هَرَبْتَ فِي الطَّلَبِ	ولو صَعِدْتَ إِلَى السَّمَاءِ فِي سَبَبِ
يا ابنَ أَبِي عاصِمٍ، ولا عاصِمٌ	- ويَلْكَ - من سَطَوْتِي ومن غَضَبِي
أَيُّ كَرِيمٍ يَرْضَى بِشَنَمِ بَنِي	عبدِ الكريمِ الجحاجِ النُّجَبِ
أَيُّ مُنَادٍ إِلَى النَّدى وَإِلَى الهَيْبِ	جَاءَ نَادَاهُمْ فلم يُجِبِ
أَيُّ وَلِيٍّ رَأَى سِيوفَهُمْ	في الحربِ مشهورةً فلم يَشِبِ
إِنْ رُمْتَ تصديقَ ذَايا أعورِ الد	دَجَّالِ فَالْحَظُّهُمْ وَلَا تَذُبِ ^(١)

المتلقي ههنا أمام أربع صور:

- صورةُ الشَّاعرِ الفَذِّ الذي تهابه الشعراء.
- وصورةُ بني النَّجَّارِ أربابِ الشَّجاعةِ والكَرَمِ.
- وصورةُ مَنْ يلاقِي بني النَّجَّارِ في ساحةِ الوغى.
- وصورةُ الشَّاعرِ الذي تجرَّأ على بني النَّجَّارِ الطَّائِيينَ.

فأبو تمام - على غير عاداته إذا قيسَ بالمتنبِّي مثلاً - يرسمُ لنفسه صورةً خياليَّةً، وأسطوريَّةً، حيثُ غَضِبَتْهُ الشَّعْريَّةُ تطالُ الشعراءَ المتجرِّبينَ ولو لادُّوا بالسَّماءِ، وتلك صورةٌ تذكِّرنا بقوله تعالى:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، وتذكِّرنا بقول زهير: [الطويل]

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلُسُهُ

ولسورامَ أسبابَ السَّماءِ يَسْلَمُ^(٢)

وتذكِّرنا بقولِ النَّابِغةِ مُعْتَذِراً إلى النُّعمان: [الطويل]

فإنَّكَ كاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي

وإنَّ خِلْتَ أَنَّ الْمُتَأَيَّ عَنْكَ وَاسِعُ^(٣)

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٣٠٦/٤.

(٢) انظر: شرح القصائد العشر ص ١٢٥.

(٣) انظر: الصناعتين ص ٧٥.

فأبو تمام أدرك أنه يواجه خصماً شاعراً، فلا بد أن يُقدّم له صورة مُفزعة تكون من وحي الشعر، صورة تؤكّد ريادته على الشعراء أجمعين، صورة تُلجّم هذا الشاعر وأمثاله، وتمنعهم من التّطاول على الطّائيين مرّة أخرى، فسلك سبيل المبالغة في تصوير سيادته على الشعراء، كما فعل جرير؛ إذ قال: [الوافر]

أَعَدَّ اللَّهُ لِلشُّعْرَاءِ مِنْنِي صَوَاعِقَ يَخْضَعُونَ لَهَا الرُّقَابَا^(١)

وأبو تمام إنّما غالى في تعظيم قوّته الشعرية؛ ليظهر بمظهر الشاعر المُرهب المسيطر على أرباب الشعر والنثر في كلّ مكان، وهذا مُناسب لمقام الرّد على من يهجو رَهْطاً من قومه الطّائيين، حتّى يرتدّع، ويكون عبرة لمن اعتبر.

وأما الصّورة الثّانية فهي صورة بني النّجار، أولئك (الجحّاج النّجب)؛ فالشاعر يفتتح الكلام على مآثرهم باستفهام غرضه النّفي:

أَيُّ مُنَادٍ إِلَى النَّدَى وَإِلَى الْهَيْبِ — جَاءَ نَادَاهُمْ فَلَمْ يُجِبْ

أي لم يُنادِ مُنادٍ للكرم والندى إلّا كانوا أطول الأقسام ذراعاً في السّخاء والعطاء والجود، ولم يُنادِ بالجهاد وبالحمية إلّا كانوا أشجع الأعراب بأساً ومقدرة وعنفواناً، إنّها صورة مُشرقة تستميل قلب المتلقّي إلى بني النّجار وتُنفّره ممّن هجاهم.

وأما صورة من يلقي بني النّجار في ساحة الحرب فلا تسلّ! فهؤلاء قومٌ يدبّون الرّعب في أفئدة النّاظرين يوم الحرب حتّى يشيب الطّفّل من فزعِهِ، وعبر عن ذلك أبو تمام بقوله:

أَيُّ وَلِيدٍ رَأَى سَيُوفَهُمْ فِي الْحَرْبِ مَشْهُورَةً فَلَمْ يَشِبْ؟

فهذا أيضاً استفهام غرضه تأكيد النّفي، مع استغراق هذا النّفي لكلّ امرئٍ يُقدّر له رؤية هؤلاء القوم الصّناديد. ولكنّ أبا تمام غالى في هذه الصّورة، فهل يشيب الوليد؟ وهو هنا يُدكّرنا بآية كريمة تصفُ هول القيامة: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، فكأنّ أبا تمام

(١) انظر: شرح ديوان جرير ص ٧١.

استعار هذه الصورة الدالة على الهول والرعب والرّهبة لئُسبغها على شعره، فيُعَوِّض بني النّجار ما لحقهم من الإهانة من هجاء ذاك الشاعر، وليصنع من مدحه المُبالغ فيه مُقابلاً لما وُصفوا به من هجاء، فهذا الهجاء إن تبعه مدح مُبالغ فيه من شاعر كأي تمام نُسِخ ذلك الهجاء بهذا المدح الذي استقصى شرف المعنى وغايته، ولم يدع فرصة لمن يزيد عليه في الحُسن والوصف.

وأما الصورةُ الرَّابِعةُ والأخيرةُ فهي صورةُ الشاعر عُبّة الذي تجرأ على بني النّجار الطّائيين، فقد أزرى به الطّائي أيّما إزراء، إذ جعله يستسلم لأبي تمام ولا يتجرأ على التّفكير بمواجهته، بل يُبادِر بالفرار من بطش أبي تمام، فتنال منه الخيبة؛ لأنّ يد أبي تمام تطاله ولو صعد إلى السّماء، إذ قال:

شُعري، أنّى هَرَبْتَ في الطَّلَبِ ولو صَعِدْتَ إلى السّماءِ في سَبَبِ

يا ابنَ أبي عاصِمٍ، ولا عاصِمٌ - ويلَكَ - مِن سَطَوَتِي وَمِن غَضَبِي

فهو يتمنى الملاحَ الآمن من بطش أبي تمام وسيفه الشّعري ولكن دون جدوى، وهذه الصورة تبغى إظهار عُبّة بمظهر الخائف الجبان الصّغير الحقيق، لتقبيح صورته ومسخها إلى الحدّ الذي يجعله لا يعود إلى مثلها أبد الدهر. وهذه الصورة لم تكتمل، فأبو تمام سَفّه عقل عُبّة وفصح كذبه بقوله:

أيّ كريم يَرْضَى بِشَتْمِ بني عبدِ الكريمِ الجاحِجِ النُّجَبِ؟

فهذا الاستفهام خارج إلى النّفي القاطع، مع غرضِ التّعريض بعُبّة، فكأنّه يقول: إنَّ كُلَّ امرئٍ فيه ذرّةٌ من مروءةٍ وكرامةٍ إنّه لا يَرْضَى بأن يُشْتَم هؤلاء القومُ الأخيارُ الكرماءُ الشّجعانُ، فكيفَ بمن يشتمهم؟ إنّها صورةٌ رائعةٌ من حيثُ جاءتْ على سبيلِ الاستفهام الذي يُفسِّحُ للمتلقّي أن يُعْمَلَ ذهنه في إيجاد الإجابة...، فأبو تمام ترك السؤال مفتوحاً (أيّ كريم يَرْضَى...) ليقَرَّ كُلُّ مُتلقٍّ من ذاته بأنّ عُبّة هذا عارٍ عن الشّرف والكرامةٍ ومُتجرّدٌ من الفضيلة؛ لِذَمِّه هؤلاء الأخيار. وقد اختتم أبو تمام صورة عُبّة الهاجي بقوله:

إنْ رُمْتَ تصديقَ ذا يا أعورَ الدِّ دَجَّالٍ فساخِطُهم ولا تَذُبِ

فاستعار له صورةً وهميةً لا تُدرى ما هي؛ إذ ناداه بـ(أعور الدجال)، أضف إلى ذلك ما لهذه الشخصية الغيبية من صفات قبيحة في الإرث الديني، ثم أتاه بالأمر على سبيل التحدي بقوله: (فالحظهم)، ثم أتاه بالنهي على سبيل التهديد والتخويف (ولا تذب)، وهذا أدعى إلى أن يصدق المتلقي كل ما مر من صفات الجلال والجمال في صورة بني النجار، وأدعى إلى زيادة التبجح والتنفير من صورة الهاجي عتبة.

ومن الصورة المبالغ فيها قوله يصف أحدهم بكمال الجمال: [البسيط]

تاهت على صورة الأشياء صورته حتى إذا كملت تاهت على التيه
ما استجمعت فرق الحُسْن التي افترقت عن يوسف الحُسْن إلا استجمعت فيه^(١)

وقد كان الأمدي في كثير من نقده يحاسب أبا تمام والبحري؛ لأنها مخالفت الحقائق في صورهما، فيأتیان بمثل هذه المبالغات التي يكذبها الواقع...، وهذا كلام لو سائرنا الأمدي فيه لانتفت الصورة الأدبية الجميلة إلا أقلها، ولانتفى الإيهام والتخيل من لغة الشعر، وهذا كلام للشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) يصلح ردًا لمذهب الأمدي ومن تابعه في مطالبة الشعراء بعدم مخالفة الحقائق، إذ يقول: «إن الشاعر لا يجب أن يؤخذ عليه في كلامه التحقيق والتحديد، فإن ذلك متى اعتبر في الشعر بطل جميعه، وكلام القوم مبني على التجوز والتوسع والإشارات الخفية والإيحاء على المعاني تارة من بُعد، وأخرى من قرب؛ لأنهم لم يخاطبوا بشعرهم الفلاسفة وأصحاب المنطق؛ وإنما خاطبوا من يعرف أوضاعهم، ويفهم أغراضهم...، ومن شأن العرب أن تجري على الشيء الوصف الذي قد كان قد يستحقه، وقرب منه القرب الشديد، فيقولون: قد قتل فلان هوى فلانة، ودلّه عقله، وأزال تميزه، وأخرج نفسه...، وكل ذلك لم يقع؛ وإنما أرادوا المبالغة وإفادة المقاربة والمشارفة...، أتوا بالفاظ المبالغة؛ صنعة وتأنقاً، لا لتحمل على ظواهرها تحديداً وتحقيقاً، بل ليفهم منها الغاية المحموده، والنّهاية المستحسنة...»^(٢)

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٢٩٣/٤.

(٢) انظر: أمالي المرتضى ٩٥-٩٦.

المطلب الثاني: غموض الصورة وتعدد دلالاتها.

لا ريب في أن الغموض سمة تُلَفُّ شَطْرًا من شعر أبي تمام، وقد تباينت الأقوال في مَبْعَثِ هذا الغموض، وأظنه راجعاً إلا أقله إلى اختلاف الناس في تأويل استعاراته، فأبو تمام له مذهب خاص في الاستعارة امتاز به من الأقدمين، وخالف فيه ما يُسمَّى عمود الشعر، فقد أكدوا أنه لا بُدَّ للاستعارة من حقيقة ترجع إليها، وأنه لا بُدَّ أن يكون بين طرفيها شبه ظاهر وتعلّق أكيد لا يخفى^(١)؛ كقولك: (زيدٌ يرازُ)، فقد شبهوا الرجل بالأسد بجامع الشجاعة في كلّ، وأرادوا للأديب أن يلتزم بهذه العلاقات المشتهرة بين الأشياء، ويذكر ذلك الأمدّي (ت ٣٧٠هـ) بقوله: «وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه، أو يُناسبه، أو يُشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه؛ فتكون اللفظة المستعارة حيث لا تُلَفُّ بالشيء الذي استُعيرت له وملائمة لمعناه»^(٢)، ورفضوا كلّ استعارة مبنية على استعارة أخرى؛ لتعقّد الصورة وانبهام المعنى، وخروج الكلام عن وجهه الصحيح.

وهذا الذي رفضوا عين ما سار عليه أبو تمام، فلم يكن يعنيه ثبوت العلاقة بين المشبه والمشبه به، بل أراد أن يُجَدِّد في تشكيل الصورة التقليدية، وأن يبتكر علاقات جديدة بين الأشياء، فأتى الكثير من صوره بعيداً مبهمًا، يحتمل أكثر من معنى بحسب التأويل. على أنه لا ينبغي الشطط في إطلاق الأحكام، ففي شعر أبي تمام أمثلة كثيرة على الصور التقليدية الواضحة؛ كقوله: [الكامل]

والشَّيْبُ إن طَرَدَ الشَّبابَ بياضُهُ كالصُّبْحِ أَحَدَتْ لِلظَّلَامِ أَفْولاً^(٣)

فهذا التشبيه التمثيلي غاية في الوضوح والتقليدية، وكذلك التشبيه الضمني الواضح في قوله مادحاً: [البسيط]

ليس الحِجابُ بمُقْصٍ عنك لي أملاً إن السَّماءَ تُرْجَى حينَ تَحْتَجِبُ^(٤)

(١) انظر: سرّ الفصاحة ص ١٩٠.

(٢) انظر: الموازنة ١/ ٢٦٦.

(٣) انظر: ديوان أبي تمام الموازنة ١/ ٦٤.

(٤) انظر: ديوان أبي تمام ٤/ ٤٤٦.

وفي شعر أبي تمام أمثلة كثيرة من هذه الصور الواضحة، ولكن هذه الصور - على كثرتها استثناءً، وأما القاعدة فإنها من الصور، وانفتاحها على فضاء التأويل الدلالي، وتعدد الاحتمالات.

وهذا الغموض الحاصل في تأويل صور أبي تمام - وفي استعاراته خاصة - أول أسبابه خروجه على عادة العرب في الملاءمة بين طرفي التشبيه، وقد حلاً لأبي تمام أن يكثف من هذه الصور الاستعارية في معظم أشعاره فأشكّل على كثير من سُراح هذا الشعر، وما زاد في الإشكال أن شطراً موفوراً من معاصريه ما استطاعوا أن يتفعلوا مع هذه الاستعارات؛ لمجيئها على صورة لم يألّفوها، فأنكروا عليه كثيراً منها، وأخذوا يشنون عليه غارات نقدية، يستقبحون فيها تلك الاستعارات ويستردئونها، وحصلت من وراء ذلك خصومات نقدية عادت بكثير من الخير والفائدة على التفكير النقدي العربي وعلى الدرس البلاغي وعلى حركة الشعر عموماً.

ومن هؤلاء الذين أنكروا صنيع أبي تمام الأمدئي (ت ٣٧٠هـ) الذي لم يفتأ يُخطئ أبا تمام في كل تشبيه أو استعارة تحتل أكثر من معنى ولا تأتي على منوال القدماء، وأفرد أبواباً للكلام على القبيح من استعارات أبي تمام وتشبيهاته، ومن ذلك مثلاً إنكاره على أبي تمام أن يكون الزمان أبلق في قوله:

[الطويل]

قومٌ إذا اسودَّ الزَّمانُ تَوَضَّحُوا فيه؛ فغدير وهو منهم أبلق^(١)

فأنكر أن يكون الزَّمانُ أبلق، والأبلق وصفٌ للخيل المُحَجَّلِ فيه بياضٌ وسوادٌ، وهم لم يألّفوا وَصَفَ الدَّهْرِ بالأبلق، فأنكروه على أبي تمام، ومثل هذا الإنكار مردودٌ لأمرين:

- أولاً: لأنَّ وجه الشَّبه بينهما ظاهرٌ لا يُخْطِئُهُ مُتَلَقٌّ، فالخيلُ الأبلقُ فيه بياضٌ وسوادٌ، والدَّهرُ فيه أيامٌ بيضٌ سعيدةٌ، وليالٍ سودٌ بائسةٌ، فالدَّهرُ يومان؛ يومٌ لك ويومٌ عليك، وبهذا يكون وجهُ الشَّبه والتعلُّق بين طرفي الاستعارة ظاهرٌ لا يخفى.

- ثانياً: أظنُّ أن أبا تمام أو أيَّ شاعرٍ آخرٍ ليس مُضْطَرّاً إلى تكرارِ الاستعاراتِ المتعاوِرةِ الموروثةِ المكرَّرةِ حتَّى يَرَضَى عنه بعضُ النُّقادِ، فهؤلاء لهم طريقةٌ تقليديةٌ في القولِ هي طريقةُ العربِ

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٣٩٧/٤.

الْقُدَمَاءَ، وَقَدْ ارْتَضَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَنْ يُتَابِعُوهَا وَيَتَرَسَّمُوا خُطَا أَصْحَابِهَا إِلَى أَنْ تَجْمُدَ اللُّغَةُ،
وَيَذْهَبَ رُؤَاؤُ تِلْكَ الاسْتِعَارَاتِ وَمَاؤُهَا، وَتَفْقِدَ عُنْصُرَ الْمَفَاجَأَةِ وَالْإِدْهَاشِ وَالْجِدَّةِ
وَالطَّرَافَةِ.

فَهَلْ يَظُنُّونَ اللُّغَةَ عَقِيمَةً وَعَاجِزَةً عَنْ ابْتِكَارِ عِلَاقَاتٍ جَدِيدَةٍ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ. ثُمَّ أَلَيْسَ مِنْ حَقِّ
الشَّاعِرِ أَوْ الْفَنَّانِ عَمُومًا أَنْ يُطَوِّرَ مِنْ فَتْنِهِ، أَمْ أَنَّ عَلَيْهِ التَّقْيِيدَ بِهَذِهِ التَّقَالِيدِ الْموروثةِ الَّتِي ذَهَبَ أَهْلُوهَا؟
أَمْ أَنَّ التَّجْدِيدَ مَسْمُوحٌ بِهِ، وَلَكِنْ فِي أَوَانِهِ، وَأَبُو تَمَّامٍ هُوَ الَّذِي تَعَجَّلَ فِجَاءً قَبْلَ زَمَانِهِ بِقُرُونٍ؟ هَذِهِ
تَسْأَلَاتٌ تَمَسُّ فِلَسَفَةَ الْفَنِّ وَحَقِيقَتَهُ، وَهَنَا يَنْبَغِي التَّذَكُّرُ بِأَنَّ لَيْسَ الْأَمْرُ فِي ذَاكَ عَلَى مَعْيَارٍ وَاحِدٍ
بَيْنَ النَّاسِ نَحْتَكُمُ إِلَيْهِ.

وَلَيْسَ يَعْنِينَا - فِي هَذَا الْبَحْثِ - كَلَامُ الْقُدَمَاءِ عَلَى الْقُبْحِ وَالرَّدَاءَةِ فِي اسْتِعَارَاتِ الرَّجُلِ
وَتَشْبِيهَاتِهِ، وَإِنَّمَا نَقْصِدُ إِلَى بَيَانِ وَجْهِ الْإِيهَامِ وَالْإِغْرَابِ الَّذِي فَتَحَ أَبْوَابَ التَّأْوِيلِ عَلَى تِلْكَ الصُّوَرِ،
وَبَيَانِ مَدَى قُدْرَةِ أَبِي تَمَّامٍ عَلَى تَوْظِيفِ هَذِهِ الصُّوَرِ وَسِيلَةً لِلتَّخْيِيلِ عَلَى الْمُتَلَقِّي، وَرَسْمِ الْأَفْكَارِ
وَالْمَفَاهِيمِ وَتَمَكِينِهَا فِي ذَهْنِهِ.

فَقَارِئُ الدِّيَوَانِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ أَنَّهُ اشْتَمَلَ عَلَى قَدَرٍ مِنَ الْمُتَكَلِّفِ الرَّدِيِّ وَفَقَّ مَعَايِيرَ النِّقْدِ
الْقَدِيمِ، وَأَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ صُورِهِ وَاسْتِعَارَاتِهِ - كَمَا سَلَفَ - تَشْتَمِلُ عَلَى الْغَرَابَةِ وَالْغُمُوضِ وَالْإِيهَامِ
الَّذِي يَتَفَاوَتُ بَيْنَ مُسْتَحْسِنٍ وَبَغِيضٍ، وَسَنَحَاوُلُ هَهُنَا تَحْلِيلَ بَعْضِ هَذِهِ الصُّوَرِ الْمُغْرِبَةِ الْمُسْتَحْسَنَةِ؛
لِتَبَيَّنَ أَثَرُهَا فِي إِيهَامِ الْمُتَلَقِّي، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: [الكامل]

لَا تَسْقِنِي مَاءَ السَّمَلَامِ؛ فَإِنِّي صَبُّ قَدٍ اسْتَعَذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي^(١)

فَإِنَّ أَبَا تَمَّامٍ وَضَعَ سَامِعِيهِ فِي حَيْرَةٍ تَسَاوَتْ فِيهَا سِدَاجَةٌ مِنْ حَمَلٍ إِلَيْهِ قَارُورَةٌ لِيَمْلَأَهَا بِمَاءِ الْمَلَامِ،
وَسَفْسَطَائِيَّةٌ مَنِ اسْتَنَكَرَ أَنْ يُعْبَّرَ أَبُو تَمَّامٍ عَنِ الشَّيْءِ الْمُرِّ بِالْمَاءِ الْعَذْبِ، وَاصْفَاءً إِيَّاهُ بِالسُّخْفِ
وَصِفَاقَةِ الدَّقِّ^(٢).

(١) انظر: ديوان أبي تَمَّام ٢٥ / ١.

(٢) انظر: النِّقْدُ الْمُنْهَجِي عِنْد الْعَرَبِ ص ٩٨.

فالنُّقَادُ لأموه على استعارته الماء للملام، وقالوا: ما معنى (ماء الملام)؟^(١)، فالصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ (ت ٣٨٥هـ) يقول: «وما زلنا نتعجبُ من قولِ أبي تمام: (لا تسقني ماء الملام)»^(٢)، وابنُ سنان (ت ٤٦٦هـ) يستقيحُ هذا التركيبَ الاستعاريَّ قائلاً: «وليس هذا البيتُ عندي بمحمودٍ ولا من أقبح ما يكونُ في هذا الباب»^(٣)، وزهد فيه ابنُ الأثير (ت ٦٣٧هـ) فقال: «وذلك تشبيهٌ بعيدٌ، وما بهذا التشبيهِ عندي من بأسٍ، بل هو من التشبيهاتِ المتوسطةِ التي لا تُحمدُ ولا تُذمُّ، وهو قريبٌ من وجهٍ، بعيدٌ من وجه»^(٤)، ثم مضى ابنُ الأثير في مناقشةِ تأويلاتِ هذه الاستعارة؛ مما يدلُّك دلالةً واضحةً أنَّ الصُّورةَ الشعريَّةَ عندَ أبي تمام عسَّرتْ على كثيرٍ من الخاصَّةِ؛ شأنهم في ذلك شأنُ العامَّةِ.

وحكوا أنَّ رجلاً لما سمعَ هذا البيتَ لأبي تمام بعثَ إليه بقارورةٍ، وقال: هب لي شيئاً من (ماء الملام)، فقال له أبو تمام: ابعث لي بريشةً من جناحِ الذَّلِّ؛ حتَّى أبعث لك (ماء الملام)^(٥)، وليس مرادُ أبي تمام المماثلةَ بينه وبينَ التشبيهِ في قوله تعالى: ﴿وَخَفِضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]؛ فإنَّ بينهما بوناً لا تُدرِكُ غايته، وبعداً لا تُقطعُ مسافته، وإنَّما أرادَ أنَّ الاستعارةَ جاريةٌ في الماءِ كجريها في الجناحِ، وهذا مقصِدٌ جيّدٌ لا غبارَ على أبي تمام فيه^(٦). وقد تمحَّل أنصارُ أبي تمام في الاعتذارِ له عن هذه الاستعارة، حتَّى الآمديُّ انتدبَ نفسه لنصرةِ أبي تمام في تأويلها.

وما سَلَفَ يدلُّك على غموضِ استعارةِ أبي تمام على كثيرٍ من النُّقادِ وأهلِ الأدبِ فضلاً عن المتلقين العاديين، ولن نُفردَ الكلامَ لتأويلاتهم المتكاثرة؛ إذ الشَّيْءُ يُعرَفُ مِن أثره، مع أنَّ الأمرَ أهونُ من ذلك بكثيرٍ، فهؤلاء الذين عابوا عليه هذه الاستعارة عابوها قياساً على عمودِ الشعرِ في تشكيل الاستعارات، وأبو تمام خارجٌ على هذا العمودِ، ومُتخفِّفٌ من قيوده أصلاً، فلماذا يُحاسَبونه على شيءٍ

(١) انظر: الموشح ص ٤٠٣.

(٢) انظر: الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ص ٤٩.

(٣) انظر: سرّ الفصاحة ص ٢٠٨.

(٤) انظر: المثل السائر ١٢٢/٢.

(٥) انظر: الطراز ١٥٤/١.

(٦) انظر: الطراز ١٥٤/١.

هو غير ملتزم به ابتداءً؟ حقاً إنه أمرٌ مُعجِبٌ... ما كان هؤلاء النقاد فاعلين لو عاينوا استعارات نزارٍ ودرويشٍ وأدونيس؟

ثم كأن هؤلاء تناسوا الصورة البديعة التي لا يدري المتلقي عن طرفيها شيئاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥] فالبيان القرآني أننا بصورة وهمية ليس لدينا أي تصورٍ مُسبقٍ عن أحد طرفيها (طلْعُها) و(رؤوس الشياطين)، وهي صورة تستثمر الطاقة التخيلية في ذهن المتلقي وتحفزها إلى حد الاستفزاز، وأزعم أن كل امرئ يسمع هذه الآية الكريمة يرسم لها في مخيلته صورةً مُبينةً للمتلقين الآخرين، وهذا أدعى إلى التخيل بالرَّهبة والتَّهديد بعذاب النارِ بأمرٍ مهولٍ لا تُعلم حيثيَّاته، فتذهب فيه النفسُ كُلُّ مذهبٍ، ولا تطمئنُّ من هذه الصورة على قرار، فهذه الصورةُ المجهولةُ المعالِم عند المتلقي تبقى تُنذرُهُ عذاب الحريق، وأثرها النفسي الدائم في المتلقي يُذكِّرني بجمالية التشبيه الضمني في قول النابغة مُعتذراً من النعمان: [الكامل]

أُنَيْتُ أَنْ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى رَأْرِ مِنَ الْأَسَدِ^(١)

فصورة أبي تمام (ماء الملام) سمحت لذهن المتلقي أن يجتهد قليلاً في تصور هذه العلاقة الجديدة، وهو إنما قصد المشاكلة بين (ماء بكائي) و(ماء الملام)، وإن لم يكن للملام ماءً على الحقيقة؛ وذلك ليجعل لماء بكائه مُقابلاً، وهذا الأسلوب قد تقدّم الكلام عليه في البديع الموهم عند أبي تمام، وله أمثلة من البيان القرآني؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وإلى هذا ذهب أكثر من اعتذر لأبي تمام.

ولا ينبغي أن ننسى قوله: (فإنني صبٌّ)، وأن نغفل عن أثر هذه الصبابة في بكائه من الشوق وبكائه من كثرة اللوم والعدل، فهذه الصبابة هي اليتبوع الذي منه تفجّر الماء في كلا الشطرين...، إلا

(١) انظر: أسرار البلاغة ص ٣٣٦.

أَنَّ أَكْثَرَ النَّقَادِ تَرَكَوا هَذَا الْمَعْنَى اللَّطِيفَ لِلِاسْتِعَارَةِ ضَمَنَ الْبَيْتِ وَفِي سِيَاقِهَا مِنَ الْقَصِيدَةِ، وَالتَّفْتُوا إِلَى طَرِيقَةِ تَرْكِيبِ الْاسْتِعَارَةِ، فَكَثُرَ الْكَلَامُ فِي فَهْمِ هَذَا الْبَيْتِ وَتَفْسِيرِهِ كَثْرَةً مُفْرِطَةً، وَأَقْرَبُ مَا ذُكِرَ فِي شَرْحِهِ قَوْلُ التَّبْرِيزِيِّ (ت ٥٠٢ هـ): «لَا تَلْمَنِي؛ فَإِنِّي عَاشِقٌ قَدْ أَلْفَتُ الْبُكَاءَ، وَاسْتَعَذَّبْتُه، فَلَا أَكَادُ أَقْلَعُ عَنْهُ لِلْوَمَلِكِ إِيَّايَ، فَكُفَّ عَنِّي»^(١)، وَالْحَقُّ أَنَّ تَضَارُبَ أَقْوَالِ الْقَدَمَاءِ فِي هَذَا الْبَيْتِ لَا مِنْ حَيْثُ مَعْنَاهُ، وَإِنَّمَا مِنْ حَيْثُ غَرَابَةُ الْاسْتِعَارَةِ فِيهِ، وَقَدْ ابْتَدَأَ الْإِشْكَالُ حِينَ فَصَّلُوا بَيْنَ جُزْأَيِ التَّرْكِيبِ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ (مَاءٌ) أُضِيفَ إِلَيْهِ (الْمَلَامُ)، وَأَخَذُوا فِي الْبَحْثِ فِي كُلِّ مِنَ اللَّفْظَيْنِ مُنْفَصِلًا عَنِ الْآخَرِ، فَحَارَّوْا فِي اكْتِشَافِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمَا.

وَصِفْوَةُ الْقَوْلِ: إِنَّ الْحَقَّ لَمْ يَكُنْ فِي جَانِبِ مُنْكَرِي هَذِهِ الْاسْتِعَارَةِ الَّتِي أَرَادَ الشَّاعِرُ فِيهَا الْمُقَابَلَةَ بَيْنَ الْمَاءَيْنِ، فَهَذِهِ الْاسْتِعَارَةُ الْغَرِيبَةُ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَلَى مُحَافِظِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهَجْرِيِّ أَنْ يَتَقَبَّلُوهَا وَيَقْتَنِعُوا بِهَا؛ لِأَنَّ الشَّاعِرَ فَاجَأَهُمْ بِهَذَا الْمَذْهَبِ الْجَدِيدِ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَلَى أَصْحَابِ الْمَذْهَبِ التَّقْلِيدِيِّ تَقَبُّلُ قَصِيدَةِ التَّفْعِيلَةِ فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ، مَعَ الْفَارَقِ بَيْنَ التَّشْبِيهِينَ.

وَمِنَ الصُّوَرِ الَّتِي لَا بَأْسَ بِالْتِمَهُّلِ عِنْدَهَا قَلِيلًا قَوْلُهُ فِي الدَّهْرِ: [الْمَسْرُوحُ]

يَا دَهْرُ قَوْمٍ أَخَذَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَعْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خُرْقِكَ^(٢)

فَأَبُو تَمَّامٍ لِشِدَّةِ حَقِّقِهِ عَلَى الدَّهْرِ شَبَّهَهُ بِوَحْشٍ لَهُ أَخْدَعَانُ^(٣)، وَلَعَلَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا غَضُوبًا ذَا أَخْدَعَيْنِ، وَذُو الْأَخْدَعَيْنِ هَذَا أَخْرَقُ طَائِشٌ، وَتِلْكَ صُورَةٌ مُنَاسِبَةٌ لِمَقَامِ ضَيْقِ الشَّاعِرِ بِالدَّهْرِ وَمَا يَجْرُهُ عَلَى الشَّاعِرِ مِنْ نَوَائِبَ، فَهُوَ فِي قِمَّةِ الْجَوْرِ وَالطَّيْشِ وَالتَّكْبُرِ، فَكَأَنَّ هَذَا الدَّهْرَ الْجَائِرَ ذُو أَخْدَعَيْنِ صَعَبُ الْمِرَاسِ.

وَهَذِهِ صُورَةٌ جَمِيلَةٌ مُوَفِّقَةٌ؛ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُخَيِّلَ إِلَيْنَا الْفِكْرَةَ الدَّهْنِيَّةَ الَّتِي هِيَ الطَّيْشُ وَالْعَبَثُ وَالتَّكْبُرُ بِصُورَةٍ حَسَنَةٍ مُعْبَّرَةٍ، وَلَكِنَّ النَّقَادَ لَمْ يَكْتَرِثُوا بِهَذَا التَّخْيِيلِ، وَإِنَّمَا ثَارُوا عَلَى أَبِي تَمَّامٍ وَضَجُّوا

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٢٥/١.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ٤٠٥/٢.

(٣) الأخدعان: عِرْقَانِ فِي الْعُنُقِ، يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا كَانَ أَبْيَا صَعْبًا: إِنَّهُ لَشَدِيدُ الْأَخْدَعِ.

عليه بسببها؛ فالآمدي (ت ٣٧٠هـ) يقول: «أي ضرورة دَعَتْهُ إلى (الأخدَعين)؟ وكان يمكنه أن يقول: (قَوْمٌ من اعوجاجك) أو (قَوْمٌ مُعَوَّجٌ صُنْعَكَ)؛ أي: يا دهرُ أحسنُ بنا الصَّنِيعَ؛ لأنَّ الأخرق هو الذي لا يُحَسِّنُ العَمَلَ»^(١)، وأمَّا القاضي الجرجاني (ت ٣٧٥هـ) - وهو المُجِبُّ لأبي تمام - فوصفه وجملةً أخرى من أبيات أبي تمام بأنها ممَّا «يُصدِّئُ القلبَ ويُعميه ويَطْمُسُ البصيرة»^(٢)، وأبو هلال العسكري (ت بعد ٣٩٥هـ) عابه في غير موضعٍ من الصَّناعتين^(٣)، وأمَّا عبدُ القاهر فوسمه بالثَّقَلِ وتنغيصِ النَّفسِ وتكديرها^(٤).

والعجبُ كُلُّ العَجَبِ من صُنْعِ أربابِ النَّدِّ والبلاغةِ إن نحنُ حاكمناهم على ما وصلنا من الشعر بعد ألفٍ من الأعوام، ولكن لو رأينا بأعينهم التي قرأتِ الشعرَ الجاهليَّ، والإسلاميَّ، والأمويَّ، والعباسيَّ أيضاً، وقد أَلْفُوا تصويرَ النَّابِغَةِ وزُهيرٍ والأعشى، وحسان، وجريـر، والفرزدق، والأخطل؛ لو رأينا بأعينٍ لم ترَ من التَّصوِيرِ إلَّا طريقةً هؤلاء؛ فلا ريبَ في أننا سوف نستعجِنُ صُنْعَ أبي تمام، وسوف نَصِفُه بالتكلفِ والعنتِ والإسرافِ.

ولندعُ هذا جانباً، ولنرَ ما في البيت من تصويرٍ وتخيل، ولنلحظْ صلته بالمعنى والعاطفة، فالعداءُ الحَقِيقِيُّ بينَ الإنسانِ والدَّهرِ لِمَا يجرُّه على النَّاسِ من صُرُوفٍ ونوائبٍ هو الذي أحالَ الدَّهْرَ وَحْشاً فاتِكاً، فهذا العداءُ موجودٌ في اللاشعورِ الجَمْعِيِّ للشُعراء، وأمثلةٌ هذا في شعرِ أبي تمام والمتنبي كالبحرِ استفاضةً.

والأخدعان لا يكفي لإدراكهما أن يُقال: إنَّهما عِرْقَانِ في جانبي العُتُق، وذلك أن إدراكهما لا يتأتَّى إلَّا من خلال السِّياق الذي يتردَّدان فيه، ففي قول أبي تمام أيضاً: [الطَّويل]

وما هو إلَّا الوُحْيُ أو حَدُّ مُرْهَفٍ تُنِيلُ ظُباهُ أَخْدَعِي كُلِّ مائِلٍ^(٥)

(١) انظر: الموازنة ١/ ٢٧١.

(٢) انظر: الوساطة ص ٤١.

(٣) انظر: الصَّناعتين ص ٦٠ - ص ٣٠٣.

(٤) انظر: دلائل الإعجاز ص ٤٧.

(٥) انظر: ديوان أبي تمام ٣/ ٣٥٤.

وعندئذ يتضح ذلك الارتباط بين الأخدع والإباء والتكبر، وقد وصفت العرب شديد الإباء بأنه شديد الأخدع. ومن هنا بإمكاننا أن ندرك تلك الطاقة الدلالية التي تفسر لها استعارة الأخدع للدهر، لتعبر عن العلاقة المتوترة بين الأنام وبين هذا الدهر الذي ذهب به التكبر إلى الحرق، فقال أبو تمام: [المنسرح]

يادهر قوم أخدعك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

وهذا التوتر الشعوري وحب التفرد الشعري هو الذي يحدد لنا شكل العلاقة بين عالم الحس وعالم الشعر عند أبي تمام، ويُفسر لنا غلبة الصورة في شعره، فكأنه يبحث في الشعر عن عالم رحيب متكامل يتسع لعواطفه وأفكاره ومعانيه العميقة فيوجد بين الأشياء علاقات استعارية جديدة يحملها عبء البوح عن مكنوناته الداخلية.

ولو حاولنا الكشف عن مبعث حرص أبي تمام عن الغرابة في شعره عموماً، وفي استعاراته خصوصاً؛ ما استطعنا الوصول إلى الدوافع الحقيقية وراء ذلك، ولكن من الممكن التكهن ببعض هذه الدوافع؛ ومنها: حبه للتفرد، وحرصه على مفاجئة الناس وتكثيف اللغة بأكثر قدر ممكن، وشعوره بأن اللغة قد جمدت من فرط الاستعمال، فصار ضرورياً إيجاد لغة في اللغة، تكون فيها الكلمة غابة من الرموز الموحية، وكأن بلاغة الكلام تبلدت لفرط تكرار الاستعارات والتشبيهات التي سامها الناس خسفاً لكثرة ما أداروها على ألسنتهم، حتى افتضحت العلاقات بين طرفيها، وأضحت لا تحتاج إلى تأمل أو تذوق، بل إنها أصبحت تمر في الكلام مرور الكرام كغيرها من التراكيب المألوفة المعتادة التي لا تفاجئ المتلقي أو تجذب انتباهه، أو تنشط حسه الانفعالي والإدراكي...، ولكن حين رأى أبو تمام أن الشعراء قد أزرؤوا بالصورة إلى هذا الحد كان لابد من حصر يلقي في هذه المياه الراكدة، وإن كان أبو تمام لم يفلح في إشعال ثورة أدبية على القديم؛ لأنه أتى قبل عصره، وأتى في زمان ليس لأبنائه طاقة بتقبل هذا الفكر المجدد، فإنه أشعل ثورة نقدية ألقَتْ بظلالها على فنون البلاغة العربية، وكان له من يتبعه من الشعراء في العصور المتأخرة؛ إلا أن أغلبهم أخفق؛ لأنهم تكلفوا وأسرفوا كما فعل أبو تمام، ولكنهم لم يكونوا بذكائه ودهائه اللغوي.

ولو تذكّرنا معاً أنّ شعرَ أبي تمامٍ عامّةً - وفي صُورِهِ خاصّةً - كانَ حَمَالاً أَوْجُهُ، ومَجَالاً خِصْباً وَرَحْباً للتأويلِ والاجتهادِ وتعدّدِ الشُّروح والتفاسير، وتذكّرنا ما لذلك من أثرٍ في إيهامِ المتلقّي وتوهميه، وتذكّرنا أنّه لَمَّا سألَهُ أحدُهم: «لِمَ لا تقول ما يُفهم؟ فأجابه: لِمَ لا تفهم ما يُقال؟»^(١)؛ لرأينا أنّ أبا تمامٍ يُبشِّرُ بِاتِّجَاهٍ جَدِيدٍ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ، اتِّجَاهٌ يُطَالِبُ الْجُمْهُورَ أَوْ الْمُتَلَقِّيَّ أَنْ يَصْعَدَ هُوَ إِلَى مُسْتَوَى كَلِمَاتِ الشَّاعِرِ، وَيَأْبَى أَنْ يَنْزِلَ إِلَى الْجُمْهُورِ. وهذه الدَّعوةُ من أبي تمامٍ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهَجْرِيِّ وَجَدَتْ أَصْدَاءَهَا فِي النَّقْدِ الْحَدِيثِ، فَأُضْحَى التَّسَاوُلُ مَطْرُوحاً، وَعَلَى النُّقَادِ وَالْمُفَكِّرِينَ وَأَرْبَابِ الْفَنِّ الْإِجَابَةُ: هَلْ يَحْسُنُ بِالشَّاعِرِ أَنْ يَسِيرَ وَرَاءَ الْجُمْهُورِ؟ أَوْ يَحْسُنُ بِهِ أَنْ يَصْعَدَ بِالْجُمْهُورِ إِلَى آفَاقِهِ الْعُلْيَا مِنْ الْفَلَسَفَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالْعُمُقِ وَالذِّقَّةِ؟ وهل يكونُ الشَّعْرُ تَرْفَافاً نُحْبَوِيّاً؟ وهل من حَقِّ النَّاقِدِ التَّقْلِيدِيِّ كَابِنِ الْأَعْرَابِيِّ وَأَبِي الْعَمَيْثَلِ إِذَا شَوَّشَتْهُ سُحْبُ الْغَمُوضِ الشَّعْرِيِّ وَالانْحِرَافِ الْاِسْتِعَارِيِّ وَالانْزِياعِ الْأُسْلُوبِيِّ أَنْ يَحْجَرَ عَلَى الشَّاعِرِ تَطْوِيرَ فَنِّهِ وَفَقَ رُؤْيِيهِ الشَّعْرِيَّةِ، وَأَنْ يَبْقَى تَحْتَ الْمِظْلَةِ أَوْ الْأُفُقِ الثَّقَافِيِّ الَّذِي ارْتِضَاهُ ذَلِكَ النَّاقِدُ لِنَفْسِهِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأُفُقُ ضَيْقاً بِحُدُودِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ وَالْعُرُوضِ وَتَقَالِيدِ الشَّعْرِ الْقَدِيمِ؟

على أنّه من الإنصافِ القولُ: إنّ بعضَ صُورِ أبي تمامٍ إِذَا تَعَاَصَدَ فِيهَا غَرَابَةُ اللَّفْظِ وَبُعْدُ الْاِسْتِعَارَةِ، وَتَعْقِيدُ التَّرْكِيبِ؛ فَإِنَّ قُدْرَتَهَا عَلَى الْإِيهَامِ تَغْدُو مُحَدُودَةً؛ لِأَنَّ ذَلِكَ التَّكْلُفَ مَعَ اعْتِصَارِ الْفِكْرِ يَذْهَبُ بِمَاءِ الشَّعْرِ وَرَوْنِقِهِ، كَمَا أَنَّ الْمُتَلَقِّيَّ الَّذِي يَبْذُلُ جَهْداً عَقْلِيّاً مُضْنِياً لِإِدْرَاكِ كُنْهِ هَاتِيكِ الصُّورِ يَكُونُ ذَلِكَ الْمَجْهُودُ الْعَقْلِيُّ قَدْ اسْتَفْرَغَ طَاقَاتِهِ الذَّهْنِيَّةَ فِي تَفْسِيرِ الْبَيْتِ وَتَحْلِيلِ الصُّورَةِ الْمُتَشَابِكَةِ إِلَى عَوَامِلِهَا الْأَوَّلِيَّةِ، وَيَحْرُمُهُ لَذَّةُ التَّنْذُوقِ وَالِاسْتِمْتَاعِ بِجَمَالِ الصُّورَةِ الَّتِي نَرَاهَا عِنْدَ الْبُحْثَرِيِّ.



(١) انظر: معاهد التنصيص ١/ ٤١.

المبحث الثاني

إيهام الصورة في شعر البحريّ

ثراء الصورة سمة في شعر البحريّ الذي امتاز برسم المشاهد الدراميّة الموهمة بأسلوبٍ بارع، يرسم في ذهن المتلقّي صوراً أقرب للحقيقة منها إلى الإيهام والتّخيل، وأفضل الوصف ما قلّب السَّمْعَ بَصْراً.

وتعود تلك البراعة إلى تذوّقه المرهف للخيال الشعريّ، ومهارته في توظيف الموسيقى والتّصوير في وصف المشاهد الثّابتة والمتحرّكة؛ فطبيعة الفنّان الموسيقيّ المصور طاغية لدى البحريّ.

وإذا كان الخيال والتّصوير لبّ الشعر الغنائيّ وجوهره؛ فإنّ شاعر العربيّة أبا الطيّب - وهو الشّاعر النّاقذ الموهوب والمثقف - قد اكتشف تلك العناصر الثّمينة وتذوّقها في شعر البحريّ، ومن ثمّ قال قولته المشهورة: «والشّاعر البحريّ».

ومُتذوّق شعر البحريّ ينعم في تلك المشاهد التّصويريّة الرّائعة التي فيها تتوالّد الأبعاد من أبعاد، ونحن ههنا نؤثّر أن نتناول شعر البحريّ وأثره في إيهام المتلقّي من زاويتي الخيال والتّصوير، وقد توخينا واحداً من نصوصه يمثّل ذروة الرّقّيّ الفنّي في إيهام المتلقّي؛ إنّها دالّيته في وصف الذّئب، على أنّ من قصائده ما يفوقها شهرةً كرائيّة في رثاء المتوكّل وتصوير مشهد الاغتيال، وسينيتّه في وصف إيوان كسرى، ولكن وقع الاختيار على قطعة من هذا النّصّ ليكون قاعدةً للدّرس وإطلاق الأحكام؛ لأنّ هذا الدّالّية برائها الفنّي، وشعريّتها، وقدرتها على إيهام المتلقّي إلى حدّ الإيهام بالواقعيّة، تستحقّ أن تكون واحدة من عيون الشعر العربيّ.

وإذا أردنا أن نتعرّف الوسائل البلاغيّة التي وظّفها البحريّ لصياغة صورة دراميّة تحكي صراعه مع الذّئب على نحوٍ موهّم بالواقعيّة؛ حلّلنا القطعة الشعريّة على ستّة مستويات؛ هي:

• الإحاطة بأجواء القصيدة.

- التقاطُ المعاني الظاهرة.
- توافر العناصر الدرامية.
- الإفادة من الإيحاء الموسيقي المرتبط بتدرج الخطّ الانفعالي.
- الصورةُ الموحية.
- رؤيةُ الشاعر المبطنة.

أولاً: الإحاطة بأجواء القصيدة.

الذئبُ مضربُ المثل في الظلم والغدر، وإخوةُ يوسف عليه السلام لم يجدوا أشرسَ من الذئبِ ليزعموا لأبيهم بالباطل أنه افترس يوسف، وإنك ل ترى الذئبَ موضوعاً لكثيرٍ من صور التعبير في تراثنا القديم شعراً ونثراً، لما اشتهر به من صفات العدوان والغدر والشراسة، حتى غدت كلمة (الذئب) ذات معنى رمزي يوصف بها كل امرئ غدار وظالم ونهازٍ للعدوان على الناس واغتصاب حقوقهم، وهذا الكلام الذي نستهل به ربّما يكون له أثره في تصيّد المعاني الباطنية للنصّ، وقراءة رؤى صاحبه في ختام هذا التحليل.

وأما دالية الذئب فليس بوسعنا الشروع بالكلام عليها قبل التعرّيج على ثوبية الفرزدق التي يحدثنا فيها كيف نزل بفلاة ليلاً، وأوقد ناراً، فأقبل نحوه ذئبٌ جائعٌ، فأطعمه من زاده؛ إذ يقول:

[الطويل]

وأطلس عَسالٍ وما كان صاحباً	دعوتُ بناري مؤهناً فأتاني
فلما دنا قلتُ: ادنْ دونك؛ إنني	وإيالك في زادي لمُشتركانِ
فبتُّ أقْدُ الزادَ بيني وبينه	على ضوءِ ناري مرّةً ودُخانِ
وقلتُ له لما تكشّرَ صاحكاً	وقائمٌ سيفي من يدي بمكانِ
تَعَسَّ، فإن عاهدتني لا تخونني	نكنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يسطحبانِ
وأنتَ امرؤُ يا ذئبُ والغدرُ كنْتما	أخيَّينِ كأنّا أرضعاً يلبانِ
ولو غَيْرنا نَبَهْتَ تَلْتَمُسُ القرى	رَمَاكَ بَسَهمُ أو شِباةَ سنانِ

يستدعي الفرزدق ذنبه للدلالة على كرمه وشجاعته وإنسانيته في قصيدة - على جودتها - لا ترقى إلى دالية البحرى الذي بلغ فيها من الإيهام الدرامي حداً دونه كثيرٌ من قصائد الشعراء الفحول، فدالية البحرى أبلغ تصويراً؛ لما فيها من حبكة قصصية محكمة، ولاشتماد الصراع إلى الذروة، إلى ما فيها من إثارة للمتلقى بمشهد المعركة الضارية بين الذئب والبحرى، وهذا غائبٌ عن قصيدة الفرزدق الذي استضاف الذئب وأقرأه وأكرمه، وافتخر بصنيعه، وكفى.

ولكي يكون تحليل مشهد الصراع واضح المعالم، ولكي تتمكن من استنطاق النص ليوح برؤاه؛ لا بد من تعرف أجواء القصيدة التي مهّدت لمشهد المعركة. فقد استهل البحرى قصيدته بغزل حزين؛ فقال: [الطويل]

سَلامٌ عليكم.. لا وفاء ولا عهد أما لكم من هجر أحببكم بُد؟
أحبابنا قد أنجز البين وعده وشيكاً، ولم يُنجز لنا منكُم وعْد
بنفسى من عدتُ نفسى بحبّه وإن لم يكن منه وصال ولا ود

فعلاقة حبه خاوية من وفاء المحبين، اتّسمت بالصد والهجران وكواذب الوعود، وقلبه يشعر بالخبية من أحبة تجردوا من عهود الوداد، ويُخالطه بريق من أمل بعودتهم عن عزيمهم على الفراق (أما لكم من هجر أحببكم بُد؟).

وليس الأحباب وحدهم من يقف بوجه الشاعر ويؤالِه، فأقوامٌ وخصومٌ يُعادونه ويودّون موته، لكنه يعزّي نفسه، فيمجّد ذاته، ويُعلن قدرته على مواجهة أعدائه، ويخطّ من عزائمهم؛ بقوله:

يودّ رجال أنني كنتُ بعض من طوّنه المنايا... لا أروح ولا أغدو
ولولا احتمالي ثقل كل ملّمة تسوء الأعداء لم يودّوا الذي ودّوا
ولي صاحب غضب المضارب صارم طويل النجاد، ما يُقل له حد

فشاعرنا يُجالد الزمان ويُجابه، وتراه يتّجه من مكابدة الحب الخائب، إلى مجابهة الخصوم اللثام، إلى مقارعة نواب الدهر وملّاته؛ إلى مشهد يُصارع فيه الذئب المسعور.

هل يرمزُ هذا الذئبُ إلى ذلك الحبِّ الخائن، وإلى أولئك الأعداء الذين يترصدون من الشاعر غفلةً حتى ينالوا منه مقتلاً؟ لذا رأيناهُ يُجابهُ ذلك الذئبَ مجابهةً مُميّنةً يلجُ فيها دائرة الحُسم، والصِّراعِ على البقاء، فيصرعُ الذئبَ؟ هذا سؤالٌ بالإمكانِ الإجابةُ عليه لاحقاً، ولكن لا بُدَّ للمتلقّي الذي يُحاولُ أن يستنطقَ هذا النصَّ بمعانيه الظاهرة والباطنة = أن يربطَ بين المشاهدِ الثلاثة:

- مواجهةُ الحبِّ الضائع، وخيانةُ المحبوب، ومكابدةُ بينِ الأحبة.
- ومجابهةُ نوائبِ الزمانِ وعَبَثِهِ والخُصومِ الذي يسعون في إفنائه لو استطاعوا.
- ومواجهةُ الحُسمِ مع الذئبِ في الليل وما يختزنه من عالمٍ مخيفٍ مخوفٍ بالمخاطر.

=والأَينظُرُ إلى هذه المشاهدِ الثلاثةِ على أنَّها جُزُرٌ مُتباعدةٌ غيرُ متآلفة؛ لأنَّ إحساسه بعمقِ الارتباطِ بينَ هذه المشاهدِ، وما يكتنفها من وَحدةِ المناخِ النفسي؛ يُساعدهُ على التَّفوُّذِ إلى أعماقِ الشاعرِ وتحليلِ الرُّموزِ والدِّلالاتِ المختزنة في تلك المشاهدِ الدرامية.

وستنوخى من هذه القصيدة ما يُصوِّرُ الصِّراعَ بينَ الشاعرِ والذئبِ، إنَّها قصَّةٌ شعريَّةٌ مُكتملةٌ العناصرِ، بأدواتٍ فنيَّةٍ مكثَّةٍ البحريِّ من إيقاعِ المتلقّي في سلطانِ الإيهام؛ إذ يقول:

وليلٍ كأنَّ الصُّبحَ في أُخْرِيَاتِهِ	حُشاشَةٌ نَضِلْ صَمَّ إفرَنْدُهُ غَمْدُ
تَسْرِبْلَتُهُ والذئبُ وَشَنانُ هاجِعُ	بعينِ ابنِ لَيْلٍ مالُهُ بالكَرَى عَهْدُ
له ذَنْبٌ مِثْلُ الرِّشَاءِ يَجْرُهُ	وَمَتْنٌ كَمَتْنِ القَوْسِ أَعْرَجُ مُنَادُ
طواه الطَّوى، حتَّى استمرَّ مَريْرُهُ	فما فيه إلَّا العَظْمُ والرُّوحُ والجِلْدُ
سما لي، وبِ من شِدَّةِ الجُوعِ ما بهِ	بَيْداءٌ لم تُحَسَّسْ بها عِيشَةُ رَغْدُ
كلانها ذئبٌ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ	بصاحبِهِ، والجَدُّ يُعِيسُهُ الجَدُّ
عوى ثُمَّ أَفْعَى، وارتجُزَتْ فِهْجَتُهُ	فأَقْبَلَ مِثْلَ البرِّقِ يَتْبَعُهُ الرَّعْدُ
فأَوْجَرْتُهُ خَرْقَاءَ تَحْسِبُ ريشَها	على كوكبٍ يَنْقُضُ، والليلُ مُسَوِّدُ
فما ازدادَ إلَّا جُراةً وصِرامَةً	وأيقنْتُ أنَّ الأَمْرَ مِنْهُ هو الجَدُّ
فأتبعْتُها أُخْرَى، فأضَلَّتْ نَصْلَها	بحيثُ يَكُونُ اللَّبُّ والرُّعْبُ والحِفْدُ

فخرٌ، وقد أوردتهُ منهلَ الردى على ظمأٍ، لو أنه عذب الورْدُ
وقمتُ، فجمعتُ الحصى واشتويتهُ عليه، وللرمضاء من تحتهِ وقد
ونلتُ خيساً منه، ثم تركتهُ وأقلعتُ عنه، وهو مُنعِرٌ فردٌ^(١)

فأنت أمام مشهد ثلاثي الأبعاد، يُصور لك أحداث المعركة بتفصيلاتها، وظلالها النفسية، وسوف نتعرّض في تحليل هذه الصورة إلى أبعادها الثلاثة؛ الصورة البصرية، والسمعية، والنفسية؛ لتبين ما أدوات التعبير الفني التي مكّنت البحري من إيham المتلقي في رسم هذه الصورة أو هذه المشاهد الدرامية؟

ثانياً: التقاط المعاني الظاهرة.

رهبة الليل الداهب وعَبَسُ الفجرِ الآتي بداية مشهد العراك، إنه وقت من المعتاد أن تتجول فيه وحوش الصحراء:

وليل كأن الصبح في أخرياته حشاشة نصلِ ضمّ إفرنده غمدُ
تسرّبتهُ والذئبُ وُسنانُ هاجعُ بعين ابن كيلٍ ماله بالكرى عهدُ

جمال هذه اللوحة الشعرية ينبعث من علاقة الشاعر بالليل، ليل مغامرة وأنسٍ بوحوش الفلاة، وحديث الليل ووحوش الفلاة يسبقه حديث السيف المرهف الذي يصحب الشاعر ويؤنسُه في سراه... وفرسان العرب تفخر بسرّى الليل؛ لأنه مخوف بالمخاطر، لا يقتدر عليه إلا جَسورٌ، لذا رأينا المتنبي يذكر الليل بقوله: [البسيط]

الخيْلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والسيفُ والرُمحُ والقِرطاسُ والقَلَمُ^(٢)

فالشاعر منذ البداية يضعنا في أجواء الرهبة والتحفّز، نعم فالذئب غافٍ، لكنها غفوة اللص الذي يغفو بعيون مفتوحة؛ فهو يقظان نائم يترصد من الشاعر غفلة تجعله وجبةً لذيدة لهذا الذئب المسعور

(١) انظر: ديوان البحري ٢/ ٧٤٠-٧٤٥.

(٢) انظر: ديوان المتنبي ٣/ ٣٦٩.

جوعاً، ويكتفُ البُحترى الشُّعورَ برهبةِ الموقفِ بوصفِ غريمه الذُّب؛ فهو غداً مَسعور، ومدفوعٌ
إلى قتلِ الشَّاعر بغريزةِ الجوع:

طواه الطَّوى، حتَّى استمرَّ مريضه فما فيه إلاَّ العَظْمُ والرَّوْحُ والجِلْدُ

ولإلهابِ الصِّراعِ نرى الشَّاعرَ أيضاً مُضطرباً لمواجهةِ الذُّبِ مدفوعاً بغريزةِ البقاءِ والجوعِ أيضاً:

سمالي، وبى من شِدَّةِ الجُوعِ ما به بيِّداءً لم تُحسِّنْ بها عيشةَ رَعْدُ

كلانا بها ذَنْبٌ يُحدِّثُ نَفْسَهُ بصاحبه، والجِدُّ يُعِسهُ الجِدُّ

فقد أفلحَ البُحترى بإقناعنا أنَّ الغريمين قد صارَ أحدهما قَدَرَ الآخرِ، وأنَّ هذه الأرضُ القاحلةُ
الجرداءُ المُقفرةُ لم تعدْ تتسعُ لكليهما معاً؛ ليعمَّقَ بداخلنا حتميةَ المعركة، فمضى في تصويرِ
الأحداثِ بتأثيرٍ مهيبٍ، وتقسيمٍ فنيٍّ يدقُّ طُبُولَ المعركة؛ فالذُّبُ يعوي، ثمَّ يرتكنُ إلى مؤخرتهِ
مُتحفزاً للانقضاضِ، فيصرُخُ الشَّاعرُ ويرتجُزُ؛ ليخيفه:

عوى ثمَّ أفعى، وارتجزتُ، فهجئتُه، فأقبلَ مثلَ البرقِ يَبْعُهُ الرَّعْدُ

فكانَ الذُّبُ أرادَ أنْ يُنبئَ عن حُضوره، وأنَّ يَبْتَ الرُّعْبَ في قلبِ الشَّاعر قبلَ بدءِ الهجومِ (عوى
ثمَّ أفعى)، وأخذَ ينتظرُ رَدَّةَ الفعلِ، وهو واثقٌ من فزعِ الخصمِ، لكنَّه فُوجئَ برَدِّ يُنبئُ عن استعدادِ
الشَّاعرِ للمواجهةِ وعدمِ اكترائه بُعواءِ الذُّبِ الذي احتاجَ، فانقضَّ بسرعةٍ جنونيةٍ.

وإذا كانَ الذُّبُ قد انقضَّ بسرعةٍ خاطفةٍ أتبعها بُعواءٌ مُحيفٌ، فأقبلَ مرثياً ثمَّ مسموعاً كالبرقِ
وقد سبقَ الرَّعدُ، فليس للبُحترى في هذه اللَّحظةِ - والموتُ يُحدِّقُ به - غيرُ كنانتهِ يُعاجلهُ منها بسهمٍ
يندفعُ كالشَّهابِ المُنقضِّ:

فأوجرُّهُ خَرْقَاءَ مُحسِبُ ريشها على كوكبٍ ينقضُّ، واللَّيْلُ مُسَوْدُ

فيُجنُّ جنونُ الذُّبِ، وقد ابتعدَ عن الحياةِ بقدرِ ما اقتربَ من الموتِ، وقد صارَ أمامَ خيارين؛ إمَّا
الموتُ جوعاً، وإمَّا قتلاً على يدِ خصمه.. قتلاً ممزوجاً بأملِ الانتصارِ، فلم يزددْ إلاَّ شراسةً بلغتْ
أقصى ما يُتصوَّرُ من درجاتِ الجِدِّ والجُرأةِ والصَّرامة:

فَمَا ازدَادَ إِلَّا جُسرًا وَصَرَامَةً وَأَيَقُنْتُ أَنَّ الأَمْرَ مِنْهُ هُوَ الجُدُّ

وبينَ عيني هذا الذُّبْ ظُلُمَاتُ الموتِ يُشعُّ مِنْهَا بريقُ أملٍ بالحياة، فيسارعُ الشَّاعِرُ أَنْ ويَضَعُ
لومَضاتِ الحياةِ والموتِ تلكَ نهايةَ داميةٍ بطَّعْنَةٍ أُخرى تنفُذُ إلى القلبِ وما يَعْمَلُ فِيهِ مِنْ تَفْكِيرٍ
وَرُعبٍ وَحَقْدٍ، فيكفُّ القلبُ عن الحَفَقانِ، مُؤذِنًا بِسلامَةِ الشَّاعِرِ وانتصارِهِ على عَدُوِّ ما مِنْ قَتْلَتِهِ بُدُّ:

فَاتَّبَعْتُهَا أُخْرَى، فَأَضَلَّتْ نَضْلَهَا بحيثُ يَكُونُ اللَّبُّ والرُّعْبُ والحَقْدُ

فخَرَّ، وَقَدْ أوردَتْهُ مِنْهَلِ الرَّدَى على ظَمًا، لو أَنَّهُ عَذَبَ السَّوْدُ

وقد كَانَ هذا الذُّبُ ذَا ظَمًا شَدِيدٍ لِدَمِ الشَّاعِرِ، فأروى الشَّاعِرُ ظَمَاهُ بِسَهْمِ أوردَةٍ مِنْهَلِ الرَّدَى،
فالموتُ قد أَطفَأَ ظَمًا الذُّبُ أَبَدَ الدَّهْرِ...، ولأنَّ مَوْجِعَةَ الموتِ اشْتَعَلَتْ في مَفَازَةِ جرداءٍ، ولأنَّ الشَّاعِرَ
كَانَ ضَرِيبَ غَرِيمِهِ فِي الجُوعِ، فقد اشْتَوَاهُ على نارٍ أوقَدَهَا، فنالَ يسيرًا مِنْهُ، وتَرَكَ باقِيَهُ مُعْفَرًا
بِالترَابِ.

والذُّبُ والشَّاعِرُ كِلَاهُمَا معذورٌ فِي هذهِ المعركةِ؛ فكِلَاهُمَا مدفوعٌ إلى التَّربُّصِ بِصاحِبِهِ، والفتكِ
بِهِ؛ كي يُمسِكَ على نَفْسِهِ البقاءَ.

هذه هي المعاني الظَّاهِرِيَّةُ الْمُلتَقِطَةُ مِنَ الدَّلالاتِ السَّطَحِيَّةِ لِلنَّصِّ، على أَنَّ الذُّبَ فِي هذهِ المعركةِ
مِنَ المُمكنِ أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا مَوْضوعيًّا وقِناعًا دراميًّا يتخفَّى وراءَهُ قَهْرُ الدَّهْرِ ونوائِبُهُ التي تنالُ مِنَ
البحرِيِّ، مع حَبَّةِ الضَّائعِ، وخصومه الذين يترَبَّصون بِهِ المكائدَ...، لعلَّهَا معركةٌ بَيْنَ البحرِيِّ
وأولئكِ الخصومِ الشرَّسينَ جَمِيعًا.

ثالثًا: توافُرُ العناصرِ الدَّراميةِ.

استطاعَ البحرِيُّ أَنْ يُقدِّمَ لَنَا مَشْهُدًا دراميًّا متكاملًا، فِيهِ الشُّخُوصُ، والزَّمانُ، والمكانُ، والفِكرَةُ،
والحدَثُ، والحَبْكَةُ، والصَّراعُ.

- الشُّخُوصُ: هي مصدرُ الحوادثِ فِي القِصَّةِ، بَطْلانٌ مُتَكَافِئانِ؛ شَخْصِيَّةُ البَطَلِ (الشَّاعِرِ)
الذي يَتعرَّضُ للمخاطرِ، وشَخْصِيَّةُ البَطَلِ المُعَادِي (الذُّبِ) الذي لا يَعْرِفُ المُساوَمَةَ ولا

يَرْضَى بِأَنْصَافِ الْحُلُولِ، وَثُمَّ شَخْصِيَّتَانِ رَئِيسَتَانِ كَانَتَا تُحَرِّكَانِ الْأَحْدَاثَ، وَتَدْفَعَانِ بِهَا نَحْوَ الْأَمَامِ لِيَتَصَاعَدَ الصَّرَاعُ، وَهُمَا: (جَوْعُ الذَّنْبِ) الَّذِي أَشْرَفَ بِهِ عَلَى الْهَلَاكِ، وَبَعَثَهُ عَلَى مُقَاتَلَةِ الشَّاعِرِ، لِلظَّفَرِ بِهَا يَسْدُ الرَّمَقَ وَيُمْسِكُ الْحَيَاةَ. وَ(غَرِيزَةُ الْحِفَاظِ عَلَى الْحَيَاةِ وَالْبَقَاءِ عِنْدَ الشَّاعِرِ)، وَهَذَا الَّذِي جَعَلَهُ يَسْتَدْبُّ فِي الدَّفَاعِ عَنْ رَوْحِهِ فِي مُوَاجَهَةِ الْمَوْتِ الْمُحْدِقِ، فَكَانَ بَيْنَهُمَا صِرَاعٌ عَلَى الْبَقَاءِ. وَقَدْ رَسَمَ الشَّاعِرُ شُخُوصَهُ بِطَرِيقَةٍ تَمَثِيلِيَّةٍ، إِذْ نَحَى نَفْسَهُ جَانِبًا، وَتَرَكَ الْبَطْلَ الْبَحْرِيَّ يَرُوي مَا حَدَثَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الذَّنْبِ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ.

- الزَّمَانُ: اِمْتَدَّ زَمَنُ الْعِرَاكِ مِنْ قُبِيلِ انْكِشَافِ خُيُوطِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ وَاشْتِدَادِ حَرَارَتِهَا، إِنَّهُ زَمَنٌ طَوِيلٌ يُنْبِئُ بِأَنَّهَا كَانَتْ مَعْرَكَةً حَامِيَةً الْوُطَيْسِ.

- الْمَكَانُ: لَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْبَحْرِيَّ كَانَ مَوْفَقًا فِي اخْتِيَارِ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ، إِنَّهَا الصَّحْرَاءُ بِجَفَافِهَا الْأَزْلِيِّ، حَيْثُ حَتْمِيَّةُ الْمُوَاجَهَةِ، وَبَعِيدًا عَنِ الْبُعْدِ الْإِنْسَانِيِّ - فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الرَّهِيْبِ - تَقَمَّصَ الشَّاعِرُ سُلُوكَ الْوَحُوشِ (كِلَانَا بِهَا ذَنْبٌ يُحْدِثُ نَفْسَهُ بِصَاحِبِهِ..)، وَيُحْيِلُ إِلَيَّ مِنْ شِبْهِ الْجُمْلَةِ (بِهَا) أَنَّ الْبَحْرِيَّ كَانَ وَاعِيًا بِأَثَرِ الْمَكَانِ فِي إِشْعَالِ الصَّرَاعِ، فَشِبْهُ الْجُمْلَةِ مُتَعَلِّقٌ بِحَالٍ مَحْدُوفَةٍ، وَالتَّقْدِيرُ: (كِلَانَا - حَالَةٌ كُونَنَا فِي هَذِهِ الصَّحْرَاءِ - ذَنْبٌ يُحْدِثُ نَفْسَهُ بِصَاحِبِهِ)، فَذَلِكَ الْمَكَانُ الْمَقْفَرُ هُوَ الَّذِي أَضْرَمَ نَارَ التَّوَحُّشِ فِي هَذَيْنِ الْخَصْمَيْنِ.

- الْفِكْرَةُ: هِيَ رُؤْيَا الْكَاتِبِ وَتَصَوُّرُهُ لِلْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ، وَهِيَ الْأَسَاسُ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ الْقَصِيدَةُ، وَلَيْسَتْ عَنَاصِرُهَا كُلُّهَا سِوَى أَدَوَاتٍ لِلْكَشْفِ عَنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا الْمَقْنَعَةِ، إِنَّهَا الْمَعْرَكَةُ الْأَزْلِيَّةُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالذَّهْرِ الَّذِي يَقْهَرُهُ كَمَا سَتَرَى فِي الْكَلَامِ عَلَى رُؤْيَا الشَّاعِرِ، وَلَوْ أَنَّ الشَّاعِرَ طَرَحَ فِكْرَتَهُ بِأَسْلُوبٍ مُبَاشِرٍ لَسَقَطَ فَنِيًّا...، وَلَكِنَّهُ لَمَّا جَعَلَ هَذِهِ الدَّرَامَا لَبُوسًا لِأَفْكَارِهِ مَنَحَ نَصَّهُ صِفَةَ التَّجَدُّدِ وَالْحَيَاةِ.

- الْحُبْكَةُ: قَامَتْ الْحُبْكَةُ عَلَى حَوَادِثَ مُتَرَابِطَةٍ مُتَلَاحِمَةٍ، تَسِيرُ فِي خَطٍّ وَاحِدٍ، تَتَدَرَّجُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى تَبْلُغَ الذَّرْوَةَ، ثُمَّ تَنْحَدِرُ إِلَى الْحَلِّ، وَلَمْ تَتَفَرَّقِ الْخُيُوطُ فِي هَذِهِ الْحُبْكَةِ، وَإِنَّمَا أَتَتْ مُحْكَمَةً مُتَرَابِطَةً تَرَابُطًا سَبِيحًا، فَكُلُّ حَدَثٍ مُتَأَثِّرٌ بِسَابِقِهِ وَمُؤَثِّرٌ فِي لَاحِقِهِ، (سَمَا لِي، عَوَى، ثُمَّ أَقْعَى،

وارتجزت، فهجته، فأقبل مثل البرق؛ فالأحداث كلها مترابطة تسير بخط متصاعد، نحو الذروة (فأوجرته خرقاء...)، فلم تتمكن هذه الخرقاء من إنهاء الصراع، بل زادت اتقاداً (فما ازداد إلا جراً)...، فالشاعر يرجئ الحل ليضفي على قصته عنصر التشويق والإثارة، وأخيراً يأتي الحل (فأتبعها أخرى، فأصللت نصلها، فخر)؛ ليسدل الستار، ويعلن انتهاء المعركة، وانتصار البطل (وقمت، فجمعت الحصى، واشتويته)؛ إنها حبكة محكمة النسيج؛ فالشاعر والذئب ليس يجمع بينهما الزمان والمكان وحسب، وإنما هي وشائج لا انفصام لها من المشاعر وتناقض المصالح، أدت إلى هذا الصراع، فأتى ترتيب الأحداث مسيراً منطق الواقع والحياة.

- الصراع: إنه صراع صاعد، تنامت فيه الأحداث وتصاعدت رويداً رويداً حتى بلغت مُنتهاها.

وأجمل ما في هذا المشهد هو إفلاخ البحري في تأجيج الصراع بين طرفي المعركة، بأن جعل المصالح متناقضة، وكل شيء يعاكس البطل البحري؛ فالذئب يهّم أن يفتك به، ولا مهرب له من هذا الذئب...، والشاعر أيضاً جائع، والمكان صحراء مقفرة، ولا بد لمن أراد أن يبقى منهما أن يفتك بالآخر، وببراعة أرجأ الحل؛ عندما رمى الذئب بسهم، فلم يمت الذئب مُسدلاً الستار على قصته، بل ازداد جراً وصرامة، وأضحى أكثر إصراراً على النيل من البحري بدافع الحفاظ على روجه من القتل، وبدافع الجوع المسعور، وإرجاء الحل هذا ولّد عنصر تشويق المتلقي الذي ازدادت خشيته على سلامة البطل، ولا ريب في أن رؤيته لدمه يسيل أشعل لهيب الانتقام في صدره، فما كان إلا أن عاجله البحري بسهم آخر استطاع أن يضع نهاية لهذا الصراع الصاعد، الذي نمت فيه الأحداث نمواً تصاعدياً ازدادت مع الدفقات الشعورية عند المتلقي.

صورة لم نر شيئاً لها في أدبنا العربي، بلغ التخيل فيها حد الإيهام بالواقع، وكأن مشهد العراك يجري بين يديك؛ على مرأى منك ومسمع.

رابعاً: الإفادة من الإيجاء الموسيقي المرتبط بتدرج الخط الانفعالي.

معلوم أن موسيقى النص الشعري القديم تنقسم إلى موسيقى خارجية تتضمن وحدة البحر والقافية، وأما موسيقاه الداخلية فتنبعث من عوامل عدة؛ كال تكرار الصَوْتِ (تكرار الأحرف، والكلمات، والتراكيب، والجمل، والأساليب)، وكذا حشد المحسنات اللفظية في النص، (ولا سيما الجناس والتصرير والتوازن)، وكثرة حُرُوفِ الهَمْزِ، وكثرة الصَّيغِ الاشتقاقية، وتقسيم العبارات، والتوازن فيما بينها، فضلاً عن توازن الكلمات، ويضاف إلى ذلك كله التقفية الداخلية في أشطر الأبيات، وقد يكون للشاعر الفنان براعة تمكّنه من المواءمة بين موسيقى النص وتدرج الخط الانفعالي للعطف والمشاعر فيه كما سنرى عند البحتري.

وسنحاول ههنا أن نلمس أثر الموسيقى الخارجية والداخلية في تشكيل مشهد المعركة؛ فقد توخى البحتري لقصيدته بحراً مهيأً يحظى بعيون الشعر العربي، إنه البحر الطويل ذو التفعيلات الثماني، بحر يتسع لهكذا نوع من الشعر القصصي الذي يُصور المشاهد المُتتابعَة؛ لأنَّ وفرة تفعيلات الطويل، تمنح الشاعر حرية مرونة لا يجدها في غير الطويل والبسيط اللذين يُفسحان المجال رخباً أمام التجويد، والإشباع، والاستقصاء، وقد اختار البحتري لقصيدته هذه قافية قوية وفخمة ثلاثم شموخ الموضوع، ومعلوم أن الدال المضمومة (د) تكثر في قصائد الفخر والحماسة، وهو الغرض الرئيس الذي يُلَفُّ مشهد العراك بين الشاعر والذئب.

فالبحتري كان على وعي وإحساس عميقين بطبيعة فنّه؛ حيماً أثر أن يُبرّئ شعره الدرامي هذا من كل ألوان التعقيد اللفظي والمعنوي، والتنافر اللفظي والبديعي الذي ابتلي به أبو تمام، ولذا سنحاول أن نتبين قدرة البحتري على توظيف الألوان البلاغية في تشكيل الموسيقى الداخلية لهذا المشهد، وستوقف ههنا عند التقابل والتقسيم الذي يعضده الجناس فيمنح النص موسيقى حماسية تفرغ طُبول المعركة وتؤذن ببدء الحسم بين الطرفين، ومن ذاك قوله:

طَواه الطوى، حتّى استمرّ مريره فما فيه إلا العظم والروح والجلد

فقد استطاع البحريُّ ببرايعته أن يُجَانِسَ بين السَّبَبِ والنتيجة، فالذُّبُّ قد نالَ منه الجوعُ، وأخذَ منه كُلَّ مأخِذٍ، وذهبَ به كُلُّ مذهبٍ؛ حتَّى طواهُ وجعلَ جَسَدَه الخاوي يبدو كقوسٍ مُقْعَرَةٍ، وجاءَ هذا الاتِّحَادُ في جنسِ الحروفِ وأشيأَ على اتِّحَادِ المعنيتين من كونها عِلَّةً ومعلولاً، وقد بدأ - كما رأيتَ - بالنتيجة قبلَ السَّبَبِ؛ لِيَدُلَّ على أَنَّ الذُّبَّ لجوعه في أقصى حالات التأهُبِ لافتراسِ أيِّ شيءٍ يُصادِفُه، وأنَّ المعركةَ واقعةٌ لا محالة، وأنَّ على المتلقِّي أن يهيئَ نفسَه لذلك، ثُمَّ طالعنا بوحديتين صوتيتين أُخريَيْنِ (حتَّى استمرَّ مريُّه) فتتابعَ هاتين الوحدتين (استمرَّ)، (مريُّه) ما هو إلَّا تصاعُداً لموجاتِ النِّغمِ الذي يُسائرُ تدرُّجَ الخطِّ الانفعاليِّ للشُّعورِ، ويتصاعدُ مع الدَّلالةِ المشيرةِ إلى اقترابِ المعركة، ثُمَّ تأمَّلْ ذاك التَّقْسِيمَ في قوله: (فما فيه إلَّا العظمُ، والرُّوحُ، والجِلْدُ) فكأنَّ الدَّفْقَةَ الموسيقيةَ في كُلِّ واحدةٍ من هذه الوحداتِ الثلاثِ تقولُ لك: إِنَّ المعركةَ آتيةٌ، آتيةٌ، آتيةٌ؛ فترقُب.

ولك أيضاً أن تتأمَّل كيف تتسائرُ موسيقى الوحداتِ مع دلالة الأحداثِ في قوله:

عوى، ثُمَّ أَقْعَى، وارتجَزْتُ، فهجَّتُهُ فَأَقْبَلَ، مَثَلُ السَّبْرِقِ يَتْبَعُهُ الرَّعْدُ

فَعَوَاءٌ، ثُمَّ إِقْعَاءٌ، بانتظارِ مُبادرةِ الخصمِ الذي يكونُ منه ارتجَازٌ، فهياجٌ من الذُّبِّ، يعقبُه انقضاؤُ خياليٍّ خاطفٍ، مع صوتِ كهزيمِ الرَّعدِ كفيلٍ بأن يهلكَ الشَّاعرَ فزعاً...، هَلَّا تأمَّلْتَ هذا السَّرْدَ القصصِيَّ لهذه الحوادثِ الحركيةِ السَّتَّةِ كيفَ أَتَتْ مُنْقَسِمَةً في ستِّ وحداتٍ موسيقيةٍ، وقد تزاوَجَتِ الأحداثُ مع أنغامها وأسهمتْ في إيصالِ الدَّلالةِ إلى المتلقِّي، وبإمكانك أن تلحظَ شيئاً من هذا التَّابعِ الصُّوتيِّ الذي يُسائرُ الأحداثِ في قوله:

فأوجرَّتُهُ حَرْقَاءٌ نَحْسِبُ رِيَشَهَا على كَوَكَبٍ يَنْقُضُ، واللَّيْلُ مُسَوِّدٌ

فما ازدادَ إلَّا جُرْأَةً، وَصَرَامَةً، وأيقنْتُ أَنَّ الأَمْرَ منه هو الجِدُّ

فأتبعْتُها أُخْرَى، فأضَلَّتْ نَضْلَهَا بحيثُ يكونُ اللَّبُّ، والرُّعْبُ، والحِفْدُ

فالمشهدُ عَوَاءُ الذُّبِّ، فإقعاؤه، فاندفاعه كالبرقِ يتبعه الرَّعدُ، واندفاعُ سَهْمِ الشَّاعرِ إلى الذُّبِّ في سرعةِ الكوكَبِ المُنْقَضِ في قلبِ اللَّيْلِ، وازديادُ جُرْأَتِهِ وَصَرَامَتِهِ وإصراره، ومحاولةُ الشَّاعرِ الأخيرة، فالإيقاعُ بالخصمِ والنَّيلُ منه الذي بَشَّرَ بانتصارِ البطلِ وسلامته، لك أن ترى هذا التَّابعَ

الصُّورِيَّ في ذَهْنِ المتلقِّي الذي يسيرُ على إيقاعِ الموسيقى المتعاقبة. وباختصار: إِنَّ المشهدَ تنامي عبرَ
تتابعِ الأفعالِ التي أعطتْ إيقاعاً سريعاً، حتَّى وصلَ إلى القرار.

وتأملُ هذا التَّنَاغُمَ الآسِرَ المتولِّدَ عن تتابعِ التَّوَارُثِ في قوله: (بحيثُ يكونُ اللَّبُّ، والرُّعْبُ،
والْحَقْدُ)، وكأَنَّها نفثَةُ المصدورِ، أو تنفُّسُ الصُّعداءِ بعد معركةٍ داميةٍ آنَ لبطلِها أنْ يرتاحَ قليلاً، وكأنَّه
يريدُ أنْ يؤكِّدَ لنا أنَّ المعركةَ انتهتْ، وأنَّه أصابَ خَصَمَهُ في القلبِ، (بحيثُ يكونُ اللَّبُّ، والرُّعْبُ،
والْحَقْدُ)، ذاكَ اللَّبُّ الذي كانَ يُكِنُّ للشَّاعرِ حِقْداً عجيبيّاً، بثَّ فيه رُعباً أجبره على خوضِ غمارِ هذه
المعركةِ وعلى قَتْلِ هذا (الذَّئْبِ) الحَصَمِ في النِّهاية، وتجلَّى هنا براعةُ الشَّاعرِ في التَّصَرُّفِ بحروفِ
العطفِ التي تُقسِّمُ الوَحَدَاتِ الموسيقيَّةَ تصاعديّاً مع تصاعِدِ الصِّراعِ.

وللبُّحَثَرِيِّ اقتدارٌ عجيبٌ على الإفادةِ من التَّلَوِينِ الصَّوْتِيِّ في الكلامِ، من خلالِ التَّقريبِ المحكِّمِ
للحروفِ المتشابهةِ والمتقاربةِ أيضاً، ولا شكَّ في أنَّ هذا التَّقَارُبَ المحكِّمَ يزيدُ الحُبْكَةَ إحكاماً، ولا
شكَّ أيضاً في أنَّ الموسيقى الدَّاخِلِيَّةَ للنَّصِّ حينما تتصاعدُ وتنخفضُ وَفْقَ موجاتٍ مُنْتَظِمَةٍ ومُتَنَّاغِمَةٍ
فيما بينها، بعيدةٍ عن التَّنَافُرِ والتَّبَاعُدِ في المخارجِ لا شكَّ في أنَّها تُساعدُ على تماسُكِ المشهدِ التَّصويرِيِّ
في ذَهْنِ السَّامِعِ؛ من حيثُ إنَّ التَّنَافُرَ الموسيقيَّ وتباعُدَ مخارجِ الحروفِ أو تقاربَها غيرَ المحكِّمِ قد
يُؤدِّي إلى تعطيلِ عمليَّةِ التَّلَقِّي بينَ الحينِ والآخرِ، فتكونُ هذه التَّنَافُراتُ والصُّعوباتُ اللَّفْظِيَّةُ وعدمُ
انسيابيةِ اللَّفْظِ واللَّحْنِ أشبهَ بإشارةٍ ضوئيَّةٍ تُفاجئُ المتلقِّي وتقطعُ عليه الطَّرِيقَ بينَ الحينِ والآخرِ،
وهذا مِن شأنِهِ أنْ يُفكِّكَ الحُبْكَةَ، وأنْ يُعمِّقَ ارتسامَ المشهدِ في ذَهْنِ المتلقِّي؛ إذ يقطعُ عليه حالةَ
الاندماجِ والتَّماهي معِ الحَدَثِ، وتُعطلُّ حالةَ الإيهامِ بالواقعِ التي كانَ الشَّاعرُ قد سعى جاهداً لإيقاعِ
المتلقِّي في شباكِها.

ولا ننسى أنَّ الموسيقى الدَّاخِلِيَّةَ تكونُ رشيقةً حينَ يتوخَّى الشَّاعرُ لكلِّ حالةٍ شعوريَّةٍ الألفاظَ
التي تلائمُ مناخَها النَّفْسِيَّ...، وموسيقى البُّحَثَرِيِّ تغرُّفُ من مَنَجمٍ لا يَنْضُبُ من الألفاظِ الموجيةِ
المعبَّرةِ التي تُسهِّمُ في تشكيلِ الصُّورةِ أو المشهدِ، وتُحقِّقُ لهذا المشهدِ شيئاً من الوحدةِ العُضُويَّةِ على
المستوى الإيقاعيِّ والعاطفيِّ والموضوعيِّ.

خامساً: الصورة الموحية.

الصُّورَةُ فِي قَصِيدَةِ الْبَحْرِيِّ ثَرِيَّةٌ ثَرَاءَ الرُّؤْيِ الَّتِي تَخْتَبِئُ وَرَاءَهَا:

وَلَيْسَ كَأَنَّ الصُّبْحَ فِي أُخْرِيَاتِهِ حُشَاشَةٌ تَصْلِي صَمِّ إِفْرَنْدَهُ غَمْدُ
تَسْرِبْلَتُهُ وَالذُّبُّ وَسَنَانُ هَاجِعُ بَعَيْنِ ابْنِ لَيْلٍ مَالَهُ بِالكَرَى عَهْدُ

حينما تنفَس الصُّبْحُ ولم يبقَ في اللَّيْلِ رَمَقٌ تَسْرِبَلِ الْبَحْرِيِّ عِبَاءَةَ اللَّيْلِ الْأَسْوَدِ؛ لِيُشْعِرَ الْمُتَلَقِّيَ بأجواء الرّهبة والخوف من ذلك الشّبح المظلم الذي خيم عليه، وليوصل إلينا شعور الخوف والفزع الذي كان يتملّكه في ذاك الموقف، فتلك استعارةٌ بديعةٌ عكست أجواء الرّهبوت في ذلك المكان. وكذا التّشبيه التّمثيلي في البيت الأوّل حيث جعل انسلاخ النّهار من اللَّيْلِ كَوْمُضَةٍ تُلَوِّحُ مِنْ بَرِيقِ سَيْفٍ مُغَمِّدٍ؛ لِيَدُلَّ عَلَى اختلاط أفكاره ومشاعره في تلك اللحظات، وعلى غلبة التّشاؤم على الأمل، وعلى نظريته السّوداوية التي كانت تحكمه في ذلك الموقف، وأنّ حظّ التّفاؤل والأمل بالنّجاة كان ضئيلاً أمام شعوره بالهلاك في تلك المفارقة المقفرة المלאى بوحوش اللَّيْلِ، ثمّ ارتسمت صورة الذّئب الغدّار الذي يتظاهر بالنّوم وهو جدّ مُسْتَنْفِرٍ ومُتَحَفِّزٍ للانقضاض على أوّل مُفْتَرَسٍ تَرْمُقُهُ عَيْنَاه.

ثُمَّ صَوَّرَ لَنَا ذَلِكَ الذّئبَ:

لَهُ ذَنْبٌ مِثْلُ الرِّشَاءِ يَجْرُهُ وَمَتْنٌ كَمَتْنِ الْقَوْسِ أَعْوَجُ مُنَادُ
طَوَاهُ الطَّوَى، حَتَّى اسْتَمَرَ مَرِيرُهُ فَمَا فِيهِ إِلَّا الْعَظْمُ وَالرُّوْحُ وَالْجِلْدُ
سَمَالِي، وَبِي مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ مَا بِهِ بَيْيْدَاءٌ لَمْ تُحَسِّنْ بِهَا عَيْشَةً رَغْدُ

فَالْبَحْرِيُّ يُحَاوِلُ أَنْ يَرَسِّمَ لِهَذَا الذّئبِ صُورَةً يَبْلُغُ بِهَا الْحَدَّ الْأَقْصَى مِنَ الْمَبَالِغَةِ فِي جَعْلِ هَذَا الذّئبِ مُتَحَفِّزاً لِلْمَعْرَكَةِ، لِمَا نَالَهُ مِنْ سُغُوبٍ وَلُغُوبٍ، فَذَنْبُهُ مِثْلُ الرِّشَاءِ (حَبْلُ الدَّلْوِ) طَوِلاً، وَلَا نَدْرِي مَا غَايَةُ الْبَحْرِيِّ مِنْ هَذَا التّشْبِيهِ الْمَجْمَلِ، وَإِنْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الذّئبَ ذَاتَ الْأَذْنَابِ الطَّوِيلَةِ مِنْ أَكْثَرِ أَنْوَاعِ الذّئَابِ ضَرَاوَةٌ وَعَدَاوَةٌ، وَأَظُنُّ أَنَّ الْبَحْرِيَّ اسْتَدْعَى ذَنْبَهُ مِنْ تِلْكَ الْفَصِيلَةِ الشَّرِسَةِ؛ لِيُوَحِّيَ لَنَا بِهَوْلِ الْمَوْقِفِ، وَأَمَّا مَتْنُهُ فَكَالْقَوْسِ تَقَعَّرَا (وَمَتْنٌ كَمَتْنِ الْقَوْسِ أَعْوَجُ مُنَادُ)؛ فَهَذَا ذَنْبٌ مَا

اشتَمَّ رِيحَ الطَّعَامِ مِنْذُ أَمَدٍ، حَتَّى كَادَ بَطْنُهُ يَلْتَصِقُ بظَهْرِهِ، وَهَذَا التَّشْبِيهُ التَّامُّ الْأَرْكَانَ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ لَنَا: إِنَّ ذَا الذُّبِّ لَشِدَّةُ جَوْعِهِ مُسْتَعِدٌّ لِأَفْتِرَاسِ نَفْسِهِ إِنْ لَمْ يَجِدْ مَا يَفْتَرِسُهُ، وَقَدْ (طَوَاهُ الطَّوَى) فَالْجَوْعُ الْمَسْعُورُ طَوَى هَذَا الذُّبِّ حَتَّى أَضْحَى يَتَلَوَّى وَيَعْسِلُ مَتْنُهُ، أَوْ كَأَنَّ الطَّوَى (طَوَى) هَذَا الذُّبِّ وَغَيْبَهُ فَلَمْ يَعُدْ يُرَى لِشِدَّةِ نُحُولِهِ، وَهَذَا نَتَذَكَّرُ قَوْلَ أَبِي الطَّيِّبِ: [البسيط]

كَفَى بِجِسْمِي، نُحُولًا، أَنِّي رَجُلٌ لَوْلَا مُحَاطَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي^(١)

فهذه الاستعارة حَقَّقَتْ مَا يَرَوُهُ الشَّاعِرُ مِنَ الْمَبَالِغَةِ فِي وَصْفِ قُوَّةِ الْخَصْمِ مِنْ خِلَالِ تَصْوِيرِ بَاعِثِهِ عَلَى الْقِتَالِ وَهُوَ الْجَوْعُ الَّذِي يُشْرِفُ بِهِ عَلَى الْمَوْتِ؛ لِأَنَّهُ (مَا فِيهِ إِلَّا الْعَظْمُ وَالرُّوحُ وَالْجِلْدُ) وَتِلْكَ كِنَايَةٌ عَنْ صِفَةِ السُّعَارِ الْمُمِيتِ الَّذِي لَمْ يَزِدْ الذُّبِّ إِلَّا عَزْمًا وَعَنْفَوَانًا (حَتَّى اسْتَمَرَّ مَرِيرُهُ) وَاسْتَحْكَمَ عَزْمُهُ، فَالشَّاعِرُ وَخَصْمُهُ ذُبَّانُ:

كَلَانَا بِهَا ذُبُّ يُحْدِثُ نَفْسَهُ بِصَاحِبِهِ، وَالْجِلْدُ يُتَعَسُّهُ الْجِلْدُ
عَوَى ثُمَّ أَقْعَى، وَرَتَجَزَتْ فَهَجَّتُهُ فَأَقْبَلَ مِثْلَ الْبَرْقِ يَتَّبِعُهُ الرَّعْدُ

(كَلَانَا بِهَا ذُبُّ يُحْدِثُ نَفْسَهُ بِصَاحِبِهِ) فَهَذِهِ صُورَةٌ تَتَجَلَّى فِيهَا عِبْقَرِيَّةُ الْفَنَّانِ الْمُبْدِعِ الَّذِي اسْتَعْمَلَ كَلِمَةَ (الذُّبِّ) بِمَعْنَيَيْهَا الْحَقِيقِيِّ وَالْمَجَازِيِّ مَعًا، فَهَذَا التَّشْبِيهُ الْبَلِغُ يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ الشَّاعِرَ اسْتَدَّابَ حِينَ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ مُوَاجَهَةِ ذَلِكَ الذُّبِّ الشَّرِسِ، وَقَدْ يَكُونُ الْبَحْتَرِيُّ هَهُنَا إِنَّمَا اسْتَعْمَلَ كَلِمَةَ (الذُّبِّ) بِمَعْنَاهَا الْمَجَازِيَّ لَهُ وَلِخَصْمِهِ؛ إِذْ أَرَادَ بِهَا كُلَّ صِفَاتِ التَّوَحُّشِ وَالْمَكْرِ وَانْعِدَامِ الرَّأْفَةِ بِالْخَصْمِ...، لَقَدْ ضَاقَتِ الْمَسَافَةُ حَتَّى أَوْشَكَتْ تَعَدُّمُ بَيْنِهِ وَبَيْنَ الذُّبِّ الَّذِي يَصَوِّرُهُ، بَلْ لَقَدْ حَلَّ فِيهِ مِنَ الذُّبِّيَّةِ مَا يَجْعَلُنَا نَتَأَمَّلُ أَيْبَاتِهِ فِي ضَوْءِ إِحْسَاسٍ جَدِيدٍ، وَهُوَ يَمْزُجُ بَيْنَ وَعْيِ الْإِنْسَانِ وَقُدْرَةِ الْوَحْشِ الْفَاتِكِ الْجَسُورِ فِيهِ.

ثُمَّ جَعَلَ الشَّاعِرُ يُيَبِّغُ الذُّبَّ وَيَسْتَفِزُّهُ (فَأَقْبَلَ مِثْلَ الْبَرْقِ يَتَّبِعُهُ الرَّعْدُ)، فَانْقَضَ بِسُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ كَلَمَحِ الْبَصَرِ مَعَ عَوَاءٍ مُدَوٍّ مُخِيفٍ لِلْخَصْمِ، وَكَأَنَّهُ فِي سُرْعَتِهِ هَذِهِ مَعَ إِتْبَاعِهَا بِصَوْتٍ مُخِيفٍ،

(١) انظر: ديوان المتنبي ١٨٦/٤.

كانبعث الرعد الخاطف الذي يتبعه هزيمٌ يلملم ما بقي من أضوائه بصوت يهز الكون ويرعش الأفق، =إنما تغيا من وراءه أن يعلن بداية المعركة من آخرها، فالدُّب منذ الوهلة الأولى انطلق كالبرق لافتراس خصمه، وفي هذا التشبيه التمثيلي فخرٌ مُقنّع؛ إذ أراد الشاعر منذ البداية أن يوحي لنا بشدة الحُصم وضراوته أنه لا يقوى عليه إلا بطلٌ قويٌ مُقتدرٌ، ولذا حاول أن يمنح خصمه كُلّ صفات القوّة؛ لأنه يعي بأنّه كلّما كان خصمك الذي انتصرت عليه أقوى؛ كان ذلك أمدح لك، وأبلغ في الفخر، ومع كلّ تلك الشراسة لم يهب الشاعر الدُّب بل أرسل إليه من كنانته سهماً:

فأوجرته خرّقاء تحسب ريشها على كوكب ينقض، والليل مُسودٌ
فما ازداد إلا جراءة وصرامة وأيقنت أن الأمر منه هو الحدُّ

فوجه الشاعر له طعنةٌ بنبله خرّقاء تحترق الجسد، لكنها لم تُصب منه مقتلاً، وكانت تلك النبلة ذات ريش يتألّق بياضه كالنجم لسرعته الخاطفة في تلك الليلة اللّيلة، وفي تصوير اللون مع السرعة ههنا براعةٌ فنيّةٌ مبهرة، فسُرعة السهم كسرعة الطير الجارح ينقض على فريسته، وضوءه مقولٌ فيه: كأنّ هذا الطائر المنقض نجمٌ ساطعٌ...، وبمزج الصورتين ترى أنّ سرعة السهم وضوءه كشهاب الموت الخاطف، وإذا كانت تلك النبلة لم تُرده قتيلاً فقد زادته إقداماً واندفاعاً في الانقضاض، فأتبعها الشاعر أخرى:

فأتبعها أخرى، فأضلّت نصلها بحيث يكون اللبُّ والرعبُ والحقدُ

فأضلّ نصلها وضيعه في جسد الدُّب، وتلك كنايةٌ عن إصابةٍ مُحقّقةٍ لذلك الدُّب استقرّت (بحيث يكون اللبُّ والرعبُ والحقد) كنايةٌ عن قلب الدُّب الذي هو مأوى الحقد والرعب، وفي ذا إشارةٌ إلى مهارة الشاعر في الإصابة أن رماها في قلبه، إن لم يكن قصداً بالخرقاء المخطئة، وفي ذلك أيضاً رمزيةٌ إن كان الدُّب مُعادلاً موضوعياً للدَّهر كما أسلفنا؛ فكأنه يقول لك: لقد قتلتُ هذا الدُّب الغدار الذي يُمثّل الدَّهر وناسه، وأصبتُه في منبع أحقادِه وشروِره، فتبايل هذا الدُّب الصّريع:

فخرّ، وقد أوردته منهل الردى على ظمأٍ، لو أنّه عذب الوردُ

وسقط أرضاً، بعدما أوردّه الشَّاعِرُ (مَنْهَلُ الرَّدَى) تلك الصُّورَةُ الفنِّيَّةُ المركَّبةُ، فقد استعارَ الشَّاعِرُ لمواجهته أو لسهامه (منهل الرَّدَى)، وتلك استعارةٌ تصريحيَّةٌ تُفيدُ بأنَّ كُلَّ مَنْ جابهَ الشَّاعِرَ ولاقاهُ في مواجهةٍ أو لاقى سهامَهُ فقد وَرَدَ (منهل الرَّدَى) الذي هو أصلاً صورةٌ؛ حيثُ للموتِ منهلٌ ملأٌ وفتاًضٌ، وكأنَّ الشَّاعِرَ يريدُ للموتِ أن يفيضَ ويبتلعَ كُلَّ مَنْ يتجرَّأ على مواجهته، وبعد أن ارتقى ذلك الحِصْمُ العنيدُ أرضاً:

وَقُمْتُ، فَجَمَعْتُ الحِصَى واشتويتهُ عليه، وللرمضاءِ من تحتي وقد
ونلتُ خسيساً منه، ثُمَّ تركتهُ وأفلتُ عنه، وهو مُنعِفٌ فرُدُّ

إنَّ الشَّاعِرَ - على شِدَّةِ جُوعِهِ - نالَ من ذنبِ المهزومِ شيئاً لا يُذكرُ، ثُمَّ عافَهُ، وتركه، إشارةً إلى أنَّه رَفَضَ حالةَ التَّوَحُّشِ (كلانا بها ذنبٌ يُحدثُ صاحبه)، وأنَّ سَعْيَهُ في الحياةِ كانَ وراءَ المجدِّ والنَّصرِ لا وراءَ المُلذَّاتِ الرَّخاصِ، وأنَّه كانَ يُقاتِلُ دَفْعاً للأذى عن نفسه، لا حُبّاً بالانتقامِ.

وبذا يكونُ الشَّاعِرُ قد أفادَ من الصُّورَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ في بلاغتنا العربيَّة؛ أقصدُ التَّشْبِيهَ والاستعارةَ والكنايةَ، ووظَّفَهَا للتعبيرِ عن أفكارِهِ ورؤاهِ، وأمَّا الألوانُ فلم يَسْتَعِنْ بِالبحرِيِّ سوى بالسَّوادِ حينَ تسربَلَ اللَّيْلُ المخيفَ، وبلونِ التُّرابِ على ذلك الذَّنْبِ المنعِفِ الذي بقي وحيداً في ساحةِ المعركةِ، واللُّونُ الثَّالثُ هو الدَّمُ الأحمرُ - وإنَّ لم يُورِدْهُ صراحةً - لأنَّه ينبثقُ ويُسرِبُلُ كُلَّ تفاصيلِ الصِّراعِ بينَهُ وبينَ الذَّنْبِ، وقد كادَ أن يتفجَّرَ قبلَ من حديثهِ المنذِرِ بالموتِ عندما ذَكَرَ خُصومَهُ.

سادساً: رؤية الشَّاعِرِ المُبْطِنَةِ.

لو أنَّ معركةَ البحرِيِّ مع ذَنْبٍ ذي ظَفَرٍ أو نابٍ لَهَا الحُطْبُ أمامَ معرِكتِهِ مع الذَّنْبِ الذي غدا رمزاً للشرِّ والقهرِ في هذا الكونِ؛ فالذَّنْبُ إذاً ليس سوى مُعادِلٍ موضوعيٍّ لِمَا يَلْقَى البحرِيُّ من كَيْدِ الدَّهْرِ وجَوْرِهِ، من خلالِ الحُبِّ الخائنِ الذي بادَلِ الشَّاعِرَ الغَدْرَ بالوفاءِ، والخصومَ الكائدينَ الذينَ يتمنَّونَ موتهُ ويترَبَّصونَ به المكائدُ؛ إنَّها رؤيةُ الشَّاعِرِ وفلسفتهُ في الحياةِ، هي معركةُ الدِّيمومةِ

بين الإنسان والزمان، وقد أتت معاني البحريّ في مستويات عميقة الرؤية في حاجة إلى مُتلقّ خبير يستقري ما فيها دلالات باطنية، كما في قوله:

سما لي، وبى من شدّة الجُوع ما به بيّداء لم تُحسّ بها عيشة رُغد
كلانا بها ذئبٌ يُحدّث نفسه بصاحبه، والجسد يُعسّسه الجد

فالأمر في البيتين أبعد مدى من مُجرّد وصف الشاعِر لجوعه وجوع غريمه في هذه الصّحراء القاحلة، بل البيتان يعكسان رؤية الشاعِر لطبيعة العالم والمخلوقات في آنٍ معاً، وقول البحريّ: (كلانا بها ذئبٌ يُحدّث نفسه بصاحبه) رؤية شعريّة خصبة ومُتجدّدة لحقيقة جوهريّة حاكمة للعلاقات في الكون، مفادها أنّ الحياة صراعٌ مُستمرٌّ بين الحقّ والباطل، والظلمات والنور، وأنّ الكون لا يتسع لكليهما، فلا بُدّ من صراعٍ أبديّ تدور رحاه بين الحقّ والباطل في داخل كلّ امرئٍ على حدة، فإمّا أن تقتل ذئبك، وإمّا أن يقتلك، ويرى أن ليس للإنسان إلّا أن يواجه الدهر بكلّ حدة وعُنفٍ ليُدرك مجده.

تلك فكرة ساقها البحريّ في ثوبٍ فنيّ مذهلٍ في الجمال والبساطة المعهودة لديه، وقد استطاع من وراء هذا المشهد الدراميّ البارِع أن يجعلنا في قلب رؤية شعريّة كونيّة عميقة تتسم باستنكاه الحياة والوجود الإنسانيّ لا عن طريق التّفلسف الجامد الجافّ، وإنّما عن طريق الشّعور المرهف بمعطيات هذا الكون؛ بإقامة علاقاتٍ فنيّةٍ بارعةٍ بين مُعطيات النّصّ الأدبيّ؛ من مفرداتٍ وتراكيبٍ وأساليبٍ وأفكارٍ ومعانيٍّ وموسيقىٍ وخيالٍ وعواطفٍ استطاعت أن تُجَنّبنا مجابهة الحقيقة وجهاً لوجه، وأنّ توصل رؤية الفنّان المبدع التي لا يتلمّسها إلّا المتلقّي الذي ينفذ إلى أعماق النّصوص؛ في محاولة تأويلها وسرّ التّفكير العميق فيها. وإنّ النّصّ الأدبيّ الخالد هو الذي يقبل من التّفسيرات، ويُشير المتباين من المشاعر والتّصورات؛ وفقاً لاختلاف العصور والثّقافات.

الفصل الثالث

من ملامح الإيهام

بأساليب المعاني في شعر الطائيين

المبحث الأول: إيهام الاستفهام في شعر الطائيين.

المطلب الأول: إيهام الاستفهام وأثره في إشعار المتلقي بانفعالات الشاعر.

المطلب الثاني: إيهام الاستفهام وأثره في تشكيل الصورة الفنية.

المبحث الثاني: حرص الباحثي على إزالة الإيهام.

الفصل الثالث

من ملامح الإيهام بأساليب المعاني في شعر الطائيين

المبحث الأول

إيهام الاستفهام في شعر الطائيين.

حقيقة الاستفهام أن يتوجّه المتكلّم إلى المخاطب بسؤالٍ عن أمرٍ مجهولٍ لديه، يطلبُ منه أن يُعلّمه بأمره، ومنتظرٌ منه جواباً يكشفُ له غامضاً، أو يُزيلُ لبساً، أو يُزحّجُ به تردّداً بين أمرين...، ولكن كثيراً ما يُركّب الاستفهام ويُخرّج عن إرادة طلب الإفهام والإعلام إلى معاني أُخر، يُستدلّ عليها من قرائن الحال أو قرائن المقال.

ووجه الإيهام في الاستفهام المجازي أن عبارته لها معنى ظاهرٌ وآخر باطنٌ، والبُلغاء يستغنون بعبارات الاستفهام عن ذكر الألفاظ الدالة دلالة صريحة على ما يقصدون التعبير عنه من المعاني، وجمالية المعاني المفهومة من هذا الاستفهام آتية من التعبير عنها بصورة غير مباشرة أولاً، وأن هذه المعاني تُتصيّدُ بذكاء المتلقّي وتفاعله مع النصّ ثانياً.

وقد توسّع الطائيان كغيرهما من بلغاء العرب في إشراب الاستفهام معاني آخر تخرّج على حقيقته، إلا أنّهما برعا في جعل هذا الاستفهام أداة تخيل وإيهام للسّامع تُشعره بما يعتمل في صدر الشاعر من مشاعر وأحاسيس مكتومة لا يبوّح بها، وأسهم الاستفهام في شعرهما في رسم الصورة الشعريّة، كما ستري.

المطلب الأول: إيهام الاستفهام وأثره في إشعار المتلقّي بانفعالات الشاعر.

إنّ خروج الاستفهام على مُقتضى الظاهر في شعر الطائيين مجال خصب للإيهام وتوسيع دلالات الكلام؛ فالاستفهام الحقيقي له إجابة واحدة، وكفى. أمّا الاستفهام المجازي في شعر الطائيين - كما في شعر غيرهما من الفحول - فإنّه ينطوي على دالتين؛ دلالة نحويّة مفهومة من صيغة الاستفهام

المعروفة مع ما تطلبه الأداة، ودلالة أخرى تُعبّر عن أعماق الشاعر وخلجات رُوحه، فضلاً عما تفعله من إثارة المتلقي لِيُسهِمَ هو في ملء فراغات النصّ الأدبي، كما أنّ الشاعر الذي يستفهم مُتَعَجِّباً ينقل إلى المتلقي التّعجب وكذا التّعظيم والتّحقير والإنكار والحيرة، فالطّائیان كغيرهما إن أراد الواحد منهما أن يُعبّر عن معنى وهو لا يرغب في التّصريح به لجأ بدهائه إلى الاستفهام المجازي؛ لِيُشعِرَ المتلقي بما يشعر به دون أن يبوَحَ له صراحةً، وليستدرج المخاطب لإدراك المُراد الحقيقي من السؤال، أو ليحمل هذا المخاطب على أن يُقرّ هو بما سكّت عنه الشاعر، فضلاً عما في هذا الأسلوب من تمكين للمعنى في نفس المتلقي قياساً بما لو ألقى إليه هذا المعنى صراحةً، فالشاعر يُحمّل أسلوب الاستفهام عبء التّعبير عن مشاعره التي لا يبوَحُ بها، ومن أمثلة ذلك في شعر أبي تمام ما قاله يُصوّرُ حزنه وأساه في رثائه جاريةً كانت ترعاه في أخريات حياته بقوله: [الطويل]

ألم ترني خلّيتُ نفسي وشائها	ولم أخفل الدنيا ولا حدائها
لقد خوّفتني النَّباتُ صُرُوفُها	ولو أمّنتني ما قيلتُ أمائها
وكيفَ على نارِ اللَّيالي مُعرّسي	إذا كان شيبُ العارضين دُخانها
يقولون: هل يبكي الفتى لخريدة	متى ما أراد اعتاضَ عُشراً مكانها
وهل يستعِضُ المرءُ من خمسٍ كفّه	ولو صاغَ من حرّ اللّجين بنائها! ^(١)

صورة الأسى والإحساس بالفقد والشّعور بالوحشة بعد غياب الأُنيس الذي يرفع شأنه (ألم ترني خلّيتُ نفسي وشائها)، سؤال النفس للنفس، سؤال يُقرّر الواقع، ويبيد الخيبة به لعدم توقّع نزول هذا المصاب...، وسؤال لنا نحن المتلقين؛ لِيُقرّرَ فينا زُهدُه بهذه الدنيا بعد رحيل الأُحبة، وليدُلّ على إحساسه بالقهر وعدم الأمان بعد فقد شقيقة رُوحه، تلك الجارية التي كانت ترعاه وهو طاعن في السّن، وقد أراد أن يُشعرنا باستفهامه:

ألم ترني خلّيتُ نفسي وشائها	ولم أخفل الدنيا ولا حدائها

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٤/ ١٤٢-١٤٣.

أنَّ الجاريةَ التي أعطته السَّكينةَ عندما ارتحلتْ أخذتْ معها كُلَّ الحُيوطِ التي رَبَطَتْهُ بالحياة، ألا ترى مِنْ هذا الاستفهامِ أنَّ رَحيلَها قد أسلَمَهُ إلى الزُّهدِ وإلى القَلَقِ من الغدِّ؟ ثُمَّ يسألُ بـ (كيف)؛ ليدلَّ على العَجْزِ النَّفْسِيِّ الذي ينتابُهُ في ذلك الموقفِ العصيبِ، فكيف يعرفُ الفَرْحُ سبيلاً إلى قلبه الذي أدماهُ المصابُ الجَلَلُ، بعدما فَقَدَ مَنْ كانَ يحوطُهُ بالحبِّ والحنانِ ويُشعِرُهُ بالدَفءِ والأمانِ، وقد دَقَّ ناقوسُ الشَّيبِ؟.

ويلوِّمُهُ أصحابُهُ: (جاريةُ أُمَّت، جاريةُ ذهبَتْ... ما المشكِلةُ في ذلك؟ ولِمَ الدُّموعُ والبُكاءُ؟)، فيُفَنِّدُ رأيهم بالاستفهامِ الإنكاريَّ؛ وكيف لهؤلاء - وبيوتهم ملاءى بجوارٍ، لا يعرفون لإحداهن اسماً - كيف لهم أن يشعروا بما يُكابِدهُ أبو تمام من فَقْدِ جاريته التي كانتْ أكثرَ من جاريةٍ؛ لِمَا كانَ بينهما مِنَ الألفةِ والمودَّةِ والعطفِ، كيف لهم أن يدركوا شُعوره بالفَقْدِ والضَّعْفِ بعدَ فراقها؛ لذا أجابهم بقوله:

وهل يستعِضُّ المرءُ مِنْ خَمْسِ كَفِّهِ ولو صاغَ مِنْ حُرِّ اللَّجَيْنِ بناها!

بأصابعِ اليدِ يقوى المرءُ على قَبْضِ ما يريدُ، فيشعرُ بالقُدرةِ والسَّطوةِ، وإن حَلَّ محلَّها أصابعُ من فِضَّةٍ فإنَّها لا تُغني عنه شيئاً، ما أروعَ هذا الاستفهامَ الممزوجَ بتشبيهه ضمنيَّ، فالجاريةُ المحزونُ عليها هي اليدُ التي كانت تُشعِرُ الشَّاعِرَ بالقُدرةِ والأمانِ عندما ترعاه وتحنو عليه، وكُلُّ الجوّاري إن حَلَلْنَ مكائِها كأصابعٍ من فِضَّةٍ أو من ذَهَبٍ؛ جُميلاتُ المنظرِ، ولكن لا يُنتَفِعُ بهنَّ؛ لأنَّ الشَّاعِرَ ليس في حاجةٍ إلى الخِدمةِ والرَّعايةِ فحسب، فهذا أمرٌ تُجيدُهُ أيُّ جاريةٍ، ولكنَّه في حاجةٍ إلى العطفِ والحنانِ والدَّفءِ، إلى مَنْ يُفَرِّحُهُ في شيخوختِه هذه، إلى مَنْ يشعُرُ بآلامِه، ويحاولُ أن يُجلي عنه الهمومَ والأوجاعَ، إنَّه محتاجٌ إلى رفيقٍ دربٍ وأنيسٍ رُوحٍ، لا إلى جاريةٍ تغسُلُ وتطهِّو. لقد أوكلَ الشَّاعِرُ إلى الاستفهامِ أن يُشعِرَ المتلقِّينَ بمشاعِرِه وشكواه، فاستثمرَ هذا الأسلوبَ خيرَ استثمارٍ.

أما البحريُّ فإنَّه من أمهر الشُّعراء في توظيفِ الاستفهامِ للتعبيرِ عن مشاعِرِه ومواقِفِه من قضايا

الكونِ والوجودِ الإنسانيِّ، ومن ذلك قوله في الدَّهرِ والأيَّامِ: [الطَّويل]

أَفِي الْعَذْلِ أَنْ يَشْقَى الْكَرِيمُ بِجَوْرِهَا وَيَأْخُذَ مِنْهَا صَفْوَهَا الْقَعْدُ الْوَعْدُ؟^(١)

في هذا الاستفهام نقرأ كُلَّ معاني السُّخْطِ على جورِ الزَّمانِ وَعَبَثِهِ، وفيه عدم الرِّضا بالواقع والتَّمَرُّدُ عليه؛ لعدم إنصافِهِ في قِسْمَةِ الحُظوظِ، كُلُّ تلك المعاني مع مشاعرِ الغَضَبِ والاستياء والنِّقْمَةِ نجدُها حاضرةً في استفهامه السَّابِقِ، مع معنى النَّفْيِ، وكأنَّه يقولُ: ليسَ ذلك عدلاً، بل هو الظُّلْمُ أشدُّ الظُّلْمِ، ومثُلُ هذا الاستفهام الذي فيه سُخْطٌ على أهلِ زمانِهِ قوله: [الطَّويل]

فَوَا أَسْفِي! حَتَّامُ أَسْأَلُ مَا نِعْمًا؟ وَأَمَنْ خَوَانًا؟ وَأُعْتَبُ مُذْنِبًا؟^(٢)

وقد قالَ البحريُّ يذكُرُ الشَّبابَ ويسألُ عنه في مَطْلَعِ مِدْحَةٍ: [الطَّويل]

أَكَا نَ الصَّبَا إِلَّا خَيْالًا مُسْلَمًا أَقَامَ كَرَجِ الطَّرْفِ، ثُمَّ تَصَرَّمَا^(٣)

استطاعَ هذا الاستفهامُ أَنْ يُكثِّفَ رُؤْيَا الشَّاعِرِ لِدَايَتِهِ وَلِلْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ، وَأَنْ يَجْلُوَ شَيْئًا مِنْ مشاعرِ الأسي والحنين عندَ شيخٍ يستعيدُ ذكرياتِ شبابٍ وَلَّى مع ذكرياتِهِ العَظِيرة... مع الحُبِّ القديم الذي ما زالَ يُداعِبُ القلبَ، وَلَّى مع الفُروسيَّةِ والعنفوانِ اللَّذِينَ طَالَمَا افْتَخَرَ الشَّاعِرُ بِهِمَا، إِنَّهُ ربيعُ العُمُرِ.. مرَّ بالشَّاعِرِ مُرُورَ الكِرَامِ، ثُمَّ مَضَى لِيُودِعَ فِي قَلْبِهِ أَسَى وحسرةً لَا تَعْبُرُ:

أَكَا نَ الصَّبَا إِلَّا خَيْالًا مُسْلَمًا أَقَامَ كَرَجِ الطَّرْفِ، ثُمَّ تَصَرَّمَا

إِنَّهُ سَوَّالُ الشَّيْخِ الْمُقْهَرِ الَّذِي يَحْنُ إِلَى أَيَّامِ الْفُتُوَّةِ وَالْجَمَالِ، اسْتِفْهَامُ أَفَادَ التَّقْرِيرِ، وَأَفَادَ النَّفْيِ، (لَمْ يَكُنْ إِلَّا...)، وَقَدْ شَكَّلَ أُسْلُوبَ قَصْرِ عَزِيزِ الْوُجُودِ، قَدْ لَا تَجِدُهُ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ مِنَ الْفُحُولِ، وَالْمَهْمُ أَنَّ الْبَحْرِيَّ أَوْكَلَ إِلَى اسْتِفْهَامِ أَنْ يَبُوحَ بِكُلِّ مَا يَعْتَصِرُ قَلْبَهُ مِنْ مَشَاعِرَ وَخَوَاطِرَ وَأَحَاسِيسٍ... دُونَ أَنْ يَبُوحَ بِأَيِّ مِنْهَا، وَكَأَنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ تَعُودَ تِلْكَ الْأَيَّامُ الْجَمِيلَةُ، وَهَذَا نَتَذَكَّرُ قَوْلَهُ مُسْتَفْهَمًا: [البسيط]

هَلِ الشَّبَابُ مُلِمٌّ بِي فَرَا جَعَةً أَيَّامُهُ لِي فِي أَعْقَابِ أَيَّامِي؟^(٤)

(١) انظر: ديوان البحري ١/ ٧٤٥.

(٢) انظر: ديوان البحري ١/ ١٩٧.

(٣) انظر: ديوان البحري ٤/ ٢٠٨٧.

(٤) انظر: ديوان البحري ٤/ ٢٠٩٦.

إِنَّ بُكَاءَ الْبُحْتَرِيِّ عَلَى الشَّبَابِ وَأَيَّامِهِ هُوَ تَحَسُّرٌ عَلَى أَيَّامِ الْحُبِّ الْغَابِرِ... إِنَّهُ بُكَاءٌ عَلَى الْمَرَاةِ الْحَسَنَاءِ، فَهُوَ يَسْأَلُ قَائِلًا: [الطَّوِيل]

أَبْعَدَ الشَّبَابِ الْمُتَنَظِّصِ فِي الذَّوَانِبِ أَحَاوِلْ لُطْفَ الْوُدِّ عِنْدَ الْكَوَاعِبِ؟^(١)

فهو يستبعدُ أَنْ يُفْلِحَ بِالْإِقْبَالِ عَلَى الْغَيْدِ الْحَسَنِ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَتْ نَضَارَةُ الشَّبَابِ وَرَوْنَقُهُ، وَحَلَّتْ قَتَامَةُ الْمَشِيبِ، وَإِنْ كُنْتُ أَظُنُّ الْكَوَاعِبَ هَهُنَا رَمَزُ لِمَلَذَّاتِ الدُّنْيَا وَرَغَائِبِهَا. وَفِي الْمَعْنَى نَفْسِهِ يَقُولُ مَتَسَائِلًا: [الطَّوِيل]

وَمِنْ أَيْنَ أَصْبُو بَعْدَ شَيْئِي، وَبَعْدَمَا تَأَلَّى الْخَلِيُّ أَنَّ ذَا الشَّيْبِ لَا يَصْبُو؟^(٢)

وَالْغَرِيبُ فِي دِيْوَانِ الْبُحْتَرِيِّ أَنَّهُ كَثِيرُ الرِّبْطِ بَيْنَ الِاسْتِفْهَامِ وَالْبُكَاءِ عَلَى الشَّبَابِ، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي هَذَا السِّيَاقِ كَثِيرًا مَا يُفِيدُ بَثَّ الْأَسَى وَالتَّحَسُّرَ عَلَى ذَلِكَ الزَّمَانِ الْجَمِيلِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ سَائِلًا عَنْ أَيَّامِ الشَّبَابِ مُتَحَسِّرًا عَلَيْهَا: [السَّرِيع]

جَلَوْتُ مِرَاتِي، فَيَا لَيْتَنِي	تَرَكْتُهَا، لَمْ أَجُلْ عَنْهَا الصَّدَا
كَيْلَا لَا أَرَى فِيهَا الْبَيَاضَ الَّذِي	فِي الرَّأْسِ وَالْعَارِضِ مِنِّْي بَدَا
يَا حَسْرَتَا! أَيْنَ الشَّبَابُ الَّذِي	عَلَى تَعَدِّيهِ الْمَشِيبُ اعْتَدَى؟
إِنَّ مَدَى الْعُمُرِ قَرِيبٌ، فَمَا	بَقَاءُ نَفْسِي بَعْدَ قُرْبِ الْمَدَى؟ ^(٣)

(أَيْنَ الشَّبَابُ الَّذِي عَلَى تَعَدِّيهِ الْمَشِيبُ اعْتَدَى؟) يَتَحَسَّرُ الْبُحْتَرِيُّ أَلَمًا عَلَى ذِكْرِ الشَّبَابِ وَالْقُوَّةِ بَعْدَمَا تَفَوَّقَ عَلَيْهِ الضَّعْفُ وَانْكَسَرَ عَنُقُوهُ، (فَمَا بَقَاءُ نَفْسِي بَعْدَ قُرْبِ الْمَدَى؟) ثُمَّ يُعَبِّرُ عَنْ قُنُوطِهِ وَيَأْسِهِ وَزُهُدِهِ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ الْآيِلِ إِلَى الزَّوَالِ... هَذَا التَّسَاوُلَانُ يُلَحِّصَانِ عَصَارَةَ التَّجَرُّبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ لِلْبُحْتَرِيِّ الْإِنْسَانِ، إِنَّهُ اسْتِفْهَامٌ حَائِزٌ... يَفِيضُ أَسَى وَجَزَعًا عَلَى فَقْدِ الشَّبَابِ، إِنَّهُ يُكثِّفُ هَذَا

(١) انظر: ديوان البحتري ١/ ١٠٨.

(٢) انظر: ديوان البحتري ١/ ١٢٣.

(٣) انظر: ديوان البحتري ١/ ٦٥.

الإحساس المهيمن عليه بسؤاله: (فما بقاء نفسي بعد قُرب المدى؟) إنه لا يرى الحياة الحقيقية إلا في تألق الشباب المشتعل بعواطف الحبّ واندفاع الشباب.

وقوله: [الخفيف]

كيف أغدو من الصّباية خلّوا بعدما راحت الدّيار خلاء؟^(١)

فإنّ استفهامه (كيف أغدو من الصّباية خلّوا) يدلّك على أنّ الأحزان والأشواق قد تملّكته، فلا يستطيع إفلاتاً من أسرها، وأنّه صار أخا حُزنٍ بعد خلاء هذه الدّيار من أهلها الذين طالما أحبّهم وأحبّوه، ومثله من استفهام البحريّ الذي يُعبّر عن الشّوق والحنين وألم البعاد والنّوى قوله: [الوافر]

سلام الله كُنَلَّ صَباحِ يومٍ عليك، ومَنْ يُبَلِّغُ لي سَلامي؟
أَتَخِذُ العِراقَ هَوًى وداراً ومَنْ أهواؤه في أرضِ الشّام؟^(٢)

وقوله: [الكامل]

رَحَلُوا... فَأَيَّةُ عَبرةٍ لم تُسَكِّبْ أسفاً؟ وأيُّ عزيمةٍ لم تُغَلِّبْ؟^(٣)

فكُلّ العِبراتِ سُكِبَتْ حُزناً وألماً على فِراقِ الأُحبة... وكُلّ العِزائمِ خارت ووضَعُفت بعد أن أودّعها رحيلُ الأُحبابِ حَسرةً دائمةً لا تُقْلِعُ.

ومن الاستفهام الذي يُعبّر عن مشاعر الشّوق والاحتراق بنيرانِ الهوى قولُ أبي تمام: [الطّويل]

ولي يا خَلِيَّ الصّدرِ مِنْ لَوعةِ الهوى حَسأَلَسْتُ أدري جَمرةٌ هي أم حَسأ؟^(٤)

قَبْلَ الكلامِ على الاستفهامِ في هذا البيت لا بُدَّ من التّنبّه إلى المفارقة بينَ شطريه، فقلْبُه جَمرةٌ أحرقتها تباريحُ الهوى، والمحبوب (خَلِيَّ الصّدرِ) لا يُبالي لأمرِ الشّاعرِ الذي أذا به الوجدُ وشفّةُ الهيام، أمّا الاستفهامُ المسبوقُ بالنّفي (لَسْتُ أدري جَمرةٌ هي أم حَسأ؟) فإنّه عبّرَ عن عُمقِ مُعاناةِ الشّاعرِ

(١) انظر: ديوان البحريّ ١/ ١٣.

(٢) انظر: ديوان البحريّ ٣/ ١٩٣٢-١٩٣٣.

(٣) انظر: ديوان البحريّ ١/ ٧٨.

(٤) انظر: ديوان أبي تمام ٤/ ٢٢٧.

والتهاب نيران الصّباية والجوى في قلبه، وأفاد أيضاً تشبيهاً بليغاً مُبالغاً فيه، فالشاعرُ لِشِدَّةِ التّهابِ الحُبِّ في قلبه التّبَسَ عليه الأمر، فما عاد يدري أقلبُ هذا أم جمرَةٌ مُتَقَدَّةٌ؟

ومن استفهام أبي تمام الذي ييُوحُّ بمشاعره قوله في رثاءِ البطلِ مُحَمَّد بنِ حُمَيْدِ الطّائِيّ: [الطّويل]

أَمِنْ بَعْدِ طَيِّ الحادِثاتِ مُحَمَّدًا يَكُونُ لَأَثوابِ النّدى أَبَدًا نَشْرُ؟!
إِذا شَجَراتُ العُرْفِ جُدَّتْ أَصولُها ففِي أَيِّ فَرْعٍ يُوجَدُ الوَرَقُ النّضْرُ؟
لَئِنْ أَبْغَضَ الدَّهْرُ الحَيَّوْنَ لِفَقْدِهِ لَعَهْدِي بِهِ مِمَّنْ يُحِبُّ لَهُ الدَّهْرُ
وكيفَ احتِمالي لِلسَّحابِ صَنِيعًا بِاسْقائِها قَبْرًا وَفي لَحْدِهِ البَحْرُ!^(١)

فقد أفاد أبو تمام هنا في التّعبير عن مشاعرِ الحُزن والأسى لِفَقْدِ الطّائِيّ مُحَمَّدٍ، ومشاعرِ التّعظيم والإكبار والإعجاب بهذا البطل، ففي البيت الأوّلِ يَستفهِمُ على جِهَةِ النّفي أو الاستبعاد؛ وقد فَقَدَ الأملَ بِحياةِ النّدى والجودِ بعد وفاةِ مُحَمَّد، وكأنّه أصلُ الكَرَمِ في هذا الكون، ولذا أتى الاستفهامُ الممزوجُ بالشرط الافتراضيّ:

إِذا شَجَراتُ العُرْفِ جُدَّتْ أَصولُها ففِي أَيِّ فَرْعٍ يُوجَدُ الوَرَقُ النّضْرُ؟

لِيُشكِّلَ مع ما قبله تشبيهاً ضمنيّاً وتمثيليّاً معاً؛ فرحيلُ المَرثِيّ يعني رحيلاً لَصَفحاتِ الكَرَمِ؛ فإنّه يَعزُّ أن يُوجَدَ مثلُ ذاكِ الفتى السّخيِّ بعدَ اليوم، بل إنّ الخَيْرَ والجودَ بعده إلى زوال، ويؤكّد ذلك باستفهامٍ غرضُهُ النّفي القاطع، عندما يقول:

إِذا شَجَراتُ العُرْفِ جُدَّتْ أَصولُها ففِي أَيِّ فَرْعٍ يُوجَدُ الوَرَقُ النّضْرُ؟

وقبل الاستفهامِ الثّالثِ أبدَعَ الشّاعرُ في تصويرِ عَظَمَةِ هذا المَرثِيّ:

لَئِنْ أَبْغَضَ الدَّهْرُ الحَيَّوْنَ لِفَقْدِهِ لَعَهْدِي بِهِ مِمَّنْ يُحِبُّ لَهُ الدَّهْرُ

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٤/ ٨٣-٨٤.

أبدع في تصوير عظمة المراثي بإظهار المفارقة بين أمرين: هما أن الناس أضحت تكره الدهر؛ لأنه
أضرَّ بهم وحرَّمهم من البطل محمد، وقد كان هذا الدهر يُحبُّ قبلاً؛ لأجل وجود محمد فيه، ثم يأتي
الاستفهام التعجُّبي الذي يفيد التعذُّر:

وكيف احتمالي للسحاب صنيعةً بإسقاطها قَبْراً وفي لَحْدِهِ الْبَحْرُ!

ليُعبَّرَ أيضاً عن الأسى لفقد هذا البطل الطائي، وعن الإعجاب ببطولته وشجاعته المنقطعة
النَّظير.

وانظر إلى الاستفهامات المتتابعة التي يسوقها البحرني في عتابه الفتح بن خاقان: [الكامل]

أُخْلَفِي - يَا فَتْحُ - أَنْتَ وَظَاعُنْ	فِي الظَّاعِنِينَ، وَشَاهِدْ وَمُعَيِّي؟
مَاذَا أَقُولُ إِذَا سُئِلْتُ فَحَطَّنِي	صِدْقِي، وَلَمْ يَسْتُرْ عَلَيَّ تَكْذُوبِي؟
مَاذَا أَقُولُ لِشَامَتِينَ يَسُرُّهُمُ	مَا سَاءَ نِي، وَلِمُنْكَرٍ مُتَعَجِّبٍ؟
أَأَقُولُ: مَغْضُوبٌ عَلَيَّ؟! فَعِلْمُهُمْ	أَنْ لَسْتُ مُعْتَذِراً، وَلَسْتُ بِمُذْنِبٍ!
أَمْ هَلْ أَقُولُ تَخَلَّفْتُ بِي عِنْدَهُ	حَالٌ... فَمَنْ ذَا بَعْدَهُ مُسْتَضْجِي؟ ^(١)

إنَّ استفهاماته هذه عبَّرت عن كُلِّ مشاعره المختلطة دفعةً واحدة، ففي نفسه حُرقةٌ وألمٌ من
الفتح الذي استغنى عنه بعد ما كان بينهما من الودِّ وطيبِ الصُّحبة (أُخْلَفِي - يَا فَتْحُ - أَنْتَ
وَظَاعُنْ)، وشعورٌ بالخوف من شماتة الأعداء، فهو لا يريد أن يضع اللوم على جهته؛ لأنه يرى نفسه
مظلوماً غير مُذْنِبٍ، ولا يُمكنه أن يضع اللوم على سيِّده الفتح؛ لأنه وفيَّ لأيام الوداد، وهو لا يكذب
لأنه صادق:

مَاذَا أَقُولُ إِذَا سُئِلْتُ فَحَطَّنِي	صِدْقِي، وَلَمْ يَسْتُرْ عَلَيَّ تَكْذُوبِي؟
مَاذَا أَقُولُ لِشَامَتِينَ يَسُرُّهُمُ	مَا سَاءَ نِي، وَلِمُنْكَرٍ مُتَعَجِّبٍ؟

(١) انظر: ديوان البحرني ١/ ١٤١.

وإنَّكَ تُلاحِظُ أَنَّ الشَّاعِرَ يُلِحُّ فِي أَسْئَلَتِهِ (ماذا أقول؟)، و(أقول...؟) لِيَدُلَّ عَلَى شِدَّةِ أَلَمِهِ وَخَوْفِهِ مِنْ شِمَاتَةِ الْحَاسِدِينَ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لِلْفَتْحِ: أَيُّضِيكَ أَنْ أَقُولَ عَلَى نَفْسِي كَذَا وَكَذَا؟، وَسؤالُهُ هَذَا يَعْتَصِرُ أَلَمًا وَأَسَى عَمِيقَيْنِ مِنَ الْوَزِيرِ الَّذِي زَهَدَ فِي صُحْبَتِهِ، وَإِنَّكَ تَسْمَعُ فِي سؤَالِهِ نَغَمَاتِ الْحُزَنِ وَالضَّعْفِ الَّتِي تَرْجُو الْوَزِيرَ بِأَنْ يَعُودَ عَنْ مَوْقِفِهِ، وَفِيهِ اسْتِعْطَافٌ لِقَلْبِهِ وَإِرْضَاءٌ لِعُرُورِهِ أَيْضًا.

المطلب الثاني: إيهام الاستفهام وأثره في تشكيل الصورة الفنية.

استثمر الطائيان أسلوب الاستفهام ووظفاه فنيًا في رَسْمِ الصُّورِ المَخِيلَةِ، عَلَى نَحْوِ مُدْهَشٍ تَرَاهُ عِنْدَ كِلَيْهِمَا؛ فَهَذَا أَبُو تَمَّامٍ أَرَادَ أَنْ يَمْدَحَ خَالِدًا الشَّيْبَانِيَّ، فَلَمْ يَقُلْ لَهُ: أَنْتَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ الْبَذُولُ السَّخِيُّ، بَلْ رَسَمَ لَهُ صُورَةَ الْكَرِيمِ الْمِعْطَاءِ الَّذِي دُونَهُ كُلُّ الْكُرَمَاءِ مِنْ خِلَالِ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ حَيْنَاءَ: [الطَّوِيل]

يَقُولُ أَنَاسٌ فِي حَيْنَاءَ عَايَنُوا	عِمَارَةَ رَحِيلٍ مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدِ
أَصَادَفْتُ كَنْزًا أَمْ صَبَحَتْ بِغَارَةٍ	ذَوِي غِرَّةٍ حَامِيَهُمْ غَيْرُ شَاهِدٍ!
فَقُلْتُ لَهُمْ: لَا ذَا، وَلَا ذَاكَ دَيْدَنِي	وَلَكِنِّي أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ خَالِدٍ ^(١)

أَلَا تَرَى فِي اسْتِفْهَامِ أَهْلِ حَيْنَاءِ الْمَمْزُوجِ بِالْوَانِ الْإِنْدِهَاشِ وَالذُّهُولِ وَالِاسْتِغْرَابِ مَا يُنبِئُكَ عَنْ عِظَمِ مَا حَمَلَ أَبُو تَمَّامٍ مِنَ الْعَطَايَا وَالْهِبَاتِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْثِيَابِ؟ سَأَلُوا عَنْ غَارَةٍ أَوْ كَنْزٍ، لَا عَنْ كَرِيمٍ أَوْ أَمِيرٍ؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْعَطَاءِ لَا يُتَوَقَّعُ أَنْ يَجُودَ بِهِ الْمَرْءُ عَنْ رِضَى وَسِمَاحَةٍ، وَكَانَ الْجَوَابُ أَنَّهُ آتٍ مِنْ عِنْدِ خَالِدِ الشَّيْبَانِيَّ...، الْكَنْزُ الدَّائِمُ وَالْغَارَةُ الْمَشْرُوعَةُ، وَهَلْ ثَمَّةُ أَمْدَحُ مِنْ ذَلِكَ؟ إِنَّ جَمَالِيَّةَ اسْتِفْهَامِ هُنَا أَثَرَتْ الْمَدْحَ وَطَغَتْ عَلَى الْمَشْهَدِ، وَلَمْ يَكُنْ تَشْبِيهًُ أَوْ اسْتِعَارَةً لِيُحَقِّقَ مَا حَقَّقَ سؤَالُهُمْ مِنْ جَمَالِ التَّصْوِيرِ وَإِقْنَاعِ الْمُتَلَقِّي بِالْفِكْرَةِ الْمُخْتَبِتَةِ وَرَاءَ هَذَا اسْتِفْهَامِ، وَهِيَ جُودُ الْمَدُوحِ. وَمِثْلُ ذَلِكَ فَعَلَ فِي تَصْوِيرِ مَدُوحٍ آخَرَ (أَبِي الْغَيْثِ): [الكَامِل]

مَا لِلخُطُوبِ طَغَتْ عَلَيَّ كَأَنَّهَا جَهَلْتُ بِأَنَّ نَدَاكَ بِالْمِرْصَادِ!

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٥/٢.

ولقد تراءتني بأمنع جُنَّةٍ لَمَّا برزتُ لها، وأنتَ عِتادي^(١)

فالشاعرُ يتساءلُ مُتَعَجِّباً: ما هذه الخطوبُ تُحاولُ إرغامي؟ وكأنَّها لا تَعْقِلُ، ولا تدري بأنَّ ندى أبي الغيثِ يمنُّني منها. إنَّ أبا تَمَّامَ بهذا الاستفهامِ قد جَعَلَ كَرَمَ ممدوحِهِ كأنَّه مُسَلِّمَةٌ وبديهيَّةٌ في أذهانِ الجميع، وكُلُّ مَنْ لا يعرفُ بِجُودِ أبي الغيثِ فهو جاهلٌ (كأنَّها جَهِلَتْ بأنَّ نَدَاكَ بِالرَّصَادِ)، وكأنَّ كَرَمَ أبي الغيثِ قد عَمَّ الكونَ، فلم يَعدْ يُقْبَلُ من أحدهم أن يجهله، وكأنَّ جودَ أبي الغيثِ وفَرَطَ سخائِهِ ممَّا يُعَلِّمُ بالضرورة، أيُّها أبلغُ: التَّشْبِيهُ البليغُ (أبو الغيثِ بحرٌ) أم هذا الاستفهامُ الذي رَسَمَ أبهى صُورِ الكَرَمِ، وقد زادَ الصُّورةَ جمالاً ومُبَالَغَةً حين جَعَلَ (الخطوبَ) تتحاشاهُ بعد أن علَمتْ بِمُساندَةِ أبي الغيثِ له، وكأنَّه يقولُ: مَنْ وَجَدَ أبا الغيثِ فماذا فَقَدَ؟ وَمَنْ فَقَدَ أبا الغيثِ فماذا وَجَدَ؟ والبحرِيُّ يرسمُ بالاستفهامِ صُورةَ الرَّجُلِ الكريمِ الشُّجاعِ على نحوٍ لا مزيدَ في الحُسْنِ عليه إذ يقولُ: [الخفيف]

سَلْ بِهِ إِنْ جَهِلْتَ قَوْلِي، وَهَلْ يَجْزِي هَلْ ذُو النَّاظِرِينَ هَذَا الضُّيَاءُ؟^(٢)

هذا نفْيٌ قاطعٌ، وإنكارٌ بل تسفيهٌ لِكُلِّ مَنْ يجهلُ عَظَمَةَ الممدوحِ؛ لأنَّه في الكَرَمِ والشُّجاعةِ أَعْرَفُ من الشَّمْسِ اشتهاً (في نَظَرِ البَحْرِيِّ)، وقد استطاعَ هذا الاستفهامُ أن يُحَقِّقَ المبالغةَ في المدحِ، ولو أتى الشَّاعرُ بصيغِ الصُّورةِ التَّقْلِيدِيَّةِ (فلانٌ بحرٌ) و(فلانٌ أَسَدٌ) لَمَّا استطاعَ أن يرسمَ هذه الصُّورةَ التي أفادها الاستفهامُ ههنا.

ومن توظيفِ أبي تَمَّامَ للاستفهامِ في تخيلِ صُورةِ الشُّجاعِ قولُه: [البسيط]

أَعْيَا عَلِيٍّ - وَمَا أَعْيَا بِمُشْكِلَةٍ - بِسَنَدَبَايَا، وَيَوْمُ السَّرْوَعِ تُحْتَشِدُ
مَنْ كَانَ أَنْكَأَ حَدًّا فِي كَتَائِبِهِمْ أَنْتَ أَمْ سَيْفُكَ الْمَاضِي أَمْ الْأَحَدُ؟^(٣)

(١) انظر: ديوان أبي تَمَّام ٢ / ١٣٠.

(٢) انظر: ديوان البحرِيّ ١ / ١٥.

(٣) انظر: ديوان أبي تَمَّام ٢ / ١٦-١٧.

إنَّ الشَّاعِرَ قد أَعْيَاهُ أَمْرٌ وَأَشْكَلَ عَلَيْهِ - وهو لَيْسَ مِمَّنْ تُشْكَلُ عَلَيْهِ مُشْكِلةٌ - فَرَاخَ يَسْأَلُ مُتَعَجِّبًا:
مَنْ الَّذِي هَزَمَ الْأَعْدَاءَ وَقَرَّحَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ؛ بِأُسِّ أَبِي سَعِيدٍ؟ أَمْ سَيْفُهُ؟ أَمْ نَحْسُ يَوْمِ الْأَحَدِ؟ وَقَدْ
كَانَ الْمَنْجَمُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ «أَوَّلَ سَاعَةٍ مِنَ الْأَحَدِ مَنْحُوسَةٌ»^(١).

ما هذا السُّؤَالُ المُوْهِمُ؟ فَقَدْ أَرَادَ الشَّاعِرُ أَنْ يَصْنَعَ التَّشْبِيهَ الْبَلِيغَ الْمَقْلُوبَ مِنْ خِلَالِ السُّؤَالِ بَهِيئَةٍ
الْمُتَرَدِّدَةِ...؛ إِنَّهُ سَوَّالُ الْعَارِفِ الْخَبِيرِ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يُوْهِمَكَ أَنَّ سَبَبَ الْإِنْتِصَارِ قَدْ التَّبَسَّ عَلَيْهِ لِشِدَّةِ
الشَّبَهِ بَيْنَ مَدْوَجِهِ وَالسَّيْفِ؛ حَتَّى حَارَ فِي أَمْرِهِ وَأَطْلَقَ هَذَا السُّؤَالَ. وَأَمَّا (الْأَحَدُ) فَلَكَ أَنْ تَفْهَمَهُ
بِمَعْنَيْنِ: الْأَوَّلُ أَنَّهُ يَقُولُ لَهُ: أَنَا حَائِزٌ مَنِ الَّذِي حَقَّقَ النَّصْرَ أَنْتَ أَمْ سَيْفُكَ أَمْ يَوْمُ النَّحْسِ عَلَى
الْكُفَّارِ؟ أَوْ أَنَّهُ أَطْلَقَهُ عَلَى سَبِيلِ السُّخْرِيَةِ مِنَ الْمَنْجَمِينَ الَّذِي يُثَبِّطُونَ الْعِزَائِمَ بِأَقَاوِيلِهِمْ - وَلَيْسَ يَوْمُ
عَمُورِيَّةٍ مَنَّا بَعِيدٍ - فَهُوَ يُعَرِّضُ بِالْمَنْجَمِينَ بَدَهَاءَ لَا نَظِيرَ لَهُ، وَيَمْدَحُ الْقَائِدَ بِأَنَّهُ انْتَصَرَ بِرَغْمِ كُلِّ
الْمَزَاعِمِ الَّتِي حَاوَلَتْ إِخَافَتَهُ وَتَثْيِيطَ عَزِيمَتِهِ، وَلَكِنْ أَجْمَلَ مَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ هُوَ الْإِعْتِرَاضُ (وَمَا أَعْيَا
بِمُشْكِلةٍ): [البسيط]

أَعْيَا عَلَيَّ - وَمَا أَعْيَا بِمُشْكِلةٍ - بِسَنَدَبَايَا، وَيَوْمُ الرُّوْعِ مُحْتَشِدٌ
مَنْ كَانَ أَنْكَأَ حَدًّا فِي كِتَابِهِمْ أَنْتَ أَمْ سَيْفُكَ الْمَاضِي أَمْ الْأَحَدُ

فهذه الجملة الاعتراضية غرضها المبالغة في التشبيه؛ وكأنه يقول لك: أنا لم يُشْكَلْ عَلَيَّ أَمْرٌ قَطُّ، إِلَّا
أَنْ شِدَّةَ شَبَهِكَ بِالسَّيْفِ فَتَكَأَ وَحِدَّةَ وَقُوَّةَ أَدْخَلَنِي فِي الشَّكِّ مَنْ هُوَ مُقَرَّحُ الْفِرْسَانِ أَنْتَ أَمْ السَّيْفُ؟.

ومن استفهام البُحْثَرِيِّ الَّذِي يُسْهِمُ فِي تَشْكِيلِ الصُّورَةِ قَوْلُهُ يَهْجُو أَحَدَهُمْ: [الوافر]

وَهَلْ يَشْفَى السَّبَابُ مِنْ ابْنِ لُؤْمٍ دَنِيءٌ لَيْسَ يُؤْلِمُهُ السَّبَابُ؟! ^(٢)

يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ لَنَا: إِنَّ كُلَّ التَّشْبِيهَاتِ وَالصُّوَرِ وَالْكِنَايَاتِ الَّتِي تَصِفُ الْمَرْءَ بِالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ
وَالْوَضَاعَةِ تَضِيقُ عَنْ تَوْصِيفِ دَنَاءَةِ هَذَا الْمَهْجُورِ وَضَعَتِهِ وَخِسَّتِهِ، إِنَّهُ سَوَّالٌ بِغَرَضٍ تَقْرِيرِ النَّفْيِ؛

(١) انظر: ديوان أبي تمام ١٧/٢.

(٢) انظر: ديوان البُحْثَرِيِّ ٥٣/١.

ليشعرُ كُلُّ متلقٍّ عندما يُجيبُ على هذا السؤالِ بالصُّورةِ القبيحةِ لهذا المهجُوِّ، ومثلُ ذلك تَرى
البحرَتيَّ يرسمُ لمهجُوِّه صُورةً تهكُّميَّةً مُضحِكةً لشخصٍ أضاعَ مجدَّ أجداده وآبائه، وأهلكَ ما تركُوهُ
من مالٍ على اللُّهو واللَّعب؛ بقوله: [المتقارب]

فَلِمَ لَا تُعَدُّ مِنَ الْأَجَوْدِ — نَ، وَمَلِكُ خُرَاسَانَ مِمَّا تَهَبُ؟^(١)

وكأنَّه يقولُ له: أنتَ أبخلُ البُخلاء، أذاك مالٌ كثيرٌ فلم تَهَبِ الفقراءَ منه شيئاً. ولكن أتى هذا
القصدُ على هيئة الاستفهامِ التَّهكُّميِّ الذي عكسَ الكلامَ؛ ليُظهرَ المفارقةَ بينَ حالِ المهجُوِّ، وما ينبغي
أن يكونَ عليه، ثُمَّ إِنَّ البحرَتيَّ باستفهامِهِ هذا يلوِّمُ النَّاسَ؛ لأنَّهم لا يَعُدُّونَ المهجُوَّ في الكُرماءِ
الأجواد، ولا يلوِّمُ المهجُوَّ على بُخلِهِ، وهذا أدعى إلى الإضحاحِ، وفيه رسالةٌ خفيَّةٌ: كُنْ جواداً حتَّى
يُقَالَ عنكَ: جواد، وأمَّا إذا بقيتَ على بُخلِكَ وشُحِّكَ فلن نستطيعَ إجبارَ النَّاسِ على وصفِكَ بالجواد
والكريم، إِنَّ الاستفهامَ رَسَمَ لنا صُورةً مُحْزِيةً لهذا المهجُوِّ.

ومن الصُّورِ المشرقةِ التي رَسَمَهَا البحرَتيُّ بالاستفهامِ قوله في شُجاع: [الطَّويل]

تَسْرَعُ حَتَّى قَالَ مَنْ شَهِدَ الْوَفَى: لِقَاءُ أَعَادٍ أَمْ لِقَاءُ حَبَائِبٍ؟^(٢)

استفهامٌ تعجُّبي استطاعَ أن يرسمَ صُورةَ الفارسِ الشُّجاعِ الذي يحملُ على الأعداءِ عندَ لقائِهِم
بسرعةٍ، وكأنَّه مُشتاقٌ إلى لقائِهِم هذا اشتياقاً، وهذه صُورةٌ تدلُّ على قوَّتِهِ وجَسَارَتِهِ وشُجاعَتِهِ
وبطوليَّتِهِ.

ومن استفهامِ أبي تمامِ الذي أسهمَ في تشكيلِ صُورةٍ مُشرقةٍ للكرمِ والشُّجاعةِ في بني النَّجَّارِ، ثُمَّ
شكَّلَ بالاستفهامِ أيضاً صُورةً قبيحةً للمهجُوِّ الجَبَّانِ قوله، وهو يرُدُّ على شاعرٍ يدعى عُتْبَةَ كَانَ هجا
بني عبد الكريم الطَّائيين: [المنسرح]

أَيُّ كَرِيمٍ يَرْضَى بِشَتْمِ بَنِي — عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَحَاجِجِ النَّجُوبِ؟

(١) انظر: ديوان البحرَتيَّ ١ / ٢١١.

(٢) انظر: ديوان البحرَتيَّ ١ / ١٧٨.

أَيُّ مُنَادٍ إِلَى النَّدَى وَإِلَى الْهَيْبِ — جَاءَ نَادَاهُمْ فَلَمْ يُجِبْ؟

أَيُّ وَلِيٍّ رَأَى سَيُوفَهُمْ فِي الْحَرْبِ مَشْهُورَةٌ فَلَمْ يَشِبْ؟^(١)

الاستفهام ههنا رَسَمَ للمتلقّي ثلاثَ صورٍ:

- صورةُ بني النَّجَّارِ أربابِ الشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ.

- وصورةُ مَنْ يَلْقَى بني النَّجَّارِ فِي سَاحَةِ الْوَعْيِ.

- وصورةُ الشَّاعِرِ الَّذِي تَجَرَّأَ عَلَى بني النَّجَّارِ الطَّائِفِينَ.

الصُّورَةُ الْأُولَى هِيَ صُورَةُ بني النَّجَّارِ، أَوْلَئِكَ (الْجَحَاجِحُ النَّجْبِ)؛ فَالشَّاعِرُ يَفْتَتِحُ الْكَلَامَ عَلَى مَآثِرِهِمْ بِاسْتِفْهَامٍ غَرَضُهُ النَّفْيُ:

أَيُّ مُنَادٍ إِلَى النَّدَى وَإِلَى الْهَيْبِ — جَاءَ نَادَاهُمْ فَلَمْ يُجِبْ

أَيُّ لَمْ يُنَادِ مُنَادٍ لِلْكَرَمِ وَالنَّدَى إِلَّا كَانُوا أَطْوَلَ الْأَقْوَامِ ذُرَاعًا فِي السَّخَاءِ وَالْعَطَاءِ وَالْجُودِ، وَلَمْ يُنَادِ بِالْجِهَادِ وَبِالْحَمِيَّةِ إِلَّا كَانُوا أَشْجَعَ الْأَعْرَابِ بِأَسَاءَ وَمَقْدَرَةً وَعُفْوَانًا، إِنَّهَا صُورَةٌ مُشْرِقَةٌ تَسْتَمِيلُ قَلْبَ الْمُتَلَقِّي إِلَى بني النَّجَّارِ وَتُنْفِرُهُ مِّنْ هِجَاهِهِمْ.

وَأَمَّا صُورَةُ مَنْ يَلْقَى بني النَّجَّارِ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ فَلَا تَسْلُ! فَهَؤُلَاءِ قَوْمٌ يَدْبُونِ الرَّعْبَ فِي أَفْئِدَةِ النََّاظِرِينَ يَوْمَ الْحَرْبِ حَتَّى يَشِيبَ الطُّفْلُ مِنْ فَرْعِهِ، وَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ أَبُو تَمَّامٍ بِقَوْلِهِ:

أَيُّ وَلِيٍّ رَأَى سَيُوفَهُمْ فِي الْحَرْبِ مَشْهُورَةٌ فَلَمْ يَشِبْ؟

فهذا أيضاً استفهامٌ غَرَضُهُ التَّقْرِيرُ وَتَأْكِيدُ النَّفْيِ، مَعَ اسْتِعْرَاقِ هَذَا النَّفْيِ لِكُلِّ امْرئٍ يُقَدَّرُ لَهُ رُؤْيُهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الصَّنَادِيدِ. وَلَكِنْ أَبَا تَمَّامٍ غَالِي فِي هَذِهِ الصُّورَةِ، فَهَلْ يَشِيبُ الْوَلِيدُ؟ وَهُوَ هَهُنَا يُذَكِّرُنَا بِآيَةِ كَرِيمَةٍ تَصِفُ هَوْلَ الْقِيَامَةِ: ﴿فَكَيْفَ تَنْفُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، فَكَأَنَّ أَبَا تَمَّامٍ اسْتَعَارَ هَذِهِ الصُّورَةَ الدَّالَّةَ عَلَى الْهَوْلِ وَالرُّعْبِ وَالرَّهْبَةِ لِيُسَبِّغَهَا عَلَى شِعْرِهِ، فَيَعَوِّضَ بِبني النَّجَّارِ

(١) انظر: ديوان أبي تمام ٣٠٦/٤.

ما لحقهم من الإهانة من هجاء ذاك الشاعر، وليصنع من مدحه المبالغ فيه مُقابلاً لِمَا وُصفُوا به من هجاء، فهذا الهجاء إن تبعه مدحٌ مُبالغ فيه من شاعرٍ كأبي تمام نُسِخَ ذلك الهجاء بهذا المدح الذي استقصى شرف المعنى وغايته، ولم يدعْ فرصةً لِمَن يزيدُ عليه في الحُسْنِ والوصف.

وأما الصورةُ الثالثةُ والأخيرةُ فهي صورةُ الشاعرِ عُبَّةَ الذي تجرأ على بني النَجَّارِ الطَّائِينِ، فقد أزرى به الطَّائِيُّ أَيْمًا إزراء، وسَفَّهَ عَقْلَهُ، وفَضَحَ كَذِبَهُ؛ بقوله:

أَيُّ كَرِيمٍ يَرْضَى بِشَنَمِ بَنِي عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَحَاجِ النَّجْبِ

فهذا الاستفهامُ خارجٌ إلى النَّفْيِ القاطعِ، مع غرضِ التَّعْرِيزِ بِعُتْبَةٍ، فكأنَّه يقولُ: إِنَّ كُلَّ امْرِئٍ فِيهِ ذَرَّةٌ مِنْ مَرُوءَةٍ وَشَهَامَةٍ وَكَرَامَةٍ إِنَّهُ لَا يَرْضَى بِأَنْ يُشْتَمَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الْأَخْيَارُ الْكَرَمَاءُ الشُّجْعَانُ، فكيفَ بَمَنْ يَشْتُمُهُمْ؟ إِنَّهَا صُورَةٌ رَائِعَةٌ مِنْ حَيْثُ جَاءَتْ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِفْهَامِ الَّذِي يُفْسِحُ لِلْمُتَلَقِّي أَنْ يُعْمَلَ ذِهْنُهُ فِي إِيجَادِ الْإِجَابَةِ...، فأبو تمام تَرَكَ السُّؤَالَ مَفْتُوحاً (أَيُّ كَرِيمٍ يَرْضَى...) لِيُقَرَّرَ كُلُّ مُتَلَقٍّ مِنْ ذَاتِهِ بِأَنَّ عُبَّةَ هَذَا عَارٍ عَنِ الشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ وَمُتَجَرِّدٌ مِنَ الْفَضِيلَةِ؛ لِذِمَّتِهِ هَؤُلَاءِ الْأَخْيَارِ.



المبحث الثاني

حِرْصُ الْبَحْتَرِيِّ عَلَى إِزَالَةِ الْإِيهَامِ

إِنَّ مُسْتَقْرِي شِعْرِ الْبَحْتَرِيِّ يَلْحَظُ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ مَيَّالاً إِلَى إِضْاحِ الْمَعَانِي وَكَشْفِهَا لِلْمَتَلَقِّي وَالْبُعْدِ
عَنِ الْغَمُوضِ وَاللَّبْسِ، وَكَأَنَّهُ يُبْرِئُ مَعَانِيهِ وَيَحْمِيهَا مِمَّا قَدْ يَعْلُقُ بِهَا مِنَ الْفَهْمِ الْخَاطِئِ أَوِ الْمَوْهَمِ الَّذِي
تَقَوَّدُ إِلَيْهِ بَعْضُ التَّرَاكيبِ، وَهَذَا مَعْلَمٌ بَارِزٌ لَا بُدَّ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَيْهِ؛ لِإِبْرَازِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْبَحْتَرِيِّ الَّذِي
يَحْرُصُ عَلَى إِزَالَةِ إِيهَامِ الْمَتَلَقِّي أحياناً، وَبَيْنَ أَبِي تَمَّامٍ الَّذِي كَانَ يَتَعَمَّلُ إِيهَامَ الْمَتَلَقِّي بِشَتَّى السُّبُلِ، وَهَذَا
لَا يَعْنِي أَنَّ الْبَحْتَرِيَّ كَانَ لَا يَقْصِدُ إِيهَامَ الْمَتَلَقِّي، بَلْ كَانَ إِيهَامُهُ الْمَقْصُودُ رَائِعاً، وَأَمَّا كَلَامُهُ الْآخَرُ
فَمُحْكَمٌ قَلَمًا يَدْخُلُهُ الظَّنُّ وَالْوَهْمُ، بِخِلَافِ أَبِي تَمَّامٍ الَّذِي طَالَمَا رَأَيْنَا عِنْدَهُ الْأَسَالِيبَ مُنْفَتِحَةً عَلَى أَكْثَرِ
مَنْ مَعْنَى؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَرِسُ. وَمَنْ جَمِيلِ إِيهَامِ الْبَحْتَرِيِّ قَوْلُهُ فِي مُعَلِّمٍ أَعْرَجَ: [الخفيف]

أَيْهَا الْأَعْرَجُ الْمُحَجَّبُ مَهْلًا	لَيْسَ هَذَا مِنْ فِعْلٍ مَنْ يَتَمَرَّى
مَا رَأَيْنَا مُعَلِّمًا قَطُّ مَحْجُورًا	بَاءً، وَلَوْ أَنَّه عَلَى مُلْكٍ كِسْرَى
قَدْ رَأَيْنَا عَصَاكَ صَفْرَاءَ مَلْسَا	ءَ، مِنْ النَّبْعِ بَيْنَ صُغْرَى وَكُبْرَى
جَمَعْتَ خُلَّتَيْنِ: حُسْنًا وَلَيْنًا	لَكَ فِيهَا - ظَنِّي - مَارَبٌ أُخْرَى ^(١)

أَتَيْتُ بِهَذَا الشُّعْرِ لِأَقُولَ لَكَ: إِنَّ الْبَحْتَرِيَّ يُجِيدُ الْإِيهَامَ وَالتَّلَاعُبَ بِفَنُونِ الْقَوْلِ وَجَعَلَهُ مَجَالاً
لِلتَّأْوِيلِ مَتَى أَرَادَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ إِنْ لَمْ يُرِدْ إِيهَامَ الْمَتَلَقِّي جَاءَتْ عِبَارَتُهُ مُحْكَمَةً، يَحْرُصُ فِيهَا عَلَى إِزَالَةِ
الْإِيهَامِ بِأَسَالِيبَ شَتَّى كَالْحَذْفِ وَالْاعْتِرَاضِ...، وَإِنَّكَ وَاجِدٌ فِي دِيْوَانِ الْبَحْتَرِيِّ مَوَاضِعَ كَثِيرَةً مِنْ
هَذَا الْحِرْصِ الَّذِي قَدْ تُضْنِي نَفْسَكَ فِي الْبَحْثِ عَنْهُ عِنْدَ أَبِي تَمَّامٍ.

فَمَنْ إِزَالَةِ الْإِيهَامِ عِنْدَ الْبَحْتَرِيِّ قَوْلُهُ وَهُوَ يَذْكُرُ مُحَامَاةَ الْمَدُوحِ عَلَيْهِ، وَصِيَانَتَهُ لَهُ، وَدَفْعَهُ نَوَائِبَ
الزَّمَانِ عَنْهُ: [الطَّوِيل]

(١) انظر: ديوان البحتري ١/ ٦٨.

وَكَمْ دُذَّتْ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ وَسُورَةَ أَيَّامٍ حَزَزْنَ إِلَى الْعَظَمِ^(١)

ففي هذا البيتِ حَذْفٌ للمفعول؛ لأنَّ الأصلَ أن يُقالَ: (حَزَزْنَ اللَّحْمَ إِلَى الْعَظَمِ)، وحذفُ
البحرِيِّ هذا له أثرٌ في إزالة الإيهام؛ لأنَّه لو قالَ: (وَسُورَةَ أَيَّامٍ حَزَزْنَ اللَّحْمَ) لجازَ أن يقع السَّامِعُ
قبل سماعِ (إلى العَظَمِ) في وَهْمٍ أنَّ الحَزَّ كانَ في بعضِ اللَّحْمِ دونَ كُلِّه، وأنَّه قطعَ ما يلي الجِلْدَ، ولم يَتَّهِ
إلى ما يلي العَظَمَ، وقد تنبَّه عبدُ القاهرِ (ت ٤٧٤هـ) بنفاذِ بصيرته إلى أثرِ هذا الحذفِ في إزالة الإيهام؛
إذ قالَ: «تَرَكَ ذِكْرَ اللَّحْمِ، وأسقطَه من اللَّفْظِ لِيُزَيَّرَ السَّامِعُ من هذا الوَهْمِ، ويجعلَه بحيثُ...
يتصوَّرُ في نفسه من أوَّلِ الأمرِ أنَّ الحَزَّ مضى في اللَّحْمِ حتَّى لم يردَّه إلَّا العَظَمُ»^(٢).

وكذا ترى إزالة الإيهام في صوَرِ البحرِيِّ، ففي قولِه: [البسيط]

تَرَجَّحَ الشَّرْبُ وَاغْتَالَتْ حُلُومُهُمْ شَمْسٌ تَرَجَّلُ فِيهِمْ ثُمَّ تَرْتَحِلُ^(٣)

ذِكْرُ الشَّمْسِ يُوهِمُ أَنَّهَا شَمْسُ السَّمَاءِ، ولكنَّ مجيئَ البحرِيِّ بقرائنِ الشَّرْبِ، واغتيالِ الحُلُومِ،
والارتحالِ أزال ما كانَ مُرَشَّحاً من الإيهام، وأعلَمْنَا أنَّه إنَّما أرادَ القَيْنَةَ، وقد تنبَّه لذلك أيضاً عبدُ
القاهر؛ إذ قالَ: «ولو قالَ: تَرَجَّلَتْ شَمْسٌ، ولم يَذْكُرْ شيئاً غيرَه من أحوالِ الآدميِّين، لم يُعَقَّلَ قَطُّ أنَّه
أرادَ امرأةً، إلَّا بإخبارٍ مُسْتَأْنَفٍ، أو شاهدٍ آخَرَ من الشُّواهد»^(٤). وهذه أمثلةٌ على حِرْصِ البحرِيِّ
على إزالة الوهم. وأمَّا أساليبه في إزالة إيهام المتلقِّي فجديرةٌ بالبحثِ المستَقِلِّ؛ لتنوُّعِ مسالكها؛ غيرَ أنَّنا
ههنا سنمسكُ بدقيقةٍ من دقائقِ شعرِه يتوسَّلُ بها إلى إزالة الإيهام، وهي الجملةُ الاعتراضيةُ، فإنَّ
ديوانه حافلٌ بالاعتراضِ الاحترازيِّ الذي يشعرُ المتلقِّي أنَّه مأتىُّ به فقط لإزالة الإيهام، ومن ذلك
قوله مادحاً: [الكامل]

وَقَطَعْتَنِي بِالْجُودِ، حَتَّى إِنَّنِي مُتَخَوِّفٌ أَلَّا يَكُونَ لِقَاءُ

(١) انظر: ديوان البحرِيِّ ٣/ ٢٠١٨، ودلائل الإعجاز ص ١٧١.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص ١٧٢.

(٣) انظر: ديوان البحرِيِّ ٣/ ١٧٢٤.

(٤) انظر: أسرار البلاغة ص ٣٢٠.

صِلَّةٌ عَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ قَطِيعَةٌ عَجَبًا، وَبِرَّ رَاحَ وَهُوَ جَفَاءُ!
لِيُؤَاصِلَنَّكَ رَكْبُ شِعْرِ سَائِرٍ يَرْوِيهِ فِيكَ لِحْسِنُهُ الْأَعْدَاءُ
حَتَّى يَتِمَّ لَكَ الثَّنَاءُ مَحْلَدًا أَبْدَأَ كَمَا تَمَّتْ لِي النِّعَاءُ
فَتَظَلُّ تَحْسُدُكَ الْمُلُوكُ الصَّيْدُ بِي وَأَظَلُّ يَحْسُدُنِي بِكَ الشُّعْرَاءُ^(١)

فالشاعر قد أخرجلته عطايا الممدوح ومكرماته حتى خشي أن يأتي يوم يمنعه فيه حياؤه من مقابلة الممدوح الذي لا يفتأ يجود بالعطايا ويُنعم، فرأى أن يكافئ جميل الممدوح ومعروفه بالثناء والشعر الخالد الذي ترويه الناس طراً حتى الأعداء، ولكنه تنبه إلى أن الكلام هكذا قد يفهم على وجه الذم؛ فيكون المعنى حينئذ: أعدك بأن أنظم فيك شعر ذم يرويه أعداؤك؛ لما فيه من شفاء صدورهم وشماتتهم بك، فاحترز ببيان لماذا سيرويه الأعداء (يرويه فيك لِحْسِنُهُ الْأَعْدَاءُ)؛ أي: سأقول في مدحك شعراً يسخر عقول المتلقين ويستأثر بقلوبهم، ولقرط جمال هذا الشعر وتأثيره لن يجد شائوك غضاضة في إنشاده؛ لأنه قد ملك قلوبهم، وأسكرهم بروعته. وجمالية المعنى ههنا أن البحري يفخر بشعره، وأن هذا الشعر لروعته سيرغم الأعداء على الإقرار بفضل الممدوح؛ لأن جمال هذه المدائح يدعو كل من يسمعها إلى حفظها والتهجج بها من صديق وعدو، فيضطر العدو إلى أن يلهج بتلك المدائح المقولة في ممدوح البحري، وفي هذا مبالغة؛ لأن العدو لا يروي مدائح عدوه، وفيه افتنان؛ إذ تنقل في غرضين شعريين متباينين؛ الأول ظاهر وهو المدح، والثاني يخفى وهو الفخر بالشعرية، وفيه الاحتراز من الإيهام الذي أشرنا إليه، وقد سبق إلى هذا المعنى أبو تمام؛ بقوله: [الطويل]

فإن أنا لم يحمدك عنِّي صاغراً عدوك؛ فاعلم أنني غير حامد^(٢)

فقد كنى عن جودة شعره وبلوغه الغاية في المدح بحفظ الأعداء له مكرهين؛ إذ بهرتهم بلاغته وسحرهم جماله، فحفظهم له - وهم لا يحبون الثناء به على الممدوح - يستلزم بلوغه في البلاغة والحسن أبعد الغايات، وأنت ترى أن احتراز البحري عصم الوعد أن يستحيل وعيداً.

(١) انظر: ديوان البحري ١ / ٢١-٢٢.

(٢) انظر: ديوان أبي تمام ص ٧٧ / ٢.

ومن احترازِ البحريّ وإزالته الوهمَ قوله يصفُ فعلَ النوائب: [الطويل]

كَأَنَّ اللَّيَالِيَّ أُغْرِيتُ حَادِثَاتُهَا بِحُبِّ الَّذِي نَأْبَى وَكُرْهِ الَّذِي نَهْوَى
وَمَنْ يَعْرِفِ الْإِيَّامَ لَا يَسِرَّ خَفْضُهَا نَعِيماً، وَلَا يَعِدُّ تَصَرُّفَهَا بَلْوَى
لَقَدْ أَرَشَدْتَنَا النَّائِبَاتُ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُرْشِدْ - لَوْلَا مَا أَرْتَنَاهُ - مَنْ يَغْوَى^(١)

فلو قال: (ولم يكن ليُرشد مَنْ يَغْوَى) لفهم أنه يريد أن الغوي لا سبيل إلى رُشده وإرشاده وهدايته البتّة، ولكن لما اعترض بقوله: (لولا ما أرتناه) فهم أنه إنّما أراد التنبيه على أثر النوائب في تنبيه الغافلين، وظاهر لك أثر قوله (لولا ما أرتناه) في عصمة المتلقّي من الفهم المغلوط فيه الذي كان مرشحاً لأن يتسرّب إلى أفهام المتلقّين.

ومن الاحتراز الذي يمنع المعنى من التّأرجح بين المدح والذّمّ قوله: [الكامل]

دَانٍ عَلَى أَيْدِي الْعُفَاةِ، وَشَاسِعٌ عَنْ كُلِّ نِدٍّ - فِي الْعُلَا - وَضَرِيبٌ^(٢)

فلو قال: (شاسِعٌ عَنْ كُلِّ نِدٍّ وَضَرِيبٌ)؛ لجاز أن يفهم البيت - معزولاً عن سياقه - على جهة الذّمّ والمدح معاً، فيكون من الإبهام، كما في قول ابن الرومي: [السريع]

لَيْسَ بِهِ عَيْبٌ سِوَى أَنَّهُ لَا تَقَعُ الْعَيْنُ عَلَى مِثْلِهِ^(٣)

فلك أن تفهمه ذمّاً خالصاً؛ بأنّه امرؤ لا نظير له في كثرة المعاييب والمثالب، ولك أيضاً أن تفهمه مدحاً بأنّه ليس له كفء ولا نظير في عظمة شأنه. والبحريّ لما قال: (في العُلا) نصب في الكلام قرينة ترجّح معنى المدح؛ حتّى لا يلتبس الأمر على المتلقّي. وجودة هذا وحسنه في أن المديح إن كان محتملاً للضدين كان قبيحاً، وأمّا الذي يهجو ويسخر فإنّه يضطرّ إلى إبهام كلامه وإيهام سامعه؛ ليسهل عليه التبرؤ من سُخريته وقت شاء، ومثل هذا تراه في بعض كافوريات أبي الطيّب المتنبي التي

(١) انظر: ديوان البحريّ ١/ ٥٤ - ٥٥.

(٢) انظر: ديوان البحريّ ١/ ٢٤٩.

(٣) انظر: ديوان ابن الرومي ٦/ ٢٦١٧.

تُفْهَمُ عَلَى الْمَدْحِ وَالذَّمِّ مَعًا؛ وَلِأَجْلِ التَّخْلُصِ مِنْ هَذَا الْإِيهَامِ الَّذِي قَدْ يُعَكِّرُ صَفْوَ الْمَدِيحِ؛ احْتَرَزَ الْبَحْتَرِيُّ عَنِ الْإِيهَامِ بِقَوْلِهِ: (فِي الْعُلَا).

وَمِنْ احْتِرَازِهِ عَنِ الْإِيهَامِ الَّذِي يَذْهَبُ بِبَرِيقِ الْمَعْنَى وَبِهَائِهِ قَوْلُهُ فِي الْغَزْلِ، وَقَدْ أَجَادَ: [الطَّوِيل]

فَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالذَّلَالِ الْمُخَالِبِ!	فَإِنْ كَانَ هَذَا الصَّرْمُ مِنْكُمْ تَدْلُلًا
بِقَوْلِ عَدُوٍّ، فَاسْأَلِي ثُمَّ عَاقِبِي!	وَأَنْ كُنْتَ قَدْ بُلَّغْتَ - يَا عَلَوَ - بَاطِلًا
تُصَوِّرُ فِي عَيْنِي بِسُودِ الْعَقَارِبِ	كَأَنَّ جَمِيعَ الْأَرْضِ - حَتَّى أَرَاكُمْ -
لَكُنْتُ كَذِي فَرَخٍ عَلَى الْفَرَخِ غَائِبٌ ^(١)	وَلَوْ زُرْتُكُمْ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً

فَلَوْ أَنَّ الْبَحْتَرِيَّ فِي الْبَيْتِ الثَّلَاثِ لَمْ يَعْتَرِضْ بِقَوْلِهِ: (حَتَّى أَرَاكُمْ)؛ لَفُهِمَ أَنَّ التَّشَاوُثَ صِفَةً مُلَازِمَةٌ لِلشَّاعِرِ، وَسَجِيَّةٌ فِي طَبِيعِهِ لَا تَنْفَكُ عَنْهُ أَبَدًا، وَلِذَلِكَ جَمَالَ الْمَعْنَى الْغَزَلِيَّةَ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ لَهَا: إِنَّ بَيْنَكَ عَنِّي وَصَرْمِي لِي أَحَالَ الدُّنْيَا سُودَاءَ فِي عَيْنِي، وَإِنَّ الْحَيَاةَ لَا مَعْنَى لَهَا فِي بَعَادِكَ، وَهَذَا يُذَكِّرُنَا بِقَوْلِ ابْنِ زَيْدُونَ: [الْبَسِيط]

حَالَتْ لِيُعْدِكُمْ أَيَّامُنَا، فَغَدَتْ سُودًا، وَكَانَتْ بِكُمْ يَضَاءً لِيَالِينَا^(٢)

وَشَبِيهٌ بِهَذَا الْإِعْتِرَاضِ الَّذِي يَرْفَعُ اللَّبْسَ وَيُزِيلُ الْوَهْمَ قَوْلُهُ مُتَغَزِّلًا: [الْخَفِيف]

وَسَوَاءٌ حُضُورُهُ وَالْمَغِيبُ	كَدْتُ أَقْضِي إِذْ غَابَ عَنِّي الْحَيَبُ
مَضَضَ الْحُبِّ، قَالَ: أَنْتَ كَذُوبُ	كُنْتُ إِنْ جِئْتَهُ؛ لِأَشْكُو إِلَيْهِ
بَيْنَهُمْ - حِينَ لَا أَرَاكَ - غَرِيبُ	أَنَا فِي أُسْرَتِي وَأَهْلِي كَأَنِّي
دَعَاهُمَا مِنَ الْبُكَاءِ شَوْوُوبُ	مِنْ قُرُوحِ نَبْتِنَ فِي كَيْدِ جَا
مَا لِأُنْثَى - بِسَوَالِكٍ - عِنْدِي نَصِيبُ! ^(٣)	فَأَهْنِي أَوْ أَكْرَمِي، فَلَعَمْرِي

(١) انظر: ديوان البحتري ١/ ٣١٠-٣١١.

(٢) انظر: الحماسة المغربية ٢/ ١٠٤٧.

(٣) انظر: ديوان البحتري ١/ ٣١٨.

فلو قال البحرّي في البيت الثالث: (أنا في أُسْرَتِي وأهلي كأني بينهم غريب) لفهم من الكلام أنّ الشاعِرَ على خلافٍ مع أهله، لذلك فهو يشعرُ بالغرِبة عندما يجلسُ بينهم؛ لأنّهم لا يعيرونه اهتماماً وعطفاً، ولكنّ لما اعترض بقوله: (حين لا أراك) قيّد شعوره بالغرِبة بعدم رؤية الحبيبة، وذكر الأهل للمبالغة؛ لأنّ أهل المرء هم الذين يؤنسونه وحشته ويُنسونه أحزانه، ولكنّ غياب المحبوب يجعل الشاعِرَ غافلاً عن وجود أهله، وهذا يُذكرنا بقول أبي فراس الحمداني: [الطويل]

وحاربتُ قومي في هواك، وإيّهم وإيأي - لولا حُبكِ - الماء والحُمُر^(١)

ولا يخفى ما لكلمة (سواك) في البيت الأخير من تقييدٍ للمعنى منعه من الانتقال من الغزل والثناء إلى الكراهية والاستغناء.

وشبيهٌ بذلك قولُ البحرّي: [الطويل]

علتُ (هاشم) من بعد ذلك كُلّه سنامَ العُلا فوفَ الدُرى والغوارِبِ
لهم ذلٌّ صعبُ المجد، يعلونَ ظهره ويأبى - سواهم - أن يذلَّ لراكِب^(٢)

ومن الاعتراض للاحتراز عن الإيهام ما تراه في قوله: [البيط]

أسقى ديارك - والسُّقيا تَقُلُّ لها - إغزارُ كُلِّ مُلثٍّ الودقِ ثَجَّاجِ
يُلقي على الأرضِ من حلٍّ ومن حُلٍّ ما يُمتِعُ العينَ من حُسْنٍ وإِهْجاج^(٣)

فإنّه لما دعا لديارها بالسُّقيا والرحمة تنبّه إلى أنّ في الكلام إيهاماً؛ لأنّ المطرَ الكثير الدائم يجلبُ الضّرّ لا النفع، فاحتراز عن هذا الإيهام بقوله: (والسُّقيا تَقُلُّ لها) فقد طلب الغيث على قدر الحاجة؛ لأنّ الفاضل ضارٌّ بالأرضِ وأهلها. وأنّه لو لم يَقُلْ: (والسُّقيا تَقُلُّ لها) لعُيِبَ عليه هذا الشعرُ. وكأنّ البحرّي أفاد هذا الاعتراض الاحترازي من قول طرفة بن العبد: [الكامل]

(١) انظر: الحماسة المغربية ٢/ ١٠١٧.

(٢) انظر: ديوان البحرّي ١/ ٣٣٦.

(٣) انظر: ديوان البحرّي ١/ ٤١١. الملث: المطر الذي يدوم أياماً. الودق: المطر. الثَجَّاج: السيل الشديد الانصباب. (شرح المفردات من الديوان)

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوَّبُ الْغَامِ وَدِيمَةُ تَهْمِي^(١)

ومن الاحتراز عن الإيهام بخلاف المقصود قوله مادحاً: [البيط]

إِمَّا تَوَجَّهْتَ نَحْوَ الشَّرْقِ مُعْتَسِفاً بِالْيَعْمَلَاتِ حُزُونَ اللَّيْلِ وَالْيَدِ

فَقَدْ تَرَكْتَ «بِقَسْرَيْنِ» أَفْئِدَةً مَجْرُوحَةً، وَعَيُوناً ذَاتَ تَسْهِيدِ

أَوَّلِيَّتَهُمْ حُسْنَ آلَاءٍ، فَكُلُّهُمْ فِي حَالِ مُسْتَعْبِدٍ بِالطَّوْلِ مَكْدُودِ

وَإِنْ صُرِفَتْ - وَلَمْ تُصَرَفْ لِبَائِقَةٍ - عَنْ الْحَرَجِ؛ فَلَمْ تُصَرَفْ عَنِ الْجُودِ^(٢)

فإنه يريد أن يقول للممدوح: لو صُرِفَتْ من عملك في الحراج، إنك لم تُصَرَفْ من قلوب أحبائك الذين أسديت إليه معروفك وإحسانك، لكنه تنبّه إلى أن غير المطلع على قرائن الحال قد يظن أن الممدوح صُرِفَ عن عمله؛ لسوء أمانة أو لفعل شائن، فسارع بإزالة هذا الإيهام باعتراض رائع (ولم تُصَرَفْ لبائقة)، وأظن أن مثل هذا الاعتراض يحمي الشعر من سهام النقاد الذين سيعترضون بشدة على مدح مختلط بمعاني الهجاء، فلو قال البحرني لممدوحه: (وإن صُرِفَتْ عن الحراج؛ فلم تُصَرَفْ عن الجود) لكان هذا مدحاً له بالجود، وفيه أيضاً مسربٌ للوهم أو الظن بأنه كان يجود من أموال سرقها من مال الحراج، وهذا قبيحٌ في المدح، جميلٌ في الهجاء.

وَمَدَحَ أَبَا جَعْفَرِ بْنِ حُمَيْدٍ الطَّائِيَّ يَسْتَوْهَبُهُ غُلَاماً، وَخَتَمَ مَدَحَتَهُ بِقَوْلِهِ: [الخفيف]

وعزیز - إِلَّا لَدَيْكَ - بِهَذَا - فَخَّ أَخَذَ الْغُلَامَ بِالْأَشْعَارِ^(٣)

ولو قال البحرني: (وعزیز بهذا الفخ أخذ الغلام بالأشعار) لتوهم أن شعر البحرني لرداءته يصعبُ عليه أن يهز ندى الممدوح ليهبه الغلام، ولكن لما تنبّه البحرني إلى ذلك أزال الإيهام باعتراض (إلا لديك) ليثبت فرط سخاء الممدوح وكرمه، وأنه استثناء عن كل الأجواد، فإنه يجود

(١) انظر: ديوان طرفة ص ٧٣، والصناعتين ص ٣٩٠، ومعاهد التنصيص ١/ ٣٦٢.

(٢) انظر: ديوان البحرني ١/ ٥٥٨. اليعملات: النوق النجبية المعتملة المطبوعة. قنسرین (نونها المشددة تكسر وتفتح) مدينة بين حلب ومعرّة النعمان، الطول: الفضل والعطاء. البائقة: الداهية والشر.

(٣) انظر: ديوان البحرني ٢/ ٩٩٠.

بالمليح النَّفِيسَ لأَوَّلِ مُجْتَدٍ يَطْلُبُهُ، ولو كَانَ غَيْرُهُ سَمِعَ دِيواناً مِنَ الشَّعْرِ يَسْتَجِدِيهِ شَيْئاً ما جَادَ بِهِ، وفي هذا أيضاً إشارةً مِنَ الْبَحْتَرِيِّ إِلَى أَنَّ أَشْعَارَهُ يُزْهَدُ فِيهَا إِذَا قِيسَتْ بِسَخَاءِ الْمَدُوحِ وَعِطَائِهِ.

وَمِنْ إِزَالَتِهِ الْإِيهَامَ بِالْإِعْتِرَاضِ قَوْلُهُ: [الكامل]

وَلَيْسَ الْعُرْسُ فِي نَفْسِي بِأَحْلَى - مَعَ الْعُرْسِ الْفَرُوكِ - مِنَ الطَّلَاقِ^(١)

الْعُرْسُ الزَّفَافُ، وَالْعُرْسُ حَلِيلَةُ الرَّجُلِ، وَالْفَرُوكُ هِيَ الْمَرْأَةُ الْمُبْغِضَةُ لَزَوْجِهَا، وَبِقَوْلِ الْبَحْتَرِيِّ: (وَلَيْسَ الْعُرْسُ فِي نَفْسِي بِأَحْلَى مِنَ الطَّلَاقِ) لَتَوْهَمُنَا أَنَّهُ يَكْرَهُ الزَّوْاجَ وَالنِّسَاءَ عَامَّةً، وَيَرْغَبُ فِي الْعَيْشِ وَحِيداً دُونَ امْرَأَةٍ، وَلَكِنْ لَمَّا تَنَبَّهَ الْبَحْتَرِيُّ إِلَى هَذَا؛ احْتَرَزَ بِإِعْتِرَاضٍ؛ فَقَالَ:

وَلَيْسَ الْعُرْسُ فِي نَفْسِي بِأَحْلَى - مَعَ الْعُرْسِ الْفَرُوكِ - مِنَ الطَّلَاقِ

فَهُوَ لَا يَكْرَهُ الْعَيْشَ مَعَ الْمَرْأَةِ عَامَّةً، بَلْ يُفَضِّلُ الطَّلَاقَ عَلَى الْعَيْشِ مَعَ امْرَأَةٍ مُبْغِضَةٍ لَهُ.

وَفِي الْخِتَامِ أَقُولُ: إِنَّ الْإِيهَامَ أَقْرَبُ إِلَى الطَّبْعِ مِنَ الصَّنْعَةِ، بَلْ إِنَّ بَعْضَ أَسَالِيبِ الْإِيهَامِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِصَنْعَةٍ مُتَقَنَةٍ؛ كَالْمَوَارِبَةِ وَالتَّعْرِيزِ... وَهَذَا مَا رَأَيْنَاهُ عِنْدَ أَبِي تَمَّامٍ مِنْ إِيهَامِ الْجِنَاسِ وَالتَّلْمِيحِ وَالتَّوْرِيَةِ وَالِاسْتِعَارَاتِ... وَأَمَّا الْبَحْتَرِيُّ فَإِنَّهُ صَاحِبُ صَنْعَةٍ خَفِيَّةٍ - وَإِنْ ظَنَنَّا الْبَعْضَ مَطْبُوعاً - لِذَا فَإِنَّهُ أَفَادَ مِنْ أَسَالِيبِ الْإِيهَامِ فِي شِعْرِهِ، وَلَا سِيَّماً فِي الْبَدِيعِ فَفَاقَ بِذَلِكَ أَبَا تَمَّامٍ جُودَةً وَرَوْنَقاً، وَإِنْ لَمْ يُدَانِيهِ كَمّاً. وَقَدْ حَرَّصَ الْبَحْتَرِيُّ - كَمَا رَأَيْتَ - عَلَى إِحْكَامِ عِبَارَاتِهِ وَتَجَنُّبِهَا مَا يُوهِمُ خِلَافَ الْمَقْصُودِ أَوْ يُفْسِدُهُ، وَلَمْ نَرِ ذَلِكَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ عِنْدَ أَبِي تَمَّامٍ.



(١) انظر: ديوان البحتري ١٥٢٧/٣.

خاتمة

الإيهام قضية لغوية جامعة مُعَيَّنة في أثناء مباحث البلاغة العربية، ما خصَّها الأسلاف بدراسة مُستقلة، وإنَّما كانت جهودهم فيها مُشتتة في حقول معرفية مُختلفة؛ وكذا المُحدثون لم يُفرد أحد منهم دراسة مُستقلة تعكس تصوُّراً شاملاً لمفهوم الإيهام البلاغي.

فأتت هذه الدراسة تقدِّم ملامح نظرية بلاغية نقدية نحتكم إليها في نقد النص الأدبي وتأويله، تتذوَّق جماليَّة إيهام المتلقِّي في النص الأدبي، وتبيِّن بواعثه، وسبله، ووظائفه، ومستوياته، وجماليَّاته، وطرائق إزالته.

وإن كان من فضيلة لهذا البحث فهي في أمرين:

أولها: أنه يوجِّه القراء نحو التدبُّر الأمثل لمعاني القرآن الكريم، وخاصة المُشكِـل منها والمُبْهَم.

ثانيها: أنه أعاد قراءة البلاغة العربية من زاوية إيهام المتلقِّي وبيَّن أثره الجمالي في إثراء الدلالة، وجعل النص مُنفِتاحاً على آفاق رحبة من التأويل، وفضاءات من إبداع التلقِّي.

ويُلخِّص إنجاز البحث بأنَّه استقرى النظرية البلاغية القديمة، فاكشف قضية بلاغية لا تزال بكراً، فأضاف إلى مصنَّفات البلاغة مصطلحاً جديداً هو (الإيهام البلاغي)، واستنبط بعد هذا الاستقراء والتحليل أساساً نظرياً صالحاً للتطبيق على كثير من النصوص الأدبية؛ شعراً ونثراً. وليس هذا البحث دراسة تطبيقية على شعر أبي تمام والبحري، إنما هو أساس نظري أظنه مفيداً ولازماً في تحليل النصوص، وقد اختير على شعر الطائيين تمثيلاً لا حصراً.

وقد تناول التأسيس النظري للمفهوم الجديد مُصطلح الإيهام البلاغي، وجذوره في علم البلاغة، وفي حقول معرفية أخرى، وقسَّم الإيهام إلى مستويات بحسب قوِّته الإيهامية، كما وقف عند سُبُل تخلُّقه الصوتية والكتابتية، والصرفية، والنحوية، واللغوية، والبلاغية.

وتوقفت عند وظائف الإيهام البلاغي: المعنوية؛ كمرعاة التهذيب الاجتماعي، والتهرب من
المواقف المحرجة، والتعمية على المخاطب أو السامع، والمُحاججة والإقناع والسخرية.
والفنية؛ كإثراء الدلالة، وإظهار كمال البراعة، والمبالغة، وإيقاظ المتلقي ولفت انتباهه، وتمكين
المعنى في نفسه.

واعتمد ضوابط **تَعَصُّمِ** المتلقي من الوهم في الفهم والتأويل؛ من القرائن اللفظية والعقلية
والحالية، والسياق، وغير ذلك من الفنون البلاغية التي تُزيل الإيهام.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن الإيهام نوعان: إيهامٌ بليغٌ، وآخرٌ خارجٌ عن نطاق البلاغة يحطُّ من قدر
الكلام وصاحبه؛ أما البليغُ فلنُكتةٍ بلاغيةٍ يُؤدِّيها، وأمَّا المذمومُ فكمالُ البلاغة أن يتصبَّبَ في الكلام
قرينةً تُزيلُه. وللإيهام البليغ من جهة القصد نوعان: الأوَّل بقصدٍ من المتكلِّم، والآخر مُتولِّدٌ من
طبيعة بناء التَّركيب.

ولهذا البحث توصيات كثيرةٌ مبثوثة في أثنائه.

والحمدُ لله ربِّ العالمين...

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية.....	٥٦٩-٥٤٨
فهرس الشعر.....	٥٩٤-٥٧٠
فهرس المصادر والمراجع.....	٦١٣-٥٩٥
فهرس الموضوعات.....	٦١٧-٦١٤

فهرس الآيات القرآنية الكريمة^(١)

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾	٢	٢٩٥
﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٢	٢٩٥
﴿آمِدْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	٦	٣٨٩
سورة البقرة		
﴿الْعَمَّ﴾	١	٧٧
﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٥-٦	٢٩٥
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾	٨-٩	٣٠٧
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتِ بِخَدَرْتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾	١٦	١٧٨
﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعٌ وَرَقٌ﴾	١٧-١٩	٣٤٢
﴿فَأَنذَرْتُهُمْ مِثْلَ هَٰذَا مِن مِّثْلِهِ﴾	٢٣	٣٨٤
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾	٢٦	٢٩٨
﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾	٢٧	٢٨١
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ءَمَوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾	٢٨	٤١٠

(١) هذا الفهرس قَصُرَ على الآيات التي فيها موضع إيهام، وقد تخفَّف من بعض الآيات التي وردت في البحث، وليس فيها مورد للإيهام.

الآية	رقمها	الصفحة
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ... وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	٢٩	٢١٦
﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ	٣٢-٣٠	٣٩٢
﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾	٤٥-٤٠	٣٢٥-٨٠-٧٩
﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ... وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾	٤١	٣٦٤ -٢١٣-٤٨-٣٥
﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾	٤٢	٣٦٥-١٩
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾	٤٣	٣٨١
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	٤٤	٤٢٦
﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾	٤٨	٣٤٢
﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾	٥٨	١٥٨
﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾	٥٩	١٥٨
﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾	٦٠	٣٥٠
﴿وَيَا أُولَ الَّذِينَ إِحْسَانًا﴾	٨٣	٣٨١
﴿فَتَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	٩٤	٣٩٢
﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ...﴾	٩٦-٩٥	٣٩٣
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾	١١١	٢٢٠
﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾		٣٨١
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾	١١٣	٢٢٠
﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾	١١٥	٢٤٥
﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَحَابِبِ الْجَحِيمِ﴾	١١٩	٣٧٢

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَإِذْ أُنْزِلَتْ إِبْرَاهِيمَ رَيْثُهُ، يَكَلِّمَتْ... وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾	١٢٤- ١٣٠	٤١٢
﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾	١٣٢	٣٧٨-٣٧٧
﴿فَمَنْ حَاجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾	١٥٨	٣١٠-٣٠٩
﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾	١٦٥	٣٤٨
﴿وَأَقْبَىٰ الْمَالِ عَلَىٰ حِيهِ ذَوَى الْقُرْبِ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّائِلِينَ﴾	١٧٧	٣٢٣
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾	١٨٣	٣٣٧-٢٣٦
﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾	١٨٥	١٣٦
﴿بَشُرُوهُمْ﴾	١٨٧	٢٥٢
﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِذَا نَسِيتُمْ﴾		٤٠٠-٢٥٨
﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾		٣٩٤
﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾	١٩٣	١٨٠
﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾	١٩٤	٥٠٠-١٨٠
﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ...﴾	١٩٦	٣٥٠
﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾	٢١١	٤٢٢
﴿وَيَسْعَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾	٢١٢	٣٠٧
﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾	٢١٤	٤٢٠-٢٢٠
﴿وَلَا تَقْرُبُوهُمْ حَتَّى تَطْهُرَ﴾	٢٢٢	-٥٠-٤٩-٣٥
﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَنْتَا حَرْثُكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾	٢٢٣	-٢٨٦-٢٥٢-٢٥٠ ٣٩٩-٣٩٨

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْصِدْنَ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾	٢٢٨	٦٩-٣٦ ٨٠
﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْتِدُوا﴾	٢٣١	٢٨٠
﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾	٢٣٣	٣٧٩-٣٥
﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾	٢٣٥	٢٦٦-٢٥٣ ٤٠٠
﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾	٢٣٧	٢٥٢
﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾	٢٤٧	٣٩٨
﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	٢٤٩	٢١
﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾	٢٥٥	٢٣٣ ٤٢٣-٤٠٧
﴿قَبِضَتْ الَّتِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾	٢٥٨	٣٠٥ ٣٢٧
﴿أَنْ يَجِيءَ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾	٢٥٩	٣٩٨
﴿لَا يَسْتَلُوبُ النَّاسُ إِحْقَاقًا﴾	٢٧٣	٢١٢
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا... وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾	٢٧٨- ٢٧٩	٣٦٨-٢١١-٢٢
﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾	٢٨١	٣٤٢
﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾	٢٨٢	٣٧٩-٣٤ ٧٨
﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾	٢٨٣	٣٧٧

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾	٢٨٦	٣٠٩
سورة آل عمران		
﴿وَمَا يَسْأَلُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾	٧	٣٠٣-٢٨١-٣١
﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾	١٣	٣٥٥
﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾	٢١	٢١٢
﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	٢٩-٢٨	٢١٦
﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا لِبِ هَذَا قَالَتْ هُم مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾	٣٧	٣٩٨
﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾	٥٤	١٨١
﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾	٩٧	٣٩٥
﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِلِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾	١٠٢	٣٨٧-٣٧٧
﴿وَإِنْ يَفْتَرُوا لَكُمْ بُيُوتًا لِّدَابَّارِئِهِمْ لَا يُنصَرُونَ﴾	١١١	١٦٢
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾	١٣٠	-٢١١-٣٥-٢١ ٣٦٧
﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾	١٣٥	٤٠٧
﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾	١٦٠	٣٢٦
﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	١٦٨	٣٩٠
﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا﴾	١٧٥	٣٣٩
﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾	١٨٥	٣٤١
﴿إِنَّمَا تُحِلُّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾	١٧٨	٣٢٠
﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾	١٨١	٣٠٠

الآية	رقمها	الصفحة
سورة النساء		
﴿وَأَنذَرْتُكُمْ آثَافَ الْمَوْلَاتِ... وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾	٢	٣٦٦
﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾	٨	٣٨٧
﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُؤْتِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشَّدُشُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ...﴾	١١	٢٩٦
﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾	٢١	٢٥٢-٤٠
﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾	٢٣	٢٥٢
﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾	٢٤	٢٥٢
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمْ تَمْسُكُمُ النِّسَاءُ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾	٤٣	١٣٦-٤٠-٢٦ ٢٥٣-٢٥٢-٢٤٩ ٤٠٠-٢٩٨-٢٥٤
﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	٧٥	٤٠٤
﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾	٧٨	٤٩٢
﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾	١٢٧	٣٥٤-٦٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾	١٣٦	٣٨٨-٣٧٦
﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾	١٣٨	١٠٦
﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾	١٤٢	١٨٢
﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾	١٧٤	٢٤٥
﴿وَقَالِهِمُ الْأَنبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾	١٥٥	٣٦٥

الآية	رقمها	الصفحة
سورة المائدة		
﴿عَبْرَ حُلِيِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾	١	٤٠١
﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾	٢	٣٩٤
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ..﴾	٦	٣٤٦
﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾	٨	٣٢٥-٢٧٩
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾	١٧	٣٠١
﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾	٢٦	٣٠٣-٢٧٩
﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾	٣٣	٢٨٥
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي...﴾	٥١	٢٩٨
﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾	٥٩	٩٤
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾	٦٤	٣٠٠
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ﴾	٧٣	٣٠٠-٢٥٦
﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُفُلَانِ الطَّلَعُ﴾	٧٥	٢٥٣-٢٥٥-٤٠٠ ٤١٠
﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾	٩١	٤٠٢

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيمَى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾	١١٦	١٨٢-٢٠٨-٤٢٥
﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	١١٨	٢١٥
سورة الأنعام		
﴿فَإِنْ أَسْطَغَتْ أَنْ تَبْنِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِثَاغِرٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾	٣٥	٣٧٦-٣٧٥-٣٧٦
﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾	٣٦	٢٩٨
﴿وَحَاجَّهُ فَوْمُهُ قَالَ أَتَمَحْجُوتُنِي فِي اللَّهِ﴾	٨٠	٣٢٨
﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾	١٠٣	٢١٥
﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾	١٢٤	١٧٧
سورة الأعراف		
﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾	٣١	٣٩٤
﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾	٤٠	٩٣
﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَسْقَمُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾	٥٣	٤١٣
﴿قَالُوا أَحِثِّثْنَا لِتَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾	٧٠	٣٩٣
﴿وَمَا نُنْفِمْ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِثَابِتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا﴾	١٢٦	٩٤
﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾	١٤٩	٢٦٠
﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾	١٥٦	١٦٢
﴿وَأُمِّلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾	١٨٣	٣٢٠-٣١٩

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا﴾	١٨٩	٢٥٢-٤٠
سورة التوبة		
﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾	٣	٣٦٢
﴿فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾	١٢	١٦٩
﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾	١٣	٤٠٥
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾	٣٠	٣٠١-٣٠٠-٢٥٦
﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ...﴾	٤٠	٣١٨
﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾	٥٣	٣٨٥
﴿لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾	٦٦	٣٧٣
﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	٧١	٢١٦
﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾	١٠٨	١٧٤-١٣
سورة يونس		
﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾	٦٥	٣٠٦
﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾	٧١	٣٤٩
﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾	٨٠	٣٩٠
﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾	٩٢	١٢٥
﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	١٠٥	٣٧٦
﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾	-١٠٢ ١٠٣	٤٢٨
سورة هود		
﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾	٥٧	٣٤٩

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَالَتْ يَوَاسِقَ إِلهٍ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾	٧٣-٧١	٤٢٢
﴿أَصْلَوْتُكَ فَأَمْرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾	٨٧	٤١٤-١٠٥
﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ﴾	١١٢	٣٨٧
﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾	١١٩	٣٩٧
سورة يوسف		
﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾	٩	٢٨١
﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنَرْكَبُ يُوسُفَ عِنْدَ مَتْنَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾	١٧	٢٩٣
﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدْرًا مِنْ دُخْرِ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾	٢٧	٣٠٢
﴿أَضَعْتُ أَخْلَمِي وَمَا تَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَمِ بِعِلْمِينَ﴾	٤٤	٣٥٢
﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ﴾	٤٥-٤٦	٣٥٢
﴿أَيَّتُهَا الْعِبرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾	٧٠	٢٧١
﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾	٧٢	١٩٧
﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾	٩٥	٧٩
سورة الرعد		
﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾	٢	٣٦٥
﴿أَوَ ذَا كُنَّا تَرْبًا لَكُمْ لَمْ يَخْلُقْ﴾	٥	٤٢٢
﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِثُ﴾	٣٨-٣٩	١٣٥
سورة إبراهيم		
﴿قُلْ تَسْمَعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾	٣٠	٣٨٢

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾	٤٢	٣٧٦
سورة الحج		
﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾	٥٥-٥٦	٤٠٧
سورة النحل		
﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾	٩	٣٣٩
﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِثْمِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾	٩٥	٣٦٤
﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾	٩٨-١٠٠	٣١٧
سورة الإسراء		
﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾	١٦	٣٤٦
﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أَمْرٌ وَلَا نَهْرُهُمَا﴾	٢٣	٣٦٧-٢١٣
﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾	٢٤	٤٩٩
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾	٣٢	٣٦٩
﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾	٤٤	٢١٧
سورة الكهف		
﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾	٢	٣٤٠
﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجْدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾	١٧	٢٩٨
﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾	٢٩	٣٨٦
﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾	١٠٦-١٨٣	
﴿فَاصْبِرْ يَقْلِبُ كَفَبِهِ عَلَى مَا أُنْفِقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾	٤٢	٢٦٠

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾	٧٩	٣٤٤-٦٩
سورة مريم		
﴿ كَهَيْعَصَ ﴾	١	٧٧
﴿ أَنْ يَكُونَ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾	٢٠	٢٥٢-٤٠
﴿ أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾	٣٨	٣٩٤
سورة طه		
﴿ وَمَا تِلْكَ يَسْمِينَا يَمُوسَى ﴾	١٧	٤٢٨-٢٠٦
﴿ وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾	٣٩	٢٤٦
﴿ أَنْ أَقْذِفَهُ فِي النَّارِ فَأَقْذِفُهُ فِي الْيَمِّ ﴾	٣٩	٣٢٢
﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ ٥٨ ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾	٥٩-٥٨	٧٩-٣٤
﴿ هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لِي لَا يَبْلَى ﴾	١٢٠	٤٠٨
سورة الأنبياء		
﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾	٢٦	٣٠٠
﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ﴾	٣٦	٤١٦
﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾	٣٧	٣٣٧
﴿ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾	٦١	٢٦٩
﴿ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلهِنَا يَتَّبِعُنَا بِهِمْ ﴾	٦٢	٤٢٦-٢٦٩
﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَظُنُّونَ ﴾	٦٣	٢٦٩-٢٤٧-٢٤٦-٤٣
﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾	-١٠٨ ١٠٩	٤٠٣

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الحج		
﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَبُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾	٢	٨٣
﴿ثَانِي عَظِيمٍ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾	٩-٨	٢٦٠
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلَّكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾	٦٥	٤١٣
سورة المؤمنون		
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾	١٣-١٢	١٣٦
﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ بِرِزْقٍ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾	١٠٠	٦٩
﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾	١١٧	٢١٢
سورة النور		
﴿وَالْخَمِيسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾	١٠-٧	٢١٦
﴿يَوْمَ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾	٢٥	١٦١
﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ نَحْصًا﴾ ﴿وَمَنْ يُكْرِهْنَهُ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	٣٣	٢٦٩-٢١١-١٦٤
﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	٣٥	٢٤٥
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾	٤٣	٤١٢
﴿يَكَادُ سَنَافِقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿١٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِقَوْمٍ الْأَبْصَرِ﴾	٤٤-٤٣	٤١٢-١١٩
سورة الفرقان		
﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾	٧	٤٠٩
﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾	٢٧	٢٦٠

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا﴾	٣٦-٣٥	٣٥٢
﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾	٤١	٤١٧
﴿فَسْتَلْ بِهِ خَيْرًا﴾	٥٩	١٦٨
سورة الشعراء		
﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾	١٩-١٨	٤٢٤
﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾	-١٠٠ ١٠١	٢١٠
سورة النمل		
﴿لَا يَحْطَمَنَّكَ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾	١٨	٣٧٤-١٦
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا آءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَمَا أَبَاؤُنَا أَيُّنَا لَمُخْرَجُونَ﴾	٦٧	٤٢٢
سورة القصص		
﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ آتِي ...﴾	٢٥	٣٠٢
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ ...﴾	٣٤-٣٣	٣٠٨
﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾	٤٦	٣٤٧
﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾	٨٨	٣٧٦
سورة العنكبوت		
﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾	٦٦	٣٨٣
سورة الروم		
﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾	٤-٢	٣٤٣-٣٤٢
﴿فَاقْمْ وُجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾	٣٠	٣٨٧
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾	٥٥	١١٩

الآية	رقمها	الصفحة
سورة لقمان		
﴿يَبْنَىٰ لَا شَرِكَ بِاللَّهِ إِن شَرَكْتَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	١٣	٣١١
﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾	١٨	٢٦١
سورة السجدة		
﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾	١٢	٣٤٨
سورة الأحزاب		
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾	٢١	١٦٨
﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾	٣٥	٣١٢
سورة سبأ		
﴿هَلْ نَدْكُمُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَتَّبِعُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلُّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾	٧	٢٠٥
﴿أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾	٨	٢٠٥
﴿وَلِنَا أَوْيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾	٢٤	٢٠٥-٤٣
سورة فاطر		
﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾	٤	٣٤٩
﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾	٤٥	٣٢٩
سورة يس		
﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ...﴾	٥٢	٣٠٥
﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيَدِنَا﴾	٧١	٢٤٦
سورة الصافات		
﴿طَلَعَهَا كَانَتْهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾	٦٥	٥٠٠

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَرَأَىٰ إِلَىٰ آيَاتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾	٩٢-٩١	٤١٥
﴿أَعْبُدُونِ مَا نَنسِئُونَ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾	٩٦-٩٥	٤١٦
﴿أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾	١٥٣	٤٢٦
سورة ص		
﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾	٤	٣٣٥
﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾	٥	٤١٠
﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾	٢٩	٢٨٩
﴿حَتَّىٰ تَوَارَّتَ بِالحِجَابِ﴾	٣٢	٣٢٨
﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾	٧٥	٢٤٥
سورة الزمر		
﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ تَخْلُصًا لَهُ الدِّينَ﴾	٢	٣٨٧
﴿بَنَحْشُرَكَ عَلَىٰ مَا فَرَطْتَ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾	٣٩	٢٤٥
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾	٧٣	٣٤٨
سورة غافر		
﴿حَم﴾	١	٧٧
﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ النَّالِقِ﴾	١٥	٣٤٠
﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾	٧-٦	٣٠٦
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾	٢٤	٣٣٥

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَحِمَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾	٢٨	١٥
﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي صَرَخًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴾	٣٦-٣٥	٣١٣
سورة فصلت		
﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخَالِدِ ﴾	٢٨	١٦٨
﴿ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾	٤٠	٣٨٢
سورة الشورى		
﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾	١١	١٧٨
﴿ وَجَزَاؤُا سَنِيَّةٍ سَنِيَّةٍ مِّثْلُهَا ﴾	٤٠	٥٠٠-١٨١
سورة الدخان		
﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾	٤٩	١٠٥-١٠٤
سورة محمد		
﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾	٢٢	٢٠٧
﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَقَاتِ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾	٢٤	٣٨٩
﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴾	٢٥	٣٢٠-٣١٩
سورة الفتح		
﴿ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾	٩	٣٢١
سورة ق		
﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾	٣٠	٣٩٧
سورة الطور		
﴿ فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾	١٦	٣٨٥

الآية	رقمها	الصفحة
سورة القمر		
﴿قَتَلَ عَنْهُمُ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ تُكْفِرُ﴾ ٦ ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾	٧-٦	٣٠٥
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾	١٧	٤٠٤
سورة الرحمن		
﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾	٥	٣٤٧
﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ٥ ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾	٦-٥	١٧٨-١٦٥-١٣
﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ ٦١ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾	٢٧-٢٦	٣٢٩-٢٩٤
﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾	٢٧	٢٤٦
﴿إِنْ أَسْطَقْتُمْ أَنْ تَقْدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْقُدُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا سُلْطَانٍ﴾	٣٣	٣٨٤
﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾	٤٦	٤٠٦
﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾	٦٠	٤٠٦
﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾	٧٢	١٩٦
سورة الواقعة		
﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ٧٧ ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ ٧٨ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾	٧٩	٣٧١-٣٢٦
﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ ٧٥ ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ٧٦ ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾	٧٧-٧٥	٣٥٨
سورة الحديد		
﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرُّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾	٨	٤٠٤
﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ﴾	١٠	٣٤٣

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾	١٦	٤٢٠
﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِزِينَةٌ وَقَفَاخُورٌ بَيْنَكُمْ... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾	٢٠	١٢٤
﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَاهَا﴾	٢٢	٣٢٤
سورة المجادلة		
﴿وَإِذَا جَاءَكَ حَبْرُكَ بِمَا لَمْ يَحْكَمْ بِهِ اللَّهُ﴾	٨	١٥٨-٤٢
﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلَبَ لَكَ﴾	٢١	٣٣٨
سورة الممتحنة		
﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ...﴾	١	٢٩٩
﴿وَأَعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	٥	٢١٦
سورة الصف		
﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَمٍ تُجِيزُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾	١٠	٤٠٧
سورة المنافقون		
﴿وَإِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾	١	٣٠٦-٢٨٧-١٦
﴿يَقُولُونَ لَيْن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾	٨	١٩٢
سورة التغابن		
﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	١٤	٣٩٥
﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾	١٥	١٢٩

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الطلاق		
﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾	٧	٣٨١
سورة التحريم		
﴿أَمْرَاتِ نُوحٍ وَأَمْرَاتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِّنْ عِبَادِنَا﴾	١٠	٣١٥-٦٧
سورة الملوك		
﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾	٩	٢٨٢
سورة القلم		
﴿تَ﴾	١	٧٧
﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾	٤٢	٢٤٦
سورة الحاقة		
﴿الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾	٣-١	٤٢٧
سورة المزمل		
﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾	١٧	٥٣٥-٤٩٣
سورة المدثر		
﴿وَبَابِكَ فَطِيرٌ﴾	٤	٨٤
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾	٢٧	٤٢٧
﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾	٤٨	٢١٠
سورة القيامة		
﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ١ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾	٢-١	٣٥٨-٣٥٧
سورة الإنسان		
﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشَكَّيْنًا وَبَيْمًا وَأَسِيرًا﴾	٨	٣٢٣-٢٥

الآية	رقمها	الصفحة
سورة المرسلات		
﴿أَلَمْ نُهِكِ الْأَوَّلِينَ﴾	١٦	٤٢٨
سورة النبأ		
﴿وَخَلَقْنَاكَ أَزْوَاجًا﴾	٨	٨٠
سورة عبس		
﴿قُلِ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرُهُ﴾	١٧	٢٨٣
﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ﴾	٣٥-٣٤	٨٣
سورة التكويد		
﴿فَإِن تَذَهَبُونَ﴾	٢٦	٤١١
سورة الانفطار		
﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾	٦	٤٠٦
سورة الطارق		
﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾	٦	٣٦١-١٢٦-٢٧
سورة الغاشية		
﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾	١	٤٢٦
سورة الفجر		
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾	٦	٤٢٨
﴿وَالشَّعْجِ وَالْوُتْرِ﴾	٣	٨
سورة البلد		
﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾	١	٣٥٧
سورة الضحى		
﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾	٨-٦	٤٢٣

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَأَمَّا نِيعَمَةُ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾	١١	٧٨
سورة الشرح		
﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾	١	٢٤٢
سورة العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾	٢-١	١٧٧
﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ... أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾	١٣-٩	٤٠٤
سورة القدر		
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾	٣-١	٤٢٧-١٧٧
سورة الماعون		
﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾	٢-١	٤٠٥
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾	٥-٤	٢٩٩
سورة الكوثر		
﴿إِن شَاءَ نَحْنُ دُونَكَ هَالِكُونَ﴾	٣	٧٩
سورة المسد		
﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي﴾	١	٢٩٧
﴿مَا أَخْفَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾	٢	٢٨٣

فهرس الشعر

الهمزة المضمومة			
٤١٧-٢٠١	الوافر	زُهَيْر بن أَبِي سُلمى	أَقْـوَمُ آلِ حِصْنٍ أَمْ نَسَاءُ
٢٠٦	الوافر	حَسَّان بن ثابت	فَشَرُّكُمْ كَلِّـيْـرُكُمْ أَلْفِـدَاءُ
٢٦٨-٢٦٧	الوافر	أُمَيَّة بن أَبِي الصَّلْت	حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ كَفَسَاهُ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ الثَّنَاءُ
٥٣٩-٥٣٨	الكامل	البُخْتَرِي	مُتَخَوِّفٌ أَلَا يَكُونُ لِقَاءُ عَجَبِيًّا، وَبِرُّ رَاحٍ وَهُوَ جَفَاءُ يُرْوِيهِ فِيكَ لِحُسْنِهِ الْأَعْدَاءُ أَبْدَأُ كَمَا تَمَّتْ لِي السَّنَاءُ وَأَظْلُ يُحْسِنُ لِي بِكَ الشُّعْرَاءُ
الهمزة المفتوحة			
١٥٠	الخفيف	مجهول	وَأَيَّ مَنْ أَضْمَرْتُ لِحِلٍّ وَفَاءُ
١٦٣	الخفيف	الأخطل	يَلْقَى فِيهِمَا جَاذِرًا وَظِيَاءُ
٥٣٢	الخفيف	البُخْتَرِي	سَهْلٌ ذُو النَّظَرَيْنِ هَذَا الضُّيَاءُ
٥٢٨	الخفيف	البُخْتَرِي	بَعْدَمَا رَا حَاتِ السَّدْيَارِ خَلَاءُ
الهمزة المكسورة			
٤٥٨-٤٥٤	الكامل	أبو تمام	كَتَلَعْتُ الْأَفْعَالَ بِالْأَسْمَاءِ قَدْ لَقَبُوها: جَوْهَرَ الْأَشْيَاءِ
٤٩٨	الكامل	أبو تمام	صَبَّبْتُ قَدْ اسْتَعَذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي
٨٨	الخفيف	مجهول	وَهُوَ فِي الشُّعْرِ أَفْقَهُ الشُّعْرَاءِ وَجَدُّهُ وَلَا إِلَى هُـوَ لَاءِ
الهمزة الساكنة			
٦٥-٤٧-٢٠	مجزوء	بَشَّار بن بُرْد	لَيْتَ عَيْنِيهِ سَـوَاءُ

أمـديح أم هـجـاء	الرمل		
الباء المضمومة			
أَسْأَلُكُمْ هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلُ الْحُبَّ	جميل بُيُنة	الطويل	٦٠-٤٦
إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ مَعْدُ بْنُ عَذْنَانَ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَاطْرُبُ	المتنبى	الطويل	٧٢-٧١
وَعَمْرُو، وَمَنْكُمْ هَاشِمٌ وَحَبِيبُ وَمَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ شَيْبُ	شاعر خارجي	الطويل	١٥٦
أَبُو أُمِّهِ حَيٍّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ	الفرزدق	الطويل	١٩٥
وَأَسِيْفَانِ لَيْسَ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ	بشار بن بُرد	الطويل	٢٤١
وَلَا لَعِبَاءَ مَنِّي، وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ	الكميت الأسدي	الطويل	٢٨٤
تَأَلَّى الْحَلِيَّ أَنْ ذَا الشَّيْبِ لَا يَضْبُو	البُخَيْرِي	الطويل	٥٢٧
وَيُورِهَا مِنْ ضِيَا خَدَيْهِ مُكْتَسَبُ	مجهول	البسيط	١٤٠
إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ	أبو تمام	البسيط	٤٩٦
وَجَادَ عَلَى مَسَارِحِكَ السَّحَابُ	مجهول	الوافر	٦٦
لِقَاءِ الْمَوْتِ عِنْدَهُمُ الْأَدْيَبُ وَلَسَوْ وَاقٍ بِهِ هُكْمُ «حَيَّيْبُ»	سراج الدين الوراق	الوافر	١٢٧
دَنِيءٌ لَيْسَ يُؤَلِّمُهُ السَّبَابُ	البُخَيْرِي	الوافر	٥٣٣
بِالْحُسْنِ تَمْلُحُ فِي الْقُلُوبِ وَتَعْدُبُ وَالشَّمْسُ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَغْرُبُ	البُخَيْرِي	الكامل	٤٥٥
وَسَوَاءٌ حُضُّورُهُ وَالْمَغِيبُ مَضَضَ الْحُبُّ، قَالَ: أَنْتَ كَذُوبُ بَيْنَهُمْ - حِينَ لَا أَرَاكَ - غَرِيبُ دَعَلِيهَا مِنَ الْبُكَاءِ شُؤْبُوبُ	البُخَيْرِي	الخفيف	٥٤١

			ما لأُنثى - سِواك - عندي نصيبٌ
٦٣	المتدارك	ابن سُوْدُون	بَقَرٌ مُّهُرٌ وَلَهَا ذَنْبٌ يَسِيدُ لِلنَّاسِ إِذَا حَلَبُوا وَالنَّاسُ إِذَا شُتِمُوا غَضِبُوا
الباء المفتوحة			
٥٢٦	الطَّويل	البُحْثَرِيُّ	وَأَمَّنْ خَوَّانَا؟ وَأُعْتَبُ مُذْنِباً
٤٩٣	الوافر	جرير	صَوَاعِقُ يَخْضَعُونَ لَهَا الرِّقَابَا
٣٩١	الوافر	جرير	فَلَا كَعْبَاءَ بَلْغَتَ وَلَا كِلَابَا
١٣٧	الوافر	مُعَوَّدُ الْحُكَمَاءِ	رَعَيْنَاهُ، وَإِنْ كَسَانُوا غَضَابَا
١٠٨	الوافر	جرير	أُتَحْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَهَا انْصَابَا
١١٥	الوافر	جرير	أُتَحْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَهَا انْصَابَا وَلَا سُقَيْتُ قَبِوْرُهُمُ السَّحَابَا عَلَى الْمِيزَانِ مَا وَزَنَتْ دُبَابَا فَإِنَّ الْحَرْبَ مُوقِدَةٌ شَهَابَا كَعَنْفَقَةِ الْفَرَزْدَقِ حِينَ شَابَا
الباء المكسورة			
٥٤٢	الطَّويل	البُحْثَرِيُّ	سَنَامَ الْعُلَا فَوْفَ الدُّرَى وَالْغَوَارِبِ وَيَأْبَى - سِوَاهُمْ - أَنْ يَذِلَّ لِرَاكِبِ
٥٤١	الطَّويل	البُحْثَرِيُّ	فَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالذَّلَالِ الْمُخَالِبِ بِقَوْلِ عَدُوٍّ، فَاسْأَلِي ثُمَّ عَاقِبِي تَصَوَّرُ فِي عَيْنِي بِسُودِ الْعَقَارِبِ لَكُنْتُ كَذِي فَرْخٍ عَلَى الْفَرْخِ غَائِبِ
٥٣٤	الطَّويل	البُحْثَرِيُّ	لِقَاءِ أَعْيَادٍ أَمْ لِقَاءِ حَبَائِبِ
٥٢٧	الطَّويل	البُحْثَرِيُّ	أَحَاوِلُ لُطْفَ الْوُدِّ عِنْدَ الْكَوَاعِبِ

٤٦٧	الطويل	أبو تمام	أرى الشَّمْلَ منهم ليسَ بالمتقاربِ هوأيّ بأبكارِ الطُّبَاءِ الكواغِبِ
٤٧٨-٢٣٠	الطويل	أبو تمام	تمهَّلْ في رَوْضِ المعاني العجائبِ من المجدِّ، فهَيَّ الآنَ غيرُ غرائبِ
٤٦٨-١٢٠	الطويل	أبو تمام	تصوِّلْ بأسَيفِ قواضي قواضي فقُلْ: عَدَّ عن ذَا، كيفَ أَكُلُكَ للضَّبِّ
٩٩	الطويل	أبو نُوَاس	إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَّاهَا فِي جَحْفَلٍ لِحَبِّ
٤٩٠	البيسط	أبو تمام	تَهْتَزُّ مِنْ قُضْبٍ تَهْتَزُّ فِي كُثْبٍ
٤٦٦	البيسط	أبو تمام	جلودهم قبل نُضُوجِ الثَّيْنِ وَالْعَنَبِ
٤٥١	البيسط	أبو تمام	فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ مُتَوْنِينَ جَلَاءَ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ، لَا فِي السَّابِغَةِ الشُّهْبِ صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ وَمِنْ كَذِبِ إِذَا بَدَا الْكُوكَبُ الْغَرِيبُ ذُو الدَّنَبِ
٤٥٢	البيسط	أبو تمام	بَطِيْئٍ عَاشِشٍ، وَلَا وَاللَّهِ لَمْ يَطِيبِ فَالْكَأْسُ فِي رَاحَةٍ، وَالْقَلْبُ فِي تَعَبِ
٢٢٣	البيسط	ابن حِجَّةَ الحُمَوِيُّ	مَضَغَ الْكَلَامِ وَلَا صَنَعَ الْحَوَاجِبِ أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيلَاتِ الْعِرَاقِيبِ كَأَوْجِهِ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَايِبِ وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ
٢١٤-٢١٣	البيسط	المتنبي	فِي الظَّاسِعَيْنِ، وَشَاهِدٌ وَمُعَيِّي صِدْقِي، وَلَمْ يَسْرُرْ عَلَيَّ تَكْذُوبِ مَا سَاءَ نِي، وَلِسْمُنْكَرٍ مُتَعَجِّبِ
٥٣٠	الكامل	البُخَيْرِيُّ	

			أَنْ لَسْتُ مُعْتَذِرًا، وَلَسْتُ بِمُذْنِبٍ حَالٍ... فَمَنْ ذَا بَعْدَهُ مُسْتَضْحِي
٥٢٨	الكامل	البُحْثَرِيُّ	أَسَفًا وَأَيُّ عَزِيمَةٍ لَمْ تُغْلَبِ
٤٥٠-١٣٨-٣٦	الكامل	البُحْثَرِيُّ	شَبُوهُ بَيْنَ جَوَانِحِ وَقُلُوبِ
-٢٤٢ ٥٤٠-٤٤٥	الكامل	البُحْثَرِيُّ	عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي الْوَرَى وَضَرْبِ لِلْعُضْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ
٢٨٤	الخفيف	مجهول	عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالْثَرَابِ
-٤٩٢ ٥٣٥-٥٣٤	المنسرح	أبو تمام	وَلَوْ صَعِدَتْ إِلَى السَّمَاءِ فِي سَبَبِ - وَيَلْسَكَ - مَنْ سَطَوْتِي وَمِنْ غَضَبِي عَبْدُ الْكَرِيمِ الْجَحَاجِحِ النَّجُوبِ جَاءَ نَسَادَاهُمْ فَلَمْ يُجِيبِ فِي الْحَرْبِ مَشْهُورَةٌ فَلَمْ يَشِبِ دَجَّالٍ فَالْحُظُّهُمْ وَلَا تَذُبِ
٦٢	مجزوء الرَّجَزِ	ابن المغربي البغدادي	أَنْسَاعِي بِنُ الْمَغْرِبِ عَسَاكِرِي تَسَاهَبِي فِي الْحَرْبِ لَا تَحْفُلُ بِي
٤٤١	المديد	أبو العتاهية	رَجِمَ اللَّهُ سَمْعِيدَ بْنَ وَهَبٍ يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي
الباء الساكنة			
٥٣٤	المتقارب	البُحْثَرِيُّ	نَ، وَمُلْكُ خُرَاسَانَ مِمَّا تَهَبُ
١٩٠	مجزوء الرَّجَزِ	مجهول	يَوْمًا، فَأَظْهَرَ الْعَجَبُ يُصْنَعُ لَا مِمِّنَ الدَّهَبِ
١٤٦	مجزوء الرَّجَزِ	كمال الدين الدَمِيرِيُّ	يَلْسُوهُ لِلنَّاسِ عَجَبُ وَالْعَيْنُ مِنْهُ فِي الدَّهَبِ

النَّاء المضمومة			
١٠١-١٠٠	الوافر	ابن الهبارية	عفيفاً منذ عامٍ ما شربْتُ قلتُ: على يد الإفلاسِ تُبْتُ
النَّاء المكسورة			
-١٠٩-١٠٨	الطويل	الطرمّاح	ولو سَلَكْتُ طُرُقَ المكارمِ ضَلَّتْ
٤٥٣	الطويل	عمرو بن معدي كرب	نَطَقْتُ، ولكنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتْ
٢٥٩	الكامل	المتنبّي	لَأَعِيفُ عَافِيًا فِي سَرَائِلِهَا
الجيم المضمومة			
١٥٦	المنسرح	طريح بن إسماعيل الثَّقَفِيّ	جُ عَلِيْهِه كَاهُضْبٍ يَعْتَلِجُ إِلَى طَرِيقِي سِوَاهُ مُنْعَرِجُ
الجيم المكسورة			
٢٢٢	الطويل	ابن رشيّق القيروانيّ	نُجُومَ الْعَوَالِي فِي سَمَاءِ عَجَاجِ
٥٤٢	البسيط	البُخَيْرِيّ	إِغْرَارَ كُلِّ مُلِثِ الْوَدْقِ ثَجَّاجِ مَا يَمْتَعُ الْعَيْنَ مِنْ حُسْنٍ وَإِهْجِاجِ
الحاء المضمومة			
٦٧	الطويل	مجهول	دَعِ الْكَلْبَ يَنْبَحْ؛ إِنَّمَا الْكَلْبُ نَابِحُ
٢٣٨	الكامل	مُحَمَّدُ بْنُ وَهَيْبٍ الْحِمَيْرِيّ	وَجْهَهُ الْخَلِيفَةُ حِينَ يُتَدَحُّ
الحاء المكسورة			
٢٠٣	البسيط	البُخَيْرِيّ	أَمْ ابْتَسَامَتُهَا بِالْمَنْظَرِ الضَّاحِي
٤٢٥	الوافر	جرير	وَأُنَادِي الْعَمَالَيْنِ بِطَوْنِ رَاحِ
الخاء المكسورة			
١٠١	الكامل	ابن حِجَّةَ الحُمَوِيّ	وَقَدْ انْقَطَعَتْ بِجِسْمِي الْمَسْلُوخِ لَكِنْ شَمَمْتُ رَوَائِحَ الْبَطْخِ

الدّال المضمومة			
٧٠	الطّويل	مجهول	وإن نَزَلْتُ يوماً ففسوفَ تعودُ فمنهم قيامٌ حولها وقعودُ
٤١٨-٢٠٤	الطّويل	مجهول	ومن أنتم حتّى يكونَ لكم عندُ
٥٠٧	الطّويل	البُحْثَرِيّ	أما لكم من هَجَرٍ أحبَّكم بُدُ وَشَيْكاً، ولم يُنَجِّزْ لنا منكم وعْدُ وإن لم يكنْ منه وصالٌ ولا وُدُ
٥٠٧	الطّويل	البُحْثَرِيّ	طَوْنُهُ المنايا... لا أروحُ ولا أغدو تسوءُ الأعادي لم يودّوا الذي ودّوا طويلُ النّجادِ، ما يُقِلُّ له حدُ
٥٠٩-٥٠٨-٢٤	الطّويل	البُحْثَرِيّ	حُشاشَةٌ نُصَلِّ ضَمِّ إفرندَه غمْدُ بعينِ ابنِ ليلٍ مالهُ بالكرى عهدُ ومتنّ كمتنّ القوسِ أغوجُ مُنْأَدُ فما فيه إلّا العَظْمُ والروحُ والجِلْدُ بيّداء لم تُخسَسْ بها عيشة رَغْدُ بصاحبه، والجَدُّ يُتَعَسُّهُ الجَدُّ فأقبلَ مثلَ البَرْقِ يتبعهُ الرّعدُ على كوكبٍ ينقُصُ، واللّيلُ مُسَوْدُ وأيقنْتُ أن الأمرَ منه هو الجِدُّ بحيثُ يكونُ اللُّبُّ والرُّعْبُ والحَقْدُ على ظمأٍ، لو أنّهُ عَذَبَ الوَرْدُ عليه، وللرّمضاءِ مِن تحته وَقْدُ وأقلعتُ عنه، وهو مُنْعِفَرٌ فَرْدُ
٥٢٦	الطّويل	البُحْثَرِيّ	ويأخذُ منها صَفَوْها القُعْدُ الوَغْدُ

١٨٦-٤٨	البسيط	ابن الرومي	لَقَدْ صَدَقْتُ، وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا
٥٣٢	البسيط	أبو تمام	سِنْدَبَايَا، وَيَوْمَ السَّرُّوعِ مُحْتَشِدُ أَنْتَ أُمِّ سَيْفِكَ الْمَاضِي أُمِّ الْأَحَدُ
١٦٤	الكامل	المتنبي	ذَهَبْتَ بِخُضْرَتِهِ الطُّلَى وَالْأَكْبَدُ
٣٣٨	الكامل	المتنبي	وَتَهَّـدَتْ، فَأَجَبْتُهَا: الْمُنْتَهَى
٤٧٠	الكامل	أبو تمام	لَمَّا تَرَرْتُمْ، وَالْغَصَّوْنَ تَمِيدُ فَدَعَتْ تَقَاسِمُهُ الْهَوَى وَتَصِيدُ
٩٧	السريع	مجهول	فَإِنَّمَا الْفَاضِلُ مَنْ يُحْسَدُ
الدَّالُّ الْمُفْتُوحَةُ			
٤٦١	الكامل	أبو تمام	وَالْحَرْبُ قَدْ جَاءَتْ يَوْمَ أُسُودَا
٥٢٧	السريع	البُخَيْرِيُّ	تَرَكْتُهَا، لَمْ أَجُلْ عَنْهَا الصَّادَا فِي الرَّأْسِ وَالْعَارِضِ مِنِّْي بَدَا عَلَى تَعْدِيهِ الْمَشْيِبُ اعْتَدَى بَقَاءُ نَفْسِي بَعْدَ قُرْبِ الْمَدَى
الدَّالُّ الْمَكْسُورَةُ			
٢٨٣-١٨٧-٣٢	الطويل	صدر الدين بن الوكيل	إِذَا قُلْتُ: أَدْنَانِي، يُضَاعِفُ تَبْعِيدي وَكَمْ قَالَهَا يَوْمًا، وَلَكِنْ لَتَهْدِيدِي
٢٣٨	الطويل	البُخَيْرِيُّ	تَبَسُّمُ عَيْسَى حِينَ يَلْفِظُ بِالْوَعْدِ
٢٣٨	الطويل	البُخَيْرِيُّ	دُمُوعُ التَّصَابِي فِي خُدُودِ الْحَرَائِدِ
٤٤١-٢٤٠	الطويل	أبو تمام	لِدِيَا جَتِيَّهِ فَاعْتَرَبَ تَتَجَدَّدُ إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ سَرْمَدُ
٤٧٩-٤٦٨	الطويل	أبو تمام	مِنَ الدَّمِ يَجْرِي فَوْقَ خَدِّ مَوْرَدِ إِلَى كُلِّ مَنْ لَاقَيْتُ وَإِنْ لَمْ تَوَدَّدِ
٥٣١	الطويل	أبو تمام	عِمَارَةُ رَحِيلِي مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدِ

			ذَوِي غِرَّةٍ حَامِيَهُمْ غَيْرُ شَاهِدٍ وَلَكِنِّي أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ خَالِدٍ
٥٣٩	الطَّوِيل	أَبُو تَمَّام	عَدُوُّكَ؛ فَأَعْلَمَ أَنَّنِي غَيْرُ حَامِدٍ
٥٤٣	البسيط	البُخْتَرِيُّ	بِالْيَعْمَلَاتِ حُزُونِ اللَّيْلِ وَالْيَدِ مَجْرُوحَةً، وَعَيُونَنَا ذَاتَ تَسْهِيدٍ فِي حَالِ مُسْتَعْبِدٍ بِالطَّوْلِ مَكْدُودٍ عَنِ الْخِرَاجِ؛ فَلَمْ تُصَرِّفْ عَنِ الْجُودِ
٧٤	البسيط	أَخْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدٍ وَدَّ	لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ الْأَبْدِ وَكَا أَنْ يُدْعَى قَدِيمًا بِيضَةُ الْبَلَدِ
٧٤	البسيط	الرَّاعِي النَّمِيرِيُّ	يَا ابْنَ الرِّقَاعِ، وَلَكِنْ لَسْتُ مِنْ أَحَدٍ وَابْنَانِ زَارٍ؛ فَأَنْتُمْ بِيضَةُ الْبَلَدِ
١٥٢-٢٨	البسيط	مجهول	يَشْقَى لِنَفْعِي، وَيَسْعَى سَعْيِي مُجْتَهِدٍ عَيْنِي عَلَيْهِ تَفَارَقْنَا إِلَى الْأَبْدِ
١٣٧	الوافر	مجهول	أَسْأَلُ عَنْكُمْ فِي كُلِّ نَادٍ وَيَرَعَاهُ مِنَ الْبَيْتِ دَا جَوَادِي
١٨٥	الوافر	ابن الرُّومِيَّ	فَكَأَنَّهُمَا، وَلَكِنْ لِلْأَعَادِي فَكَأَنَّهُمَا، وَلَكِنْ فِي فُؤَادِي لَقَدْ صَدَقُوا، وَلَكِنْ مِنْ وَدَادِي
١٨٦	الوافر	ابن أبي حجلة	وَمَا أَلْقَاهُ مِنْ أَلَمٍ الْبِعَادِ فَقُلْتُ: نَعَمْ، وَلَكِنْ فِي السَّوَادِ
٤٤٢	الوافر	أَبُو تَمَّام	يَلِيهَا سَائِقٌ عَجَلٌ وَحَادِي مُكْرَمَةٌ عَنِ الْمَعْنَى الْمُعَادِ
٤٦٠	الكامل	أَبُو تَمَّام	ظَلَمَ السُّتُورَ بِحُورِ عَيْنٍ نُهْدٍ وَشَيَ الْبُرُودَ بِمُسْجَفٍ وَمُهْدٍ

٤٧٩	الكامل	أبو تمام	طَوَيْتُ أَتَّاحَ لَهَا لِسَانَ حُسُودٍ مَا كَانَ يُعْرِفُ طَيْبُ عَرْفِ الْعُودِ
٤٨٦	الكامل	أبو تمام	مَا شِئْتُ إِلَيْهِ الْمَطْلَ مَشْيَ الْأَكْبَدِ وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرِ مِنَ الْأَسَدِ
٥٠٠	الكامل	النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِي	جَهَلْتُ بِأَنَّ نَسْدَاكَ بِالْمِرْصَادِ لَمَّا بَسْرَزْتُ لَهَا، وَأَنْتَ عِتَادِي
٥٣٢-٥٣١	الكامل	أبو تمام	جَهَلْتُ بِأَنَّ نَسْدَاكَ بِالْمِرْصَادِ لَمَّا بَسْرَزْتُ لَهَا، وَأَنْتَ عِتَادِي
١٩٣-١٩٢	الخفيف	ابن حَجَّاج	قَالَ: ثَقُلْتُ كَأَهْلِي بِالْأَيَادِي سَتْ، وَأَبْرَمْتُ، قَالَ: حَبْلٌ وَدَادِي
٣٨٦	الخفيف	المتنبي	بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَاءِ وَخَفَقِ الْبُؤْدِ
الذَّالُّ الْمُفْتُوحَةُ			
١٤٩-١٤٧-٣٣	السَّريع	مجهول	فَقَالَ: بِشَرِّ أَحْسَنُ هَذَا
الرَّاءُ الْمَضْمُومَةُ			
٦٢	الطَّويل	حسين بن شهاب الطَّيِّب	وَلَا مَاءَ يَبْقَى فِي الدَّنَانِ وَلَا تَحْمُرُ
١١٤	الطَّويل	أبو فراس الحمداني	فَقُلْتُ: هُمَا أَمْرَانِ، أَحْلَاهُمَا مُرُّ وَحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الْأَشْرُ فَقُلْتُ: أَمَّا وَاللَّهِ، مَا نَأَلَنِي خُسْرُ إِذَا مَا تَجَافَى عَنِّي الْأَشْرُ وَالضُّرُّ فَلَمْ يَمُتِ الْإِنْسَانُ مَا حَيَّيَ الذَّكْرُ كَمَا رَدَّهَا يَوْمًا بِسَوْعَتِهِ عَمُرُو عَلَيَّ ثِيَابٌ مِنْ دِمَائِهِمْ حُمُرُ وَأَعْقَابُ رُمَحٍ فِيهِمْ حُطَّامُ الصَّدْرُ
١٦٦	الطَّويل	أبو تمام	لَهَا اللَّيْلُ، إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُندُسٍ خُضْرُ
١٩٥	الطَّويل	كُثَيْر	إِلَيَّ، وَلَمْ تَعْلَمِ بِذَلِكَ الْقَصَائِرُ

			قِصَارَ الْخُطَا، شَرُّ النِّسَاءِ الْبَحَاتُ
٢٠٢	الطَّوِيل	مِهْيَارُ الدَّيْلَمِيِّ	وَهَلْ هُوَ شَوْقٌ بَيْنَ جَنْبَيْ أُمِّ جَمْرٍ دَمِي، أُمِّ دَمَوْعِ الْعَاشِقِينَ، أُمِّ الْقَطْرِ
٢٠٤	الطَّوِيل	مِهْيَارُ الدَّيْلَمِيِّ	أَمِنْ حَانَةِ أُمِّ مِرَاشِفِكِ الْخَمْرِ
٤١٧-٢٠٨	الطَّوِيل	أَبُو فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ	وَهَلْ بَفَقَى مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نُكْرُ قَتِيلُكَ، قَالَتْ: (أَيْهِمْ)، فَهُمْ كُنُورُ
٢٣٢	الطَّوِيل	الْمُتَنَبِّي	وَحِيداً، وَمَا قَوْلِي كَذَا، وَمَعِيَ الصَّبْرُ وَمَا تَبَيَّنْتُ إِلَّا وَفِي نَفْسِيهَا أَمْرُ تَقْوُلُ: أَمَاتَ الْمَوْتُ أُمِّ دُعْرِ الدُّعْرِ سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَثْرُ
٤١٣	الطَّوِيل	الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ	فَقُلْتُ، وَمِثْلِي بِالْبُكَاءِ جَدِيرُ لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوِيَتْ أَطِيرُ
٣٤٩	الطَّوِيل	مَجْهُول	وَعَيْنِيهِ إِنْ مَوْلَاهُ ثَابَ لَهُ وَفُرُ
٥٢٩	الطَّوِيل	أَبُو تَمَّامٍ	يَكُونُ لِأَثْوَابِ النَّدَى أَبْدَانُ شَرُّ فَفِي أَيِّ فَنَعٍ يُوجَدُ الْوَرَقُ النَّضْرُ لَعَهْدِي بِهِ مِمَّنْ يُحِبُّ لَهُ الدَّهْرُ يَاسِقَائِهَا قَبْرًا وَفِي لَحْدِهِ الْبَحْرُ
٥٤٢	الطَّوِيل	أَبُو فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ	وَأَيَّايَ - لَوْلَا حُبُّكَ - الْمَاءُ وَالْخَمْرُ
٤٥٢	الْبَسِيط	أَبُو تَمَّامٍ	فِي مَعْشَرٍ، وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصْرُ
١٤٦	الْوَافِر	يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ	وَتَسْبِقُ مَا يَطِيرُ، وَلَا تَطِيرُ وَتَجْزَعُ أَنْ يُبَاشِرَهَا الْحَرِيرُ
٤١٨	الْكَامِل	ابْنُ أَبِي عُيَيْنَةَ	أَطْنَبِينَ أَجْنَحَةَ الذُّبَابِ يَضِيرُ
٤٨٠	الْكَامِل	أَبُو تَمَّامٍ	تَسْرِيًا وَجُوءَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ زَهْرُ الرُّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمَرُ

١٥١	المنسرح	مجهول	وَهُنَّ فِي اللَّيْلِ أَنْجَمٌ زُهْرٌ
الرَّاءُ الْمَفْتُوحَةُ			
١٤٨-١٤٧	الطَّوِيلُ	مجهول	سَيَأْتِيكَ عَبْدُ اللَّهِ بِأَزِيدٍ فَاصْبِرَا
٢٦٢	الطَّوِيلُ	شاعر حماسي	كَأَنَّ بِهِ عَنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ وَقُرَا وَلَا مَانِعَ خَيْرًا، وَلَا قَائِلَ هُجْرًا
٤٧٤	الطَّوِيلُ	البُحْثَرِيُّ	وَمَنْ ذَا رَأَى الشُّعْرَى رَوَتْ لَا مَرِيَّ شِعْرَا وَلَكِنْ قَدْرِي يَرْكَبُ الشُّعْرَ وَالشُّعْرَى
٩٥	مخلع البسيط	مجهول	أَرَاهُ فِي الْحُمِّ سَقٍ لَا يُجْهَرُ
٢٢٢	الكامل	مجهول	وَالْجَوْ قَدْ لَبَسَ الْوُشَّاحَ الْأَغْبَرَا
الرَّاءُ الْمَكْسُورَةُ			
١١٠-٤٢	الطَّوِيلُ	علي بن الجهم	جَلَسْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَذْرِي وَلَا أَذْرِي
٢٠٤-١٤	البسيط	العرجي	لَسِيلَايَ مِنْكُنَّ أُمَ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ
٤٦	البسيط	بدوي الجبل	مِنْ خَمْرَةِ اللَّهِ لَا مِنْ خَمْرَةِ الْبَشَرِ
٤٢٣	الوافر	العرجي	لِيَوْمِ كَرِيمَةٍ وَسَدَادِ نَعْرِ
٢٠٢	الكامل	ابن هانئ المغربي	ضِيَالُ الْمَشْرِقِ وَالْعَدِيدِ الْأَكْبَرِ تَحْتَ السَّوَابِغِ تُبْعُ فِي حُمَيْرِ
٢٨٨	الكامل	القرزوقي	لَا يَغْدِرُونَ، وَلَا يَقْضُونَ لِحَارِ
٥٤٣	الخفيف	البُحْثَرِيُّ	فَخَّ أَخَذَ الْغُلَّامَانِ بِالْأَشْعَارِ
٤٤٢	السريع	أبو تمام	كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلَ لِلْآخِرِ
الرَّاءُ السَّاكِنَةُ			
٢٠٨	الرمل	عمر بن أبي ربيعة	دُونَ قَيْدِ الْمِيلِ يَعْدُو بِي الْأَغْرُ قَالَتِ الْوُسْطَى: نَعَمْ هَذَا عُمَرُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ

السِّنْ الْمَكْسُورَة			
٢٧-٧٣-٩٠- ٣٩٢	البسيط	الحُطَيْثَة	واقْعُدْ؛ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي
٤٥٠	الكامل	أبو تَمَّام	بِحُلِيِّهِ مِمَّنْ شِدَّةُ الوَسْوَاسِ
٤٨١	الخفيف	البُحْتَرِي	كَيْفَ، ارْتَعَتْ بَيْنَ رُومٍ وَفُرسِ وَأَنْ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرْفَسِ فَرَيَحْتَ أَلْ فِي صَبِيغَةِ وَرْسِ فِي خُفُوتٍ مِنْهُمْ وَإِغْماضِ جَرْسِ وَمُلِيحِ مِنَ السَّنَانِ بِثَرْسِ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ خُرسِ تَقَرَّاهُمْ يَدَايَ يَلْمَسِ
١٢٧	السريع	ابن العفيف	كحلاءِ والوَجْنَةِ والكاسِ كُلُّ ساقٍ قَلْبُهُ قاسِ
الضَّادُ الْمَفْتُوحَة			
١٨٣	الكامل	أبو الرَّقْعَمَق	فَأَتَى رَسُولُهُمْ إِلَى خُصُوصَا قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصَا
الضَّادُ الْمَفْتُوحَة			
١٩٣	المتقارب	الشَّهابُ مُحَمَّد	وفاضَتْ دُمُوعِي عَلَى الحَدِّ فَيُضَا فَقُلْتُ: صَدَقْتُ، وبِالْخَصْرِ أَيْضَا
الضَّادُ الْمَكْسُورَة			
٤٥٦	المنسرح	أبو تَمَّام	دِ، وصاغَ الأَنَامَ مِنْ عَرَضِهِ
العينُ الْمَضْمُومَة			
٣٩٣	الطويل	الفرزدق	إِذَا جَمَعْتَنَا، يَا جَرِيرُ، المَجَامِعَ

٤٧٥-٤٣٧	الطَّوِيل	البُخَيْرِيُّ	بأحقادها حتى تضيق دروعها عليها بأيدي ما تكاد تطيعها تذكرت القُربى ففاضت دموعها شواجر أرحام ملوم قطوعها
٤٦١	الطَّوِيل	أبو تمام	ولكنه في القلب أسود أسفع وإن خلت أن المُنْتأى عنك واسع
٤٩٢	الطَّوِيل	النَّابغة الذُّبْيَانِي	أبشُر بطول سلامة يا مَرَبْع
٣٩١	الكامل	جرير	
العين المفتوحة			
١٧٢	الطَّوِيل	الصَّمَّة القُشَيْرِي	مَزارك مِن رَبِّا، وشُعباكُمَا مَعَا وتَجَزَع أن داعي الصَّبابَةِ أَسَمَعَا على كبدي من خشية أن تصدعا وما أحسن المصطافَ والمتربعا
٨٢	البيسط	أبو مخزوم النُّهَشَلِي	نأسوا بأموالنا أثاراً أيدينا
٢٥٨-٨٢	الوافر	أبو زياد الأعرابي	ولكن كان أرحبهم ذراعاً
العين المكسورة			
١٧٥	مُحْلَع البيسط	زَيْن الدِّين بن الوردِي	وإصلاح أحوالي لديه لديه فَيَنْقُلُ تسليمي عليه عليه وبَغَضَ تحيبي إليه إليه
١٩٣-١٨٧	الكامل	ابن الدُّوَيْدَةِ المَعْرِي	ضاعَتْ، ولكن (منك) يَغْنِي، لَسَوْ تَعِي وقَعَتْ، ولكن منه أحسن موقع
الفاء المضمومة			
١٣٧	الطَّوِيل	مجهول	نَعَمْ، وله مِن كُلِّ غِيْدَاءٍ رَاشِفُ
١٤٣	الطَّوِيل	أبو الفَتْح البُسْتِي	وهذا لأنصاف الوزير خلافُ كأنِّي نونُ الجُمُع حين يُضَافُ

٢٠٤	الكامل	مجهول	في لينيه مَع قَدْهَا موصوفُ ما أنت هذا القَدْ يا مقصوفُ
الفاء المفتوحة			
١٤٧-٣٣	الطويل	مجهول	عليه إذا ما استسمنتُ المواقفا
٢١٩	الخفيف	أبو هلال العسكري	وَعَزَالُ؛ لَحْظاً وَقَدْأُورِدُفَا
الفاء المكسورة			
٢٠٧	الطويل	ليلى بنت طريف	كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ
١٩٩	مُخَلَّع البسيط	مجهول	قياسَ جَهْلٍ بِلَا انتصافٍ وَأَنْتَ غُضُنٌ بِلَا خِلافٍ
الفاء الساكنة			
٣٥٣	الرَّجَز	مجهول	قُلْنَا لَهَا: قَفِي، قَالَتْ: قَافُ
القاف المضمومة			
٤٩٧	الطويل	أبو تمام	فيه؛ فغُودِرَ وهو منهم أبلقُ
٢٤٠	الطويل	البُحْثَرِيُّ	وللسَّيفِ حَدٌّ حِينَ يَسْطُو وَرَوْنَقُ
القاف المفتوحة			
١٢٠	الطويل	ابن معصوم المدني	قَوَاماً، وَأَرْدَافاً، وَفَرْعاً، وَرَوْنَقاً وَوُزُقُ الحَمْصِ لَحْظاً، وَوَجْهاً، وَمَنْطِقاً
القاف المكسورة			
١٦٥	الوافر	صفي الدين الحلي	أَتَيْهُ بِهِ عَلَى جَمْعِ الرَّفَاقِ وَأَفْدِيهِ بَعِينِي وَهُوَ سَاقِي
٢١٩	الكامل	ابن حيّوس	فِي مُقْلَتِيهِ، وَوَجْتِيهِ، وَرِيْقِهِ
٤٩١	الكامل	أبو نُوَاس	لَتَخَافُكَ النُّطْفُ التِّي لَمْ تُخَلِّقِ
٥٤٤	الكامل	البُحْثَرِيُّ	مَعَ الْعِرْسِ الْفَرْوُكِ - مِنَ الطَّلَاقِ
٢٠٨	الخفيف	المتنبي	تَحْسَبُ الدَّمَعَ خَلْقَةً فِي السَّمَاقِي

٤٤٦	الخفيف	البُحْثَرِيُّ	هَلْ سَمِعْتُمْ بِالْعَاذِلِ الْمُعْشُوقِ سُبُّ، فَرِيْعَتٌ مِّنْ ظُلْمَةٍ وَشُرُوقِ تَ أَنْيَقَ الرَّيَاضِ غَيْرَ أَنْيَقِ بِيِاضٍ مَا كَانَ بِالْمُومِقِ
القاف السَّائِنة			
١٠٦	مجزوء الكامل	مجهول	تِ، وَهَبَكَ فِيمَا قُلْتَ صَادِقُ قُطِعْتَ يَدَاكَ مِّنَ الْمَرَاغِقِ
الكاف المفتوحة			
٩٩	البسيط	منسوب لأبي العتاهية	مِنْ بُخْلِ نَفْسِكَ، عَلَّ اللَّهُ يَشْفِيكَ وَلَا عِدْوُكَ إِلَّا مَن يُرْجِيكَ
١٠٠	الكامل	ابن نُبَّاتة	حَتَّى تَحْيِيَّ كُلَّ ظَبْيٍ فِيكَ وَكَذَا نَظِيرُ قُرُونِهِ لِأَيِّكَ
الكاف السَّائِنة			
٥٠١	المنسرح	أبو تَمَّام	أَضَجَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِّنْ خُرْقِكَ
اللام المضمومة			
٩٤	الطويل	بديع الزَّمان الهمداني	سَوَى أَنَّهُ الضَّرْعَامُ، لَكِنَّهُ الْوَيْلُ
١٨٨-١١١-٤٢	الطويل	أبو العلاء المعري	قَرِيبٌ، وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ أَهْوَالُ
١٥٧	الطويل	عَمْرُو الْعَدَوِيِّ	أَتَاكَ بِهِ الْوَاشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا
١٦٨	الطويل	مجهول	وَفِي اللَّهِ - إِنْ لَمْ يَعْدِلُوا - حَكْمٌ عَدْلُ
١٧٩	الطويل	أبو العلاء المعري	مَكَارِمٌ لَا تَخْفَى، وَإِنْ كَذَبَ الْخَالُ
٢٠٣	الطويل	المتنبي	وَعَايَنْتَهُ لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا النَّصْلُ
١٨٧	الطويل	زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ	وَلَكِنَّهُ قَدْ يُبْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهُ
٢٠٤	الطويل	مجهول	أَنْتَ أَخَوَلِيلُ فَقَالَ: يُقَالُ
٢٢٧-٢٥	الطويل	أبو تَمَّام	لَفَكَّرَ دَهْرًا أَيُّ عِبَائِهِ أَثْقَلُ

٤٧٠	الطَّويل	أبو تمام	وَقَلْبُكَ مِنْهَا مُدَّةُ الدَّهْرِ أَهْلٌ وَتَمَثَّلُ بِالصَّيْرِ الدِّيَارُ الْمَوَاتِلُ وَلَا مَرَرٍ فِي أَغْفَالِهَا وَهِيَ غَافِلٌ وَقَدْ أُخِمْتْ بِالنُّورِ مِنْهَا الْخُمُوتُ عَلَى الْحَيِّ صَرَفُ الْأَزْمَةِ السُّمْتَا حُلٌ وَفِيهِمْ جَمَالٌ لَا يَغِيضُ وَجَامِلٌ
٤٨٨-٤٨٩	الطَّويل	أبو تمام	فَلَجَّئُهُ الْمَعْرُوفُ، وَالْجُودُ سَاحِلُهُ ثَنَاهَا لِقَبْضِي لَمْ تُجِبْنِي أَنَا مِلُّهُ جَادَ بِهِمَا، فَلَيْتَنِي اللهُ سَائِلُهُ
٨٣-١٧١	البسيط	الأعشى	وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ
١٧٠-١٧١	البسيط	المتنبي	فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ بَغِيرِ قَوْلٍ، وَنُعْمَى النَّاسِ أَقْوَالُ
٥٣٨	البسيط	البُخْتَرِي	شَمْسٌ تَرَجَّجُلُ فِيهِمْ ثُمَّ تَرْتَحِلُ
٨٨	الوافر	مجهول	وَمَهْمَا قَالَا فَالْحَسَنُ الْجَمِيلُ عَلَيْهِ لِيغِيرَهُ، وَهُوَ الرَّسُولُ
١١٠	الكامل	الأخوص	خَذَرَ الْعِدَى وَبِهِ الْفُؤَادُ مُوَكَّلُ مَذِقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ
١٠٩	الكامل	المتنبي	فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ
٣٨٥	الكامل	الفرزدق	تَهْلَانِ ذَا الْهَضَبَاتِ هَلْ يَتَحَلَّحُلُ
اللام المفتوحة			
٢٢٨	الوافر	المتنبي	أَوْجَّهَهُمَا جَنُوباً أَوْ شِمَالاً
٤٩٦	الكامل	أبو تمام	كَالصُّبْحِ أَخَذَتْ لِلظَّلامِ أَفْوَلَا
١٧٠	المنسرح	الأعشى	يَشْرَبُ كَأْساً بِكَفِّ مَنْ بَخِلَا

اللام المكسورة			
٨٤	الطويل	امرؤ القيس	كجلمود صخر حطه السيل من عل
٨٩-٧٤-٧٣	الطويل	النجاشي قيس بن عمرو	ولا يظلمون الناس حبة خردل تأكل من كعب بن عوف وتهشل
١٨٩	الطويل	مجهول	وقد رأت الضيفان ينحون منزي هم الضيف جدي في قراهم وعجلي
٣٥٥	الطويل	امرؤ القيس	ولو قطعوا رأسي لذيك وأوصالي
٤٢٥	الطويل	امرؤ القيس	ومسنة زرق كأنياب أغوال
٥٠٢	الطويل	أبو تمام	تسمل طباؤه أخذعي كل مائل
٢٣٩-١٩٩	الوافر	ابن النخوية	وأين البذر من ذاك الجلال
٥٢٨	الوافر	البخري	عليك، ومن يبلغ لي سلامي ومن أهواؤه في أرض الشام
-٤٦٢-١١٣ ٤٧٤	الكامل	البخري	قد رحت منه على أغر محجل صيداً، ويتصب انتصاب الأجل يوماً خلائق حمدونه الأحول عزف، وعزف كالقناع المسبل
٤٥٩-١٨٣	الكامل	أبو تمام	أتي ابتيت الجار قبل المنزل
٤٦٠	الكامل	أبو تمام	فتحت لنا باب الرجاء المقل بدرأ، وأحسن في العيون وأجل رأياً، وأطف في الأمور وأجزل
-٢٣٣-٢٢٣ ٤٦١	الكامل	أبو تمام	فالسيل حارب للمكان العالي محيي القرى إلى مبيت المال
٤٣٦	الكامل	البخري	مشوى حبيب يوم مات ودعبل
١٠٤	الخفيف	ابن الذروي	فهني في الحسن من صفات الهلال

			سَتَ مِنَ الْفَضْلِ أَوْ مِنَ الْإِفْضَالِ لَوْ غَدَتْ جَلِيَّةٌ لِكُلِّ الرَّجَالِ
٥٤٠-٦٨	السَّريع	ابن الرومي	لَا تَقْعُ الْعَيْنُ عَلَى مِثْلِهِ يَرْفَعُهُ اللَّهُ إِلَى أَسْـَـفَلِ
١٠٧-٢١	السَّريع	ابن الرومي	فَابْتَسَمْتَ تَعَجَّبُ مِنْ حَالِي قَدْ هَامَ عَمِّي الشَّيْخُ فِي خَالِي
الميم المضمومة			
٤١٨	البسيط	الفرزدق	الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقُرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
٥٠٩	البسيط	المتنبي	تَحْوِي الْغَنَائِمَ، أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ بَدَلًا، أَرَاهَا فِي الضَّلَالِ تَهِيمُ
١٧٠	الكامل	قتادة بن مسلمة	فَتَحَيَّرْتُ فِي كُنْهِهِ الْأَوْهَامُ حَتَّى يَقُولُوا: قَدْ ذُرُّهُ إلهَامُ
٢٨٧-١٥	الكامل	مجهول	بِالْبَذْلِ حَتَّى اسْتَطْرَفَ الْإِعْدَامُ حَتَّى وَدِدْنَا أَنَّنَا أَيْتَامُ
٤٨٩	الكامل	أبو تمام	
الميم المفتوحة			
٨٨-٨٧	الطويل	نُزَوَان	عَلَيَّ لِإِنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ دِرْهَمًا فَلَسْتُ أَبَالِي أَنْ أَدِينَنَ وَتَغْرَمَا
٤٥٦	الطويل	أبو تمام	تَنْصُ مِنَ الْإِلْهَامِ خِلْنَاكَ مُلْهَمًا مِنَ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ
٢٤٢	الطويل	البُخَيْرِي	أَقَامَ كَرَجِيعِ الطَّرْفِ، ثُمَّ تَصَرَّمَا وَبَلَوْنَا أَبَاسًا عِيدَ قَدِيدَا
٥٢٦	الطويل	البُخَيْرِي	وَرَعَيْنَاهُ بَارِضًا وَجَوْنِيَا نَفْسٍ صَارَ الْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيَا
٤٥٣	الخفيف	أبو تمام	

٤٥٧	الخفيف	أبو تمام	يَا مَنْ لَمْ يَكُنْ نَدَاهُ عُمُومًا
الميم المكسورة			
٣٥٤-٦٨-٣٥	الطويل	مجهول	وَيَرْغَبُ أَنْ يَرْضَى صَنِيعَ الْأَلَانِمِ
٤٣٦	الطويل	أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ	تَحْمَطُ فِينَا نَابُ آخِرِ مُقَرَمِ
٤٩٢	الطويل	زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَمَى	وَلَوْرَامَ أَسْبَابِ السَّمَاءِ بِسُلَمِ
٥٣٨	الطويل	البُخَيْرِيُّ	وَسُورَةَ أَيَّامٍ حَسَزْنَ إِلَى الْعَظَمِ
٩٣	البسيط	صَفِيِّ الدِّينِ الْحَلِيِّ	يَسْلُو عَنْ الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ وَالْحَشَمِ
١٦٤	البسيط	المتنبي	لَأَنْتَ أَسْوَدُ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ
١٦٥	البسيط	صَفِيِّ الدِّينِ الْحَلِيِّ	مِنْ بَعْدِ مَا صَلَّتِ الْأَسْيَافُ فِي الْقَمَمِ
١٩٦	البسيط	صَفِيِّ الدِّينِ الْحَلِيِّ	ذَوَائِبَ الْبَيْضِ، بَيْضِ الْهَنْدِ لَا اللَّمَمِ
١٩٦	البسيط	ابن حِجَّةِ الْحَمَوِيِّ	حَجَرَ الْكِتَابِ الْمَبِينِ الْوَاضِحِ اللَّقَمِ
١٩٧	البسيط	المدني	وَهُوَ الزَّعِيمُ زَعِيمُ الْقَادَةِ الْبُهَمِ
٥٢٦	البسيط	البُخَيْرِيُّ	أَيَّامُهُ لِي فِي أَعْقَابِ أَيَّامِي
٤٥٩	الوافر	أبو تمام	رُسُومًا مِنْ بُكَائِي فِي الرُّسُومِ
٨٨	مجزوء الرَّمَلِ	عبد الصَّمَدِ بْنِ المُعَذَّلِ	رِ، وَيَا عَيْسَى بْنَ مَرْيَمِ مَنْ مَنَّا لَمْ تَتَكَلَّمِ
١٣٨	الخفيف	مجهول	وَجَفَانِي مِنْ غَيْرِ دَنْسٍ وَجُرْمِ مَثَلًا ضَنَّ بِالْهَوَى قَلْبُ نُعْمِ
٧٠	المنسرح	مجهول	مَا بَيْنَ مَخْزُومِهَا وَهَاشِمِهَا يَأْخُذُ مِنْ مَالِهَا وَمِنْ دَمِهَا
الميم الساكنة			
١١٩	السريع	ابن فضالة القيرواني	قَدْ أَجْمَعُوا فِيكَ عَلَى بُغْضِهِمْ وَحَيَّيْهِمْ مَا دُمْتَ فِي حَيِّهِمْ

النُّون المضمومة			
٤٢٩	البسيط	أبو البقاء الرندي	أَمْ أَيْنَ شَاطِئَةً، بَلْ أَيْنَ جَيَّانُ مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَانُ
٢٠٢	الوافر	أبو هلال العسكري	وَقَدْ مَابِدَا أَمْ خَيْرَانُ وَلَفِظَ مَا تَسَاقَطَ أَمْ جُمَانُ وَلَيْلُ مَا أَقَاسِي أَمْ زَمَانُ
٩٥	المتقارب	مجهول	جَيَّانُ يَهْوَنُ عَلَيْهِ الْهَوَانُ
١٤٢-١٤١	الخفيف	نزار قباني	فَاحْتَضِرْنِي كَالطَّفْلِ يَاقَاسِيُونُ فَمَعَ الضَّمِّ لَا يَجُوزُ الشُّكُونُ
١٤٢	الخفيف	نزار قباني	سُ، وَعِلْمُ الْكَلَامِ وَالْيَانِسُونُ
١٤٢	الخفيف	نزار قباني	لَا مُقَفَّى حُبِّي وَلَا مَوْزُونُ
٤٥٧-١٤٢	الخفيف	نزار قباني	كَيْفَ يَنْسَى غَرَامَهُ الْمَجْنُونُ
١٤٣	الخفيف	نزار قباني	مُ؛ فَأَنْتِ الْبَيَّانُ وَالتَّبَيُّينُ
٢٠٣	الخفيف	نزار قباني	أَمْ تَوَهَّمْتِ، وَالتَّسَاءُظْنُونُ
١٩٣	السريع	أبو الحسين الجزار	لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذَهْنُ مَا جَسَرَتْ تُبْصِرُهَا الْجِنُّ وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قِطْنُ فَقُلْتُ: مَا فِي فَمِهَا سِنُّ
١٥٢	الرجز	مجهول	مَا سَبَعُهُ وَكُلُّهُمْ إِخْوَانُ لَيْسُوا يَمُوتُونَ، وَهُمْ شُبَّانُ لَمْ يَرَهُمْ فِي مَوْضِعٍ إِنْسَانُ
النُّون المفتوحة			
٥٢٤	الطويل	أبو تمام	وَلَمْ أَحْفَلِ الدُّنْيَا وَلَا حَدَثَانَهَا وَلَوْ أَمْتَنَسِي مَا قِيلَتْ أَمَانَهَا

			إِذَا كَانَ شَيْبُ الْعَارِضَيْنِ دُخَانَهَا مَتَى أَرَادَ اعْتِصَاصَ عَشْرًا مَكَائِمَهَا وَلَوْ صَاعًا مِنْ حُرِّ اللَّجَيْنِ بَنَاهَا
٨٩	البسيط	قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ	وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ الشُّوْءِ إِحْسَانَا سِوَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانَا شَنُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا
٥٤١	البسيط	ابن زَيْدُون	سُودَاءَ، وَكَأَنَّتْ بِكُمْ بَيْضًا لَيَالِينَا
٣٥٠	الوافر	مجهول	وَرَجَّجْنِ الْحَوَاجِبَ وَالْعَيُونَنَا
١٩٠	الكامل	صلاح الدين الصفدي	فِي قَرْصِ دِينَارٍ لِأَمِيرٍ كَانَا عَيْنًا، فَقُلْتُ لَهُ: وَلَا إِنْسَانَا
٣٥١	مجزوء الكامل	عبيد بن الأبرص	عَكَ، ثُمَّ وَجَّهَهُمْ إِلَيْنَا
٣٩١	الزمل	الأخطل الصغير	كَيْفَمَا شِئْتُمْ؛ فَلَنْ تَلْقَوْا جَبَانَنَا
١٣١-٢٦٧-	الخفيف	مالك بن أسماء الفرزاري	تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ يُوَزَّنُ وَزْنَا نَا، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنَا
٣٥٩			
النون المكسورة			
٧٢	الطويل	المتنبي	وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَاكَ الْقَمَرَانِ كَلَامُ الْعِدَى صَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ عَنِ السَّعْدِ يَرْمِي دُونَكَ الثَّقْلَانِ وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ
١٢٦	الطويل	ابن النقيب	دَعَوْنِي؛ فَإِنِّي أَكُلُ الْخَبَزِ بِالْجُبْنِ
٥٠٦	الطويل	الفرزدق	دَعَوْتُ بِنَارِي مَوْهِنًا فَآتَانِي وَأَيُّكَ فِي زَادِي لَمْ يُشْتَرِكَا عَلَى ضَوْءِ نَارٍ مَرَّةً وَدُخَانِ

			وقائِمُ سِيفِي مِنْ يَدِي بِمَكَانٍ نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَأْذُنُ بِصِطْحَانِ أُخَيَّيْنِ كَانَا أَرْضِ عَايِلِي رَمَاكَ بَسْطَهُمْ أَوْ شَبَابَةَ سِنَانِ
٤٣٣	البسيط	أبو تمام	بِالرَّقَّتَيْنِ، وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي حَتَّى تُطَوِّحَ بِي أَقْصَى خُرَاسَانِ
٤٥٦	البسيط	أبو تمام	إِذَا تُصَفِّحْتَ اخْتِيرْتَ عَلَى الشُّنَنِ
٤٦٢	البسيط	أبو تمام	عَلَى الْجِرَاءِ أَمِينٍ غَيْرِ خَوَّانٍ فَخَلَّ عَيْنِيكَ فِي ظِمَانٍ رِيَّانٍ تَحْتَ السَّنَابِكِ مِنْ مَثْنَى وَوُحْدَانٍ مِنْ صَخَرٍ تَذْمُرُ أَوْ مِنْ وَجْهِ عُثْمَانٍ
٥١٨	البسيط	المتنبي	لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرِنِي
٤٥٧-١٤٣	مُجْلَع البسيط	الشَّابُّ الطَّرِيفُ	وَلَيْسَ فِيهِ سِوَاكَ ثَانِي وَمَا التَّقَى فِيهِ سَاكِنَانِ
١٠٤	الوافر	ابن دانيال	يَا أَوْحَدَ الْأُمَرَاءِ فِي الْحَدَبَانِ حُسْنًا، فَكَيْفَ بِمَنْ لَهُ رِذْفَانِ!
١٢٠	الوافر	القاضي ابن أبي خُصَيْن	وَلَا قَالُوا: فَلَانٌ قَدْ رَشَانِي
١٢١-٢٣	الخفيف	شَمْسُويه البَصْرِيّ	أَوْدَعَانِي أُمْتُ بَمَا أَوْدَعَانِي
١٩٩	المنسرح	الوَأَوَاءُ الدَّمَشَقِيّ	أَنْصَفَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ شَكْلَيْنِ وَهُوَ إِذَا جَادَ بِأَكْيَ الْعَيْنِ
النُّونُ السَّاكِنَةُ			
٦٧	مجزوء الخفيف	مُحَمَّدُ بْنُ حَازِمِ الْبَاهِلِيِّ	وَلُبُّورَانٍ فِي الْحَقِّ تَنْ تَ، وَلَكِنْ بَيْنَتْ مَنَنْ
١٧٥	الرَّجَزُ	مجهول	لِوَقْفَتِي: هَذَا الَّذِي نَرَاهُ مَنْ؟

			قَالَتْ: بِمَنْ؟ قَالَتْ: بِمَنْ قَالَتْ: بِمَنْ
الهاء المضمومة			
١٩٨	الوافر	مجهول	لَقَدْ كَذَبُوا بِمَا قَدْ شَبَّهَهُ وَذَا يَحْمَرُّ مَهْمَا قَبْلُ وَهُ
الهاء المفتوحة			
٢٣٧	البسيط	البُخَيْرِي	وَلِلْقَضِيِّ نَصِيبٌ مِّنْ تَنْبِيْهَا
الهاء المكسورة			
٤٩٥	البسيط	أبو تمام	حَتَّى إِذَا كَمَلْتُ تَاهَتْ عَلَى التَّيِّهِ عَنْ يُوسُفِ الْحُسَيْنِ إِلَّا اسْتُجْمِعَتْ فِيهِ
٢٠٣	الكامل	ابن المعتز	أَمْ كَأْسِهِ أَمْ فِيهِ أَمْ عَيْنِيهِ
١٧٦	المقارب	أبو النضر الزوزني	تَقَاصَرَ وَضَفِي عَنْ كُنْهِهِ رَأَيْتُ الْهَلَالَ عَلَى وَجْهِهِ
الهاء الساكنة			
١٤٣	الوافر	الشَّوَاء	عَلَى رَغَمِ الْحَسودِ بغير آفَةٍ حَبِيبِي لَا تُفَارِقْهُ الْإِضَافَةُ
١٢٠	المقارب	أبو الفتح البُستِي	فَدَعُوهُ فَدَوْلَتْهُ ذَاهِبَهُ
١٥٧	المقارب	أبو نواس	كَمَا ضَاعَ عِقْدٌ عَلَى خَالِصَةٍ
١٠١	السريع	ابن الحجاج	لَغَيْرِ مَا مَعْنَى وَلَا فَائِدَةٍ فَاقْرَأْ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ
١٨٩	السريع	صلاح الدين الصفدي	تَاهَ، وَنَفْسُ الْمَرْءِ طَمَاحُهُ تَشْكُرُهَا؟ قُلْتُ: وَلَا رَاحُهُ
الياء المضمومة			
١٧٤	مُحَلَّع البسيط	مجهول	يُذَرِّكُهَا الْعَالِمُ الْمَذْكُورُ فَقُلْتُ: جَدُّ الْفَتَى عَلِيٌّ

الياء المفتوحة			
٧١	الطَّويل	المتنبي	بَمَا كُنْتُ فِي سِرِّي بِهِ لَكَ هَاجِيَا وَأَنْ كَانَ بِالْإِنْشَادِ هَجْوُكَ غَالِيَا
٧١	الطَّويل	المتنبي	فِيْرَجِعْ مَلَكًا لِلْعِرَاقَيْنِ وَالْيَا لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْحِدَادِ الْبَوَاكِيَا
٧٢	الطَّويل	المتنبي	جَوَادٌ، فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا
٩٤-٢٩	الطَّويل	النَّابغة الجعدي	
الياء الساكنة			
٥٤٣	الكامل	طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ	صَوْبُ الْعَمَامِ وَدِيمَةُ تَهْمِي
الألف			
٥٢٨	الطَّويل	أبو تمام	حَشَا لِسْتُ أَدْرِي جَمْرَةٌ هِيَ أَمْ حَشَا
٥٤٠	الطَّويل	البُخْتَرِيُّ	بُحْبُ الَّذِي نَأْبَى وَكُزُّهُ الَّذِي نَهْوَى نَعِيمًا، وَلَا يَعْدُدُّ تَصَرُّفَهَا بَلْوَى لِيُزْشَدَّ - لَوْلَا مَا أَرْتَنَاهُ - مَنْ يَغْوَى
٢٢٢-١٤	الكامل	دَعْبِل	ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
٧٠	المتقارب	المتنبي	نَ بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوُ الْوَرَى
٥٣٧-٣٩	الخفيف	البُخْتَرِيُّ	لَيْسَ هَذَا مِنْ فِعْلٍ مَنْ يَتَمَرَّى بَاءً، وَلَوْ أَنَّه عَلَى مُلْكٍ كِنَرَى ءَ، مِنْ النَّبْعِ بَيْنَ صُغْرَى وَكُهْرَى لَكَ فِيهَا - ظَنَّنِي - مَارَبٌ أُخْرَى

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- أبو تمام الطائي (حياته وشعره)، د. محمد نجيب البهيتي، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٨٢م.
- أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله، د. عمر فروخ، دار لبنان للطباعة النشر، بيروت، ١٩٧٨م.
- أبو تمام، د. علي شلق، دار الهلال، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦م.
- اتساع الدلالة في الخطاب القرآني، د. محمد نور الدين المنجد، دار الفكر بدمشق، ط ١، ٢٠١٠م.
- الإتيقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة مصورة، ٢٠٠٧م.
- أحكام القرآن، لأبي بكر الجصاص (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد صادق القمحاوي - عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ.
- إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس، لذي الوزارتين أبي القاسم الكلاعي الإشبيلي (ت ٥٥٠هـ)، تحقيق: د. رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥م.
- الإحكام في أصول الأحكام، لأبي الحسن الأمدي (ت ٦٣١هـ)، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت.
- أخبار أبي تمام، لأبي بكر الصولي (ت ٣٣٥هـ)، تحقيق: خليل محمود عساكر ومحمد عبه عزام ونظير الإسلام الهندي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة، ط ١، ١٩٣٧م.
- أخبار البحتري، لأبي بكر الصولي (ت ٣٣٥هـ)، تحقيق: د. صالح الأشر، دار الأوزاعي - بيروت، ط ٣، ١٩٨٧م.
- أخلاق الوزيرين (مثالب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد)، لأبي حيان التوحيد، (ت ٤٠٠هـ) تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر - بيروت، بإذن: المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٩٢م.
- أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن الواحدي (ت ٤٦٨هـ)،
- أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ)، تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بجدّة، ط ١، ١٩٩١م.

- أسرار العربية، لأبي البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق الشيخ محمد بهجة البيطار، وعاصم بهجة البيطار، دار البشائر بدمشق، ط ٢، ٢٠٠٤م.
- الإشارات والتنبّهات في علم البلاغة، لمحمد بن علي الجرجاني (ت بعد ٧٢٩هـ)، بتحقيق د. عبد القادر حسين، دار نهضة مصر، بلا تاريخ.
- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المَجاز، للعزّ بن عبد السّلام (ت ٦٦٠هـ)، تحقيق: د. محمد مصطفى بن الحاج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على الثّراث الإسلاميّ، ليبيا - طرابلس، ط ١، ١٩٩٢م.
- إعجاز القرآن، للباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط ٣، (د.ت.).
- إعراب القرآن من مُغني اللّبيب، د. أيمن عبد الرزّاق الشّوّاء، دار ابن كثير، دمشق، ط ٢، ١٩٩٥م.
- إعراب القرآن، لأبي جعفر النّحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ.
- الأعلام، للعلامة خير الدّين الزّركليّ (ت ١٩٧٦هـ)، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١٤، ١٩٩٩م.
- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهانيّ (ت ٩٧٦هـ)، تحقيق د. إحسان عبّاس، ود. إبراهيم السّعافين، وأ. بكر عبّاس، دار صادر بيروت، ط ٢، ٢٠٠٤م.
- أمالي ابن الشّجريّ (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق د. محمود محمد الطّناحي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ١، ١٩٩٢م.
- أمالي ابن الشّجريّ (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق د. محمود محمد الطّناحي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٢، ٢٠٠٦م.
- أمالي المُرْتَضَى (ت ٤٣٦هـ) الموسوم بـ (غُرر الفوائد ودُرر القلائد)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٢، ١٩٦٧م.
- الأمالي، لأبي علي القالي (ت ٣٥٦هـ)، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية.
- أَمْن اللّبس في التّركيب القرآنيّ، رضا عبد العزيز الدسوقي إبراهيم شمس الدين، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- الانتخاب لكشف الأبيات المشكّلة الإعراب، لابن عدلان الموصلي (ت ٦٦٦هـ)، تحقيق حاتم الضّامن، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط ١، ١٩٨٨م.
- الانتصاف فيما تضمّنه الكشّاف من الاعتزال، لابن المنير الإسكندريّ (ت ٦٨٣هـ)، مطبوع على هامش الكشّاف، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٦م.

- الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، لابن السيد البطلوني (ت ٥٢١هـ)، تحقيق د. رضوان الداية، دار الفكر بدمشق، ط ٢، ١٩٨٣ م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لأبي البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، منشورات جامعة البعث بسورية، طبعة مصورة، ١٩٨٩ م.
- أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم المدني (ت ١١٢٠هـ)، تحقيق شاکر هادي شکر، مطبعة النعمان، العراق - النجف، ط ١، ١٩٦٨ م.
- الإيجاز لأسرار الطراز في علوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق د. بن عيسى باطاهر، دار المدار الإسلامي في بيروت، ط ١، ٢٠٠٧ م.
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لجابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٥، ٢٠٠٣ م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (ت ٧٣٩هـ)، شرح وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط ٣، (د.ت).
- الباعث الحثيث [شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)] تأليف الشيخ أحمد محمد شاکر، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٩٨٣ م.
- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠هـ.
- بديع القرآن = (البرهان في إعجاز القرآن)، لابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديشي، منشورات المجمع العلمي ببغداد، (د.ط)، ٢٠٠٦ م.
- البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ)، تحقيق د. عبد آ. علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧ م.
- البديع، لابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، تحقيق إغناطيوس كراتشكوفسكي (ت ١٩٥١هـ)، دار المسيرة - بيروت، ط ٣، ١٩٨٢ م.
- البرصان والعرجان والعميان والحولان، للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ.

- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، لابن الزمّلكانيّ (ت ٦٥١هـ)، تحقيق د. خديجة الحديثي، ود. أحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٩٧٤م.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركائه، ط ١، ١٩٥٧م.
- البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحّيدي (ت. نحو ٤٠٠هـ)، تحقيق د. وداد القاضي، دار صادر - بيروت، ط ١، ١٩٨٨م.
- بلاغة التّقديم والتّأخير في القرآن الكريم، د. علي أبو القاسم عون، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦م.
- البلاغة عند المعتزلة، د. محمد هيثم غرّة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (المجمع الثقافي)، ط ١، ٢٠٠٩م.
- البيان والتبيين، للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، (د.ط)، ٢٠٠٣م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، للمرئضيّ الزبيديّ (ت ١٢٠٥هـ)، طبعة الكويت ١٩٦٥م.
- تاريخ آداب العرب، لمصطفى صادق الرافعيّ (ت ١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربيّ.
- تاريخ الأدب العربيّ، كارل بروكلمان، ترجمة د. عبد الحليم النّجار، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤م.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغداديّ (ت ٤٦٣هـ)، بيروت، دار الكتاب العربي (د.ط.ت).
- تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، دراسة وتحقيق محبّ الدين أبي سعيد عمّار بن غرامة العموريّ، (د.ط)، بيروت، ١٩٩٥م.
- تأويل مُشكّل القرآن، لابن قُتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، بالقاهرة، طبعة جديدة مُنقّحة، ٢٠٠٦م.
- التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام أبي زكريا النّوّيّ (ت ٦٧٦هـ)، تحقيق: محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ط ٣، ١٩٩٤م.
- التّبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العُكبريّ (ت ٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- تحرير التّحبير، لابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق د. حفني شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالدولة العربية المتحدة، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: د. أحمد هاشم عمر، تخريج: أحمد عناية، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م.
- التعبير عن المحذور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم، (دراسة دلالية)، د. عصام أبو زلال، أطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، ٢٠٠١م.
- التفسير في القرآن الكريم، د. إبراهيم محمد عبد الله الخولي، دار البصائر، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م.
- التعريفات، للشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، حققه وضبطه وصححه جماعة من المحققين بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م.
- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- تفسير الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) = روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.
- تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، لمحيي السنة، أبي محمد الحسين البغوي (ت ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- تفسير البضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، للبيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.
- تفسير التحرير والتنوير، للشيخ الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- تفسير الجلالين، مذيلاً بكتاب لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، مطبعة الشرجي بدمشق، ط ١، ١٤١٦هـ.
- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، لأبي جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٠م.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، للقرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤م.
- تفسير مجاهد، لأبي الحجاج مجاهد المخزومي (ت ١٠٤هـ)، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط ١، ١٩٨٩م.

- التّقديم والتّأخير في القرآن الكريم (بلاغة وإبلاغ)، د. خلدون سعيد صبح، دار الينابيع بدمشق، ط ١، ٢٠٠٢م.
- تلخيص المفتاح (مطبوع في بداية المطوّل)، للقزوينيّ (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلميّة - بيروت، ط ٢، ٢٠٠٧م.
- التّنبية على حدوث التّصحيف، لحمزة بن الحسن الأصفهانيّ (ت ٣٦٠هـ) تحقيق الشّيخ محمد حسن آل ياسين، مطبعة دار المعارف - بغداد، ط ١، ١٩٦٧م.
- تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، لمنقذ بن محمود السقار، رابطة العالم الإسلامي.
- تهذيب اللّغة، لأبي منصور الأزهريّ (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التّراث العربي - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- التّوقيف على مُهمّات التّعريف، لزَيْن الدّين المناويّ (ت ١٠٣١هـ)، تحقيق: عبد الخالق ثروت، عالم الكتب بالقاهرة، ط ١، ١٩٩٠م.
- ثبار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، ١٩٦٥م.
- ثمرات الأوراق (مطبوع بهامش المستطرف في كل فن مستظرف للشّهاب الأبشيهي)، لابن حجّة الحمويّ (ت ٨٣٧هـ)، مكتبة الجمهورية العربية، مصر، (د.ط.ت).
- جامع الأصول في أحاديث الرّسول، لابن الأثير الجزريّ (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق الشّيخ عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر، ١٩٧١م.
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، لابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق د. مصطفى جواد، ود. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقيّ، (د.ط)، ١٠٥٦م.
- الجامع لإعراب مجل القرآن الكريم، د. أيمن عبدالرزّاق الشّوّا، مكتبة الغزالي بدمشق، ودار الفيحاء - بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
- جماليات القصيدة في شعر أبي الطّيب المتنبي، د. خليل موسى، دار بعل بدمشق، ط ١، ٢٠٠٦م.
- جمالية الإنشاء والخبر، د. حسين جمعة، اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق، ط ١، ٢٠٠٥م.
- جنى الجناس، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق د. محمد علي رزق الخفاجي، الدار الفنية للطباعة والنشر، (د.ط)، ١٩٨٦م.

- الحجة للقرءاء السبعة، لأبي عليّ الفارسيّ (ت ٣٧٧هـ)، تحقيق: بدر الدّين قهوجي، وبشير جويجاني، راجعه ودقّقه: عبد العزيز رباح - أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث بدمشق، ط ٢، ١٩٩٣ م.
- حقائق السّحر في دقائق الشّعْر، لرشيد الدّين الوطواط (ت ٥٧٣هـ)، تحقيق وتعريب إبراهيم أمين الشّواربي، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر بالقاهرة، ط ١، ١٩٤٥ م.
- الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى عبد السلام أبو شادي، مكتبة القرآن، (د.ط)، ١٩٩٢ م.
- حُسْنُ التّوسُّل إلى صِناعَةِ التّرْسل، لشهاب الدّين الحلبيّ (ت ٧٢٥هـ)، مطبعة أمين أفندي - مصر، ١٣١٥ هـ.
- الحماسة البصريّة، لصدر الدّين عليّ بن أبي الفرج بن الحسن البصريّ (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: د. عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ١، ١٩٩٩ م.
- الحماسة المغربيّة (مختصر كتاب صفوة الأدب ونُخبَة ديوان العرب)، لأبي العبّاس أحمد بن عبد السّلام الجراويّ التّادليّ (ت ٦٠٩هـ)، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، دار الفكر المعاصر - بيروت، ط ١، ١٩٩١ م.
- الحيوان، للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، دار الكتب العلميّة - بيروت، ط ٢، ١٤٢٤ هـ.
- خزّانة الأدب وغاية الأرب، لابن حِجّة الحمويّ (ت ٨٣٧هـ)، تحقيق د. كوكب دياب، دار صادر، بيروت، ط ٢، ٢٠٠١ م.
- خزّانة الأدب ولُبّ لبّاب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغداديّ (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٤، ١٩٩٧ م.
- الخصائص، لابن جنّيّ (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق محمد عليّ نجّار، الهيئة العامّة المصريّة للكتاب، ط ٤، ١٩٩٩ م.
- الخطابة، أرسطو طاليس (ت ٣٢٢ ق.م)، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والإعلام (سلسلة الكتب المترجمة-١٤) دار الرشيد للنشر، ط ١، ١٩٨٠ م.
- الدّر المنثور في التّفْسير بالمأثور، لجلال الدّين السّيوطيّ (ت ٩١١هـ)، دار الفكر - بيروت.
- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجانيّ (ت ٤٧٤هـ)، تحقيق الأستاذ محمود شاكّر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٥، ٢٠٠٤ م.
- دلالات التراكييب، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٧ م.
- دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط ٤، ١٩٨٠ م.
- ديوان الأعشى (كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير - الأعشى، والأعشَيْن الآخرين) مع شرح أبي العبّاس ثعلب، مطبعة أدلف هُلز هوسن، (د.ط)، ١٩٢٧ م.

- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٥٨ م.
- ديوان البحري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٣ م.
- ديوان بشار بن بُرد، كَمَلَه وشرَّحه مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة، (د.ط)، ١٩٥٠ م.
- ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق أ. محمد عبده عزَّام، دار المعارف بمصر، ١٩٥١ م.
- ديوان أبي تمام، بشرح الصُّولي (ت ٣٣٥هـ)، تحقيق د. خلف نعمان، دار الرِّشيد للنَّشر، بغداد، ط ١، ١٩٨٢ م.
- ديوان جرير، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان طه، دار المعارف بمصر، ١٩٧١ م.
- ديوان جميل بُثينة، شرَّحه أَشرف أحمد عدرة، عالم الكتب بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م.
- ديوان الحطيئة، تحقيق د. نعمان طه، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ١، ١٩٨٧ م.
- ديوان ابن حَيَّوس (ت ٤٧٣هـ)، تحقيق خليل مردم بك، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، (د.ط)، ١٩٥١ م.
- ديوان دِغِيل بن عليّ الحُزاعي، صنعة د. عبد الكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق، ط ٢، مزيدة ومُنقَّحة، ١٩٨٣ م.
- ديوان ذي الرُّمَّة بشرح أحمد بن حاتم الباهليّ صاحب الأصمعيّ، برواية أبي العبَّاس ثعلب، حَقَّقَه وعَلَّقَ عليه د. عبد القدُّوس أبو صالح، مؤسَّسة الإيَّان، ط ١، ١٩٨٢ م.
- ديوان ابن الروميّ، تحقيق د. حسين نصَّار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١ م.
- ديوان سَقَط الزَّند، لأبي العلاء المعريّ، شرَّحه وضَبَطَ نصوصه د. عمر فاروق الطَّبَّاع، شركة الأرقم بن الأرقم، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.
- ديوان صفِّي الدين الحليّ (ت ٧٥٠هـ)، شرَّحه وضَبَطَ نصوصه د. عمر فاروق الطَّبَّاع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- ديوان طَرْفَة بن العَبْد، تحقيق دريَّة الخطيب وزميلها، مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق، ١٩٧٥ م.
- ديوان الطَّرمَّاح، تحقيق د. عزَّة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم بدمشق، (د.ط)، ١٩٦٨ م.
- ديوان أبي العتاهية (أشعاره وأخباره)، تحقيق د. سُكري فيصل، دار الملاح للطباعة والنَّشر، دمشق، (د.ط.ت).
- ديوان العَرَجِيّ (برواية ابن جَنِّي ت ٣٩٢هـ) شرَّحه وحَقَّقَه خضر الطَّائي ورشيد العُبَيْديّ، الشركة الإسلاميَّة للطباعة والنَّشر - بغداد، ط ١، ١٩٥٦ م.

- ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، المركز الدولي للتراث العربي - بيروت، ط ٢، (د.ت).
- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ترتيب وشرح قدري مايو، عالم الكتب - بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق د. سامي الدّهان، برعاية المعهد الفرنسي بدمشق، وطبع بيروت ١٩٤٤ م.
- ديوان الفرزدق (ت ١١٠ هـ)، جمعه وعلّق عليه عبد الله إسماعيل الصّاوي، مطبعة الصّاوي، ط ١، ١٩٣٦ م.
- ديوان مجنون ليل (قيس بن الملوّح)، جمع وتحقيق وشرّح عبد الستار أحمد فراج، دار مصر، (د.ط.ت).
- ديوان المتنبي، بشرح أبي البقاء العُكْبَرِيّ (ت ٦١٦ هـ) المسمّى بالتّبيان في شرح الديوان، ضبطه وصحّحه ووضع فهرسه، مصطفى السّقا وآخرون، دار المعرفة بيروت. (د.ط.ت)
- ديوان ابن المعتز، شرحه مجيد طراد، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١، ١٩٩٥ م.
- ديوان النّابغة الجعديّ، تحقيق عبد العزيز رباح، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ط ١، ١٩٦٤ م.
- ديوان النّابغة الذّبيانيّ، (صنعة ابن السّكّيت)، تح. د. شكري فيصل، دار الفكر بدمشق، (د.ط)، ١٩٨٦ م.
- ديوان أبي نّواس (ت ١٩٨ هـ)، تحقيق د. عمر فاروق الطّباع، دار الأرقم بن الأرقم، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.
- ديوان أبي هلال العسكريّ (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق د. جورج قنازع، مطبوعات مجمع اللغة العربية، (د.ط)، ١٩٧٩ م.
- رائق التّحلية في فائق التّورية، صنعة الوزير أبي جعفر أحمد بن زرقاؤه، تحقيق د. محمد رضوان الدّاية، منشورات دار الحكمة بدمشق، (د.ط.ت)
- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، للزّمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ.
- روائع البيان تفسير آيات الأحكام، للعلامة محمد علي الصّابونيّ، مكتبة الغزالي بدمشق، ومؤسسة مناهل العرفان - بيروت، ط ٣، ١٩٨٠ م.
- رياض الصّالحين، للإمام أبي زكريّا يحيى بن شرف النّوويّ الدّمشقيّ (ت ٦٧٦ هـ)، تحقيق عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدّقّاق، ومراجعة الشيخ شُعيب الأرناؤوط، دار الثّقافة العربيّة، دمشق، ط ١٣، منقّحة، ١٩٩٨ م.
- زاد المسير في علم التّفسير، لابن الجوزيّ (ت ٥٩٧ هـ)، المكتب الإسلاميّ، بيروت، ط ٤، ١٩٨٧ م.
- السّبعة في القراءات، لأحمد أبي بكر بن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ)، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف - مصر، ط ٢، ١٤٠٠ هـ.

- سِرُّ الفَصَاحَةِ، لابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ)، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، دار قباء بالقاهرة، ٢٠٠٣م.
- سِرُّ صناعة الإعراب، لابن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٧م.
- السُّنَنُ الكُبْرَى، لأبي عبد الرحمن النَّسَائِي (ت ٣٠٣هـ)، حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- سِرُّ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ، لِلدَّهَبِيِّ (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق الشَّيْخِ شُعَيْبِ الأرناؤوط وآخرين، ط ١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١-١٩٨٨م.
- سيكولوجية الفكاهة والضَّحْك، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، (د.ط.ت).
- شرح الصُّدُور بشرح حال الموتى والقبور، لجلال الدين السُّيُوطِي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: عبد المجيد طعمة حلبي، دار المعرفة - لبنان، ط ١، ١٩٩٦م.
- شرح القصائد العشر، للتَّبْرِيزِي (ت ٥٠٢هـ)، عُنِيتْ بِتَصْحِيحِهَا وَضَبْطِهَا وَالتَّعْلِيقِ عَلَيْهَا لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ: إدارة المطبعة المنيريَّة، ١٣٥٢هـ.
- شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع، لصفِّي الدِّينِ الحِلِّي (ت ٧٥٠هـ)، دار صادر، بيروت، تحقيق د. نسيب نشاوي، ط ٢، ١٩٩٢م.
- شرح المفصَّل، لابن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، مكتبة المتنبي بالقاهرة، (د.ط.ت).
- شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي (ت ٤٢١هـ)، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م.
- شرح ديوان جرير، تأليف محمَّد إسماعيل عبد الله الصَّاوِي، دار الأندلس، (د.ط.ت).
- شرح ديوان زهير بن أبي سُلمى، (صنعة أبي العباس ثعلب)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٤م.
- شرح شذور الدَّهَب، لابن هشام (ت ٧٦١هـ)، علَّقَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ عبد الغني الدقر، دار الكتب العربية، (د.ط.ت).

- شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، للشُّيْطِيّ (ت ٩١١هـ)، وبهامشه "حِلْيَةُ اللَّبِّ الْمَصُونُ عَلَى الْجَوْهَرِ الْمَكْنُونِ" للشيخ أحمد الدَّمَنْهُورِيِّ، دار الفكر بدمشق.
- شرح مُشْكِلُ أَيْبَاتِ أَبِي تَمَامِ الْمَفْرَدَةِ، للمرزوقيّ (ت ٤٢١هـ)، دراسة وتحقيق د. خلف رشيد نعمان، عالم الكتب - بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
- شرح مقامات الحريري، لأبي العباس الشَّريشيّ (ت ٦١٩هـ)، وَضَعَ حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي)، ط ٢، ١٩٦٥م.
- شعراء عباسيّون، جمع د. يونس أحمد السَّامرائيّ، عالم الكتب - بيروت، ط ٢، مزيدة ومُنقَّحة، ١٩٩٠م.
- الصَّاحِبِي فِي فَهْمِ اللُّغَةِ وَسُنَنِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهَا، لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، شرح وتحقيق السيّد أحمد صقر، المكتبة الفيصلية بمكة المكرمة، (د. ط. ت.).
- الصُّبْحُ الْمُنْبِي عَنْ حَيْثِيَّةِ الْمُتَنَبِّي (مطبوع بهامش شرح العكبري)، ليوسف البديعي الدمشقي (ت ١٠٧٣هـ)، المطبعة العامرة الشرفية، ط ١، ١٣٠٨هـ.
- الصُّبْحُ الْبَدِيعِي فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، د. أحمد إبراهيم موسى، دار الكتاب العربي بالقاهرة، ١٩٦٩م.
- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله البخاري (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق د. مصطفى البُغا، دار العلوم الإنسانية بدمشق، ط ٢، ١٩٩٣م.
- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القُشَيْرِي النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار عالم الكتب بالسعودية، ط ١، ١٩٩٦م.
- الصَّنَاعَتَيْنِ (الكتابة والشُّعر) لأبي هلال العسكريّ (ت بعد ٣٩٥هـ)، تحقيق محمّد علي البجّاويّ ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - صيدا، (د. ط.)، ١٩٩٨م.
- الصُّورَةُ الْفَنِيَّةُ فِي التَّرَاثِ النَّقْدِيِّ وَالْبَلَاغِيِّ عِنْدَ الْعَرَبِ، د. جابر عُصْفُور، المركز الثقافي العربي - بيروت، ط ٣، ١٩٩٢م.
- الضَّحْكُ (بحث في دلالة المضحك)، للفيلسوف الفرنسي هنري بَرُجُسُون (ت ١٩٤١م)، تعريب سامي الدروبي وعبد الله الدائم، دار العلم للملايين، ط ٣، ١٩٨٣م.
- طبقات الشعراء، لابن المعتزّ (ت ٢٩٦هـ)، تحقيق عبد السّتّار أحمد فَرّاج، دار المعارف بمصر، ط ٣، ١٩٧٦م.

- طبقات فحول الشعراء، لابن سَلَام الجَمَحِيّ (٢٣١هـ)، تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، (د.ط)، ١٩٧٤م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة بن عليّ العلويّ اليمينيّ (ت ٧٠٥هـ)، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢م.
- ظاهرة اللبس في العربية (جدل التواصل والتفاضل)، د. مهدي أسعد عرار، دار وائل للنشر.- عمان الأردن، ط ١، ٢٠٠٣م.
- الظواهر النحوية والصرفية في شعر أبي تمام، د. محمد نور رمضان يوسف، (أطروحة دكتوراه)، جامعة دمشق، العام الدراسي ٢٠١١-٢٠١٢م.
- عبقرية أبي تمام، لعبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت (د.ط)، ١٩٥١م.
- عبقرية اللغة العربية، د. عمر فروخ، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٩٨١م.
- العربية والغموض (دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى)، د. حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، ط ١، ١٩٨٨م.
- علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب (التشفير وكسر الشفرة)، د. محمد مراياتي، ود. يحيى ميرعلم، ود. حسان الطيّان، تقديم: د. شاكر الفحام، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط ١، الجزء الأول ١٩٨٧ - الجزء الثاني ١٩٩٧م.
- العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيروانيّ (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق د. النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠م.
- عيار الشعر، لابن طباطبا العلويّ (ت ٣٢٢هـ)، تح. د. عبد العزيز ناصر المانع، منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق، (د.ط)، ٢٠٠٥م.
- عيون الأخبار، لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، (د.ط)، ١٤١٨هـ.
- الغنية في أصول الدين، لأبي سعيد النيسابوري المعروف بالمتوليّ الشافعي (ت ٤٧٨هـ)، تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
- الفائق، للزخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق عليّ الجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط ٣، ١٩٧٩م.

- فَتْحُ الرَّحْمَنِ بِكَشْفِ مَا يَلْتَمِسُ فِي الْقُرْآنِ، لَزَكْرِيَا الْأَنْصَارِيِّ، (ت ٩٢٦هـ)، تحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط ١، ١٩٨٣ م.
- الْفَرْجُ بَعْدَ الشُّدَّةِ، لِلْقَاضِي أَبِي عَلِيٍّ الْمُحَسِّنِ بْنِ عَلِيٍّ التَّنُوخِيِّ (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨ م.
- فَضُّ الْخِتَامِ عَنِ التَّوْرَةِ وَالْإِسْتِخْدَامِ، لِصَلَاحِ الدِّينِ الصَّفْدِيِّ (ت ٧٦٤هـ) تحقيق د. المحمّدي عبد العزيز الحناوي، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة، ط ١، ١٩٧٩ م.
- الْفِعْلُ الْمَبْنِيُّ لِلْمَجْهُولِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، د. أيمن الشّوّاء، مكتبة ابن عطية بدمشق، ط ١، ٢٠٠٨ م.
- الْفَنُّ وَالصَّنْعَةُ فِي مَذْهَبِ أَبِي تَمَّامٍ، د. محمود الرّبداءوي، ١٩٧١ م. نسخة موجودة بمكتبة الأسد الوطنية (د. ط. ت.).
- قَانُونُ الْبَلَاغَةِ، لِأَبِي طَاهِرِ الْبَغْدَادِيِّ (ت ٥١٧هـ)، تحقيق د. محمّد محسن غياض عجيل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩ م.
- الْقُرَائِنُ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي (أطروحة دكتوراه)، د. ضياء الدين القالش، جامعة دمشق، (العام الدراسي ٢٠١٠-٢٠١١ م).
- الْقَطْعُ وَالِاتِّتِنَافُ، لِأَبِي جَعْفَرِ النَّحَّاسِ (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: د. أحمد خطّاب العمر، لصالح وزارة الأوقاف العراقية، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، (د. ت.).
- الْكَافِي فِي الْعُرُوضِ وَالْقَوَافِي، لِلْخَطِيبِ التُّبْرِيْزِيِّ (ت ٥٠٢هـ)، تح: الحسّاني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٤، ٢٠٠١ م.
- الْكَامِلُ، لِلْمَبْرَدِ (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق د. محمّد أحمد الدّالي، مؤسسة الرسالة، ط ٥، ٢٠٠٨ م.
- كِتَابُ الْأَمْثَالِ، لِابْنِ سَلَامٍ (ت ٢٢٤هـ)، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث بدمشق، ط ١، ١٩٨٠ م.
- الْكِتَابُ، لِسَيَّوِيهِ (ت ١٨٠هـ)، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، دار الجليل، بيروت، ط ١، (د. ت.).
- الْكَشَافُ عَنْ حَقَائِقِ التَّأْوِيلِ وَعَيُونِ التَّنْزِيلِ فِي وَجْهِ التَّأْوِيلِ، لِلزَّخَشَرِيِّ (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوّض، مكتبة العبيكان، ط ١، ١٩٩٨ م. (وهذه الطبعة هي المراجعة حين إطلاق اسم الكشاف في الحواشي، أمّا الطبعة الثانية فهي مُقيّدة في الحواشي).

- الكشّاف عن حقائق التّأويل وعيون التّنزيل في وجوه التّأويل، للزّحشريّ (ت ٥٣٨هـ)، ومعه في الحاشية كتاب (الانتصاف فيما تضمّنه الكشّاف من الاعتزال)، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، ٢٠٠٦م.
- الكشف عن مساوئ شعر المتنبيّ، للصّاحب بن عبّاد (ت ٣٨٥هـ)، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ط ١، ١٩٦٥م.
- الكشكول، بهاء الدّين العامليّ (ت ١٠٣١هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط ٧، ١٩٩٩م.
- الكلّيات (مُعجم في المصطلحات والفروق اللّغويّة)، للكفّويّ (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصريّ، مؤسّسة الرّسالة - بيروت.
- الكِناية والتّعريض، لأبي منصور الثعالبيّ (ت ٤٢٩هـ)، دار الكتب العلميّة - بيروت، ط ١، ١٩٨٤م.
- لسان العرب، لابن منظور (ت ٧١١هـ)، عُني بتصحيح طبعته أمين محمد عبد الوهّاب، ومحمّد الصّادق العبيديّ، ط ٣، دار إحياء الثّراث العربيّ، بيروت، (د.ت).
- اللّغة، لفندريس، تعريب: عبد الحميد الدواخليّ، ومحمد القصاص، القاهرة، ١٩٥٠م.
- المبسوط، للسّرّخسيّ (ت ٤٨٣هـ)، دار المعرفة - بيروت، (د.ط)، ١٩٩٣م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر، لضياء الدّين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق د. أحمد الحوفيّ، ود. بدويّ طبّانة، نهضة مصر للطباعة والتّوزيع والنشر بالقاهرة، (د.ط.ت).
- نّجّاز القرآن، لأبي عبّيدة مَعمر بن المثنّى (ت ٢١٠هـ)، تحقيق: محمد فواد سزّكين، مكتبة الخانجيّ - القاهرة، ١٣٨١هـ.
- مجالس ثعلب (ت ٢٩١هـ)، شرح وتحقق الأستاذ عبد السّلام هارون، دار المعارف بالقاهرة، ط ٥، ٢٠٠٦م.
- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصليّ (ت ٣٩٢هـ)، الأستاذة عليّ النجدي ناصف، وعبد الحلّيم النجار، وعبد الفتاح إسمايل شلبي - وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة بالقاهرة، ١٩٩٩م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسيّ (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلميّة - بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- المحظورات اللّغويّة (دراسة دلاليّة للمُستهجّن والمُحسّن من الألفاظ)، د. كريم زكي حسام الدّين، مكتبة الأنجلو مصريّة، ط ١، ١٩٨٥م.

- المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده المرسى (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
- المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرّفها، محمد الأنطاكي، دار الشروق العربي، بيروت، ط ٣.
- مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة - القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م.
- المدخل في فنّ التحرير الصحفيّ، لعبد اللطيف محمود حمزة (ت ١٣٩٠هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٥.
- المزهري في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨.
- مُسنَد الإمام أحمد ابن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط، ونعيم عرقسوسي، وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
- مُسنَد الإمام أحمد ابن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: الشيخين شعيب الأرنؤوط - وعادل مرشد، وآخرين، وإشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- مُشكِل إعراب القرآن، لأبي محمّد مكي بن أبي طالب الأندلسي القرطبي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ.
- مصادر الفكر في شعر أبي تمام، د. عبد الله التّطاوي، ط ٢، دمشق - دار الثقافة، ١٩٩٣م.
- المصباح (في المعاني والبان والبديع)، لبدر الدين بن مالك الشّهير بابن النّاظم (ت ٦٨٦هـ)، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- المُصنّف، لأبي بكر عبد الرزّاق اليماني الصّنعاني (ت ٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرّحمن الأعظمي، المجلس العلمي - الهند، يُطلَب من المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ.
- المطوّل (شرح تلخيص المفتاح)، لسعد الدّين التّفّتازاني (ت ٧٩٢هـ)، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٧م.
- معالم الكتابة ومغانم الإصابة، لابن شيث القرشيّ (ت ٦٢٥هـ)، نشره الخوري قسطنطين المخلصي، بيروت ١٩١٣م.

- معاني القرآن للأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، تحقيق د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ١، ١٩٩٠م.
- معاني القرآن وإعرابه، المنسوب لأبي إسحاق الرّجّاج (ت ٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م.
- معاني القرآن وإعرابه، المنسوب للرّجّاج (ت ٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت، ط ١، ١٩٨٨م.
- معاني القرآن، للقرّاء (ت ٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣م.
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، لعبد الرّحيم العبّاسيّ (ت ٩٦٣هـ)، تحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٤٧م.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطيّ (ت ٩١١هـ) تحقيق الأستاذ علي محمّد البجّاويّ، دار الفكر العربيّ، مصر، (د.ط)، ١٩٦٩-١٩٧٣م.
- معجم أسماء الأفعال في اللغة العربيّة، د. أيمن عبد الرزّاق الشّوّاء، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، ط ١، ٢٠٠٦م.
- معجم البلدان، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحمويّ (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥م.
- معجم القراءات القرآنيّة، إعداد: د. أحمد مختار عمر، ود. عبد العال سالم مكرّم، (انتشارات اسوة بإيران) (د.ط)، ١٩٩١م.
- معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط ٢، ٢٠٠٠م.
- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرّسوم، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: د. محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب - القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م.
- معرفة علوم الحديث، للإمام الحاكم أبي عبد الله محمّد بن عبد الله الحافظ النّيسابوريّ (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق لجنة إحياء التّراث في دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط ٤، ١٩٨٠م.
- مُغني اللّبيب عن كُتُب الأعراب، لابن هشام الأنصاريّ (ت ٧٦١هـ)، تحقيق د. مازن المبارك، وأ. محمّد عليّ حمّد الله، ومراجعة أ. سعيد الأفغاني، مؤسسة الصّادق، طهران، ط ٣، ١٣٧٨هـ.
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لفخر الدّين الرّازيّ (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

- مفتاح العلوم، لأبي يعقوب السَّكَاكِي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق د. عبد الحميد هنداوِي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
- المفصل في صنعة الإعراب، للزَّحَّشَرِي (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق د. علي بو ملحَم، مكتبة الهلال، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م.
- مقاييس اللُّغة، لابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق الأستاذ عبد السَّلام محمَّد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
- المُقْتَضَب، للمبرِّد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق محمد عبد الخالق عَضِيمة، عالم الكتب، الطَّبعة مُصَوَّرة عن طبعة منشورات لجنة إحياء التَّراث، (د.ط.ت).
- مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والبديع والمعاني وإعجاز القرآن، لابن النقيب (ت ٦٩٨هـ)، تحقيق د. زكريَّا سعيد علي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ١، ١٩٩٥هـ.
- المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، لشيخ الإسلام زكريَّا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ)، دار المصحف بدمشق، ط ٢، ١٩٨٥م.
- المُكْتَفَى في الوقف والابتداء (في كتاب الله عزَّ وجلَّ)، لأبي عمرو الدَّاني الأندلسي (ت ٤٤٤)، دراسة وتحقيق: د. يوسف عبد الرحمن المرعشي، مؤسسة الرِّسالة - بيروت، ط ١، ١٩٨٤م.
- الملاحن لابن دريد الأزدي (ت ٨٣٨هـ)، تحقيق د. عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة - دمشق - ط ١، ١٩٩٢م.
- من أسرار الجُمَل الاستثنائية (دراسة لُغَوِيَّة قرآنيَّة)، د. أيمن عبد الرزَّاق الشَّوَّا، دار الغوثاني للدراسات القرآنيَّة، دمشق، ط ١، ٢٠٠٦م.
- من حديث الشَّعر والنَّثر، د. طه حسين، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، ١٩٥٧م.
- منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، لأحمد بن محمَّد بن عبد الكريم الأشموني (ت أواخر القرن الحادي عشر الهجري)، دار المصحف بدمشق، (د.ط)، ١٩٨٣م.
- منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، لأحمد بن محمَّد بن عبد الكريم الأشموني (ت أواخر القرن الحادي عشر الهجري)، تحقيق: عبد الرحيم الطرهوني، دار الحديث بالقاهرة، ٢٠٠٨م.
- المنار في علوم القرآن مع مدخل في أصول التفسير ومصادره، د. محمد علي الحسن، مؤسسة الرِّسالة - بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
- المُنتَخَب من كُنَايَات الأَدَبَاء وإشارات البُلَغَاء، دار الكُتُب العلميَّة - بيروت، ط ١، ١٩٨٤م.

- المنزَع البديع في تجنيس أساليب البديع، للسجلهاسي (ت نحو ٨٠٠هـ)، تحقيق د. علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط ١، ١٩٨٠ م.
- منع جواز المجاز في المنزل للتعب والإعجاز، لمحمد الأمين بن محمد بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، (د. ط. ت.)
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ)، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ٢، ١٩٨١ م.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، للآمدي (ت ٣٧٠هـ) الجزآن (١-٢) تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر، دار المعارف بالقاهرة، ط ٤، ١٩٨٢ م، والجزآن (٣-٤) تحقيق د. عبد الله حمد المحارب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ١، ١٩٩٠ م.
- الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، دارالسلاسل - الكويت، ط ٢، ١٩٩٣ م.
- الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، لأبي عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق : علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي - القاهرة، (د. ط. ت.)
- الموطأ، للإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبوظبي - الإمارات، ط ١، ٢٠٠٤ م.
- النحو الميسر، د. محمد خير حلواني، دار المأمون للتراث بدمشق، ط ١، ١٩٩٧ م.
- نزهة النفوس ومضحك العبوس، علي بن سودون الشبغاوي (ت ٨٦٨هـ)، تحقيق د. محمود سالم، دار سعد الدين - دمشق، ط ١، ٢٠٠١ م.
- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية - بيروت]، (د. ت.).
- النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام، لابن المستوفي (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق د. خلف رشيد نعمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٨ م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، للممقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٦٨-١٩٩٧م.
 - النقد المنهجي عند العرب، د. محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة.
 - الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجل من فنون علومه، لمكي بن أبي طالب القيسي القيرواني (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ط ١، ٢٠٠٨م.
 - همزيات أبي تمام، شرح وتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون (ت ١٩٨٨م)، بيروت - دار الجليل، ط ١، ١٩٩١م.
 - الوافي في العروض والقوافي، صنعة الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق د. فخر الدين قباوة، والأستاذ عمر يحيى، الطبعة الغربية بحلب، ط ١، ١٩٧٠م.
 - الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.
 - الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٧٥هـ)، تحقيق د. محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر، (د.ط)، ١٩٦٦م.
 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان (ت ٦١٨هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٩٤م.
- المجلات:
- مجلة التراث العربي، صادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق - العدد ٦٨ - ١٩٩٧م. (مقال بعنوان: التأويل الصوفي للنص) - د. عبد الإله نبهان.
 - مجلة التراث العربي، صادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق - العدد ١٠٠ - ٢٠٠٥م. مقال بعنوان: (القاعدة النحوية في ضوء تقييدها بأمن اللبس أو خشية الوقوع فيه)، د. إبراهيم محمد عبد الله.
 - مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية- المجلد ٢٠ - العدد ٣+٤ لعام ٢٠٠٤م. مقال للدكتور إبراهيم عبد الله؛ بعنوان: (الاجتزاء ببعض الكلمة)
 - مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد ٣٣ - ١٩٥٨م - وفيه كتاب فُتيا فقيه العرب، لابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، بتحقيق د. حسين علي محفوظ.

فهرس الموضوعات

المقدمة:	٦
التأسيس النظري لمفهوم الإيهام البلاغي	٩-٥٠
أولاً: مُصطلح الإيهام البلاغي	١١
ثانياً: مُستويات الإيهام	٣٠
ثالثاً: سُبل الإيهام البلاغي	٣١
رابعاً: وظائف الإيهام البلاغي	٣٧
خامساً: ضوابط إزالة الإيهام	٤٧

الباب الأول

من مواطن الإيهام في علوم البلاغة العربية

الفصل الأول: من مواطن الإيهام في فنون البديع	٥٢-٢٢٢
تمهيد: فنون البديع وصلتها بإيهام المتلقي	٥٣
جمالية إيهام المتلقي في فنون البديع الآتية:	
حسن الابتداء وبراعة الاستهلال	٦٠
الإيهام	٦٥
الاتساع البلاغي	٧٦
الهجاء في معرض المدح	٨٧
تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه	٩٢

٩٨	الهزل الذي يُراد به الجِدّ
١٠٣	التهكم
١٠٨	التلميح
١١٢	الاستطراد
١١٨	الجَناس
١٢٣	التورية
١٣٥	الاستخدام
١٤١	التوجيه
١٤٥	الإلغاز
١٥٤	الموازنة
١٦١	التَّوهم
١٦٧	التَّجريد
١٧٤	إيهام التَّوكيد
١٧٨	إيهام التَّناسب
١٨٠	المشكلة
١٨٥	الاستدراك
١٨٩	الأسلوب الحكيم
١٩٢	القول بالموجب
١٩٥	المشاركة
١٩٨	التَّفريق
٢٠١	تجاهل العارف
٢١٠	نفي الشيء بإيجابه

٢١٥	تناسب الأطراف
٢١٩	اللف والنشر
٢٢٢	إيهام التضاد
٢٢٤-٢٧٦	الفصل الثاني: من مواطن الإيهام في علم البيان
٢٢٥	تمهيد: الصورة البلاغية وصلتها بمفهوم الإيهام
	المبحث الأول: الصورة الموهمة (بين محاكاة العالم الخارجي، ومحاكاة عالم الشعور
٢٢٧	والوجدان الداخلي)
٢٣٥	المبحث الثاني: إيهام الصورة البلاغية (التشبيه، والاستعارة، والمجاز)
٢٤٨	المبحث الثالث: دراسة تطبيقية على إيهام الكناية والتعريض
٢٧٦-٤٣٠	الفصل الثالث: من مواطن الإيهام في علم المعاني
٢٧٧	تمهيد: (النحو طريق البلاغة)
٢٨٩	المبحث الأول: الوقف والابتداء، وأثره في إيهام المتلقي أو إزالة الإيهام
٢٩٨	المطلب الأول: الوقف القبيح وأثره في إيهام المتلقي:
٣٠٢	المطلب الثاني: التجاذب (الوقف الكافي) وأثره في إثراء الدلالة:
٣٠٤	المطلب الثالث: تحقيق الوقف، وأثره في الاحتراس من إيهام السامع غير المراد
٣١٢	المبحث الثاني: عود الضمير، وأثره في إيهام المتلقي
٣٣٠	المبحث الثالث: الحذف، وأثره في إيهام المتلقي
٣٥٧	المبحث الرابع: الإنشاء الطلبي وأثره في إيهام المتلقي
٣٥٧	المطلب الأول: القسم
٣٦٣	المطلب الثاني: النهي
٣٨١	المطلب الثالث: الأمر
٣٩٦	المطلب الرابع: الاستفهام

الباب الثاني

دراسة تطبيقية لمفهوم الإيهام البلاغي في شعر أبي تمام والبحتري

مدخل إلى دراسة الإيهام البلاغي شعر الطائيين	٤٣٢-٤٤٧
أولاً - تعريف بالطائيين	٤٣٢
ثانياً - لماذا الطائيان دون غيرهما	٤٣٨
الفصل الأول: من ملامح الإيهام البديعي في شعر الطائيين	٤٤٨-٤٧٥
المبحث الأول: جمالية الإيهام البديعي في شعر الطائيين (تحليل نماذج)	٤٥٠
المبحث الثاني: جمالية الإيهام بالتجنيس في شعر الطائيين (تحليل ومقارنة)	٤٦٤
الفصل الثاني: من ملامح الإيهام بالصورة في شعر الطائيين	٤٧٦-٥٢٢
مدخل إلى إيهام الصورة في شعر الطائيين	٤٧٧
المبحث الأول: إيهام الصورة في شعر أبي تمام	٤٨٦
المبحث الثاني: إيهام الصورة في شعر البحتري	٥٠٥
الفصل الثالث: من ملامح الإيهام بأساليب المعاني في شعر الطائيين	٥٢٣-٥٤٤
المبحث الأول: إيهام الاستفهام في شعر الطائيين	٥٢٣
المطلب الأول: إيهام الاستفهام وأثره في إشعار المتلقي بانفعالات الشاعر	٥٢٣
المطلب الثاني: إيهام الاستفهام وأثره في تشكيل الصورة الفنية	٥٣١
المبحث الثاني: حرص البحتري على إزالة الإيهام	٥٣٧
الخاتمة	٥٤٥
الفهارس العامة	٥٤٧-٦١٧